

عبد الفتاح أبو مدين
من منشورات
نادي جدة
الأدبي الثقافي
في معترك الحياة

عبد الفتاح أبو مدين

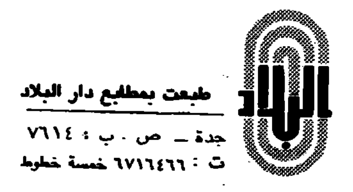
في معترك الحياة



كتاب
النادي الأدبي الثقافي



الطبعة الاولى
١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م


البلاد
طبعت بمطابع دار البلاد
جدة ـ ص . ب : ٧٦١٤
ت : ٦٧١٦٤٦٦ خمسة خطوط

بسم الله الرحمن الرحيم

النادى الأدبى الثقافى
جدة - المملكة العربية السعودية
ص .ب: ٥٩١٩

تمهيد

● ترددت كثيراً قبل الاقدام على دفع هذه الموضوعات الى المطبعة ، ليضمها هذا الكتاب ، فما كنت لأحفل بجمع هذه الفصول .. التى كتبتها فى فترات مختلفة ومتباعدة بعض الشيء ، لأنى زاهد فى ماكتبت ، لقناعتى بأن هذه الموضوعات .. كتبت بسرعة فى وقتها وانتهت فيه ، وليس فيها مايستحق أن يعنى به ، حتى يجمع ويطبع ثم يصدر فى كتاب .. يقرؤه بعض الناس ، إذا أتيح له أن يلقى بعض ماتلقى الصحف السيارة والكتب التى تستحق أو لاتستحق الاهتمام ، وانما يقبل عليها بعض الناس ، والشباب خاصة .. لأنهم يجدون فيها بعض مايبحثون عنه . أما الكتب الجادة .. فالعناية بها أقل من القليل ، لأنها تكلف جهدا ومشقة لاسبيل اليها فى حياتنا اليوم الا ماندر . وليس هذا الكتاب الذى أقدمه اليوم وفيه شتات من أفكار ، من الكتب المهمة التى أعنى ولكنى وددت أن أشير الى أن الناس واعنى الكثرة ، قد اعرضوا عن الكتب التى تكلفهم متابعة قراءتها وقتاً وجهداً ، يرون انهما أى الوقت والجهد أولى بأن يصرفا إلى اشياء أخرى تعود عليهم بفوائد .. فى نظرهم أنها اجدى عليهم من هذا التعب والجهد اللذين يذهبان فى اقتناء الكتاب الجيد وقراءته . ان السعى من اجل الحياة المادية اليوم تغلب على ماعداها ، وأن الانصراف الى سبل اللهو وقتل الوقت وتبديده بغير جهد أحد معالم حياتنا اليوم ، وأكثرها اهتماما وعناية وشغلا . حتى الدراسات أصبحت أهدافها الحصول على الشهادة وحدها .. من حصيلة منهج محدود الأهداف ، حتى اننا نرى الكثيرين من خريجى الجامعات لايحسنون اعراب جملة بلغتهم ، ولايتقنون تركيبها املائيا ولغويا .. وبعد ذلك تتجه الانظار والسعى الى العمل وتضييع أوقات الفراغ . ولست انكر على الذين يعملون .. أن يعملوا ، فذلك مطلب كريم وأساس الحياة وقوامها ، وانما أريد من الذين يعملون .. أن يدخروا من أوقات فراغهم الضائعة ساعات للقراءة فى ماينفعهم .. من مختلف

المعارف ، وقد أتيحت لهم سبل المعرفة ، فينبغى أن يغنموها ، ذلك أن الوقت يتصرم ، والذى لايأبه لاقتناص الفرص ولايحفل بها ، لاف مطالب عيشه وحدها ، وانما فى توسيع معارفه ، سيأتى عليه يوم يجد نفسه فيه متخلفا عن ركب الحضارة ، وعن غيره من الشعوب التى تدمن القراءة الجادة ، لترفع من مستواها وثقافتها ما استطاعت الى ذلك سبيلا . ليست الشهادات ، وليس السعى على الرزق هما الحد الاقصى لطموح الانسان وآماله ، وانما التحصيل العلمى هو الركيزة والشعلة التى تضىء الطريق للسائرين .. الذين يضربون فى الأرض ، ليكون لهم تاريخ وآثار واسماء ، تبقى لهم وبهم وبعدهم ، كمعالم .. شاهدة لهم ، بأنهم جدوا وكدوا ، وحملوا الراية والشعلة .. نحو حياة كريمة ، حرية بأن تقتفى ، وأن يعنى بها ، لأنها حياة جادة ، تتخلق بالمثل والقيم .. وتدعو الى مكارم الاخلاق والاسوة الحسنة ، وتنهج سبل الحق والعدل .. على بصيرة . أما الأمم الخاملة القانعة ، فليس لها نصيب من الذكر ولا من الحياة ، والحياة امتداد للأيام ، فأما أن تكون وأما أن لاتكون .. بالقياس الى الذين يعملون والذين لايعملون .

قلت اننى ترددت كثيراً قبل أن ادفع بهذه الوريقات الذابلة إلى المطبعة ، وليس مصدر ترددى .. الخوف من إعراض القارىء ، ولاخشية النقاد ، وانما عدم قناعتى ورضاى بما كتبت . وهذه الخاصية مشكلة بعض الذين يكتبون .. وأنا منهم ، بأن مثل هذه الموضوعات التى أقدم اليوم نماذج منها .. لاتستحق أن يعنى بجمعها فى كتاب ، فهى قد كتبت فى سرعة .. فى صحيفة سَيارة ، وأدت مهمتها أو لم تؤدها فى وقتها .. وانتهت معه . وانما الذى ينبغى أن يقدم الى القارىء الجاد شىء آخر ، يختلف عن هذه الموضوعات الصحافية ذات الأثر القليل ، ينبغى أن يقدم للقارىء الجيد دراسات العلماء والمفكرين .. ذوى المعارف الواسعة والاطلاع العريض ، والاحاطة بالثقافات والعلوم الكثيرة ، من ذوى التجاريب والخبرات الطويلة فى مطالعة الكتب وعرك الحياة . أن تبعة هذه المغامرة التى أقدم عليها اليوم .. بلم هذا الشتات المبعثر فى كتاب ، تقع على بعض الصديق الذين الحوا على كثيراً فى جمعه وطبعة . وقد لقيت عناء كثيراً فى

هذه المهمة الصعبة .. فهذه الموضوعات نشرت فى أوقات متفرقة ، وانتابها الكثير من التحريف والاخطاء ، ذلك أن الصحف التى تلتهم مايقدم اليها لتخرجه فى سرعة الى قرائها ، لايعنى فيها المصححون كثيراً بما يكتب الكاتبون ، والشكوى تترى كل يوم من اهمال المصححين وجهلهم ، وأنهم يؤدون وظيفة ، لايعنون كثيراً بمسؤوليتها الادبية وتبعاتها . ووظيفة التصحيح شاقة ، تتطلب صبرا وثقافة وقدرة وعلماً ، فقد يفوت على الكتاب أشياء ، وإذا كان المصحح فى مستواه الادنى وهو الغالب والأعم ، كانت الطامة على الكاتب . ودعك من سقوط جمل ، وكتابة كلمات الكاتب محرفة ، حتى أن بعض المصححين .. يحول الصواب الى خطأ .. والخطأ الى صواب بمعرفته المحدودة .

ومشكلتى وأنا الم متناثرات هذا الكتاب ، أن بعض الأفكار والمقاطع التى كنت أنقلها من كتب الآخرين وآرائهم .. حين كنت اكتب مقالاتى ، لحقها التحريف وسقطت بعض الحواصر التى كانت تطوق كلام الآخرين .. الذى إنقله واستشهد به . وحين أخذت اراجع ماكتبت وماجمعت ، اضطرتنى الحال الى البحث عن الكتب والاصول التى تحدثت عنها ونقلت منها ، فوجدت بعضها ولم أجد بعضها الآخر ، وهذه المراجعة تكلف وقتا وجهدا . وكلامى نفسه .. الذى كتبته بقلمى فى ساعات الصفاء الذهنى .. والاستعداد النفسى للكتابة ، حين انتابته الاخطاء من نشره فى الصحف ، وجدت صعوبة فى صياغة الجمل التى نشرت محرفة ، لاختلاف الحال بين وقت كتابة مقالاتى .. وبين مراجعتها السريعة بعد زمن .. يطول ويقصر ، وأصبح من العسير على أن اتذكر الجمل الساقطة فى النشر ، أو الاتيان بالكلمات التى حرفت .. للسبب نفسه الذى أشرت اليه آنفاً ، فاضطررت الى الترقيع ، وأنها لمشكلة ، حين يتسع الخرق على الراقع ، كما يقول المثل .

لقد اسقطت الكثير مما كتبت ، أما لأنه شىء مضى مع وقته ، وأما للاقلال من الحشو بموضوعات لا أرى فيها غنى . ومن طبع الانسان الذى يحاسب نفسه أن لايكابر ولايأخذ منه العناد مأخذه ، فيرى الصواب خطأ ، والخطأ صوابا ، وبذلك يتخلى عن عنفه أو عناده الذى انتهجه فى ساعة

غضب أو فورة شباب . انني لست حفيا بما أقدمت عليه ، ولست أطمع أن يكتب البقاء لهذه الوريقات التى ادركتها رياح الخريف وأعاصير الشتاء ، ولم يقدر لها أن تنبت مع نسمات الربيع واشراقة شمسه وصفاء سمائه ، والأرض ريا وأغانى الطير تملأ الفضاء مبشرة بموسم خصيب ، فتطرب الفلاح ، وتبعث فى نفسه النشوى وتتجدد فيه الحياة ، وتطول فى رؤاه الآمال العذاب والاحلام التى يود ان تمتد به ، فهى لاتغشاه كلما ارادها ، وانما تأتى اليه فجأة ، حين يرضى ، وحين يبتسم له الحظ . نحن اذن نحرث ، وللحرث مواسم وتربة وبذور وماء ، ولكننا لانزرع ، ايمانا وتسليما منا بقول خالقنا القادر سبحانه وتعالى : « افرأيتم ماتحرثون ● أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ● لو نشاء لجعلناه حطاماً فظلتم تفكهون » . والحمد لله فى الآخرة والأولى .

عبد الفتاح أبو مدين

دراسة الكتب المقدسة

بين الحين .. والحين تظهر بوارق ، تومض الى طريق الحق ، تتحدث عنه ، وتشير اليه ، وتدل عليه .

وهذا الوميض ، ليس مبعثه عاطفة ، ولكنه العلم ، لأن العلم الصحيح يقود الى الايمان .. أو على الاقل يدل على الحق وطريقه لأنها طريق واحدة .. لا ثانية لها ، ولأن الحق .. دائما أقوى واوضح مسلكا ، ولماذا نذهب بعيدا وهو اسم من اسماء الله عز وجل . والحق هو العدل ، ونحن نردد ، ونسمع بان الحق .. احق أن يتبع ، ونردد كذلك ، ونسمع ان الحق .. يعلو ، ولا يعلى عليه .

والذى يلفت النظر اليوم ، انصراف الناس .. عن القراءة والقراءة الجادة ، بوجه خاص فقد شغلتهم الحياة .. وشغلتهم وسائلها وسبلها بهذه الأدوات .. التى وجدت فى حياتهم ، مثل التلفاز ، والراديو ، والصحافة ، والسيارة ، والترحال ، وشتى وسائل قتل الوقت وإحراقه ، فيذوب النهار ، ويمضى الليل ولا نحس بهما ، بل أننا نعلن ، بأن اليوم أصبح قصيرا ، والليل كذلك ، ولا ندرك.. أننا نقضى فيهما ما نريد وما نحتاج اليه ، بهذه الوسائل .. التى أشرت اليها ، وربما غيرها مما يشغلنا فى يومنا وليلنا .

والحديث اليوم عن كتاب ، أكبر الظن أنه أثار ضجة فى العالم ، وإن لم أسمع عنها هنا . ربما .. أنه لم يصل إلينا ، أو ما وصل منه ،.. إلا نسخ لم يجد من اقتناه الوقت ليقرأه ، ثم يكتب عنه من قريب أو من بعيد ، وأكبر الظن أنه لا يشتريه .. ألا من يعنى بالقراءة المعنة ، المستأنية ، وربما أتيح له أن يتحدث عنه ، وربما انصرف عنه إلى مشاغله وهمومه .

ومكتباتنا انصرفت .. عن استيراد الكتب الجادة ، لأنها ـ أى المكتبات ـ لم تجد القارىء الذى يبحث ويعنى بهذه الكتب . والأصل أن يبحث القارىء .. عن الكتاب لا .. أن يبحث الكتاب .. عمن يقرؤه .

الكتاب .. الذى بين يدى اسمه ، ما أثبته .. فى رأس هذه الصفحة وعنوانه يجذب القارىء الجاد .. الى اقتنائه والى قراءته والاهتمام به ، ليقف .. على ما فيه ، لاسيما .. وهو يتحدث عن الكتب المقدسة ، ويربطها بالمعارف التى وصل اليها انسان اليوم .

ولابد أن من يتعرض لهذا الموضوع الذى يبدو شائكا ، يقدم رأيا .. يستحق العناية ، وإلا عد الكتاب والكاتب .. من سقط المتاع ، إذا لم يجد فيه القارىء الواعى ما يحمله العنوان .. من معان ، فيها الحق والصدق ، وسعة العلم والتجرد .. من الهوى ، ليكون قيمة علمية ، تحملها .. هذه الدراسة التى تصدى لها الكاتب ، لاسيما .. ما يتعلق بالاديان وكتبها وتسليط الضوء عليها ، مقارنة وتطبيقا .. مع المعارف التى تحققت عبر قرون طوال منذ نزول تلك الكتب المقدسة .. الى اليوم .

مؤلف الكتاب .. رجل فرنسى ، اسمه « موريس بوكاى » ، كتبه بالفرنسية وترجم الى الأنجليزية ، كما ترجم الى العربية ، وقامت بالطبعة العربية « دار المعارف » ــ بمصر . والنسخة .. التى بين يدى هى الطبعة الرابعة ورأيت اقبالا كبيرا من المتخصصين الذين يعنيهم .. هذا الأمر ، من دراسة الاديان والوقوف .. على آراء المؤلفين ، لاسيما وهو يطبق هذه الكتب المقدسة على المعارف الحديثة ويقارن .. بين هذه الكتب ، بعضها ببعض .

ودليل هذا الاهتمام قيام دار المعارف .. بطبعه أربع مرات ، ونفاده من السوق .

وربما وجد المؤلف محاربة .. من غير المسلمين لآرائه الجريئة ، التى أبداها وهو يدرس ويقارن بين هذه الكتب ، ويذكر التحريف والتبديل الذى طرأ على التوراة والانجيل ، ويذكر كذلك فى مقارنة ودراسة الاختلاف بين نسخ الانجيل الأربع .

أما القرآن فانه يقف منه موقف الاجلال ، ويعترف .. أنه لم ينله ما نال التوراة والانجيل من تحريف وتبديل وهو لا يعلن رأيه .. إلا من خلال دراسة ممعنة ، ويطبق ما وصل اليه فهمه والمعارف الحديثة فى حدود .. ما وصل اليه عقل الانسان من فهم القرآن ومعانيه .

ويعلن المؤلف أنه قرأ ترجمات لمعانى القرآن ولكنه لم يصل بها .. الى ما يريد إدراكه وفهمه ، لذلك اهتم بدراسة اللغة العربية ، ثم قام بتأليف كتابه .. الذى أكتب عنه اليوم ، ويفند فى دراسته المزاعم والاهواء ويردها .. على اصحابها سواء فى التوراة ، أو الانجيل أو القرآن الكريم ، وما نسب الى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم .. من بهتان .

ونحن المسلمين ندرك .. من قراءتنا لكتابنا العزيز ما كان يعلنه الكفار واعداء الاسلام .. من ترهات واباطيل يلصقونها برسول الاسلام صلى الله عليه وسلم ، ويلصقونها بالقرآن الكريم .. الوحى المنزل عليه .

فقد قالوا كما ينبئنا القرآن بأن هذا الكتاب « أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة واصيلا » ويرد عليهم القرآن ، بقول الله عز وجل : « قل انزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض » .

ونحن المسلمين نؤمن .. كما يعلمنا القرآن وكما أمرنا بالكتب السماوية .. التى انزلت على الرسل ، ولا نفرق بين رسل الله ، ونؤمن بالملائكة ، ونؤمن قبل ذلك .. بالله الخالق عز وجل « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحد من رسله » .

غير أن اعداء الاسلام لا يؤمنون .. بما نؤمن به ، لذلك .. كانت تلك الهوة التى تفصل بيننا وبينهم ، هم قد انشقوا حتى اختلفوا .. على انبيائهم حتى القتل ، أما المسلمون فقد التزاموا طريق الهدى ، وتمسكوا بوحى السماء واتبعوا الرسول كما أمرهم ربهم بقوله « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله » .

يقول المؤلف فى المقدمة : « وان اعتبارات .. على المعطيات الموضوعية ، لتاريخ الأديان يوجب وضع العهد القديم .. والاناجيل والقرآن على مستوى واحد ، من حيث أنها مجموعات للوحى المكتوب . غير أن هذا الموقف .. الذى يقول به المسلمون مبدئيا هو نفس الموقف .. الذى يقبله مؤمنو بلادنا الغربية .. التى تنتشر بها المؤثرات اليهودية المسيحية والتى ترفض إعطاء القرآن صفة الكتاب المنزل » .

الى أن يقول : « فكتاب اليهود المقدس .. هو التوراة وتختلف التوراة عن « العهد القديم المسيحى » .. لأن هذا الأخير .. قد أضاف عدة أسفار لم

تكن موجودة بالعبرية » ثم يقول « لكن اليهودية لا تعترف بأى وحى جاء بعدها » ويقول كذلك « وهكذا .. فان المسيحية قد اعتمدت التوراة العبرية ، ولكنها زادت عليها بعض الاضافات » . ويضيف : « غير أن المسيحية .. لم تقبل كل ما انتشر من كتابات .. تستهدف تعريف الناس برسالة عيسى » عليه السلام .

أريد أن أقول ، وأنا أسرد أقوال المؤلف ، ان المجال لا يحتمل التعليق ، ثم أن هذه الأمور .. من البداهة لدينا فى ادراكها ، لكن ما يدفع الى التعليق أو التعرض لهذا الكتاب بالقراءة والدراسة أن كاتبه رجل غربى ، هذه هى الأهمية والقيمة للرأى .. الذى يلتزم الموضوعية فى دراسة ومقارنة ، والتعرض .. لأدق الأمور حساسية .

ونجد المؤلف .. يقول فى مقدمة كتابه : « ولذلك قامت الكنيسة باجراءات حذف هامة جدا .. لعدد كبير من الأسفار التى كتبت ، لتعريف الناس بحياة المسيح ، وهكذا .. فان الكنيسة لم تحتفظ من العهد الجديد إلا بعدد محدود من الكتابات ، وكان من أهمها .. الاناجيل الأربعة المعترف بها كنسيا ، غير أن المسيحية بدورها .. لا تعترف بأى وحى جاء بعد المسيح وحوارييه ولذلك فهى تستبعد القرآن » .

ألاحظ ، وأنا أمر بالترجمة العربية ركاكة فى الجمل وترابطها ، مما يدل .. على أن الترجمة ليست فى مستوى قيمة هذا الكتاب الجيد .

ويمضى المؤلف فى القول : « أما القرآن وقد أتى .. بعد المسيح بقرون ستة ، فانه يتناول معطيات عديدة جاءت فى التوراة العبرية والاناجيل ولذلك فهو يذكر التوراة والانجيل كثيرا ، والقرآن يوصى كل مسلم .. بالايمان بالكتب السابقة عليه : « يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى انزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيدا » الآية ١٣٦ من سورة النساء ، وقد جاء بها المؤلف .. مستشهدا وسترى أنه يستشهد بالقرآن فى مواقف كثيرة ، كما يأتى بفقرات من التوراة والاناجيل . ونلاحظ أنه يذكر الانجيل أحيانا مفردا وأحيانا جمعا .

ويقول : « والواقع .. أننا ملزمون بملاحظة ، أن المعطيات الخاصة بالاسلام .. التى ذكرناها .. مجهولة عموما فى بلادنا الغربية ، ولا يدهشنا ذلك .. اذا تذكرنا الطريقة .. التى اتبعت فى تثقيف الاجيال الكثيرة فيما يتعلق بالقضايا الدينية .. لدى الانسان وكيف فرض عليهم الجهل .. فى كل ما يمس الاسلام » الى ان يقول :

« ولنضف .. أن كثيرا من معاصرينا المثقفين .. يهتمون بالجوانب الفلسفية والاجتماعية والسياسية .. فى الاسلام ، دون أن يتساءلوا .. عن التنزيل الاسلامى .. بصورة خاصة ، كما كان يجب عليهم .. ان يفعلوه . ويرون من البديهيات .. أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد اعتمد .. على ما سبقه ، وذلك بقصد استبعاد .. قضية الوحى منذ البدء » .

« وزيادة على ذلك ، فهناك بعض اوساط مسيحية .. تحتقر المسلمين . ولقد خبرت هذا حين .. حاولت اقامة حوار من أجل دراسة مقارنة .. حول عدد من الاخبار المذكورة فى القرآن والتوراة معا .. فى موضوع واحد ، ولاحظت أن هناك رفضا باتا .. للنظر بعين الاعتبار ولو لمجرد التأمل فيما يحتويه القرآن » .

هكذا .. يسرد المؤلف هذه المواقف ، فى تجرد وحرية تعبير ، ويعقب بعد ذلك مشيرا الى أن ثمة تحولا — على أعلى مستوى فى العالم المسيحى — كما يشير .. الى الوثيقة التى طبعتها سكرتارية الفاتيكان لشؤون غير المسيحيين إثر مجتمع الفاتيكان الثانى بعنوان « توجيهات لاقامة حوار .. بين المسيحيين والمسلمين » ، وطبعت للمرة الثالثة .. فى عام ١٩٧٠م » تشهد بعمق التحول فى المواقف الرسمية ، فقد دعت وثيقة الفاتيكان .. الى استبعاد الصورة التى يصور المسيحيون المسلمين عليها — والكلام للمؤلف — « تلك الصورة البالية .. التى ورثنا الماضى إياها أو شوهتها الافتراءات .. والاحكام المسبقة » ثم اهتمت الوثيقة « بالاعتراف بمظالم الماضى .. التى ارتكبها الغرب ذو التربية المسيحية .. فى حق المسلمين » .. والوثيقة تنتقد أيضا مفاهيم المسيحيين الخاطئة .. عن الحتمية الاسلامية وحرفية الاسلام وتعصبه » .

ويشير المؤلف .. الى ما يسميه تقاربا بين الهيئة البابوية والاسلام فى لقاءات ، ويعقب بأن « قلة قليلة ، هى التى عرفت .. هذه الاحداث الهامة التى حدثت بالعالم الغربى ، على الرغم .. من كثرة وسائل النشر والاعلام من

صحافة وإذاعة وتليفزيون » .

ويشير الى زيارة الكردينال « بنيوديلى » .. رئيس سكرتارية الفاتيكان لشئون غير المسيحيين الى جلالة المرحوم الملك فيصل بن عبد العزيز فى ٢٤ من أبريل ١٩٧٤م وأن الصحف الغربية لم تهتم كثيرا بهذه الزيارة ، ولم تعلق جريدة « لموند » الفرنسية على تلك الزيارة .. إلا بسطور قلائل فى عددها الصادر يوم ٢٥ من أبريل ١٩٧٤م وان الكردينال قد سلم رسالة الى الملك فيصل .. من البابا بولس السادس ، مدفوعا الى ذلك بايمانه العميق .. بوحدة العالمين الاسلامى والمسيحى .. اللذين يعبدان إلها واحداً » .

كما يشير الكاتب الى استقبال المجلس المكسونى الأعلى للكنائس بجنيف وغبطة الاسقف « الشنجر » اسقف « ستراسبورج » .. لكبار علماء المملكة العربية السعودية .

ويقول الكاتب : « فكثير من المسيحيين الذين تربوا فى ظل روح عدائية .. صريحة ، الأمر الذى رثت له الوثيقة .. المذكورة أعلاه ، هم مبدئيا اعداء لكل تأمل .. فى الاسلام ، وكذلك فانهم يظلون فى جهالة لحقيقة الاسلام ، وبالتالى .. فان مفاهيمهم عن الاسلام هى مفاهيم مغلوطة .. لاشك فيها » .

ويدعو المؤلف دعوة أو هو يأمل ، ولا أعتقد أنه يجد تجاوبا .. من اليهود خاصة ، ومن المسيحيين المتعصبين ، فهو يقول : « ونظرا لما يتهدد الاديان الثلاثة من طغيان المادية فى هذه الأيام ، أفلا تكون هذه الأديان .. بحكم ذلك جبهة واحدة » ؟

أستطيع القول بأن الأديان يمكن أن تكون جبهة واحدة فى وجه الشر والفساد ، لأنها تدعو فى جوهرها .. بدعوة واحدة ، والاسلام .. أحد هذه الأديان السماوية ، يدعو الى الايمان والخير ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، واذا كان أتباع اليهودية والمسيحية لا يعترفون بالاسلام ولا برسوله ، فكيف .. يستجيبون الى القيم ومعانيها ، لاسيما وان كتبهم التى بين أيديهم اليوم قد حرفت ، وبدلت ، وغيرت ، واختلفت .. حتى فيما بينها ، فكيف .. يسلك أنصار اليهودية والمسيحية المنهج القويم وهم يرون الاسلام وأتباعه .. أعداء لهم ؟ واذا كان بعض رجال الكنائس يسعون الى شىء من تقارب ، فهل الشعوب اليهودية والمسيحية تسمع لهم ؟.. وهل هى تحترم الدين الاسلامى

وكتابه ، كما يؤمن المسلمون بالتوراة الذى انزل على موسى عليه السلام ، وبالانجيل .. الذى انزل على عيسى عليه السلام ، وبكل الكتب المنزلة من عند الله على رسله ؟

ان الغرب .. صحا اليوم وفى ظل معارفه واكثرها مادى صرف ، وفلسفى منحرف وملحد ، ليجد نفسه فى ضياع لأنه بغير معتقد ، فاذا جنح .. الى طريق الهدى طريق الايمان بالله ورسله ، فانه .. سيجد الانقاذ من هذا الضياع .. الذى هو فيه ، وإلا .. فهو فى ضلال مبين ، فلا تفيده معارفه لأنها لم تهده إلى الخير .. ولم ينفعه علمه ، فهم كما يقول القرآن « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » .

ويمضى المؤلف ، موريس بوكاى فى مقدمة كتابه قائلا :

« وإننا لنأسف حقا ، لذلك الموقف الذى يهدف .. الى تبرير الاحتفاظ فى نصوص التوراة والانجيل ، ببعض المقاطع الباطلة ، خلافا لكل منطق . إن ذلك « موقف يسىء كثيرا » الى الايمان بالله لدى بعض العقول المثقفة » .

وفى حديث المؤلف عن الاناجيل يقول :

« وهنا .. يجب أن تتوقف المقارنة ، وذلك .. لأن النقاش اذا كان قد دار ومازال يدور حول الاناجيل المتعددة ، فان الكنيسة قد حسمت منذ قرونها الأولى وبشكل نهائى بين الأناجيل المتعددة وأعلنت رسميا أربعة منها فقط برغم التناقضات العديدة فيما بين هذه الأناجيل فى كثير من النقاط ، وأصدرت الأمر باخفاء الأناجيل الأخرى ، ومن هنا .. جاء اسم « الأناجيل المزورة » .

« وهناك فرق آخر جوهرى بين المسيحية والاسلام فيما يتعلق بالكتب المقدسة ، ونعنى بذلك .. فقدان نصوص الوحى الثابت لدى المسيحية ، فى حين .. أن الاسلام لديه القرآن الذى هو وحى منزل وثابت معا » .

وبعد أن يشير الى حفظ القرآن تدوينا وفى صدور المسلمين كما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنا أضيف الى قوله ، قول الله تبارك وتعالى « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » .

* « أما الكتاب المسيحى المقدس ، فانه يختلف بشكل بين عما حدث بالنسبة للاسلام ، فالانجيل .. يعتمد على شهادات بشرية متعددة وغير مباشرة ، وأننا لا نملك مثلا .. أى شهادة لشاهد عيان لحياة عيسى ، وهذا خلافا لما يتصوره

الكثير من المسيحيين ، وهكذا إذن طرحت مشكلة صحة نصوص الوحى الاسلامى » .

ويبدأ المؤلف .. فى تقديم الشواهد والمقارنات فيقول :

« وان الاسلام .. قد اعتبر دائما كما فعل القديس أوغسطين بالنسبة للتوراة ، أن هناك اتفاقا .. بين معطيات الكتاب المقدس والواقع العلمى .. وان دراسة نص القرآن فى العصر الحديث لم تكشف عن الحاجة .. الى اعادة النظر فى هذا ، وسوف نرى فيما بعد أن القرآن يثير وقائع ذات صفة علمية ، وهى وقائع كثيرة جدا ، خلافا لقلتها فى التوراة » .. الى أن يقول : « وكثرة الموضوعات ذات السمة العلمية فى القرآن لا يتناقض موضوع ما .. من مواضيع القرآن العلمية مع وجهة النظر العلمية ، وتلك هى النتيجة الأساسية التى تخرج بها دراستنا » .

ويقول بعد ذلك ، عن القرآن .. والأناجيل :

« لقد قمت أولا بدراسة القرآن الكريم وذلك دون أى فكر مسبق ، وبموضوعية تامة ، باحثا عن درجة اتفاق .. نص القرآن ومعطيات العلم الحديث وكنت أعرف قبل هذه الدراسة وعن طريق الترجمات أن القرآن .. يذكر أنواعا كثيرة من الظاهرات الطبيعية ، ولكن معرفتى كانت وجيزة ، وبفضل الدراسة الواعية .. للنص العربى استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها ، أن القرآن .. لا يحتوى على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم فى العصر الحديث » .

« وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأناجيل . أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة .. الى الذهاب الى أبعد من الكتاب الأول أى سفر التكوين ، فقد وجدت مقولات .. لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخا .. فى عصرنا » .

« وأما بالنسبة للأناجيل فما تكاد تفتح الصفحة الأولى منها حتى نجد أنفسنا دفعة واحدة فى مواجهة مشكلة خطيرة ، ونعنى بها .. شجرة انساب المسيح ، وذلك .. أن نص انجيل متى يناقض بشكل جلى انجيل لوقا ، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمرا لا يتفق مع المعارف الحديثة ، يقدم الانسان على الأرض » .

« غير أن وجود هذه الأمور المتناقضة وتلك التى لا يحتملها التصديق ، وتلك الأخرى التى لا تتفق والعلم ، لا يبدو لى .. انها تستطيع أن تضعف الايمان بالله ، ولا تقع المسئولية إلا على البشر ، ولا يستطيع أحد أن يقول : كيف كانت النصوص الأصلية ؟ وما نصيب الخيال والهوى .. فى عملية تحريرها ؟ أو ما نصيب التحريف المقصود .. من قبل كتبة هذه النصوص ؟ أو ما نصيب التعديلات .. غير الواعية التى ادخلت على الكتب المقدسة ؟ . وان ما يصدمنا حقا .. فى أيامنا هذه أن نرى المتخصصين فى دراسة النصوص يتجاهلون التناقض والتعارض مع الحقائق العلمية الثابتة ، أو يكشفون عن بعض نقاط الضعف ، ليحاولوا بعد ذلك التستر عليها ، مستعينين فى ذلك ببهلوانيات جدلية . وسنقدم فى هذا الكتاب أمثلة لاستخدام بعض كبار المفسرين .. لصيغ براقة دفاعا عن انجيل متى ويوحنا ومدحا لهما . وأن استخدام هذه الوسائل .. للتستر على تناقض أو على أمر بعيد التصديق مما يسمونه صعوبة استحياء ، قد كان ناجحا فى كثير من الاحيان ، وهذا ما يفسر لنا كيف أن كثيرا من المسيحيين ظلوا يجهلون نقاط الضعف الخطيرة .. فى كثير من المقاطع فى العهد القديم ، وفى الاناجيل » .

عن كتابنا العزيز الذى قال المؤلف أنه لا يحتوى على أية مقولة قابلة للنقد .. من وجهة نظر العلم فى العصر الحديث ، نقول : أن رب العزة قال فى مادة فيه : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » .

وفى نهاية .. مقدمة هذا الكتاب ، يقول المؤلف :

« ولا عجب فى هذا .. إذا عرفنا أن الاسلام .. قد اعتبر دائما أن الدين والعلم توأمان متلازمان ، فمنذ البدء كانت العناية بالعلم جزءا لا يتجزأ من الواجبات .. التى أمر بها الاسلام . وأن تطبيق هذا الأمر هو الذى أدى .. الى ذلك الازدهار العظيم للعلوم فى عصر الحضارة الاسلامية ، تلك التى اقتات منها الغرب نفسه قبل عصر النهضة فى أوروبا » .

وقبل .. أن أقول الى لقاء ، إذا شاء الله ، فى وقفات أخرى ، مع هذا الكتاب ، أتمنى .. أن يتواجد هذا الكتاب فى أيدى الكثيرين منا ، وحبذا لو تقوم الأندية الأدبية أو غيرها بطبعه .. بعد أخذ الاذن من الناشر ، أو تشترى

منه كميات توزع .. فى الجامعات والمكتبات العامة ليقرأ فان الاطلاع عليه .. شىء مهم للدارس الواعى ، لادراك جلية الحقائق .. لمن لا يدركها ، أو لم يدركها من قبل ..

القرآن والتوراة والإنجيل والعلم

نبدأ اليوم الحديث عن التوراة ، وأنا اطالع كتاب .. الأستاذ ــ موريس بوكاى : « دراسة الكتب المقدسة » ، فى ضوء متسع ... فى مساحة الرقعة التى أكتبها كل أسبوع وهى هذه الصفحة من هذه الصحيفة وقد فرغت فى الأسبوع الماضى من مقدمة هذا المؤلف ونقلت منها فقرات مما أورده المؤلف ونصل اليوم ... الى « اسفار العهد القديم » .

بعنوان لمحة عامة ــ يقول المؤلف : « كم من قراء العهد القديم .. الذين قد يطرح عليهم .. هذا السؤال ولن يجيبوا الا بترديد ماقرأوا فى مقدمة كتابهم العهد القديم ، كم من هؤلاء القراء سيردد أن مؤلف كل هذه الكتب .. هو الرب برغم أنها كتبت ... بأقلام بشر .. ألهمهم الروح القدوس » .

ثم يقول المؤلف : « فى هذه اللمحة ومنذ عهد قريب قام آخر مجمع للفاتيكان .. الثانى ــ ١٩٦٢ ــ ١٩٦٥ ــ بعد كثير من الرسائل البابوية بنشر نص ... عن التنزيل الالهى وهو نص ذو أهمية كبيرة .. عمل المجمع طيلة ثلاث سنوات لاعداده وقد تم هذا النص وسط صعوبات جمة وتجد الغالبية من قراء الكتاب المقدس هذه المعلومات المطمئنة على رأس الطبعات الحديثة وتكتفى بالضمانات التى أعطتها الكنيسة .. عبر القرون ولم يرد بذهن هؤلاء القراء .. أن مسألة الصحة هذه أمر قابل للنقاش » ثم يقول بعد ذلك ولكن اذا حدث ورجع القارىء الى الملفات التى كتبها بعض رجال الدين للخاصة وليس لعامة الجمهور فسيكتشف أن مسألة أسفار الكتاب المقدس مسألة أكثر تعقيدا مما كان يظن بداءة ، وإذا استوضح .. طبعة الكتاب المقدس الحديثة التى ترجمت الى الفرنسية تحت اشراف رئاسة مدرسة الكتاب المقدس .. بالقدس فانه سيكتشف ، أن نبرة الحديث .. مختلفة جدا وسيدرك أن العهد القديم كالعهد الجديد يثير مشاكل .. لايخفى المفسرون عناصرها .. التى تسبب النزاع »

ويشير المؤلف الى ما أعلنه أدموند جاكوب – : « إلى أنه فى البدء ... لم يكن هناك نص واحد فقط ففى القرن الثالث .. قبل الميلاد تقريبا كان هناك على الأقل ثلاث مدونات .. للنص العبرى للتوراة »

ثم يقول موريس بوكاى : « ولو كانت .. هذه المدونات الثلاث .. موجودة الآن لأمكن .. إقامة المقارنات للوصول ربما .. إلى رأى عما كان عليه النص الأصلى ولكن يشاء سوء الحظ الا تكون لدينا .. أقل فكرة عنه ، إنه أقدم نص عبرى للتوراة يرجع عهده الى القرن التاسع .. بعد الميلاد »

ويشير المؤلف .. إلى : « أن الاختلاف .. بين الكنائس المسيحية حول مفاهيم الكتب المقدسة كان من شأنه أن لم تقبل .. كنائس نفس المذهب نفس الأسفار بالتحديد كما أن ليس لها .. حتى الآن رأى واحد .. فى الترجمة حتى فى نفس اللغة » ثم يقول : « بهذا تتضح ضخامة ما أضافه الانسان .. إلى العهد القديم » .

أسفار العهد القديم

وينتقل المؤلف .. من اللمحة العامة الى .. أسفار العهد القديم ، فيقول : « يتكون العهد القديم .. من مجموعة أسفار ، لاتتساوى فى الطول ، وتختلف فى النوع ، كتبت هذه الأسفار .. على مدى يربو على تسعة قرون ، وبلغات مختلفة ، واعتمادا .. على التراث المنقول شفويا . وقد صممت واكملت .. أكثرية هذه الأسفار ، بسبب أحداث حدثت ، أو بسبب .. ضرورات خاصة ، وفى عصور متباعدة أحيانا » .

ويتحدث المؤلف .. عن نفى اليهود الى بابل ، ثم عن فترة كتابة الأسفار .. قبل الميلاد ثم يقول : « لأن كتب العهد القديم .. لم تتخذ هيئتها الأولى .. إلا قبل قرون من ميلاد المسيح ، ولم تكتسب شكلها النهائى .. الا فى القرن الأول بعد المسيح ، كما يرى الكثيرون ، ولقد دونت وأكملت وروجعت .. الأسفار التى يتكون منها ، فيما بين القرن العاشر والقرن الأول .. قبل الميلاد « وليس .. هذا مطلقا وجهة نظر شخصية .. نعطيها عن تاريخ تحرير هذه

الأسفار ، فالمعطيات الجوهرية .. لهذه اللمحة التاريخية مستقاة .. من مقال التوراة ، بدائرة معارف ـ أونيبرساليس ـ .. للكاتب ج . ب . ساندروز ، الأستاذ بكليات الدومنيكان .. بسولشوار . ولكى تفهم .. ما العهد القديم ؟ يجب أن تكون هذه المعلومات .. حاضرة فى أذهاننا ، وهى معلومات .. أثبتها متخصصون على درجة عالية .. من الكفاءة ، إن الوحى .. يختلط بكلَ هذه الكتابات ، ولكننا .. لانملك اليوم الا النصوص التى خلفها لنا الكتاب الذين عالجوا النصوص .. على سجيتهم ، وحسب الظروف .. التى عاشوها ، والضرورات .. التى كان عليهم مواجهتها » .

ويقول المؤلف بعد ذلك : « وعندما نقارن .. هذه المعطيات الموضوعية .. بتلك التى تكشف .. عنها مقدمات .. تسوق الأمور بشكل مختلف ، فهى تسكت .. عن الأمور الأساسية الخاصة .. بتدوين الكتب ، كما أنها تحتفظ بغموض يضل .. القارىء وتقلل من شأن أمور أخرى إلى درجة .. أنها تعطى فكرة خاطئة .. عن الواقع الذى حدث فعلا . وهكذا تشوه مقدمات كثيرة .. من الكتب المقدسة .. على الحقيقة . بل إذا كانت هناك كتب قد أصابها التعديل .. برمتها ، وعدة مرات ـ مثلما حدث لأسفار موسى الخمسة ـ يكتفى كتاب هذه المقدمات إلى أن تفاصيل اضيفت .. بعد تحرير النص ، بعضهم .. يزج بمناقشات تخص فقرة .. عديمة الأهمية فى هذا السفر .. أو ذاك ، فيسكتون عن أمور حيوية جدا ، تستحق دراسات طويلة . وإنه لما يؤسف له حقا ، أن يحتفظ لعامة القراء .. بمعلومات عن التوراة .. يمسها الخطأ إلى هذا الحد »

وبعنوان « التوراة .. أو أسفار موسى الخمسة » يقول المؤلف : « وظلت اليهودية .. والمسيحية ، لقرون طويلة .. تعتبران .. أن موسى نفسه ، هو كاتب التوراة »

ويذكر المؤلف ، أنه ابتداء من القرن الأول .. قبل الميلاد « كان هناك دفاع .. عن الرأى القائل بأن موسى قد كتب الأسفار الخمسة » ، ثم يقول : « الواقع .. أن بولس فى رسالته .. إلى أهل رومية (الاصحاح العاشر ـ الآية ٥) لأن موسى يكتب فى البر ـ المقصود هنا العدل ـ من الناموس ، وهو بهذا يذكر عبارة .. من سفر اللاويين ، أما يوحنا فانه يجعل المسيح يقول .. تلك العبارة : « لأنتم لو كنتم ترون موسى .. لكنتم تصدقوننى ، لأنه هو كتب عنى

فان كنتم .. لستم تصدقون ماكتب فكيف تصدقون كلامى » وانجيل يوحنا الاصحاح الخامس ٤٦ ــ ٤٧ المقصود هنا .. هو فعل الكتابة ، كما هو واضح . وهذا تأكيد مغلوط تماما ، يضعه يوحنا على لسان المسيح » .

ويعلق المؤلف بقوله : « وبهذا يتضح .. تكون أسفار موسى الخمسة ، من أقوال موروثة مختلفة جمعها بشكل يقل، أو يزيد حذقا محررون وضعوا تارة ماجمعوا جنبا إلى جنب ، وطوراً .. غيروا من شكل هذه الروايات بهدف إيجاد وحدة مركبة ، تاركين للعين أموراً .. غير معقولة ، وأخرى متنافرة . كان من شأنها أن قادت المحدثين .. إلى البحث الموضوعى .. عن المصادر . وبعض كتاب .. أسفار موسى الخمسة ، على مستوى نقد النصوص .. أكثر الأمثلة وضوحاً ، عن التعديلات .. التى قام بها البشر ، فى فترات مختلفة .. من تاريخ الشعب اليهودى ، كما يعطى .. أمثلة جلية عن تعديلات .. التراث الشفهى والنصوص .. التى تلقتها الأجيال السابقة » .

ويشير المؤلف إلى كتاب صمويل ، وكتب أخرى فيقول : إنها مجموعة من السير تخص صمويل ، وقيمتها التاريخية .. مشكوك فيها ، ومن وجهة النظر هذه يجد أ . جاكوب فى هذه الكتب أخطاء متعددة ، فالحديث الواحد له روايات مزدوجة ، وحتى ثلاثية . ثم يقول : « أن الاصحاحين .. الأول والثانى .. من أخبار الأيام ، وكتب عزرا .. ونحميا ، تنتمى إلى كاتب واحد ، اسمه القصاص .. الذى عاش فى نهاية القرن الرابع .. قبل الميلاد ، وهو يتناول من جديد التاريخ برمته منذ الخلق .. وحتى ذلك العصر ، بالرغم .. أن الانساب عنده تتوقف عند داود » .

ويعقب المؤلف .. على بعض الأحداث فيقول : وليس لهذا الأمر .. أى مصدر فى أى كتاب من كتب التوراة أو خارجها ، وذلك .. عن بعض ماجاء فى أخبار الأيام ، الاصحاح الثانى ١١/٣٣ » ثم يقول : « الواقع أن هذه تحتوى على حكايات اخلاقية النزعة محشوة بالأخطاء التاريخية وبأمور مستبعدة تاريخياً . إذن فمجموعة الكتب .. المسماة بالتاريخية ، شديدة التباين ، والتاريخ فيها .. معالج بشكل علمى ، بمثل .. ماهو معالج بشكل وهمى » .

وفى عنوان جانبى هو «كتب الشعر والحكمة » يقول المؤلف : « إن المسيحية .. كانت أولا يهودية ــ مسيحية ، والتى درسها جيداً ــ كما سنرى

ذلك .. كتاب محدثون ، مثل الكردينال دانيلو ، قد تلقت بشكل طبيعى جداً .. ميراث العهد القديم ، الذى ارتبطت به وثيقا .. كتاب الاناجيل ، وذلك قبل ان يجرى عليها التحول الذى حدث بتأثير بولس . ولكن إذا كان تطهير الاناجيل قد تم باستبعاد الاناجيل المزورة ، فان المسئولين .. لم يروا ضرورة القيام بنفس الفرز ، بالنسبة .. إلى العهد القديم وقبلوا مايحتويه كلية .. تقريباً »

« هل هناك .. من يجرؤ على الاعتراض .. على هذا المجموع المتنافر .. حتى القرون الوسطى وحتى بداية العصور الحديثة ، ظهـرت بعض الانتقادات ، ولكن الكنائس .. نجحت دائما فى فرض سلطتها » .

العهد القديم والعلم الحديث

بهذا العنوان ، يدون المؤلف . ملاحظاته ، ويأتى بهذا المثال المعبر « فى سفر التكوين ــ الاصحاح ٦ الآية ٣ ــ يقرر الله .. قبل الطوفان بقليل .. أن يحدد عمر الانسان بمائة وعشرين سنة ، تقول التوراة « .. وتكون ايامه مائة وعشرين سنة » ، ومع ذلك .. يلاحظ فيما بعد . فى نفس سفر التكوين الاصحاح ١١ ، الآية من ١٠ إلى ٣٢ أن حياة انسال نوح العشرة ، قد دامت من ١٤٨ إلى ٦٠٠ سنة ، إن التناقض بين هاتين العبارتين واضح وتعليله بسيط ، فالعبارة الأولى التكوين ، إصحاح ٦ الآية ٣ ــ نص يهودى ، يعود تاريخه .. إلى القرن العاشر قبل الميلاد أما العبارة الثانية فى سفر التكوين ــ الاصحاح ١١ ، الآيات .. من ١٠ إلى ٣٢ ــ فهى من نص قريب تاريخياً ــ القرن السادس .. قبل الميلاد . فى سفر التكوين .. توجد أكثر المتناقضات وضوحاً .. مع العلم الحديث ، وتخص هذه المتناقضات ثلاث نقاط جوهرية :

١ ــ خلق العالم .. ومراحله

٢ ــ تاريخ خلق العالم ، وتاريخ ظهور الانسان .. على الأرض .

٣ ــ رواية الطوفان .

* ويعقب المؤلف بقوله : « فلايمكن اعتبار .. أن روايات التوراة الثلاث تصف للانسان أموراً .. تتفق مع الحقيقة . وإذا أردنا أن نكون موضوعيين ، فلابد أن نقبل أن هذه النصوص التى وصلت الينا لاتمثل تعبير الحقيقة » ثم

يقول : « وعندما نعرف .. أن مؤلفاً مثل سفر التكوين .. قد عدل على الأقل مرتين ، وهذا على مدى ثلاثة قرون فكيف ندهش حين نجد .. فيه أموراً غير معقولة ، أو روايات .. يستحيل أن تتفق مع واقع الأشياء ، أى شىء إذن أكثر منطقية من الاكتفاء .. بهذا التفسير لأخطاء نصوص التوراة وأنـــه من المؤسف .. ألا يأخذ بهذا التفسير عامة المعلقين ، مسيحيين كانوا أو يهود ، ومع ذلك .. فالحجج التى يدفعون بها ، تستحق الالتفات .» .

مواقف الكتاب المسيحيين

* فصل جديد فى الكتاب بعنوان ـ مواقف المسيحيين .. تجاه الأخطاء العلمية .. فى نصوص العهد القديم ودراستها النقدية . ـ

يبدأ المؤلف .. هذا الفصل الجديد بقوله : « يثير الدهشة حقاً نوع ردود الافعال لدى المعلقين المسيحيين ازاء الكم المتراكم .. من الأخطاء والمتناقضات والأمور غير المعقولة بعضهم يقبل بعض الأخطاء .. ولايتردد فى مواجهة المسائل الشائكة .. فيما يكتب والبعض الآخر يصرف النظر برشاقة عن دعاوى غير مقبولة ويتقيد بالدفاع .. كلمة فكلمة .. عن النص ويحاول الاقناع .. عن طريق تصريحات .. مديحية ، مستعيناً فى ذلك .. بحجج كثيرة غير متوقعة فى غالب الأحيان ، يأمل بذلك .. أن يضفى غلالة من النسيان .. على مايرفضه المنطق »

ويقول المؤلف بعد ذلك : إذا كان العلم مفيداً فى توكيد رواية التوراة .. فلا بأس أما إذا دحضها فان الرجوع إليه غير مقبول .. ثم يقول: « إن التذكر بكل هذه المواقف التى اتخذها الكتاب المسيحيون .. أمام الأخطاء العلمية فى نصوص التوراة ، توضح جيداً .. الضيق الذى تجره ، وتوضح .. استحالة تعريف موقف منطقى آخر .. غير ذلك . الذى يعترف بالأصل الانسانى لهذه الأخطاء ، وباستحالة قبولها .. كجزء من تنزيل آلهى ..

ثم يضيف قائلا : غير أن هذه الكتب ، تحتوى على شوائب وشىء من البطلان .. مع ذلك ، ففيها شهادة عن تعليم الهى . ويمضى قائلا : وهناك جملتان من هذه الوثيقة ، يعنى الوثيقة المسكونية .. التى ظهرت فى أعوام ١٩٦٢ / ١٩٦٥ ـ الخاصة بالعهد القديم ـ الفصل الرابع ص ٥٣ تشيران

إلى شوائب وبطلان بعض النصوص وبشكل لايسمح بأية معارضة .

ويختم المؤلف فصل التوراة ص ٦١ بقوله : لايجب النظر إلى كتب التوراة بزخرفتها بدعيا بميزات نريد أن تتميز بها ، وإنما بأن ندرس موضوعيا ماهى عليه . إن معرفة تاريخ النصوص تسمح فى الواقع بتكوين فكرة عن الظروف التى قادت إلى التعديلات النصية عبر القرون وإلى التكون البطىء لمجموعها .. كما نملكه اليوم .. بأجزاء متعددة محذوفة وأخرى مضافة .

ثم يقول : إن هذه المعلومات تجعل معقولا تماما فى العهد القديم وجود روايات مختلفة عن موضوع واحد ، وأخطاء تاريخيـة وأمـور متناقضة وأخرى غير معقولة أو يستحيل أن .. تتفق .. مع المعطيات العلمية الثابتة . إن استحالة الاتفاق مع المعطيات العلمية أمر طبيعى تماما .. فى كل المؤلفات الانسانية القديمة وكيف نجد مثل هذه التعارضات فى كتب كتبت فى ظروف كتلك التى تكون فيها نص التوراة .

ويمضى المؤلف فى هذه الخاتمة عن التوراة ، يسوق الأدلة فيقول : إن رجلا يتمتع بادراك سليم مثل القديس أوغسطين ، قد استطاع حتى قبل أن يثير مسائل المشكلات العلمية نفسها فى عصر لم يكن ممكنا الحكم فيه على أمور غير معقولة او متناقضة ، استطاع أن يطرح مبدأ استحالة أن يكون أصل الدعوى المناقضة للحقيقة الهيا . فالقديس أوغسطين كان يعتبر أن الله لايمكن أن يعلم البشر ما لا يتفق والحقيقة ، وكان على استعداد لأن يستبعد من أى نص مقدس ماكان يمكن أن يبدو له واجب الحذف لهذه الدوافع .

« وفيما بعد .. فى عصر ادرك فيه المفكرون استحالة اتفاق بعض فقرات التوراة مع المعارف الحديثة فانهم يرفضون اتباع موقف القديس أوغسطين عندئذ شهدنا مولد الأدب الذى يهدف إلى تبرير الاحتفاظ ، برغم أنف كل شىء ، بنصوص لم يعد لها مكان فى التوراة .. إن المجتمع المكسونى للفاتيكان الثانى ١٩٦٢ / ١٩٦٥ قد خفف بشدة من هذا التصلب وذلك بادخال تحفظ على أسفار العهد القديم .. التى تحتوى على الشوائب وشىء من البطلان » .

ويتساءل المؤلف بهذه العبارات : ترى هل يبقى هذا التحفظ مجرد تعبير عن نية طيبة ، أو سيتبعه تغير فى الموقف ، ازاء مالم يعد القرن العشرون يقبله فى نصوص ، كانت تهدف إلى أن تكون مجرد شهادات عن تعليم آلهى حقيقى ، وذلك .. خارج أى تعديل بشرى .

وقفة مع الأناجيل

فى ص ٦٥ من الكتاب ، يفتتح المؤلف الحديث عن الاناجيل ، فيبدأ حديثه بقوله : «كثيرون .. من قراء الاناجيل .. يشعرون بالحرج ، بل بالحيرة عندما يتأملون فى معنى الروايات أو عندما يقارنون روايات مختلفة .. لحدث واحد مروى فى كثير من الاناجيل تلك هى الملاحظة التى يقدمها الأب روجى فى كتابه (مقدمة إلى الاناجيل) إن التجربة الثرية التى اكتسبها هذا الكاتب حيث أنه كان لسنوات طويلة مكلفاً بالرد فى جريدة أسبوعية كاثوليكية على قراء الاناجيل الذين تحيرهم النصوص » . هذه التجربة قد رسمت له مدى أهمية الاضطراب الذى يشعر به قراء الاناجيل ، ويلاحظ طلبات الشرح التى يبعث بها محدثوه ، الذين ينتمون إلى أوساط اجتماعية وثقافية شديدة التنوع ، تنصب على نصوص يراها القراء مبهمة غير مفهومة بل حتى متناقضة .. وعبثية أو فاضحة ، إذ ليس هناك شك فى أن قراءة النصوص الكاملة للاناجيل قادرة على إثارة اضطراب عميق لدى المسيحيين وهذه ملاحظة قريبة العهد فقد نشر كتاب الأب روجى عام ١٩٧٣م ، وفى عصور ليست بعيدة تماما كانت أغلبية المسيحيين .. لاتعرف من الاناجيل إلا مقاطع مختارة .. تقرأ عند القداس أو المواعظ .

ويسوق المؤلف الملاحظات والادلة ثم يقول : مثل هذه الملاحظات تدل على مساهمة الانسان فى عملية تحرير النصوص وعلى التعديل الذى أصابها بعد ذلك .

. نجد فى ص ٧٠ من كتاب موريس بوكاى هذا العنوان « تذكرة تاريخية اليهودية ـ المسيحية .. وبولس .. » يتحدث المؤلف عن محررى الاناجيل فيقول (يقال أن متى .. كان شخصية معروفة ، كان موظفاً بمكتب الجمارك أو ضرائب المرور بكفر ناحوم . بل يقال أيضاً أنه كان يعرف الارامية واليونانية) .

أما مرقس فهويته معروفة تماماً ، باعتباره مساعد بطرس فلاشك أنه كان شاهد العيان ، وأما لوقا فهو هذا الطبيب العزيز الذى يتحدث بولس عنه

والمعلومات عنه دقيقة جداً . وأما يوحنا فهو الرسول القريب دائماً من المسيح وهو ابن زبيد الصياد ببحيرة كثروت .

ويعقب المؤلف على ذلك بقوله : إن الدراسات الحديثة عن بدايات المسيحية ، تظهر أن هذه الطريقة فى تقديم الأمور لاتتفق مطلقاً مع الواقع .

« وسنرى فيما بعد مايخص كتاب الاناجيل من هذا الأمر . أما فيما يتعلق بعشرات السنوات التى تلت رسالة المسيح ، فيجب على القارىء معرفة أن الأحداث لم تقع مطلقاً كما قيلت وأن وصول بطرس إلى روما لم يؤسس مطلقاً الكنيسة بل على العكس فبين اللحظة التى غادر فيها المسيح هذه الأرض وحتى منتصف القرن الثانى ، أى طيلة أكثر من قرن ، كانت هناك معركة .. بين اتجاهين ، أى بين مايمكن تسميته بالمسيحية البولسية ، وبين اليهودية المسيحية .. ولم يحل الاتجاه الأول محل الثانى ، ولم تنتصر البولسية على اليهودية ـ المسيحية .. الا بشكل شديد التدرج » .

ثم يقول المؤلف : فقد اصطدم بولس واليهود المسيحيون بسبب الذين أتوا إلى المسيحية « أحداث انطاكية عام ٤٩ م » فالطهارة ومراعاة الراحة .. يوم السبت وديانة المعبد ، كانت أموراً بالية فى نظر بطرس حتى بالنسبة لليهود أنفسهم ، فيجب على المسيحية أن تتحرر من انتمائها السياسى والدينى إلى اليهود حتى تفتح ذراعيها لغير اليهود .

أما اليهود ـ المسيحيون ، الذين ظلوا يهوداً مخلصين ـ فانهم يعتبرون بولس كخائن ، وتصفه وثائق يهودية ـ مسيحية بالعدو ، وتتهمه بتواطؤ تكتيكى ـ ولكن اليهودية المسيحية كانت تمثل حتى عام ٧٠ م غالبية الكنيسة ، وكان بولس منعزلا فى ذلك الوقت .. كان رئيس الجماعة جاك ـ وكان معه فى البداية بطرس ، ثم يوحنا ، ويمكن اعتبار جاك كعمود اليهودية ـ المسيحية .. الذى ظل عن ارادة ملتزما بخط اليهودية أمام المسيحية البولسية .

* ثم يقول الكاتب : « ومن عام ٧٠ م وحتى فترة تحدد بما قبل عام ١١٠ م نتجت .. أناجيل مرقس ومتى ولوقا ويوحنا ، ولاتشكل هذه الاناجيل أولى الوثائق الثابتة فى المسيحية . ان خروج النصوص التى نملكها اليوم الى النور ، قد بدأ فى عام ٧٠ م بعد تعديلات فى المصادر » .

الأناجيل الأربعة

فى حديث اليوم ، ربما سأنهى .. بمشيئة الله الحديث عن الأناجيل .

والفصل الجديد الذى أبدأ منه ، يتحدث .. عن الأناجيل الأربعة ، مصادرها وتاريخها . وتعددت الأناجيل حتى بلغت سبعين ، ثم استقرت على اربعة ، والقرآن الكريم لم يعترف الا بواحد أنزله الله على نبيه عيسى عليه السلام ، قال تعالى : « وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين » الآية ٤٦ من سورة المائدة .

ويذكر القرآن الكريم كذلك فى الآية ١٤ من سورة المائدة ، قول الله تبارك وتعالى : « ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به ، فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة ، وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون »

ويخاطب القرآن اليهود والنصارى .. فى مواقف كثيرة ، بأن يلتزموا صراط الله المستقيم ، مما جاء فى التوراة والانجيل ، ثم أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم .. ليبين لهم كثيرا مما كانوا يخفون من الكتاب . وتعلن لهم آية اخرى .. بأنهم ليسوا على شىء حتى يقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لا ما حرفوا وكتبوا بأيديهم ، يقول الله تعالى « يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم » .

وفى آية آخرى من سورة المائدة ، يقول الله تعالى : « قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم »

غير ان اليهود والنصارى غيروا وبدلوا .. فى التوراة والانجيل ، وقد رأينا

فى الحلقتين الماضيتين صورا من ذلك ، ونرى اليوم المزيد من دارسى هذه الاصول وهم من أصل مسيحى ، كشاهد عليهم منهم ، والقرآن الكريم أكبر واصدق شاهد . ونحن نقرأ فى القرآن الكريم قول اليهود : « وقالت اليهود يد الله مغلولة ، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء ، وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفرا ، وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة ، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ، ويسعون فى الأرض فسادا ، والله لا يحب المفسدين . ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ، ولو أنهم اقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، منهم أمة مقتصدة ، وكثير منهم ساء ما يعملون » ونقرأ فى سورة آل عمران « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » واية آخرى« يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده ، أفلا تعقلون . هأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

وتمضى الآيات .. تقرع أسماع أهل الكتاب ، وتدعوهم الى الحق ، وهم معرضون ، تقول الآيتان من سورة آل عمران ٩٩،٩٨ « قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ، قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء ، وما الله بغافل عما تعملون » . حجج دامغة .. على المنحرفين من أهل الكتاب ، والذين يعرفون الحق ويعرضون عنه ، ويسلكون السبل المعوجة ، بغيا وعدوانا .

والان ، نعود الى كتاب موريس بوكاى ، فهو يقول : « لا تشير أولى كتابات العصر المسيحى الى الأناجيل .. الا بعد مؤلفات بولس بفترة طويلة جدا . فالشهادات المتعلقة بوجود مجموعة .. من الكتابات الأنجيلية .. تظهر فقط فى منتصف القرن الثانى ، وبالتحديد .. بعد عام ١٤٠ م » ثم يقول : « ان الأناجيل .. التى أصبحت رسمية فيما بعد ، أى كنسية ، لم تعرف الا فى عصر متأخر ، برغم أن تحريرها .. كان قد تم فى بداية القرن الثانى ، ولكن يكاد يكون عسيرا .. التقرير بما اذا كانت هذه الاستشهادات قد تمت .. بعد

الرجوع الى النصوص المكتوبة ، التى كانت تحت يد الكتاب ، أو أنهم .. قد اكتفوا بذكر أجزاء من التراث الشفهى .. إعتمادا على الذاكرة . ثم يقول المؤلف : « وفى تعليقات هذه الترجمة .. المسكونية للعهد الجديد يقـرأ القارىء ، انه لا توجد .. على أى حال أى شهادة تقول بوجود مجموعة .. من الكتابات الانجيلية قبل عام ١٤٠ م » وهذه الدعوى تناقض تماما ما كتب أ . تريكو فى التعليقات .. على ترجمته للعهد الجديد ، يقول : ومنذ وقت مبكر جدا ، منذ بداية القرن الثانى .. استقر العرف على استخدام الكلمـة « انجيل » .. للاشارة الى الكتب التى كان القديس جوستـين فى نحـو « ١٥٠ » .. يسميها أيضا مذكرات الرسل .. ومما يؤسف له ، أن مثل هذه المزاعم .. تتكرر كثيرا ، بحيث أن عامة الجمهور .. لا تعرف ألا معلومات خاطئة .. عن التاريخ الذى تم فيه جمع الاناجيل ، أيضا .. فان دعوى جوستين التى تصف كتاب الاناجيل بالرسل .. لم تعد مقبولة اليوم ، كما سنرى ذلك » . ثم يقول موريس بوكاى : « وإذا كان .. من العسير اعتبار هذه الاناجيل الأربعة .. كمذكرات رسل أو رفاق المسيح ، فما هو أصلها اذن ؟ »

يقول « أ . كولمان » فى كتابه العهد الجديد ، الذى صدر فى فرنسا سنة ١٩٦٧ م : « ان المبشرين لم يكونوا الا متحدثين .. باسم الجماعة المسيحية الاولى ، التى تثبت التراث الشفهى فقد بقى الانجيل .. طيلة ثلاثين او اربعين سنة فى شكله الشفهى فقط ، او بالكاد ، ولكن التراث الشفهى .. قد نقل اساسا اقوالا وروايات منعزلة ، وقد نسج المبشرون – كل على طريقته وبحسب شخصيته الخاصة ، واهتماماته اللاهوتية الخاصة – الروابط .. بين هذه الروايات والأقوال .. التى تلقوها من التراث السائد . ان تجميع اقوال المسيح .. وربط الروايات بصيغ اسلوبية غامضة مثل : « وبعد هذا » « وما ان » الخ : وبالاختصار ، اطار الاناجيل المتوافقة – اى اناجيل مرقس ، ومتى ، ولوقا – .. كل هذا ادبى الطابع وليس له اساس تاريخى »

ثم يقول المؤلف : « ثم استعانة المبشرين .. بهذه الاشكال المكتوبة المتنوعة ، كاستعانتهم .. بمعطيات التراث الشفهى ، حتى يكتبوا نصوصا .. تتكيف مع مختلف الاوساط وتستجيب لاحتياجات الكنائس ، وتعبر عن تأمل .. فى الكتاب المقدس ، وتصحح الأخطاء ، وترد بهذه المناسبة على حجج الخصوم

بهذا الشكل .. جمع ودون المبشرون كل بحسب وجهة نظره ، ما قد اعطتهم إياه الاقوال المتوارثة ــ الشفهية ــ ان هذا الموقف الجماعى .. المتخذ ، الذى صدر عن أكثر .. من مائة مفسر للعهد الجديد ، كاثوليك ، وبروستانت ، يختلف بشكل متميز .. عن الخط الذى عرفه المجتمع المكسونى للفاتيكان الثانى فى دستوره العقائدى .. عن التنزيل . هذا الدستور .. الذى أعد فيما بين ١٩٦٢ و ١٩٦٥ م . لقد استطاع المجمع المكسونى ان يعلن بشأن العهد القديم ، ان الأسفار التى تكونه ــ تحتوى على شوائب وشىء من البطلان ولكنه .. لم يضع أى تحفظات مثل هذه .. بالنسبة للاناجيل » .

ويمضى المؤلف يقارن .. بين الآراء وينتقد ، فيقول معقبا : « وهنا .. لا يرى القارىء .. أى اتفاق ، بين دعوى المجمع المسكونى هذه ، ودعاوى الكتاب المذكورين اعلاه ، وعلى وجه خاص .. تلك التى تقول انه « لا يجب الأخذ بحرفية الأناجيل ، فهى كتابات ظرفية .. وخصامية حدد محرروها كتابة تراث جماعاتهم عن المسيح ــ وهذا القول للأب ــ كانينجسر ــ »

« الاناجيل اذن .. نصوص ، تتكيف مع مختلف الأوساط ، وتستجيب لاحتياجات الكنائس وتعبر .. عن فكر ما ، عن الكتاب المقدس ، وتعدل .. من الأخطاء ، بل ترد .. على حجج الخصوم ، وبهذا جمع المبشرون ، وحرروا .. كل حسب وجهة نظره الخاصة ، ما أعطاهم اياه التراث الشفهى ــ الترجمة المكسونية للعهد الجديد .

« وواضح تماما .. ان التصريح المكسونى ، وهذه المواقف .. التى اتخذت منذ عهد قريب يضعاننا .. بين دعاوى متناقضة . اذ يمكن التوفيق بين تصريح الفاتيكان الثانى .. الذى .. يقول : أننا نجد فى الاناجيل نقلا أمينا .. لأفعال وأقوال المسيح ، وبين وجود متناقضات .. فى هذه النصوص ، وأمور غير معقولة ، واستحالات مادية ، ودعاوى معاكسة .. لأمور تم التحقق من صحتها »

وعلى العكس من ذلك ، فاذا نظر القارىء .. الى الاناجيل ، على أنها تعبير .. عن وجهات النظر الخاصة .. بجامعى التراث الشفهى ، المنتمى الى مختلف الجماعات ، واذا نظر اليها القارىء .. على انها ــ كتابات ظرفية .. او خصامية ــ فانه لن يدهش .. عندما يجد فى الاناجيل .. كل هذه العيوب ..

التى هى علامة صنع الانسان .. فى مثل هذه الظروف »

يقول تريكو .. عن إنجيل « متى » تحت يونانية الثوب يكمن الكتاب يهوديا لحما وروحا هو يحمل آثار اليهودية ، ويتسم بسماتها المميزة . وهذه الاعتبارات وحدها .. تضع إنجيل « متى » .. داخل الجماعة اليهودية .. المسيحية ـ التى تحاول .. على حد قول ـ كولمان ـ.. « ان تقطع العلاقات التى كانت تربطها .. باليهودية ، مع الاحتفاظ فى نفس الوقت .. بخط مستمر مع العهد القديم . إن نقاط الأهمية والنبرة العامة .. لهذا الانجيل ، توحى بوجود وضع متوتر » . انتهى كلام كولمان .

« وربما كان هذا النص .. متصلا بعوامل ذات صفة سياسيـة ، فالاحتلال الرومانى لفلسطين ، يحمى بالطبع .. رغبة البلد المحتل فى وقوع الاستقلال »

ويتساءل المؤلف ، فيقول : ما هى شخصية متى ؟ لنقل صراحة .. إنه لم يعد مقبولا اليوم ، القول ، إنه احد حواريى المسيح ، وبرغم ذلك يقدمه .. أ .. تريكو على أنه كذلك .. فى تعليقه على ترجمة العهد الجديد .. المنشور عام ١٩٦٠ م ، يقول : اسمه متى ، واسمه قبل ذلك ليفى ، وكان عشارا ، او جابيا .. بمكتب الجمارك ، او ضرائب المرور .. بكفر ناحوم ، عندما دعاه المسيح .. ليجعل منه أحد تلامذته » . ويعقب ، المؤلف بقوله : ولكن لم يعد أحد .. يعتقد هذا فى عصرنا . وهناك نقطة لا جدال فيها وهى ان هذا الكاتب .. يهودى ، ففقرات كتابه فلسطينية ، اما التحرير فيونانى . ويقول أ . كولمان : أن الكاتب ، اى متى .. يخاطب اناسا وان كانوا .. يتحدثون اليونانية ، فانهم يعرفون العادات اليهودية ، واللغة الأرامية »

« اما بالنسبة للمعلقين .. على الترجمة المكسونية ، فان أصل هذا الانجيل .. يبدوكما يلى : يقدر غالبا .. أن انجيل متى قد كتب بسورية ، وربما بانطاكية ، اوبفينيقية ، ففى هذه المناطق ..كان يعيش عدد كبيرمن اليهود »

ويتساءل البعض .. عما اذا كانت طائفة من اليهود ـ المسيحية ، تعيش بالاسكندرية .. إن أ . كولمان .. يذكر هذا الفرض من بين فروض اخرى .

« ولما كان اسم المؤلف ـ أى متى ـ غيرمعروف بالتحديد ، فالأنسب هو الاكتفاء .. ببعض الخطوط المرسومة فى الانجيل نفسه ، ومنها : ان الكاتب

معروف بمهنته .. وانه متبحر .. فى الكتب المقدسة والتراث اليهـودى ، يعرف .. ويحترم رؤساء شعبه اليهود ، وإن أغلظ .. فى خطابه لهم ، كما انه استاذ فى فن التدريس . وانه يتفق جيدا .. مع ملامح يهودى متأدب ، اعتنق المسيحية ، وهو معلم حاذق ، كما يشير الى هذا انجيله نفسه ، الاصحاح ١٣ الاية ٥٢ . تلك صورة بعيدة .. كل البعد عن صورة الموظف البيروقراطى .. بكفر ناحوم ، الذى يطلق عليه مرقس ولوقا .. اسم ليفى والذى اصبح من حوارى المسيح الاثنى عشر » ثم يقول المؤلف : « يتصرف متى بحرية خطيرة .. على النصوص . وقد الحق بكتابه روايات .. يستحيل بالدقة تصديقها » .

« وبالاضافة .. الى هذه الأمور .. غير المعقولة ، فان ما يتميز به انجيل متى أولا وقبل كل شىء ، هو .. انه انجيل طائفة يهودية ـ مسيحية .. بسبيل مخالفة اليهودية ، مع الاحتفاظ بخط .. العهد القديم . ومن وجهة نظر .. تاريخ اليهودية المسيحية ، فلأنجيل متى .. أهمية كبرى » .

أنجيل مرقس

* يقول المؤلف موريس بوكاى ، عن إنجيل مرقس : « إنه أقصر الاناجيل الأربعة ، وهو أيضا أقدمها ، ولكنه .. ليس كتاب احد الحواريين .. هو على أكثر تقدير .. كتاب حرره .. تلميذ لأحد الحواريين . وقد كتب أ . كولمان ، انه لا يعتبر مرقسا .. تلميذا للمسيح . ويرى .. أن مؤلف هذا الانجيل يهودى الأصل .

« إن انجيل مرقس .. يتناقض مع إنجيل متى ولوقا .. فيما يخص بعض الأحداث . يقول الأب روجى : « ان مرقسا .. كاتب غير حاذق ، وأكثر المبشرين ابتذالا ، فهو .. لا يعرف كيف يحرر حكاية ، ويدعـم المعلـق ملاحظته .. بذكر فقرة تسرد تكوين الاثنى عشر حواريا » .

ويعقب المؤلف .. على رأى الأب كانينجسر ، الذى يقارن بين الاناجيل ، ويظهر الاختلاف بينها ، فيقول موريس : « ياله من اعتراف صريح .. بوجود التعديلات التى قام بها البشر على النصوص المقدسة . ياله من اعتراف .. ذلك الذى تقدمه لنا تأملات .. هذا العالم اللاهوتى الكبير » .

أنجيل لوقا

هو « كاتب حوليات » .. فى رأى أ . كولمان و « روائى حقيقى » .. فى نظر الأب كانينجسر . يقول المؤلف : « ينبهنا لوقا نفسه .. فى ديباجته الموجهة لثاوفيلس .. الى انه بعد الاخرين ، الذين أنشأوا قصصا .. عن المسيح ، سينشىء بدوره حكاية .. عن نفس الأحداث ، مستخدما .. هذه القصص ، ومعلومات الشهود المعاينين ، وذلك يعنى .. انه ليس واحدا منهم » .

« من السطور الأولى يستطيع القارىء .. أن يميّز ما يفصل لوقا عن مرقس ـ هذا الكاتب الغث ـ الذى تحدثنا عن انجيله . ان انجيل لوقا .. عمل أدبى لا يجادل ، كتب بلغة يونانية .. كلاسيكية راقية ، تخلو من حوشى الكلام » . ويمضى المؤلف يقول : « لوقا .. اديب وثنى آمن بالمسيحية ، واتجاهه بالنسبة الى اليهود .. يتضح مباشرة . وكما يشير أ . كولمان فان لوقا .. يحذف من روايته اكثر الآيات اليهودية .. عند مرقس ، ويبرز كلمات المسيح فى مواجهة كفر اليهود ، وعلاقته الطيبة مع السامريين .. الذين يمقتهم اليهود .

هذا على حين يقول متى .. فى انجيله . إن المسيح طلب الى حوارييه .. ان يتجنبوا السامريين .. وذلك مثال جلى .. بين أمثلة كثيرة على أن المبشرين يضعون على لسان المسيح ما يتناسب مع وجهات نظرهم الشخصية ، فانهم يعطوننا .. عن اقوال المسيح الرواية التى تتكيف .. مع وجهات نظر الطوائف التى ينتمون اليها . كيف يمكن اذن أمام امور جلية كهذه .. إنكار أن الاناجيل ليست « كتابات خصامية » ، او ـ ظروفية ـ ، كما قيل اعــلاه ؟. ان المقارنة .. بين المنحى العام لانجيل متى وانجيل لوقا .. يأتى ببرهان قاطع .. فى هذا الشأن .

« يذكر أ . كولمان ، فى كتابه ـ العهد الجديد ـ ص ١٨ ، روايات من انجيل لوقا .. لا توجد فى الاناجيل الاخرى ، وليس المقصود نقاطا تفصيلية » .

« يعطى كل .. من إنجيل لوقا ومتى للمسيح انسابا مختلفة ، والتناقض بينهما هام ، وعدم المعقولية .. كبيرة ، من وجهة النظر العلمية . وقد يمكن فهم .. أن متى لانه يتوجه بخطابه لليهود يبتدىء شجرة المسيح بابراهيم ،

ويجعلها تمر بداود ، وأن لوقا وهو الوثنى .. الذى آمن بالمسيحية ، يهتم بأن يمد جذور هذه الشجرة الى ابعد من ذلك . ولكن القارىء .. سيرى ان الاثنين يتناقضان ، ابتداء من داود . ومن ناحية أخرى ، فان رسالة المسيح .. مسرودة بشكل مختلف ، وفى نقاط كثيرة ، لدى كل من لوقا ومتى ، ومرقس » .

أنجيل يوحنا

يقول المؤلف : يختلف إنجيل يوحنا جدا عن الاناجيل الثلاثة الاخرى الى درجة أن الاب روجى فى كتابه ــ مقدمة الى الانجيل ــ وبعد أن علق على الاناجيل الاخرى يعطى صورة معبرة عن الانجيل الرابع ــ انه عالم آخر .

والواقع أنه كتاب مختلف تماما فهو يختلف فى ترتيب وفى اختيار الموضوعات والروايات والخطب وبه اختلافات اسلوبية وجغرافية ، وأخرى خاصة .. بالتعاقب الزمنى للاحداث بل انه يحتوى .. على اختلاف فى الافاق اللاهوتية .

ويعقب المؤلف بقوله : ولكن كل شىء .. يدفع للاعتقاد بأن النص المنشور حاليا ينتمى الى اكثر من كاتب واحد فيحتمل .. ان الانجيل بشكله الذى نملكه اليوم قد نشر بواسطة تلامذة المؤلف ، الذين أضافوا الاصحاح « ٢١ » كما اضافوا ولا شك الحواشى ، مثل ٤ و ٢ وربما ايضا ٤ ، ١ ، ٤٤ و ٣٧ ب الخ .. ثم يشير بقوله فالملاحظات الصادرة عن ابرز الكتاب المسيحيين هى مشكلة مؤلف الانجيل الرابع تشير هى وحدها الى أننا مغمورون بالغموض والخلط فيما يتعلق بأبوة هذا الكتاب ..

ولقد كانت القيمة التاريخية لروايات يوحنا موضع نزاع كثير ، فالامور التى تتنافر مع الاناجيل الثلاثة الاخرى صارخة .

وبعد سرد للاختلافات فى بعثة المسيح واقاماته بين مشتملات الاناجيل ، يقول المؤلف معقبا : « اذن .. فمن يجب ان يصدق ؟ أنصدق متى أم مرقس أم لوقا أم يوحنا ؟ »

مصادر الأناجيل

* يقول المؤلف : (لقد تصدى آباء الكنيسة .. فى عصرهم لمشكلة المصادر .. بطريقة ساذجة .. ففى القرون الأولى من العصر المسيحى ، لم يكن المصدر الا الانجيل .. الذى تضعه المخطوطات الكاملة .. على رأسها أى انجيل متى فقط .. وكانت مشكلة المصادر .. تطرح ازاء انجيلى مرقس ولوقا ، حيث كان إنجيل يوحنا يشكل حالة منفصلة ..

تاريخ النصوص

* وعن تاريخ النصوص ، نرى المؤلف يقول : « يخطىء .. من يعتقد أن الأناجيل شكلت بمجرد تحريرها .. الكتب المقدسة الاساسية للمسيحيـة الوليدة ، وأنه قد اعتمد عليها .. مثلما كان يعتمد على العهد القديم »

« وفى تلك العصور المسيحية الأولى ، كان هناك تداول كثير .. من الكتابات عن المسيح غير أنه لم يعتد بها ككتابات جديرة .. بصفة الصحة كما أوصت الكنيسة .. باخفائها . ومن هنا .. جاء اسم الاناجيل المزورة . وهناك نصوص اخرى قد استبعدت بشكل اكثر عنفا ، ولم يتبق منها .. الا بعض أجزاء » .

من التوراة والإنجيل إلى القرآن

عن تاريخ النصوص .. للأناجيل ، يشير المؤلف .. موريس بوكاى بقوله : بعض هذه الكتابات « المزورة »، يحتوى على تفاصيل .. خرافية ، أنتجها الخيال الشعبى ، وعلى ذلك فبعض مؤلفى دراسات .. عن الأناجيل المزورة .. يذكرون برضا شديد الوضوح مقاطع من هذه التفاصيل تدعو حقا للسخرية . لكن من الممكن .. ان نجد مثل هذه الفقرات فى كل الأناجيل . لقد قادت وفرة الروايات عن المسيح الكنيسة .. فى مرحلة انتظامها ، الى إجراء استبعاد كثير .. من المؤلفات ، وربما كان ما حذف .. مائة انجيل .. فقد احتفظ فقط .. بأربعة من الأناجيل ، لتدخل .. فى قائمة رسمية من كتابات العهد الجديد ، والتى تشكل .. ما يسمى بالكتب المعترف بها كنسيا ».

« وفى منتصف القرن الثانى .. دفع مارسيون بصرامة ، السلطات الكنسية .. الى اتخاذ موقف . وكان خصما لدودا لليهود ، وكان يرفض كل العهد القديم ، ويرفض الكتابات اللاحقة .. على المسيح ، ما كان يبدو منها .. على ارتباط وثيق بالعهد القديم ، او التراث ــ اليهودى ــ المسيحى . ولم يعترف .. مارسيون ، الا بانجيل لوقا ، لأنه فى رأيه .. المتحدث باسم بولس ، وبكتابات بولس . وحكمت الكنيسة .. على مارسيون .. بالهرطقة ، ووضعت فى القائمة الرسمية .. كل رسائل بولس ، ولكن .. مع الأناجيل الأخرى ، لمتى ومرقس ولوقا ، والحقت بها .. بعض الكتب الأخرى ، مثل ــ اعمال الرسل ... ومع ذلك .. فالقائمة الرسمية .. تنوعت مع الزمن فى هذه القرون الأولى من العصر المسيحى ».

ويقول المؤلف بعد ذلك : « وكما تقول الترجمة المسكونية ، ففــى العالم .. مائتان وخمسون مخطوطة .. ورقية أخرى معروفة ، وآخرها .. يرجع الى القرن الحادى عشر ، ولكن كل نسخ العهد الجديد .. التى وصلت الينا ، ليست مطابقة »، ويمضى فى القول : « فالتنبيه يحدد ما يلى : لم نتمكن حتى

الآن .. من أن نميز بشكل نهائى ، مختلف الأيدى التى صححت المخطوطة ووضعت عليها .. الحواشى عبر القرون ، ولاشك .. ان عددا من التصحيحات ، قد عمل .. ساعةتحبير النص ، ومع ذلك ، فكل كتب التعليم الدينى .. تقدم هذه المخطوطة على انها نسخة .. من القرن الرابع ، ولابد من الذهاب .. الى مصادر الفاتيكان ، حتى ندرك .. ان بعض الأيدى قد حرفت النص بعد ذلك بقرون كثيرة ».

ويقول : أ . كولمان « أما الناسخ ، فقد سمح لنفسه بتصحيح النص ، حسب أفكاره الشخصية وأما أنه يبحث .. عن التوفيق بين النص ونص آخر .. مواز ، حتى يقلل الاختلافات بينهما .. بشكل قد يقلل ، أو يزيد مهارة أحيانا اخرى ، يكتب الناسخ تعليقا .. على هامش النص ، ليشرح عبارة مبهمة ، ويأتى الناسخ التالى ، ويظن أن العبارة المكتوبة .. على هامش النص .. قد سقطت عند ناسخ آخر ، ويرى ضروريا .. ادخال التعليق الهامشى على النص ، وبهذا أحيانا ، يصبح النص الجديد .. المنقول ، أكثر غموضا »..

الأناجيل والعلم الحديث

* فى هذا الفصل ، يقول المؤلف : « تحتوى الأناجيل .. على قليل جدا من الفقرات التى تستطيع .. أن تقود مقارنة .. من المعطيات العلمية الحديثة ».

القرآن الكريم يخبرنا ، بأن المسيح .. عليه السلام ، وباذن الله ، استطاع ان يبرىء الأكمه والأبرص ، يقول المؤلف فى ذلك : « شخصيا .. أعتقد عن طيب خاطر أن المسيح قد استطاع أن يشفى الأبرص ، أما عن نسب المسيح الذى يقدمه المؤلف .. فى هذا الفصل ، فانه يقول : « لا أستطيع أن أقبل .. بأن يقال بصحة وبالهام الله لنص اقرأ فيه .. ان عشرين فقط من الأجيال .. قد عاشت بين أول انسان وابراهيم . يقول ذلك لوقا فى انجيله ــ ٣ ، ٢٣ ، ــ ٢٨ ، وسنرى بعد قليل .. الأسباب التى تقرر أن نص لوقا كالنص الخاص .. بنفس الموضوع ، فى العهد القديم ، قد صدر .. عن الخيال البشرى »..

ويورد المؤلف .. قائمة عنوانها ــ كتاب أصول عيسى عليه السلام « تبدأ

بنبى الله ابراهيم عليه السلام ، ثم يعقب بقوله : « وعلى ذلك .. يكون العدد بالاجمال للأجيال هو أربعة عشر جيلا ، من ابراهيم الى داود ، وأربعة عشر جيلا من داود الى منفى بابل ، وأربعة عشر جيلا من منفى بابل حتى المسيح . وهذا النسب ، حسب الترجمة المكسونية .. للعهد الجديد ، يضع متى .. شجرة نسب المسيح على رأس انجيله . أما لوقا فانه يعطى المسيح .. نسبا يختلف عن ذلك الذى فى انجيل متى ».

ويتحدث المؤلف .. عن الفترة من آدم الى ابراهيم عليهما السلام ، فيذكر .. انها تسعة عشر قرنا ، ثم يذكر أن « المتخصصين .. يقدرون حاليا .. أن ابراهيم كان يعيش فى عام ١٨٥٠ قبل المسيح تقريبا . وعلى هذا .. فان تكوين معطيات العهد القديم .. غير مقبولة فى عصرنا ، فذلك أمر يمكن تبريره ، حيث أن هذه المعطيات .. تقع فى ميدان ــ البطلان ــ الذى تحدث عنه مجمع الفاتيكان الثانى . أما أن يأخذ المبشرون على عاتقهم .. بنفس هذه المعطيات التى لا تتواءم مع العلم ، فذلك تقرير بالغ الجسامة ، يتعارض .. مع الذين يدافعون عن الصحة التاريخية .. للنصوص الانجيلية »..

« وعلى هذا ، فالجزء السابق .. على ابراهيم من نسب المسيح ، حسب إنجيل لوقا .. يصبح غير مقبول فى ضوء المعارف الحديثة .».

ويقول المؤلف معقبا : « تحتوى شجرة نسب المسيح .. عند لوقا على ٤٢ اسما بعد داود ، وحتى المسيح . أما انجيل متى ، فيشير الى ٢٧ اسما .. بعد داود وحتى المسيح ، اذن فعدد اسلاف المسيح ــ الاعتباريين ــ، بعد داود .. مختلف فى الانجيلين ، يضاف الى ذلك .. أن الأسماء نفسها مختلفة ».

تعليقات المفسرين المحدثين

* « فى كتاب إنجيل الطفولة ، يعطى الكاردينال دانيلو .. قيمة رمزية ، ذات أهمية كبرى ــ للبيان الحسابى ــ فى انجيل متى ، فهذا البيان .. فى نظره هو الذى يحدد أسلاف المسيح .. الذين يؤكدهم لوقا أيضا ، إن لوقا ومتى .. فى نظر الكاردينال دانيلو ــ مؤرخان ــ قاما بتحقيق تاريخى ، بما أن نسب المسيح مقتبس من أرشيف عائلة المسيح ولابد من تحديد أن هذا الأرشيف .. لم يعثر عليه قط ».

ويلاحظ أ . كولمان فى كتابه ـ العهد الجديد ـ التناقضات ... بين لوقا ومتى ، فالأول يقول بظهور المسيح فى الناصرة ، أما الثانى فيقول : أنه ظهر بالجليل ».

ويعلق المؤلف .. على طبعة الأناجيل الأربعة المتوافقة .. التى نشرتها مدرسة الكتاب المقدس بالقدس عام ١٩٧٢م بانها « تحتوى على تعليقات شديدة الغرابة ».

خاتمة

يختم المؤلف حديثه عن الأناجيل وتعليقات المفسرين .. المسيحيين البارزين بقوله : « لقد اوضحت دراسات نقد النصوص الحديث .. المعطيات التى تكون فى رأى كانينجر ، ثورة فى مناهج التفسير ـ، والتى تؤدى الى ـ عدم الأخذ بحرفية .. الأمور الواردة بشأن المسيح .. فى الأناجيل ، فهذه الأخيرة كتابات « ظرفية » أو« خصامية ». ان المعارف الحديثة وقد القت النور .. على تاريخ اليهودية ـ المسيحية ، والتنافس .. بين الطوائف توضح وجود أمور تحير قراء عصرنا ، لم يعد مفهوم المبشرين .. كشهود معاينين قابلا للدفاع ،

وان ظل حتى .. يومنا هذا مفهوم كثير .. من المسيحيين ، إن مؤلفات مدرسة الكتاب المقدس بالقدس ـ الأب بينوا والأب بوامار ـ تثبت جيدا .. ان الأناجيل قد كتبت ونقحت وصححت .. أكثر من مرة . ولهذا .. ينذر هذان الكاتبان .. قارىء الانجيل بأن عليه .. أن يتخلى ، فى أكثر من حالة .. عن سماع صوت المسيح المباشر ».

بهذا .. نأتى الى نهاية هذه الوقفة مع الأناجيل ، ويكفى .. ما أثبت من آراء ووجهات نظر ، ولعل كلمة الفصل فيها ، ان ما تشتمل عليه وتتوافق مع القرآن الكريم نقبله ، ونترك ما عداه وهو الذى ناله التحريف والتبديل ، وفق .. أهواء المغرضين ، والمبدلين . لنصل بعد هذا الاستعـراض الى الفصل .. الجديد ، وهو :

القرآن والعلم الحديث

* يقول المؤلف .. فى مقدمة هذا الفصل : « بداهة .. يثير الجمع بين القرآن والعلم الدهشة ، وخاصة .. أن المقصود من علاقة الجمع هذه .. هو التواؤم بين الاثنين ، وليس التنافر ».. ثم يقول :

« لذلك .. فاذا أردنا اليوم .. أن نقدم لأية مواجهة ، بين الاسلام والمعارف ، فانه يبدو لنا ضروريا ولازما ، أن نقدم عن الاسلام لمحة عامة . ذلك .. ان الاسلام الذى طالما أسىء فهمه فى بلادنا ، لأن الأحكام المغلوطة تماما .. التى تصدر من الغرب عن الاسلام ، ناتجة .. عن الجهل حينا ، وعن التسفيه العامد .. حينا آخر ». ثم يقول :

« إننا لنصاب بالذهول .. عندما نقرأ فى اكثر المؤلفات جدية .. أكاذيب صارخة ، بزغم أن مؤلفى .. هذه المؤلفات هم بالمبدأ مؤلفون أكفاء ، واليكم مثالا على ذلك ، فى دائرة المعارف ـ أونيفرساليس ـ الجزء السادس ، تحت عنوان ـ الأناجيل ـ، نجد اشارة ... لاختلاف الأناجيل عن القرآن ، يقول المؤلف ـ أى مؤلف دائرة المعارف ـ « ان المبشرين لا يدعون كما يفعل القرآن نقل سيرة ذاتية أملاها الله .. بشكل معجز عن محمد « صلى الله عليه وسلم ». وحقيقة الأمر ألا صلة هناك .. بين القرآن وما يسميه المؤلف ـ بالسيرة الذاتية ـ: القرآن رسالة ، ولو كان المؤلف .. قد استعان حتى بأسوأ ترجمة للقرآن ، لثبت له ذلك . إن المسؤول .. عن هذه الأكذوبة الخاصة بالقرآن ، استاذ بجامعة اليسوعيين اللاهوتية بمدينة ليون ان نشر أكاذيب .. من هذا النوع ، يساهم فى اعطاء صورة .. زائفة عن القرآن والاسلام ».

ثم يقول المؤلف : « ومع ذلك ، فهناك أسباب .. تدعو للتأمل ، لأن الأديان .. لم تعد اليوم منطوية على نفسها ، وكثيرون .. يبحثون عن التفاهم المتبادل ، وأنه لمما يبعث .. على التقدير ما يحدث اليوم .. على أعلى مستويات المناصب الرسمية ، حيث يجتهد مسيحيون .. كاثوليكيون فى ارساء أواصر الصلة .. مع المسلمين ، ويحاولون مكافحة .. عدم الفهم ، ويبذلون ما فى وسعهم ، لتصحيح وجهات النظر غير الصحيحة .. المنتشرة عن الاسلام ».

« لقد تحدثت فى مقدمة هذا الكتاب .. عن التغيير العظيم الذى حدث فى السنوات الأخيرة فذكرت وثيقة .. صادرة عن سكرتارية الفاتيكان .. لشؤون غير المسيحيين ، وعنوانها ــ توجيهات .. لاقامة حوار بين المسيحيين .. والمسلمين . إنها وثيقة .. شديدة الدلالة عن المواقف الجديدة .. التى تبنيت ازاء الاسلام ، ففى الطبعة الثالثة عام ١٩٧٠م ــ من هذه الدراسة تطالب .. هذه التوجيهات بمراجعة مواقفنا .. إزاء الاسلام ، وبنقد أحكامنا المسبقة .. و « علينا ان نهتم اولا .. بأن نغير تدريجيا من عقلية اخواننا المسيحيين ، فذلك يهم .. قبل كل شىء » . ويجب التخلى .. « عن الصورة البالية .. التى ورثنا الماضى اياها ، أو شوهتها الفريات .. والأحكام المسبقة . كما يجب الاعتراف .. بالمظالم التى ارتكبها الغرب المسيحى .. فى حق المسلمين » . بهذا الشكل .. تقوم وثيقة الفاتيكان ــ التى تحتوى على مائة وخمسين صفحة تقريبا ، ببسط ودحض نظرات .. المسيحيين الكلاسيكية عن الاسلام ، كما أنها تقدم عرضا .. لما عليه الاسلام فى الواقع .. وتحت عنوان « أن نتحرر .. من أكثر أحكامنا المسبقة جسامة » ، وجه أيضا مؤلفو هذه الوثيقة .. الدعوة التالية .. الى المسيحيين : ــ هنا أيضا ، علينا أن نتطهر ويعمق من عقلياتنا ، نقول ذلك ونحن نفكر بالذات .. فى بعض الأحكام المجهزة ، التى كثيرا ما نصدرها باستخفاف عن الاسلام ».

ويمضى المؤلف .. يستعرض وثيقة الفاتيكان ، ويأتى بفقرات منها ، ويقدمها بأسلوبه فيقول : « الوثيقة تعارض .. الفكرة الشائعة عن الاسلام ، كدين ، الخوف من الاسلام ، دين الحب ، حب الانسان المتأصل .. فى الايمان بالله .. انها تدحض الفكرة .. التى نشرت خطأ ، والتى تقول .. بعدم كفاية الأخلاق الاسلامية ، وتدحض أيضا الفكرة الأخرى .. التى نشرها كثير من اليهود والمسيحيين .. عن تعصب الاسلام ، وهى تعلق على ذلك .. بالألفاظ التالية :ــ الواقع أن الاسلام عبر التاريخ ، لم يكن أكثر تعصبا .. من المدنية المسيحية ، عندما كانت المسيحية .. تكتسب بشكل او بآخر ، فى هذه المدنية قيمة سياسية ، وهنا يستشهد المؤلفون .. بتعابير القرآن التى تبين .. ان ما يترجمه الغربيون خطأ ــ بالحرب المقدسة ــ يقال باللغة العربية ــ الجهاد فى سبيل الله ــ، أى بذل الجهد .. لنشر الاسلام ، والذود عنه من المعتدين

عليه ــ وتتابع وثيقة الفاتيكان قائلة :ــ ليس الجهاد مطلقا .. ما يعرف فى التوراة ، فالجهاد .. لا يسعى الى الابادة ، بل يسعى .. لأن يمد الى مناطق جديدة .. حقوق الله والانسان ــ « وفى عصر الحرب الصليبية لم يكن المسلمون دائما .. هم الذين ارتكبوا أكبر المذابح ».

ويعلق المؤلف على وثيقة الفاتيكان بقوله : « وإننى لعلى يقين من أن دفاع الفاتيكان .. عن الاسلام ، سيثير دهشة كثير .. من معاصرينا ، سواء كانوا مسلمين أو يهودا أو مسيحيين ، ذلك اعلان .. يتميز باخلاص وبروح انفتاح ، يتباينان .. بشكل فريد ، مع مواقف الماضى ، ولكن .. كم هم قليلون حقا .. الغربيون الذين عرفوا .. تلك المواقف الجديدة ، التى اتخذتها أعلى سلطات الكنيسة .. الكاثوليكية ».

ويعلن المؤلف اعترافه ، وهو ليس أول واحد يقرر هذا الاعتراف ، بأن حضارة العالم الاسلامى ، كانت فى أوج التطور من الأبحـاث العلميـة والمكتشفات ، بين القرن الثامن والثانى عشر المسيحى وكانت اوروبا .. تعيش فى ظلام ، وكانت القيود تفرض .. على التطور العلمى فى البلدان المسيحية كما يقول المؤلف ، وأنظروه يقول : « ولكن علينا أن نتذكر أن فى عصر عظمة الاسلام ، أنجزت كمية عظيمة .. من الأبحاث والمكتشفات .. بالجامعات الاسلامية فى ذلك العصر .. كان الباحث بهذه الجامعات يجد وسائل ثقافية عظيمة ، ففى قرطبة .. كانت مكتبة الخليفة تحتوى على أربعمائة الف مجلد ، وكان ابن رشد يعلم بها . وبها أيضا .. كان يتناقل العلم اليونانى والهندى والفارسى . لهذا السبب ، كان الكثيرون .. يسافرون من مختلف بلاد اوروبا للدراسة بقرطبة ، مثلما يحدث .. فى عصرنا أن نسافر الى الولايات المتحدة لتحسين وتكميل بعض الدراسات ، ولكم هى كثيرة .. تلك المخطوطات القديمة ، التى وصلت الينا .. بواسطة الأدباء العرب ، ناقلة بذلك الثقافة .. الى البلاد المفتوحة ولكم نحن مدينون .. للثقافة العربية ، فى الرياضيات ــ فالجبر عربى ــ وعلم الفلك ، والفيزياء ــ والبصريات والجيولوجيا ، وعلم النباتات ، والطب ــ ابن سيناء ــ الى غير ذلك ».

« لقد .. اتخذ العلم لأول مرة .. صفة عالمية ، فى جامعات العصر الوسيط .. الاسلامية فى ذلك العصر ، كان الناس اكثر تأثرا .. بالروح الدينية



مما هم عليه فى عصرنا ، ولكن ذلك .. لم يمنعهم ، من أن يكونوا .. فى آن واحد مؤمنين .. وعلماء ، كان العلم الأخ التوأم للدين .. لكم كان ينبغى .. على العلم ، الا يكف عن أن يكون كذلك ».

« كانت البلاد المسيحية فى تلك الفترة .. من القرون الوسطى ، فى ركود وتزمت مطلق . توقف البحث العلمى ، ليس .. بسبب التوراة والانجيل ، وانما ، وعلينا أن نكرر ذلك ، بأيدى هؤلاء الذين يدعون .. أنهم خدام التوراة والانجيل ».

ويسأل المؤلف بقوله : « ما هى اذن القوى الروحية .. التى يمكن دفعها لمجابهة تلويث كثير من العلماء المعاصرين .. للفكر ؟ » ثم يقول :

فأمام هذه الموجة المادية ، وغزو الالحاد للغرب ، يظهر .. عجز المسيحية واليهودية .. عن الصمود ، كل منهما .. غارق فى الحيرة . ألا نرى من عقد لآخر .. تناقضا خطيرا فى مقاومة ذلك التيار .. الذى يهدد باجتراف الكل ؟! ان المادى ملحد .. لا يرى فى المسيحية الكلاسيكية الا نظاما .. ابتناه البشر ، منذ حوالى ألفى عام ، لارساء .. سلطة لأقلية قليلة على بشر مثلها ، ولن يجد فى الكتب المقدسة المسيحية .. لغة تتشابه مع لغته ولو من بعيد ، فهذه الكتب .. تحتوى على كثرة من الأمور .. التى لا تتفق مع المعطيات العلمية الحديثة ، ومن المتناقضات والأمور غير المعقولة ، بحيث أنه يرفض النظر .. بعين الاعتبار الى نصوص تريد غالبية اللاهوت .. ان تقبلها ، على أنها كل لا ينفصم ».

« واذا ما حدثوه ... عن الاسلام ، فانه يتسم بغرور ، لايماثله .. الا جهله بالموضوع وكمعظم المثقفين الغربيين ، أيا كانت معتقداتهم الدينية ، فانه يملك .. عن الاسلام كما هائلا من الأفكار الخاطئة ». ويضيف المؤلف فى هذا الاستطراد قوله : « ان أى غربى .. قد امتلك معرفة عميقة للاسلام ، يعرف .. الى أى حد شوه تاريخ الاسلام وعقيدته وأهدافه « ثم يقول :

« ان هناك أجزاء من القرآن ، وخاصة .. ما كان لها ارتباط بمعطيات العلم قد ترجمت بشكل سيىء ، أو علق عليها بحيث يكون .. من حق العالم أن يدفع ، وهو على حق فى الظاهر ، بانتقادات لا يستحقها القرآن فى الواقع . وهناك نقطة جزئية ، تجدر الاشارة اليها فورا ، هذه الأخطاء .. الراجعة الى الترجمة ، أو تلك التعليقات المغلوطة ، كثيرا ما يجتمع الاثنان — .. وقد كان

لهؤلاء فى عصرهم عذر .. إعطاء تعريف غير دقيق .. لكلمة قد تكون متعددة المعانى ولم يكن .. باستطاعتهم فهم المعنى الفعلى للكلمة أو الجملة ، فهناك من المعانى .. ما لم يظهر الا فى أيامنا فقط ، بفضل معارفنا العلمية ».

ويعترف المؤلف بأنه تلقى فى الغرب فهما مغلوطا عن الاسلام ، ثمَ أدرك ذلك ، فيقول « وككثيرين » ، كان يمكن .. أن أظل محتفظا بتلك الأفكار الخاطئة عن الاسلام ، وهى على درجة .. من الانتشار ، بحيث أننى .. أدهش دائما ، حين التقى خارج المتخصصين بمحدثين .. مستنيرين ، فى هذه النقاط . اعترف بأننى .. كنت جاهلا قبل أن تعطى لى .. عن الاسلام صورة .. تختلف عن تلك التى تلقيناها .. فى الغرب ».

واذا كنت قد توصلت الى ادراك زيف الأحكام الصادرة .. عامة فى الغرب عن الاسلام فانى مدين بذلك ... الى ظروف استثنائية . ففى المملكة العربية السعودية نفسها ، أعطيت عناصر التقييم ، التى أثبتت لى .. درجة الخطأ فى بلادنا .. عن الاسلام ».

« وسأظل أدين بالعرفان ، وبشكل لا حد له ، للمغفور له .. جلالة الملك فيصل ، الذى احيى ذكراه .. باحترام عميق ، سيظل محفورا .. فى ذاكرتى دائما . كان لى الشرف الأثير أن أستمع إليه ، يتحدث عن الاسلام ، وان اذكر .. فى حضرته بعض مشاكل تفسير القرآن .. فى ارتباطها مع العلم الحديث ، إن كونى .. قد تلقيت معلومات قيمة .. من جلالته نفسه ، ومن حاشيته ، ليشكل .. بالنسبة لى امتيازا خاصا »

ونمضى مع المؤلف وهو يتحدث .. عن الاسلام ، فنجده يقول :

« وعندما استطعت قياس المسافة .. التى تفصل واقع الاسلام عن الصورة .. التى اختلقناها عنه فى بلادنا الغربية ، شعرت بالحاجة الملحة .. لتعلم اللغة العربية التى لم أكن أعرفها ... ذلك .. حتى أكون قادرا على التقدم .. فى دراسة هذا الدين الذى يجهله الكثيرون . كان هدفى الأول هو قراءة القرآن ودراسة نصه جملة .. جملة ، مستعينا بمختلف التعليقات اللازمة .. للدراسة ، لقد اذهلنى دقة بعض التفاصيل الخاصة عن الظاهرات الطبيعية وهى تفاصيل لا يمكن أن تدرك الا فى النص الأصلى . أذهلتنى مطابقتها .. للمفاهيم التى نملكها اليوم .. عن نفس هذه الظاهرات ، والتى لم

يكن ممكنا لأى انسان فى عصر محمد صلى الله عليه وسلم ، أن يكون عنها أدنى فكرة ».. ولقد قرأت إثر ذلك مؤلفات كثيرة ، خصصها كتاب مسلمون .. للجوانب العلمية فى نص القرآن ، ولقد أتت الى تلك المؤلفات .. ولكنى لم أكتشفها بعد . إننا فى حاجة الى دراسة شاملة منجزة فى الغرب فى هذا الموضوع » ثم يقول :

« على حين .. نجد فى التوراة أخطاء علمية ضخمة لا نكتشف فى القرآن أى خطأ ، ويقول كذلك :

« لو كان كاتب القرآن انسانا ، كيف استطاع .. فى القرن السابع من العصر المسيحى أن يكتب ما اتضح أنه يتفق اليوم مع المعارف العلمية الحديثة ؟»

زمالة الأديان

* فى الثلاثينات .. عقد مؤتمر « زمالة الأديان » (بروما) ، شارك فيه الأزهر بأحد أعلامه المشاهير ، وهو المرحوم الدكتور « محمد عبد الله دراز » ، خريج الأزهر والسربون ، والمتوفى « بلاهور » .. فى الباكستان ، عقب انفضاض مؤتمر الثقافة الاسلامية هناك ، وهو المؤتمر .. الذى يقرر المرحوم الشيخ « محمد أبو زهرة » .. الذى زامله فى المؤتمر ، أن الدكتور « دراز » .. قد أعطى هذا المؤتمر من جهوده وجهاده ، وسهره الليل والنهار ، ما أثر فى صحته .. وعجل بوفاته ..

* لقد كان الدكتور دراز يسهر الليالى الطوال .. لاعداد أبحاثه وردوده على بعض ما يثيره عملاء المستشرقين من المفكرين المنتسبين الى الاسلام » .

ومؤتمر زمالة الأديان « الكتابية » المشار اليه ، والذى عقد كما أشرت « بروما » فى الثلاثينات ألقيت فيه رسالة ناضجة ونيرة .. باسم شيخ الأزهر فى ذلك الوقت وهو المرحوم الشيخ « محمد مصطفى المراغى » .

وكان الهدف من المؤتمر هدفا صحيحا .. لا غبار عليه لأنه يتلخص فى تقرير الخطر .. الذى يواجه الديانات الكتابية ، من نشاط المادية الجدلية والالحاد الشيوعى .

وكانت فكرة المؤتمر .. تقوم على الكف عن الصراع بين الأديان الكتابية .. تفرغا لصد ذلك الخطر على الجميع ولا ريب أن هذه الفكرة أصح وأجدى من تلك اللقاءات التى تروج ، أو راجت أخيرا للجمع بين رجال هذه الديانات بحثا عن نقاط الوفاق بينها ، سواء من حيث العقيدة ، أو من حيث خير البشرية عموما . فان البحث عن تلك النقاط .. هو شىء أشبه بالمجاملات الصورية .. التى هى ذات موضوع .

والصراحة فى تناول هذا الموضوع ، هى أجدى من المجاملة .. التى لا تترك أثرا على الاطلاق .

ويكفى أن المسيحية بعد أربعة عشر قرنا من حوارها للاسلام .. لا ترى « دون سبب مقنع » ـ ، الاعتراف به وبنبيه ، أو بكتابه .

ويكفى من الناحية الأخرى .. أن الاسلام نفسه ، لا يتنازل أبدا .. بمنطق الحق .. الذى فيه ، اعتبار دعوته رسالة تصحيح لليهودية والنصرانية ، ليحملهما على طرح الشقاق والانحراف .. عن كلمة الله الجامعة ، غير المحرفة .. التى تعاقب النبيون والمرسلون على تبليغها .. عصرا بعد عصر ، ليكون البشر كلهم لله مسلمين والحقيقة التى لا مفر من اعلانها .. هى أنه ، إن كان يوجد فى العالم تعصب أو شقاق دينى ، فالمسلمون من هذا الشقاق .. وهذا التعصب أبرياء ، لأنهم أهل الدين الجامع المؤمن بكل كتاب أنزل ، وكل رسول ارسل .

فلا ينظرون الى هذه الكتب .. كما هى النظرة الى الدساتير المختلفة ، ولا ينظرون الى الرسل كزعماء أحزاب .. أو رؤساء طوائف .

اذا عرفنا هذه الحقيقة ، عرفنا من هم المنشقون عن هذا الخط المستقيم . وهم غير المسلمين على كل حال .

والذى أراه .. أنه ينبغى أن يكون بعد الذى أشرت اليه ، أن يكف المسيحيون عن التبشير فى ديار المسلمين ، وأن يعملوا على تعميق المسيحية فى نفوس أبنائهم .. اذا كان يهمهم هذا انقاذا لهم من السقوط فى قاع الالحاد .

وأن يعمل المسلمون كذلك .. على تعميق العقيدة الاسلامية فى نفوس أبنائهم .. بدلا من أن يجدوا أنفسهم مضطرين لمقاومة التبشير المسيحى فى بلادهم .. وبين أبنائهم ، تحصينا لهؤلاء الابناء من آفات الالحاد والارتداد عن الاسلام .

والحوار بين الاسلام والمسيحية .. لا نعتقد أن له جدوى من الناحية الموضوعية ، بازاء .. احداث يهتز لها المسلمون فى الفلبين وقبرص ولبنان .

وكتاب المسلمين ـ القرآن الكريم ، يدعو الكتابيين الى كلمة سواء ، أمامهم .. فلا يحق لهم أن يدعونا الى أى منهج كان .

علــى دُرُوب الشمس

* أعترف .. وأنا أكتب هذه السطور ، بأن صديقى الأستاذ محمد هاشم رشيد شاعر مجيد ، قرأت وسمعت منه قصائد جيدة .. فى سنين مضت ، قبل وبعد إخراجه .. ديوانه الأول « وراء السراب » ، ففى شعره قوة التعبير والتحليق البعيد والخيال المجنح والأسلوب السلس المتين ، فهو شاعر مجدد ينحو منحى شعراء المهجر .. والبلاد العربية من المبرزين ، وله نفس يطول فى بعض المواقف .. حتى يصل إلى الملاحم ، وهو من طلائع شعراء المدينة المنورة ، بعيد الصوت لأنه يعنى بشعره ، تنميقاً ومعانى وأخيلة وبراعة صور .. هكذا عهدته وعرفته ومازال رأيى فيه شاعراً مجيداً .

وقد افضل فأهدى إلى ديوانه الأخير ، « على دروب الشمس » الذى صدر عن نادى المدينة الأدبى ، فى طباعة أنيقة .. على ورق صقيل . وليصدقنى أخى الشاعر .. أننى أفتقدت « الحرارة » التى عرفتها فيه ، فى كثير من قصائد ديوانه هذا ، بصرف النظر عن كون أكثر قصائد الديوان قيلت فى مناسبات مختلفة وفى أوقات مختلفة كذلك ، أو يرجع بعضها إلى تسع عشرة سنة خلت ، ومنها الجديد وليد عام أو أكثر ، وليس بد من أن أعلن لصاحبى أنه لم يثرنى فى ديوانه هذا .. سوى قصيدتين ، احدهما « صدى الهجرة » والثانية « انا وابنى والعيد » وكذلك ابيات متناثرة فى بعض القصائد .

وكم وددت .. لو أنه مضى فى نشيده الجميل « صدى الهجرة » فأطال هذه القصيدة ، ولم يقف بها عند العقبة ، وهو قادر .. على أن يزيد فيها من وحى السيرة العطرة ليضمخ نفوسنا .. بنشيد عبق ، عبر مسيرة الدعوة الخالدة التى أنقذت البشرية .. من الظلمات إلى نور الهداية . وهى ليست « ثورة » كما يسميها الشاعر ، ولكنها دعوة إلى الخير ، خير الانسانية .. وسعادتها ، وانتشالها من الظلام إلى توحيد الله وحده .

وأنا لست مع الشاعر فى قوله :

تلك يا صاحبى مطالع لحن أبدى الايقاع والأنغام

وهو يعنى بهذا الوصف ، رفض النبى محمد صلى الله عليه وسلم لدعوة قومه ، حين عرضوا على عمه أبى طالب أن يسودوا ابن أخيه عليهم إذا شاء ، وأن يجمعوا له المال ، بشرط أن يكف عن الدعوة التى جاء اليهم بها ، وهى عبادة الله وحده ونبذ ماعدا ذلك ، فقال عليه السلام قولته المشهورة : « والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الدين ماتركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه . وهذا الجواب الحكيم لايعبر عنه بأنه مطالع لحن وإيقاع وأنغام ،ولكنه الجواب السديد والثبات على الأمر ، والتمسك بمهام الرسالة وأعبائها لأنها أرادة الله .

ويستعمل الشاعر ، كلمة « السكب » فى غير موضعها ، وهى لاتستعمل إلا للماء والكلام ، وذلك فى قوله من قصيدة « صدى الهجرة » وفى غيرها :

لم يزل يسكب اللهيب ويسرى ثورة فى منابر الاسلام

وربما قبلت من باب المجاز ، ولكن لاتقبل كلمة « ثورة » .. مكان دعوة وكلمة « المختار » فى البيت التالى ، رغم أننا لانختلف فى معناها إلا أنها دعت إليها القافية .. لاكمال البيت :

وأسألوا «الشعب» عن سنى الحصار
كيف مرت بمعشر المختار

واستعمل الشاعر كلمة يصدح ، وكان الأولى أن يكون يصدع ، وذلك فى قوله :

ونداء السماء يصدح رغم السجن والشوك واللظى والقيود

ولو استعمل الشاعر كلمة « صب » مكان سكب ، التى يكررها فى هذه القصيدة .. لأصاب كثيراً ، « وصب » استعملت فى الكتاب العزيز للماء

وللعذاب ، وعن الاستعمال الثانى ، يقول الله تعالى « **فصب عليهم ربك سوط عذاب** » وقال جل شأنه « **ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الجحيم** » .

ويقول شاعرنا :

هو عام .. ويلتقـــى الاحباب هو عام .. فأيـن أيـن العذاب
اسكبوه كمــا تشــاءون فالنصر قريـــب وفى غد لى مآب

وكلمة « سكب » رقيقة ، لاتصلح فى التعبير عن التعذيب ، والتعبير القرآنى دقيق وحسبك أنه من عند الله ، نزل على أفصح العرب ، وعلى قوم عرفوا بالبلاغة والفصاحة ، فكان الحجة .. التى لاتدمغ ، وقد عجزوا أمام تحديات القرآن .. الذى نزل بلغتهم فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثله ، ولو بسورة أو آية .

وقصيدة « أنا وأبنى والعيد » قلت إنها مما شدنى .. فى هذا الديوان ، ومعها « صدى الهجرة » وهما قصيدتان جيدتان .

وفى هذه القصيدة أنا وابنى والعيد ، يتحدث الشاعر عن ابنه الطفل فيقول :

لم يعش كمــــا عشنــــا بأعمــــاق اللهيب
لا ولــم يبصر من الــكون سوى اللـــون الحبيب

وكلمات (سوى اللون الحبيب) عبارة عن حشو ، أفسد البيت وأفقده معناه ، والقصيدة جيدة فى مجملها .. بلاريب ، فهى تصوير جميل ، وليس ذلك غريباً .. على شاعر موهوب .. متمرس .

وأنا لاأريد .. أن أثقل على أخى الشاعر محمد هاشم رشيد فى الوقوف على ديوانه ، « على دروب الشمس » ذلك أن أكثر قصائده .. لم تعجبنى ، لأنها تفتقد الحرارة .. والعمق اللذين يشدان القارىء الجيد ، وقد عهدته الشاعر المجيد ، ولا أريد أن أغضبه ، وكان فى مقدورى أن أقول كلمة عابرة ليس فيها معنى سوى المجاملة .. عن ديوانه هذا ، ولكنى آثرت الصدق ، فلا أبخسه حقه ولا أغالطه ، وحسبه منى الحب ، وهو مادعانى إلى الوفاء إليه فى هذه الكلمة عن

ديوانه الجديد . وعسى أن نقرأ لشاعرنا من جيد شعره ماهوله أهل ، وعسى أن تنشط فيه الدوافع ، وهو ناضج .. منذ زمن بعيد ، وهو فى تقديرى بعيد عن مراحل الكهولة .. التى تجنح إلى الركود والخمود وماتزال فيه حرارة الشباب وقوته ودوافعه ، والشاعر .. لايشيخ قلبه ، فهو فتى ، يتجدد كل يوم .. مع الحياة وأحداثها وصروف الدهر .

الحكيم فى مجمع اللغة

منذ ثلاث وعشرين سنة . أى من يوم أن دخل الاستاذ توفيق الحكيم .. عضوا فى مجمع اللغة العربية بتاريخ ١٧ من مايو سنة ١٩٥٤ م استقبله طه حسين بكلمة ، قالوا عنه يومئذ : طه حسين وقف يتحدث عن توفيق الحكيم .. أربعين دقيقة ، وخرج الناس لا يدرون ، هل مدح طه توفيقا أم ذمه ؟

منذ ذلك الوقت ، لبثت أتطلع الى كلمة الدكتور طه حسين ، ولعل ذرابة لسان طه وبلاغته ، وتخصصه فى الخطابة كان المقدم .. فى استقبال الكثيرين .. من أعضاء مجمع الخالدين الجدد ، يتحدث عنهم ، ويتحدث اليهم ، ويذكر اشياء عن دراساتهم ، وطباعهم وعاداتهم ، وما يحبون وما يكرهون يداعبهم تارة ، ويغمزهم أخرى ، يمدح وينتقد فى أسلوب بين الجد تارة ، والفكاهة .. تارة آخرى ، حتى يؤدى هذه المهمة ، ويلقى على العضو ما يريد أن يقوله له ويعرض لتاريخه .. « وهويته » على المجمعين ، وكأنه تقليد . اتبع فى استقبال اى عضو جديد ، تحت قبة هذا البرلمان ..

وبالامس نقل الى الصديق « ابو ماجد »[1] وقد سمع بحرصى على الوقوف على كلمة طه فى توفيق ، نقل الى صورة من هذه الكلمة .. من مجلة المجمع اللغوى بمصر ، فحفلت بها ، وفرحت ، لانى حصلت على شىء ضائع منى وقرأت كلمة طه حسين فى تسع صفحات ، وهى مزاج من الثناء والنقد .. فقد بدأ طه حديثه الى صاحبه بقوله : « خطر لى .. ان اصطنع فى استقبالك .. مذهب الجاحظ ، حين عرض لاحمد بن عبد الوهاب » ، فقال فى أول التربيع والتدوير : إن احمد بن عبد الوهاب .. كان مفرط القصر ، وكان يزعم مع ذلك .. أنه مفرط الطول ، وكان مربعا وكان يزعم مع ذلك .. أنه مدور وكان كبير السن ، متقادم الميلاد ، وكان يزعم مع ذلك .. انه حديث السن والميلاد ، ومضى

---

(١) الأخ فيصل حمود الملحى

طه حسين يقول : فما أظن مذهبا يليق باستقبالك .. الا مذهب الجاحظ هذا ، لانك خلقت من نفسك شخصية .. لا يمكن أن تؤدى الا على هذا النحو ، فانت تتكلف من الخصال ما ليس فيك . أنت جواد ، وتزعم انك بخيل ، وانت ماهر ماكر ، ومداور .. مناور ، وتزعم مع ذلك .. أنك ساذج لا تفرق بين ما ينفع ، وأنت صاحب جد فى حياتك ، وصاحب جد منتج ، وقد القيت فى روع الناس .. أنك لا تحسن .. الا العبث والدعابة ، انظروا الى هذه المزاوجة بين المتناقضات ، والى هذا اللعب بالالفاظ ، وتغلب المعانى .

بهذه النغمة التى قدمت مثالا منها ، بدأ طه حسين حديثه فى استقبال صديقه .. توفيق الحكيم فى مجمع اللغة العربية . وقد اصطنع طه حسين لغة ، لا يترتب عليها .. سلب ولا إيجاب ، وهى براعة عرف بها العميد .

ولعل فى نفسه شيئا ، اراد ان يقوله لتوفيق الحكيم وعنه أمام مجمع الكبار ، وكانت هذه فرصته المتاحة .

واذا عدنا الى الماضى ، نجد أن مناقشات .. دارت بين طه وتوفيق .. على صفحات مجلة — الرسالة — المصرية ، لصاحبها الاستاذ احمد حسن الزيات منذ صدورها .. فى عام ١٩٣٢ م حول الشخصية المصرية وبلورتها .. فى الادب المصرى وفنونه الحديثة .

وكان طه حسين .. يأخذ على توفيق الحكيم .. أخطاءه فى اللغة العربية . وحين نقلب صفحات كتاب — وثائق من كواليس الادباء — لتوفيق الحكيم الذى صدر عن مؤسسة أخبار اليوم .. فى شهر فبراير ١٩٧٧ م ، وهو الذى يشتمل على رسائل موجهة للحكيم . ورسائل صدرت منه .. لابويه واصدقائه . منذ سنة ١٩٢٤ م .. الى عام ١٩٥٤ م نجد رسائل متبادلة .. بين توفيق وطه وغالبا ما يكون طه .. فى أحد المصايف الايطالية والفرنسية ، وتوفيق فى مصر او فى جهة ما ، كباريس او النمسا ، وتصور هذه الرسائل .. الصداقة والشوق .. الى اللقاء ، واحاديث عن الادب والفكر ، وفكاهات ومداعبات .. من جانب طه حسين وكان توفيق الحكيم ، ينشر بجانب كل رسالة .. ايضاحا لها . سواء التى يتلقاها .. او التى تصدر عنه ، واكثر الرسائل كانت الواردة اليه .

ربما كانت الرسائل .. فيها اشياء شكلية ، وكان فى النفوس ما فيها ، بين طه حسين وتوفيق الحكيم وهى رسائل قصار .. فيها شىء من تحفظ واحتياط

ويعرض طه حسين فى كلمته .. بتوفيق الحكيم ، فيقول : والمدهش أنك بعد أن تخرجت فى كلية الحقوق وأريد لك .. أن تكون محاميا ، لم ــ تفلح ــ فى المحاماة ، ولم تفلح فى المحاماة لانك شغلت بشيء اخر غير المحاماة بشيء كنا ايام شبابنا .. نكره ان نشغل به .. غير جد الأمر وكنا نعبث .. حين يتاح لنا الفراغ .. الذى يجوز لنا فيه العبث ، شغلت بتمثيل عكاشة واصحابه .. عن المحاماة وجدها ، وعن الحياة وجدها ايضا ، وحتى يئس منك ابوك او كاد ييأس ، وحتى ذهب الناصحون اليه .. يغرونه ويريدونه .. أن يبعدك عن مصر ، لتبعد عن هذه البيئة التى كانوا يظنون .. أنك لم تخلق لها ، وابعدك أبوك الى باريس ، لتتقن فيها دراسة القانون ولتعود فتسلك طريقك الى القضاء .

ويمضى طه فى هذا التعريض فيقول : لانك حين ذهبت الى باريس .. لم ــ تفلح ــ فى القانون كما أنك لم تفلح فيه .. حين كنت طالبا فى كلية الحقوق .

هذا هو النقد المرير ، الذى جوبه به توفيق وهو يضع قدمه .. فى اليوم الاول .. على عتبة مجمع اللغة العربية . ويمضى طه قائلا لتوفيق : ــ عدت من باريس .. دون ان تحمل منها شهادة الدكتوراه او شيئا يشبه شهادة الدكتوراه فى القانون عدت من باريس .. لا تحمل شهادة كما عاد توفيق دياب ــ من لندن ، لا يحمل شهادة ــ وسنعرض للاستاذ توفيق دياب .. ان شاء الله يوم استقبل عضوا فى مجمع اللغة ، وقدمه طه حسين .

كان توفيق الحكيم وهو بمصر ، يكتب تمثيليات لمسرح ــ عكاشة ــ ، وهذا هو الذى يشير اليه طه حسين ، ويصوره بأنه شغل به توفيق عن المحاماة ، وكان أبوه ، وقد تقدمت به السن يريده أن يصبح قاضيا مثله ، ليرتاح هو ، وقد سلك القضاء ، ونعلم ان توفيقا اشتغل فى النيابة .. بعد تخرجه فى كلية الحقوق بمصر ويصور عمله ، كتابه الممتع ــ يوميات نائب فى الأرياف ــ وهو من أجمل ما كتب .

ولعل طه حسين . قد شعر وهو يستقبل صديقه انه اثقل عليه ، حين وصفه بالفشل فى دراسة القانون ، فى مصر وباريس فى كلماته اللاذعة .. فأراد أن يخفف عنه ، فقال : رجعت من باريس اذن .. لا تحمل شهادة ولكنك .. تحمل شيئا خيرا من الشهادة ، تحمل بعض هذه الكتب .. التى عرفناها فيما بعد ثم عرفك الناس .. حين ظهر كتابك الأول ــ أهل الكهف ــ وهى هذه

القصة التمثيلية الرائعة التى عرضت فيها لأول مرة مشكلة خطيرة ولمسألة جديرة بالعناية وهى مسألة الزمن . والزمن بالقياس الى وطنك هذا : مصر —

ومضى طه حسين ، يثنى على الكاتب ، الذى ينشىء فى لغته — لا يترجم ولا يقلد فيه ولا يتكلف ، ما كان يتكلف الكتاب ، الذين كانوا .. يحاولون .. أن ينتجوا فى التمثيل — هكذا يصرح طه حسين ، بالثناء على قصة أهل الكهف ، ويصفها بالاعجاب والامتاع .

ونحن نعلم .. أن توفيقا حين ذهب الى باريس .. ليكمل دراسته فى القانون . ويعود بالدكتوراه فيه ، استهواه الادب وهو فى طبيعته ، فغلب على عزمه ، وغير اتجاهه ، ولم يحقق أمل أبيه فيه ، بالتخصص فى دراسة القانون .

ويأخذ طه حسين .. فى الحديث الى توفيق وعنه ، فيقول : كنت طالبا لاعبا .. ولكنك على غير إرادة منك ، كنت كاتبا جادا ، لم تكن تتكلف هذا الجد وانما كنت تدفع اليه دفعا بقوة ما أظنك عرفتها ، أو حققتها الى الان ، وأخص ما تمتاز به ، هو انك فى فنك مسير لا مخير ، فأنت لا تختار وانما يختار لك ، وانت لا تريد وانما تراد على ما تكتب .

ثم يثنى طه على قصة — عودة الروح — لتوفيق فيقول : وكذلك كان الشعب المصرى .. حين صورته فى هذه القصة وأشهد .. لقد صورته فأحسنت تصويره ولم تصوره فتحسن تصويره فحسب ، ولكنك اضفت الى هذا التصوير .. شيئا من ذات نفسك ، وهذا الشىء .. هو الذى عرفت به طبيعة الشعب المصرى فأحسنت تعريفه ، فهو شعب يجهل نفسه ، وهو على جهله بنفسه يقدر نفسه ، يعرفها فى ضميره الخفى ، ويجهلها .. فى ضميره الشعورى ، كما يقول أستاذنا الرئيس لطفى السيد —.

ويمضى طه حسين .. فى اسلوبه هذا ، ولا أستطيع أن اقول انه متناقض ولكنه مزيج من الجد والهزل ، والعنف فى كلمة طه ، والهزل اكثر من الثناء ، وانظره يقول :— قد أعطيت من نفسك للناس صورة .. توشك ان تكون صورة مضحكة ، فلا يتحدث الناس عنك .. الا بانك بخيل أشد البخل ، متهالك على المال ، اكثر مما كان يتهالك عليه بخلاء الجاحظ ، لا يذكر بالقياس اليك .. سهل بن هارون ، ولا الكندى ، ولا ابن المؤمل ، ولا غير هؤلاء .. الذين تحدث عنهم الجاحظ .. فى بخلهم وحرصهم ، وتهالكهم على المال ، ولا تكاد تجلس فى

مجلس ... الا اخذ اصحابك يجادلونك .. فى البخل والجود ، وفى الحرص والانفاق وفى السماحة والكزازة . والطريف .. انك ترضى عن هذا كل الرضا ، وتحاول .. أن تضيف الى نفسك من هذا البخل الوانا واشكالا .. ما اعرف ان شيئا منها يتصل بنفسك حقا .

ونكمل الصورة فى الوقوف على كلمة طه حسين : « انت اذن طائفة من المتناقضات .. أنت فى فنك حين تعالج هذا الفن الطبيعى .. غير متكلف ولا متعجل ، كانما تغرف من بحر ، كما كان يقول القدماء ولكنك فى حياتك الاجتماعية .. مصنوع متكلف ، متعمل ، بعيد كل البعد عن الحياة الاجتماعية المألوفة جعلت نفسك موضوعا للتندر ، فالناس اذا ذكروك ، تندروا وضحكوا ، وسخروا أحيانا .

ويمضى طه فى القول .. « والناس يعرفونك بالبخل .. اكثر مما يعرفونك بالكرم ، لأن الكرم شىء طبيعى .. لا تكلف فيه ، والناس يتحدثون عن البخلاء وقلما يتحدثون عن الكرماء ، والناس يتحدثون عن أصحاب السذاجة ، وقلما يتحدثون عن أصحاب التفكير العميق ، والناس يتحدثون عن الخائفين المشفقين ، الذين يعدون أنفسهم جبناء ، اكثر مما يتحدثون .. عن الذين لا يخافون . ويستدرك طه فيقول : « والناس يعرفون فيك صورة .. ليس بينها وبين شخصك الحقيقى صلة من قريب او بعيد » .. ويعرج طه فى حديثه ، بشىء من نصح لصديقه توفيق ، كانما يوصيه ويحذره ، فيقول : « فكن يا صديقى ما شئت ان تكون خارج المجمع ، ولكن اذا دخلت المجمع ، فانظر الى اقرب أعضائه ، الى الصرامة والحزم ، والجد المر ، انظر الى العقاد مثلا ، وسر سيرته ، ولا اظن ــ تفلح فى هذا المجمع بحال من الاحوال .

أسلوب عجيب من طه حسين فى هذا الاستقبال ، كأن فى نفسه شيئا .. من توفيق الحكيم والا لما سلك هذا المسلك العنيف ، ولا نعلم ان المداعبة تؤدى الى هذا النهج .. فى استقبال زميل .. فى مجمع الكبار وصديق قديم ..

بعد انتهاء طه حسين من القاء كلمته فى استقبال توفيق الحكيم .. وقف الحكيم ، وشكر أعضاء المجمع اللغوى ، وتحدث عن عبد العزيز فهمى .. سلفه ، كما هى عادة العضو الجديد وذكر مواقف فهمى الشجاعة ، وعرج على واصف غالى وزير خارجية مصر السابق ، الذى اختير .. ليحل محل عبد العزيز

فهمى .. فى عضوية المجلس واعتذر ، ذلك انه لم يكتب شيئا باللغة العربية كما يقول الحكيم فى كواليس الادباء ، وهو يتحدث عن اختياره – اى توفيق – عضوا للمرة الثانية فى المجمع وكانت الأولى سنة ١٩٤٩ او ١٩٥٠ م ، فاعتذر حين أبلغه المرحوم احمد امين ، وكان أحد مرشحيه ، اما الثانى .. المشارك فى اختيار الحكيم .. فى المرتين ، فهو الدكتور .. منصور فهمى .. الذى كان يشغل منصب .. الأمين العام للمجمع .

وكان واصف غالى كما يقول الحكيم – معروفا ببلاغته فى اللغة الفرنسية .. الى حد أدهش الفرنسيين أنفسهم ، يوم خطب فى مجلس النواب الفرنسى باعتباره وزيراً لخارجية مصر :–

قال توفيق الحكيم حين وقف بعد طه حسين وكلمته .. التى ذكرتها .. فى استقباله : يتحدث الى المجمعيين – لقد وضعتمونى مشكورين فى كرسى مخيف ، كرسى رجل .. من أشجع رجال مصر . فى التاريخ المعاصر ، هو : عبد العزيز فهمى –.

ومضى يتحدث عن عبد العزيز فهمى فى كلمته كلها ، التى شغلت اربع صفحات من مجلة المجمع . والطريف ولعله من الحق ، أنه تجاهل طه حسين .. الذى استقبله . وتحدث اليه وعنه ولم يذكره بخير او شر . كانه لم يكن ، وانما وجه كلامه .. الى اعضاء المجلس ، ثم مضى يتحدث عن سلفه ، وما قدم للادب من خلال ثقافته العربية والفرنسية ، وهذا أقل ما يجب ان يفعله الحكيم .

وحين نقلب صفحات – وثائق من كواليس الادباء – الذى أشرت اليه .. نجد توفيق الحكيم يقول – فقد كانت هواية طه حسين .. أن يكتب المقدمات للكتب التى تصدر ، وخاصة اذا كانت .. لاصحاب المكانة ، والاهمية فى نظره –

وأخذ يستعرض من كتب طه لهم مقدمات مثل الشاعر خليل مطران ، والبشرى ، وأحمد امين وغيرهم ، ويقول توفيق : حتى ممن كانوا اكبر منه سنا ، واقدم مكانة مثل خليل مطران .. الذى فى سن أستاذه لطفى السيد ، فلما صدرت الطبعة الثانية من اهل – الكهف – اقترح ان يقدم لها ، فلم اتحمس لذلك فى نفسى لانى اكره المقدمات وقد نشرت الطبعة الاولى بغير تقديم ولكن أظهرت الموافقة والرضا وإن كنت لم أهتم بعد ذلك بالأمر وانظروا إلى جملة –

اقدم مكانة ــ وغمزه الحكيم ، اى ان خليل مطران .. اكبر من طه مركزا ادبيا .

هذا الموقف من توفيق .. امام طه حسين ، ربما ترك شيئا فى نفس طه فتحامل . لما يمكن ان يحسب تكبرا ، ولعل طه اسرها فى نفسه ، ولم يبدها وقد أشار طه حسين الى شيء من ذلك فى كتابه ــ فصول فى الادب والنقد بقوله ــ ونتحدث عن اهل الكهف ، وعن طبعة ثانية تذاع .. بين الناس ، فاقترح انا ان اقدمها الى الجمهور ، ويظهر الاستاذ يعنى توفيق الحكيم واصدقاؤه الرضا بذلك والابتهاج له ، ثم يلقى الستار ويرفع ، وقد تمت الطبعة الثانية ..من اهل الكهف وأبطأت انا بالمقدمة اسبوعين فينشر الكتاب ... بغير مقدمة ، وبغير أن يتحدث الى احد فى ذلك ، فيسوءنى ذلك بعض الشيء ــ.

ويعقب توفيق فى الكواليس على ذلك بقوله ولكن الظاهر ان الحساسية عند طه حسين كانت تضخم له الاشياء وأمثالها مما كان يتراكم فى نفسه دون أن يظهره الى أحد تصور فيه اننى اسيء اليه عمدا لدوافع سياسية

فى كواليس الأدباء ، لتوفيق الحكيم ، نجد الاثر الذى تركه طه حسين فى نفس توفيق ، ربما من خصومة قديمة يضاف اليها ، الكلمة الساخنة .. العنيفة ، التى استقبله بها ، فى أول ايام توفيق بمجمع اللغة العربية ، يوم اختير عضوا فيه .

ونقرأ للحكيم قوله فى الكواليس « فلا عجب اذن ان يظن بى طه حسين الظنون لذلك بادرت .. اعلن ان اكبر سلطة .. لا تستطيع أن تفسد .. الصداقة التى بيننا ، وصافيته ، وان كان اهل الحسد كما كان يقول .. يحاولون دائما .. إفساد الصداقات ، ومع ذلك ، فهذه الحساسية يعنى عند طه ــ كانت دائما مصدر متاعب ، ولا انسى كلمة لصديق الطرفين احمد امين ، كان دائما يرددها .. عن طه حسين قائلا :ــ ان صداقته متعبة ، وعداوته متعبة ..

اذن هناك رواسب ، ربما كان سببها حساسية طه حسين ، وعلى جانب آخر ، عدم تقدير توفيق لهذه الحساسية ، او اهماله لها .

ويعقب توفيق فى الكواليس على ترشيحه عضوا فى المجمع فى مايو ١٩٥٤ م بواسطة احمد امين ومنصور فهمى ، فيقول : « وكان المفروض ان الذى يستقبلنى .. هو احمد امين او منصور فهمى ولكن طه حسين .. اتصل

بى .. وسألنى بالتليفون .. هل لدى مانع ، من ان يكون هو الذى يستقبلنى ، فلم يكن هناك بد من الموافقة .. حتى لا اجرح احساسه ، واكرر معه الموقف نفسه ، يوم عرض .. ان يقدم الطبعة الثانية من « اهل الكهف » وانا اعرف حساسية طه ، وحرصه على تقديم واستقبال من يختارهم ، واستقبلنى بالفعل »

ولم يعقب الحكيم فى الكواليس كما لم يذكر فى كلمته فى المجمع شيئا عن استقبال طه حسين . وانما ، لزم الصمت ، ولم يذكر فى الكواليس ، الا حساسية طه وسعى اهل الحسد بافساد الصداقات .

وهكذا ، نكمل هذه الوقفة ، واكبر الظن ، ان الموضوع .. قد استوفى نصيبه فى هذا الاستعراض ولا يتطلب منى مزيدا من تعقب ، وكان الدافع .. الى هذه الوقفات .. حرصى .. على قراءة كلمة طه حسين فى استقبال الحكيم ، منذ القاها ، قبل ثلاث وعشرين سنة ..

وشكرا للصديق ابى ماجد الذى بلغنى هذه الرغبة .. وموعدنا .. فى وقفة أخرى .. ان شاء الله ، مع الاستاذ محمد توفيق دياب ، يوم دخل مجمع اللغة ، واستقبال الدكتور طه حسين له ، ورده على ذلك ،

استقبال دياب

* يبهرك الدكتور طه حسين إذا وقف خطيباً فيملأ نفسك غبطة وأدباً وجمالا ، وهو يتدفق كالجدول الرقراق الذى تداعبه النسمة الحالمة فى أيام الربيع الزاهية ، وفى أيام الصيف اللافحة ، فيملأ نفسك خرير الماء وحفيف أوراق الشجر وتملأها الخضرة التى تغمر حواف الجدول وما حوله .

* ان طه خطيب مفوه لايتلجلج ، ولاتغلق عليه أبواب ونوافذ القول ، فهو قد انتهج مسلك الخطابة منذ كان مدرساً فى كلية الأداب المصرية ، يلقى دروسه على طلبته من حصيلة قراءاته الواسعة فى فنون الآداب ، وتكونت فيه تلك القدرة الباهرة ، فيما يلقى من محاضرات ، واتخذ لنفسه أسلوباً يميزه عن غيره ، أجمل مافيه تلك السلاسة والقوة والعمق ، فى بلاغة متميزة ولغة جادة رصينة ، ذلك أنه ابن الأزهر وفقيهه فى لغته وفقهه .

* وحين وصل قطار الدكتور طه حسين إلى مجمع اللغة العربية بمصر ، ليحط فيه رحلة بعد تطواف طويل على اثباج السياسة والادب والخصومات التى لاتكاد تنتهى حتى تشتعل من جديد .

* حين وصل طه حسين إلى هذه المحطة الأخيرة من ترحاله الطويل ، كان الخطيب الذى يستقبل الأعضاء الجدد فى المجمع ، ولا أقول أنه الوحيد فى ذلك ، ولكنه كان البارز والأكثر استعداداً ؛ بما وهب من فصاحة لسان ، وقوة شخصية ، وقدرة على العمق فى استقصاء حياة ومسلك العضو الذى يستقبله ، ومايتخلل حديثه من جد يبلغ القسوة والعنف وشىء من هزل يخفف به تلك الحدة ، التى يخشى من صرامتها أن تسىء إلى الزميل الجديد . وغالباً مايكون هناك روابط بين طه والضيف الجديد على المجمع ، وطه فى هذا المنهج نموذج فريد اختاره وارتضى منحاه .

* وقد وقفنا فى الشهر الماضى فى حلقات متتابعة من زاويتى اليومية « معالم » بهذه الصحيفة على خطاب طه حسين فى استقبال صديقه توفيق الحكيم ، فعنف به أشد العنف ، حتى أن توفيقاً حين وقف يلقى كلمته لم يشر إلى خطاب الاستقبال بشيء ، لا من بعيد ولا من قريب ، من قسوة ماسمع وهو يلج باب المجمع كعضو فيه ، ولعله فوجيء بهذا العنف ، وما كان يتوقعه ، لأنه ضيف جديد ، ولعله أغلق عليه فلم يستطع أن يدافع عن نفسه ، وهو يعلم أنه أمام خصم عنيد سرد فى كلمته - أى طه - شيئاً كثيراً من تاريخ توفيق الحكيم مما لايجادل فيه لأنه واقع ، وما كان ليكشف هذا الواقع فى حفل التكريم والضيافة .

وفى يوم ٨ من مارس من سنة ١٩٥٤ وقف الدكتور طه حسين كعادته ، يستقبل الضيف الجديد الأستاذ محمد توفيق دياب فى مجمع الخالدين - كما اطلق عليه - فى عهد رئاسة أستاذ الجيل لطفى السيد . لهذا المجمع ، وشغلت كلمة طه فى استقبال توفيق دياب ست صفحات ونصفاً من مجلة المجمع ، ولم ينج توفيق من لذعات لسان طه ، وقد استهل طه حديثه اليه بقوله :

« أحمد إليك الله على أن وصلت إلينا سالماً بعد رحلة طويلة شاقة ، وسفر غير قاصد فى طريق قد بثت فيه عقاب ، أى عقاب ، كيف .. وقد اختارك المجمع لعضويته فى ابريل الماضى ولم يأذن لك بالوصول إلينا إلا فى فبراير الماضى ، ذلك لأن مفاتيح دارنا هذه ليست إلينا وانما هى إلى وزراء المعارف ، يستأذنون فى استعمالها بمجلس الوزراء ثم يأذنون للأعضاء الجدد بالوصول إلى زملائهم الذين سبقوهم إلى هذه الدار » .

ويمضى طه حسين فى القول :

« ومع ذلك فأحسبك أقربنا داراً إلى هذا المجمع ، فانظر إلى الدار وبعد المزار ، وأذكر قول أبى العلاء :

فيا دارها بالخيف أن مزارها
قريب ، ولكن دون ذلك أهوال

ثم يتحول طه حسين إلى الحديث عن شخصية دياب ، فيذكر انه عرفه منذ زمن بعيد ، عصياً ، أبياً ، لايحب الخضوع للنظم ، فأصابه بعض الشطط من ذلك ، منذ كان صبياً ، واقرأوا مايقوله طه عنه :

« وإذا ذكرت العصيان فانما أذكره وأنا الحظك فى سنيك الأولى ، ثم حين كنت صبياً تختلف إلى الكتاب ، ثم حين اختلفت بعد ذلك إلى المدرسة الابتدائية فى حى من أحياء القاهرة فكنت دائماً تلميذاً سىء السيرة فى فصلك ومدرستك ، لاتحب نظام المدرسة ولاتحب أمر الأستاذ والناظر ولاتحب الكتب المقررة ، وانما تتبع هواك وتعمل كما تريد أنت لاكما تريد لك نظم التربية و ــ البيداجوجيا ــ .

ويأخذ طه حسين فى سيرة صاحبه ، وأنه ما كاد يخلص من المدرسة الابتدائية حتى التحق بالثانوية ، ولكنه لم يستقر فيها فيقول له :

« فمازلت تعبث وتلهو ، ولكنه عبث جاد ولهو صارم ، تقرأ فى غير مايطلب إليك أن تقرأ فيه ، وتسمع لغير ماينبغى أن تسمع له ، وتطيع نظماً أخرى .. لاتأتيك من المدرسة وانما تأتيك من نفسك الجامحة وقلبك هذا العصى الذى لايحب الطاعة ، ولايرضاها » .

ويشير طه حسين فى حديثه إلى أن محمد توفيق دياب لم يستقر فى المدرسة الثانوية الحكومية بسبب مسلكه الجامح فتحول إلى مدرسة أهلية لعلها تساير ــ عبثه ــ كما يشير طه ، ولكن النتائج لم تختلف ، فاضطرت أسرته أن تنقله من القاهرة إلى الاسكندرية لعله يتروض ويرتاض النظم فيعنى بالدراسة حتى ينال الشهادة الثانوية ، وذهب دياب إلى الاسكندرية مكرها وكان بذلك بارما ضيقا .

ولكن حاله لم تتغير فظل عصياً أبياً ، يؤثر مايريد على مايراد له ، كما يعبر طه حسين ، ورغم أن ديابا ، كما يصوره العميد ، درس على هواه لاهوى المدرسة ، فقد اتيح له أن يحصل على الشهادة الثانوية فى سرعة وكان من اوائل الناجحين .

ورحل دياب إلى بريطانيا وفى ذلك يقول طه حسين :

« ثم أردت أن تطلب العلم حيث تحب انت ، لاحيث يحب لك أهلك وذووك ، فرحلت إلى بلاد الانجليز وهناك لم تحفل بالنظم الجامعية البريطانية ، كما لم تحفل بالنظم التعليمية المصرية ، فدرست فى بلاد الانجليز على هواك أيضاً وليس لهذا كله معنى إلا أنك لم تكن تلميذاً طائعاً ، انما كنت تلميذاً من النوع الذى ينصرف عنه المعلمون والنظار وأساتذة الجامعات ومديروها » .

« درست فى بريطانيا العظمى كما شئت أنت ، والغريب انك أحسنت الدرس وبلغت من العلم ما أحببت ، أو بعض ما أحببت ، فالذى أعرفه أن حاجتك إلى المعرفة لاتنقضى ، ولكنك لم تعد من بلاد الانجليز باجازة معينة ، ولكنك عدت منها بشىء غريب قلما يعود به الطلاب الذين يرسلون إلى الخارج ، عدت وفى نفسك ميل إلى هذه النزعات ، نزعات التصوف الذى يخرج الناس عن عاداتهم أحياناً » .

هكذا .. ينساب طه حسين يتحدث إلى صاحبه وعنه فى يوم استقبال الأستاذ محمد توفيق دياب فى عضوية مجمع اللغة العربية بمصر .

ونكمل الموضوع .. عن كلمة طه حسين ، ورد الضيف الجديد .. على كلمة الخطيب .. الذى استقبله ، وتحدث إليه ، وتحدث عنه ، مصوراً .. شخصية القادم الجديد ، وما اكتنفها وهى تضرب فى الأرض ، تصيب وتخطىء كأن طه حسين .. قد وقف نفسه ، يمسك بميزان .. دقيق ، كأنه ميزان الجواهر الغالية ، أو كأنه صراف ماهر ، يميز .. سليم العملات .. من مغشوشها . من أول نظرة ، أو فحص سريع . أو هكذا يضع طه .. من يندب نفسه .. لاستقبالهم .

نتابع .. مع عميد الادب العربى ، فنراه .. يذكر صاحبه بأيام خلت ، كان فيها طه ودكتور محمد حسين هيكل ودياب شباباً ، متحمسين ، وكانت حماستهم ، كأنها نار تتأجج .. فى الصدور والرؤوس ، كما يقول طه ، من اجل استقلال مصر ، وكان ثلاثتهم .. يقيمون المعارك ، ضد الزعيم سعد زغلول .. وضد حزب الوفد مع آخرين .. من الذين يسلكون مسلكهم حتى يشتط النقد ، فيقدمون إلى القضاء ..

ويذكر طه حسين .. أن تلك الأيام .. كانت رائعة ، لأنه وزملاءه كانوا .. يصدرون فيها .. عن نفوس صادقة ، وقلوب مؤمنة ، تريد الخلاص لمصر ، والحرية والاعتزاز .

يعود .. د . طه حسين إلى الماضى وذكر الشباب ، وعنفه ، « كنت خصماً لسعد ، وحين انحرف اصدقاؤك السياسيون .. عن سياستهم لك ، وأرادوها دكتاتورية .. طاغية ، انحرفت عنهم ، وحاربتهم فى قوة أى قوة ، وفى عنف .. أى عنف ، وضحيت فى ذلك بمنصبك ، واقبلت على مغامرة .. عرفت أولها ولم

تعرف آخرها ، أتذكر خصومتك للدكتاتورية الثانية ، دكتاتورية صدقى رحمه الله ؟ . ما اظن أن مرارة السجن .. قد ذهبت آثارها من نفسك » .

ويمضى طه .. يسرد الأحداث فى التاريخ ، ومن التاريخ ، ويعقب بقوله : « انها أيام قد خلت بخيرها وشرها ، غير أنها تركت آثاراً فى نفسه . ونفوس زملائه .. لاتمحى » ويؤكد أنهم كانوا ينهضون بالواجب وكانوا يحتملون الشدائد .. فى سبيله ، وكانت الخطوب ، تعترض عنف الشباب وقوته ، ومغامراته وكانت حياتهم .. لاتعرف إلى الاستقرار سبيلا ، ونستمع إلى طه يخاطب صاحبه ، محمد توفيق دياب ، ويعرج به كأنه يقرأ من صفحات مكتوبة أمامه :

« وما أكثر المغامرات .. التى دفعت إليها فى حياتك تلك .. التى لم تعرف نظاماً .. ولا استقراراً ، وانما مضت على سجيتها .. أشبه شىء بالسيل الذى لم يتخذ لنفسه طريقاً مرسومة ، كهذه الطرق .. التى تحفرها ، لأنه انما يجرى حيث استطاع أن يجرى ، ويندفع .. فى غير وجه ، حيث استطاع أن يدفع » . هكذا يصور طه صاحبه فى غير مصانعة ، ولا احتياط ، ولاتحفظ .. أمام نخبة المفكرين الكبار .

ويعقب بعد هذا ، مخاطباً صاحبه فيقول له : « هكذا كنت ، وأخشى أن تكون قد بقيت كما كنت ، وأخشى .. أن تكون الشيخوخة التى وصلت اليها لم تستطع أن تردك .. إلى شىء من الاناة والمهل ، والرشد الاجتماعى .. الذى يأخذ الناس .. بالحياة الهادئة الوادعة .. المطمئنة » .

صراحة ، لاتنقصها الصراحة ، فى هذه الألفاظ المحددة الشكل ، والمعانى يلقى بها طه حسين ، وكأنه مطمئن .. إلى أن صاحبه .. يتقبلها ، لأنها تصوره حقاً ، ليس فى ذلك تجن ولا افتراء رغم عنف التعبير أحياناً .

ثم يشير طه .. إلى أن أعضاء مجمع اللغة العربية ، لم يختاروا توفيقاً عن عبث ، ولاعن مجرد حبهم له ، والرغبة فى زملائه ، وانما اختاروه ، لأنهم — يقدرونه —

هذا هو بيت القصيد فى هذه القفلة التى تعقب مايشبه الهجوم .. فى كلمة استقبال ، وطه لبق ، يحسن اللعب بالمعانى والألفاظ ، ولماح يشتد حينا ، ويلين حينا آخر ، ليصل إلى غايته ، وهو حين يتحدث أو يكتب ، لاتأخذه المصانعة ،

ولايشتط .. إلى حد الجفوة التى لاتحتمل ، فهو يوائم .. بين المواقف فى هذه الدبلوماسية الأدبية العميقة .

وينتهى طه حسين ، موجها الحديث .. إلى زميله الجديد ، أو الجديد القديم ، فيقول :

« حقاً .. لست من العلماء .. الذين يملأون الدنيا بكتبهم ، ويحصون مجلداتهم بالعشرات ، فلا أكاد أعرف لك .. إلا شيئاً قليلا .. من المجلدات وأحسبه كتاباً واحداً ، ولكنك ملأت الدنيا ثقافة بمحاضراتك أيام الشباب ، ملأتها ثقافة .. بلمحاتك التى كنت تمس بها الحياة الاجتماعية وتمس بها حياة الناس اليومية ، علمت الشباب بأدبك ، كيف يحبون الأدب ، وعلمته بجدالك .. وبخصامك كيف يصلب فى الحق ، ويجادل عنه ، ويخاصم فيه ، وعلمته بملاحظاتك الاجتماعية .. كيف يهتدى إلى الخير وينصرف عن الشر ، وعلمته قبل كل شىء .. كيف يحب الجمال الفنى الأدبى » الخ ..

تصوير جميل حقاً ، فى روعة اداء وتسلسل سلس .. فى الأفكار ، مثل الجدول الرقراق .

ونختتم وقفة طه حسين ، عند هذه السطور ، وهو يتحدث عن أعضاء مجمع اللغة العربية ، فيقول لصاحبه عنهم :

« كلهم قد أدى واجبه ، وأن له أن يطمع فى الراحة ، ولكن المزية الخاصة .. لهذا المجمع .. ولأمثاله من المجامع هى هذه : أنه يأخذ الذين استحقوا الراحة .. بأن يعملوا ويعملوا ، ويتكلفوا التعب والجهد ، ويحتملوا الشقاء والعناء ، ليؤدوا حق الواجب ، وليقولوا للشباب : إن الواجب .. شىء يجب أن يصحب الانسان ، منذ يعقل .. إلى أن يموت » .

نعم : الواجب .. شىء يؤديه الانسان حبا فى ممارسته ، منذ يعقل .. إلى أن يموت . ونحن نذكر به الشباب ، وننبههم إليه ، أولئك الصادر منهم .

* وبعد أن شرق وغرب طه حسين ، فى رحلة طويلة من الذكريات كأنه أراد أن يقصها ، ليذكر بها صاحبه ، ويسمعها لزملائه .. أعضاء المجمع . آن له ، أن يعود إلى كرسيه ليستمع إلى كلمة .. المحتفى به ، ماذا سيقول ، وبماذا يرد .. على الهجوم والاطراء ، اللذين .. مزج بينهما طه فى هذا المزاج الطريف ، بكل مافى النقد من كره ، وما فى الاطراء من حب بالقياس .. إلى النفس البشرية ؟

وقف محمد توفيق دياب ، ودخل فى الموضوع مباشرة ، يشير .. إلى مستقبله ، فقال : « ها أنتم أولاء .. قد سمعتم من صديقى الالمعى ، الذى تفضل باستقبالى .. هذه الروائع .. من كلمات ، وإن كنت أغضى حياء من الثناء الجميل .. الذى أغدقه على شخصى .. فى سخاء يشبه الاسراف ، لكنه ثناء على حلاوته .. يمازجه غير قليل من الملح ، وقديماً علمنا .. من بعض الطهاة .. أن لابد من شىء .. من الملح ، يضاف إلى بعض صنوف الحلوى ، كيما تشتهى ، وتستساغ » .

هكذا بدأ تعليق دياب ، فقد فهم بعمق ماقاله طه حسين ، وكأنه يسجل كل كلمة قالها طه ، ولكنه لايدقق كثيراً وهو يلقى كلمته ، كرد .. على كلمة الاستقبال ، وشكر لأعضاء مجمع العربية .. الذى اختاره ، ويقول عن كلمة طه :

« وملح هذا الاستقبال .. الذى حظيت به .. من صديقى طه ، وهو تعدد ــ القرصات ــ المهذبة ، التى كثيراً .. مايلــوى بهــا ــ لحــوم ــ أصدقائه .. ليا رقيقاً ، كلما واتته الفرص » ، ويمضى فى القول : « هذه الوصفة ، المعسولة .. المملوحة ، لابد لنا من الاستمتاع بها .. على يد الدكتور طه ، حتى لنقبل على كل سانحة .. من قرصها فى سرور وبهجة .. لأنها قرصات مستطرفة ، تقع من النفوس وقع الدغدغة ، والتحميش .. من الابدان » .

الأستاذ دياب ، يحسن الظن بصاحبه ، ويرد بروح رياضية .. على أساس ، أن ماقيل فى استقباله هو من قبيل المداعبة ، ولكن هناك أشارات ، وهو أضافة الملح .. إلى بعض أصناف الحلوى ، كى تشتهى كما ينسب ذلك إلى الطهاة وأنه تعلم منهم . وفى هذا غمز قوى .. لمقولة طه حسين .

ويشير الأستاذ دياب ، بأنه زار طه حسين فى منزله الحافل .. بالعلوم والأداب والفنون ، قبل أن يلج باب مجمع اللغة العربية ، وأنه وجد .. فى هذه الزيارة شيئاً من الامتحان ، وأنه أحس بشىء من التهيب بداخله من هذا الأستاذ .. « الذى تعود .. أن يكون فارساً ، ولم أتعود أن أكون فريسة » .

ويأخذ الأستاذ دياب فى الحديث : « لم يكن الامتحان .. الذى فرضه على اختباراً فى الأدب ، ولا فى اللغة ، ولا فى شىء يمت إلى ذلك بسبب ، ولو أراد الدكتور .. أن ينزل بى هذه المحنة .. لأسقطنى من حالق ، ولو حاول ذلك

معى ، لتمردت عليه ، كما تمردت على المألوف من مناهج الدراسة ، والمطروق من سبل الشهادات العالية ، وما فوق العالية ، كشأنى .. الذى وصفه الدكتور طه بلسانه ، من فوق هذا المنبر .. منذ لحظات قصار » .

تعبير دياب فيه اتزان ، ولكن معانيه أعمق من ألفاظه ، واسمعوا هذا التعبير الموجز ، ولكنه ذو معان عريضة :

« وروح الجماعة .. تزين للجماعة .. أن تسخر ، إذا سخر قائدها ، وأن تتواقر وتجد ، إذا جد وتواقر ، ومن عسى أن تكون هذه الجماعة المثقفة .. فى هذا اليوم الرحيب ، سوى البطل .. الذى يعلو منبر الخطابة ليستقبل العضو الجديد ، فى حفلة رسمية ، من الغرباء ، والقرباء » .

وقبل ، أن نترك الأستاذ دياب يتحول .. فى كلمته .. إلى سلفه .. الدكتور « فارس نمر » ، مارا بحديث ، أو كلمات عابرات .. عن أستاذ الجيل ، لطفى السيد ، ودوره معه .. أيام سعد زغلول .

قبل ، أن نترك الأستاذ دياب ونحن بين استقباله ، يستمع ويتحدث نسمعه ونقرأه فى هذه الكلمات القصار ، عن طه حسين :

« وأشكر صديقى طه .. الذى أوسعنى مدحاً ، حتى اخجلنى ولكنه خجل .. ليس يخلو من زهو وغبطة ، أشكر عسله وملحه ، وفكاهته وجده ، وأشكر عبقريته .. التى – جعلت – من صبى القرية ، وكم فى القرى .. من صبية يعدون بالملايين ، ومن طالب الأزهر . وكم فى الأزهر من طلاب .. يعدون بالألوف أشكر هذه العبقرية .. التى سمت بطه حسين .. إلى الذروة العليا .. من الثقافة والأدب ، أدب الشرق ، وأدب الغرب .. على السواء » .

وهكذا .. نختتم هذه الوقفة ، وقد اضطررت . الى عدم الاطالة ، حتى لايكون الاملال ، ولا الايجاز .. الذى يفقد المعنى .

سير أعلام معاصرين

* صدر للدكتور « محمد رجب البيومى « عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة » فى شهر جمادى الآخرة ١٤٠٠هـ ، أبريل ١٩٨٠م ، ضمن .. سلسلة البحوث الاسلامية كتاب بعنوان « النهضة الاسلامية .. فى سير اعلامها المعاصرين » . وعددهم أحد عشر نفرا .

وهؤلاء الاعلام هم ، حسب ترتيبهم فى الكتاب :

١ ــ عبد الحليم محمود ــ شيخ الأزهر السابق .
٢ ــ محمد رشيد رضا ــ صاحب المنار .
٣ ــ محمد البشير الابراهيمى ــ المجاهد الجزائرى .
٤ ــ سيد بن على المرصفى ــ أحد اعلام النهضة الثقافية .
٥ ــ محمد الخضرى ــ المؤرخ والبحاثة والأديب .
٦ ــ أحمد غلوش ــ رئيس جماعة منع المسكرات ، وداعية اسلامى .
٧ ــ عبد الوهاب النجار ــ المؤرخ البحاثة .
٨ ــ أحمد حسن الزيات ــ أحد اعلام البيان العربى .
٩ ــ طنطاوى جوهرى ــ الباحث .. المفسر .
١٠ ــ محمد عاكف ــ شاعر الاسلام فى تركيا .
١١ ــ عبد الوهاب عزام ــ الأديب الغيور .

وسأقف .. ان شاء الله ، عند كل واحد من هؤلاء الاعلام ، حسبما تقضى الضرورة ، وقبل ذلك لابد من الاشارة الى الجهد المشكور الذى بذله الدكتور البيومى فى التعريف .. بهؤلاء الرجال ، ورغم انهم معاصرون ، فانهم يكادون ينسون ، فشكر الله للمؤلف جهده فى هذه المقالات .. التى عنى فيها بهذه النخبة البارزة . وفى ظنى ، لو أن هذه .. المقالات تتسع للتوسع ، لأمكننا .. أن نحصل على تراجم وافية لهؤلاء الاعلام ، تغنى عن سواها كثيرا ،

ولا أقول كل الغنى ، لأنى رأيت الدكتور البيومى يتحفظ ، وهذا أيسر .. تعبير يقال فى هذا المجال ، ذلك أن ثمة مواقف وأخطاء لبعض .. هؤلاء ، بعضها لم يذكرها المؤلف ، وبعضها الآخر مر عليه مر الكرام ، هذا المسلك .. يجافى أمانة التاريخ . ولا أريد أن أتعجل ، فاذكر تلك المواقف والاخطاء فى بداية الموضوع ، وانما سيكون ذلك ان شاء الله امام الاسماء المترجم لها .

وثمة ملاحظة ، فالكتاب الذى عندى ، ويترجم لمن ذكرت ، كتب عليه « الجزء الثانى » فهل له جزء أول .. يعنى بتراجم لآخرين ؟. لقد بحثت عنه فى مكاتب الاسكندرية .. فلم أعثر عليه ، وربما أتيح لى أن أجده .. فى القاهرة فأطلع عليه ، وأشير اليه فى كتاباتى إذا كان .. يتصل بتراجم ، أو أن تشوقنى موضوعاته فاقرأه ، وأجد فيه ما ينبغى أن يقدم للقارىء .. مما يفيد .

وقد وددت ، أن يعنى الدكتور البيومى برجل ، يتجاهله المعاصرون والدارسون ، وهو الدكتور .. زكى مبارك . ولعل تلك الحدة فى طبعه ، كما أشار الى ذلك الاستاذ أحمد حسن الزيات .. يوما ما ، هى سبب سوء طالعه ، فهل سوء الطالع .. يلاحق المرء حتى بعد وفاته فيهمل ولا ينصف ولايدرس ويقدم للقارىء .. كما هو ، من غير تزيد ولا ظلم ، زكى مبارك ابن سنتريس ، زكى مبارك .. الطالب فى السربون والاستاذ فى معاهد العراق ، وزكى مبارك الدكاترة ، وصاحب النثر الفنى .. فى القرن الرابع الهجرى ، وليلى المريضة فى العراق ، ومدامع العشاق ، الى آخر تلك المؤلفات والألقاب والحياة الصاخبة ، فى وزارة المعارف ، وصراعه مع خصومه ، وربما كان فى مقدمتهم طه حسين ، حتى أن زكى مبارك قال ذات يوم : لو جاع أبنائى .. لشويت لهم لحم طه حسين واكلتهم ؟.

هذه الاشارة اقتضاها الحديث ، ومن يدرى فقد أجد له ترجمة فى الجزء الأول .. من النهضة الاسلامية ، وقد أجد له دراسة .. عنى بها آخرون . ولو كان فى وقتى متسع لنهضت بهذه المهمة ، فاعكف على دراسة مؤلفات الراحل ، واقرأ مقالاته فى الصحف ، ثم استعين الله ، وإقدم دراسة عنه ، تنصفه وتنصف منه .

الشيخ : عبد الحليم محمود

* أحد أعلام كتاب الدكتور رجب البيومى ، وأحد شيوخ الأزهر ، وخريج جامعة السربون فى فرنسا ، وصاحب المؤلفات المتعددة ، قليلها جيد ، وكثيرها لا يعبأ به .

* أريد أن أقول : إن أوروبا .. تشكو اليوم من فراغ روحى ، وهى فى ضياع ، وأنها تفتش عن منقذ ، ولا تجد ذلك .. إلا فى الاسلام . ولكن كيف ؟

ما أكثر الغنى فى الدول العربية والاسلامية ، ولكن هذا الغنى ، مبدد فى الاسراف ، وقليل جدا ، وأقل من القليل .. الذى ينفق فى سبيل الله .

ماذا لو أن البلاد الغنية سخرت النزر من ثرواتها للدعوة . والمسلك يسير دعاة .. فهموا الاسلام ، ويجيدون لغات القوم .. الذين يتحدثون اليهم ، منهجهم سليم ، ومسلكهم قويم ، الى جانب مؤلفات .. فى حجم كتب الجيب ، مثل سلسلة « اقرأ » الشهرية المصرية ، تكتب باللغات الانجليزية ، والفرنسية ، والروسية ، والاسبانية ، والالمانية ، واليونانية ، والايطالية . مادتها .. سماحة الاسلام ، ومواقف اسلامية ، وعدل الاسلام ، وهديه ، ودعوة القرآن ، ونبى الاسلام .

مشروع .. لا يكلف شيئا ، ولكن كما يقال : التوفيق عزيز . إن هذا الحديث .. يتطلب وقفة أطول ، للحث على هذا العمل المثمر .. بحول الله وقوته ، وتكون النتيجة ، ما جاء فى الحديث الشريف: « لأن يهدى الله بك رجلا خير لك من حمر النعم » فأين الاثرياء الذين يرجون لقاء ربهم ، ليعملوا عملا صالحا ؟ وأين المسلمون .. المؤمنون ؟ انهم سيذهبون ويتركون ما كنزوا من ذهب وفضة وعروض التجارة ، وسيسألون عنها ، ويتمنون لو أنهم يردون فيعملون غير الذى كانوا يعملون . وسيكون الرد .. بكلا ، لأن الفرصة .. قد أتيحت ، ولم تنتهز فى ظل الغفلة .. التى كانت تغلف السادرين ، الذين شغلتهم الدنيا .. عن الأخرى . وآخرون يذكرون العمل للآخرة ، إذا داهمهم الموت ،

ويرجون من الله أن يمد فى أعمارهم ليصدقوا ، ويكونوا من الصالحين ، وسيكون الجواب بالرفض ، لأن الأجل حان ، ولن يؤخروا . اللهم إنى أذكر ، والذكرى تنفع المؤمنين ، مصداقا لقول الله سبحانه وتعالى ، وكذلك قوله : « فستذكرون ما أقول لكم » .

* كم وددت لو أن الشيخ عبد الحليم محمود رحمه الله ، ألف تلك الكتيبات ، عن سلطان العارفين:أبى يزيد البسطامى ، وأحمد البدوى ، وابى العباس المرسى ، وابى مدين الغوث وغيرهم.. ممن يسمون أولياء ، ونحن كمسلمين ، نقول فى أولياء الله ما قاله فيهم القرآن الكريم : (الا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) . وانظروا الى دقة التعبير القرآنى ، ذلك أنه كلام الله ـ لم يقل الا ان الأولياء لا خوف عليهم ، وإنما نسبهم الحق اليه ، فقال : اولياء الله . ونحن نعلم أن للشيطان أولياء .

وندعو كذلك بدعاء نبى الله سليمان .. عليه السلام ،كما جاء فى القرآن الكريم : « وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » .

تأملوا الصفتين ، عباد الله، وصالحون ، وهل نحن على سمات أولياء الله ؟ ثم ما يجدينا هذا ؟ علينا أن نعمل لنكون صالحين ، ولم يطلب إلينا أكثر من ذلك .

قلت : لو أن الشيخ عبد الحليم ، أنفق الجهد الذى بذله .. فى تخاريف الصوفية والاولياء ، فأنشأ بها كتيبات .. باللغة الفرنسية التى يتقنها ، فى محاسن الاسلام ، وعدله وهدى الله ، وأشاعها فى البلاد التى تتكلم تلك اللغة ، لكان خيرا له ولهم .

والعجب ، أننا نجد الدكتور محمد رجب البيومى يجارى الشيخ عبد الحليم محمود فى مساره عن تخريفات الصوفية ، وبناء الاضرحة ، والعناية .. بتلك الأوثان فى بيوت الله ، التى أمر سبحانه أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، ولكنه يشرك به ، بدعوة أصحاب تلك المقابر أن ينفعوا ، وأن يدفعوا ضررا ، استمعوا للدكتور البيومى ماذا يقول فى ص ٥ ، ٦ وهو يتحدث عن عبد الحليم محمود :

« طلبنى الاستاذ : عبد الحليم محمود هاتفيا .. من كلية اللغة العربية ذات صباح ، فسارعت الى تلبية دعوته ، وكان حينئذ أمينا عاما لمجمع البحوث ، فآنسنى بمقدمات مشجعة ، ثم سألنى فى هدوء : ماذا تعرف عن ابن

عطاء الله السكندرى ؟. وكان السؤال مفاجأة لى ، ولكن الله أمدنى بما يرفعنى فى عينه ، فقلت وقلت ، فابتسم الشيخ ، ثم قال ملاطفا ، تذكر ، فأنت تعلم أكثر من ذلك ، فتذكرت ، وفتح الله على بما هو أتم وأكمل ، فقال الشيخ : حدثنى عن رأيك فى حكم ابن عطاء الله السكندرى ، فكأنه عهد الى طريقا جديدا للقول ، فافضت ، وحين انتهيت من الحديث ، قال الشيخ فى هدوء : أجمع كل ما قلته فى مقال جيد ، واكتبه سريعا ، ليكون فاتحة لفتح باب تبرع خيرى ، كى ابنى ضريح ابن عطاء بمدفن الامام : الليث بن سعد ، فى حى الشافعى لأننى زرته من أسبوع ، فعز على أن يكون مثواه هكذا الى أن يقول رجب البيومى « فبادرت بتسطير المقال ، وفتح الشيخ عبد الحليم باب التبرع ، وقد تم للشيخ ما أراد ، فهيأ الضريح اللائق وحفظ لابن عطاء حرمته لدى الزائرين » .

سبحان الله ، ما أغرب عقول بعض الناس ، هل الحرمة فى الضريح وقيمته ؟ وهل هذا من الاسلام فى شىء ؟ انه الحرام يمارس باسم الله ، ينهض به علماء مسلمون ، عشعش فى عقولهم التخريف ، والعجب أن يجارى الدكتور البيومى هذا الضلال ، ويعمل له ، ويفاخر به ، ويكتبه للتاريخ ، ليعقله الشبان ويقدسوه ، تلك بعض مآس من بعض اتباع الاسلام البارزين ، وكيف نقدمه الى غير المسلمين ، كصورة .. قد لا تختلف عن الاصنام التى ينحتونها ويعبدونها ؟ اذن لا فرق ، وما حاجتهم الى الاسلام .. اذا كان هذا طابعه ؟

على انى قرأت كتاب الشيخ عبد الحليم عن أوروبا والاسلام ، فأعجبنى ، وليته مضى فى هذا المنهج ، إذن لنفع ، وبعد عن هذا الالتواء .. الصوفى ، المغرق فى الخرافات والمحرمات ، وليته كما قلت ، صرف جهده فيما ينفع الدعوة الى الخير بكتب نافعة للمسلمين ، أو لغيرهم بلغتهم التى يحسنها .

محمد رشيد رضا

* قبل الحديث .. عن المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا ، وهو الشخصية الثانية ، فى كتاب الدكتور محمد رجب البيومى « النهضة الاسلامية فى سير أعلامها » . أريد أن أقف مع المؤلف ، عند هذه الكلمات التى قالها عن الشيخ ـ عبد الحليم محمود ـ ، وهو أى البيومى .. فى مجال الدفاع عن التخاريف التى ينتهجها الدكتور عبد الحليم ، قال الدكتور البيومى : « وقد يأخذ عليه بعض المتسرعين ولوعه بسير المتصوفة من الأولياء ، وترداده لما تركوه من خوارق ، ولست مع هؤلاء المؤاخذين » .

والانسان يعجب .. من هذا الاتباع الذى يلح على الدكتور البيومى لهذه التخاريف ، التى سلكها الشيخ عبد الحليم . وفى الحديث الماضى ، جئت على حكاية .. استدعاء الشيخ لرجب من المنصورة ، ليسأله عن « ابن عطاء الله السكندرى » ، ويطلب منه أن يكتب موضوعا ، ينشر فى مجلة الأزهر ، ليكون فاتحة خير لجمع تبرعات .. لبناء ضريح لابن عطاء ، ويفعل رجب البيومى ذلك .

وأريد أن أسأل الدكتور رجب البيومى ، اما الشيخ عبد الحليم محمود فقد مضى ، هل هذا العمل من الاسلام فى شىء ؟ وهل لم يحرم الاسلام بناء القبور ، وبناء الأضرحة ؟

سيقول قائلهم : إن هذا رأى وهابى ، ولكنه الحق ، لأنه منهج السلف الأخيار ، وأهل السنة . أما البناء على القبور ، فهو سبيل أهل البدع والاباطيل والتخاريف .

فهل الذين يحملون على الشيخ عبد الحليم محمود بعد ذلك .. متسرعون ؟

لقد قلت فى الكلمة السابقة .. ما ينبغى أن يقال عن الأولياء . وهو اتباع قول الله فيهم ـ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ـ . وأشرت الى أن هذا الوصف ـ لأولياء الله ـ فقط . أما ما عداهم فأمرهم الى الله ، إن أحسنوا ، فقد

أحسنوا لأنفسهم ، وإن أساءوا فلها . والمسلم له منهاج ، لا يقلد فيه وليا ولا غير ولى . ألا يكفى المسلم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل آمنت بالله ثم استقم » .

لا أريد أن أمضى فى هذا الحديث ، فقد يشغل هذه الحلقة اذا مضيت أقدم الأدلة والاستشهادات .. التى تدعو ألا نتبع إلا منهاج الاسلام ، كما جاء عن الله سبحانه ، وعن رسوله عليه السلام ؛ ويكفى قول رسول الله — اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم — . ويكفى هذا النص الكريم من كتاب الله « كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

وأعود الى الشيخ رشيد رضا ، وهو من إحدى قرى جبل لبنان ، على البحر الأبيض ، اسمها « القلمون » . نشأ فى أسرة دينية مسلمة ، تلقى علومه فى المدرسة الوطنية الاسلامية بطرابلس الشام .

أما انتقاله الى مصر ، فلعل أحد الأسباب الرئيسية وصول بعض أعداد صحيفة « العروة الوثقى » .. التى كان يصدرها الشيخ جمال الدين الأفغانى ، ويشاركه فيها الشيخ محمد عبده .. بما ينشره فيها من آراء ، وثانى أسباب الهجرة ، أن محمد رشيد رضا ، كما يقول الدكتور البيومى ، لم يستطع أن يترسم منهج العروة الوثقى ، فى صحيفة .. كان يكتب فيها ، ثم ترأس تحريرها ، وتسمى « ثمرات الفنون » ، وهى صحيفة شامية ، ذلك .. أن الرقابة العثمانية ضيقت عليه الخناق ، فمضى الى مصر ، بعد أن توفى جمال الدين الأفغانى .. واجتمع الشيخ محمد عبده . فكان رشيد رضا العوض فى حمل دعوة محمد عبده ، واشاعة آرائه ، ونقل افكاره ، لا سيما بعد أن انشأ « مجلة المنار » فى مصر ، فكانت منبرا للدعوة الاسلامية ، وقد حوربت من الخديوى ومن الصحف ، ولكن مركز محمد عبده العالم ، ثم المفتى ، وثبات محمد رشيد رضا على المبدأ .. والجهاد ، حميا بقاء المنار ، تصلح ما فسد ، وتنقد الخرافات والأباطيل ، وتعنى بالصحيح .. السليم من العقيدة ، فقدر لها النجاح ، ونبغ رشيد رضا ، وبعد صوته » .

واستمعوا الى الدكتور البيومى ، وهو يتحدث عن بعض شيوخ الأزهر ، يجادلون الامام الشيخ محمد عبده ، فيقول المؤلف : « ثم يزيدون ، فيتمسكون

بالخرافات الشائعة ، من تقديس القبور وزيارتها ، وانتحـال الكرامـات لاصحابها ، والاستشفاع بهم فى قضاء المآرب » . وهذا الذى انتقدته ، وينتقد .. فى الشيخ عبد الحليم محمود ، وسايره المؤلف فى ذلك .

وتصدر محمد رشيد رضا ، يرد على اسئلة القراء الشرعية ، ويصدر الفتوى ، وشرع كذلك يفسر القرآن الكريم ، ولكنه لم يتمه ، فقد توفاه الله بعد أن فسر قول الله تعالى « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الاحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما والحقنى بالصالحين » .. من سورة يوسف .

وألف صاحب المنار كتبا جادة ، حفيلة بالمعارف الاسلامية ، منها : « المنار والأزهر » ، و « الوحى المحمدى » و « قضية المرأة المسلمة » و « مشكلة الخلافة الاسلامية » ، و « كتاب السيرة المحمدية » . عدا تحقيق دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة ، وتعليقاته على كتب الشيخ محمد عبده . الى جانب مئات الفصول فى شتى الفنون السياسية والاستعمار ، وأحداث الحيـاة وأهلها ، ورسائل الى الأمير شكيب ارسلان .

ويذكر المؤلف ، أن صاحب المنار ، كان حربا .. على البدع ، والالحاد والمروق ، كما يشير الى أن محمد رشيد رضا « قد وفق أكثر من أستاذه » أى أن التلميذ بز شيخه فى التفسير .

وقد أشرت من قبل ، الى أن الدكتور البيومى .. كثير التحفظ ، الى حد الاخلال بالامانة التاريخية ، واسمعوه .. فى هذا التعبير الذى يبلغ حد الخوف ، وهو يتحدث عن محمد رشيد رضا .. ينكر على رجلين مسلكهما وانحراف مزاجهما ، فيقول المؤلف :

« ولكنه من ناحية أخرى لا يستطيع .. أن يسكت عن عالمين شابين ، يقول أحدهما ان القرآن يتحدث عن ابراهيم حديثا .. لا يكفى لاثبات حقيقة وجوده ، ويقول الآخر : ان الاسلام دين فقط ، ولا صلة له بالحكم والدولة .. على الاطلاق » .

وأنا أعرف أن الأول طه حسين ، قال ذلك فى كتابه ــ فى الشعر الجاهلى ــ . ولكنى لا أذكر الثانى . فلماذا لم يذكر الدكتور رجب البيومى اسمى

الشابين ، أحدهما ينكر وجود نبى الله ابراهيم ، والآخر يجرد الاسلام من خصائصه ؟

كان جديرا بالمؤلف أن يذكر ذلك لأمانة التاريخ ، وليس فى ذلك حرج عليه ، بل أنه واجب ، لأن المؤلف رجل مسلم ، ويفجعه ما يمس دينه ، سواء .. بعد ذلك ، أن طه حسين وصاحبه رجعا فيما زعما ، وقالا ، أو لم يرجعا ، فأمرهما الى الله .

محمد البشير الابراهيمى

* تركت الحديث ، عن أعلام الدكتور « محمد رجب البيومى » فى كتابه .. « النهضة الاسلامية فى سير أعلامها » بعض الوقت ، لانشغالى .. بكتابات جانبية ، كان لها دورها ، وكان لها أهميتها ولا تقبل التأجيل .

وأعود اليوم .. الى هؤلاء الأعلام ، فتكون البداية أو اللقاء ، مع رجل بعيد الصوت فى الجهاد ، كان فى طلب العلم أولا ، وهو السلاح الماضى الى غيره .. من الوان الجهاد ، كما كان تلقى العلم وتدارسه .. خطط بناء للحرب ، تبدأ من التعبئة بالتعليم ، وتلقين الطلاب واجب الوطن ، ويرسم لهم .. أن الخلاص من المستعمر المحتل هو الهدف ، والطريق الى الحرية وعزة النفس ، وفى سبيل ذلك ترخص النفس ، ويهون حطام الدنيا ، لذلك ، كان ابن باديس ، والبشير الابراهيمى ، والطيب العقبى ، القادة والقوة ، فى استقلال الجزائر .

* اما القيادة ، فان الاثنين الأولين ، قد خططا .. لدى لقائهما فى المدينة المنورة .. للطريق الى الخلاص ، ثم أخذا فى التنفيذ .. على أرض الجزائر نفسها .

وهذا التنفيذ لم يكن فى بدايته عتادا وجيشا .. يقاتل المستعمرين الفرنسيين ، الذين مضى على احتلالهم للأرض عند قيام جمعية العلماء بالجزائر مائة عام ، وانما كان باقامة المدارس ، وتلقين الطلاب .. دروس العلم والثقافة ، ودروس الجهاد من خلال تلك الدروس ، وكانت المرحلة الابتدائية ، وتبعتها بعد ذلك مرحلة ثانوية ، وليس هذا وحده ، وانما كانت المساجد الملتقى للعلم والتعليم ، واستقل .. ابن باديس بالقسطنطينية ، كما استقل .. ابن الابراهيمى بوهران وكان العقبى فى الجزائر.. كان للتعليم، وكانت المحاضرات ، ومنها ..كان إيقاد المشاعر ، وايقاظ الهمم ، وظن المستعمر ، بعد انسلاخ مائة عام ، ان الجزائر أصبحت فرنسية ، بل اعلن بعض رؤساء الوزراء فى فرنسا ، أن الجزائر .. جزء من التراب الفرنسى ، كأنهم قد أخذوا صكا بذلك ، غير ان

الشعب .. الذى قدم مليون شهيد ، لم يسلم ، ولم يستسلم ، ولم يهادن ، ولم يهن ولم يستكن ، وانما هب هبة رجل واحد ، ليس طلاب المدارس ، الذين علمهـــم ابـــن باديس ، والابراهيمـــى ، والعقبـــى فحسب ، ولكن مع سكان الأحراش ، الذين الهبت نفوسهم المحاضرات ، ودروس الوعظ والارشاد ، تحركوا جميعا فى التوقيت .. الذى اذن فيه بالجهاد ، وإعلان العصيان .. على المتسلط المستعمر الغاصب . وكان هذا التمرد ، نتيجة .. ذلك التخطيط ، والدروس التى وعاها الرجلان اللذان التقيا فى دار الهجرة ، المركز الذى انطلقت منه .. الجيوش الاسلامية تقاتل ، اعلاء لكلمة الله ، ونشر الدعوة الهادية ، فكانت اشراقة النور تشع فى أنحاء الدنيا ، تبشر بدين جديد يدعو الى توحيد الله ، والى الخير ومكارم الاخلاق .

سيطول الحديث ، لو تركت لقلمى ان يستطرد فى هذه المناحى ، ولعل ذكر الرجل المجاهد ، صاحب الترجمة فى كتاب الدكتور .. رجب البيومى ، هو دافع هذا الاستطراد .

وكان الجهاد .. ينطلق من العقيدة ، لذلك .. نجح جهاد الايمان .. والوعاظ يذكرون الناس ، أعنى الواعين من الوعاظ . ورجـال الدعـوة الاسلامية ، يقولون للناس ، ان الاعداء اقوى من المسلمين ، فى التقنية والمهارة .. على استعمال السلاح ، ولكى ننتصر عليهم ، يجب أن نتذرع بالايمان ، ثم نجاهد ونقاتل ، اما اذا انسلخنا من ايماننا الذى هو العدة الاولى ، فلن نغلبهم ، فنحن نتساوى معهم فى البعد عن الله ، وهم أركز منا فى القتال والصبر عليه وخدعه ، لذلك .. فلن نقدر عليهم .

وحين يعى المسلمون ، الالف مليون عددا هذه المقالة ، وحين تبلغهم أصوات الوعاظ والمصلحين ، وتؤثر فى نفوسهم ، فسيكون النصر يومئذ باذن الله لهم ، وبدون ذلك ، بدون سلاح الايمان والاعتصام بحبل الله للامة المسلمة ، فلن تقوم لها قائمة ، ولن تستفيد .. من انصارها الكافرين والملحدين ، الا الخذلان والذل .

فماذا اقول عن البشير الابراهيمى المجاهد ؟ لقد ألم الدكتور ... محمد رجب البيومى بحياة الرجل وجهاده وجمعه للمال ، لبناء المساجد والمدارس ، فكانت صروح ثقافة ، انطلقت منها الدعوة العالية .. الى الخلاص ، وقد كان .

واحتمل البشير وصاحبه الاضطهاد والتنكيل ، ونفى البشير بعد اعتقاله .. الى صحراء « وهران » ، وتوفى صاحبه فى الجهاد ابن باديس ، والاول ما يزال معتقلا ، وقد اختير لشغل مركز ابن باديس فى رئاسة جمعية العلماء .

وكان البشير الابراهيمى عالما فحلا ، وخطيبا مدرها ، وشاعرا .. يترسم المنهج القديم والقوى ، وكان لغويا مبرزا ، وكان شجاعا ، قوى الارادة لا يهاب .

لقد جمع الرجل .. بين العلم وحصافة الرأى والشجاعة ، وكان من ثمرة ذلك الاخلاص ، والمجاهدة مع النفر .. الذين نذروا انفسهم بحق .. لوطنهم ، فكانوا القادة الذين يتقدمون .. الصفوف الاولى ، تصد وتتعرض للنار والرصاص ، وبذلك ، بهذه الشجاعة الصابرة القوية ، كانت .. القدوة ، وكان الفداء ، وكان الجهاد المقدس ، وكان نصر الله .

أذكر وأنا طالب فى مدرسة العلوم الشرعية .. بالمدينة المنورة ، زارنا العلامة الشيخ البشير الابراهيمى ، ونحن فى فصول الدراسة ، وحياه .. على ما اذكر المرحوم ، الاستاذ عبد الرحمن عثمان بقصيدة ، واحتفت المدرسة بزيارته ، والقى كلمة شكر ردا على التحية ، وقال : لو كان عندى سعة من الوقت لرددت على الشعر بمثله ، ولكنى على عجل ، وكان الرجل .. يرتجل البيت والابيات من الشعر ، وكان يميل الى الرجز ، ولا ادل على ذلك من تلك الملحمة الرجزية التى تبلغ ستة وثلاثين الف بيت ، نظمها وهو فى المنفى فى الصحراء الوهرانية ، « وهى من الرجز السلس اللزومى » كما يقول الدكتور البيومى ، تضمنت مختلف الموضوعات فى تاريخ الاسلام والفرق فى العصر الحديث والمجتمع الجزائرى بفرقه ونحله ، وافانين من الهزل .. للمذاهب الاجتماعية والفكرية والسياسية المستجدة ، ومحاورات ادبية رائعة ، ووصفا للاستعمار ، ومكائده ودسائسه وحيله وتخديراته للشعوب ، والانحاء على الابداع فى الدين ، وتصويرا .. لاولياء الشيطان الى غير ذلك من الفنون التى حوتها تلك الملحمة ، التى على ما يبدو لم تر النور .

وجريدة البصائر .. نقرأ فى افتتاحيتها ذلك النمط الفريد من التعبير اللغوى على غرار سجع الكهان ، وهو دليل .. على ضلاعة الرجل فى لغته ،

وعمقه فيها ، وقد جمع تلك الافتتاحيات فى كتاب اسماه « عيون البصائر » .
اما مؤلفاته الاخرى ، من دينية ولغوية ، فلعلها .. ما تزال فى عالم النسيان .
ولا ننسى أن نذكر أن الفقيد ولد فى عام ١٨٨٩ م ، من اسرة كريمة تتصل فى نسبها بالأدارسة العلويين ، من امراء المغرب .

ونجد الدكتور البيومى ، يبدأ حديثه عن الشيخ الابراهيمى من موقف ، كان يحتفل فيه .. بمرور ثلاثين عاما على وفاة الشاعر احمد شوقى ، فكان الاطراء والثناء على الشاعر ، ثم برز رجل يشع النور من وجهه ، فوقف ناقدا لشوقى ، ذلك ان الشاعر .. تغنى بحضارة فرنسا وحريتها ، وفرنسا .. كانت تحتل بلد المتحدث ، وتضطهد أهله ، فاين الحرية ؟ وكان الحاضرون بين معارض أو مستنكر ، ذلكم هم الذين .. لا يعرفون البشير الابراهيمى ، والابراهيمى كان يعرف أحمد شوقى وحافظ ابراهيم فى حياتهما .

أما المؤيدون ، فهم العارفون والمقدرون .. لعلم وثقافة شيخ الجزائر وعالمها .. وتناوله . غوغائيو الصحافة فى القاهرة .. آنذاك معلنين استنكارهم . لرجل لغة ودين .. اهتمامه بالشعر والنقد ، والحكم على الشعراء وشعرهم ، وشوقى الذى تحدث عن حضارة فرنسا التى بهرته ، لم يقصر فى لومها ، فنقدها ، ونجد ذلك فى قصيدته المشهورة :

سلام من صبـــا بردى أرق ودمـــع لا يكفـــكف يا دمشق

الى ان يقول :

دم الاحـــرار تعرفـــه فرنسا وتعـــرف أنـــه نور وحق
وحـــررت الشعـــوب على قناها فكيـــف على قناهـــا تسترق

رحم الله شيخنا البشير الابراهيمى ، فقد كان حرا أبيا ، ومسلما غيورا ، ومجاهدا فى الله ، ومهيبا وخطيبا مفوها ، ذرب اللسان ، شجاع القلب . كريم النفس ، ندرة من نوادر الرجال . وكانت وفاته فى شهر مايو من عام ١٩٦٥ ، بعد ان جنى ثمار جهاده المقدس باستقلال الجزائر ، عليه رحمة الله .

سيد بن علي المرصفي

* شغلت عن كتاب الدكتور .. محمد رجب البيومى بعض الوقت .. فينبغى أن أفرغ اليه بعض الوقت لأفرغ منه ، وقد توقفت .. بعد الحديث عن علامة الجزائر المجاهد ، الشيخ .. محمد البشير الابراهيمى . لنصل الى رجل كانت له شهرة عريضة فى مصر عامة ، وفى الأزهر خاصه . كان رجلا من رجالات الأزهر ، لم يكن عالما .. فى الفقه الاسلامى ، ولا أصول الدين ، ولا الحديث ولا التفسير ، ولكنه .. كان رجل لغة وأدب ، وقد عرفته من خلال احاديث الدكتور طه حسين عنه ، فقد كان استاذه .. فى الأدب العربى فى الأزهر ، حين كان طه .. يتلقى العلم فى أروقة الأزهر ، قبل .. ان يخرج منه ، وينتقل الى الجامعة المصرية حين انشئت . وكان طه .. يتحدث عن استاذه « سيد بن على المرصفى »، حديث المعجب .. المطمئن ، وطه حسين قليلا ما يعجب بأحد من رجالات الثقافة والمعرفة ، فطموحه وتطلعاته كانت اكبر .. من امكاناته ، ولكنه .. كان صاحب استعداد لأن يحلق بتفكيره الى افاق بعيدة ، وكان قليل الرضا .. عن الشيوخ فى الأزهر ، وكان بلا شك راضيا عن استاذه المرصفى فهو يثنى عليه وعلى درسه ، ذلك .. ان هذا الأستاذ متمكن من الأدب العربى القديم ، تمكن العالم به ، فوجد طه فيه .. الرجل الذى ترتاح نفسه اليه ، فتحدث عنه .. فى أكثر من مناسبة ، مثنيا عليه ، حفيا به ، ذاكرا فضله ، مشيدا به ، ذلك ان طه وجد من نفسه رضا عن هذا الأستاذ ، فلزم درسه ولم ينفر منه ، ولا أنكر عليه شيئا .. مما كان يلقى من دروس فى الأدب العربى ، يختلف اليه طه مع لداته ، وخاصة صاحبيه ، احمد حسن الزيات ومحمود زناتى ، فقد كانوا .. ثالوثا ، مثلما كان العقاد والمازنى وعبد الرحمن شكرى ، قبل ان تقع القطيعة .. بين الثالوث الثانى ، حينما اختلف المازنى مع شكرى ، وكان بينهما ما كان .. من نقد المازنى لشكرى ، مما أدى الى مجافاة ، وخصام .

يتحدث طه حسين .. عن أستاذه المرصفى فى كتابه « تجديد ذكرى ابى العلاء »، فيقول : « استاذنا الجليل .. سيد بن على المرصفى ، أصح من عرفت بمصر ، فقها فى اللغة واسلمهم ذوقا فى النقد ، واصدقهم رأيا فى الأدب ، وأكثرهم رواية للشعر ، ولاسيما شعر الجاهلية وصدر الاسلام ».

« كان يدرس الأدب .. فى الأزهر الشريف ، وبدأت أختلف اليه ولما أعد السادسة عشرة ، فلزمته اربع سنين ، ما اذكر انى انقطعت عن درسه ، أو تخلفت عن مجلسه ، ولم يقف الأمر بينى وبينه .. على ما يكون بين الأستاذ والتلميذ من صلة ، بل نشأ بيننا نوع من المحبة .. يشوبها فى نفسى الاجلال والاكبار ، وفى نفسه العطف والحنان ، وتبعث كلينا .. على ان يتعصب لصاحبه ، ويناضل عنه ، على نحو .. ما يكون بين الأبناء البررة والآباء المثقفين ».

« سعدت بهذا الحب قديما ، وسأظل سعيدا به .. طول الدهر ، لأنه صادف قلبى .. فى غضارة الطفولة ، ونضارة الصبا ، ولأنه حب مصدره العلم ، لم تفسد عنصره المادة ، ولم تكدر جوهره مآثم هذه الحياة .. حب الأستاذ ودرسه .. قد أثرا فى نفسى تأثيرا شديدا ، فصاغاها على مثاله ، وكونا لها فى الأدب والنقد .. ذوقا على مثال ذوقه ».

« ايثار للبدوى الجزل .. على الحضرى السهل ، وكلف بمناحى الأعراب فى فنون القول ، ونبو عن تكلف المولدين لأنواع البديع وانتحالهم لألوان الفلسفة والمنطق ، وبغض شديد .. لحكم الضرورة فى الشعر واللفظ السهل .. المهلهل ، يقع بين الألفاظ الجزلة.. الفخمة الى غير ذلك .. مما هو الى مذهب القدماء من أئمة اللغة ، ورواة الشعر ادنى منه .. الى مذهب المحدثين ، من الأدباء .. والنقاد ، كل قديم فى هذا المذهب جيد ، خليق بالاعجاب ، لرصانته ومتانته ، وكل جديد .. فيه ردئ ، سفاف لحضارته وهلهلته ، فاذا كان من المحدثين من أخذ نفسه بمذاهب القدماء ، فسلك مسالكهم ، وتأثر خطاهم ، فهو حقيق .. أن تقرأه وتنظر فيه ، وإلا فدرسه لالسنتنا فساد ، وللكاتنا كساد ، وعلينا .. ان نلقى بيننا وبينه .. من الصد والاعراض .. حجابا صفيقا ».

ويقول طه حسين كذلك ، عن أستاذه المرصفى ، فى مقدمة كتابه « فى الأدب الجاهلى »: « ومذهب القدماء .. ما كان يمثله الأستاذ الشيـخ .. سيـد المرصفى ، حين كان يفسر لتلاميذه فى الأزهر .. ديوان الحماسة لأبى تمام ، أو كتاب الكامل للمبرد ، أو كتاب الأمالى .. لأبى على القالى ، ينحو فى هذا التفسير .. مذهب اللغويين النقاد ، من قدماء المسلمين .. بالبصرة والكوفة وبغداد .. من علوم البلاغة ».

اننى أنقل الآراء فى الشيخ المرصفى .. عن طلبته ، كما فعل الدكتور البيومى ، أنا أنقل من كتابه ، لتكون الصورة أوضح وأدق ، لأن الذين خالطوا الأستاذ المرصفى ، وتلقوا دروسه هم أقرب الناس .. اليـه ، فنقلـوا ، أو صوروا .. انطباعهم ومشاعرهم وعرفوا الرجل ، وألموا بثقافته ، فهم خير من يتحدث عنه ، ونترك طه حسين ، لننتقل الى الأستاذ احمد حسن الزيات ، صاحب مجلة الرسالة .. التى كانت تصدر فى مصر وكانت مدرسة للأدب والمعرفة ، وكما اشرت ، فان الزيات ــ كان رفيقا لطه فى الأزهر ، ومعهما .. محمود حسن زناتى . يقول الزيات فى العدد « ٤٠ » من مجلته الرسالة عن أستاذه المرصفى :

« كان أستاذنا المرصفى .. يطبعنا فى النظم ، على غرار الحماسة ، وفى النثر .. على غرار الكامل ، ويزين لنا ان ننظم .. معلقة كطرفة ، أو ننشىء خبرا .. كأبى عبيدة ».

وتلميذ ثالث ، هو الأستاذ ــ محمود محمد شاكر ــ، كتب فى العدد رقم « ٦٦٩ » من الرسالة يقول عن أستاذه المرصفى :

« وكان الشيخ .. حسن التقسيم للشعر حين يقرأه ، فيقف حين ينبغى الوقوف ، ويمضى .. حيث تتصل المعانى ، فاذا سمعت الشعر .. وهو يقرأه فهمته ، على ما فيه من غريب أو غموض ، أو تقديم أو تأخير أو اعتراض ، فكان يمثله لك تمثيلا ، لا يحتاج بعده .. الى شرح أو توقيف ، وكان فى صوت الشيخ معنى عجيب .. فى الثقة والاقتدار ، وفى نبراته .. حين ينشد الشعر معنى الفهم .. للذى يتلوه عليك ، فلا تكاد تخطىء المعانى .. التى ينطوى عليها ، لأنها عندئذ ممثلة لك .. فى صوته ».

« فاذا أردت .. بعد ذلك أن تعرف كلف طلابه بدرسه ، فاليك ..

ما حدثنا به عنه أستاذنا الكبير : أحمد شفيع السيد فى احدى محاضراته .. بكلية اللغة العربية حين جاء .. ذكر المرصفى ، فافاض فى تعداد مواهبه ، وكان مما قال – معنى لا لفظا –: « ان درس الشيخ .. كان لا ينتهى بالأزهر حتى يبتدىء .. فى منزله ، لأن أفواج الطلاب .. كانوا يتزاحمون على السير معه .. فى الطريق اذا نهض الى بيته ، فاذا أتاه ، دخل معه .. نجباء أبنائه ، فأخذوا تحيتهم العاجلة ، وظلوا واياه .. فى سمر ادبى ، مشبع بالحب .. والاعتزاز وكانت الكتب الأدبية .. تتراءى فى حجرة الشيخ مركومة ، متراصة عن يمين وشمال ، ويقرأ فيها الطلاب كما يشاءون ويستعيرون .. ما يريدون فى شغف ونهم واقبال وود » .

وطالب رابع ، هو الدكتور .. زكى مبارك ، تحدث عن أستاذه .. فى العدد « ٣٩٨ » من مجلة الرسالة ، فقال :

« كان الشيخ المرصفى .. أول رجل تسامى الى نقد مؤلفات الأكابر .. من القدماء ، وكان أول رجل أقر كرسى الأدب .. بالأزهر الشريف ، وكان أول رجل .. جعل للأدب مكانة .. بين جماعة كبار العلماء ، فكان بتلك الصفات .. أوحد عصره بلا جدال ».

ويتحدث المؤلف ، الدكتور البيومى عن المرصفى فيقول :

« كانت دروس السيد المرصفى .. روضا يانعا ، آتى أكله الشهى ، فانتج رياحين وأزاهر .. ذات عبق شذى ومنظر مونق ، وحسبك .. أن يذكر من أبنائه ، فى مجال الزعامة الفكرية ، والقيادة الأدبية : مصطفى لطفى المنفلوطي ، وأحمد حسن الزيات ، وطه حسين ، وعبد العزيز البشرى ، وعلى عبد الرازق ، وزكى مبارك ، وأن يذكر منهم فى مضمار التحقيق العلمى ونشر آثار السلف .. فى اللغة والدين ، محمود حسن الزناتى ، واحمد محمد شاكر ، وحسن السندوبى ومحمد محيى الدين عبد الحميد ، وان يذكر منهم .. فى دنيا الصحافة والتحرير : محمد الهلباوى ، وعبد الرحمن البرقوقى ، ومحمد ابراهيم هلال ، وفهيم قنديل ، اما الشعراء المجيدون من طلابه : فأنت تعد منهم ولا تعدهم اذ تستطيع .. أن تختار على سبيل المثال : حسن القاياتى ، وأحمد الزين ، وعلى الجارم ، وأحمد شفيع السيد ، وابراهيم الدباغ ، ورمزى نظيم ».

وإذا ذكر المرصفى اليوم ، فيذكر مؤلفه .. الرائع الشامل « رغبة الأمل .. فى كتاب الكامل »، فنجد العلامة اللغوى يبسط الشرح لألفاظه ، وغوامضه كأنه البحر ، تستخرج منه اللآلىء .. من أصدافها . وكتاب الكامل أحد الأصول الأربعة فى الأدب ، التى قال عنها العلامة ابن خلدون فى مقدمته : وسمعنا من شيوخنا .. فى مجال التعليم ، أن أصول هذا الفن .. وأركانه أربعة دواوين ، هى : أدب الكاتب .. لابن قتيبة ، والكامل للمبرد ، والبيان والتبيين .. للجاحظ ، والنوادر لأبى على القالى البغدادى ، وما سوى هذه الأربعة ، فتبع لها وفروع عنها ».

والشيخ المرصفى فى مقدمة الجزء الأول – من شرحه الكبير – لكتاب الكامل للمبرد ، كما يشير الدكتور البيومى .. « انه لم يجعل من رغبة الأمل .. شرحا تفسيريا لنصوص الكامل فقط ، بل اهتم ببيان .. ما حاد فيه أبو العباس عن سنن الصواب .. من خطأ الرواية وخطل فى الدراية ، اذ كان المبرد .. يعتمد كثيرا فى لفظه على جودة حفظه ، فربما نزع .. فى غير منزع .. عن القصد سهمه ، أو صعد الأدب .. مرتقى ، زلت به الى الحضيض قدمه ».

ويلم الدكتور البيومى إلمامات عابرة ، بنقدات المرصفى .. لمؤلف الكامل ، فيشير الى أن الشيخ المرصفى حين يكتب بعض التعليقات .. هادىء المزاج .. دفاق – الخاطر – فيصف الخطأ الكبير من المبرد بكثير من التسامح ، فلا يزيد عن .. ان يقول : « غلط أبو العباس أو سها أبو العباس ، وقد يكون خانق الصدر لبعض المحرجات .. من شؤون الحياة ، فيضيق صدره .. لأدنى سهو ، ويهاجم الخطأ اليسير مهاجمة قاسية ، فاذا نسب المبرد .. بيتا من الشعر لغير قائله ، قال المرصفى فى غلظة : كذب المبرد ، واذا بدل سهوا .. كلمة مكان كلمة ، قال المرصفى فى قسوة ، هذا خلط وجهالة ، واذا رأى الناقد قولا فى اللغة .. ينفرد به صاحب الكامل ، رده ، وقال هذا مما انفرد به ».

والدكتور البيومى ، يرفض هذا المنطق من المرصفى ، ويعلن ان ابا العباس ، ربما اطلع .. على ما لم يطلع عليه المرصفى ، ولم يبق لعهد اللاحق كما يشير ، الى ان الناقد « يرجع الى ذوق شخصى ، قبل ان يرجع .. الى وضع منهجى ». ويسوق الينا .. مؤلف النهضة الاسلامية فى سير أعلامها المعاصرين ، أمثلة .. من نقدات المرصفى لصاحب الكامل ، فيقول : « فقد

جعل يوازن .. بين الروايتين ، ويفاضل بين النصين ، فيهديه ذوقه .. الى ما يرفض به رواية صاحبه عن ثقة واطمئنان ، فاذا روى المبرد ــ مثلا ــ قول الشاعر .. فى هجاء الحجاج .

أينسى كليـــب زمـــان الهزا ل وتعليمـــه سورة الكوثر

قال المرصفى : هذا خطأ ، والصواب .. رواية ياقوت فى معجم البلدان ، وتعليمه صبية الكوثر ، والكوثر قرية بالطائف ، كان الحجاج معلم صبيانها »

ويعقب البيومى بقوله : والحق مع المرصفى .

ويروى المبرد قول القائل :

فيـــا بعـــل سلمـــى كم وكم بأذاتهـــا
عدمتـــك من بعـــل تطيـــل أذاتـــى
بنفسى حبيـــب حال بابـــك دونـــه
تقطـــع نفسى دونـــه حسراتـــى
ووالـــه لولا أن يســـاء لرعتهـــا
بمـــا ليس بالمأمـــول من فتكاتـــى .

« قال المرصفى .. مهتديا بذوقه السليم : الرواية لولا أن تساء لرعته ، وهذا حق ، لأنه يقصد ترويع الزوج وافزاعه ، ويحرص على سلمى وهدوئها الأمين ».

ويعقب الدكتور البيومى على استدراكات المرصفى ، بأن « ذوقه .. يشير الى الخطأ فى بصيرة نافذة ، وفهم عميق »ــ بعد أن يقول : « وقد يكون للفظ اللغوى معان مختلفة ، فيفهمه المبرد .. فى سياق خاص على غير وجه ، ولكن ذوق المرصفى من ورائه يشير الخ : » .

ويختتم الدكتور البيومى حديثه عن الشيخ المرصفى ، والكامل وصاحبه ، « ولو كان المرصفى .. يرى المبرد غير ثقة فيما يقول ، ما عكف .. على شرح الكامل وتدريسه ، فقطع زهرة شبابه .. فى تفهم أسراره ، واكتناه مراميه ، وجاء شرحه الفخم فى أجزائه الثمانية .. دليلا ملموسا على أن المبرد .. قد عاد الى الحياة مرة أخرى بالأزهر ، واستبدل القاهرة .. بحاضرة العباسيين ».

محمد الخضري

❋ ضمن أعلام ، الدكتور .. محمد رجب البيومى ، الذى أسماه « النهضة الاسلامية .. فى سير أعلامها المعاصرين » ، الشيخ محمد الخضرى ، الذى وصفه المؤلف بانه .. أى المترجم له ، مؤرخ ، وبحاثة ، وأديب .

وقد توقفت عن الحديث .. عن بقية الاعلام ، منذ شهر ، أو يزيد ، لأنى حينما وصلت .. الى الشيخ الخضرى ، تذكرت ، أن هذا الرجل حوله شبهات ، لعل أهمها حسب علمى ، ما الفه .. الشيخ « محمد العربى التبانى » ، الذى كان مدرسا بمدرسة الفلاح بمكة ، والحرم المكى الشريف . وسماه : « تحذير العبقرى من محاضرات الخضرى ، او افادة الاخيار .. ببراءة الابرار » .
والكتاب فى جزءين ، طبع فى عام ١٣٨٤ ، فى مطبعة مصطفى البابى الحلبى واولاده بمصر . وقبل .. ان نقف على آراء الشيخ التبانى ، فى الاستاذ الخضرى ، نرى أولا ما يقول الدكتور البيومى فى صاحبه .

ويبدأ المؤلف حديثه بنقل جمل .. من كتاب الكاتب الكبير .. المرحوم ، عباس العقاد ، فى كتابه « رجال عرفتهم » ص ١٧٩ فيقول : « من بعد جمال الدين ومحمد عبده أصبح من هم كل ناشىء أن يصبح أستاذا أو نمطا أخذ من جمال الدين ، ومن هنا : نشأت مدرسة رشيد رضا ، ومصطفى المراغى ، وطنطاوى جوهرى ، وعبد الحميد الزهراوى ، ومحمد الخضرى ، ومحمد المهدى ، والنجار » .

ويعقب الدكتور البيومى على رأى العقاد بقوله : « وكلام العقاد .. مع ما يتضمن من التهكم المستتر ، يعبر عن واقع صريح ، فان أثر جمال الدين ومحمد عبده قد انتقل الى كل دارس يهتم .. بالثقافة الاسلامية .. من بنى الاسلام الخ » .

ويتحدث البيومى وهو يترجم للخضرى فيقول : « وقد صحب الاستاذ محمد الخضرى شيخه الاستاذ الامام محمد عبده مصاحبة علمية مثمرة ، فقرأ كثيرا من الكتب بأشارته ، والف بعض البحوث بتوجيهه ، وحذا حذوه فى الأخذ .. من العلوم النافعة باللباب المتخير ، وقد عبر فقيد البيان الاسلامى الاستاذ مصطفى صادق الرافعى عن ذلك .. اصدق تعبير ، حين قال بالجزء الثالث من وحى القلم ص ٤٠١ ط ٧ :

— أن الذى يريد أن يقول قولا صحيحا فى هذا الفقيه .. العالم المؤرخ الاديب ، يجب أن يرجع بتياره الى منبعه ، ليعرف .. مبلغ انبعاثه ، وقوة حريته ، ومد عبابه . فما كان الخضرى شيئا .. قبل ان يتعلق بمدار ذلك النجم الانسانى العظيم ، الذى اهدته السماء الى الارض ، وسمى فى اسمائها : محمد عبده — « لقد اخرجته دار العلوم كما اخرجت الكثيرين ، ولكن دار علومه الكبرى ، كانت .. اخلاق الاستاذ الامام ، وشمائله وآراءه ، وبلاغته ، وهمه نفسه ، الا انه .. لابد من رجل واحد ، يكون هو الواحد .. الذى يبدأ منه العدد .. فى كل عصر ، وأنت اذ تأملت الخضرى ، فاعلم انك بازاء معنى من معانى الشيخ .. محمد عبده ، على فرق .. ما بين النفسين ، بل انت من الخضرى كأنك ترى الشيخ ساريا .. فى مظهر من مظاهر الزمن » .

ويتحدث الدكتور البيومى ، عن دور الشيخ محمد عبده ، واهتماماته بـ « تذليل الكتب المعقدة ، واعادة تدوين العلوم الاسلامية والعربية .. بلغة العصر » .

ويذكر المؤلف ، أن « الخضرى ولد فى بيئة دينية سنة ١٨٧٢م ، وأبوه .. الشيخ عفيفى الباجورى من علماء الازهر ، كان خطيبا واماما لمسجد قاهرى بالحلمية ، وكان من انصار بعض الطرق الصوفية ، وله شيخ يسمى الخضرى ، فسمى ابنه — محمد الخضرى — .. تيمنا به ، وكان يظن ان الخضرى .. لقب عائلته ، وليس الامر كذلك .

ويشير المؤلف ، الى اول كتاب الفه الاستاذ محمد الخضرى ، هو نور اليقين ، ثم يقول : « فانكب على ملخص .. سهل لسيرة الرسول ، ولم يكن من همه .. ان يناقش الحوادث ، ويعلل النتائج ، ويصحح الروايات ، بل ان شعور المؤمن .. بضرورة تقريب حياة الرسول ، كما روتها .. كتب الثقات قد صرفه

عما سوى السرد المتتابع .. فى سهولة وايمان ، وقد اخذ بروايات الكتب القديمة كما جاءت ، وافاض فيما نسب الى الرسول من معجزات ، دون أن يحاول دعمها بحجج العلم والمنطق ، وكأنه يرى ، ان المعجزة فى معناها الأول .. عمل خارق ، يعجز العقل ان يقف على سره ، فمحاولة تعليله بتفسير منطقى .. مما يخرج به عن معنى المعجزة الخارقة الى حدث معقول .. تلتمس له المبررات » .

ثم يقول الدكتور البيومى : « ثم اعقب الخضرى كتاب : نور اليقين ، بمؤلف عن الخلفاء الراشدين ، سلك فيه مسلكه السلفى من عرض الروايات المأثورة ، دون ان يترخص فى نقد لبعض الحوادث والاشخاص ، بل آثر ألا يحكم بشىء .. فى نحو الخلاف بين معاوية والامام على كرم الله وجهه ، وهو مسلك نعرفه .. لدى المحافظين ممن يعز عليهم ان تكون سيرة صحابة رسول الله .. موضع النقد والتجريح ، ولكنه مع ذلك شىء ، وكتابة التاريخ شىء آخر ، وقد تخلى الاستاذ عن خطته المسالمة نوعا ما ، فيما كتبه بعد ذلك .. من صحائف التاريخ » .

وقد اشرت فى حلقات سابقة ، وأنا أتحدث عن كتاب الدكتور البيومى ، أنه يتجنب التصريح .. بأخطاء من ترجم لهم ، وانما يلمح من بعيد فى حذر شديد ، كأنه يخشى قولة الحق ، وسنراه فيما بعد ، وهو يترجم للاستاذ .. احمد حسن الزيات ، فلا يذكر تلك العثرة القاصمة ، التى وقع فيها الزيات .. فى آخر ايامه . ونأخذ على الدكتور البيومى .. عدم الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو يذكره فى سرد حديثه ، كما اشرت فى الفقرات .. التى نقلت من كتابه .

ويمضى فى حديثه عن الخضرى فيقول : « ولكن الناقد البصير .. يجد روح المسالمة تستجيز من الحوادث احيانا .. ما يقع لديه الخلاف الشديد ، ومن امثلة ذلك : حديثه عن اختيار يزيد للخلافة وتصوبيه وقسوته على أهل المدينة .. يوم الحرة ، وقوله : ان ثورة الحسين — عليه السلام — لم تكن ذات اسباب حقيقية .. لمصلحة الامة ، وتهوينه مصرع أبى مسلم الخراسانى ، وموافقته قول .. من حكى عن الرشيد المترف : انه كان يصلى فى اليوم الواحد مائة ركعة ، وعدم نفاذه الى مأساة الافشين . ولعل لنشأة الخضرى الدينية .. أثرا كبيرا فى تسامحه لدى بعض الأحكام ومحاولة تجنبه كثيرا .. من المسائل

الشائكة ، حول رجال الصدر الأول .. من البعثة المحمدية بالذات » .

هذه هى آراء .. الدكتور البيومى فى الشيخ محمد الخضرى ودراسته لاثاره ، لان مثل هذه الترجمة .. لا تتحقق الا بعد الاطلاع على ما ترك .. ممن يترجم له . واذا كان الاستعراض .. لا يسمح بمراجعة مؤلفات الخضرى ، فحسبى .. أن أرى ما كتبه الشيخ محمد العربى التبانى ، فى مؤلفه .. الذى اشرت اليه آنفا ، لنرى مقدار دقة الاستاذ البيومى فى وصف منهج الخضرى ، أو تجاوزاته ، وهو الى التجاوز اقرب فى تلك التلميحات العابرة ، التى لا تفضى .. للوصول الى حقيقة واضحة جلية ، وانا .. لا اصف الدكتور البيومى بالقصور العلمى ، وانما .. بغض الطرف والتجاوز ، الى حد التساهل .. فى الوقوف على الحقائق المجردة بوضوح ، متجاوزين .. عن مشكلات الخلاف . لان الدراسة امانة ومسئولية وتبعة ، والحق .. أحق أن يتبع .

لقد قرظ كتاب التبانى « تحذير العبقرى من محاضرات الخضرى » ، مشايخ وعلماء ، منهم .. فضيلة الشيخ يحيى امان المكى ، واصحاب الفضيلة : الشيخ حسن مشاط ، العضو بالمحكمة الشرعية ، والمدرس بالمسجد الحرام بمكة المكرمة ، والسيد محمد امين كتبى ، المدرس بالمسجد الحرام وكلية المعلمين ، والشيخ محمد نور سيف ، المدرس بالمسجد الحرام ، ومدرسة الفلاح بمكة ، والسيد علوى المالكى ، المدرس بالمسجد الحرام ، ومدرسة الفلاح بمكة ، والشيخ ابراهيم فطابى ، المدرس بالمسجد الحرام ، وقاضى المحكمة المستعجلة « شعرا » ، والسيد يوسف عبد الرزاق ، من علماء الازهر ، والمدرس بكلية اصول الدين . كلهم اثنوا على الكتاب ومؤلفه ، وايدوه فى آرائه ، وردوده على الشيخ الخضرى ، وتصحيحه .. للأخطاء التى وقع فيها .. صاحب المحاضرات ، ولقد دس الكثير فى التاريخ الاسلامى ورجاله ، من قبل المستشرقين ، والمسيحيين ، من امثال جورجى زيدان فى كتابه التمدن الاسلامى وغيره من رواياته التاريخية المسمومة .

المحاضرة الثالثة

بعد كلمات التقريظ .. من العلماء الأجلاء للكتاب ، ومقدمة المؤلف ، نصل

الى ص « ٤٥ » ويبدأ النقد والنقض مع المحاضرة الثالثة .. للشيخ الخضرى ، ينقل الشيخ التبانى ما قاله الخضرى فى ص « ٢٨ » .. من الطبعة الرابعة التى يورد فيها قصة « أصحاب الفيل » ، فيقول الخضرى : وأبرهة .. هو الذى جند الجنود لهدم الكعبة ، وكان يريد ان يصرف الناس عنها .. الى بيت بناه فى صنعاء ، فاصابه هو وجنده بمكة ما أصابهم .. من الامراض الثقيلة ، وقد بينها ابن هشام فى سيرته .. بانها .. الحصبة والجدرى ، وروى .. ان هذا كان أول حصولهما بمكة ، فعاد منهزما ، وتوفى بعد عودته ، وأشار القرآن الى هذه الحادثة .. فى سورة الفيل ا هـ » .. ويعلق الشيخ التبانى بقوله : « كلامه هذا فاسد من أربعة أوجه ، وهى : مخالفة التاريخ ، والخيانة فى نقل العلم ، والغش والتكذيب .

فاما مخالفة التاريخ .. ففى قوله : فاصابه هو وجنده بمكة ، ما اصابهم ، وفى قوله : وقد بينها ابن هشام فى سيرته ، وفى قوله : وروى . ان هذا كان اول حصولهما بمكة — اى الحصبة والجدرى — فقد اجمع المؤرخون والعرب .. الذين كانوا فى وقت هذه الحادثة العظيمة .. على ان هلاك جيش ابرهة ، فى مكان يقال له .. — المغمس — ، وهو على اميال من مكة فى طريق الطائف ، لا مكة .. كما قال ، وهذه سيرة ابن هشام .. مطبوعة ، متيسر اطلاع كل قارىء .. سليم العقل والعقيدة عليها ، قد بين فيها .. كيفية قتل الطير لهم ، وما قالته العرب .. فى اشعارها ، فى هذه القصة .

وادعاء أول حصول ورؤية الحصبة والجدرى ، ومرائر الشجر الحرمل ، والحنظل والعتر ذلك العام .. ببلاد العرب كلها — لا بمكة فقط ، كما زعم — ، هو ورأى يعقوب بن عتبة » .

« واما الخيانة فى النقل ، فكان الواجب عليه .. ان ينقل عن ابن هشام ، ما اتفق عليه العرب وأهل السير قاطبة فى هذه القصة ، ثم بعد ذلك يرجح هلاكهم بالحصبة والجدرى .. المذكورين فى رأى يعقوب بن عتبة ، مع انه لا حجة له فيه حتى لو صح ، فيكون بذلك .. قد ادى امانة رواية العلم » .

« واما الغش ، فان كل من وثق بكلامه هذا ولم يطلع .. على سيرة ابن هشام ، ولم يقرأ سورة الفيل ، يقع فى جهل فادح ، وليس الغش من اخلاق المسلمين » .

« واما التكذيب ، فان القول .. بانهم هلكوا بالحصبة والجدرى ، تكذيب لصريح القرآن ، فقد بين تعالى كيفية قتلهم ، فى سورة الفيل ، بيانا صريحا لا يقبل التأويل ولا المواربة .. بين تعالى فعله بهم ، أى هلاكهم ، بأن « ارسل عليهم طيرا ابابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول » . بثلاث جمل فصيحة ، ليس فيها غموض ولا اجمال ، حتى تحتاج الى بيان الخلق وتأويلاتهم الفاسدة ، ثلاث حقائق .. واضحة وضوح الشمس ، رام .. وهو الطير ، التى ارسلها تعالى عليهم .. جماعات ، جماعات ، كتائب منظمة تنظيما إلهيا ، ومرمى به .. وهى الحجارة ، والمفسرون على ان الحجر منها .. لا يزيد فى الكبر عن الحمصة ، كل طير يحمل منها ثلاثة ، اثنان فى رجليه والثالث فى منقاره ، ومرمى وهو جيش ابرهة ، وما كلهم اصابته الحجارة ، ولا تصيب احدا منهم .. الا أهلكته » .

ويترك الشيخ التبانى الخضرى ، ليتعرض لشيخه .. محمد عبده فى تفسيره لسورة الفيل من جزء عم ، وهو فى نفس الموضوع فيقول : « وفى اليوم الثانى — من وصول جيش ابرهة الى المغمس — ، فشا فى جند الحبشى داء الجدرى والحصبة ، قال عكرمة : وهو اول جدرى .. ظهر ببلاد العرب ، وقال يعقوب بن عتبة .. فيما حدث : إن اول ما رؤيت الحصبة والجدرى .. ببلاد العرب ذلك العام ، وقد فعل ذلك الوباء باجسامهم .. ما يندر وقوع مثله ، فكان لحمهم يتناثر ، ويتساقط ، فذعر الجيش وصاحبه ، وولوا هاربين ، وأصيب الحبشى ، ولم يزل .. يسقط لحمه قطعة قطعة وانملة انملة .. حتى انصدع صدره ..

ومات فى صنعاء .. هذا ما اتفقت عليه الروايات ، ويصح الاعتقاد به ، وقد بينت لنا هذه السورة .. الكريمة ، ان ذلك الجدرى أو تلك الحصبة .. نشأت من حجارة يابسة ، سقطت على افراد الجيش بواسطة فرق عظيمة .. من الطير مما يرسله الله تعالى .. مع الريح ، فيجوز لك أن تعتقد ، أن هذه الطير .. من جنس البعوض ، او الذباب الذى يحمل جراثيم .. بعض الأمراض ، وان تكون هذه الحجارة .. من الطين المسموم اليابس ، الذى تحمله الرياح ، فيعلق .. بارجل هذه الحيوانات ، فاذا اتصل بجسد دخل فى مسامه ، فاثار فيه تلك القروح .. التى تنتهى بافساد الجسم ، وتساقط لحمه ، وان كثيرا .. من هذه الطيور الضعيفة ، يعد من أعظم جنود الله .. فى اهلاك من يريد اهلاكه من

البشر . وان هذا الحيوان الصغير .. الذى يسمونه الآن بالميكروب ، لا يخرج عنها ، وهو فرق وجماعات لا يحصى عددها .. الا بارئها ، ولا يتوقف ظهور قدرة الله تعالى فى قهر الطاغين ، على ان يكون الطير .. فى ضخامة رؤوس الجبال ، ولا على ان يكون .. من نوع عنقاء مغرب ، ولا على ان يكون له .. الوان خاصة به ، ولا على معرفة مقادير الحجارة ، وكيفية تأثيرها ، فلله جند من كل شيء ، وفى كل شيء له آية ، تدل .. على انه الواحد » .

ويعلق الشيخ التبانى .. على كلام الشيخ محمد عبده هذا بقوله : « كلامه هذا باطل ، من ستة اوجه » . ورغبة فى الاختصار ، فان المساحة .. التى لى ، لا تسمح بنقل الرد بتفاصيله ، او دون هذا بقليل ، لذلك ، فسوف أنقل الجمل التى ينقض بها هذا الشيخ كلام .. الشيخ محمد عبده ، وتلميذه محمد الخضرى ، والستة اوجه التى يعنيها ، تتلخص فى :

١ ـ ان الشيخ محمد عبده يتعارض ما قاله مع القرآن الكريم فى هذه الحادثة ، والقرآن .. لا يحتمل التأويل ، وأن الله أسند هلاك جيش أبرهة اليه .. سبحانه وتعالى .

٢ ـ رد التبانى لتعبير محمد عبده بقوله : « هذا ما اتفقت عليه الروايات ويصح الاعتقاد به » . ويرى التبانى ان الرواية أو الروايات اذا أطلقها أى عالم من علماء المسلمين ، انما تنصرف لرواية السنة النبوية ، جزما .. عند جميع اهل الاسلام ، فاذا قصد بها قول صحابى او غيره مثلا قيدها بقوله الرواية ، او الروايات عن فلان » .

وعندى ان الشيخ التبانى تجاوز الحد فى هذا الاطلاق ، او فى تحديده ، فالرواية مطلقة ، فى التاريخ ، والحكايات ، والراوى فى الادب والاقاصيص وما اليها ، ولم يقل الشيخ محمد عبده انه روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو عن أحد من الصحابة ، وانما هى رواية تاريخية . ونحن نرفض ما يتعارض والقرآن ويشكك فيه . ولماذا لا نأخذ كلام محمد عبده على معنى الروايات « لغة » ؟ ولست معه فى قوله : « ويصح الاعتقاد به » . لان هذه الصحة التى ذهب اليها ، لا دليل عليها .

٣ ـ يرى الشيخ التبانى ، أن الشيخ محمد عبده زاد فى هذه القصة عما يذكره الله تعالى فى الاخبار بها ، وعن التاريخ المنقول فيها .. تواترا ، ثمانية

أشياء ، الريح ، والجدرى ، والحصبة ، والسم اللاصق بتلك الاحجـار اليابسة ، والحيوان الصغير .. المسمى بالميكروب ، وتناثر ، وتساقط لحم اجسام .. جميع افراد الجيش الهالك ، وتعيين حجم هذا الطير بانه .. من جنس البعوض أو الذباب الذى يحمل جراثيم بعض الأمراض وسقوط تلك الأحجار من أرجل الطير لا رميها ، ونترك بقية النقاط ، لانه كلام طويل ، وتخريجات مختلفة ، ويكفى أنى نقلت رأى الشيخ محمد عبده ، والخطأ فيه مردود عليه .

المحاضرة الرابعة

يقول الشيخ التبانى ، تحت عنوان .. المحاضرة الرابعة : « مخالفة الخضرى للقرآن ، ولما فى الصحاح .. والتاريخ ، فى سكنى اسماعيل عليه السلام بمكة .. قبل جرهم » . والخضرى ، يقول .. فى هذا الموضوع : « كان يلى امر مكة .. ولاة من جرهم قحطان ، وهى جرهم الثانية ، ولما جاء اسماعيل مكة .. مع ابيه ابراهيم صاهرهم ، وكان لاولاد اسماعيل .. بعد أبيهم مركز محترم ، لما لأبيهم من بناء البيت ، وان لم يكن لهم من الحكم شىء » .

ويعقب الشيخ التبانى على ذلك بقوله : دل صريح كلامه هذا على أن جرهما .. توطنوا مكة قبل اسماعيل ، وان اسماعيل جاءهم مع ابيه كبيرا ، فصاهرهم ، وهو باطل ، مخالف لظاهر القرآن .. وللتاريخ ، ولما فى الصحيح . أما القرآن ، فان الله تعالى .. قال عن الخليل : ـ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ـ ، فظاهر دعائه عليه السلام فى قوله : ربنا انى اسكنت من ذريتى الخ : يدل على انه أتى باسماعيل .. وهو صغير ، ولو كان كبيرا صاهر جرهما .. بمجرد وصوله اليهم ما احتاج .. الى ان يأتى به ابوه اليهم ، وما كان لهذا الدعاء كبير فائدة ، وقوله : فاجعل افئدة من الناس تهوى اليهم ، يدل .. على انه وجد مكة خالية ، ليس بها أنيس . وقد ثبت فى كتب التاريخ المعتبرة ، ان الخليل عليه السلام لما جاء بهاجر وابنها اسماعيل وهو رضيع الى مكة .. وجدها خالية ، لا أنيس بها ، فتركهما .. عند مكان زمزم وولى راجعا الى الشام ، فقالت له هاجر .. الى من تتركنا بهذه الفلاة يا

ابراهيم ؟ ، فقال لله ، فقالت له : اذن لا .. يضيعنا » . ثم يسرد الشيخ التبانى قصة اسماعيل عليه السلام ، التى اخرجها الامام البخارى عن طريق ابن عباس .. مطولة ، وفيها ظهور ماء زمزم ، وسعى هاجر بين الصفا والمروة ، وهى قصة معروفة ، حين مرت جرهم ورأت طائرا ، فقال قائلهم « ان هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الوادى .. وما فيه ماء ، فارسلوا رسولا او اثنين ، فاذا هم بالماء ، فرجعوا فاخبروهم ، فاقبلوا وأم اسماعيل عند الماء ، فقالوا أتأذنين لنا ان ننزل عندك ؟ قالت نعم ولكن لا حق لكم فى الماء ، قالوا نعم ، قال النبى صلى الله عليه وسلم — فألفى ذلك ام اسماعيل وهى تحب الانس — ، فارسلوا الى اهليهم فنزلوا معهم .. حتى اذا كانوا بها اهل ابيات منهم ، وشب الغلام وتعلم العربية منهم ، وأنسهم وأعجبهم .. حين شب ، فلما ادرك زوجوه منهم الخ » .

هذا النص التاريخى ساقه الشيخ التبانى . ومن هنا نعلم ان الشيخ الخضرى أخطأ حين اعلن ان جرهما سكنت مكة .. قبل مقدم ابراهيم عليه السلام وزوجه وابنه اسماعيل ، وحديثه .. يدل على ان اسماعيل جاء كبيرا الى مكة ، بدليل هذا الربط فى حديثه المتصل .

ونترك المحاضرة الخامسة ، وهى تتحدث عن اللغات السامية ، وتعلم اسماعيل عليه السلام للعربية ، ومخالفة الشيخ التبانى .. لرأى الخضرى ، فقد اعلن الثانى .. ان اسماعيل ادخل فى العربية من العبرانية ، ومعارضة التبانى لهذا الرأى ، وهو شرح طويل .

المحاضرة السادسة

يقول الخضرى ، فيما ينقله الشيخ التبانى : « أما سائر العرب فكانت بعد اسماعيل .. على دين ابراهيم ، تعبد الله وتوحده ، الا ان اسماعيل عليه السلام بنى الكعبة وجعلها مطافا يحجها اولاده » . ويرد الشيخ التبانى ، بان ابراهيم عليه السلام هو الذى بنى الكعبة .. بامر الله تعالى ، ويأتى بالدليل من القرآن الكريم ، بقول الله تبارك وتعالى « وأذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم » .

ويعقب الشيخ التبانى بقوله : « فلا أدرى ، لم ترك هذا المحاضر التاريخ المقطوع به وركب هواه ؟ وقوله : وجعلها مطافا .. يحجها أولاده أفحش منه ، فان اسماعيل عليه السلام .. لم يجعلها .. فضلا عن كونه خص أولاده بالمطاف بها ، بل الله تعالى .. هو الذى جعلها مطافا .. لجميع عباده المسلمين ، والقرآن قد صرح بهذا فى آيات كثيرة ، قال تعالى ــ وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى ، وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل ان طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود ــ ، وقال سبحانه : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس » .

المحاضرة السابعة

* قال الخضرى ص « ٦٣ » من محاضراته فى قصة بحيرا الراهب : « وقد أطبق على هذه الحادثة .. جميع المؤرخين ، وقد نقبنا كثيرا عن اسم هذا الراهب .. فى كتب من عنوا بذكر أساقفة الشام وبصرى والمشهورين .. من رجال الدين ، فلم نجده » . ويرد الشيخ التبانـــى على ذلك ، بان كلام الخضرى » مردود .. من ثلاثة أوجه ، الأول ، لا ثقة بكل ما ينقله الاجانب .. مما يتعلق بتاريخنا ، نفيا واثباتا . الثانى : تنقيبه الكثير فى كتب من عنوا بذكر أساقفة الشام وبصرى ، على فرض .. صحته ، لا يدل .. على وجوده فيها أو فى غيرها .. من كتبهم ، الثالث : عدم وجدان حضرته لها .. ليس حجة ، لانه عدم محض ، وعدم الدليل ليس بدليل .. عند جميع العقلاء » . ويعيب الشيخ التبانى .. على الشيخ الخضرى ، انه يهمل التاريخ الاسلامى الذى يثبت قصة بحيرا الراهب ، ويفتش عنها فى كتب من عنوا بذكر أساقفة الشام وبصرى .

ويتعرض الشيخ التبانى .. للذين ينكرون ، ويشككون فى معجزات الانبياء ، ويخالفون « مرويات كتب الحديث فيما لا يوافق أهواءهم ، طعنا فى ثبوت تلك الروايات ، ويشير .. الى الشيخ شلتوت ، والدكتور هيكل مؤلف كتاب ــ حياة محمد » . ويؤكد ان بحيرا شاهد النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى صومعته مظللا بغمامة ، من بين القوم وتظليلها للشجرة التى نزل القوم تحتها ، وتهصر اغصان الشجرة .. عليه ، صلى الله عليه وسلم ، ورؤية خاتم النبوة .. بين كتفيه على موضعه .. من صيغته التى عنده » . ويشير كذلك ، الى

ان الخضرى « قد اطبق مع كثير من أهل العصر على انكار .. المعجزات ، ودلائل النبوة » .. ويعرض الشيخ التبانى بالاستاذ محمد رشيد رضا ، بقوله : تأييد صاحب المنار .. أباطيل جهلة المؤرخين . — وليس من حاجة للوقوف عند هذا الموضوع ، لان المجال لا يتسع .

المحاضرة الثامنة

* تتعلق هذه المحاضرة بالوحى وأقسامه ، وهذا الموضوع .. شغل ثمانى عشرة صفحة من كتاب الشيخ التبانى ، وسأقف عند نقاط محددة من ذلك قول الخضرى : « ويسمى بعض فلاسفة المسلمين .. القوة التى تحدث بالخير ، وتلقيه فى النفس ملكا ، على العكس .. من القوة التى تحدث بالشر وتلقيه فى النفس ، فانه يسميها شيطانا ، ولفلاسفة المسلمين .. غرائب فى كلامهم ، على الملائكة .. والشياطين » .

ويعلق الشيخ التبانى على ذلك بقوله : « تدليس » من ناحية عدم تصريحه .. باسم هذا الفيلسوف المسلم ، الذى عرف الملك بانه قوة تحدث بالخير وتلقيه فى النفس . والشيطان بانه قوة تحدث بالشر الخ : ويذكر ، ان هذا الفيلسوف .. « هو محمد عبده ، ذكره فى تفسير سورة الناس ، ونقله عنه تلميذه .. صاحب المنار ، فى تفسيره .. فى سورة البقرة ، عند قوله تعالى — واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم — . ثم قال فى اول كلامه ، حاكيا عن شيخه : « ان الملائكة خلق غيبى لا نعرف حقيقته ، وانما نؤمن به ، لاخبار الله تعالى ، الذى نقف عنده ولا نزيد عليه » .

« ثم قال تلميذه فى آخر الكلام شارحا كلامه ، فالأستاذ الأمام يقول : إن التسمية وحدها لا تعطى أحدا علم الحقيقة ، وأن من فهم الحقيقة .. لا يحجبها عنه اختلاف التسمية ، وأراد بهذا أن يحتج .. على الماديين ، ويقنعهم .. بصحة ما جاء به الوحى من طريق علمهم المسلم عندهم ، كما صرح به .. فيما مر ، صفحة — ٢٦٨ تفسير المنار — ، فأنكره عليه .. عباد الألفاظ ، وهم لا يعقلون مراده » .

ويعلق الشيخ التبانى على ذلك بقوله : « مراده .. بعبدة الألفاظ ، فى كتابه الذى رد به على المنكرين ، وحكاه تلميذه فى آخر كلامه هذا الذى سقناه ،

جمهور الأمة الاسلامية ، الذين قالوا : الملائكة أجسام لطيفة نورانية ، قادرة على التشكل .. بأشكال مختلفة كاملة .. فى العلم والقدرة .. على الأفعال الشاقة ، شأنها الطاعات ، ومسكنها السماوات ، هم رسل الله تعالى .. الى أنبيائه عليهم السلام ، وأمناؤه على وحيه – يسبحـون الليـل والنهـار لا يفترون – لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . والجن .. أجسام لطيفة هوائية ، تتشكل بأشكال مختلفة ، وتظهر منها أفعال عجيبة ، منهم المؤمن والكافر والمطيع والعاصى . والشياطين اجسام نارية شانها القاء النفس فى الفساد والغواية بتذكير المعاصى واللذات ، وانساء منافع الطاعات ، وما أشبه ذلك – فعلماء الأمة الاسلامية .. الذين سموا الملائكة والجن والشياطين بما سماهم الله ورسوله به ، عبدة ألفاظ .. فى رأيه ، وهذا منتهى البذاءة » .

ويسوق الشيخ التبانى .. بعض النصوص القرآنية ، الدالة .. على كون الملائكة والجن والشياطين .. أجساما .

المحاضرة العاشرة

* يقول الخضرى ص ٨٩ : « وقد أختلف المؤرخون .. فى الوقت الذى فرضت فيه الصلاة ، فقال بعضهم : إنها فرضت ليلة الاسراء حينما عرج برسول الله صلى الله عليه وسلم الى الملأ الأعلى ، وقال آخرون ، بل قبل ذلك » .

ويرد الشيخ التبانى بقوله : « بل اتفق علماء الاسلام .. على أن الصلاة فرضها الله تعالى .. ليلة الاسراء والمعراج ، فهذا الخلاف الذى نصبه حضرته باطل ، ومن المضحك قوله : اختلف المؤرخون ، كأنما أئمة السلف .. من الصحابة وغيرهم منقسمون .. الى مؤرخين وغير مؤرخين ، .

وفى موضوع الاسراء والمعراج ، ينسب الخضرى إلى معاوية بن ابى سفيان .. قوله : إن الاسراء كان رؤيا صادقة .. رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويروى عن عائشة أن الاسراء .. إنما كان بروحه ، لأن جسمه .. لم يزل فى مكانه ، ونرى أن نتيجة القولين واحدة » .

ويرد التبانى ، بأن الاسراء كان يقظة .. لا مناما ، وقد روى ذلك خمسة واربعون صحابيا .. عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ويؤكد ذلك قول الله تعالى « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى » .

ويعلل الشيخ التبانى حديث عائشة ، بقوله : « ما روى عنها : ما فقد جسده الشريف ، ولكن أسرى بروحه ، وعلى هذه الرواية لم تكن حدثت به .. عن مشاهدة ، وإنما حدثت به عن غيرها ، وعلى هذا .. فلا يرجح رأيها ، وروى عنها : ما فقدت .. ببناء الفعل للفاعل ، وضم التاء ، وهذه الرواية .. تقتضى أن الاسراء ، كان بعد دخوله عليه الصلاة والسلام بها ، ودخوله .. بها ، انما كان بعد الهجرة ، وعمرها تسع سنين . وقد اجمع العلماء .. على أن الأسراء كان قبل الهجرة ، وبعد البعثة ، وحينئذ .. تحقق بطلان هذه الرواية ، وظهر الاضطراب .. فى الرأى . وفى رواية عائشة انقطاع السند من قول ابن اسحاق : حدثنى بعض آل أبى بكر .. إن عائشة كانت تقول الخ : وأما الراوى الواهى فهو ابن اسحاق ، فجمهور أئمة الرواية على أنه غير ثقة فى الحديث ، رغم كونه إماما .. فى السيرة » .

وما يؤكد بطلان رواية عائشة ، أنها كانت صغيرة ، وربما لم توجد أصلا » .

ويقول الخضرى ــ فى آخر هذه المحاضرة : « مما شرع فى اخر أيامه بمكة : الأذن له بالقتال » ، ويرد الشيخ التبانى بقوله : « الأذن له صلى الله عليه وسلم ، إنما شرع بالمدينة فى أول السنة الثانية للهجرة ، فى شهر صفر ، فكلامه غير صحيح » .

وبعـــد ..

* ان الحديث طويل فى نقض آراء .. الشيخ الخضرى من قبل الشيخ التبانى ، وأنه لمن العسير استعراض مجلدين فى مقالة واحدة ، ولعل الذين تتاح لهم القراءة المطولة أن يرجعوا .. الى نص المحاضرات والى كتاب الشيخ التبانى فى جزءيه ، ليقفوا .. على ما فيهما ، وأن كان فى كتاب الشيخ .. الكثير من التكرار ، والحشو الذى لا حاجة له .

وكنت أود ، لو أن الدكتور .. محمد رجب البيومى تعرض وهو يقدم إلينا الشيخ الخضرى إلى .. هذه الشطحات ، وخروج الشيخ .. عما اتفق عليه علماء الاسلام فى نصوص .. صريحة واضحة ، وان يرد التشكيك .. الذى عنى به

صاحبه وغيره .. مما ينقل عنهم ، والأدلة التى يدعمها الكتاب العزيز والسنة المطهرة .

ويبدو .. كما أشرت ، أن الدكتور البيومى يتحاشى الخوض .. فى هذه المسائل ، لا قصورا فى علمه ، وإنما .. لايثار العافية ، وقد أشرت : . الى أن الأمانة العلمية لا تحول دون الافصاح والجهر .. بالحق ، بل تدعو اليه ، وتحث عليه . والله الهادى إلى سواء السبيل .

رئيس جماعة منع المسكرات

* صرفتنى المشاغل .. عن المضى فى متابعة كتاب الدكتور .. محمد رجب البيومى « النهضة الاسلامية فى سير أعلامها المعاصرين » ، فقد كانت آخر حلقة كتبتها .. عن الشيخ محمد الخضرى ، والاعتراض الذى سجله .. الشيخ محمد العربى التبانى ، فى كتابه « تحذير العبقرى من محاضرات الخضرى » .

واليوم ، نقف .. على علم من أعلام الاسلام المعاصرين ، المجاهدين ، فى سبيل منع المسكرات ، إلى جانب .. أنه سفير اسلامى ، ينشر هذا الدين .. فى بلاد الغرب ، ويكشف الغطاء عن سماحته ، وعدله ، ودعوته .. إلى الصراط المستقيم ، وحرصه .. على حماية الفرد من الانحراف ، والهلاك ، من ممارسة الموبقات ، التى تحطم كيانه ، وهى المسكرات .

هذا المجاهد .. الذى يترجم له .. الدكتور البيومى فى كتابه ، من الأعلام المعاصرين ، هو الدكتور « أحمد غلوش » ولقبه ينطق بفتح الغين ، وسكون اللام ، وفتح الواو ، وكنت أود من الدكتور البيومى ، أن يبين صحة النطق بلقب هذا الداعية ، حتى يدركه من لم يعرفه ، أو يسمع عنه فى البلاد العربية ، فهذا اللقب .. ربما بدا غريباً بعض الشىء ، ولكنه ليس غريباً ، على القارىء الفطن فى مصر .

وعنوان موضوعى اليوم ، مأخوذ من العنوان نفسه ، الذى كتبه الأستاذ البيومى ، وهو يترجم .. لهذا الداعية المجاهد ، الذى ألف جماعة .. فى الاسكندرية منذ ستين عاماً ، أسماها « جمعية منع الخمور » ، فلقيت دعوته مناهضة .. من المنحرفين ، فحاكوا ضده ، أبشع التهم ، حتى قالوا عنه « انه تاجر كوكايين وحشيش » ، ومن أجل .. أن يروج لبضاعته ، فانه يدعو إلى اجتناب الخمور ولكنه أسرع ، لكى يفوت على أعدائه الفرصة ، والدس ، والزور ، والكيد ، فسمى الجمعية باسم : « جماعة منع المسكرات » . ليندرج فيها الخمر والمخدرات كلها ، وليلقم شانئيه حجراً ، يكمم أفواههم . وكانت

حجة الدكتور غلوش ، وهو يدعو إلى نبذ المسكرات ، أنه يورد النصوص الدينية ، والطبية .. عن مضار المسكرات ، ولكن الحرب اشتدت عليه ، وهو الأضعف فى مقاييس الصراع .. غير المتكافىء إذ قد ينتصر الشر وقتاً ما ، حتى يشيع الخير ، ويقوى ، ونجحت المكايد ، فنقل من الاسكندرية .. إلى القاهرة واتسع المجال أمامه ، وأخذت الدعوة تنتشر .. فى نشرات ، وفى الصحف ، والمجلات الدينية ، حتى أن مجلة الأزهر ، على عهد رئيس تحريرها .. فريد وجدى ، فى أواخر الخمسينات ، كانت تترجم فصولا فى كل عدد .. إلى اللغة الانجليزية ، وتنشرها فى أواخر الاعداد ، من كتاب الدكتور غلوش .. الذى أسماه « دين الاسلام كما يفهمه المسلمون » كما أصدر بالفرنسية كتاباً بعنوان « المدنية فى الاسلام » ، فذاع فى أوروبا ، ووجد اقبالا ممن يهمهم .. أن يعرفوا عن الاسلام .. مالم يعرفوا .

وقال الأستاذ وجدى ، حين هم بنشر فصول من الكتاب الأول للمجاهد المسلم ، فى مجلة الأزهر : « يرى حضرات قرائنا » ، أننا الحقنا اليوم .. بمجلة الأزهر ، ملزمة انجليزية ، من كتاب « دين الاسلام كما يفهمه المسلمون » ، وهى الملزمة الأولى .. من كتاب قيم ، وضعه حضرة الأستاذ الألمعى ، الجليل أحمد غلوش ، رئيس جمعية منع المسكرات .. فى القطر المصرى ، وضعه خصيصاً .. للتعريف بالاسلام للأمم التى تتكلم الانجليزية ، وقد سبق لنا الاطلاع على هذا الكتاب ، الذى اطلع عليه عدد كبير من رجال العلم من انجليز وعرب ، فوجدناه جديراً بأن ينشر .. ملحقاً لمجلة الأزهر تباعاً .. حتى يتم . والذى يجعل لهذا الكتاب قيمة كبيرة ، أن واضعه الفاضل .. توخى فيه بيان مزايا الدين الاسلامى ، وصلاحيته .. لكل زمان ومكان ، وتوفيته لجميع حاجات القلوب والعقول ، بعبارة بليغة ، تؤثر فى قارئيه من أهل تلك اللغة .. أبلغ التأثير ، وقد جلى فيه .. المسائل الاسلامية الكبرى ، تجلية جديرة بباحث واسع الاطلاع ، نير البصيرة » .

والدكتور غلوش رحمه الله ، كان يجيد الانجليزية والفرنسية ، فساعدتاه فى أداء رسالته العظيمه وهو نموذج نادر .. فى هذا المسلك .

وأراد الرجل ، أن يوسع دائرة نشاطه ، فسافر .. إلى أوروبا ، لحضور ومتابعة المؤتمرات .. التى تعقد ، لدراسة آثار مضار الخمور على الصحة

والمجتمعات البشرية ، ويشترك عادة .. فى هذه المؤتمرات ، رجال الدين المسيحى ، وأطباء ، وصفوة .. من علماء الاجتماع وعلم النفس ، ولايتوقف نشاط .. هذا المجاهد على تبادل الآراء حول مضار الخمور ، من رؤساء الجمعيات أمثاله ولكنه إلى جانب ذلك ، يعرف بالدين الاسلامى ، ويناقش عن علم أولئك الذين صور لهم هذا الدين .. بأنه وثنى ، وخرافى ، لايلائم حاجة المدنية ، ولايقوم برغبات العصر « فعجب .. أن يجد هذا المفهوم المحرف عن الاسلام ، فألف بالانجليزية ، كتابه ذاك الوافى ، عن أصول الاسلام وتعاليمه ، وطبعه على نفقته وقدمه .. إلى من توسم فيهم الانصاف ، من صفوة المفكرين ، ثم علم أن قراءه .. فى حاجة إلى نصوص قرآنية ، ونبوية ، فبادر بترجمة معان .. شافية لآيات القرآن ، ونصوص الحديث » . هذه الجمل ، التى أضعها .. بين حاصرتين فيما أكتب .. هى للدكتور البيومى .

ويقول الأستاذ البيومى : « وهكذا .. اتسع ميدان الجهاد الاسلامى .. أمام الدكتور غلوش ، فأصبح .. من دعاة الاسلام فى أوروبا ، وصارت كتابته الاسلامية .. موضع النظر والمراجعة ، ولايجب .. أن نغفل فى هذا الصدد زميله الداعية المصلح ، الدكتور ــ زكى على ــ فقد أقام فى جنيف ، ليضع مؤلفاً قيماً ، أسماه « الاسلام والعالم » ، سالكاً سبيل المكافحين البررة من أمثال غلوش مولانا محمد على ، وفريد وجدى ، ممن أصدروا .. الطلائع الأولى للمكتبة الاسلامية المستنيرة .. فى الغرب » وقد أدت سفارة الدكتور غلوش فى بلاد الغرب ، إلى .. أن يعتنق الاسلام نفر من الغربيين ، وأدى هذا الدور إلى انشاء المراكز الاسلامية فى أوروبا ، وكان المرحوم ، يمثل الحكومة المصرية فى المؤتمرات الدولية التى تعقد لمكافحة الخمر ، « وكان ينتهز هذه الفرصة .. للدعوة إلى الاسلام حيث يقيم أسابيع متوالية .. بعد انتهاء المؤتمرات ، ليعقد الصلات .. مع رجال الفكر من المثقفين ويعرض عليهم تعاليم الاسلام ، فى صيغ محببة له ، منتهزا .. مايعن من المناسبات » .

« وكان يتهيأ للموقف .. فى القاهرة ، قبل أن يبدأ الرحلة ، فيختار نصوصاً دينية ، تتصل .. بما يشغل الرأى العالمى من شئون المجتمع ، والقانون ، والسياسة ، ثم يترجم معانيها ترجمة .. تسهل طريقها .. إلى العقول ، فيدلى بها عند الحاجة » .

وتعرض لمتاعب فى فلندا ، حين ذهب لحضور أحد المؤتمرات ، وكان قد سمع أن بعض الجاليات التركية .. من المسلمين ، يعيشون فى عزلة هادئة ، فقرر أن يفتش عنهم ، ليلتقى بهم ، وتأخر هناك وقامت الحرب الكونية ، فتعرض إلى الاشتباه ، ولقى عناء ، ومرارة ، صبر عليها ، وبعد لأى ، وجد .. من يفهمه ، حتى سمح له بالعودة .. إلى وطنه . هكذا تكون المجاهدة ، فى خدمة الاسلام ، ونصرته ، واشاعته ، وبث أحكامه فى وطن .. هو فيه غريب .

ومضى الرجل ، يواصل مسيرته ، فى مكافحة المسكرات ، ولايزيده .. تعاقب الأيام إلا صلابة ، وجلداً واستماتة ، ويتصاعد جهاده حين يرى حانة تفتح بجانب ، أو مقابل .. بيت من بيوت الله ، ويؤلب أعوانه ، ويسعى بالكتابة والتنديد ، حتى تغلق هذه الحانة ، أو تنقل .. بعيداً عن المسجد ، فى وقت كان الحكم فيه للمستعمر ، والجاليات الأجنبية كثرة كاثرة .

يقول الدكتور البيومى : « عقد المؤتمر الدولى .. التاسع عشر لمكافحة المسكرات سنة ١٩٢٨ م بمدينة — أنفرس — البلجيكية ، وقد توزع أعضاؤه العلماء .. على لجان مختلفة ، لكل لجنة .. عملها العلمى وقراراتها المقترحة ، وأدلتها المبسوطة للنقاش ، فهناك اللجنة الدينية .. التى تذكر النصوص المقدسة ، فى ذم المسكرات ، وتوجب البعد .. عما تسببه من الموبقات ، وأكثر أعضائها .. من أساقفة الدين المسيحى ، وهناك اللجنة الطبية .. التى تحلل عناصر المسكرات ، وتشرح موادها التركيبية ، ثم تشفع تحليلها .. بما تراه من أضرار هذه المواد فى الأجسام ، ضاربة الأمثلة على ذلك .. بما انتشر من أمراض المسكرات .. فى العالم الغربى ، وأكثر أعضائها .. من أعلام الطب ، وأفذاذه فى جامعات أوروبا ، وهناك اللجنة الاجتماعية التى تناقش .. مسألة الحرية الشخصية للانسان وصلتها بتحريم المسكرات قانونياً ، كما تتحدث .. عن أضرار الخمر فى المجتمع البشرى ، شافعة ذلك .. بأدق الاحصاءات ، وأرجح الشواهد ، وأكثر أعضائها .. من أساتذة الاجتماع ، وأئمة الدراسات النفسية .. فى العالم المتحضر » .

« وقد تكلم أعضاء اللجنة الدينية فى الجلسة الأولى للمؤتمر ، ولم يشأ الدكتور غلوش .. أن يعقب على أحاديثهم بشىء ، إذ أنهم اتجهوا فى بحوثهم الدينية .. إلى أن المسيحية الحقيقية تحرم الخمر ، وأن مايراه عامة المسيحيين

من إباحتها .. لايستند إلى أصول المسيحية الأولى .. فى شىء ، ثم أفاضوا فى هذه الناحية أفاضة مشبعة .. وإذا كان الدين الاسلامى قد اشتهر بتحريم المسكرات .. تحريماً قاطعاً .. لاخلاف معه فى مذاهبه الفقهية المختلفة ، فلم يكن أعضاء المؤتمر .. بحاجة إلى من يتحدث عن ذلك ، وهم .. فى اجتماعهم البلجيكى انما يصدرون قطعاً .. عن روح الاسلام فى تحريم المسكرات ، أذعنوا لذلك ، أم جادلوا فيه ، ولذلك تريث الدكتور غلوش ، فلم يهم بالتعقيب .. بشىء عند النقاش المتبادل ، بعد محاضرات اللجنة الدينية وتحين فرصة .. الكلام عند مناسبات قريبة » .

« وجاء دور اللجنة الطبية ، فأعلن كبير الأطباء فى مستشفى فيينا — حاضرة الدولة النمسوية » أن رجال الطب .. كانوا على شطط عظيم ، حين كانوا .. يوصون بتعاطى جرعات من المشروبات الكحولية للاستعانة بها .. على مقاومة البرد ، لما كان يبدو من تأثيرها الظاهر .. فى تدفئة الجسم عقب تناولها ، حتى ليكاد شاربها .. يتصبب عرقاً من شدة الحرارة فى الجسم ، إبان البرد .. وذكر المحاضر .. أن هذا الشعور بالدفء ، انما هو شعور كاذب ، إذ يعقبه انخفاض فى درجة حرارة الجسم ، يحدث نكسة من الصعب تلافيها ، ثم قام طبيب آخر عند مناقشة المحاضرة ، فأعلن أن جزيرة — ايسلندا — .. من أشد البلدان برداً ، وكان أهلها يستعينون .. على مكافحة البرد ، بتعاطى المشروبات المسكرة ، فكثرت بينهم الوفيات .. إلى حد مذهل ، وقد ألفوا لجنة طبية ، أثبتت أن كثرة الوفيات .. ترجع إلى أن القوم .. يستنفدون حرارة أجسامهم بما يتعاطون من الخمر ، فيصعد الدم .. بتأثير الكحول من داخل الجسم ، إلى سطح الجلد ، فتبيده برودة الجو تدريجياً حتى يأتى .. على آخره ، وتنتهى الحياة .. بانتهاء الحرارة من الجسم ومن ثم فقد أصدر البرلمان — بايسلندا — قانوناً .. بتحريم المسكرات على أهل البلاد » .

« وقام ثالث ، فتحدث .. بأن الرحالة الدكتور — سكوت — أدرك تأثير الخمر .. فى الأجواء الباردة بالقطب الجنوبى ، فأوصى أصحابه .. بعدم شربها ، وقد نسى بعض أصحابه نصيحته ، فكانت النجاة .. قد كتبت لمن أمتنع عن الخمر دون سواهم » .

« قال الدكتور غلوش ، وهنا .. رأيت المقام مناسباً .. لأن أعلق .. بعد

مقدمة مناسبة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخبر .. منذ أربعة عشر قرناً ، أن الخمر لاتصلح لمقاومة البرد ، فقد جاء .. فى كتب السنة الصحيحة مانصه : « عن ديلم الحميرى ، قال : سألت النبى ، فقلت : يا رسول الله .. أنا بأرض باردة ، نعالج فيها عملا شديداً ، وأنا نتخذ شراباً من هذا القمح لنقوى به على أعمالنا ، وعلى برد بلادنا ، فقال : هل يسكر ؟ قلت : نعم ، فقال :

فاجتنبوه ، قلت : إن الناس غير تاركيه · قال : فان لم يتركوه فقاتلوهم » رواه أبو داود ، وصححه . فكانت دهشة الحاضرين عظيمة ، وقوبلت أقوالى .. بعاصفة .. من الهتاف ، وجاء الكثيرون منهم عقب رفع الجلسة يريدون النص النبوى .. لكتابته » .

« ثم قال الدكتور غلوش ، ما ملخصه : « وفى اليوم التالى تكلم المحاضرون ، فأثبتوا .. أن جرعة ــ تود ــ المسكرة لاتفيد فى التداوى ــ إذ أن فكرة العلاج بالمسكرات .. لاتقوم على أساس صحيح فهناك آلاف المرضى .. كنا ــ معشر الأطباء ــ نصف لهم أنواعاً .. من الخمر تعجلا لشفائهم فكنا ــ دون قصد ــ نعجل بالقضاء عليهم ، فانتهزت ــ القائل غلوش ــ هذه الفرصة ، وقلت فى معرض النقاش : هذه معجزة أخرى لنبى المسلمين ، صلى الله عليه وسلم ، حيث لم يقض فى التجارب الطبية يوماً واحداً ، بله عشرات السنين ، التى لابد .. من قضائها ، لمعرفة أثر أى نبات ، أو عقار ، أو شراب .. فى الجسم ، وإنما عرف بطريق الوحى ، أن الخمر لاتنفع للتداوى ، فقد روى مسلم وأبو داود ، والترمذى .. عن طارق الجعفى ، أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن الخمر فنهاه عنها ، فقال : إنما أصنعها للدواء ، فقال : أنه ليس بدواء ، ولكنه داء » .

« ثم جاء دور اللجنة الاجتماعية .. فى اليوم التالى ، وكان موضوع الحديث .. عن تحريم الخمر والحرية الشخصية ، فأثبت المحاضر خطأ الرأى القائل : بأن فى تحريم الخمر .. مصادرة للحرية الشخصية ، إذ بدا للعيان .. مابدا من مساوىء الخمر فى المجتمعات البشرية حين تترك من الضحايا .. مالايقاس على ضحايا الأوبئة والحروب ، ولامناص حينئذ .. من اللجوء إلى القوة والاكراه فى منع الجهلاء عما يحيق بهم .. من الشر الخبيث » .

« وقد طلب الدكتور غلوش الكلمة .. بعد انتهاء المحاضرة ، ليقول فى شجاعة : لعلكم أيها السادة ، والحال هذه .. لاتنفرون عن الدين الاسلامى ، حين تعلمون .. أنه يوجب حد شارب الخمر ، بأن يجلد ثمانين جلدة ، وهذا الدين .. لم يكتف بتحريم الخمر ، شربها ، وبيعها وصنعها ، وحملها ، وتقديمها ، وآكل ثمنها ، بل أنه .. لم يترك الناس وشأنهم فيها ، فأنزل بشارب الخمر عقوبة بدنية ، زجراً له ، وصوناً للحرية العامة ، من أن تكون عرضة لاعتداء مدمنى الخمر « فعلا هتاف المؤتمرين ، وارتفع صدى تصفيقهم الطويل » .

« بعد هذه المواقف المتكررة ، فى سبيل الله ، قال الدكتور غلوش ، وكان بين المؤتمرين .. قسيس أيرلندى ، فأقبل يحيينى فى بشر ، ويشد على يدى ، ثم قال : أراك ياعزيزى .. قد أفلحت تماماً فى توجيه الأنظار .. نحو ديانتك المحمدية ، فأهنئك .. على هذا النجاح ، فتبسمت ، وقلت : أما أنا .. فأشكر المؤتمر ورجاله أن كشفت أبحاثهم .. عن معجزتين علميتين لرسول الاسلام ، فقال قائل : وهل لنبيكم هذا أقوال مأثورة فى شؤون الحياة العامة ؟ فقلت : انه لم يدع شيئاً من شؤون الحياة ، ولا أمراً من أمور الناس ، إلا فاض فى تفصيله ، فسئلت : وهل توجد هذه الأقوال .. فى كتاب انجليزى ؟ فأشرت إلى بعض الكتب المترجمة .. فى هذا الموضوع ، ذات القرابة .. من الأصل العربى ، ومن أهمها : كتاب مشكاة المصابيح » .

وفى نهاية هذا الحديث ، انظروا .. إلى هذه المرارة ، التى يسجلها الدكتور البيومى وقد جاءت .. فى مطلع حديثه ، عن الفقيد المجاهد :

« فى صمت هادىء .. انتقل إلى جوار ربه البطل المجاهد .. الدؤوب الدكتور أحمد غلوش ، رئيس جمعية منع المسكرات بمصر ، وداعية الاسلام بأوروبا ، وقد قرأت نعيه بالصحف .. فى سطور محدودة ، نشرتها أسرته ، ودفعت ثمن النشر ، كما تعلن وفاة .. كل من يقدر أهله على نفقات نعيه .. فى صفحة الوفيات » .

« وانتظرت أن تفيض الأقلام .. عقب ذلك فى وصف كفاحه الدعوب .. فى ميادين العمل ، ابتغاء مرضاة الله .. حقباً طوالا ، جاوزت الستين ، إذ أن الفقيد الجليل ، قد شارف التسعين من عمره المبارك .. السعيد ، فما قرأت

شيئاً .. قل أوكثر ، أفلوكان الراحل ممثلا عصرياً شارك .. فى افساد النشء ، بما قدم من أباطيل ، أفلوكان الراحل مطرباً فنياً ، ساعد على الهدم الخلقى .. بانتشار الأغانى الماجنة ، والتخريب الانسانى ، أولو كان الراحل .. قصاصاً يلتقط فضائح للجنس ، وينسج حيل الآثم ؟ . لوكان الراحل شيئاً .. منَ ذلك ، لرأينا الصور الحزينة ، والمراثى الحارة ، والأعمدة الطوال ، والكلمـات الاذاعية .. تحتشد لذكراه احتشادا ، وتضجر الاسماع .. والعيون ، بما تهرف من أراجيف ، ولكن الراحل .. بعض من أسلم وجهه لله وهو مؤمن ، واستمسك بالعروة الوثقى ، وقد كرمته الدولة .. حين منحته جائزة التقدير فى بعض مهرجانات العلم ، ولكن .. الذين يكتبون فى الصحف ، ويتحدثون فى الاذاعة ، لايهتمون بأمثال هؤلاء الأبطال ، إذ حيـل .. بينهـم وبـين مايعملون » .

هكذا .. انتهت هذه الرحلة الشاقة والمشوار الطويل ، لرجل وقف جهده ، مجاهداً فى سبيل الله ، فأدى رسالته ، وندر اليوم .. من يؤدى مثلها على هذا النحو بالجد والمثابرة والمجاهدة ، وليتنا نظفر بمذكراته .. التى كتبها ولم تنشر ، وقد أشار إليها الدكتور البيومى ، وهو يتحدث عن الفقيد ، رحمه الله وأحسن إليه كفاء جهده وجهاده ، من أجل دينه وعقيدته »[1]

---

(١) لم اكمل دراسة بقية الشخصيات التى جاءت فى كتاب الدكتور البيومى .

مؤتمر الأدباء العرب

التأم .. فى طرابلس بليبيا مؤتمر الأدباء العرب .. الحادى عشر ، من يوم السبت الحادى عشر من شهر شوال ، وقد اشترك فيه اربع عشرة دولة ، بما فى ذلك فلسطين .. وقد افتتح المؤتمر الرائد .. عبد السلام جلود ، فى قاعة الشعب .. التى تقام فيها مختلف المؤتمرات العالمية .

والقى بعد ذلك .. رؤساء الوفود المشاركة كلماتهم ، ثم انتهت جلسة الافتتاح ..

وبدأ المؤتمر جلساته .. يوم الاثنين ١٣/١٠/١٣٩٧هـ فأخذ اعضاء الوفود .. يلقون أبحاثهم ونستطيع أن نذكر هذه الأبحاث .. كعناوين . اما الوقوف على استعراضها .. فرادى ، فانه يحتاج الى استيعاب ومساحة عريضة ، ومجال ذلك .. وقفة نخصصها لها ، اذا شاء الله ، على صفحات البلاد فى مطلع الأسبوع القادم .

كانت عناوين البحوث التى القيت او القى بعضها على الأصح ، لأن وقت المؤتمر لم يكن ليسمح بالقائها .. بجانب ما تثيره من مناقشات .. تطول وتتضارب ، ثم تأتى ردود صاحب البحث الى غير ذلك .. من مثل هذه المواقف فى الأدب ومشاكله والآراء القديمة والجديدة .. والمؤيد لها والمعارض ، مما يدركه القراء . احد هذه البحوث ، هو ـ الاثارة الفكرية .. فى التراث العربى .. للأستاذ ابراهيم العجلونى من الأردن .. والموضوع الثانى .. للدكتور عمر التومى الشيبانى من ليبيا ، وعنوانه ـ توثيق صلة الأدب المعاصر .. بالتراث .. ضرورة قومية ودينية .

والموضوع الثالث عنوانه ـ البطل فى الأدب العربى المعاصر ، الشخصية البطولية والضحية ...ـ لسلمى الخضراء الجيوشى ـ والرابع بعنوان ـ ماذا تعنى مشكلة المضمون ـ فى الأدب العربى المعاصر ـ للأستاذ حسين مروة .. من اتحاد الكتاب اللبنانيين .

ونصل الى بحث قدمه الأستاذ .. محمد اديب العامرى ، رئيس وفد الأردن ورئيس رابطة الكتاب الأردنيين بعنوان ـ الأدب المعاصر والتراث ـ.

ثم الموضوع السادس ، والترتيب هنا غير وارد وهو :ـ للأستاذ : على صدقى عبد القادر ..

وقدم .. عمر ابو القاسم الككلى ، من ليبيا ، دراسة بعنوان ـ مسألة الأجنبى .. فى قصص خليفة التكبالى ـ.

كما قدم الكاتب المغربى .. الأستاذ إدريس الناقورى بحثا بعنوان ـ مشكلة المضمون .. فى الرواية المغربية ـ وهناك ابحاث اخرى .. مثل اقتلاع الجذور لسليمان كشلاف .. من ليبيا ، وربما غيرها .. مما لم اقف عليه .

وخصصت جلستان .. للملتقى القصة والرواية .. فى الأدب العربى المعاصر ، كما كان للشعر دوره ، وصولته وجولته ، فكان له مهرجانه .. الثانى عشر ، فاستمع أعضاء المؤتمر ومختلف طبقات الناس ، وكأنهم فى سوق عكاظ ، الى شعر جيد رائع .. والى شعر .. عادى ، وربما دون العادى ، وان كان المجيدون قلة ، ولكنه دليل .. على ان دولة الشعر .. لا تزال بخير ، وكان الصديق الشاعر .. الأستاذ حسن عبد الله القرشى .. من هؤلاء المجيدين ..

توثيق الصّلة بالتراث

* موضوع طويل ، بلغ خمسا وعشرين صفحة عنوانه « توثيق صلة الأدب المعاصر بالتراث ضرورة قومية ودينية » ، بقلم الدكتور عمر التومى الشيبانى ، من ليبيا .

والدكتور الشيبانى على ما أذكر .. متخصص فى التربية ، وكان يشغل منصب مدير الجامعة فى ليبيا ، فترة من الزمن وهو فى العقد الخامس ، أو تجاوزه بقليل .

قدم الدكتور الشيبانى .. بحثه فى مؤتمر الأدباء ، ولا أدرى إذا كان قد القاه أم أنه من ضمن البحوث الطوال ، التى لم يسمح زمن المؤتمر بالقائها .. أو ألقى جزء منها ثم أسدل الستار على الباقى ، على أساس أنه قد طبع ، ووزع على المؤتمرين ليقرأوه .

ولا أدرى إذا كانت مناقشة ، قد أثيرت حول هذا الموضوع أم .. أنه مر بسلام .

والذى أريد أن أقوله ، أن الموضوع سطحى ، ليس فيه عمق رغم أنه طويل ، ولعل ذلك يرجع .. إلى عدم تخصص الدكتور الشيبانى فى الأدب . وكذلك فان أسلوب العرض غير جذاب ، وغير متقن ، رغم وجود المصادر .. التى بنى على بعضها الدكتور بحثه ، ان صحت هذه التسمية ، ولا أستطيع أن أسمى هذا الكلام الكثير .. دراسة ، لأن الدراسة عمق ، ثم هى نتائج . وليس فى الموضوع الذى بين يدى عمق ، أما النتائج ، فهى ضعيفة ، لأن العرض هزيل ، ولغته .. فيها ركاكة .

« واقرأوا معى هذه السطور ، من مقدمة موضوع الدكتور الشيبانى .. وقد كان الموضوع الذى وجدته .. أقرب إلى ميولى واهتماماتى الأدبية والثقافية وأنسب إلى ظروف وطبيعة تخصصى التى أصبحت بحكمها بعيداً كل البعد عن الحركة الأدبية بمعناها الفنى الخاص » .

فالرجل يعترف أنه ليس أديباً ، وغير متخصص فى الأدب ، وأنه بعد عنه . إذن كيف يتحدث فى موضوع ضخم ، يحتاج إلى عمق الدراسة والموهبة الأدبية ؟ .

أحسب أن الدكتور الشيبانى .. قد زج بنفسه فى بحر وهو لايحسن السباحة .. لذلك نراه يرتكز على رأى هذا ، ورأى ذاك ، ويقدم لنا آراء .. واستعراضات ، ولايردفها بتعقيب ، وأن كانت وجهة النظر .. التى جاء بها فى آخر الموضوع .. لابأس بها ، ولكنها لاتروى صاديا ، إذا قيس ذلك .. بالعنوان العريض .. للموضوع ، وهو « توثيق صلة الأدب المعاصر بالتراث » وسود الرجل خمسا وعشرين صفحة مطبوعة من القطع الكبير .

إذن الدكتور الشيبانى كلف نفسه مالايطيق ، وما لايحسن ، ولو كنت مكانه .. لوفرت على نفسى جهداً ووفرت على رجال المؤتمر الوقت والجهد .. فى قراءة موضوع لايخدم ماكتب فيه .

وقد أحسن القائل القديم .

إذا لم تستطـــع شيئـــا فدعه
وجـــاوزه إلى ماتستطيع

ولكن الدكتور الشيبانى ، شارك فى المؤتمر الذى ينعقد فى بلاده .. مشاركة غير فعالة .

وبعد السطور التى ذكرت .. من مقدمة موضوع الدكتور الشيبانى نجده يقول ، بعدها مباشرة : « ولكثير من العوامل الشخصية المرتبطة بتكوينى العقلى والثقافى ، كنت مضطراً .. أن أقف من هذا الموضوع موقفاً محافظاً .. فى توثيق الصلة بين أدبنا العربى المعاصر .. وبين تراثنا العربى والاسلامى الخالد » .

والسؤال هو :

لماذا الاضطرار ؟ فتكوينك العقلى والثقافى يجعلانك تميل إلى المحافظة ، والاتزان فتتخذ موقفاً ، فما هو الاضطرار .. ولماذا ؟ وهل المحافظة ، والوقوف عندها عيب ، أو حرج ، حتى يكون الاضطرار ؟ ..

الواقع أن الأسلوب ليس فى مستوى بحث كهذا ، وإذا كان البحث مفككا ، فلاعجب أن يكون أسلوب السرد .. فيه هذه الالتواءات والعيوب .. فى

التعبير والمعانى واقرأوا هذه الجملة أو السطر من النقاط .. التى يحدد فيها الدكتور الشيبانى جوانب بحثه عن الأدب المعاصر والتراث فى الفقرة ٤ ص ٢ يقول « مدى اتصال الأدب العربى المعاصر بالتراث .. والأسباب التى من أجلها « يتخفف » بعض المعاصرين .. فى علاقتهم بالتراث » .

كلمة « يتخفف » أوردها الدكتور عدة مرات .. ويعنى بها ، التقليص أو تقييد العلاقة .. فى حجم ومساحة محدودة ، والحد من العمق فى العلاقة بين الجديد والقديم ، وكلمة التخفيف .. التى يسوقها صاحبنا ، ليست تعبيراً أدبياً رشيقاً ، وانما هى أقرب إلى العامية ونجده فى موضوع آخر يقول « فانه قد يبدو لأول وهلة » هذا تعبير إذا استخدمه الصحافى فلاحرج عليه ، أما أن يأتى به دكتور ، يتحدث فى مؤتمر أدبى فانه تعبير خفيف . والكلام يختص بالشعر .

* والدليل .. على أن الشيخ الشيبانى .. بعيد الصلة بالأدب كما اعترف ، وقد أخطأ فى تحمله مالايحسن ، نجد موضوعه الطويل وقفا على الشعر ، وليت هذه الوقفية أتت برأى .. يستحق التأمل والدراسة ، ولكن الموضوع كله ضعيف ، والتركيزات التى جاءت فى آخره ليست جديدة ، وهى الاهتمام باللغة العربية ، والحفاظ عليها ، واستعمالها ، وضرورة .. الابقاء على الصلة بالقديم وربط الجديد به .. هذه لمحات .. رغم أنها ليست للدكتور الشيبانى إلا أنه يستحق الشكر .. فى غيرته على تراثه ، وأنه يجب ألا نسقطه ، ولانهمله ، وكذلك لغته ، كما يدور عند بعض الشبان من حملة ظالمة .. تريد التخلص من الماضى ومافيه ، وهى حملة .. من ردود فعل معينة ، سواء كان الجهل ، أو البعد عن السديد ، أو الانسياب وراء التيارات الوافدة ، تحمل اللاأهمية للجذور أو تدعو إلى الانسلاخ من القديم ، بكل مافيه من محاسن ومساوىء .

المهم .. الدكتور عمر الشيبانى ، قدم السرد الطويل ، عن التراث والأدب المعاصر ، وحصر العلاقة فى الشعر أو على الأصح .. لم يذكر غير الشعر ، وترك بقية الفنون ، أو على التحديد النثر ، ومدارسه ودوره الكبير .. فى حياتنا الأدبية .

ولم يتعرض للقرآن الكريم بشىء ، وهو أساس .. فى اللغة والبلاغة ، نزل بلسان الأمة العربية ، وهو منهج ربانى ، ذكر فى كتابنا ، وهو قول الله تعالى :

« وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » .

وللقرآن الكريم والسنة النبوية أثر كبير فى بقاء اللغة العربية ، أربعة عشر قرناً ، وستبقى لأن الدستور باق .

والدكتور الشيبانى يبدو أنه بعيد إلى حد ما عن مصدرى الاشعاع فهو لم يستشهد بآية أو حديث ، وربما كان واجباً ، وهو يتحدث عن التراث ، وعن اللغة العربية .

وهناك أخطاء .. فى النقل أو الفهم ، والذى يقدم موضوعاً للدراسة ، ينبغى أن يمحص مايقول ، والا فانه كمن يحرث فى السبخ .. ويتعرض الدكتور الشيبانى لصاحبى الديوان ، (العقاد والمازنى) .. فيقول : « قد حددت للشعر الحديث مبادىء .. يجب أن يسير عليها لخصها بعض الباحثين المحدثين فى تسعة ويذكر « المبادىء » ومنها « البعد عن شعر المناسبات العارضة » . وهو بهذه الاشارة يعتبرها اكثر من اثنين ، مع الرأى الخاطىء الذى يضيف اليهما شكرى .

ولم يقل الشيبانى شيئاً أو يعلق بشىء فى ذلك ، وأقل ماهناك ، أن يذكر .. أن العقاد وهو فى طليعة احد صانعى الديوان ، لم يسلم ، بل أنه لا يحفل بشعر المناسبات العارضة جداً وهزلا والتخلص من المناسبات أمر ليس ممكناً ، والمناسبات .. من أغراض الشعر .. مثل المديح ، وفى الفقرة (ز) من القانون .. الذى أورده الباحث ، لصاحبى الديوان .. « تحرى الصدق المطلق فى التعبير » ونحن لانسقط هذا المبدأ ، فى القديم والحديث ، أنه مبدأ أساسى ، فى كل عصر وجيل .

وفى الفقرة (ح) يورد صاحب البحث من وصايا القوم .. أن « الشعر ميزة إنسانية .. لا لسانية ، والقصيدة الجيدة .. هى التى لاتفقدها الترجمة شيئاً من مقوماتها ، ربما كان هذا صحيحاً إلى حد ما .. ولكن الأمر يتوقف على قدرة المترجم وعلى الترجمة نفسها ، فرجل مثل أحمد حسن الزيات ، نقل إلينا جمال الأدب الفرنسى ، بنفس الجمال ، أو أرقى إلى لغتنا ، ومثل الزيات قلة نادرة إذن .. الموضوع ليس موضوع القصيدة الجيدة فقط ، ولكن جودة الناقل نفسه ، وإذا كان رديئاً فانه يجعل الجيد رديئا .

واقرأوا هذه الفقرات :

« والمعاصرة .. هى عناصر وملامح غريبة مائة فى المائة » .

ومائة فى المائة تعبير تجارى ، أو سوقى .

« فتجد الواحد منهم يقف موقف الرافض .. لكل ماهو قائم اجتماعياً .. وسياسياً » .

والواحد منهم ، هذا تعبير ثقيل ركيك ، أقرب إلى العامية منه إلى العربية ، والدكتور يدعو إلى الفصحى ، ونبذ العامية ، وهى دعوى .. يستحق عليها الشكر ، فليته يبدأ بنفسه ، فيحسن لغة مايلقى ومايقدم فى مؤتمر كهذا موضوعاته اللغة وآدابها

(ج) وهناك كلمات .. جاءت فى العرض ، مثل يتمتم ، وليس بشرط بدل ، وليس شرطاً ، و « مواصفات » و « الانكفاء » ، وألفاظ كثيرة ، لاداعى لسردها .

وعن الصدق فى الأدب نقرأ هذا السطر : وبطبيعة الحال ، إن هذا الصدق يجب أن يكون فى حدود الأدب واللياقة والحشمة والوقار ..

ما هذا ؟ .. هل الصدق يخرج عن هذه الخصائص وكيف يكون صدقاً .. إذا انسلخ منها ؟ ثم هذا التعبير الثقيل على النفس ، اللياقة والحشمة .

ويخلط الدكتور الشيبانى ، فى منقولاته ، أو فيما يسوق من آراء ، وهو يتحدث عن القواعد فى الشعر ، ويذكر .. أن الأدباء المحدثين ، وليس عندى مانع ، أن يكونوا بكسر الدال وفتحها معاً » . والمتأثرين بالتحرر ، يرون أن كل شىء نسبى ومتغير ، ويصل إلى القول : بأنهم « ينظرون إلى الشعر .. على أنه الكلام الصافى .. الذى لايقيده وزن ولاقافية .. وأن المهم هو طبيعة مادة المضمون ، وعمق الكشف .. الذى تصدقه » .

والجدال فى هذا طويل ، وغير مجد . ولكن المهم ، أن الشعر له خصائص ، إذا فقدها انسلخت عنه تسميته ، منها وزنه وقافيته ، فاذا خضع تعبيره لمقاييس معينة ، ولم يراع فيه أدوات الشعر فليسمه أصحابه مايشاءون : يقولون مشاعر ودوافق نفسية ، من معاناة ودوافع آلخ .. والدكتور لايعقب بشىء يذكر لأنه ليس فنه .. كما أنه يضع مع الشعراء الفحول المتنبى والمعرى وأبى تمام .. البهاء زهير والبوصيرى وأين هؤلاء من أولئك ؟ .

وبعد ..

اننى اكتفى بهذه .. مع بحث الدكتور الشيبانى فى موقف نقدى لأن صاحبه .. لم يقدم .. مايستحق أن يذكر فى مجال الثناء .. سوى غيرته على تراثه ولغته . وكنت أريد أن أقدم بجانبه بحثاً آخر قصيراً ، ولكن الصفحات ضاقت ، وقد تركت الكثير .. من سرد الشيبانى .. لم أقف عليه ، حتى لايمل القارىء وقد أطلت ، فمعذرة .

الإثارة الفكرية في التراث العربي

موضوع قيم ، « مضغوط » ولكنه مركز ، قدمه الأستاذ « ابراهيم العجلونى » من دائرة الثقافة والفنون ــ بعمان ــ الأردن . الموضوع فى خمس صفحات ، كتب بأسلوب فنى مجنح ، ركز فيه على أهمية تراثنا العربى ، وأشار .. الى ان العيب . ليس فى التراث ، حين نهمله ، ولكن فى عدم فهمه ، وفى إخضاعه لمقاييس غريبة عنه ، فلا تتطابق معه ، رغم ان التراث قد درس ، ومع ذلك لم نستطع ــ ادخال هذا التراث .. كعنصر رئيسى فى ثقافتنا المعاصرة ..

ولم نستطع .. أن نثبت قوة الاثارة الفكرية الذاتية فيه .. ويشك الأستاذ العجلونى فى ان هذا المبدأ .. لم يدخله الكثيرون فى اعتبارهم ، حينما تعرضوا .. لهذا التراث ، مسلطين عليه اضواء باهتــة .. من النظريات العارضة ، والآراء المنتحلة ويستشهد .. صاحب هذا الموضوع .. الذى أقدمه اليوم ، بنماذج من شعر امرىء القيس والأعشى ، ويؤكد على الواقعية .. التى تشع من التراث ، حين نبذل مجهودا ما ، لتفكيك الصورة الشعرية .. الى أجزائها الأولية ، وهى صور حسية متلاحقة ، فى كلمات .. ذات مدلول حسى .. واقعى .. « وهذه الخصيصة .. تجعل من تراثنا كتابا مفتوحا يسهل علينا .. بمجرد تجاوز الرداء اللغوى ، النفاذ الى روحه وتمثل .. عظمته وقدرته .. على العطاء المستمر ».

ويمضى الأستاذ العجلونى .. فى تقدير تراثنا والسبل التى يجب ان نسلكها .. الى فهمه اولا ، ثم الى الاستفادة منه ، فيقول ، « والواقعية اللغوية .. ليست بالشىء القليل ، حين يراد فهم هذا التراث وبعثه ، حبا .. فى الحياة الشعرية والأدبية المعاصرة ، فالفرق جد كبير .. بين ان يقف بينى وبين تراثى جدار من التجريدات الذهنية ، والقوالب الفلسفية . وبين ان ارتع فى تراث .. لكل كلمة فيه واقعها المحسوس ، لهذا .. لانعدم الصواب .. حين نؤكد ان العربية تجريبية ، فى اصولها اللغوية ، ومن هنا ، فهى قوية .. قوة هائلة ..

فى الاستدلال الفكرى ، لأنها تفيد من نزعتها الاستقرائية .. افادة قصوى ، الى جانب الوسائل الفكرية الأخرى ..

ونحن ندرك ، أن الأدباء الفحول .. المعاصرين تعمقوا .. فى فهم التراث ودرسه .. فكونوا شخصياتهم .. من تراثنا ، ثم اضافوا اليه .. روافد الثقافات الأخرى ، ولم يخضعوا تراثهم لمقاييس المعاصرة ، وانما كان التراث اساسا .. فى تكوين عقولهم ، حين هضموه ، وتعمقوا فيه وافادوا منه .

ويجب الا نجمد على التراث ، ولا ننقله بقوالبه وظروفه ، الى العصر .. الذى نعيش فيه ، وإنما نأخذ منه زادنا ، من اللغة والصور والأخيلة والعمق والجمال ، ونضيف اليه ، ما يتواءم معه ، ليكون له روافد ، واحياء وبعثا . ولعل الضعف الذى نشهده اليوم .. فى انصاف الأدباء ، هو اهمالهم لتراثهم .. لما حفل به من لغة وبيان ومعان ، فنجدهم سطحيين ، لأنهم قصروا فى الافادة منه ، ولم يبذلوا مجهودا ، للأخذ من التراث .. بما يقيم افكارهم وشخصيتهم المستقلة ، فجنحوا الى السهل والسريع ، لأنهم يستعجلون الوصول الى الشهرة .. من اقصر الطرق .. وهذا ما جعلهم قريبى الغور ، لأن حصيلتهم من الزاد قليلة جدا ، أو نادرة .. وبالأمس .. تحدث الأستاذ (سمير احمد ندا) .. فى جمعية الفنون بجدة . فى محاضرته القيمة . الرائعة عن « الجذور الحضارية للدراما العربية » .. فأكد ان العرب .. لم يتخلفوا ولم يقصروا ، فى هذا اللون الأدبى ودلل على ذلك .. بشواهد من التاريخ القديم . ويلتقى الأستاذ العجلونى بموضوعه .. الذى نتحدث عنه ، مع الأستاذ ندا ، فيقول : « ونحن نرى .. ان من الخطأ الظن .. بأن شعر العرب .. لم يعـرف المسرحية .. كما هى عند اليونان ، لقصور فى فهم العرب .. لهذا الفن ، فاللغة العربية .. فى قدس اقداسها .. ديناميكية ، حركية ، درامية فطرية » .

ويصل الأستاذ العجلونى ، او يقف بنا ، فى اثناء حديثه ليقول « هكذا يتضح ما قصدته .. بقوة الاثارة الذاتية فى التراث العربى فى أصوله ، فهو تراث واقعى ، عقلانى ، حركى اولا ، وهو يستعصى على اساليب الدراسة .. على ضوء النظريات الجاهزة ثانيا ، الأمر الذى نراه بحاجة .. الى قليل من الأمانة ، وعلى وجه التحديد فيما يتعلق بالصدق الفنى .. الأدبى ، الواجب توفره .. فى دارسى التراث ».

وهذا هو منطق الحق .. الذى يجب أن يتوافر ، فى دارسى تراثنا ، وإلا فانه يظلمه .. بالتخمينات والفروض ، التى لا تنطبق عليه .

« والذوق الفنى ، او الحس الجمالى ، ليس وليد صدفة ، ولا هو الهام .. يأتى من السماء ، ولكنه معاناة طويلة ، ووقوف متأمل .. ازاء جزئيات العمل الفنى ، مصحوب بنبض وجودى ، اى ان تتولد لدى المتذوق — خبرة فنية ذاتية — يلتفت بمقتضاها الى العمل الفنى ، كحقيقة تمارس .. لا شيئا يوصف »، هكذا يقول باحثنا الأستاذ ابراهيم العجلونى ..

وناقد التراث المعاصر .. يحتاج الى الذوق الفنى .. للأدب العربى حتى يفهمه ، ويتمثل قيمته الفنية واصالته ، وهذا يحتاج الى صبر .. فى استيعاب نصوصه ، وهضم معطياته ، فكرا ، وفنا وخلقا —.. ويرى الأديب — اليوت — ان اكثر الشعراء معاصرة .. وقدرة على التجديد ، هم الذين نسمع .. فيما يقولون أصوات الأجداد .

ويقول الأستاذ العجلونى فى هذا الصدد .. « نحن اذن نخطىء كثيرا .. حينما نحاول اضاءة نص ادبى .. قديما كان او حديثا .. بقوة النظريات المعروفة لدينا ، والتى غالبا .. ما تكون مستمدة .. من بيئات مغايرة ، ذات تاريخ وحضارة مغايرين ، ولقد يحسن .. ان نستمد زيت مصابيحنا .. من النص ذاته . ففهم المتنبى مثلا .. لا يكون على ضوء فلسفة القوة عند نيتشة ، وكذلك فهم أبى العلاء .. لا يكون على ضوء تشاؤميات شوبنهور ، بل يكون هذا وذاك مستمدا .. من النصوص الأدبية لكليهما »..

هذه أضواء .. تنطلق من وجهات نظر كاتبنا العجلونى ، يلقيها على التراث ، وفى طريق .. الذين يريدون دراسته ، من المعاصرين ، كأسس ، اذا حادوا عنها ، يخطئون .. فى فهمه ، وبالتالى تخطىء الأحكام .. التى يرسلونها ، لأن الأدوات التى استخدموها ، لا تنطبق ، او لا تلائمه ، ولا توصل الى حقيقته ، فى فهمه وتذوقه .. اذن هم يبعدون عنه لأنهم لم يستعملوا الوسائل الوثيقة الصلة به .، او توصل اليه ، كما نخطىء فى نقل التراث — كما هو — من عصره الذى انشىء فيه الى عصرنا الحديث من غير بلورة ولا تجديد ولا ما يتطلب من تغيير قوالب وصور بما يلائم العصر الذى نعيش فيه .

ونستخلص من موضوع الأستاذ عجلونى . « الاثارة الفكرية .. فى التراث العربى » النقاط .. التى أجملها فى قوله « لكى يتم للأدب أثره . وقوة جذبه ، الى قيم معينة ، يجب ان يعتمد على :

ا – القدرة الفائقة .. على رسم النموذج (المثل).

ب – الصدق مع الواقع ، اى ان تكون الحقيقة نصب عينى الأديب دائما .

ج – الصدق مع الذات ، او مايسمى بالصدق الفنى .

ثـــم :

١ – الوضوح والبساطة .. وهما ركنان أساسيان ، لا يقوم بدونهما ، أدب ناجح ، اذ ينعدم بدونهما .. الاتصال بين المبدع والمتلقى ..

٢ – الأدب .. قوة محركة ، تستدعى التزاما وتوحى بالتغيير .

ولا أدرى .. ما يعنى الأستاذ عجلونى بالبساطة اذا كان يريد غير التعقيد ، فانا معه واذا كان يريد غير ذلك ، فقد اختلف معه ، فالوضوح شىء أساسى لأنه سمة الأدب الحى اما البساطة فى التعبير مثلا ، فهى ضعف ، لأنها .. لا تكون معها القوة ، فى المنحى الفنى ، ولا تكون البساطة فى العمق ، وقبل ذلك وبعده ، تأتى المعانى ، التى تحدد . القيمة الفنية للموضوع .

ولعل مما يبعدنا عن تراثنا هو « الاتباع الحضارى » الذى نعانى منه اليوم .

ونحن مع الأستاذ العجلونى ، فى حاجة الى العزم والصبر على البحث .. لفهم تراثنا ، والى قدرة جمالية وذوقية ، نتناول بهما تراثنا .

ونختتم هذا الموضوع وما كنت لأطيل الوقوف عنده لولا انه يستحق ذلك ، يقول ابراهيم العجلونى : « وانه ليحزننى .. أن تذهب جهود كثير .. من مثقفينا سدى .. فى تصيد افرازات الآخرين ، فى حين .. ليس بيننا وبين كنوز تراثنا سوى خطوة ، او خطوتين ».

وأنا ارى .. أن هاته الخطوة ، او الخطوتين ، ليست بالشىء الهين اليوم ، فى عصر السرعة ، واللهث فى متطلبات الحياة وهمومها ، فأين الجلد على البحث ؟ واين سلاح اللغة العريق .. الذى يحمل الى العمق ؟ واين الوقت .. الذى يتيح للباحث أن يفرغ الى التراث ، استقراء ، ودرسا واستخراجا ؟ والأديب .. فى دوامة لقمة العيش ، وكل ما حوله يلهث ويجرى ، فكيف

السبيل .. الى التوقف والاناة .. فى الدرس والفهم ؟ واين السبل التى تعين على التفرغ للبحث والتقصى فى هذا الزمن العصيب ؟ حتى الصروح العلمية لم تتح للأديب العربى .. العودة الى التراث لاستخراج كنوزه ، بدراسات مفعمة بالتقصى والادراك العميق ، للاستفادة منه ، على ضوء الأسس .. التى اشار اليها الباحث ، وألمحت اليها ، بعيدا .. عن تقليد مناهج مختلفة ، لا تؤدى الى مقاصد .. فهم تراثنا ، وتسليط الأضواء عليه ، بذوق ومنهجية .. لا تخرج عن واقعه ، وكذلك الصدق .. وموضوع الأستاذ العجلونى الذى قدمت عنه هذا التعليق ، لعله فريد .. فيما قدم لمؤتمر الأدباء العرب .. الحادى عشر فى طرابلس ، رغم انه مضغوط ومختصر ، ولكنه مركز ، فهو يقول « مع اعتراف .. بقصور هذه الالتفاتة ، عن استيعاب الفكرة .. التى أرمى اليها ، الا ان هذا لا يلغى ما ذكرته .. من ان استنطاق النصوص هو حجر الزاوية .. فى فهم التراث العربى ».

الأدب المعاصر والتراث

قدم الاستاذ « محمد أديب العامرى » .. رئيس وفد الأردن .. الى المؤتمر ورئيس رابطة الكتاب الاردنيين ، موضوعا بعنوان الادب المعاصر .. والتراث ، فى تسع صفحات ،

وقرأت الموضوع ، ولم اخرج منه بشىء .. يستحق أن يذكر ، سوى بعض الامثلة التى جاء بها ، وهو يتحدث عن القديم والحديث .. من الادب . واتهمت نفسى .. بعدم الفهم ، ولكنى مع ذلك استطيع ان أقطع ، بأن الاستاذ العامرى .. لم يقدم لمؤتمر الادباء بحثا .. أو موضوعا ، رغم ان العنوان يستحق ان يكتب فيه بحث شائق ، وثرى بالمقارنات والأمثلة ، وقد حاول صاحبنا ذلك ، ولكنه لم يأت بشىء يذكر .. ودخل المؤتمر بموضوع .. كما تصور هو ولكنه خرج منه بغير موضوع ـ كما اتصور انا ..

حتى الاسلوب ، وأنا أركز على أساليب أعضاء المؤتمر ، لانه يفترض فيهم ، انهم ادباء وانهم يجيدون التعبير الجميل الذى يأسر السامع ، اسلوبا وبيانا ومعانى ، ومنحى وتعبيرا .

استهل الاستاذ العامرى ، موضوعه .. بأن المؤتمرات الادبية « عاودت دراسة موضوع التراث والمعاصرة » ثم يقول « والحقيقة .. ان الموضوع مهم ـ والعودة الى البحث فيه تكشف كل مرة ـ بطبيعة الحال ـ عن جانب يجب الاطلاع عليه ودراسته ..

وقد حصرت مقطعا بطبيعة الحال ، لأنبه الى الاسلوب .. الذى يتحدث به فى مؤتمر للأدب ، فى صفحات مكتوبة ومحضرة .. قبل وقت لوفود رسمية ، ولعل رسميتها ، هى السبب فى كونها .. أو كثير منها غير جدير بان يوفد ، لان وراءه .. من هو خير منه واجدر بالوفادة والحديث ولكنه بعيد عن الساحة ، لانه ليس رسميا .

المهم . اقرأوا إن شئتم هذا المقطع من الصفحة الاولى ، يقول محمد أديب العامرى : « اذا عرف الاديب العربى .. موضعه الصحيح .. من التراث

والمعاصرة ، واستجاب للدافع الوطنى .. والانسانى الشريف ، الذى يجب ان يدفع كل أديب الى العمل وتضافر الأدباء العرب .. فى الكتابة والنضال .. اللذين يقتضيهما الوضع الصحيح ، فان الامة العربية كلها .. توضع عندئذ فى الاتجاه الصحيح ، وتندفع نحو اهدافها المرسومة ، بعزم متزايد .. متسارع ، لاوناء فيه ولا تراجع » .

ولست أدرى هل هذا خيال أم تصور فقط ؟ ولعل الاستاذ العامرى يتخيل أن الاديب بيده عصا سحرية ، فتصنع الأعاجيب ، حين يضرب بها الارض فيتعاضد الادباء ، يكتبون « ويناضلون » فيستطيعون بعصيهم السحرية ان يضعوا الامة العربية « كلها » فى الاتجاه الصحيح الخ .

ليت الاستاذ العامرى اتخذ نسبة من الامة ، اذا قدر للاديب .. أن يحقق شيئا من أحلام رئيس وفد الاردن ، الى مؤتمر الادباء الحادى عشر .

وهذا التعبير يذكرنى بـ « احلام شهر زاد » .. والأديب لا يحمل المعجزات ، ولا يملك المستحيلات ، الا اذا كانت أخيلته وطموحه وأحلامه تؤدى الى ذلك ، ولكن وسائل الاديب .. فى عالمنا العربى .. لا تغير مسار أمة ، واذا كان ما يقوله الاستاذ العامرى .. أمانى فلا بأس .. أن نشاركه احلامه وأمانيه ، مادام يتحدث فى الادب وعن الادب . ولنبن من الرياح قصورا ، ولو تواضع الاخ الفاضل فى أمانيه وافتراضاته وقال ان فهم الاديب العربى لتراثه والادب أو الفكر المعاصر ، وتمسكه بجذوره من مثل وقيم ، وربط بين الادباء رباطا مقدسا لانهم ينتمون الى أمة واحدة ، كما سماهم القرآن ، واعنى بها أمة التوحيد فان الادباء .. ربما حققوا لأمتهم مكاسب الوعى والذوق والادراك .. لعمق الحياة وقيمها .. والأدب لا يضع أمة فى الاتجاه الصحيح وإنما هو يهذب طباعها ويصقل نفوسها ويرتفع بأذواقها ويجعلها فصيحة قادرة على التعبير ويرهف إحساسها ، وإذا اعتبرنا الأدب من الأسس فى الحياة للشعوب الحية فانه لايمكن أن يكون البديل عن الدين الذى يحمل القواعد والجذور لأية أمة منه تستمد العدل وتعرف الحق ، والحدود والموت والحياة ، والحساب والعقاب ألخ .. فهل فى الادب قدرة على تحمل أو استيعاب الأساس الاول .. الذى يحدد خطوط المنهاج والمسير وما يتعين بعد ذلك على من يخطىء أو ينحرف ، وتتحدد كذلك الفروع بعد الاصول ، والادب كالعلم ، فالعلم يمحو ضده ولكنه لا يضيف خلقا ، أو يهذب طباعا ، أو يضفى ذوقا .

ويضرب الاستاذ العامرى امثالا ، وهو يتحدث عن القديم والحديث ، فيذكر طه حسين الذى جمع بين التراث والادب المعاصر ، ويتحدث ـ كل ذلك باختصار وايجاز ـ عن الرافعى الذى لا يعرف سوى التراث ، والمعركة التى نشبت بينهما فيقول : « وهناك يجب ان نوضح ـ فورا ـ أن طه حسين لم يكن يمثل المعاصرة الادبية بعمقها وشمولها وان الرافعى ايضا .. لم يكن يمثل التراث وحده . وقد اعجبنى كلمة « فورا » هذه فسقت هذه الجمل من اجلها لادلل على أن أسلوب العرض مرتجل وضعيف فى مؤتمر الادب ، ويقول كذلك فى نفس الموضوع « ومع أن طه حسين كان ملما الالمام كله بخصائص التراث العربى » ويكفى ان يقول : أن طه حسين كان ملما ومحيطا ألخ .. وبعد ذلك يقول « فأن الرافعى .. لم يكن ملما بابعاد الادب المعاصر ومستلزماته ».. ومستلزماته هذه محشورة ، فى هذا السياق ، وأكرر .. نحن فى مؤتمر للادب والمتحدث رئيس وفد ورئيس اتحاد الكتاب وكفى .

الذى أعرفه ، ان المؤتمرات الأدبية ، أو على التحديد الذى يشارك فيها بموضوعات ، يجب ان يأتى بجديد ، لا أن ينقل آراء الآخرين ويكررها ويضرب الأمثال عن القديم والحديث كانه يكتب فى موضوع انشائى ، وان يأتى بفكرة أو أفكار .. يضيف بها جديدا أو يستدرك بها أو يطمح الى الاستفادة من وجهة نظر معينة ، مستمدة من دراسة أو مقارنات ، أما ان تكون موضوعات مؤتمر للفكر اشبه بـ« الفارمانات » فان هذا اللقاء لا يخرج عن معنى « التسالى » فى اللقاءات التى تهتم وتناقش فيها أمور تذهب مع الريح بمجرد تفرق السامر ، فهل الأدب سامر ، ومؤتمراته كذلك ؟

لا أشك .. أن الدول العربية ، تنفق على هذه المؤتمرات التى تستضيفها ، ولا تحقق لها مكاسب سياسية أو اجتماعية ، وانما هى محاولات لهذه اللقاءات ، ولكنها لم تحقق الجدوى ـ كما اتصور فليس كل الذين يشاركون فيها بناة ، وانما فيهم الجيد ، وفيهم الضعيف وفيهم المتطرف . مؤتمر يجمع الذى يستحق ومن لا يستحق ، يدخل فى ذلك المجاملات وجبر الخواطر .

ونعود للاستاذ محمد العامرى وهو يتحدث عن التراث ، فنجده يقول : « هذا هو التراث الذى ورثناه وهو بمجموعه الذى يكون الشخصية العربية وإن كان التراث الاحدث ـ اعمق اثرا ـ فى تكوين هذه الشخصية .

ولا نجد دليلا أو بيانا يؤكد هذا الزعم ، وهو ان التراث الاحدث .. أعمق اثرا .. فى تكوين هذه الشخصية .. من القديم ، والأستاذ لا يضرب مثلا ، وانما يسوق كلاما ، ويصبح هذا الكلام .. لا معنى له ، يخلو من الدليل والحجة والبرهان ، وأنا لست معه فيما ذهب اليه . فالتراث الأحدث لم يكون الشخصية العربية ، ان كان القديم كونها وانما نرى الشخصية ممزقة ، اشلاء متطايرة فانى لها هذا التكوين ؟ ثم ماذا افادها ؟ وما قيمته فيها ؟ ماذا اضاف وبنى وكون ..؟

لعل ممثلينا أو بعضهم ، الى فسحة أو سياحة مؤتمر الادب .. لم يجدوا الوقت .. الذى يذوقون – على الاقل – فيه موضوعاتهم . لتصبح مقبولة ، ويتقنون سبكها وأساليبها ، وتركيز الافكار فيها ، لعلهم معذورون ، لان الوقت ليس فيه سعة للتدقيق والتمحيص والاجادة ، الا اذا كانت لقاءات « التسالى » لا تحتاج الى الدقة والعمق والجدية فهذا رأى ثان .

وكما قلت آنفا ، بانه لا جديد فى موضوع محمد العامرى ، بل أن فى بعض ما نقله من الاردن الى ليبيا فى حقيبته عبر هذه المسافة الطويلة يعرفه طالب الثانوية من محفوظاته المحدودة الضيقة واذا لم تصدقوا فاقرأوا معى قوله من الصفحة (٤) من موضوعه : « ولقد أثرت الحضارة العربية الاسلامية بدورها .. فى الحضارة الاوروبية الحديثة واسباب هذا التأثير وأساليبه معروفة لدينا فكما نقل العرب كتب اليونان الى العربية ودرسوها وتأثروا بها ، كذلك نقل الفرنجة .. عن العرب كثيرا من كتبهم وآثارهم وعاداتهم ، ودرسوها وشرحوها الخ .. » .. انتهى ..

الا يفهم طالب الثانوية هذا واوسع منه ؟ ما هو الجديد فى هذا ..؟

والاستاذ بحث عن « اتفاق » كاننا فى جنيف نحاول أن نحل قضية الشرق الاوسط ..

يفتش الأستاذ العامرى عن تاريخ بدء المعاصرة فيقول « ولست اعرف أن اتفاقا قد تم على تعريف كهذا » والموضوع عندى لا يحتاج الى البحث ، لانه ليس قضية ، كقضية الشرق الاوسط ، والمعاصرة تبدأ من عصر النهضة الحديثة واتصال المشرق بالمغرب والبعث الادبى ، الحديث والتجديد وقد تعرض اليها وربما قتلت بحثا بأنها بدأت بالبارودى ومطران وصبرى ، وامثالهم فى الشام وبيروت وغيرها ، فليس هذا موضوعا » .

ويقول الاستاذ العامرى « وتتبع امريكا وأوروبا المذاهب المثالية ، فى حين يتبنى الاتحاد السوفييتى والدول الاشتراكية المذهب المادى » ... لا أريد ان اعلق على هذا الرأى واترك ذلك للقارىء اذا شاء .. ولم يعجبنى قول الاستاذ « وهناك نجد الطب الحديث الذى يرقى باستمرار – ويصر – على اطالة عمر الانسان ومنح هذا العمر اسباب العافية والسعادة » ولا يعجبنى المقطع الاول من هذه الجملة ، فالعلم والطب يستطيعان بتقدير الله منح الانسان اسباب العافية والسعادة ولكنهما لا يصران ولا يملكان ، منح الانسان عمرا أطول . مهما أوتى الانسان من علم ويصبح تعبير الاستاذ غير سليم وغير دقيق .

ولم يعجبنى قوله « وهناك تجد الهندسة التى تبحث عن – راحة – الانسان وجمال حياته الخ « .. وكلمة راحة ، لو جاء مكانها كلمة « رفاهية » فهى أليق ، واكثر رشاقة وموسيقى .

ونقف مع العامرى فى قوله « ولسنا ندعو دعوة عامدة عندما نتبنى المعاصرة .. الى استيراد عادات ومبادىء سيئة كريهة ولـكن الظـروف الاقتصادية والاجتماعية الجديدة .. قد لا تترك لنا احيانا إلا خيارا ضيقا ، بين ما نأخذ وما ندع » .

ما أدرى هل الظروف الاقتصادية ، تكرهنى على استيراد المبادىء الوخيمة والعادات السيئة ؟ هل هى سلعة أو مرتبطة بالسلعة ؟ وهل الظروف الاجتماعية تنحو نفس المنحى ؟ أم تيارات تجرف الانسان .. الذى لا تقيه حصانة دينية ، تحميه من شرورها ؟

فى رأيى ، أن الوقاية بايدينا من سبل الانحرافات الوافدة ولا أقول المستوردة ، لاننا لا نستورد ، ربما حمل بعضنا معه شيئا من مساوىء الامم التى تدعى الحضارة والمدنية .

الوقاية .. ان نتمسك بمقوماتنا كمسلمين ، وهو الدين الذى يعصم من تمكن من قلبه من الانحراف فلقنوا أبناءكم دينهم ، وعلموهم اياه وألقوه فى نفوسهم وقلوبهم ، دعوا القلوب تمتلىء وتتضلع به ثم دعوهم يسلكوا فجاج الارض وراقبوهم واوصوهم وذكروهم .

وضحكت من قول العامرى « فمن لم يسر من أدبائنا المعاصرين أو الكتاب والمفكرين .. على سنن هذا الركب ، ركب التطور الى الامام والافضل

والاعلى ، فقد ـ حبط عمله ـ واصابه الجمود والخذلان ، وحبط عمله » هذا التعبير القرآنى جاء فى مجال العقيدة وزيغ الانسان ، أما ان يكون على مستوى الادب ، فهى خسارة فادحة .. ابتدعها .. الاديب العامرى فى غير محلها ، وأعنى التعبير ، فهو لم يوفق فيه .

ماذا تعني مشكلة المضمون ؟

* موضوعنا اليوم .. للاستاذ « حسين مروة » من اتحاد الكتاب اللبنانيين وهو أحد موضوعات ، مؤتمر أدباء العرب ، وعنوانه « ماذا تعنى مشكلة — المضمون — فى الادب العربى المعاصر » ؟

يتحدث كاتبنا .. عن موضوع « الشكل والمضمون » ، فى احدى عشرة صفحة ، ومشكلة المضمون فى الادب العربى ، مسألة طال فيها الجدل ، وعندى ان الشكل والمضمون .. عنصران متلازمان ، لا يغنى وجود احدهما .. فى غياب الآخر . ويبدأ الاستاذ مروة حديثه بقوله : « من الأدباء .. من يتصدى لطرح هذه المشكلة برفضها .. من الاساس ، ومنطلق هذا الرفض .. يتجه .. فى انكار مقولة — المضمون — .. فى العمل الادبى الابداعى بوجه ما ، يرجع هذا الانكار .. الى فهم خاطىء .. لجدلية العلاقة .. بين الشكل والمضمون » . ومنطق هؤلاء ، كما يبينه الاستاذ مروة ، « ان الشكل هو المضمون ، أو ان المضمون .. هو الشكل ذاته ، ولا شىء آخر غيره » .

هذا هو محور القضية .. التى يلقى بها .. صاحب هذا البحث ، الذى أخذ يدلل بوجهة نظره .. يضرب فى ذلك الامثلة ، حتى قال : « ان قضية العلاقة .. بين الشكل والمضمون ، هى من عقد الفن الكبرى » .

أستطيع القول ، بأن « الشرائح » التى قدمها حسين مروة ، وركز عليها .. وجهة نظره ، وهو يستعرض هذه المشكلة ، شرائح موضوعية ، يتلاقى معه فيها الكثيرون من النقاد والمفكرين الموضوعيين ، والمتزنين والفاهمين او المدركين ، لجوانب القضية وجوهرها ، وموضوعه جميل ، وددت لو انه ابتعد شيئا ما .. عن بعض التعبيرات او هذبها بنحو ما ، مثل قوله : « ان الصورة الفنية .. تكون غير الحقيقية الواقعية .. بمقدار ما يكون للاديب الخالق من قدرات .. على ان يخلق العالم من جديد .. فى صورته الفنية » .

وقد أشرت من قبل .. الى ان الخالقية لله وحده ، وأن علينا .. أن نتأدب مع الله .. فلا ننسب لانفسنا .. ماليس لنا ، و « العالم » الذى جاء فى تعبير مروة ، يعنى به .. عمل الاديب الابداعى ، اى الواقـع للقائـم خارج « الذات » .

ويحاور الاستاذ مروة ، فيرى « ان المشكلة فى أدبنا العربى المعاصر .. تتحدد على مستوى هذه العلاقة — اى بين العمل الادبى والعالم — بكونها مشكلة .. — انفصام — .. بين صورة العالم كما هى فى رؤية هذا الادب وبين العالم نفسه .. كما هو فى حركته التاريخية .. الموضوعية ، خارج وعى الاديب المبدع ، نقول « هذا الادب » ونعنى الطابع العام .. الذى يحكم معظم نتاجه ، ولا نعنى به حكما شاملا ومطلقا ، لا يستثنى تلك النتاجات الابداعية .. النادرة .. المرتوية بعافية العلاقة .. مع واقعها العربى » .

ويسرع مرة .. الى التعقيب والاشارة ، فربما يسأل سائل بقوله : أتريدون .. ان تكون الصورة —واحدة — اى ان يكون العالم فى واقعه الفنى .. كما هو فى واقعه المادى ، وأين الفرق .. بين الواقعين .. واين القيم الفنية للأدب .. كفن ؟

يعقب بقوله : « إن الاعتراض .. أن يتخذ من — الخصوصيـة — المعترف بها للابداع الادبى منزلقا — الى اعتبار هذه الخصوصية سورا .. تحتجب وراءه المشكلة الراهنة .. لا دنيا فى زمنه الراهن ، أعنى مشكلة الانفصام ، تلك التى تتجاوز كونها مشكلة الادب العربى وحده ، الى كونها كذلك .. إحدى مشكلات مجتمعنا العربى .. فى المرحلة الحاضرة .. لحركة تحرره الوطنى ، لان هذا الانفصام .. يفقد هذا المجتمع . سلاحا كفاحيا ، له فاعليته العظيمة .. على مستوى الادب والفكر الايديولوجى » .

نرى .. أن اعتراض الكاتب ، صاحب موضوعنا اليوم ، هو « أن جوهر المشكلة .. يكمن .. فى أن عالم الابداع العربى ، والشعر منه خصوصا .. فى مرحلته الراهنه ، يدور — غالبا — على .. محور الـ « أنا » الفرديـة ، بخصوصياتها الضيقة ، اى بتحويل علاقاتها الاجتماعيـة ، الى شرائـح منفصلة ، بعضها .. عن بعض ، وتجزئة من اطارها العام ، من سابقها التاريخى ، هذه الشرائح المجتزأة .. تفتت فى ابداعات الذات ، وانكفاء اليها » .

والواقع .. أن الخطر ، يكمن فى هذا الاتجاه كاننا فى « زمن صوفى .. تتوحد فيه الـ ـ انا ـ بالمطلق المستحيل ..

ولعل مرد ذلك هموم الاديب وتمزقه ، والمادية الصرفة .. التى تجرفه ، فطغيان المادية ، وارتفاع منسوب الهموم .. فى نفسه أديا الى هذه الفردية فى اطار التعبير ، برغم الابداع الفنى ، ذلك .. هو صخب الحياة وارهاقها ، والدوامة .. التى يعيشها الاديب العربى ، فى ظل احتلال ارضه وفى ظل القلق .. الذى يحيق به ، من وجود خصم ، تدفعه وتدعمه قوى عظمى ، لتمكن له فى الارض وليسيطر فيها على مقدرات أهلها ، يسلبهم الارض والحرية والحق ، ويرفض .. ان تكون لهم بقعة ، يستقرون فيها ، ويؤيد فى هذا الاستشراء القوى الضارية .. فى العالم . وخصمه .. له فى التاريخ الطويل وسائله .. من الفتن والتخريب والتآمر ، فهو يكنز المال ، وهو مبرز .. على كل الشعوب فى التجارة ودهائها ، فكيف به وقد وجد النصرة الظالمة والتأييد المطلق ، ليعيث فى الارض فسادا ؟!

ودوامة الاديب العربى .. أن أمته .. غير متضامنة ، وغير موحدة الكلمة ، بل هى تتطاحن وتتصارع .. على أتفه الأمور ، فكيف يكون لها كيان يرفع رأس الاديب ، وينقل صوته .. مجلجلا الى اعماق الدنيا ، وليس لهذه الامة نصير .. بعد الله ، الا اتحادها وتضامنها ؟ ، فكيف .. ومتى يتحقق الأمل ؟ ، إنه أمل ضعيف ، وهذه هى رأس مشكلتنا ، وهى مشكلة اديبنا .. المبدع ؟ .. وبلادنا العربية تعتمد على ما نستورد ، وتهددها ظروفها ، فى طلب حقها .. بالمقاطعة . وهذا ينعكس كذلك على نفسية الاديـب ومشاعـره وأحاسيسه . لذلك كان نتاجه وفكره فرديا من واقع تعايشه وتعاسته ، وواقع ظروف امته ، وما يحيق بها من تمزق وانحسار .. على ساحة .. المعاناة والكفاح ، ذلك .. أن التسلح .. يمتص اكبر قدر من دخلنا ، وما ينبغى ان يكون ثمنا لغذائه ، وحوافز .. لسعادته واستقراره وهناءته . وهذا المبدأ لا يتحدد فقط .. فى دول المواجهة ، ولكن فى كل الدول العربية قربا وبعدا ، من ساحة المواجهة .

ومع كل الافتراضات ، فى مسلك أدبائنا ، وشعرائنا على الخصوص ، فاننا واجدون شعرا يتميز بسعة المعرفة ، « وتتمرس فيه عفوية الذهن ، ينبع

من موهبة ، ويخاطب عالمنا العريض ، بعيدا عن المعارف الوهمية والغيبية ، ويجانبه شعر .. تتحكم فيه العفوية والحدس الشعرى باطلاق . والفرق جد كبير ، بين شعر العفوية والحدس المجرد ، وبين شعر الذهن .. المترع بالمعرفة العلمية »

والأزمات ، تدفع الى الابداع عند الموهوبين ، من ذوى المعارف .. الذين يعمقون التأمل ، ويألمون بالجرح النازف ، لانه جرحهم ، وهم لا يقفون .. يعبرون عن ذواتهم ، ولكنهم صوت امتهم ونفيرها المجلجل فى صدق ، ينعكس فى التعبير وأعماقه من آلام المعاناة ، فهم ليسوا مصورين كعدسة آلة التصوير . ولكنهم يرسمون المنهاج .. الى وقفة صامدة وجهاد شامل ، وهم روافد .. فى طريق الحق ، فقد امتلأت نفوسهم ، وفاضت بعمق مأساة أمتهم ، التى تصارع الباطل ، وتجاهد نفسها لتنتصر عليها اولا ، وبذلك تستطيع ان تنتصر على اعدائها .

هذه بعض آلام أديبنا الطموح اليوم ، وهذه بعض المبررات .. لمسلكه فى ظل ظروفه .

أما الصنف ، او النوع الاخـر ، جماعــة الحـدس والتخمـين ، أو الحالمون ، فى رومانسية مغرقة فلهم عالمهم ، لانهم .. ليسوا فى الساحة .

والقضايا الأدبية .. مناخ للجدال العريض ، عبر أطوار الحياة ، وكل عصر له لغته ، ومناهجه ومدارسه وآراؤه الجديدة ، وروافد الثقافات .. الوافدة بطفحها ورواسبها . وكلما ضاقت حلقات الخلاف تقاربت الاراء . وأمكن تأسيس ساحة ، يتبارى فيها المجيدون فى آفاق الابداع الفنى . وأرى اليوم أن جذوة الخلافات الفكرية قد خمدت .. الى حد ما ، لانصراف المفكر العربى ليس الى ما هو خير ، ولكن الى جوانب أخرى ، كنوع .. من المهادنة أو التفريغ الهوائى .. لشحنات الطاقة ، لان الوقت غير مهيأ .. لجدل قد لا ينتهى ، والعيش ضيق ، وفسحة الامل كذلك ، والضيق النفسى .. معتم الرؤى .

البطل فى الأدب العربى المعاصر

* قدمت « سلمى الخضراء الجيوشى » .. الى المؤتمر موضوعها الـذى يبحث .. فى « الشخصية البطولية والضحية » ، على ضوء معطيات الأدب الطليعى .

وأكبر الظن .. أن صفة البطولة ، سرحت وساح استعمالها ، وشاع فى الأمر الخطير والحقير ، فما أيسر ما تسمع وتقرأ نعوت البطولة ، تطلق جزافا بغير حدود ، فلان بطل وفلانة .. بطلة ، وقام بالبطولة علان ، ومنهم فى البطولة س ، ص .. من الناس ، حتى فى المجالات التى لا يتطلب الوضع فيها .. تعيين بطل ، او الحاجة اليه ، ولكنها « كلشيهات » سرى استعمالها .. بغير قيد ، او تمييز .

وصاحبة هذا البحث ، تسوق استعراضات عن البطل فى الشعر .. بغير الاتيان بنماذج ، والبطل كذلك فى القصة والرواية .

وانا لا اختلف فى الرأى ، عن كون البطولة أو شخصية البطل ، هى أساس البناء ، فى القصيدة والقصة والرواية .. التى تمجد الرمز القيم ، او الشخصية الواقعية ، التى تتمايز عن غيرها بخصائص ، تجعل لها دورا بارزا ، ومواقف شجاعة ، وانعكاسات لخصال يمجدها الانسان ويتفاعل معها ، وتهزه المواقف الانسانية والشجاعة ، وهو يقرأ أو يستمع أو يرى أمثلة تتجاوب مع نفسه وتهزه ، فالبطولة .. مواقف وليست سلبيات ، وإن كان معنى البطل .. يتحول الى أشياء سلبية ، فهو فى مواقف رمز لموقف ، وسمى بطلا .. لأنه الصورة .. التى يدور حولها الحوار ، او القضية المطروحة .

* وقد كانت البطولة ، فى الشعر القديم تشغل الكثير منه ، وعليها يدور المديح والثناء ، وهى مدار الفخر والاعتزاز والشهامة ، وحماية الذمار ، والكرم والنخوة ، والخصال الكريمة والفروسية ، ولا سيما الأخلاق . وكان هذا الشعر .. يرتفع الى الذروة ، ويتناقله الرواة ، وتطرب له المجالس ، ويشيع ..

لا بين القبيلة الممدوح فيها البطل او منها الشاعر ، وانما .. بين القبائل المختلفة ، وقد حفظ لنا الشعر القديم ولا سيما الجاهلى .. فى انطلاقاته غير المقيدة ، صورا .. للبطولة الرائعة ، وصور النثر – على قلته – ألوان للبطولة والفتوة العربية . ولم تقتصر البطولة .. على الرجال وحدهم ، وانما شاركت المرأة فيها بنصيب عريض ، ذلك ان منهج التعايش فى المجتمع العربى .. مسرح كبير لبروز البطل والبطلة ، والطبيعة العربية ، وصفاء الصحراء ، وعمق الخيال ، ودواعى الحض على المكارم والشجاعة ، وتوافر الحكمة والمعرفة ، ودوافع لظهور ابطال .. على الساحة التى تحفل بالمثاليات ، وتشمخ بظهور علم فيها ، يتميز بخصال .. هى أحلام الامة العربية بطبعها ، وما فطرت عليه من ارتباط .. بصفات وجدت فيها نفسها وتعايشها ومتطلباتها ، فتغنت بالمثل وما رأته كذلك ، بحكم وضعها ومعتقداتها وحميتها ، وحفظ التاريخ العربى فى ادبه ، ولا سيما الشعر أسماء بطولية ، ورموزا للبطولة المعشوقة ، والمرأة نفسها ، يرتفع اعجابها وحبها للبطولة والقوة الى حد الهوس ، والقداسة ، وتعرج صاحبة البحث ، وهى تتحدث عَن البطولة فى استطراداتها .. الى الشعر الفلسطينى ، وهو شعر كثير ، ومختلف الالوان .

والحرب الاسرائيلية العربية ، والفداء والهزيمة والنصر والاستشهاد ، كلها ميادين للبطولة ، والحديث فيها طويل ، وقد وجد الشعر .. فى احتلال الارض والعداوة القائمة .. وتشريد أمة عن وطنها ، والتنكيل بالعزل ، الذين يريدون الأمن والحياة حتى فى كنف الارهاب ، وتمزيق هذا الشعب وطحنه ، بحقد وغطرسة ، وجبروت ودعم قوى عظمى ، تعينه على الشر والظلم ، وتشارك فيه عيانا وزورا ، فى ظل ثلاثين سنة ، ظهر فيها جيل ، لا أسميه جيل النكبة ، ولكنه جيل الفداء .. فى العذاب . وكل معوقات النصر .. ليست مستحيلة ، ولا تتطلب معجزة ، إنه إيمان واتحاد ، إيمان بالله أولا واتحاد الامة العربية . وبغير ذلك لن يتحقق نصر ، والسلام بعيد جدا رغم المساعى اليه .

الشعر فى مناخ القتال والجهاد ، فى قضية .. كل يوم تزيد تعقيدا والتواء ، والشعر .. يجد تربة خصبة وفداء ، وهو ما يعبر عنه بالبطولة الحقة ، وليس الرمز اليها .

* وقد حفل الشعر الحديث ، بتصوير البطل والفداء ، وكثير منه فيه صدق ، وإن جنح كثيره الى شطحات ، تقلل من قيمته ، لخلوه من اليقين ، وهو مبدأ أساسى ، والتعريض به أو الانسلاخ منه ، يهدم كل عمل ، ويلغى كل أمل فى النصر ، وليس إلا اليقين والصدق مع النفس ، والاخلاص فى القول والعمل .. سبيل الوصول الى الايجابيات ، ذلك أنها عدة النصر وأسبابه .

* وتذكر الكاتبة .. أسماء بعض الشعراء ، الذين وصفوا البطولة فى الشعر المعاصر ، فى الصراع اليهودى – العربى فى فلسطين ، امثال « محمود درويش » و « راشد حسين » .

والشعر فى القتال .. وعلى ساحة الظلم ، دائما عنيف وقوى .. لان الرصاص ينشر دخانه عليه ودوى المدافع .. أصداء كلماته ، والقنابل قلمه ، والبارود مداده ، والخنادق .. الساحة .. التى يقف فيها الشاعر منشدا قصيدا .. كالصواعق يهتز شجاعة وطربا ، ويتفصد العرق من جبينه .. كاللؤلؤ .. وهو يزهو ، فى حماسة القلب الشجاع على ربى الوغى .

وعن الضحية ، تركز الكاتبة حديثها عن العصر الحديث ، فتذكر أعمال – غسان كنفانى – فى أقصوصته « رجال فى الشمس » تتحدث عن أربعة من الفلسطينيين اللاجئين مات منهم ثلاثة فى خزان ماء اختناقا ، فى اثناء تهريبهم .

والضحايا .. مختلفو الحظ ، فيما يحل بهم وربما أختلف مع سلمى الخضراء .. فى إطلاق اسم الضحية .. على مختلف الفئات ، فالذى يرتكب جرما ويسىء الى نفسه ، ويلقى جزاءه مما قدمت يداه ، لا أسميه ضحية ، وإنما الضحية هو المظلوم المضطهد ، الذى سلط عليه العذاب .. دون ان يجنى ما يتكافأ وما لقى من تنكيل ونكر .

* وسلمى تدرج فى الضحايا مختلف النماذج كالسياسيين والثلاثة الذين ماتوا .. وهم فى « وايت ماء » فارغ .. مهربون ، فماتوا بداخله . ونحن نتعلم من القرآن الكريم .. بأن لا نلقى بأيدينا الى التهلكة . ولا يمكن ان توصف كل المغامرات بالشجاعة ، ومن يقوم بهذا الدور ، اذا لقى مصيره وجزاءه ، بأنه ضحية .

وتأتى الكاتبة على رواية نجيب محفوظ الكرنك ، وتقول : « إن حلمى حمادة مثل ممتاز للبطل .. الذى يسلك مسلكا بطوليا ، ويموت ضحيـة

صموده » .

كما تتحدث فى كلمات ، عن « الرعد .. واللص والكلاب » .

وترى سلمى .. « ان موضوع الغربة الروحية ، من اهم مواضيع الادب الطليعى المعاصر عندنا ، لا سيما الشعر » .

وأنا اقول : إن الغربة الروحية سمة ملازمة للاديب طوال حياته ، عبر تاريخ البشرية الطويل ، وهى موضوعاته ، لا سيما الشاعر ، وفيها نجد الصدق فى التعبير والتصوير لهذا الفراغ ، اذن ليس هذا الامر جديدا .

وتعود الكاتبة الى حد ما .. الى الابانة ، من هم الضحايا ؟ فتقول « إن الابطال المغتربين .. ليسوا دائما ضحايا ، أغلبهم كما يصورهم الشعر يحاولون أن يجدوا حلا لفوضى الحياة المعاصرة « وتصفهم بانهم إما رافضون او متمردون . وعندها أنهم فى روايات نجيب محفوظ الاخيرة ، وهم الابطال المغتربون ، « ضحايا » شديدو الهشاشة ، « خالون من القوة » الحقيقية ، واغلبهم .. كما يصورهم محفوظ « دائمو البحث » .. عن هدف .. لا يجدونه مطلقا » وتضرب المثل على ذلك « بصابر فى رواية « الطريق » وكذلك فى رواية « الشحاذ » .

* هذه وقفة عابرة ، مع سلمى الخضراء الجيوشى ، فى موضوعها .. الذى قدمته لمؤتمر أدباء العرب ، الذى عقد فى طرابلس الغرب ، فى شهر شوال ١٣٩٧ هـ ، وهو استطرادات ، عن البطل والضحية فى الانتاج الادبى المعاصر .

ومن المقرف ، والمخزى والمحزن ، أن الكثيرين من الكتاب ، وخاصة الشباب ، يتطرفون فى تعبيراتهم ، واعنى اولئك .. الذين لا يملأ نفوسهم معتقد عميق ، فيحميها من الانزلاق فى الهاوية ، بسوء الأدب فى التعبير ، مع الخالق ، وما اكثر ما نسمع ونقرأ عن سخرية القدر . و « ظلم القدر » . واقول للجاهلين ، إنه ليس فى القدر سخرية ولا ظلم . فالله سبحانه وتعالى قد حرم على نفسه الظلم ، فكيف يقدر .. ما يسمى وقاحة فى منطق البشرية بظلم القدر وسخريته ، والقدر لا يسخر ، ولكنه تقدير العزيز الحكيم .. انها إرادة الله ، وهو سبحانه .. لا يسأل عما يفعل . ولقد وقعت سلمى فى هذا السوء ، وهى تتحدث فى موضوعها الذى بسطت له هذه الصفات .

فأين الادب فى النفوس .. مع الخالق سبحانه وتعالى ؟ وصدق العليم الخبير وهو القائل : « او لم ير الانسان انا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين ، وضرب لنا مثلا ونسى خلقه » .

مشكلة المضمون فى الرّواية المغربيّة

* موضوع طويل ، بلغ عشرين صفحة ، قدمه الاستاذ « إدريس الناقورى » .. من المغرب ، الى المؤتمر . تحدث فيه عن المضمون فى الرواية المغربية ، واستعرض نماذج مختلفة .. من الروايات لكتاب مغاربة ، بعضهم يكتب بالفرنسية ، وبعضهم بالمغربية فى فترات قبل استقلال المغرب ، وبعد استقلاله ، وتأثر اخواننا المغاربة .. بالافكار الغربية ، وخاصة .. الفرنسى منها ..

وفى خلال المقدمة للموضوع ، يحدد الكاتب .. معنى المفاهيم الأولى للمضمون ، ويشير الى انها ترتبط « بعدة مفاهيم ومقولات أخرى ، لا بد من فهمها بدقة ، واستخدامها بكيفية ملائمة ، تجنبها البلبلة والتشوش ، وتبعدها عن الغموض والعشوائية » .

ويمضى الكاتب .. يستعرض هذه المصطلحات فى المنهج الفكرى والابداعى ، والعقيدة والاسلوب والشكل . ثم يعقب بأن « لكل واحد من هذه المصطلحات .. دلالته الخاصة .. ومفهومه الواضح المحدد وذلك بسبب وجود فوارق دقيقة تفصل بينها ، وتميز كل مصطلح عن الآخر ، من حيث الدلالة والاستعمال المنهجى » .

ثم يأخذ فى الحديث .. عن مضمون العمل الأدبى ، ويصوره .. بأنه « الانعكاس الواعى للحقيقة الموضوعية » . ويستشهد بقول — هيجل سوى — بأن « الخصوصية الجمالية .. هى قبل كل شىء .. خصوصية الوعى الابداعى ، وليست الاصالة »

ويصور إدريس الناقورى المضمون لأى عمل فنى ، ويحدده بأنه — الفهم الواضح لظواهر الحياة وتقييمها .

والاختلاف والجدل قديمان ، حول المضمون والشكل ، وقد هاجم هيجل نظرية « كانت » الشكلية ، التى لا ترى عناصر الجمال الا فى الشكل ، وتلقى

بالمضمون خارج نطاق الجمال .

والمعروف عند الدارسين الواعين ، أن الشكل والمضمون متحدان .. ومتلازمان .. فى الانتاج الابتداعى . والعلاقة الجدلية بينهما قائمة قاعدة . شأن اختلاف الآراء فى مدارس الأدب ومعطياتها ومناهجها وتطوراتها ، واخضاع الانتاج الفنى .. لاحدى هذه المدارس ، لأنه يخضع لمفاهيم كذا ، وكذا وينهج نهجا ، يتطابق مع منحى معين يرتبط بنظرية ما ، لأسباب .. كيت ، وكيت .

ويعلن الناقورى بأنه ليس من شأن بحثه .. الذى قدمه لمؤتمر أدباء طرابلس .. تفصيل القول فى عوامل نشوء وتطور الرواية المغربية ، وانما يهمه بالدرجة الاولى الاشارة .. الى أن هذا النوع الادبى .. حديث العهد فى بلادنا . ومع ذلك .كان أكثر حديث الناقورى فى بحثه ذاك .. عن نشوء وتطور الرواية فى المغرب ، وكاتب يقدم عشرين صفحة يخصصها للرواية المغربية ، ماذا سيقدم فيها .. اذا لم يدرس هذه الروايات ، التى صدرت فى بلاده ، ويقف عليها بدقة ، محللا وناقدا ومقارنا مع غيرها .. من انتاج المشارقة ، والفرنسى .. الذى تأثر به كاتبوها ، ومتعقبا بعد ذلك التطور والابعاد والعمق فى هذه الروايات الاجتماعية والسياسية وما اليها ، ولو اختصر موضوعه على بضع صفحات ، لكان قادرا على حصر آرائه بدقة فيها ، أما وقد ترك لنفسه .. أن يمتد .. عبر الانتاج الروائى فى المغرب ، فانه بهذا العمل وهو الوقوف على الانتاج ونقده وتحليله ، محتاج الى مساحات من الورق والوقت أكثر واطول ، ليقول آراءه وهو يدرس .. ويستعرض فى موضوعه ، العطاء الفنى الذى حدد البحث عنه .

واستمعوا اليه يقول ، وهو يتحدث عن الرواية .. فى ص (٤) : « يمكن القول .. بأن اللقاء الذى ظهر منذ البداية .. فى صورة صراع بين الثقافتين ــ يعنى العربية والفرنسية ــ ثم مع بداية الحماية .. فى مستهل هذا القرن ، عندما بدأ النضال السياسى .. المسلح ضد المستعمر ، يوازيه ويدعمه .. نضال فكرى .. ضد الثقافة الغازية والايديولوجية الدخيلة » .

هكذا ينساب الكاتب فى حديثه الطويل ، حتى يوشك ان يبلغ حد الاملال .. فى سرد طويل يصلح دراسة مستأنية ، لا خلاصة وقفات تقدم الى مؤتمر ، ينعقد ليقف فيه العابرون ، متحدثين ومعقبين ثم ينفض ، ويجمع ما

يقال فى مجلدات تطالعها بعد عام او عامين ، او تذهب .. لتحبس فى الدواليب وعلى الرفوف .. ليغطيها غبار النسيان ، كما يعفى الزمن .. على هذه اللقاءات التى تنسب الى الفكر ويشارك فيها من يسمون بالرسميين ، لا .. لانهم المجلون والاحق بالمشاركة ولكنها الوجوه التى تجدها فى الواجهة ، بحكم وظائفها أو علاقاتها الشخصية بمن توجه اليهم الدعوة ، فيذهبون ، وكأنهم فى سياحة ، ويلفقون ويزوقون كلاما لا يترتب عليه لا سلبا ولا ايجابا ، ثم يعودون من سياحتهم ، وكأنهم أدوا واجبا .. يمكن ان يعتد به .. ويكفى أنهم .. اختيروا ، وشاركوا فى مؤتمر للفكر ، ومسكين الفكر ، لان الكثيرين الذين يشاركون فيه .. ليسوا من أهله ولا من ساحته ، ولكنهم متطفلون ، وإنما وظائفهم وعلاقاتهم الشخصية ، هى ورقة العبور الى هذه اللقاءات وليس الأحقية ، والجدارة والقدرة .. على أداء هذا الدور ولكنه التمثيل ، بلغة التمثيل نفسه .

ويتحدث ادريس الناقورى عن التجزئة والازدواجية ، وهو يشير الى الانتاج فى المغرب ، بالفرنسية اولا .. فى عهد الحماية ، ثم اخذت العربية تفرض نفسها بعد الاستقلال ، وتسير اللغتان معا .. فى العطاء الفكرى ، ويصفهما بأنهما « يتعايشان فى نوع من المنافسة الحرة ــ يعنى ما يكتب بالعربية والفرنسية ، وأن الأدب المكتوب بالعربية والفرنسية يتحدان .. فى الرؤية والمضمون من أجل تكوين ثقافة وطنية أصيلة وتقدمية » .

* وأتساءل : كيف تكون ثقافة وطنية ــ أصيلة ــ فى بلد عربى بلغة غير لغته .. التى ينتمى اليها العرق المغربى .. العربى ؟

وحينما يتحول الانتاج الى العربية ، تجد الفوارق .. والاختلاف ، وهل تكون ثقافة وطنية أصيلة . بلغة غير اللغة القومية .. التى تنتمى اليها جذور البلد واعراق اهله ؟

أنا أرفض تسمية كهذه ، وكذلك .. أرى ان التعبير نفسه لا يعمق الى اصاله التراب والامة اذا لم يكن بلغتها ، واذا صدق ، فان الغربة فيه .. تصبح بارزة ، كأنه فكر مستورد .. ومهما التصق بالتراب ، فسيظل متباينا معه .. لأن صوره وأخيلته ، تختلف عن البيئة .. التى يتحدث عنها . وكأنه فكر مستورد .

والواقع .. أن موضوع إدريس الناقورى طويل ، والوقوف .. على

سطوره والافكار التى احتواها .. يتطلب مساحة كبيرة ، وأنا لا أملك هذه المساحة ، وفى الموضوع أخطاء منها موضوع « عبد المجيد بن جلون » فى سيرته الذاتية ، نماذج من حياته بعضها فى بلاد الانجليز وبعضها فى المغرب .. وابن جلون يعقد مقارنة .. بين البلدين ، وأنا أرى أنها مقارنة غير متكافئة ، إذ كيف يلتقى المغرب بانجلترا قبل سنين طويلة ؟ بلد له حضارة وتطور ، ويحكم ثلثى الكرة الأرضية ، وبلد مستعمر مغلوب على أمره .. متخلف يحتاج الى زمن طويل .. للبناء والتطور . ثم كيف يلتقيان فى المزاج واسلوب الحياة .

ويتحدث الكاتب .. فى اكثر من عشر صفحات .. عن الروايات المغربية . ويصفها فيقول : « ان اكثر النماذج الروائية المغربية سير ذاتية لاصحابها ، ومن هذه الروايات ـــ الغربة ، وجبل الظمأ ، ودفنا الماضى . والطيبون ، والمرأة والعودة . وهكذا .

وأنا مضطر أن أقف عند هذا الحد من الحديث ، لأن الكاتب يستعرض فى صفحات بحثه ... هذه الروايات ومباحثها وأشخاصها ، فينقدها بمنظاره الخاص ، ويقف عليها ويربط بينها . ويصف البناء الفنى فيها ، ويربط بين أفكار أصحابها والثقافة الفرنسية تارة واستقلال البعض .. تفكيرا ومنحى ، ويشير عابرا الى المماثلة لهذه الروايات .. فى مصر ، اشارات سريعة ، ليست فى سبل المقارنة او الموضوعات ، وإنما مجرد .. اشارات سريعة ، لا توصل .. الى ربطها .

وكما هى الحال ، فان ادب المغرب بعيد عنا ، لا يصل الينا ، رغم سهولة المواصلات ذلك ان العناية بالفكر ضعيفة جدا اليوم ، وانعدام وسائل التوزيع .. حرمنا كقراء . ووسائل التوزيع .. لا تنهض الا بدعم الحكومات ، والدعم منها بعيد ، بعد المشرقين ، فكيف يمكن أن يلتقى أدب المغرب بالمشرق ؟

مسألة الأجنبي في قصص التكبالي

الشعوب .. التى احترقت بسعير الاستعمار ، تكره الاجنبى بكل الوانه ، وأدواره .. التى يؤديها . فهى ترى فيه الوجه البشع .. الذى استعمرها ، وشنق الرجال ، وقتل النساء والاطفال ، وأتى على الاخضر واليابس . مزق الاجساد برصاصه وخناجره وجبروته ، وكثرة عدده . وملأبهم المعتقلات ، وأماتهم جوعا ، وجريمتهم التى لاتغتفر عنده ، أنهم يدافعون عن ترابهم الذى غزته فيالقهم لاستعبادهم ، وليكونوا .. وهم الدخلاء المغتصبون ، ليكونوا المالكين المسيطرين ، الآمرين ..والناهين ، وأهل التراب ..عبيد ، لا حول لهم ولا طول ولا صوت ، ولا كيان ، ولا قيمة .

يمتصون خيرات البلاد ويذلون الشعب صاحب الارض .

هذه هى الصورة المترسبة .. فى نفوس الشعوب .. التـى نكبـت بالاستعمار . لذلك فهذه الشعوب .. ترى فى الاجنبى .. الذى يأتى الى بلادهم ، استعماريا بصورة أو بأخرى . فهو يملك الخيرات ، بامتصاصه الاقتصاد ، فله نصيب الاسد .. فيما يشارك فيه ، بخبرته وعلمه وبماله . يعيش مرفها ودخله اعلى دخل ، وصاحب الارض خادم عنده ، يعيش على الفتات ، ويقتات بقايا فضلة الدخيل الحقيرة .. والمواطن .. أجير حقير فى نظر الاجنبى السيد ، الذى يتمتع بالخيرات .. كما يشتهى ، والمواطن .. يخدمه ويحرسه وينظف بيته وسيارته ، ويقف على باب مكتبه ، ولا يحصل على شىء من خيرات أرضه .. التى يستغلها الاجنبى ، فوجود المواطن على أرضه يتفق .. مع عدم وجوده ، فهو العاجز الجاهل ، اصطلحت عليه القوى والظروف ، وعاش محروما .. ذليلا جاهلا ، مريضا .. مظلوما مضطهدا .. فى وطنه ، لأن أرضه مغتصبة ، ليست له ولا يملك فيها شيئا .

وجاء الاجنبى .. فى صورة اخرى .. بعد الاستقلال الصنورى .. فكان الاجنبى ، هو السيد ، والمطاع والمحترم ، وصاحب الكلمة النافذة ، وصاحب

النفوذ ، والمالك للثروات والشركات ..والمؤسسات . وظل المواطن محروما ومهينا ، وضعيفا ومتخلفا .

هذه الصورة .. أو الصور هي موضوع « دراسة .. مسألة الاجنبى .. فى قصص » « خليفة التكبالى » وصاحب هذه الدراسة هو عمر ابو القاسم الككلى — وهى أحد البحوث .. التى قدمت لمؤتمر أدباء العرب .. الحادى عشر الذى انعقد فى طرابلس الغرب .

* ودراسة الككلى ، ركزت على قصص التكبالى ، وقد أتى الدارس بنماذج من هذه القصص ، تصور العلاقة والتعامل ، بين المواطن صاحب التراب والاجنبى الاوروبى والامريكى ، اللذين قدما الى ارضه ليسيطرا من جديد ، وليمتصا ثروة البلاد .

وحجم الدراسة متوسط ، ولكنه شامل ، وهى دراسة .. غير مملة ، وليست ثقيلة على النفس ، وهى تصوير لمشاعر وأحاسيس ، وتجسيم لواقع وصراع ، بين المواطن والدخيل ، والوجه المستعمر الجديد .

وهكذا .. نرى الشعوب .. التى رزحت تحت الاستعمار ، وعانت من الحرمان ، واصطلت بناره ، وذاقت العذاب .. والذل فى أرضها ، وظلت تقاتل وتفنى من اجل الحرية وتستلذ الموت ، فى سبيل طرد الدخيل صابرة ، غير مستسلمة ، تتحمل الفقر والفاقة ، لا تبالى بما يصيبها فى سبيل ان تنتصر ، وتدحر مغتصبها وتستخلص أرضها ، مهما طال الاقتتال ، ومهما ارتفعت نسبة التضحية عندها ، لان مذاق الحرية عند الامة العربية ، والاباء فى نفوسها ، يدفعانها الى رفض الذل ، ومحاربة الانكسار ، ومجابهة الظلم ، حتى النصر او الفناء ، لا تضعف ، ولا تستكين .

من واقع التجربة المريرة ، فى خناء الاستعمار واذلاله وارهابه ، كرهت الشعوب الملتاعة وجه الاجنبى كما كرهه الواعون .. فى جميع الامة العربية .. ولكن الذى يجب أن يكون البديل لهذا الاجنبى فى رأيى ، هو ان يتسلح العربى .. بالعلم والتقنية .. اذا كان جادا فى إبعاد الاجنبى عن ترابه ، والاستقلال بخيراته .

ولن تستطيع الامة العربية .. التفوق على الاجنبى .. الا اذا استطاعت الوصول الى المستوى العلمى الذى وصل اليه ، وان تستفيد من ذلك ،

وتسخره .. فى بناء كيانها وترابها ، وأن يكون لها دعم البناء الجاد ، فى صبر ونكران ذات وايمان بالعمل . بهذا المسلك ، تستطيع الاستغناء عن الاجنبى ، وطرده من فوق ترابها .

أما ان تظل تحلم ، وتتكلم كثيرا ولا تعمل ، وتمقت الاجنبى وتكرهه ، وهى لا تستغنى عنه ، فهو وهم عريض من أوهام العجز والتمنى .

هذا ما وددت أن اطرحه وأنا اقرأ .. موضوع اليوم ، فى سلسلة .. الموضوعات التى قدمت لمؤتمر الادباء الحادى عشر ، ولم اسق نماذج .. من الدراسة ولا من الامثلة .. التى جاء بها الكاتب ، من القصص .. التى درسها ، وقدم عنها دراسته ، لان ما قدمت .. هو ملخص الموضوع فى القصص والدراسة .

ولعل هذه الوقفة تكفى ، فى هذا الاستعراض الفكرى . ولم يبق أمامى سوى وقفتين ، ثم نختتم هذا الموضوع حتى لا يطول الوقوف فيؤدى الى النصب والاملال ، وإن كان تنوع الموضوعات المطروحه يتيح الفرص .. للمضى فيها حتى النهاية مادام فى الامكان تقديم شىء جديد ، وآراء جدد تبعا لسنة الحياة .. ومطالبها .

اقتلاع الجذور العفنة

* موضوع اليوم ، هو الحلقة الاخيرة عن البحوث .. التى قدمت لمؤتمر الأدباء العرب الحادى عشر .. « اقتلاع الجذور العفنة » بقلم « سليمان كشلاف » .

ويقدم الكاتب لبحثه بقوله : « الأدب .. هو الصورة الصادقة عن المجتمع وهو الذى يحفظ خصائصه ، ويسجل حركته ، ليعطى الفكرة موجزة . بعد ذلك .. يستطيع الانسان من خلالها .. أن يعرف ، وأن يسجل ، وأن يستنتج » .

وإذا جاز لى الوقوف .. عند هذه السطور ، فانى لا أرى دقة فى هذا الرأى . فليس الادب .. فى كل عصر وفى كل مجتمع ، هو الصورة الصادقة له وليس فى كل الاحوال .. يحفظ خصائصه ، ويسجل حركته فقد تختلف الصورة ، وتتناقض ، ويدخل فى ذلك الزيف .. والتجاوز .

وقد يصدق رأى الكاتب فى بعض المجتمعات والعصور ، ولكنه .. ليس انطباقا .. فى كل المجتمعات والعصور .

ويعلق الكاتب .. على الشعر فى عصوره الماضية ، بان فيه جميع المقومات .. التى تعطى صورة عن المجتمعات .. ليسجل مرحلة الخ .

وحتى هذا الرأى .. فيه وجهة نظر ، تعود الى الظروف ، والى الملابسات والصراعات القبلية والاوهام ، والمبالغات وغمط الحقائق والتجاوز . واذا كان الشعراء فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، وقد استثنى القرآن المؤمنين ، فكيف يكون الشعر معطيا صورة كاملة عن النظام الاجتماعى .. فى مرحلة من مراحل الزمن ؟

ويقولون : الادب مرآة المجتمع ، وأرى أن هذا التصوير .. غير دقيق ، ولا يصدق دائما . وإنما الدراسة المجردة من الهوى ، وعمق الادراك والصدق فى التصوير ، هو المرآة .

ومن يستطيع أن يقول : إن التاريخ .. بتلفيقاته وحشوه وحواشيه ، والظروف .. التى كتب فيها ، وما احاط به .. من تأثر وتأثير .. وارضاء لقوم ، واغضاب آخرين ، واخفاء حق ، واظهار باطل ، وتغيير مفاهيم .. حتى قلبها ، تبعا لدوافع وضغوط .. وأهواء ، من يقول : انه يعطينا الصورة الصادقة السليمة ؟

والشعر والأدب .. جزء من هذا التاريخ الذى تركز عليه الدراسات واستنباط الحقائق ، من الواقع ، ومن المحصلات التى برزت ، ومن النقائص والملمات ، وما يدخل فى ذلك .. من الاختلافات ، والتفسيرات .. لمعطيات الحياة ، وما يعتمل فى مجتمع ما وما يلج فيه لذلك .. فان استقراء الحياة .. من خلال الانتاج الفكرى ليس من السهل القطع برأى فى ذلك تصل به الدقة الى التصديق .. والصدق فى المحتوى ، ليصور بدقة حياة مجتمع ، وتقويم مرحلة زمنية ، لا يداخلها شك ، ولا يلعب فيها الخيال دوره ، ولا تسلم من هوى .

وسليمان كشلاف ، يتعرض فى موضوعه الذى أنا بصدده .. الى بعض القصص الليبية ، وهى (الكرة) .. و (العبد فى الارض) .. و (الجدار) .. و (الرمال الناعمة) — أربع قصص ليبية قصيرة .. تحاول أن تسجل حدثا ، وتبين موقفا ، وتعطى رأيا — من وجهة نظر كتابها ، كما يقول كشلاف .

والقصة الأولى : لكامل المقهور ، والثانية .. لعبد الله القويرى ، والثالثة .. ليوسف الشريف ، والرابعة .. لأحمد ابراهيم الفقيه .. ويسوق سليمان نماذج من هذه القصص . ولكنها قصيرة جدا تصور أشخاصها ويبدى كشلاف ملحوظات عابرة عن هذه القصص التى تتعرض لاوضاع اجتماعية تصورها .. فى واقعية ، وتبرز ملامح جوانب من تلك الحياة الاجتماعية ، فى صور الشخصيات .. التى اتخذها القصاصون الاربعة اهدافا .. لبناء قصصهم ، من خلال تعايشهم .. وتخيلهم ، فكانت هذه النماذج التى وقف عليها كشلاف ، ليقدم تصوره عنها الى مؤتمر الادباء كتعريف ، وعرض موجز لها ، ونقد .. لما رآه فيها .. من وجهة نظره الخاصة ، فى بنائها الفنى ، وسرد منشئها ، والثغرات التى فيها .

ولنأخذ لقطة من رأى كشلاف فى (الرمال الناعمة) فهو يقول : « يلجأ

أحمد ابراهيم الفقيه .. الى المواجهة بين الطرفين ، كما فعل .. يوسف الشريف لكن الموقف يضيع تماما ... من يد القصاص ، بل يصبح انهزاما للانسان .. من الداخل » .

ثم يختتم حديثه بقوله : (إنه العجز .. وفقدان الثقة حتى فى النفس ، عند ـ أحمد ابراهيم الفقيه) .

وأنا لم اقرأ هذه القصص ، لاقول رأيي .. فى حكم سليمان كشلاف .. على هذه القصص ، وإنما أنا بصدد موضوعه ، الذى قدمه .. لمؤتمر الأدباء الذى انعقد فى بلاده .. والقصص الاربع شخصياتها اطفال وشبان ، صدرت قصة المقهور سنة ١٩٥٤ م وقصة القويرى عام ١٩٥٧ م وقصة الشريف .. سنة ١٩٦٣ م وقصة الفقيه عام ١٩٦٦ م .

هذه القصص كما يقول كشلاف ، صدرت عن جيل الخمسينيات .. والستينيات ، ويتساءل عن رأى جيل السبعينيات ؟

إن القصص ، تخضع لظروف معايشة الكاتب وثقافته ، ورؤيته ، ولسنه ، وللفترة التى كتبت فيها ، وكذلك مصادر ثقافة القاص وطرح مقاييسه .

هذا عنصر أساسى فى المنطلق الذى يبدأ منه لقاص ، ثم يأتى دور البناء الفنى .. فى هيكل القصة ، وقدرة الكاتب على البناء وعمق خياله .

ويعقد كشلاف .. فى سطور مقابلة .. بين هذه القصص ، ولكنها مقابلة .. لا توصل الى ركائز ، تعطى القارىء صورا وملامح .. عن المقابلة ، والاختلاف بين أشخاص القصص وموضوعاتها . ولست استطيع التعمق .. فى طرح رأى معين ، لان موضوع كشلاف قصير ، فهو سبع صفحات ، منها واحدة مقدمة . ولا يمكن أن تتيح الصفحات الست تصورا مجديا لقصص اربع . والكاتب لم يبذل جهدا .. ليعطينا هذا التصور ، وهو كاتب شاب ، ربما يحتاج الى عمق الدراسة ، ومزيد الاطلاع ، حتى يتمكن من ابداء الرأى ، واستعراض الموضوعات .. التى يقدمها ، لا سيما .. فى مؤتمر أدبى يلتقى فيه عدد غير قليل ، من ممثلى الاقطار العربية ، الذين يقع عليهم الاختيار من المقربين والمحظوظين ، حتى لو كانوا .. لا يفقهون .. فيما اختيروا له وشاركوا فيه ، لان الرأى لمن يملكه ، لا لمن يحسنه ، كما قالوا قديما .

بقيت لنا وقفة ، أو وقفتان .. مع مهرجان الشعر الثانى عشر ، الذى لازم

مؤتمرات الادباء التى انعقدت .. فى مختلف الاقطار العربية .. منذ المؤتمر الاول .. فى لبنان ، حتى آخر مؤتمر فى ليبيا .. سنقف ، مع مهرجان الشعر ، والشعراء ما أمكننى الوقوف ، فالى الملتقى .

قضية اللغة العربية

رأيت .. قبل أن أقفل هذه السلسلة من الموضوعات أن أمر مسرعا ، وقبل وقفة على مهرجان الشعر المواكب لمؤتمر الأدباء ، رأيت أن أتريث الى حد ما ، لأنى عثرت على موضوع لاشك أنه يستحق اهتمام الأديب العربى الذى يعنى بلغته ونمائها ، وبقائها حية متطورة تماشى العصور ، فلا تهرم ، ولا تعجز ، ولا تشيخ ، وإنما تبقى متفاعلة مع الأحداث ، تأخذ منها ، وتفرز فيها كدليل على أصالة جذور هذه اللغة ، وقدرتها على البقاء والتطور ومسايرة الحياة ، أثراء وفاعلية وفى مؤتمر الأدباء قدم الاستاذ أحمد الشرفى من تونس موضوعا بعنوان : « مشكلة اللغة العربية فى الأدب المعاصر » ..

وددت لو أن أحمد الشرفى سمى موضوعه قضية اللغة الخ .. واللغة ليست مشكلة لأنها كيان له جذور وأسس ، حفظت بقاءها وفى مقدمة ذلك .. الكتاب العزيز وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ذلك التراث الحى الذى ظل عبر قرون تجاوزت الخمسة عشر ، ومايزال هذا التراث يدرس ويراجع وتدور حوله المناقشات والآراء على حين اندثرت لغات أخرى كان لها مجد وتاريخ وصدارة وأيد ، وهى اليوم فى المتاحف وفى رفوف المكتبات أشبه بالهياكل المحنطة .

ونقف على سطور من المقدمة التى استهل بها أحمد الشرفى موضوعه فيقول :

« أستسمح الأدباء أن تطفلت على طرق هذا الموضوع الخاص بمشكلة اللغة العربية فى مجال الأدب الذى ضعف جذبه عند الشباب ، وتقلص ظله فى الحياة المعاصرة . فان كانت اللغة العربية فى الأدب ، فهى عقبة صعبة التجاوز فى نظر البعض لعدم استيعابها مكتشفات التقنية والعلم طاقتى الدفع للتقدم المادى ، وقوتى التحريك للحياة المعاصرة فى جميع الجوانب وفى مختلف الاتجاهات » .

فى هذه المقدمة جوهر المشكلة التى تناولها الباحث ، ثم مضى يستعرض العربية عبر قرون ، مشيرا الى أنها استطاعت أن تأخذ من الآداب اليونانية والفارسية والحضارات القديمة . وهذا يدل على أنها لغة تتميز بالمرانة ولو كانت جامدة ضيقة الصدر ، محدودة المعانى والآفاق ، لما استوعبت حضارات سبقتها ، وعايشت لغات ذات شأن وخطر ، ولكن اللغة العربية لم تمت ، ذلك أن فيها مقومات البقاء .

وظلت العربية تأخذ من التطور والحضارات الجديدة وتهضمها تأخذه وتفرزه فى صيغ وأبنية تتفق وشاعريتها وأخضعتها لأوزانها وتصاريفها ، أو للأقيسة على أبنية الكلمات فيها ، وهو ما جنح اليه العرب منذ العصر الجاهلى ، وما يسمى « بالتعريب » . ومن أجل ذلك نجد ألفاظا هندية وفارسية ويونانية اهتم بها اللغويون وأشاروا اليها ، ليرشدوا الى أن هذه الالفاظ دخيلة على اللغة العربية ، لأنها تحمل معانى والفاظا لم يعرفها العرب فأخذوها من اللغات الأخرى واستعملت فى العربية فاتسعت لغتنا وأصبحت غنية بهذا الأخذ ، وبهذا التعريب والهضم ، ذلك أنها استوعبت حضارات سبقتها ، لم تضق بها ولم تلفظها .

ولقد ألفنا تلك الصيحات التى تتجدد بين حين وحين ، تصف اللغة العربية بالعجز عن استيعاب الألفاظ العلمية ومعطيات العصر ، من مسميات التقنية وما يستجد فى الحياة من ثقافة وعلوم .

وتنحرف بعض الصيحات ، وتمعن فى هذا الانحراف الذى يبلغ بأصحابه حد النكر والفساد ، حينما يقترحون وينادون باستعمال الحروف اللاتينية بدل العربية ، ويرجعون هذه الدعوة الى صعوبة العربية وأن نطق ألفاظها لا يضبط إلا إذا كانت مشكولة ، الى غير ذلك من الدعاوى الباطلة المرفوضة ، ذلك أنها دعوة الى الغاء العربية شكلا وتراثا وصورا وسمتا .

وهذا الارجاف دخيل ، يروج له ويدفع اليه أعداء الاسلام ، الذين ذاب تراثهم ولعلهم يعجبون كيف أن التراث العربى ولغته لم يذهبا ولم يمحيا من خارطة التراث ولم غلبا الزمن والزمن غالب .

ولأن العربية لغة القرآن ، والقرآن خطر على العالم الذى لا يؤمن بالله ، والذى يكيد للأمة المسلمة ويريدها أن تنسلخ من عقيدتها لتصبح أمة ضائعة ،

مثلما ضاعت تلك الأمة ، لأنها تخلت عن معتقداتها فضلت وأضلت ، فلماذا تضيع وحدها وهى تفاخر ، بأنها بنت حضارة وأشادت مدنية ، ومع ذلك فليس لها أسس تحميها من الضياع والتزعزع ؟ ولماذا يبقى المسلمون يأخذون من حضارة الغرب ما يوائم حياتهم ودينهم متمسكين بمبادئهم ، محافظين على عقيدتهم ، لهم لغة ماتزال قادرة على أن تتكلم بها الشعوب العربية عبر مساحات شاسعة تبلغ فى طولها أكثر من عشرة آلاف كم من الخليج الى المحيط ، ويبلغ سكان هذه الأقطار العربية مائة وعشرين مليونا ، وأن ابن العراق يستطيع أن يتكلم بالفصحى مع ابن الرباط .. على حين نجد الأقليات فى أوروبا متلاصقة متجاورة يتكلم كل فريق لغة مستقلة مختلفة كل الاختلاف عن الأخرى مثل الجرمانية والفرنسية والايطالية والاسبانية ، ولا يمكن لأحد من شعوب هذه البلاد أن يفهم صاحبه اذا لم يدرس لغته .

وهذا الشمول والعمق فى العربية أغاظ اعداءها فطفقوا يحاربونها بوسائل مختلفة ماكرة ، ويسخرون المذبذبين من أبناء العربية ليروجوا لأهدافهم بسبل أكثر تنويعا لتقويض كيان العربية مما أشرت الى بعضها .

أما البعض الآخر ، فهو اشاعة اللهجات العامية فى الأقطار العربية ليس فى الشارع فقط ، ولكن حتى فى وسائل الاعلام من إذاعة وتلفاز وحتى صحافة .

وقد وجدت الدعوة الى استعمال العامية بعض النجاح ، ذلك أن إعلامنا يخطىء ، فهو يريد أن يشد الناس اليه ولا يرى بأسا من إشاعة العامية بشدة لأنها لغته التى يتعايش ويتعامل بها .

وكتب ونادى بعض المخلصين بخطأ هذا المسلك ، وقالوا : إن المبدأ الأسلم أن ترتفع بالمستمع والمشاهد والقارىء لا أن تهبط به أو اليه ، وقال بعض ذوى الشأن : إن العربية صعبة ويعسر فهمها على ابن الشارع ، والاذاعة والتلفاز هما للغالبية .

وهذه النظرية مرفوضة ، وهى نظرية جاهلة ولو قدمت البرامج بالعربية السهلة المبسطة لشاعت لغتنا فى الأوساط العامة ، ولانكمشت اللهجات التى تتوالد كل يوم عن مترادفات جديدة تضاف اليها ، لتتسع رقعتها ، وهى لهجات ليس لها ضوابط ولا قواعد .

والقصور الذى نشهده اليوم ــ فى تصورى ــ أنه .. ليس قصور العربية

عن استيعاب الجديد من الألفاظ العلمية والفنية ، ولكن ابناءها قصروا بها ، فلم تتابع مسيرتها كما يجب .

ولا أنكر أن هناك جهودا ومحاولات فى التعريب لا سيما فى المغرب ولكنه ليس فى مستوى الشمول والسعة واتفاق آراء أهل العلم فى شتى بقاع الأرض .

ومشكلتنا كامنة تقصيرنا فى الانفاق ، فنحن ننفق الكثير .. ويشمل الانفاق أشياء ليست ذات خطر ، ونقف نتفرج ونبخل على ما يجب أن ينفق فيه بسخاء وهذا منتهى الجحود .

وبالأمس سمعت وزير الثقافة المصرى يقول : إن النقص المادى فى مجمع اللغة العربية أثر على نشاطات هذا المجمع ، وتقلص مشروعاته فى التعريب وخدمة العربية .

وعيب على أمة الضاد أن تقصر فى الاهتمام بلغتها .. وهو معرة لها أمام العالم ، لاسيما وأن هذه اللغة تحارب بكل الأسلحة لتضعف وتصبح غير ذات خطر .

كيف بنا وهى لغة كتابنا وديننا ؟.

وأنا أخاطب القادرين الغير ، اذا قدر لهذا الصوت أن يبلغ آذان الذين يستجيبون ويسارعون فى الخيرات ويريدون أن يكون لهم مجد ، وأن يكون لهم ذكر ، وأن يدخلوا سجل الخالدين ، فهل من مدّكر ؟

والعلماء ، خدمة العلم ـ مسئولون عن التعريب ، المهندسون والأطباء والمحامون ، ورجال المعامل .. هؤلاء يجب أن يكونوا أعضاء فى المجامع العلمية وأن يدركوا لغتهم ، وأن ينقلوا اليها الالفاظ الجديدة والاضافات العلمية والجديد فى علوم العصر . إنها مسئولية العلماء وأماناتهم .

والعربية لغة ولود لا تعقم ، والألفاظ تموت اذا هجرت ، وتحيا اذا استعملت .

والألفاظ .. تتوالد مع العصر ، مع متطلبات الحياة وما يجد فيها ، فيحتاج الى تسمية واشتقاق . ذلك هو مبدأ الحياة ، وهو عمل واجتهاد وسعى ، واللغة عنصر أساسى فى الحياة ، ولاسيما لغتنا نحن المسلمين . بقدر حفاظنا عليها والاهتمام بها واحيائها والاضافة اليها ، بقدر قوتنا المعنوية كأمة لها تاريخ وحضارة ، ولها أسس وتأثير . أمة جادة ، ما عرفت فى يوم من الأيام

خاملة ، ولا مستسلمة ولا نائمة على ضيم ، ولا متخاذلة ولا مهزومة . فهل تهمل لغتها ، لتصبح هذه اللغة هدفا للأعداء ، يخربونها ويحيلونها الى عجمة لأن أهلها تخلوا عنها وهم أقوياء ، قادرون على حمايتها واحيائها وبعثها من جديد . لأنها لغة القرآن والسنة والعقيدة ، ولأنها لغة أمة لها عراقة ، تعرف مسئولياتها ، وترعاها ، وتثأر لها وتحمى ذمارها ، وترعى عهودها ، وتحب أعراقها حتى الوله ، وتلتصق بترابها .. الى حد الغلو .

فهل تفرط فى فصاحتها وبيانها وبلاغتها ، والسمة البارزة .. التى عرفت بها ، فخوطبت .. بنفس السلاح الذى تملكه وتفاخر به وتعتز ، ذلك هو كتابها الخالد ؟.

فهل يعى القادرون مسئوليتهم وينهضون بها كما يجب ، أم يركنون الى الدعة ويعيث .. المفسدون فى الأرض فسادا ، فيتولى الذئب رعى الغنم ، بئس الراعى ، وخسرت التجارة ؟ .

ومعذرة فى هذه الاطالة ، لأن الموضوع .. يدعو الى هذه الوقفة والحماسة ، ذلك أن العربية لغتنا وجزء من سلاحنا .

ووقفتنا القادمة ، إن شاء الله مع مهرجان الشعر ، لنختم به .. هذه السلسلة ، عن مؤتمر الأدباء الحادى عشر . فالى الملتقى .

مهرجان الشعر

كان للشعر أمسيتان فى آخر أيام مؤتمر الأدباء الحادى عشر ، بعد إلقاء البحوث والمناقشات التى دارت حولها ، وبعد امسيتى الشعر ، أصدر المؤتمر توصياته المعتادة .

والأمسية الشعرية الأولى .. انعقدت بدار الخيالة ــ الحمراء ــ . وكان أبرز المنشدين وأجودهم ، الشاعر السورى « سليمان العيسى » .وشاعرا آخر من المغرب .

أما الأمسية الثانية فى اليوم التالى ، فكان .. فرسانها .. شاعرنا الاستاذ حسن عبد الله القرشى ، والشاعر ــ عبد الرحمن فخرى ـ من اليمن وشاعرا من فلسطين .

وكان فى حلبة الميدان أكثر من ثلاثين شاعرا ومتشاعرا ، إن صح هذا التعبير .

وحضر المؤتمر الشاعران ، أدونيس وعبد الوهاب البياتى ، ولكنهما سافرا .. قبل انعقاد .. مهرجان الشعر . كما حضر المؤتمر من الشعراء أحمد عبد المعطى حجازى ومحمد شمس الدين ومحمد عفيفى مطر ، وشارك فى مناقشة بحوث المؤتمر الناقد الكبير .. الدكتور احسان عباس .

وسمعنا مما يسمى شعرا .. غثاء كثيرا لا غنى فيه ، ولكنها ألفاظ جوف ، ليس فيها معان ولا إطراب ، ولا حلاوة الشعر الجيد ، الذى يأسر السامع ويأخذ بمجامع نفسه .

وكنت أتمنى ، لو أن مؤتمر الأدباء انتقى الشعر الجيد ، واختار المبرزين .. من الشعراء . فانه بذلك يسدى الى المؤتمر قيمة ، تليق به ، وقدم الى الحاضرين صورا مشرقة ، حين يحول .. بين هذا الكلام الفارغ وبين القائه .. على مسامع المؤتمرين ، وفيهم الباحثون المجيدون والنقاد الكبار ، ومتذوقو الأدب الرفيع ولهم آذان ألفت الجيد من القول ، وتعرض عن الغث التافه .

وأشهد .. أنني سمعت شعرا جيدا نابضا بالحياة ، هزني .. كما هز من سمعه ، وتمنيت ألا ينتهي هؤلاء الشعراء المجيدون ، وليست الروعة فى جمال الالقاء ، وإنما فى المحتوى الشعرى وفى الموضوعية . وكنت أظن .. أن الشعر قد انتهى ، ولكنى أيقنت بما سمعت أن الشعر مايزال بخير .

صحيح ، أن الجيد منه قليل ، والشعراء العمالقة قلة ، ولكن الشيء النفيس .. « دائما وأبدا » ندرة وقليل .. والشيء الرديء الذى لا خير فيه ، دائما .. كثير وكثير جدا ، ولكن لا غنى فيه .

سمعنا شعرا عموديا وشعرا قد تحرر من القافية ، ومن شعراء ممتازين ، احتلوا الصدارة وصفق لهم المثقفون ، واستعيدت .. مقاطع القصائد مرات وكرات .

وسمعت مناقشين فى المؤتمر وشعراء ، حتى لغتهم التى يكتبون بها ويكلمون غير سليمة ، رغم ركاكة التعبير . وهذا الغثاء الذى يلحقونه بالشعر ويصلونه به ليس من الشعر فى شيء ، وانما هو عبث مراهقين وطامة على اللغة الشاعرة ، وإفساد لها ، وعيب يلتصق بهؤلاء المتشاعرين .

وقد حيا الشاعر « حسن السوسى » مؤتمر الأدباء بقصيدة من الشعر العمودى بلغت أبياتها ستة وخمسين ، بدأها بقوله :

عهدتــك وجهـــا فى دجـــى الليـــل يشرق
ورأيـــا اذا ما احلـــولك الخطـــب يألق
وعزمـــا يحيـــل الصعـــب سهـــلا ميســـــرا
ويقـــرع آفـــاق المحـــال ويطـــرق
وصوتـــا له الدنيـــا تصيـــخ اذا دعــــا
وحقـــلا به الآمـــال تنمـــو وتـــورق
وسيفـــا إذا ما أغمـــد الدهـــر نصلـــه
تولتـــه كف من يد الدهـــر أوثـــق
فكنـــت هوى قلبـــى ، ودنيـــا توجـــدى
ومثلك فى حاليـــك يهـــوى ويعشـــق

ويمضى الشاعر ، يتحدث عن الأمة العربية وآمالهـا ومطامحهـا ، وعزها ... فى وحدتها ، فى تصوير بديع سلس ، فى أنغام عذاب كأنه يغترف من نهر سلسبيل بألفاظ متناسقة ، وموسيقى أخاذة ، ومعان قوية ، فى فصاحة لسان ، وجمال إلقاء .

ويخاطب الأدباء بقوله :

لأمتكم حق عليكم وواجب
وعهد من الأيام أبقى وأوثق
تواصوا بها خيرا وكونوا أساتها
فإن سنان الحرف يرفو ويخرق
لكم كل عام مهرجان وملتقى
تناط به آمالها وتعلق
فلا تخذلوها فى رجاء تنيطه
فأنتم أبر الناس عهدا وأصدق

إنه حديث القلب الى القلب ، فى موضوعية وسماحة ، ليس فى ذلك تبذل أو خروج عن المألوف ، ولكن الشاعر .. يتحدث .. فى قوة تعبير ومحافظة .. لا تنزلق الى شطحات تؤذى ، ولا يتحول ... الى هذه التيارات الوافدة ، التى تنسف وتخرب ولا تبنى ، ولكنها عمى وبهتان :

ويأخذ الشاعر فى حديثه العذب ، فيقول :

طرابلس بالرواد ليلك مقمر
ندى وبالآمال صبحك مشرق
وبالحرف يبدو فى حواشيك جانحا
يرف بأحلى الأمنيات ويخفق
ففيك هنا - أم القرى - بجلالها
وفيك هنا الخضراء غصن مصفق
وفيك رباط الفتح شدو منغم
وفيك الخليج الوادع المترقرق
وفيك فلسطين تلملم جرحها
ومن كل أفق كوكب متألق

وتمضى القصيدة الى آخرها فى نغم شاد ، وتعريجات من هنا وهناك ، بحثا على التضامن والتعاون ، لتكون القوة والوحدة والرأى السديد .

وهكذا .. انقضت أيام المؤتمر ، بين البحث والشعر والقصة ، وكان بودى أن أقف على القصة ، لولا أن يدى قصرت .. عن موضوعاتها ، فلم تقع على شىء منها ، لأن ما ألقى من نماذج وتحاور ، لم يجمع ، ولم تنشره الصحف .

ولا أريد أن ألقى بكلام من أصداء ما سمعت ، فما أكثر ما تفقد الذاكرة ، وما أقل ما يعلق بها .

واذا كنت من الاحياء ، فسوف نرى إن شاء الله ما يدور .. فى مؤتمر الأدباء القادم ، فى سبتمبر من عام ١٩٧٩ بدمشق عاصمة بنى أمية ، وأرجو أن تتاح لى وقفات ، لنقف على ما يجد ، ولنقارن اذا كان للمقارنة مجال ، ولنرى أين وصلت مسيرة الفكر والأدب[١] .

وأمتنا تريد أدبا واعيا بناء ، لا عويلات وترهات ومبادىء مستوردة ، لا توافق طبيعة العربى ، ولا تخدم مسيرته ولا أهدافه .

نريد أدبا جادا قويا صادقا ، ينبع من نفوسنا ، ويصور جهادنا وآلامنا ونهضتنا يرتبط بالعقيدة وينبع منها . محافظا غير سائب ، وقويا غير متخاذل ، يجمع أنماطا لا توافق بينها ، ولا سمة له ولا يرتبط بماض ، ولا يصور حاضرا ، لا نريد عويلا ولا تشنجات ، ولا ترهات الغرب الراعفة بالضياع والمخازى .

فنحن أمة لها كيان ولها أسس ، والشىء الذى لا ينبع من ايحاءاتنا لا يوائم حياتنا ولا يغنى فتيلا ، وإنما هو كالزبد الذى يذهب جفاء ، أما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض .

---

(١) لا أدرى .. أعقد مؤتمر دمشق أم أن أحداث لبنان حالت دون ذلك ؟ .

حمزة شحاته الشاعر الكاتب

** قرأت رسائل أديبنا الكبير الراحل حمزه شحاته .. الستين ، إلى ابنته « شيرين » بنهم وحرص ، ذلك .. أن سمعة أديبنا واسعة ، ولابد أن يصاحبها .. مايزكيها عملا ، فلايكفى أن تقول للناس : إن حمزة شحاته كاتب مسترسل وشاعر فحل ، وأنت لاتقدم اليهم دليلا مادياً . لايكفى هذا مطلقاً ، لذلك ظل الكثيرون من عشاق الأدب .. فى وطن حمزة وفى خارجه ، يتطلعون .. إلى آثار الراحل ، حتى يصدقوا ماسمعوا أو يعارضوه ، ذلك .. هو واقع الحياة ، إثبات أونفى ، ويوجد أو لايوجد حقيقة أم خيال ، أم هما معاً . الشىء الذى لايحتاج إلى دليل .. هو الموجود ، والغائب مجهول ، مهما قيل فيه ومهما زكى .

إذن ، كان لابد .. أن تظهر آثار حمزه شحاته رحمه الله ، حتى يحكم الناس على أشياء مادية . وقبل أن تظهر رسائله الخاصة إلى ابنته ، كان الناس يعرفون عن حمزه شحاته أنه شاعر مجيد ، من خلال بعض القصائد التى نشرت ، مثل .. قصيدة « جدة » وبعض القصائد الأخرى التى كان يتلقفها الناس من الأفواه ، أو منسوخة ، حصل عليها بعض أصدقائه .. والمقربون منه ، إلى جانب الحديث عن محاضرة قيمة .. ألقاها المرحوم فى جمعية الإسعاف .. بمكة المكرمة ، قبل نحو من أربعين سنة تقريباً ، وشاع الحديث عنها ، قوة وأسلوباً ، وإلماماً واسعاً بموضوعها .

وكنت أحد الذين سمعوا .. عن هذه المحاضرة وأدب الفقيد ، من الأخ الأستاذ عبد السلام الساسى ، والأستاذ عبد الحميد مشخص ، وبعض أحاديث شاعرنا ، وأستاذنا محمود عارف ، ولكنها أحاديث عابرة لاتبل غلة الصادى ، إلى جانب الأحاديث عن معارك شحاته .. مع الأستاذ العواد ، والمهاجاة التى كانت بينهما ، وذهب أكثرها لأنها كانت خليقة أن تذهب ، فهى هتك أعراض وقذى ، ولا خير فى بقائها والاحاطة بها ، ذلك .. أنها خرجت عن مفهوم الأدب ، الذى هو خلق .

* ولم تكن لى معرفة بحمزة ، فقد هاجر إلى مصر .. فى وقت مبكر ، ولكن الصدفة .. أتاحت لى رؤيته فى مكتب معالى الشيخ محمد عبد الله رضا ، حين كان سفيراً فى مصر ، فرأيت رجلا عملاقاً ، كبيراً فى نفسه ، فيه اباء وشمم ، وفيه خلق الرجال الفحول ، وقد ضعف بصره وأخذت منه السنون مأخذها ، وكم آلمنى وأحزننى حين سمعته يقول ، إنه يسخر أو يستأجر من يقرأ له بعض الصحف ومايعنيه .. أن يلم به ، ومع هذا الضعف .. الذى يدرك الانسان مبكراً أو متأخراً ، رأيت رجلا .. قوى الارادة ، عزيزاً على نفسه .. وعلى الناس ، رغم انه أدركه الضعف ، ولكنك لاتكاد تحس بهذا الضعف .. لولا الشكوى العابرة التى تمليها الحال ، ومع ذلك .. فنبراته وتموجات أحاديثه ، تنم عن شخصية .. ماتزال تحتفظ بقوتها ، ليس مكابرة ، وإنما هى عزة النفس والتجلد ، كأن لسان حاله يقول .. مع الشاعر القديم : « انى لريب الدهر لا أتزعزع » . ولم أر شحاته قبل هذه المرة قط ، ولارأيته بعدها .. إلى أن توفاه الله .

وكنت حريصاً ، وقد أعجبت بشخصيته وقوة أرادته وترفعه ، أن اقرأ مايتاح لى من آثاره . وكم أحزننى .. حين كنت أسمع أنه يكتب القصائد الرنانة القوية ، وشعره .. كله قوى ، وبعد أيام أو شهور يمزقها وتمحى ، فهو فى رأيه .. غير راض عنها ، لذلك فهى .. فى تصوره غير خليقة بأن تبقى كأثر له بعده أو تظهر فى حياته ، وكان بعض الأصدقاء .. يحصل على نسخ من هذه القصيدة أو تلك فيحتفظ بها ، ويهدى إلى المعجبين بشعر الشاعر نسخاً منها ، الى جانب بعض الآثار .. التى تركها الشاعر .. قبل أن يغادر جدة بأيدى المقربين منه ، احتفظوا بها هنا وهناك ، ونسمع عنها .. من حين لآخر بأن عند فلان قصائد ، وعند فلان رسائل ذات قيمة أدبية ، ورحم الله .. أيام كان للرسائل الأدبية قيمة فى نفوس الناس ، يجمعونها وينشرونها ، لأنها قطع فنية .. كأنها الجواهر ، أو هى أغلى من الجواهر ، عند الذين يقدرونها ويحفلون بها ، وأدب الرسائل شىء شائع ومعروف فى تاريخنا الأدبى .

* والمؤرخ للأدب .. لابد وأن يتوقف ويتأمل ، حين يجد بعض آثار حمزة شحاته ، فيبحث بعمق ، لماذا زهد .. شاعرنا النابغة وكاتبنا البليغ .. فيما انشأ من شعر ونثر ولم يبق عليهما ؟ سؤال : يتوقف عنده الدارس الى أن يصل

أو يهتدى .. باجتهاداته ، ومايتاح له من تقص فى البحث ، وبما يتاح له أن يسمع .. عن الشاعر الكاتب وسبل حياته ، حتى يبنى تصوره .. على بعض الحقائق ، إن لم يستطع .. أن يلم بالكثير منها .

* أترى حمزه شحاته .. قد استقر فى نفسه ، قول البحترى :

حضرت رحلى الهمـــوم فوجهت إلى أبيض المدائـــن عنسى

ربما كان شيء من هذا ، وربما كذلك كان طموح أديبنا وكبر نفسه كما كانت الحال مع المتنبى .. سبب هذا القلق ، ولم ينل المتنبى .. ماكان يطمح إليه ، ولم ينل حمزة شحاته التقدير .. الذى كان يتوق إليه ، وهو رجل طموح ، فضاق بالحياة وضاقت به الحياة ، فآثر العزلة وآثر الغربة ، والغربة مريرة فى النفس ، والأديب إنسان .. شفاف النفس ، كثير الحساسية ، وأعنى به الأديب المطبوع الصادق .. مع نفسه ومع الناس ، لا الأديب .. الذى يتخذ من الأدب صنعة ، يريد من ورائه جعلا وشهرة ، غلت أو رخصت ، وأن يعيش بالأدب على هامش الحياة والأدب ، فمثل هذا لا أثر له ولا آثار يبقيها ، وإنما هو يعيش يومه ، ولكنه .. ليس له غد .. إذ ليس له تاريخ ، من أجل ذلك .. تكسد سوق الأدب حين يرخص العطاء ، ويفقد الأدب التجويد والعمق فيصبح بضاعة كاسدة حين يفقد خصائصه ويمسى سلعة للعرض وليس للطلب ، ويبنى على التقليد ، وليست له شخصية .. تميزه عن غيره من الآداب الأخرى ، ويظل راكداً يحبو ، ولايقوى على الوقوف لأنه ضعيف وهزيل ، ويظل تابعاً لامتبوعاً ، ونسخة بلا هوية وبغير جذور عميقة راسخة تجدد حيوية أعضائه وتخضوضر أوراقه ، ليكون لها الشذى الفواح والعبق السارى مع النسيم .. الذى يتخلل الأغصان والأزهار اليانعة ، فينال منه الدانى والقاصى ، ويتفيأ ظلال الدوح .. فى الأرض الخصيبة ، من تلفحه حمارة القيظ ، فيجد الجدول الرقراق والسندس والظل النادى .

* خسرنا حمزه شحاته ، لأنا خسرنا أدبه .. الذى ضاع ، ولو توفر له المناخ الذى يليق به وتستقر فيه نفسه على نحو يرضاه هو ، لكسبنا الكثير من فكره وعبقريته وفنه ، شعراً ونثراً ودراسات ذات قيمة كبرى فى الفكر .. والفلسفة ، لأن فكره عميق ، ورؤاه تحلق بعيداً عالياً ، فى أعماق الاعماق . وهكذا .. نحن أمة ممتحنة ، أعنى أمتنا العربية . تراثنا يهدر .. فى الأنهار تبتلعه ويحرق ،

ويعاقب الفكر المعطاء بمختلف سبل العقاب ، وشاية حاسد ، وخسة حاقد ، وظلم بنى القربى ، والخطر الأدهى أن ينال الانسان الكيد .. من شيعته لا من عدوه !

* قضيت وقتاً ماتعاً فى قراءة الستين رسالة ، التى ضمها الكَتاب العربى السعودى من السلسلة التى تصدرها تهامة تباعاً ، وقد أثنى على جهد تهامة الواعون ، الذين يقدرون قيمة الكتاب ودوره فى المجتمع ، تثقيفاً وتوعية ، وأعنى به الكتاب الجيد ، لا الذى يقرأ من عنوانه .. كما يقال ، وانما الذى يقرأ محتواه بنهم وغبطة ، لأن الكتاب الجيد ثمين وثروة ، ولقد صدق المتنبى ، حين قال : « وخير جليس فى الزمان كتاب » ، وشوقى حين قال : « لم أجد لى وافيا إلا الكتابا » .

* إن الشىء البارز فى حمزة شحاته ، أنه غير متعال وليس متكبراً ، ولايزعم الادعاء ولايتطاول ولايمارى ولايبتذل ولايحقد ولايحسد ، وإنما يصور نفسه .. أنه من عرض الناس ، يكره الشهرة ، ويتواضع .. تواضع الكبار ، تلك بعض مزايا القيمة .. للانسان المثالى .

وانظروا إلى حمزة شحاته ونفسه الكبيرة ، فقد أنكر .. أنه المعنى بالريبورتاج المصور الذى نشرته عنه الأهرام ، حين أخذ الجيران يرددون الاعجاب بشخصية حمزة شحاته ، الذى كتبت عنه صحيفة الأهرام ، ويعتذر الجار عن جهله وجيرته .. بالشخصية البارزة التى تجاورهم ، ولايعلمون عنها شيئاً . ولم يقل حمزة شحاته شكراً لاهتمامك وتقديرك ، كما نقول نحن اليوم ، وتنتفخ أوداجنا ، بما نسمع من ثناء .. صحيحاً ومزيفاً ، وانما قال شحاته لجاره : « لست أنا ياسيدى المقصود بهذا الكلام المذكور .. فى هذا الريبورتاج ، لشد ماكان يسعدنى ذلك ، ولكنه .. مجرد تشابه فى الأسماء ، فهناك أديب مشهور حقاً .. فى المملكة اسمه ــ حمزة شحاته ، أما حمزة شحاته الذى أمامك فهو إنسان عادى ، يعمل مربية لخمس بنات ، وانصرف الجار .. بعد أن تأسف عن اللبس الذى حدث ، وهو يود .. أن يقابل ذات يوم الأديب حمزة شحاته . هذه السطور من الصفحة (١٦) من كتاب حمزة شحاته لابنته . انظروا إلى هذا الخلق وإلى هذا الموقف والقدرة .. على كبح النفس ، حتى أنها تنكر مالها وتتنازل عن قيمتها .. الأدبية ، وما أكثر الذين يدعون .. بما ليس

فيهم ، وكم يسعدهم أن يكونوا أصحاب القدح المعلى ، رغبة فى الاطراء ، وتطلعاً .. إلى الشموخ الأدنى ، ذلك .. هو مرض الغرور والكبرياء .

وكم يحز فى النفس المتأملة قول أديبنا لجاره عن نفسه : « انه إنسان عادى .. يعمل مربية لخمس بنات » أى امتحان هذا ؟ أرجو الله جل جلاله أن يعوض فقيدنا فى الآخرة .. كفاء تلك الرعاية والتربية والتنشئة لبناته اللاتى اعطاهن الله له ، ليكون له الأجر والثواب .. على صبره ، ورضاه بما قدر له وقدر عليه .

ولقد بدأت فى قراءة بعض آثار الأديب الكبير ، التى جمعها .. الصديق الأستاذ عبد الحميد مشخص فى كتاب بعنوان « رفات عقل » ، وطبع ضمن سلسلة ـ الكتاب العربى السعودى ـ وأفضلت تهامة مشكورة فأهدت إلى نسخة منه مع بعض مطبوعاتها ، من سلسلة كتيبات الأطفال وما اليها ، فلها الشكر ، وأرجو أن أفرغ قريباً للانتهاء من قراءة محتوى رفات عقل والتعليق عليه بما يليق ، لا من منطلق الاعجاب .. بحمزة شحاته فحسب ، وإنما .. من خلال أفكاره ، رغم .. ان موضوعات الكتاب قصار ولكنها مركزة وقيمة وجديرة بالمطالعة والتأمل ، لأنها آراء .. ذات وزن وذات معان ورؤية ثاقبة دقيقة وتأمل .. مصدره التجاريب والاطلاع ، والاحاطة الواسعة بالحياة .. والناس ، وتراث الانسانية .

أسلوب الأستاذ شحاته .. جزل متين واضح عميق المعانى ، حتى فى رسائله الخاصة إلى ابنته ، فى لغة حية وألفاظ .. كأنها مختاره ، رغم أن الرجل .. كان يكتب أو يملى على سجيته . ولذلك .. رأيت أن أنقل من تلك الرسائل كلمات وجملا ذات مغزى ومعنى ، من عمق تأملات أديبنا العزيز ، ولن أطيل الوقوف حتى لا أثقل .. على القارىء الذى ينبغى له أن يقرأ تلك الرسائل ، ليمتع نفسه .. بأفكار الكاتب وأسلوبه الرشيق ، ومعانيه العميقة الواضحة الصريحة ، واقرأوا معى هذه الكلمات :

* « هناك أناس يخطئون دائماً ، لايفعلون إلا الخطأ ، ولكنهم لايدفعون ثمن أخطائهم ، ويعيشون فى انفصال عنها وعن تأثيراتها ، وأناس لايخطئون على الأقل ، لأنهم لايجدون الوقت ولا الامكان للخطأ ، ومع ذلك .. فهم فى عذاب بأخطاء غيرهم » .

* « لاتصدقى .. أن كلمة الطموح تعنى شيئاً أفضل من الجشع ، وهو التطلع إلى المزيد ، إن مطالبنا فى الحياة .. لايمكن أن تريحنا مالم نضع لها حداً .. بالبساطة والقناعة » .

* « إن غايات الحياة والعقل .. لاتنتهى ، وهذا مايجعل الحياة تجدداً مستمراً ، ومتعة دائمة .. وأمجاداً مضيئة » .

* « إذا كان كل شيء يحدث ويخلى مكانه .. لأشياء أخرى فلماذا تتمتع بالبقاء المتحجر .. بعض الأسماء ، وحيث لايوجد مبرر لبقائها ؟ » .

* « أكبر الحماقات .. أن نصنع تاريخاً لمن ليس لهم تاريخ » .

* « إن الكرامة .. ليست سيفاً يسل فى وجوه الآخرين ، إنها سلوك متعقل يلتزمه الانسان ، وليست حتى شعاراً .. يضعه على صدره أو يعلقه على رأسه » .

* « ضعى نفسك دائماً فى الدائرة الواضحة المضيئة ، وستجدين أن كل ما يسدد اليك يعود فى هدوء إلى صدور مطلقيه »

* « إن الفشل فى عملية الصبر يعنى التوقف ، العجز عن الحركة ، السقوط ، وليس هو غاية .. من غايات النفس ولا العقل » .

* « إن نهاية الحياة الموت ، وهذا وحده أقوى حوافز الحياة » .

* « من الذى ناشدك بنشر رسائل أبيك وأبى أبيك ؟ ألحقيه بالرعيل الأول من حمقى التاريخ البشرى » .

* « إن الحياة نشاط ، والموت .. هو توقف هذا النشاط » .

* « العذاب يهون .. عندما يكون هناك أمل ، وعندما لايكون أمل .. فهى الكارثة » .

* « الشهرة .. هى الضريبة الفادحة .. التى نقدمها ثمناً لنجاحنا ، وسيكون عليك أن تؤديها مغلظة .. كلما اتسع نطاق شهرتك » .

* « الشهرة .. تصنع صاحبها دائماً .. أمام أقسى الاختبارات .. التى لاتنتهى ، والشهرة كالخطيئة .. تطارد الانسان ، وأحياناً تخنقه » .

* « إن الشباب يتعلق بالمظاهر ، والعجائز يتعلقون بالنقع » .

* « إن الحياة .. ليست شيئاً ذا قيمة .. بغير مواصلة الجهد للتقدم .. العلمى والثقافى .. فالحياة .. تمضى فى الصغائر المعتادة ، وبنفس الجهد اللاهث ، خالية من هدف بارز » .

* إن كتاب الأستاذ شحاته لايخلو من أخطاء .. مطبعية وغير مطبعية . وجهد تهامة كبير أنفاقا وحصولا على الكتاب القيم ، والكتاب الذى تجد فيه أخطاء ، تقل قيمته عند القارىء الواعى ، وتهامة تنفق الكثير ، وما عليها لو عنت بمصححين يجيدون اللغة .. لتدارك أخطاء الكاتب والأخطاء المطبعية ، اكتب هذه الكلمة بدافع الغيرة وحدها ، ليكون العمل الجيد أثراً وطباعــة .. متكاملين ، حين يخلو من تلك الأخطاء .

* رجح الكاتب الاسلامى ، الأخ الأستاذ .. احمد محمد جمال ، فى رده على أحد طلابه الجامعيين ، المنشور فى جريدة المدينة المنورة .. العدد (٥٠٤٧) الصادر بتاريخ ١٤٠٠/١٢/٢٤ هــ صفحة (٧) ، بأن جنة أبينا آدم وأمنا حواء .. التى هبطا منها كانت فى السماء . واستدل الأستاذ جمال على ذلك .. ببعض رجال التفسير ، كابن كثير والطبرى والنسفى والألوسى والقرطبى ، على حين يرى المعتزلة والقدرية ، بأن جنة أبوينا .. كانت فى الأرض .

ويتعرض الصديق لرأى سيد قطب ، الذى يقول « اقتضت رحمة الله .. بهذا المخلوق ــ يعنى آدم ــ أن يهبط إلى مقر خلافته ــ أى الأرض ــإذن لم يقل سيد قطب : أن آدم وحواء كانا فى السماء .

ويقف الأستاذ أحمد .. عند قول الله عز وجل « قلنا اهبطوا منها جميعاً ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو » ، إلى آخر هذه الآيات الكريمات .. التى أتى فيها لفظ الهبوط .

ويعقب الأستاذ أحمد جمال .. بأن لهذا التكرار فى آيات القرآن التى جاء فيها لفظ الهبوط « دلالة أكيدة على ارادة المعنى الخاص للكلمة .. وهو ــ النزول ــ من أعلى إلى أسفل .

كما يشير الكاتب الفاضل .. إلى قوله تعالى « ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين » ويقول : « وقد تكررت الجملة فى سورة البقرة وسورة الاعراف ، فان مفهومها الظاهر .. يؤكد أن الاهباط كان من السماء ، والا لكان انتقالا .. من الأرض إلى الأرض » .

* والكاتب الاسلامى الأستاذ جمال .. مجتهد ، كما أن المفسرين القدامى والمحدثين .. الذين يقولون بهذا الرأى مجتهدون كذلك ، إذ لايوجد نص قرآنى ولا من السنة .. يؤكد أن جنة أبوينا كانت فى السماء . إذن فالأمر اجتهاد يستشهد له بقرائن ، وحتى القرائن .. يختلف فى تفسيرها ، ومفهومها بين قوم

وآخرين ، وبين إنسان وآخر .

وبعيداً عن القدرية ، وبعيداً كذلك عن المعتزلة ، فانى أقول مجتهداً إن جنة أبوينا .. كانت فى الأرض ، وأدلل بما أعرف .. وفق فهمى المحدود .

أولا : حدد القرآن الكريم فى قول الله تبارك وتعالى إلى الملائكة « إنى جاعل فى الأرض خليفة » . إذن مقر آدم المحدد له .. هو الأرض ، هذه واحدة .

ثانياً : كما يعلم أخى الأستاذ أحمد .. أن الجنة ، من معانيها الحديقة والبستان ، والمزرعة ، نجد ذلك فى سورة الكهف .. فى قول الله جل جلاله « ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لاقوة إلا بالله » وتكررت كلمة الجنة ثلاث مرات ، مثل « فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك » وقوله « ودخل جنته وهو ظالم لنفسه » وقبل ذلك قوله تعالى « واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً ، كلتا الجنتين آتت أكلها » . وفى سورة الاسراء « أو تكون له جنة من نخيل وعنب » . وفى سورة سبأ « فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا » .

والجنة جاءت فى الكتاب العزيز معرفة ونكرة ، أعنى الجنة المحددة فى الآخرة ، مثل « وجنة عرضها السموات والأرض » ومضافة ، مثل « جنات عدن » « وجنات النعيم » إلى غير ذلك من الأمثلة .

* والهبوط فى رأيى ، أن يكون فى استبدال الذى هو خير بالذى هو أدنى ، والدليل قول الله تعالى لبنى اسرائيل «اهبطوا مصراً فان لكم ماسألتم » وذلك استجابة لطلبهم فى قوله تعالى « وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير » .

إذن الهبوط يؤدى معنى الخروج من الأفضل إلى الأدنى ، فآدم كان فى الجنة المزرعة الجامعة ، يأكل مايشتهى فى راحة واطمئنان ، وحين خالف أمر ربه أخرجه من الجنة .. إلى حيث لاينال رزقه الا بالكدح والنصب ، وهو فى جنته لايؤدى شيئاً من هذا . فالله سبحانه وتعالى جازى سبأ لأنهم أعرضوا وكفروا ، كما رأينا فى الشاهد القرآنى . وحين عصا آدم ربه طرده من جنته .

* ونحن نقول فى تعبيراتنا ، نزل الخير عليه نزول الصاعقة ، وفى بعض اللغات

الأجنبية ، أن الساكن فى أطراف المدينة حين يريد الذهاب إلى وسطها ، يعبر بأنه يهبط الى ذلك . فالهبوط لايعنى بالضرورة فى كل الاحوال من أعلى إلى أسفل ، وهو فى التعبير المجازى يعنى تغير الحال من أفضل الى أقل ، ولذلك نقول : إن فلانا هبط مستواه ، حين نشير الى طالب علم كان جيداً ، فتكاسل وأهمل ، فقل محصوله . وهذا التعبير يدور على ألسنتنا . والهبوط بهذا المعنى .. يؤدى إلى الانتقال من حال ممتازة إلى حال دون ذلك ، وذكر الأرض فى قوله تعالى « ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين » تحديد الموقع .. لاستقراره ، وهو أمر تقضيه الضرورة خرج من الجنة وهى فى الأرض ، ليستقر فى جزء آخر منها ، ولكنه ليس بجنة ، وانما هو ميدان كدح وعمل ومشاق . والله سبحانه وتعالى قد اعلن للملائكته بانه جاعل فى الارض خليفة ، فى قوله « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الارض خليفة » . ومبلغ علمى .. أنه ليس فى الدنيا جنة للانسان بمعناها المحدد ، وإنما هى فى الآخرة ، وفوق كل ذى علم عليم ، والله أعلم .

اشعاعات عقل

** لا أميل .. الى قبول التسمية التى أطلقت على كتاب أديبنا الكبير .. حمزة شحاته رحمه الله « رفات عقل »، فالرفات فى اللغة .. الحطام ، وما تكسر وبلى . والافكار .. التى نقرؤها فى هذا الكتاب الممتاز ، ليست حطاما ، وليست شيئا تكسر وبلى ، وإنما هى دوائر .. اشعاعات ، اداها .. عقل مستنير ثاقب ، وفكر رجل .. عميق التأمل ، قرأ الكثير وهضم ، ثم أرسل افكاره .. ارسالا دقيقا فى تعبيرات قوية ، وديباجة ضافية .. كأنها النمير ، ولغة شاعرة ، وموضوعات هذا الكتاب القصار ، أقرب .. الى الحكم فى ادق تعبير موجز ، تنداح فيه المعانى المركزة ، وحين تمضى فى قراءته فانك لا تتركه حتى تتم صفحاته الثلاث .. بعد المائة ..

وأول ما يلقى القارىء .. تلك المقدمة المجنحة ، التى كتبها الأستاذ .. عبد الحميد مشخص ، وهو الذى .. افضل . بجمع هذه المادة الحية ، وقدمها الى « تهامة »، فاحتفت بها واخرجتها .. فى هذا الكتاب ، فللأستاذ مشخص ، ولتهامة .. المزيد من الشكر والتقدير .. على هذا الاهتمام بأثر أديب له باع طويل فى الفكر شعرا ونثرا .

وقد قلت فى موضوع سابق نشرته فى هذه الصحيفة ، وأنا أتحدث عن رسائل الأستاذ حمزة شحاته .. الى ابنته السيدة شيرين ، اننا فقدنا الكثير من شعر ونثر .. هذا الأديب البارز ، الذى لا تفخر به بلاده فحسب ، وانما تفخر به امة الضاد من اقصاها .. الى ادناها ..

وقد علمت .. من خلال أحاديث اصدقاء أديبنا الراحل ومنهم الأستاذ مشخص ، أن الأستاذ شحاته كان يعمد الى آثاره .. من حين الى آخر فيمزق ويحرق ما ابدع فكره ، ظنا منه .. انه غير جدير بالبقاء ، وربما دفعه الى ذلك .. ضيقه بالحياة ويأسه ، بعد ان تقدم به العمر وضعف بصره، وقد أمضى شطرا من زهرة عمره يربى خمس بنات ، وكان قد تزوج بثلاث نساء ..

متتابعات ، ولكنه فى آخر حياته عاش عزبا ، وهى حياة مريرة قاسية ، ويزيد عناؤها فى الغربة عن الوطن والأهل ، وربما كان لعقوق القريب .. المزيد من العنت ، الذى يلهب مشاعر الأديب .. ذى الحساسية المفرطة وأنفة النفس العالية ، التى تأبى الصغار وتؤثر البعد والحرمان عن القرب فى الاهمال والجحود ، وتلك .. مأساة الأديب العربى عبر التاريخ الطويل ، حين يحيا مأساته وحده ، فهو غريب فى البعد والقرب معا ، وغربة الروح وغربة النفس ، مرارة ومضض وهم كبير .

وحمزة شحاته .. نمط وحده من الرجال والأدباء الكبار ، فهو يجمع الى إباء النفس والترفع وعزة النفس .. ذلك التواضع الجم ، فهو ليس من الأدعياء ، فيعلن .. انه صانع فى الفكر ، وانه يأتى بما لم تستطعه الأوائل ، وان له باعا فى الفن الأدبى مبرزا فى الفكر ، حتى مجرد التلميح لا تجده فيما يقول ويكتب ، ولو فعل شيئا من ذلك لكان اهلا له ، ولكنه يعلن فى الجهر أنه لم يصنع فى المجال الفكري ما يستحق ان يعنى به ، اى بفكره ، وأن ما أنشأه لا يستحق شيئا من الاهتمام ، كأنه يقول انه حاول ، ولكنه .. لم يستطع ان يؤدى شيئا ذا بال . وهو لا يفعل .. حتى ما فعله حافظ ابراهيم رحمه الله ، حين قال « صح منى العزم والدهر أبى ». فحمزة شحاته .. لا يحمل الأيام مسئولية عدم نجاحه فى نظره ، وهو يترك هذا الأثر القليل .. بالقياس الى مكانة الأديب الحى ، والكثير فى مقاييس التقدير والاهتمام ، ذلك .. ان الفكر ليس بالكم ، ولكنه بتأثيره وقيمه ومعانيه وتأثيره ، ولكن الخلق العالى .. يجعل حمزة شحاته يستهين .. بقدره الفكرى ، ولا يحسبه شيئا يستحق الاعتناء والاهتمام والتمجيد .. عند الآخرين ، الذين يقرؤونه ، فيعجبون به ويفيدون . تلك سمة الأديب الحى الكبير النفس ، فى هذا التواضع .. من انكار الذات ، وهذه السمة .. ترفع الأديب الى مصاف الكبار .. من عظماء التاريخ ، الذين .. لا يأبهون للمظاهر ، ولا يحفلون بها ، وإنما يؤدون دورهم بقدر ما يتاح لهم ، ثم يقولون : لقد قصرنا ولم نصنع شيئا ، ولا يحملون غيرهم ولا الزمن أعباء التقصير .. الذى يتحملونه وحدهم ، حتى مجرد الشكوى ، يأتون عليها ، فى ادب ، وخلق عال ، تلميحا يدركه القارىء الحصيف ، الذى يتأمل بدقة الآثار ، ويقرأ ما بين السطور .. كما يقولون .. انه ارتفاع بالقيم والنفس الكبيرة ، وليس ترفعا ،

ولا استخذاء ، وانما هو الاباء والشمم والنفس العالية العزيزة على صاحبها وعلى الآخرين .

* اذا قلت : ان حمزة شحاته .. مثال نادر فى ادبائنا ، فانى لا اعدو الحق ، حتى معاركه الأدبية .. التى خاضها فى شبابه .. مع لداته ، لم يسمها .. معارك أدبية ، وإنما عبر عنها بقوله : « ان المعارك الأدبية التى خضتها كما سماها البعض بالمعارك ، لم تكن فى رأيى .. سوى مشاجرات تغلب عليها .. صبيانية الفكر قبل أن يذبل وكانت أسبابها غاية فى التفاهة ، وكذلك موضوعاتها ، ولأنى مجرد .. من الذكاء ، كانت تفرض على المثقفين .. فى صورة دفاع عن حرماتهم الأدبية ، والذى يضحك .. انى لم اكن اتقبلها بدافع المروءة ، بل ودائما .. بسبب التورط الذى لا اعرف كيف يحدث ، وكيف يتكرر ، برغم الحيطة ، والحذر والتحرز »ـ رفات عقل ـ ص ١٨ ـ .

هذه سمة بارزة من سمات الشجاعة .. عند حمزة شحاته ، وقد تراجع غيره .. من الأدباء الكبار مثل طه حسين وابراهيم المازنى ، حين قسوا على المنفلوطى بالنقد ، ولكنهما .. بعد زمن عادا .. ليعلنا ان ما كتباه من نقد عنيف .. لأثار ذلك الكاتب ، لم يكن سوى نوازع الشباب وفورته ، واسقطا ما كتبا من حسابهما . كذلك يصنع الكبار ، وكذلك صنع حمزة شحاته ، فسماها مشاجرات صبيانية الفكر واسبابها تافهة ، وكذلك موضوعاتها .

ان الذين يجنحون الى هذه السبيل .. من الشجاعة ندرة ، وانهم لجديرون بالتقدير ، بل إن شحاته يصف نفسه حين خاض تلك المعارك فى شبابه ، أنه مجرد من الذكاء ، من الذى يقول هذا ويعلنه على الملأ ، سوى من يحمل بين جنبيه نفس همام وعصامى قوى الارادة ، وقد كان حمزة شحاته .. فى مقدمة الشجعان الذين يقوون على أنفسهم ، فلا يكابرون ولا يدعون ، ولا يجادلون فى باطل ورخيص ، وانما يترفعون ويصفون أنفسهم .. وهم فى أوج العناد ، انهم لجوا ، ولم يحسنوا ، وان تلك الآثار .. من المهاجاة ، لغو وتفاهة وسخف .

* بعد هذا الكلام .. الذى ربما رآه غيرى طويلا ، وأراه أنا .. دون ما ينبغى أن يقدم للحديث عن اثر نادر وقليل لأديب بعيد الصوت ، ولكن الظروف حالت .. بين هذا الصوت الجهورى وبين ما كان يجب أن يبلغه ، وان ينال

صاحبه .. من الحفاوة والمكانة وكذلك آثاره .. لو بقيت كلها ، ولو تبسمت له الأيام .. بعض الشيء ، لأتيح لنا .. ان نقرأ ابداعات هذا الأديب وروائعه ، ونحن اليوم نأسى ، لأنا حرمنا فكرا حرا ورأيا صراحا ، وقيمة ادبية غالية عالية .

فى ص (١٣)، يحاور حمزة شحاته نفسه ، ويفترض أن أحدا سأله هذا السؤال التقليدى فى الفكر ، الى اية مدرسة ينتمى ، فيجيب بانه قرأ كل ما وصلت اليه يده ، لذلك ـ فاته التخصص ـ. ويستدرك .. من واقع اعتقاده وخطه الذى رسمه لنفسه ، وهو البعد عن دائرة الضوء ، وكرهه لنلت ، واستوعبت ، واجدت ، وعرفت ، وكنت ، يستدرك كعادته ، غير متهيب ، ويهرب من وصف نفسه بشيء .. يستحق الذكر ، فيقول فى الصفحة نفسها : « ربما كان الكلام عن نفسى .. بهذه الصورة ، يعتبر تكبيرا .. لصورة بالغة الصغر ». ويقول كذلك تتمة لهذا الموضوع فى ص (١٤):

« فلست مسئولا عن هذه الشهرة الزائفة .. التى ظللت اقاومها ».. هذا هو منهجه .. مع نفسه ومكانته الأدبية نكران كلى ، لا يعترف لها بشيء .. من الشهرة ولا المكانة ، وكأنه يقول : انه انسان .. من عرض الناس لا ميزة له ، ولا قيمة فكرية . ولكنه .. ان جحدها فى غير اكتراث ، او من « قرف » صاحبه ، وحاضر ولم يستطع منه خلاصا ، فان الذين يقرؤونه ، بعمق وإدراك ، يحسبون له ابداعه ومكانته ، ويزدادون له اكبارا امام هذا الانكار .. الذى يعلنه فى كل ما يقول عن نفسه ، لا يريد لها شهرة ، لأنها فى رأيه .. لاتستحقها .

ولا أريد .. ان استعرض الكتاب كله ، لأتوقف عند هذه الجواهر .. واللآلىء الثمينة ، اتخير بينها ، وكلها ذات قيمة غالية رغم صغر حجمها ، وقد عرفنا ان الأشياء النفيسة لا تقاس على الوزن او الكم ، وإنما قيمتها .. فى ندرتها ، لأنها رائعة واكثر من جيدة .

ولكنى .. سأتوقف لألتقط من أحكامه فقرات ، فهى أشبه بالحكم والفلسفة ، وربما عن لى .. باجتهاداتى ان اختلف .. مع أديبنا الكبير فى بعض تعبيراته او مقاييسه وأحكامه ، ولا ادعى لنفسى أننى ابعد منه نظرا واقرب الى الحق ، وربما اخطأت فى فهم بعض مقاصده ، ولعلى واجد .. من يردنى

لأستوعب ما يعنى كاتبنا المجيد . ولا يعنى حكمى على بعض الأخطاء .. فى تقديرى أنا ، اننى اسلم بتسمية هذا الكتاب ــ رفات عقل ــ، لا مجال لمناقشة صاحبه فيه ، لأنه قد حكم عليه بانه حطام وشىء .. متكسر بال ، لست أسلم بها ، وقد اعلنت انه قيمة ادبية ثمينة ، شكر الله من عنى بجمعه وطبعه وتقديمه الينا .

ويمضى كاتبنا على حاله .. فى نكران ذاته ومكانته الأدبية ، فهو حين يتحدث عما اسماه آثارنا الجديدة والرعيل الأول « ص ٢٠ ، ٢١ ، يقول : « ولم يزل للرعيل الأول ــ أعنى من بقى منه .. نشاطه البارز والمستمر .. على ما اعتقد ، وأنا لست منهم ، ولكنى على التحديد .. من الرعيل الثالث ، ومعظم افراده .. باستثنائى بخير ».

هكذا ديدنه وخطه الواضح ومنهجه الصريح ، لا يعترف لنفسه بشىء البتة .

وعن « الخبطات الأدبية » ، عنوان فى ص ــ ٢٢ ــ، تمشيا كما .. يعلن ، على تعبيرات الصحافيين ، فيقول : « ان فقــدان عنصر الاثــارة والعنف .. والانطلاق الى الأجواء العليا او التردى فى الأغوار السحيقة ، هى السبب فى عجز اثار شعرائنا الجياد .. عن الحركة ، والتطويف ».

* وفى ص « ٣٦ »، فى سياق حديثه عن شعراء الحجاز الذين ضمهم .. كتاب الأستاذ عبد السلام الساسى ، الذى صدر قبل ثلاثين سنة ، وكتب الأستاذ شحاته مقدمته ، يقول : « وبعد .. فان من شعراء هذه المجموعة .. من لا يفخر الحجاز وحده بهم ويتيه بل كل بلد عربى ، وهم السرحان وعواد وقنديل وحسين عرب واشباههم .. فى معظم السمات ، وفى بعضها دون جملتها ».

« ومنهم من يستحق الرثاء ، ومنهم مستوجب التعزير حتى يعلن التوبة .. من رفع عقيرته بمثل هذا الهراء ».

والشاهد .. فى هذا الموضوع ، أن حمزة شحاته رغم تلك المعارك الضارية .. التى كانت بينه وبين الأستاذ عواد ، لم يغمطه منزلته ، ولم يتجاهله ، ولم يسقطه ، وإنما وضعه مع الصفوة الذين تفخر بهم الأمة العربية ، وهذا علو نفس من شحاته بلا منازع ..

* وفى ص « ٣٨ » موضوع فى رأس الصفحة بعنوان « تجديف »، جاء فيه قوله : « إن ــ الأنبياء كانوا منطقيين اكثر من الزعماء والقادة ، انهم بنوا

الايمان فى قلوب جماهيرهم بان الحياة عمل شاق الخ :« وتعليقى على ذلك ، هو أن الأنبياء عليهم السلام كانوا اصحاب رسالات ، وتلقوا الوحى من السماء ، وكانوا معصومين ، واذا قبلنا المنطقية على وصف امثل ، فلا مجال لقياسهم بالزعماء .. والقادة ، لأن الآخرين ليسوا رسلا ، وليسوا معصومين .

* ويعجبنى تعبيره فى كلمات محددة حين يقول فى ص « ٤١ »، بعنوان ــ مسئولية ــ « لا شيء يضللنا اكثر من رغباتنا ».

* وفى ص « ٤٣ » يرسل كاتبنا هذه الوصية ، ولكنها فى رأيى لا تجدى ، فيقول : « إبحث عن الراحة اذا كنت متعبا ، ولا تبحث عن المتاعب .. اذا كنت مرتاحا ». وفى تصورى ، ان ــ الناس ، لا يتبعون هذه النصيحة ، لأن طبيعة الحياة .. تدفع الى التغيير ، حتى لو كان من حسن .. الى سيء ، انه القلق ، والرغبة فى التجديد على نحو ما .

ويقول فى هذه الصفحة نفسها : « الحياة كالمرأة .. كلتاهما تحب الذكى وتكره العاقل ». وأقول : ليس كل النساء يكرهن العقلاء .

* ويعجبنى قوله : « عندما يكون الطعام غير كاف ، يسيطر الوقار على المائدة ». وقوله : « الصحفى الذى يعض ويجرح ، هو الذى يكون اسلوبه غاية فى الروعة ».

* وقوله : « اذا كنت لا تهاجم النساء بجنون ، أو لاتدافع عنهن بحماقة ، فمن الخير .. لك ألا تضع اسمك على مؤلفاتك ».

« حاجة الانسان الى الضمير .. تنتهى عندما يحصل على مقدار كاف من الذكاء ».

ويقول : « الذى يسيء الى من أحسن اليه .. ليس شريرا ، إنما هو نذل ».

* أما قوله : « لا يستطيع النذل أبدا أن يرتفع الى مستوى المجرم فأقول لا أحسب أن كلمة يرتفع هذه دقيقة ، وربما كانت كلمة « يصل » اولى ، الا اذا كان الكاتب يفلسف لونا من الاجرام بمعنى معين ، وبذلك يرى المجرم فى موقف ما .. ارقى من النذل .

* وفى ص ــ ٤٥ ــ، بعنوان « صخرة شريفة »، يقول الكاتب :« ليس من الممكن فقط .. ان يعيش الناس بلا شعر ، بل من المستحب ».

وأرى ان هذا التعبير ، جاء من مشاعر « قرفت ».. من غثاء رآه

الشاعر ، وعايشه ، والا ــ فهو يمجد الفن ، ويشيد بالشعر ، كما رأينا فى صفحات هذا الكتاب .

* ويقول : « فرصتك دائما .. يحددها ما تجد لا ما تريد ». وهذا صحيح ، لذلك قالوا ــ عش كيف تجد لا كيف تريد ــ.

* ويقول : « ايهما تختار .. أن تكون الجانى .. أو الضحية »؟ وتعليقى ان الضحية أيسر ، لأن الجناية جريمة .

وجميل قوله : « منطق الغابة .. هو واقع المدينة ، بزيادة طفيفة ، هى القانون ».

* وفى صفحة « ٤٧ »، يقول : طالما سألت نفسى بحزن ، أفى وسع اللغة التى نتخذها وسيلة لنقل أفكارنا .. ان تهيىء لنا جوا طبيعيا للتفاهم وتبادل ــ الثقة ــ والشعور ؟» فى رأيى : ان الثقة .. ليس لها علاقة باللغة ، ذلك ان الثقة تعامل متكافىء على مستوى نفسيات .. تنزع الى الخير .

* ويقول : « يجب أن نعترف بان وجود كثير من الرذائل .. انما هو نتيجة منطقية لنظام الحياة ». وكاتبنا يرسل هذه الحكم والموازين ، وهى تقتضى الدقة التعبيرية والايجاز ، الذى لا يخل بالمعنى ، لذلك ارى ان كلمة كثير و« من » زائدتان ، لا لزوم لهما .

* ويعجبنى قوله : « أليست الرغبة فى الحياة أقوى أسبابها ؟».

* وما أروع قوله : « لو علمت عشر ما اجهل ، لكنت من كبار العارفين ».

وقوله : « العمل الرائع .. ان تناضل لاستبقاء حياة الآخرين ؛ عندما يفرضهم ضعفهم عليك ».

. وقوله : « الكراهية .. تأخذ ولا تعطى ، والحب يعطى ولا يأخذ ».

وجميل هذا المنطق فى قوله : « الواقع حقيقة .. لا يقرها المنطق ، والمنطق حقيقة .. لا يقرها الواقع ».

وصدق فى وصفه للحضارة الزائفة وان لم يذكرها بالزيف ، ولكنه يعنيها فى هذا التعبير الجميل .

« لا يحقق للانسان أكبر قدر من التعاسة والعبودية .. مثل الحضارة ».

* ويقول : « لا تكفى الندامة لمحو أثر الذنب .. التكفير هو الذى يكفى ».

وليته قال : الندامة .. طريق لمحو اثر الذنب ، والذنب يختلف حجمه ، وعدم العودة اليه من قوة النفس والارادة ، والندامة ، رجوع وتوبة .

* وما أروع قوله : « اذا وسعك .. أن تضع فى ميزان عملك لآخرتك ــ ما تضع فى ميزان عملك لدنياك ، فقد نجوت ».

* ويذكرنى قوله : « حسن ان تتكلم ، واحسن كثيرا أن تصمت ».

فقد روى أن عمر الفاروق رضى الله عنه كان يتهيب الرجل حتى يتكلم ، فاما أن يكبره حين يحسن او يسقطه ، وكأن كاتبنا يعنى بقوله »، رائع .. أن تحسن الكلام ، والا فالصمت استر .

* ويقول : فى ص (٥٢)، « الصمت أفضل لغة للحوار ».

ولو قال فى الحوار ، ربما كان اجدى ، لأنه اختيار فى موقف ، اما ان يكون الصمت لغة الحوار ، فهو ليس بلغة ، ولكنه حالة ، ولكن كاتبنا يفلسف المعانى ، ولعل له وجها .. فيما يعنى .

* وتعالوا معى .. الى هذه الروائع من أقواله ، فهى تعجبنى ، وأنا كلف بها ، ومن أجل ذلك انقلها ، لعل القارىء يفيد منها ، وقد اختصرت له قراءة بعض الكتاب ، وقد لا يعجب الناشر .. هذا المسلك منى .

يقول : « ليست المعرفة ان تتعلم ما تجهل .. ولكن ان تنتفع به ».

« ما الذى يمكن ان تضيفه المعرفة لانسان .. لا يعمل ؟»

« لاشىء يعطى تفسيرا تاما للحياة .. غير الموت ».

« كلما ازددت معرفة .. اتسعت أمامى مساحة جهلى ».

* أما قوله : « الانسان لا يشكل حياته .. ولكن تشكلها الظروف »، فعندى ، أن الانسان يشترك مع الظروف ، لأن له ارادة .

* ويقول : « عندما لا يرتبط السلوك بالعقيدة .. فكلاهما باطل ».

والعقيدة لا تبطل هنا ، وإنما تتعطل ، ولعل كاتبنا يعنى ان العقيدة تصبح غير سليمة فى نفس من لا يرتبط سلوكه بعقيدته .

* ويقول فى ص « ٥٥ »: مما لاشك فيه .. ان الفضائل ليست مجرد زينة ، ولكنها فى الحقيقة أردية متقنة الصنع ، تستر واقع الخليقة ، وتحجب نزعاتها الأصيلة ، تماما كوسائل التجميل .. بالنسبة للمرأة ».

لم يعجبنى قوله ان الفضائل « اردية متقنة الصنع »، فهو طعن فيها لأنها سمات عالية تدل عليها اسماؤها ومعطياتها ، والفضائل سمت الذين اختاروها ، فآثروا الحرمان ابتغاء لما هو خير عند الله ، فأحكموا جماح نفوسهم بطوق نجاة اختاروه ، لأنهم اقوى من نفوسهم . أما الزيف فليس

بفضائل ، ولكنه مظاهر خادعة .

ويقول فى ــ ٥٨ ــ: « الغباء والتغابى حكمة وقدرة خارقة .. على ضبط النفس ».

اقول : التغابى .. نعم ، لكن الغباء لاشىء ، والغبى ليس له حكمة .

* ويقول فى ــ ٥٩ ــ: « التشبث بالمثالية تهور وليس شجاعة ، والاذعان للواقع حكمة .. وليس ضعفا . هذا هو منطق الحياة اليوم »..

أقول : إن منطق الحق .. يختلف عن هذا المفهوم ، فهو لا يسمى المثالية تهورا ، بالأمس واليوم وغدا .

* ويقول فى الصفحة نفسها : « ما أعمق احتياط الطبيعة ، لم تجعل للوراثة قانونا ثابتا ، لكى لا يضيع النسل ».

وعندى أن الطبيعة شىء مسخر ومسير ، ولكن خالق الطبيعة ومدبر الأمر ، هو الصانع وأمره بين الكاف والنون ، اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون .

* ويقول : « عندما تكون النية حسنة ... فالعمل لا يهم ».

فى تقديرى إن العمل غالبا ما يكون حسنا مصداقا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم ، إنما الأعمال بالنيات »، ولعل الكاتب عنى هذا .

* ويقول فى ص ــ ٦٧ ــ: « ما المثل العليا غير اهداف .. تنشىء لذة للمنتفعين بها ، وان كانت فى منطق الحياة .. لا تتحقق على نحو ثابت ، اقصد بمنطق الحياة واقعها ».

والأدق ان يقول : للمتمسكين بها ، بدل المنتفعين ، فذلك أصح .. فى منطق الحق .

وفى ص ــ ٨٦ ــ يقول : « التلاعب بالألفاظ قديم ، والا فما هو الفرق .. بين الجشع والطموح والتهور .. والشجاعة ؟».

وعندى ، أن التهور .. لا يحكمه عقل ، والشجاعة غير ذلك .

* ويقول فى ص ــ ٨٩ ــ: « التاريخ هو مجموعة الأكاذيب والمبالغات .. التى اصطلح الناس على تصديقها ، وتقديسها ، والاحتكام اليها ».

وأقول : ليس كل التاريخ مجموعة اكاذيب .

وفى ص ــ ٩٠ ــ، يقول : « الحق والعدالة والمصلحة العامة ، أسماء مستعارة لأضدادها .. الباطل ، والظلم ، الأنانية ».

والذى أعرفه ، أن الحق والعدالة أسماء حقيقية لأضدادها ، وليست أسماء مستعارة .

ويقول فى الصفحة نفسها : « ان لكل رذيلة اسما مستعارا ، هو اسم الفضيلة .. التى تقابلها ».

أقول : إن اسم الفضيلة .. ليس مستعارا ، ولكنه أصل على مسمى ، ودليل عليها .

* ويقول فى ص ــ ٩١ ــ: « الانسان المتسامح .. هو الذى يغفر جميع الخطايا لنفسه ».

والأدق ، ان يقول : « الانسان المغالط ».

وبعد :

فقد تركت بعض أفكار تستحق أن تنقل لجدواها ، وتركت بعضها الآخر .. من غير تهميشات وهو خليق بالتعليق ، ذلك أنى أشعر بان الموضوع قد طال ، ولا يتسع وقت الناس .. لقراءة هذا الكلام الكثير ، ولكن ما الحيلة ، وكتاب يستحق القراءة ، ينبغى أن يعطى حقه .. من التعليق والوقوف على محتواه .

ورحم الله .. شاعرنا وكاتبنا ، وعفا عنه ..

قراءة في الروض الملتهب

* كدت أضع عنوان هذه القراءة وقفة ، ولكن خشيت لهب الروض ، فالروض جميل منظرا وعبقا ومربعا ، تزهو فيه النفس ، وتسبح مع الطير وخرير المياه والازاهير النضرة الاخاذة . وحين صحب هذه الجنة لهب ، فقد اثرت الابتعاد ، وان قدر للالتهاب معنى .. غير الاحتراق . هذه القراءة .. فى ديوان الصديق الشاعر الاستاذ « احمد سالم باعطب ، وهو كما أسماه .. باكورة انتاجه واول عطائه مطبوعا فى نادى الرياض الادبى ، ويحمل الديوان رقم (١٧) من مطبوعات النادى ، ولم اطلع عليها ، ذلك .. ان النادى لا يوصلها الى قرائه .. النائين عنه دارا .. كما يبدو . وكنت اسمع بين الحين والاخر .. عن منشورات النادى ، وكنت احمد له هذا النشاط .. فى اصداراته ، لا سيما وانه يتخير الجيد والمفيد من اسماء الكاتبين والشعراء واسماء الكتب . ويلاحظ .. من بيانات الاصدارات ، ان النادى يصدر كل شهر كتابا ، وهو جهد مشكور ، يستحق التقدير والدعم بالانتاج الجيد ، لاخراج هذه المطبوعات ، ولا اريد الحديث عن الاندية الادبية .. واصداراتها فقد يشغلنى عن « الروض الملتهب » وصاحبه ، وهو موضوع هذه المقالة .

كتب مقدمة الديوان .. ابو عبد الرحمن بن عقيل سلمت براجمه من الاوخاز. وهى مقدمة نقدية خفيفة سريعة ، فيها وقفات للجماليات وأخرى للملحوظات ، كالاسراف فى الفخر ، وندرة الحداثة فى شعر الشاعر ، وبعض التعبيرات التى لم تعجب الكاتب ، الى جانب .. ما اسماه بالتعبير المباشر .

والاستاذ ابو عبد الرحمن فى حديثه عن النقد والنقاد فى هذه المقدمة ، يسلخ الاستاذ الكبير عباس محمود العقاد .. من الشعراء وفى ظنى ان هذا الرأى لا يوافقه عليه الكثيرون . ولعل عيب كاتب العربية البارز ، انه اخضع شعره للفكر ، وجرده .. من العاطفة ، لذلك جاء اكثره .. مثل تفتيت الحجارة وطحنها . وقد قلده فى هذا المنهج الاستاذ محمد حسن عواد فنحا نحوه ، فكان

اكثر شعره ... جافا ، حتى موسيقاه لا تكاد تبين ، ذلك ان الكلمات .. التى يحشدها الشاعر لتؤدى معانى فكرية متكلفة ، تعصف بلمحات الشعر وبريقه وتحليقاته وصوره ورؤاه ، فيصبح كجلمود صخر ، لا أخيلة فيه ولا رونق ولا نفحات تطرب .

ونترك المقدمة الى الديوان . وقبل ان اقف على انغام الشاعر ونستمع الى رعشات اوتاره على شواطئه وانهاره ، وغدوه ورواحه ، نستظل بافيائه ونحلق معه .. حيثما سار . وأريد ان اشير ، الى ان شاعرنا من المقلين ، وليس هذا عيبا ، فمنذ ربع قرن .. تقريبا كنت اسمع الشاعر يترنم بقصائده ، نقرأ له .. فى جريدة سيارة فى المنطقة الغربية قصيدة .. كل بضعة اشهر ، وكان يومئذ مدرسا فى احدى مدارس جدة ، وكان قليل الاختلاط أو هكذا كنت ارى .

والاستاذ احمد باعطب يعنى بشعره لغة ومعانى وأوزانا ، وهو متمسك بالقديم .. فى قالبه وطابعه ، ولا حرج عليه ولا جناح فى ذلك ، كما يقول طه حسين . ولم أر له تجربة فى الشعر الجديد او نثر الشعر .. ان صح هذا التعبير ، ولعله لا يسيغه .

وحين نقلب صفحات هذا الديوان ، نجد الشاعر قد قسمه اربعا ، القصائد الوطنية ، ثم الاجتماعية ، فقصائد المناسبات ، واخيرا الشعر الغزل .

والقصائد الوطنية طابعها معروف ، حماسية تتحدث عن الثار والفداء والاباء والوطن الضائع وجراح مثخنة ، والشجن وفى اولى قصائد الديوان ، « رسالة الى اختى فى الخيمة » ، وهي قصيدة متعددة القوافى ، متلاحقة الصور والاحداث ، ونجد فى احد مقاطعها انينا مرده القدس ، فماذا قال الشاعر فى ذلك ؟

اختاه : هذا قدسنا المرزوء .. اولى القبلتين
واحسرتا ان ضاع او امسى حديثا بعد عين
واحسرتا ان ظل هذا الشعب .. مكتوف اليدين

ويتساءل الشاعر فى حسرة وغم وضيق ، فيقول :

أين الخلاص من الهوان .. اذا استكان الشعب اين ؟

ونحن نتساءل معه : كيف الخلاص ؟ والرد على هذا التساؤل .. معروف ، ان ما يؤخذ بالقوة .. لا يسترد الا بها .

وينبغي ونحن نقلب .. صفحات الديوان ، ان نقف على بيت وابيات تعتبر فلتات جمالية المعانى والأفكار والصور والعبق ، وهذا لا يعنى ان اكثر شعر الديوان غير جيد ، كلا ، وانما .. الابيات التى اعنيها فيها عمق وجاذبية قوية وبريق وتحليق .. بعيد المدى ، لذلك .. فهى تبهر القارىء الذواقة ، كان بها اشعاعات تومض ، تدل على مكانها ومكانتها .

واقرأ معى هذه الابيات من قصيدة « انين الجراح » . .

ما فقدنـــاه لن يعـــود الينا
بالرجـــاءات لهفـــة واحتراقا

وقوله :

ذاك حلــم ولن يحقــق حلــم الشعب
الا على جنـــاح الوئام
ان للخلـــف معـــولا يهــدم الجهد
ويقصيـــك عن بلـــوغ المرام

أجل ، فان وحدة الامة ووئامها ، السياج .. الذى يجعل لها صوتا ورهبة وقوة .

وفى دعاء الشاعر من قصيدته « رباه » يقول :

أصلح عقيدتهم ، فشعبى فى عقيدته مصاب

وعن السلم يقول :

السلم لحن ذاب من حقد الشعوب .. على الشفاه
السلم .. أن تحيا ملايين البرية فى الفلاه

ويؤكد ، ما يقوله المصلحون والمخلصون بقوله :

لا نصر بالالحاد .. والتفريط فى دين الاله

واسمعه يئن فى مرارة وحزن والم ممض :

يا امتى تاريخنا بعد الهزيمة اسود
ومن المذلة .. ان يضيع على يديك المسجد

ويمضى الشاعر .. يثير حماسة امته ، ويتساءل فى عجب ؛ كأنه لا يصدق ما يسمع وما يرى ، وهو قد وعى الماضى وعرف امجاد امته وبأسها وعزتها وصولتها وعلو همتها ، وايمانها بربها العميق .

يا امة .. عبثت بعزتها المصائب والخطوب
هل لم يعد فيك الجرىء .. اخو البطولات الغضوب

الى ان يقول :

عار الهزيمة .. سوف تمسحه الدماء الثائرة

وفى موكب الشهداء هذه اللمحات :

العدل اصبح لفظة جوفاء .. ليس لها معان
وارى البرىء معاقبا ظلما .. ويغفر للجناه
فالشعب تلفظه الحياة .. اذا تبناه الوهن

وتمضى الحماسة بالشاعر ، فهو كالبركان المتفجر او اليم الهادر ، لا يهدأ ولا تسكن نفسه لانه غاضب

لا تنفع الشكوى ، ولا يجدى التشدق بالسباب
العدل يذعن للقوى ، فعنده فصل الخطاب

وعلى هذا النحو قوله :

انى سأمسح بالفداء هزيمتى .. فى شهر « جون »
واقدم الآلاف قربى .. للمشانق والسجون
فلقد صحوت اليوم ، لا لهوى لدى ولا مجون
من اجل قدسك يا بلادى ، كل مدخر يهون

وقصيدة اخرى فى الوطنيات ، عنوانها « من وحى ثورة الجزائر » ، والجزائر استقلت ، ونحن اليوم نقرر تاريخ جهاد ، كان للدماء فيه عبق كالمسك

انف الذل والهوان ومن يرض بهون يعش ذليل حياته
واذا الشعب كان بالمجد صبا عشق الموت سلما لحياته

وعن العقوق ، وقد بدأ القصيدة ، بقوله : « اماه »

لا تنزعى عنك تاج الحزم واصطبرى إن الاباة اذا جار الاذى صبروا

ان عقك اليوم من اوهى شجاعته
دفء النعيم ففينا لم يزل عمر
لا يسكن الداء الا بيئة خبثت
وليس للشر الا مخبأ قذر

قالت اخاف بغاث الطير تنهشنا
ونحن فى غفلة تلهو بنا الحير
اخاف ان تمسح الايام بسمتنا
وان يجف اسى فى روضنا الزهر
إنى أرى ويحكم فى الخلف آفتكم
يكيد للنيل منكم طامع اشر
كم امة غرقت فى بحر فرقتها
وضاع من كفها فى نهجها الظفر

ونترك القصائد الوطنية الى الاجتماعية ، وهى تعنينا كما تعنينا الوطنية . وفى « تهويمات شاعر » هذه الابيات المختارة .

آه ما اصعب اصلاح القلوب
حين تبدو مثخنات بالعيوب
اين انت اليوم من محراب قدسك
انت تلهو والعدى تلهو بغرسك
قد تبرمت من الجهل بترسك
وتذرعت من الخوف بهمسك

يبدو لى ان الشاعر ما يزال يضرب على اوتار الوطنية ،ليهز بعنف .. اوتار القلوب والمشاعر ، لتهب النفوس ، يدفعها الحق الى استرداد الحق .

وانا ربما اختلف مع الشاعر فى معانى بيته التالى ، فعندى .. ان فاقد الاخلاص لا يعشق الحق ولا يريده ، لانه لا يملك مقوماته ، وعند شاعرنا .. عكس هذا التصور ، وذلك فى قوله :

فاقد الاخلاص لا يدرى طريقه
يعشق الحق ولكن لن يطيقه

وما أصدقه فى قوله :

إن من يملك احساسا عصيا
انفق الايام حيران شقيا

ونقف مع الشاعر ، مع صوره ومعانيه الواضحة فى هذه الابيات من قصيدة « شجون » :

فى زمان ساده اللؤم .. واودى ببنيه
فى زمان هتك المرء به .. عرض اخيه
فى زمان .. سخر المغرور حمقا بأبيه
فى زمان .. هان فيه الحر واعتز السفيه
اوجدتنى قدرة الله العلى القادر

والشاعر .. يتحدث عن المال ، وهو لا يملك .. سوى الحديث ، اما المال فبعيد عنه اقتناؤه ، والاديب فقير الا ما ندر ، وهذا النادر من يبعد بوجدانه عن الادب ، ويتلبس احساسه رنين الذهب او ارصدته من الورق او عقار وما اليه .

يقول الشاعر :

ماذا جنيت من القريض سوى الاسى
وتمرغ فى حومة الاوهام
واصوم نصف العام ليس تطوعا
ما لذة الافطار دون طعام
وأصوغ اشعارا تذوب عذوبة
ما اطفأ الجوع الحقود كلامى
أألام حين حجبت بعض قصائدى
واخو الغنى بالبخل غير ملام

وفى « سماء بلا نجوم » يقول الشاعر :

واذا رأيت الذل يرفع اهله
فاخلع لباس الكبرياء وجار
تهوى الكلاب من الجيفا لحومها
وتعافها رغم المجاعة ضارى

وفى « صراع مع الفقر » يقول :

قد خبرت الزمــان والنــاس طرا
فوجـــدت الجميـــع خصـــم الفقير
أنـــا فى عالـــم تملـــكه الوهم
وهامـــت جموعـــه فى القشور
ينصر النـــاس عابـــد المال دوما
واخـــو الفقـــر مالـــه من نصير

ومن أجمل قصائد الديوان « يا نفس » وابيات اخرى متناثرة ، اشرت عليها فى اثناء قراءاتى للديوان ، ولكنى تركتها خشية الاطالة ، ويستطيع القارىء النابه .. ان يجدها فى ثنايا قصائد الديوان ، وهى ذات دلالات .. مما يعنى به الشاعر . ونرجو ان نقرأ له مزيدا من هذا الشعر الحى فى صور تجديدية ، واخيلة تحلق بنا فى عالم الشعر الواسع ، بهذه اللغة المطواعة التى يمتلكها الشاعر ، وان يطلق لخياله العنان ليجوب فى عالم الفن الجمالى ، على هذا المنحى .. من الترابط القصيدى ، بموسيقاه وايقاعاته وترنيماتــه وسلاسة اسلوبه .

وقد صرفت النظر عن هنات يسيرة ، الى جانب بعض اخطاء التشكيل .. وضعت خطأ ، يدركها القارىء الواعى . وانى أحيى شاعرنا المجيد ، وارجوله مزيدا من النجح ، ومزيدا من العطاء الشعرى ، فى زمن .. قلت العناية بالشعر وقل المجيدون ، وندرت العبقرية ، وكسدت سوق الادب ، وعز القارىء الذى يبحث .. عن التراث ، وينقب ويجهد لاثراء فكره بجيد القول .

تأملات فى ظلال السماء

* لم يعد القارىء .. قادرا على متابعة ما تقذف به المطابع من كتب ، فيها الجيد والمتوسط والردىء ، الى جانب الصحف اليومية والمجلات الاسبوعية ، التى يهتم بها المتتبع لقضايا الفكر وهموم السياسة ، ويصاحب هذا وذاك ، التلفاز والفيديو والراديو ، بمعنى أن الزمن ضاق حتى الاحتراق .

والكاتب يهتم بالكتاب شراء واهداء ، ومن الصعب .. أن تقتنى كتابا فلا تقرأه ، ولا سيما .. ما يهدى اليك ، ذلك انك مطالب .. ان تقول رأيك فيه . ولا بد ان يسبق الرأى .. قراءة ممعنة مستأنية ، فيها الكثير .. من التأمل والاناة ، حتى يكون للرأى .. الذى يصدره القارىء .. المهتم بما وصل الى يده .. من انتاج وزن ومعنى ، وألا حاجةللغثاء ، لأنه كثير ولأنه محسوب .. على أصحابه ، شعراء وكاتبين ودارسين ، ان صح .. ان الدراسة التى أعنى يصدر عنها كلام لا قيمة له ولا يؤبه له . ومهما يكن من شىء فان المرء .. الذى يمارس الكتابة ، لا بد ان يقرأ وان يقرأ الكثير ، ما استطاع الى ذلك سبيلا ، والا فانه لن يقدم شيئا ذا بال ، لانه .. إما أن يقول كلاما انشائيا لا معنى له ، او يظل يدور حول نفسه فى الغاز ، لا يدرى هو .. ما يقول ، ولا يدرى القارىء شيئا مما يقدم اليه ، وانما .. يجد أمامه صفحات تطفح بها الصحف ، وربما ملأت الاثير بغير معنى وليس فيها غنى . وبذلك .. تضعف الحركة الفكرية ، فنجد كتبا بغير قراء ، وربما لا نجد نقادا يهتمون بما تخرجه المطابع .. من جيد الكتب ورديئها ، وبذلك يكون الكساد الفكرى ، وليس هذا فحسب ، وانما نجد ظاهرة اخرى اكثر خطرا ، وهى .. الجانب المادى الذى شغل النـــاس وأرهقهم ، فملك عقولهم ونفوسهم ، وشغل أوقاتهم ، فهم سائرون ومسيرون نحو هذا التيار الجارف .. الذى أتيح لهم وليس لهم بد منه ، ولا يستطيعون .. ان يصرفوا نفوسهم وعقولهم عنه .. الى غيره من شئون الحياة ، وخاصة الحياة

الفكرية . ذلك .. أن هذه الحياة التى يحيونها ، تجد بهم وتدفعهم دفعا .. لا هوادة فيه الى جمع المال واكتنازه ، وصرف اكثر اوقاتهم .. فى هذا الانشغال المادى الصرف ، والحياة نفسها كثرت مطالبها ، وتنوعت ابواب الانفاق ، وتغيرت ملامحها ، وارتفعت .. مستويات العيش فيها ، فاصبح الذى لا يجد ولا يكد متخلفا ومحتاجا وضائقا ، ليس امامه الا ان ينصرف مع الناس ، ليحيا مثلهم وينال ما ينالونه ، بقدر طموحه وعلى قدر سعيه ، وسلك الطرق المختلفة التى تحقق له .. ما يريد او بعض ما يريد على الاقل .

أترك .. هذه المقدمة التى يطول الحديث فيها ، لو مضيت على هذا النحو من التفكير .. فى هموم الحياة وشغلها الشاغل ، فانا أريد .. أن اتحدث عن ديوان من الشعر ، أهدى الى قبل عامين وشهرين ونصف ، قرأته قبل عام ، وهمشت على صفحاته .. بما عن لى من ملحوظات ، ولكنى لم افرغ اليه لاكتب عنه ، وأخشى .. ان يتهمنى شاعرنا صاحب هذا الديوان ، الصديق الاستاذ محمد هاشم رشيد ، بأنى لم احفل به ولم اقرأه ، ولو فعلت ذلك ، لقلت فيه رأيى ، لا سيما .. وانا اكتب كل اسبوع مرة ، او مرتين ولو سألنى .. لحرت فى الرد عليه ، وليس من اليسير على .. ان اختلق له عذرا قد يقبله وقد يرفضه . من اجل ذلك .. عدت الى ديوان الصديق الشاعر ، « فى ظلال السماء » . وصاحبى .. يعنى باسماء دواوينه الشعرية كما يعنى بشعره نفسه .

ويبدو .. من اسم هذا الديوان ، أنه ذو طابع اسلامى ، وتغلب عليه روح المسار فى هذا المنهاج القويم . وأنا أعترف .. ان التعرض لدراسة الكتب .. مسألة شاقة ، فهى تحتاج .. الى فكر والى ذوق ، والى انصاف ودراية واحاطة بالفن .. الذى يتناوله الكاتب بالدرس ، ثم يقول رأيه .. فى صراحة غير جارحة ، او فى تحفظ واحتياط ، حتى .. لا يفقد صداقة من يكتب عنه . غير انى أعرف فى شاعرنا ، الاستاذ محمد هاشم رشيد .. رحابة الصدر وسماحة النفس ، وسجاحة الخلق ، وحرصه على علاقاته مع اصدقائه ، مهما اختلفت الاراء فى الحوار الفكرى .

الديوان الذى بين يدى ، يعتبر الثالث للشاعر ، فقد سبقه ديوانه الاول « وراء السراب » قبل نحو .. من ثمانية وعشرين خريفا ، ثم صدر له ديوان ثان قبل اربع سنوات ، عنوانه « على دروب الشمس » . اما ديوان « فى ظلال

السماء » .. الذى أتحدث عنه اليوم ، فقد صدر .. فى عام ١٣٩٧ هـ . وصدر بعده ، ديوان آخر ، بعنوان « على ضفاف العقيق » ، وله شعر آخر ، ربما ضمه ديوان او اكثر ، الى جانب « ملحمة شعرية » ، عنوانها « على أطلال ارم » .

ديوان الشاعر فى ظلال السماء ، كتب مقدمته الاستاذ .. عبد الله فتح الدين ، وهى مقدمة جيدة ، تحدث فيها الكاتب عن رحلته .. مع هذا الديوان ، وأعجب بمحتواه ، حيث حلق الشاعر عبر أرض القداسات ونفحاتها العطرة وأجوائها الروحية ، ثم الى ما حولها شمالا وجنوبا وشرقا فى جزيرتنا الغالية ،

ذات التاريخ .. الحافل بالبطولات ، من منطلق الرسالة الخالدة ، خاتمة الرسالات السماوية . ولعل من مبالغات .. كاتب المقدمة قوله « وأشهد أننى كنت خلال هذه الرحلة ـ المذهلة ـ اعيش الواقع الذى ترسمه ريشتك المبدعة بكل نبضه وعنفوانه وحيويته . وربما عن لى .. أن اسأل الكاتب : عن وصفه ..

لمصاحبة ديوان الشاعر بـ « الرحلة المذهلة » .. فاذا كان .. يعنى الاعجاب بالشاعر وشعره فانا معه ، غير ان الذهول يتجاوز .. حد الاعجاب ، والكاتب

يقرأ قول الله تبارك وتعالى « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت » ؟ ، وحالة الذهول .. لا تؤدى الى الادراك والاستمتاع بالشىء ، وأنما هو الانشغال بما يدهى ، كما وصف الكتاب العزيز يوم البعث .. فرفقا .. يا أخى الكاتب بعقولنا ، حتى لا نذهل معك ، فلا نلوى على شىء نسأل الله العافية . ويقول كاتب المقدمة كذلك : « وصدقنى اذا قلت لك : إننى لم احس بالاسى والآلام كما

احسست بهما الان .. وانا اتصور أى عطاء دفاق كنت تمنحه للشعر العربى ، لو اتيح لك .. إن تفرغ للشعر دون أن تشغلك هموم الحياة ، وتكاليف العيش » .

وأنا لست مع الكاتب .. فيما ذهب اليه ، ذلك ان كبد الحياة والتفاعل معها ، هما الدفق نحو التعبير الجيد والتحليق ، مثل الماء المنساب ، روعته فى تجدده .. بتدفقه وجريانه ، وهو ليس فقط متجددا ونافعا صحيا ، وإنما يمتد نفعه .. الى سقيا الارض والانبات ، أما الماء الراكد ، فهو الآسن ، الذى يضر ولا ينفع .

أنا لا أريد لشاعرنا ان يركد ويعتكف يتأمل .. فى حدود ضيقة وانما الكدح والضرب فى الارض والسعى على الرزق ، هى روافد العطاء الجيد والتحليق والابداع . والمرارة والحرمان من دوافع التجويد والابتكار ، حيث تلتهب المشاعر .. بالتفاعل مع الحياة فى كد النفس وعنائها . والابداع .. ليس وليد تأمل فقط ، وإنما .. وليد معاناة ونصب . والنابغون عبر التاريخ لم يكونوا .. يعيشون فى دعة ووفرة عيش ، وانما شقاء الحياة ، جعل منهم مبدعين وعباقرة ومشاهير .

وأول قصائد الديوان بعنوان « لك الحمد » ، فهى تسابيح وتحميد وتكبير للحى القيوم ، والقصيدة الثانية عنوانها « أمام البيت » حديث على السنة الحجاج ، الذين يسعون الى ربهم ، يرجون رحماته وعفوه ومغفرته . ويدعو الشاعر ربه .. فى اخر هذه القصيدة ، فيقول :

فلا تدعنــــا فريقا	لا	ينتمـــى لفريق
بل موكبـــا مستفيقا	مع	السنـــى المستفيق
فاليـــوم نحـــن عرفنا	معنـــى	الاخــــاء الحقيقى

وأنا أقول لشاعرنا أننا عرفنا .. معنى الاخاء الحقيقى قبل أربعة عشر قرنا ، منذ بعث رسول الانسانية عليه السلام بشيرا ونذيرا ، وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا . فى مكة بدأ الاخاء .. بين الاخوة فى الاسلام ، فى ظل القهر والظلم والاستعباد وقوى وتجدد وتوطد واعلن جهارا فى بلدك الطيب ، المدينة المنورة ، وما الاخاء بين المهاجرين والانصار ، وذلك الايثار الذى أعلن .. من فوق سبع سموات الا الصورة التى عنيتها فى شعرك بقول الله عز وجل « والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما اوتوا ، ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة » .

ولو قال الشاعر بالامس بدلا من اليوم ، لقارب الصواب ، أو غير كلمة « عرفنا » بـ « ذكرنا » او نحو ذلك . نجد الشاعر يكرر كلمة « السنى » فى أكثر من موضوع ، حتى توشك أن تفقد بريقها ومعناها .

وقصيدة « فى بدر » ، وددت .. لو ان شاعرنا امتد به النفس فى هذا النشيد الجميل ، واحسب انه قادر .. ان شاء الله ، والصور فى بدر كثيرة

وحافلة بذلك الموقف الخالد ، بين الحق والباطل . وقصيدة « جبل النور » لم يعجبنى تكرار كلمة جبل .. الثانية فى قوله :

جبـــل النـــور يا جبل شب فى سفحـــه الازل

أما قصيدته « أصداء العقيق » فجيدة ، وكنت أتمنى لو ان الشاعر اطلق لخياله العنان ، فحلق ، وابدع ، فالعقيق صور وذكريات ومعان وتاريخ وغناء وهيام ، فهل الشاعر .. ترفع عن ذكر السوانح وتموجات هذا الوادى بالعطر والليل والهوى والربيع والشباب والاحلام والامانى ، والايام الخوالى ؟ ربما لان عنوان الديوان ــ فى ظلال السماء ــ فحد الشاعر من انطلاقته ، وهو العارف .. بتاريخ وادى العقيق واماسيه وأنغامة وعشيه وبدوره ونجومه ، وما ترع فيه من هينمات حالمة وسنى . ولعل فى ديوانه « على ضفاف العقيق » ما ينقع غله الصادى فى نبش الذكريات ، والايام الخالية . واستدرك ، فاقول ، ان هذا الديوان .. الذى أقف على شواطئه اليوم ، فيه للحب ربيع ، وهى قصيدة جيدة . فهو يقول :

لا تقولى : ذهب الحلم البديع
من يدينا
ودفنا .. تحت انقاض الربيع
مهجتينا
ومضينا

جميل جدا تعبيره ــ تحت أنقاض الربيع ــ حيث السندس والنور والجو العليل . ان هذه القصيدة بديعة رائعة ، تعبيرا رقيقا ومعانى وموسيقى ، ذلك .. ان الشاعر ترك نفسه على سجيتها ، فكان هذا الابداع وهذا التصوير الاخاذ ، فى هذا التفنن البهيج . وليت شاعرنا بدل كلمة سكب ، وقلل من استعمالها ، ويبدو أنها لازمة من لوازمه مثل كلمة سنى ، ولكنهما لا تغضان من تجويده وحسن ادائه .

وقصيدة « النبع المقدس » من جيد شعره ، غير أنى الاحظ أن أناشيد شاعرنا قصيرة الانفاس ، رغم أن المجال الذى يتحدث فيه .. آفاقه واسعة ،

يطول الحديث فيه لو شاء ، فلماذا يوجز فى مواقف تتطلب طول الوقوف اتراه .. يخشى الاخفاق والتكرار ؟ انا اعرف انه مجيد وذو نفس طويل .

ومع هذا الدعاء « يارب » يقول الشاعر ، ويكرر قوله :

الحمـــد منـــك اليكا وان تعـــالى النداء
فكيـــف نثنـــى عليكا ومنـــك أنـــت الثناء

ولست فى حاجة .. الى ان اذكر شاعرنا باننا تعلمنا ان نقول « لا نحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » . فالثناء على الله ، حمدا وذكر نعماء فهو المنعم الخالق الرازق الحى القيوم موجب الثناء عليه سبحانه وتعالى اعترافا من المخلوق بفضل الله ، « ان الله لذو فضل على الناس ولكن اكثر الناس لا يشكرون » . فالحمد لله ، حمدا يليق بمقامه وجلاله .

إن ورق هذا الديوان صقيل جميل ، ملون ، وليت هذا الجمال صاحبته حروف مثلها ، عرفتها .. دواوين الشعر ، اما حروف هذا الديوان فهى مما يصنع فى الصحف وما اليها من كتب النثر ، غير إن للشعر .. انماطا اخرى من الحروف .

وفى « الجمال الاصيل » ص (٥٤) ، يقول شاعرنا :

وبعينيـــك ذكريـــات صباح
كان طهـــرا .. يروى القلـــوب رويا

ربما كانت القلوب .. فى حاجة الى شفاء ، اكثر منها .. حاجة الى الرى ، فذلك الاشعاع .. من العيون ، ربما ادمى وجرح . وربما آسى وداوى . ويقول الشاعر فى هذه القصيدة :

بورك الشيـــب ان تلألأ نورا
فى جبـــين .. به الشعـــاع يذوب

والذى أعرفه ، أن الشيب الذى هو فى الشعر ، لا يكون فى الجبين وانما فى الرأس وعلى الاصداغ واللمة ، ما فوق الجبين .

وفى قصيدة « المناضل الصغير » ، يرسم الشاعر .. صورا جميلة فى هذه

الرائعة القوية ، وهى نتيجة انفعال وتأثر فى موقف استحق هذه الحماسة من الشاعر ، والقصيدة تقرأ .. من عنوانها ، فهو يقول :

صديقـــى الصغـــير .. على م الخفر
وخلـــف خطـــاك .. يســـير الظفر
تقـــدم .. تقـــدم .. وهـــات الذى
بكفـــك .. لا تتشـــح بالحذر
« ريـــال » ؟ وفى م اذن تنتحى
بعيـــدا .. عن الموكب المستعر ؟
تقـــدم رفيـــق الكفـــاح المبارك
أنـــا على الموعـــد المنتظر
أبـــارك فيـــك معانـــى الندى
وكنـــز بطولتنـــا المدخر
طفولتـــك استشرفـــت للذرى
ولـــم تكتـــرث بالدمـــى والاكر
صديقـــى المناضـــل لا تبتئس
فمـــا بعـــد هذا النـــدى من وطر
فلـــو اننـــا قد صنعنـــا الذى
صنعـــت .. وجئنـــا بمـــا ندخر
لكنـــا .. ولـــكن على م الاسى
وقـــد لاح فى الافـــق فجـــر الظفر ؟

ليت هذه الامانى تتحقق ، وليت هذا التصوير يصاحبه واقع فقد أخذت الامة العربية تتمزق ، وتشهر السلاح فى وجوه .. بعضها بعضا بدلا .. من أن تتكتل وتكون صفا واحدا وقلبا واحدا ويدا واحدة فى وجوه الاعداء ، فى افغانستان وفلسطين وارتيريا وفى كل مكان ، يمزق فيه المسلمون ويطحنون ويقتلون . وهل تنفع ليت ، بغير عزم وايمان ومبدأ ؟ وأتساءل ، وربما بحثت ودرست .. هل الشقاق .. طبع فى العرب ؟

إن مثل هذا النشيد عن المناضل الصغير ينكىء الجراح ، ويثخن النفوس

فتسقم ، مما تشاهد وتسمع . فرفقا بنا يا أخى ، ونحن لسنا قوارير ، ولكننا مرضى ، وشفاؤنا فى قول رب العزة « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » . ويكرر القرآن « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » . فهل سمعنا وأطعنا ؟ نعم : لقد سمعنا ولكنا .. لم نطع ، فحق علينا الفشل ، وذهاب هيبتنا ، وقنعنا بأن نجتر الماضى كما يفعل الجزور .

* وقصيدة « عودة الغريب » جيدة رغم رمزيتها ، ولكنها رمزية مقبولة ومعسولة إن صح هذا التعبير .

* وقصيدة « حبنا نحن » ، لم أفهم قول الشاعر :

فحبنـــا نحـــن أشـــواق مطهرة
كان الضيـــاع بهـــا أحلى من الرشد

كيف تكون اشواق مطهرة ، وكيف ان الضياع احلى من الرشد ؟
فهل للضياع معنى معاكس ، اى ضد ؟
ويقول الشاعر من هذه القصيدة :

فقـــد وحـــد الصيـــام خطانا
ومنانـــا .. برغـــم أنـــف الاعادى

* والصيام جزء ، وقد فرض على أمم سبقت ، والذى وحدنا هو التوحيد ، إسلاما وايمانا . واتساءل : ما علاقة الصيام بالخطا ؟ وما المقصود بالخطا هنا ؟

* وصدق الشاعر ورب الكعبة فى قوله ، من قصيدته « سر النصر » :

فالنصر للايمـــان .. للفئـــة التى
تمشى على السنـــن القويـــم الاطهر

* وعن « الرياض » ، يقول الشاعر ص (٨٢) :

كان حلمـــا أن أراها
وأرى دنيـــا هواها

* فهل صحيح هذه الصورة ؟ وماذا يحول بين الشاعر ورؤية جزء من بلاده ؟ وأقول ان التفعيلات القصار ، أدت الى نسق جميل وموسيقى عذبة عبر هذا التحليق ، فى قصيدة الرياض .

* وجميل جدا ورائع .. هذه المقابلة ، فى « موطنى الاخضر » ص (٩٢) قوله :

بنيـــت الـــذرى .. فوق هام الذرى
وفـــوق الحيـــاة .. صنعـــت الحياة

* انه شاعر ملهم ، الذى يأتى بهذا التعبير ، ويقول منها :

على ربواتـــك يزهـــو الصباح
وفـــوق سهـــولك .. يسمـــو النغم

* وننهى هذه الوقفة ، بملاحظة عن قصيدته « فى ظلال السماء » التى سمى بها ديوانه ، وذلك فى قوله :

ربـــاه .. يا خالـــق الاكوان نحـــن هنا
نسعـــى .. كمـــا سعـــت الاســـلاف من قدم
لم نختلـــف صورة عنهـــم .. وإن عبثت
بنـــا السنـــون .. فعشنـــا فى دجـــى الظلم

أقول لشاعرنا ، نعم نحن نسعى ، ولكن هذا السعى يختلف .. عن سعى الاسلاف الصالحين ، والقرآن يقول « وأن ليس للانسان الا ما سعى وأن سعيه سوف يرى » . ففرق بين سعى وسعى ، وانظر الى هذه الصورة فى قوله تعالى : « وانا منا المسلمون ومنا القاسطون » ، وقوله « وانا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا » . فيا سيدى لا ذنب للدهر ، وإنما نلوم أنفسنا التى لجت بنا فتهنا فى الظلام .. الذى وصفت ، وحولنا النور يشع ، وقد عشيت أبصارنا . وانت تقرأ قول الشاعر :

نعيـــب زماننـــا والعيـــب فينا
ومـــا لزماننـــا عيـــب سوانا

وتقرأ الكثير .. فى هذا المعنى ، فى كتاب الله والسنة ، وهل أدق تعبيرا وصدقا من قول الله تعالى : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » ، وأنت تتراجع ، وترجع الى الطريق حين تقول من قصيدتك التى عنيت :

فاجمـع شتـات القـوى .. يارب فهـى قوى
تبـددت .. حـين تاهـت عن خطـى النور
ولـم تسر فى طريـق الحـق .. وانحرفت
بهـا المتاهـات .. فى أحـلاك ديجور

وبعد .. فهذه وقفة مع هذا الشعر الجميل الصادق المحلق الرائع ، ذكرت بعض ما تراءى لى من هنات وبعض الجميل فيه ، وجميله كثير . وليس جديدا ولا كثيرا أن اقول لشاعرنا لا فض فوك ولا بر عادوك . فشعرك حى ، وانت جدير بالثناء والتقدير والحفاوة ، وانت شاعر ومجدد ومبدع . وأخطاؤك يسيرة ، وانت وانا نخطىء .. لانا بشر . وروحك الباشة ، وصبرك وحبك موضع تقدير واعزاز وحب وود ، فانت محب متواضع بسيط . وتلك ميزات الاديب الحق ، حين يتحلى بهذا الخلق ، فلا يكابر ولا يتكبر ، وانما نفسه الوادعة مقياس خلقه ، لانها صافية شفافة ، كاللجى العذب ، طبت ولازالت ايامك تتغنى وتترنم وتسبح بروحك وخيالك الصافى . فتأتى بهذا الرحيق ، فننتشى به . ونحلم معك ، وندندن على سيمفونيتك معك، بهذه الانغام العذبة ، الملأى حيوية وحبا وايثارا وهوى لا يخلق ولا يشيخ . تحية للشاعر المتفنن .. محمد هاشم رشيد ، والى نادى المدينة الادبى ، الذى يقدم هذا الانجاز الادبى على مائدته الشهية ، وأرجو أن يتاح لى التوقف .. بعض الوقت ، مع المزيد من اصدارات النادى التى أفضل فأهداها الى ، وتحية لاخى وصديقى ، رئيس النادى المربى الفاضل ، والاديب الكبير ، الكاتب الشاعر الناقد ، الاستاذ عبد العزيز الربيع ، ولاسرة الوادى المبارك التى أصبحت أسرة نادى المدينة المنورة الادبى .

أيام من العمر

* في هذا العصر المادى الصرف ، الناس .. بين فريقين ، أحدهما يرى .. أن عهد الشعر قد ولى وأن الأدب كسد ، وفريق آخر يرى .. ألا حياة بغير أدب ، قصة وقصيدة ومسرحية ومقالة وبحث .. إلى آخر معطيات هذا الفن .

وعندى أن الأدب بعامة .. لاينتهى إلا إذا انتهت الحياة الدنيا .. التى يعيشها الانسان ، فلا أتصور حياة مادية صرفة لانصيب للأدب فيها ، كما لاتكون حياة .. بمعناها الجامع بغير مال قل أو كثر . وقد يطغى جانب على آخر عبر التاريخ ، فيرتفع هذا وينخفض ذاك ، وهذا الطابع من الحياة يفقد التوازن .

وعبر العصور الطوال حدث ركود فى الأدب ، مثل عصور الانحطاط وشح فى المال ، كما حدث ازدهار أدبى ومادى .. فى العصر العباسى « مثلا » . لأن الاهتمام بالمدنية لم يصرف الناس .. عن الأدب والعلم فى ذلك العصر الذهبى ، وإنما كانت حضارة شاملة .. اهتمت بمختلف جوانب الحياة العامة .

غير أن الثلث الأخير .. من القرن الرابع عشر الهجرى شهد ركوداً فكرياً ، وأمتد هذا الركود .. إلى اليوم ، وسيمتد .. ما أنصرف الناس إلى المال ، تاركين غذاء الروح ، بغير توازن .. فى المواءمة بين هذا وذاك ، وهى حياة فارغة راكدة ، ذلك أن المال وحده .. ليس مجلبة للسعادة ، وإنما هو ثراء فى جانب ، أى قطاع .. من الناس أغنياء وقطاع آخر .. يلهث ليل نهار للوصول إلى التشبع المادى بشتى السبل ، وقد ينال نصيبه منه ، وقد يظل يسعى .. فى سبيله ، لايكل ولايمل . ولعل الحياة نفسها .. فرضت هذا التكالب على المال فى سباق متصل ، لأن تكاليفها ارتفعت وكثرت أبواب الانفاق .. فيها .

ولا أتصور حياة .. بمعناها الشامل تفرغ من الفكر ، فاذا حدث ، فانها تصبح لامعنى لها ولاطعم . لكن الذى يحدث ، ومانشاهده اليوم .. هو هذا

الركود ، وأسبابه كما أشرت انصراف الناس .. على نمط شبه كلى إلى غير الأدب ، وبقى القليل فى المجتمع يعنى بالفكر ، بحكم الارتباط والمكانة الأدبية ، التزاماً ومساراً ، بجانب الانشغال بشئون الحياة .. وهمومها ، وكأنه الحياء فرض على أناس .. ألا يتخلوا عن السير فى درب التزموه ، وقنعوا به ، ولم يفت فى عضدهم هذا التزاحم على الحياة المادية الصرفة ، حتى لاتخلو الساحة وهم .. مايزالون قادرين .. جهد المستطاع ، أن يشاركوا .. ولو بجهد المقل .

لكن الخطر يأتى .. حين يختفى هؤلاء وهم البقية الباقية ، ثم لايكون بعدهم أنماط من الناس يؤدون هذه الرسالة ، أو يؤدونها .. مشلولة مبتورة ، فتظل الحياة الفكرية .. فى ركودها ، حتى يقيض لها جيل أو أجيال تعيد اليها دورها الكبير ، بنهضة فكرية ، لاتشغلها المادة ولاتكون شاغلها الوحيد ، وربما .. انخفضت حدة الصراع على جمع المال ، وحينئذ يفرغ للفكر من هم جديرون بحمل مشعله واشعاعاته ، لتضىء الحياة حين تضىء النفوس من داخلها ، فتكون تلك الملاءمة .. بين المادة والروح .

إذن فالأدب لاينتهى ، وإنما يضعف ويقوى .. تبعاً لظروف الحياة واهتمامات الناس ومدى توازن هذه الاهتمامات ، ومدى تأثير جانب على جانب أوجانب فى آخر . أما الحاجة ، فلعل حاجة المال أقوى من غيرها حسب الطبيعة البشرية ، التى لا أريد أن أمضى فيها طويلا ، أعود إلى الحديث .. عن عنوان هذا الموضوع ، وهو اسم لديوان شعر ، لشاعرنا الأستاذ محمود عارف ، الذى أصدر .. ثلاثة دواوين ، ثانيها – أرج ووهج – وثالثها « الروافد » ، وقد صدرت الدواوين الثلاثة فى وقت واحد ، قبل شهر ، وقد صدر للشاعر .. قبل ذلك ، أربعة دواوين ، أولها المزامير فى عام ١٣٧٨ هـ ، ثم .. الشاطىء والسراة ، و – فى عيون الليل – وعلى مشارف الزمن . والدواوين الثلاثة هذه ، صدرت .. خلال العامين المنصرمين عن نادى جدة الأدبى والمكتبة الصغيرة وفرع جمعية الثقافة والفنون بجدة ، أى أن كل جهة أصدرت له ديوانا . أما الديوان الأول « المزامير » ، فقد صدر ضمن السلسلة الثقافية .. التى كانت تخرجها صحيفة « الأضواء » ، التى كانت تصدر فى جدة قبل بضع وعشرين سنة . والدواوين الأخيرة ، أصدرها الشاعر على حسابه الخاص ، وطبعت فى مصر .

كتب مقدمة الديوان الذى بين يدى ، الشاعر والناثر ، الطبيب عارف قياسه ، وهى مقدمة شاعرية ، تحدث فيها عن الشعر ، وتساءل أو أشار .. إلى أن بعض الناس يتصورون ألا مكان للشعر اليوم فى هذا العصر المادى ، ويرد الدكتور عارف ، أنه رغم انشغال الناس وكدهم وجدهم ، فهم لاغنى لهم عن الشعر والأحلام ، « وإلى فن رفيع آخر ينقذه ــ أى العصر ــ من التردى .. فى المتاعب والاسقام ، وحين يشتد الظلام » .. هذا مايقوله الأستاذ الدكتور عارف قياسة ، وهو رأى صائب لاجدال فيه ولامراء ، ويستشهد الدكتور عارف ببعض أبيات من الديوان .. فى مقدمته الرشيقة الرقيقة الدقيقة وحين يتحدث عن الحب الذى ملأ قلب صاحب الديوان ، يقول الدكتور قياسة : « والذى يحب كثيراً ، يتألم كثيراً » وهو تعبير شاعرى مجنح أخاذ ، ذلك أن كاتب هذه .. المقدمة شاعر رقيق مطبوع ، ملأ قلبه ونفسه الحب ، فهو يصور خلجات نفسه الشفافة ، ويتأثر ويأتى تعبيره دقيقاً جميلا ، على حد تعبير ايليا أبى ماضى : « كن جميلا تر الوجود جميلا » ويكمل الدكتور قياسة حديثه فى المقدمة ، وهو يتحدث عن صاحب ديوان « أيام من العمر » فيقول : « « ولعمرى : أن من يعرف الشاعر .. محمود عارف حق المعرفة ، يدرك أنه لم يرسم فى شعره سوى صورته الحقيقية ، ولقد رسمها .. بكل صدق وأمانة واخلاص » .

ولن أقف طويلا عند قصائد الديوان ، وإنما أسوق نماذج .. من الشعر الحى ، ثم أترك للقارىء أن يتأمل حين يقرأ الديوان ، فقد يكون فى غنى .. عما أسوقه إليه أو أدله ، وقد أتهم أنى أجامل أستاذى وصديقى حين أثنى على شعره ، أو أبالغ .. فى الحديث عنه .

فقصيدة « همسات البحر » مطلعها :

يا شراعاً فى زورق الأشواق   يتهـادى فى نشـــوة واصطفاق

ثم يقول :

هل رأيت المجداف كيـف يغنى   ويناجـى الأمـــواج كالمشتاق ؟
ها هنا البحــر موجـة تتحرى   موجـة والصفـاء عبـر العناق

فالشاعر .. صديق للبحر ، عاش ملتصقـا به فى شبابـه وصبـاه

وشيخوخته ، فهو سميره مع البدر فى ليالى الأنس والمرح والتأمل والخلوة والانطلاق ، هروباً من متاعب الحياة وهمومها ، فالبحر رغم أخطاره ومخاوفه ، أنيس للشعراء والكتاب ، فيه الصفاء وعظمة الخالق .. سبحانه وتعالى ، تتلاقى زرقته مع زرقة السماء .. فى الأفق ، فيكون هذا الانسجام فى الرؤى ، وهذه اللوحة البديعة ، فسبحان الصانع المبدع .

وأعجبنى قول الشاعر من هذه القصيدة عن إبائه ، حتى فى المواطن .. التى يضعف فيها الانسان ، لكن شاعرنا يرفض هذا الضعف ، ويرفض الخضوع إلا لله ، فيقول :

كل شىء يطيب فى الحب لكن	عفت فيه الخضوع باسترقاق

ويحفل الشاعر بالعيد لأنه فرحه ، وكان للأعياد طعم ومذاق ، أيام .. كانت الحياة سهلة هينة لينة ، ولم يفقد العيد بهجته ومتعته وعبقه وغبطته ، وإنما النفوس هى التى فقدت التذوق ، وفقدت الاستمتاع بزينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق ، كما جاء فى الكتاب العزيز .

يقول شاعرنا من « ذكريات العيد » :

أو أننى فى فمى القيثار أغنية	مجروحة ، وبقايا الجرح فى كبدى

إلى أن يقول :

حسب المكافح فى الدنيا مجالدة	وماتنقص إلا وصمة الجهد
ماذا هو العيش، ماتفسير غامضه	أن لم تكن قوة تأتى على بدد ؟

ويقول كذلك من هذه القصيدة ، وهو يورد حواراً بين القلوب والعقول :

والحل فى الأمر بين الناس مفترض	ورب مفترض حل لمجتهد
طبائع الناس أشتات مبعثرة	ورب منفصل يهفو لمتحد

ويستطرد ، فى الحديث عن « ذكريات الفتى » ، وفلسفة العيش ، ومنطق الناس فيه ، فيقول :

أنت الحيــاة نداءاتارددها	للأمس، لليوم، للذكرى، ليوم غد
أرومــة الأصـل أزيـاء لواقعنا	ولوحة الحسن ابداع من الأحد
هذى البراءة فى عينيك أحسبها	نبعاً لشلال ، لم أصدر ولم أرد
كل النفوس الظوامى حوله رويت	ألا فؤادى لم يظمـأ من الرغد
أحلى الأمانى عذارى الفجر تحملها	إلى المعاميـد أشواقـاً من المدد
لم يبق فى ساعة اللقيا سوى وشل	من المعاذيـر لايرضـاه ذو غيد
غـير العـلالات أوتـاراً مقطعة	مبحوحة اللحن قد صيغـت من الوتد

هذه هى أنغام شاعرنا ، ليس فيها نشاز ولانبوء لاتسيغها الأذن العربية ، وهى تنصت إلى هذا التطريب الموسيقى فى هذه التعابير المنتقاه ، والألحان العذاب ، وهذه السهولة التعبيرية الرقيقة الشفافة العبقة ، فشاعرنا مجدد ابتداعى ، يحلق فى عالم الأحلام والشعر ، فتأتى له هذه الصور ، تنداح .. فى تعبيراته المجنحه المرفرفة فى تماوج جميل ، كأنه اللحن فى النور ، على صفحات نسيم فى سحر جميل .

ومن قصيدة « سطوح وأعماق » يقول الشاعر :

وأرتمـى حانيـاً نسيـم صباح	فأشتكى الدوح ما أثار الحفيف
الـــدوالى حول المنابـــع أحلا	م ربيـــع له الوجـــود أليف
فى لباب الوجـود معنـى عميق	زاد فى عمقـــه هوى محفوف
الرؤى والجمـال بعض مجاليه	فيسمـــو تليـــده والطريف
حسب البـدر لوحـة من جمال	فتسـاوى فى وصفـــه الموصوف
ويظـــن الأعمـــاق مسرح حلم	ومجـال الأعمـــاق درب مخيف
لن تنالـوا الأعمـاق الا بصدق	هكذا الحر ، والضمـير العفيف

أننى بهذه الاستعراضات فى قصائد الديوان لا أقف دائماً ، وأنما أتوقف عند بعض الأبيات فأنقلها ، لأقدمها .. إلى القارىء ، وربما عن لى بعض التعليقات الخفاف ، وليرجع إلى الديوان من يريد المزيد ، فيتأمل ويقرأ ، ويسبح مع الشاعر ، يحلق به مايشاء الله له أن يحلق .

و « من نور المحراب » قصيدة أخرى ، ننقل منها ثلاثة أبيات هى :

لكن ورد الـروض وهـو مجرح ... في خده .. متقطـع الأسباب
يلقـى على السمـار حر شعوره ... في همسه .. رقت كمـا الاهداب

ولم تعجبنى كلمة « كما » هذه فى هذا الموضع ، وحتى فى النثر ، فانها تستعمل استعمالا سيئا .. على أسنة أقلام الكاتبين ، ومنهم المتمكن من فنه ، والبيت الثالث والأخير .. فى القصيدة ، قوله :

وفضيلة التقـوى محجـة مؤمن ... تقـواه نبـع من سنـا المحراب

ونصل .. إلى قصيدة « أيام من العمر » التى سمى بها شاعرنا ديوانه ، نقتطف منها أبياتاً غير مرتبة التسلسل ، وأنا لاأعنى بهذا التسلسل ، وانما أنقل .. مايتجاوب ونفسى ، تاركاً البقية للتأمل والمراجعة :

طاب جهد الانسان أن رام خيراً ... لأخيـه الانسـان مادام ود
فرحة القلـب بالهـوى نبضات ... بـين أحساسنـا تروح وتغدو
تتحـرى بالطهـر بيض الأمانى ... كلمـا رف فى المشاعـر زهد
قد كرهنـا درب الخصـام وهذا ... موكب الالتقـاء يحـدوه رشد

إلى أن يقول :

والتقاء الضديـن يحـدث وصلا ... سالباً موجباً وفى العـكس طرد
ونعيـم الأيـام فردوس عمر ... ومتـاع الغـرام شوك وورد

موازنات ومقابلات جميلة فى هذه الصور المتحركة فى نغم منساب ، مثل خرير الجدول الرقراق ، يهدهده النسيم الوسنان . ويمضى الشاعر فى القول :

صقلتها الأهداف معنـى وروحاً ... وجلاهـا خيالهـا المستبد
مابهـا لوثـة وأن كانـت الأهدا ... ف بشرى للخير ، والخير قصد

ويعود الشاعر إلى العيد ، بل العيد يعود .. مع الأيام ، فيقف الشاعر .. متأملا فى معانيه ومغانيه ، ومايجرى فيه من سرف وبذل ومظاهر ، فيقول :

العيد عنـدى أن تحيـا بلابطر ... وأن تجـود بلا من ولا دخل

والشاعر فى هذا التعبير ، ينحو منحى الفضيلة ، فلايريد الكبرياء فى العيد ، ولا المن فى العطاء ، ولا العجب ولا العيب والريبة ، وانما يريد الانسان المسلم أن يكون سمحاً معتدلا جواداً ، كريم النفس والطباع . ويمضى فى القول على نفس الوتر .

مظاهر العيد ليست لهو ذى بطر — والنفس بالجد تسمو ليس بالهزل
وأحقر الناس من يغريه مبتذل — والعيد أرخصه يعنو لمبتذل

وكان الصديق الدكتور عبد الله مناع ، رئيس تحرير مجلة اقرأ ينشر فى صحيفة « الرائد » قبل عشرين عاماً ، ولعل الدكتور .. لايريد كشف هذا الحساب لأنه يكشف عن العمر ، كان ينشر قصة .. مسلسلة « على قمم الشقاء » فأوحت هذه القصة للشاعر بقصيدة ، باسم القصة نفسها ، كأنه أعجب بالقصة أو هزته معانيها وتفاصيلها وظلالها ورؤاها ، فقال متجاوباً مع القاص ، ليلتقى الخيال بالواقع ، أو الواقع بالخيال :

على قمم الشقاء وقفت وحدى — أسجل للخلود كتاب مجدى
سواد حروفه من نور قلبى — ونضح عبيره من روض جهدى
صراع فى صراع مستديم — كومض البرق من مشحون رعد
وفى بستان أحلام العذارى — زرعت الشمس فى أحضان ورد
وفى آفاق أحلام الحيارى — ضياع فى ضياع مستبد
على قلمى سحائب مثقلات — تفيض مشاعراً من غير حد
وأهل الفكر مشغولون فيما — شقوا من حمل آلام التصدى
لقد صهرتهم البلوى فكانوا — كذوب التبر مصهور بوقد
وماعرفوا النعيم لهم ملاذا — ولكن الشقاء مسار كد
شئون العيش فى الدنيا تراها — سراب بقيعة من غير ورد
ومن ربط المحبة بالتصاق — وكان شعاره ميثاق عهد
قضى الأيام فى حلو الأمانى — وصفو العمر يجلو كل حقد

كان الشاعر يقول أو يرمز ، بأن صديقه المناع لم يقف وحيداً على قمم الشقاء أيام كان يكتب قصته ، ثم يعرج الشاعر إلى وصف أهل الفكر وعنائهم ،

وأنهم أشقياء من حمل الآلام التى تأتى من شفافية نفوسهم وعمق تفكيرهم ، وقد امتحنتهم الحياة وهمومها ، فأنصهروا فيها ، ولم يعرفوا إلى النعيم من سبيل ، غير أن الحب والصفاء والوفاء بالعهد تأسو من الهموم ، وتهيىء شيئاً من الرضا ، فيمضى المفكر فى حلم الأمانى ، وصفاء الرؤية ، ينزع الأحقاد .

وفى قصيدة : « قالوا .. » يأخذ الشاعر فى هذا الوصف المناسب كأنه فى حوار ، وكعادتى أنتقى أبياتاً بعينها ، أراها شاهداً للجمال التعبيرى والوصفى ، فى صورها ومعانيها :

فهل رأيت حبيبى وهـو مبتسم	كالورد يضحك من لثم الشآبيب ؟
إن شئت تعرفه فالحسن زخرفه	بطابع السحر فى احساس موهوب
للبرتقـال .. أزاهـير مجنحة	كأنها الحب فى شتـى الأساليب
لون الحبيب كلون البرتقال فهل	معناه فى اللون أم فى نفحة الطيب؟

ويجنح الشاعر إلى قافية صعبة ، ولكنه يجيد فيها النسق الشعرى والتحليق والوصف ، وعنوان القصيدة « تجاريب » والتجارب درس طويل ، ذلك .. أنها معايشة فى رحلة الحياة الطويلة القصيرة معاً ، وهى محك امتحانى ، وصهر ، يبدأ الشاعر قصيدته بقوله :

صفالى الدهر بالخدن الغضيض	ورق العيش كالـروض الاريض

والخدن ، الحبيب والصاحب ، ولعل الشاعر .. يريـد بالغضـيض الطرى ، وليس .. الناقص الذليل ، والروض الاريض ، الكثير العشـب الزاهى ، فيحسن فى العين ، منظراً وجمالا .

ثم يقول :

شربـت مرارة الايـذاء حتى	الفت المر فى العيش الغضيض
نهضـت لارتقـى شم المعالى	فخان الحظ فى الزمن العضوض
حيـاة البخـل تدفـع للتدنى	وأسمى المجد فى الـكرم المفيض

ويختم قصيدته بقوله :

رجعـت من التجاريـب الغوالى	أحاسب فى الصواب وفى النقيض

يبدو أن الحديث طال ، وأنا لم أبلغ نصف هذا الديوان الحافل بالمعانى والرؤى ، ولكنى مضطر أن أتركه خشية الاملال ، وتكفى هذه الوقفة القصيرة .. فى تصورى ، ولكنها .. تضمنت شيئا ما ، عن عالم الشاعر واهتماماته ورحلته مع الشعر ، وهى رحلة تبلغ نصف قرن ، ولكنها ماتعة جامعة بين الخيال والأحلام والواقع والمعايشة ، تجارب وخبرة واختبار ، أدت إلى هذا العطاء .. الجيد ، الجميل .

وأرجو أن يتاح لى وقفات أخرى مع الديوانين الآخرين اللذين أشرت إليهما .. فى أول هذا الحديث ، وأرجو أن نقرأ له نماذج من نثره ، فهو جيد فيه كاجادته .. فى شعره ، الذى نتمنى له الذيوع والانتشار ، وتحية لشاعرنا .. الأستاذ محمود عارف ، الصديق المحب الوفى ، السمح الطبع والسجايا ، مد الله فى عمره معافى سليما .

بدوي الجبل

فى مطلع شهر أكتوبر الماضى ١٩٧٨ م صدرت الأعمال الكاملة ، كما يسمونها اليوم ، وهى حصيلة الشاعر السورى « بدوى الجبل » محمد سليمان الأحمد .

ولد الشاعر .. فى الجبل العلوى من أعمال اللاذقية ، وكان أبوه كما يقول الأستاذ « أكرم زعيتر » كاتب مقدمة ديوان .. شاعر الجبل ، كان سليمان الأحمد فقيها ولغوياً وأديبا ، وكان « مبجلا فى قومه ، والولد محمد .. ماتتلمذ فى حداثته لمدرسة ابتدائية فى الجبل واعدادية .. فى اللاذقية ، على قدر .. ماتتلمذ لأبيه فى ديوانه .. الذى تعبق فيه طيوب الشاعرية ، حتى .. ليجىء أولاده الثلاثة : محمد وأحمد وفاطمة شعراء » .

هاته الكلمات من بداية حديث الأستاذ زعيتر ، فى مقدمة ديوان .. بدوى الجبل التى بلغت ستين صفحة .

تتحدث هذه المقدمة الطويلة ، كعادة المقدمات وكتابها ، عن مولد صاحب الأثر ، ونشأته وتعليمه وذكائه ، وتفتق شاعريته ، ومطالعاتــه .. لشعــر القدماء ، ومن مدحهم وتعرف عليهم من الزعماء ، وما أبلى فى حياته ومابقى .

على هذا المنهاج تحدث أكرم زعيتر فى استطراد ، عن شاعر الجبل والاستعمار .. الذى كان فى بلاده ، ودور كفاح المواطنين .. ضد المستعمر الغاصب ، ودور الأدب فى هذا النضال ، وخاصة الشعراء الذين .. يشنون حرباً ضارية ضد الغزاة ، ويلهبون حماسة الشعب ، لينهض مقاتــلا ، شجاعاً .. لايهاب ، لاسترجاع أرضه وطرد الدخلاء ، ومايلقى الشاعــر والأديب .. على أيدى الاستعمار من تنكيل ونكر ، وسجن وهوان وتشريد واعتقالات ، ومطاردة وتعذيب . كل هذه المعانى يسوقها .. كاتب المقدمة وهو يتحدث عن الشاعر وحياته ، وحركات بلاده قبل الاستقلال وبعده ، وعن مواقف الشاعر ودوره .. فى محاربة المستعمر ، واستنهاض الهمم والالتفاف ..

مع المجاهدين .

ثم يتحدث بعد ذلك .. عن الشعر .. الذى يكتب مقدمة له ، ويأتى بمطالع بعض القصائد ومناسباتها ، ومن قيلت فيهم وآثارها ، وبروز الشاعر حين بعد صوته ، وتعرفت إليه أندية الأدب ورواده ، وما نال .. فى مدحه من جوائز .. وتقدير ، وأسفاره وغربته فى أوروبا والآستانة وحنين الشاعر ، وشوقه إلى بلاده ، والتهاب قريحته .. بجيد الشعر من لوعة البعد والفراق ، إلى غير ذلك .. من الجوانب التى عنى بها كاتب المقدمة عن شخصية الشاعر ، قبل أن يغوص فى قراءة شعره ، ليلم بمواقفه ومناسبات القصائد التى وقف الكاتب .. على مطالعها وبعض أبياتها ، شارحاً ومتحدثاً من واقع معرفته للشاعر ، ومن واقع الصداقة .. التى تربط بينهما .

ويمر فى حديثه ، بأن الشاعر .. تعرض للموت .. بعد أن أطلق عاصفته أثر هزيمة ١٩٦٧ م ، التى عنوانها من وحى الهزيمة .. فى مائة وثلاثة وستين بيتاً . يقول كاتب المقدمة « وذات صباح .. كان البدوى يمشى على عادته فى الرياضة اليومية ، وإذا بشرير يهوى على رأس الشاعر بطعن دراك ، أفقده وعيه ، ونقل محطماً .. إلى مكان خفى ، وباءت بالاخفاق جهود موصولة .. للعثور عليه .. حياً أو ميتاً ، ولكن انذاراً صارماً وجهه وزير الدفاع السورى يومئذ .. اللواء حافظ الأسد للآثمين باعادته فوراً ، أدى إلى طرحه خفية .. فى أحد المستشفيات وهو يحتضر ، فبذلت جهود لانقاذه ، واستنفر الأطباء .. من سورية ومن لبنان حتى أفاق .. بعد أربعين يوماً من غيبوبته وتماثل للشفاء وئيداً وئيداً » .

ويذكر كاتب المقدمة أن الشاعر حين أخذ ينشر قصائده ، أخذ الناس يسألون ، من هو بدوى الجبل ؟ .. أهو خير الدين الزركلى أم خليل مردم بك ، « وهما شاعراً الشام يومئذ » ؟ وكان ينشر قصائده فى تلك الفترة فى صحيفة « ألف باء » الدمشقية .. « ودعا صاحب الجريدة يوسف العيسى .. نخبة من الأدباء وأعضاء المجمع العلمى الدمشقى إلى احتفال ، قدم فيه الشاعر هو ذا بدوى الجبل ، إنه محمد سليمان الأحمد » ولم يكن الشاعر قبل ذلك مشهوراً ، فاختار ذلك اللقب وعلق به وعرف ، حتى لقبوه : بـــ شاعر العربية .. وحتى قال إسعاف النشاشيبى : أى والله أنه شاعر بهذا اللقب » . وقال الشاعر بشارة

الخورى : « إن شعر البدوى أرجح من عمره » . وقال العلامة .. عبد القادر المغربى : « إنه الشاعر .. الذى تمرد على ناموس التدرج » .

وحين احتل الألمان .. فى الحرب العالمية الثانية باريس ، ألقى البدوى ، فى نادى « المثنى » ببغداد قصيدة مشهورة مطلعها :

يا سامـــر الحـــى هل تعنيـــك شكوانا
رق الحديـــد ومـــا رقـــوا لبلوانا
خل العتـــاب دموعـــا لا غنـــاء بها
وعاتـــب القـــوم اشـــلاء ونيرانا

ومنها :

وللجيـــاد صهيـــل فى شكائمها
تـــكاد تشربـــه الصحـــراء ألحانا
تغضى عن الـــذل غفرانـــا لظالمها
تأنـــق الـــذل حتـــى صار غفرانا

وفى مصرع رياض الصلح ، أنشأ الشاعر قصيدة فى تأبينه يقول منها :

لاتسلهـــا فلن تجيـــب الطلول
المغاويـــر مثخـــن أو قتيل
موحشـــات يطـــوف فى صمتهـــا الد
هـــر فللدهـــر وحشـــة وذهول
غاب عنـــد الثـــرى أحبـــاء قلبى
فالثـــرى وحـــده الحبيـــب الخليل

وعن فلسطين ، قضية العرب والمسلمين ، يردد صوت بدوى الجبل :

قد استـــرد السبايـــا كل منهزم
لـــم تبـــق فى رقهـــا الا سبايانا
ومـــا لمحـــت سيـــاط الـــذل دامية
الا عرفـــت عليهـــا لحـــم أسرانا
ولا نمـــوت على حد الظبـــى أنفاً
حتـــى لقـــد خجلـــت منـــا منايانا

أما قصيدته .. الرائعة ، التى ذاعت ، والتى مطلعها :

رمـــل سينـــاء قبرنـــا المحفور
وعلى القبـــر منـــكر ونكير

كبريـــاء الصحـــراء مرغهـــا الذ
ل فغـــاب الضحـــى وغـــار الزئير

لا شهيـــد يرضى الصحـــارى ، وجلى
هـــارب فى رمالهـــا وأسير

وعنوان القصيدة : « من وحى الهزيمة » يقول عن المسجد الأقصى :

لم يرتـــل قرآن أحمـــد فيه
ويـــزار المبـــكى ويتلى الزبور

طوى المصحـــف الكريـــم وراحت
تتشـــاكى آياتـــه والسطور

يا لذل الاســـلام ، لا الجمعـــة الزهرا
ء نعمـــى ولا الأذان جهير

ومنها ، عن أنين اللاجىء المشرد :

أنـــا حزن ، شخص يروح ويغدو
ومسائـــى من الأسى والبكور

حامـــلا محنتـــى أوزعهـــا فى
كل دنيـــا وشرهـــا مستطير

الخيـــام المزقـــات ، وأم
فى الزوايـــا وكسرة وحصير

وفتـــاة أذلهـــا العـــرى والجو
ع ويلهـــو بالرمـــل طفـــل صغير

ويقول كاتب المقدمة تعليقاً على هذه الأبيات : « وقد ترجح أن هذه القصيدة .. هى التى أوشكت أن تودى بالشاعر ، وما أظن قصيدة .. تداولها الناس ، إذا استثنينا قصيدة ــ باريس ــ أو حفظوها أو استشهدوا بأبياتها مثل هذه » .

ويرثى بدوى الجبل « سعد الله الجابرى » بهذا الشعر الرنان السلس القوى :

سأل الصبــح عن أخيــه المفدى
أيهــا الصبــح لن تشاهــد سعدا

ويصف مرض صاحبه بهذا التعبير الجيد ، فى هذا الانسياب الرائع المعانى ، من نفس المرثية :

ما رأى السقــم قبــل سعــد حنانا
وحيــاء من السقــام ورفدا
كبقايــا السيــف اطمأنــت إلى الجفـ
ـن وراحــت تبلى الهوينــا وتصدا
روعــة الشــمس فى الغــروب ولا
أعشــق للشــمس عنفوانــا وأدا
يمــلأ المغــرب العيــون من الشمـ
ـس إذا ردهــا الضحــى عنــه ردا

أسلوب البدوى ناصع ، غير ملتو ولا معقد ، ولايتصنع المجازات ، وليس فيه معميات ولا ألغاز ، وإنما هو ينساب على لسانه ، مثل جريان الجدول .. فى الأرض السهلة .

والبدوى ينفر .. من الشعر الحديث ويمجه ، ولايسميــه شعــراً ، ولاينزل .. إلى سوقه ، ومفرداته غزيرة ، ولكنها ليست حوشية ولا غريبة ، ولكنها أليفة قريبة إلى النفس .. سائغة مع قوة معانيها غير أن للبدوى « شطحات » كما يقول كاتب المقدمة ، تجدها فى بعض أبيات له ، حتى ليظن أن صاحبها .. يجنح إلى الالحاد ، وما كان أروعه لو أنه أبعدها وأسقطها من شعره ، واستغفر الله منها ، وعدل ألفاظها ، لأنها لاتليق بمثله .

ويقول الأستاذ زعيتر : « إن للبدوى نثراً رفيعاً أنيقاً ، وإذا كان الشعر ، كما أسلفت هو الذى يمتلك الشاعر ، فلايواتيه ساعة يريد ، فان النثر يأتيه طائعاً سهلا . ومايسترعى النظر أن نثره ــ خلا رسائله الاخوانية ــ يكاد يكون قاصراً على المراثى » .

ونعود إلى شعر بدوى الجبل ، فنجد قصيدته « الكعبة الزهراء » ومطلعها :

بنــــور على أم القـــرى وبطيب
غسلـــت فؤادى من أسى ولهيب

ومنها فى وصف الحج والأرض المقدسة ، وهى تسابيح واستغفار :

وأهـــرب كبـــرا ، أو حيــــاء لزلتى
ومنـــك نعـــم ، لكن اليــك هروبى
وأجلـــو عيوبـــى نادمـــات حواسرا
وأستـــر إلا فى حمـــاك عيوبى

وفى جنيف ، ينظم الشاعر ابتهالات ، يقول فيها :

بينـــى وبـــين الله من	ثقتى بلطـــف الله باب
لى عنـــده من ادمعى	كنـــز تضيـــق به العياب
يارب بابـــك لايرد	اللائذيـــن به حجاب
وإذا سألـــت عن الذنو	ب فان أدمعـــى الجواب

وفى رثاء رياض الصلح ، نجد .. هذه التسابيح ، فالشاعر يرق ، ولعل ذلك .. من فاجعة الموت ، فيدركه الخوف ، ويؤوب إلى ربه ، لأنه سبحانه .. موئل الرجاء والعفو ، ورحمته وسعت كل شىء ، وربما كانت هذه العبرات رجوعاً ، عند استضعاف النفس ، وهى كثيراً .. ماتشمخ وقت القوة أو البأس ، غير أن الأحداث تهزها ويصدمها الواقع ، والشاعر الحى أقرب .. إلى هذا التأثر حين تنجلى عن بصيرته .. غشاوة الوهم ، وحين يفيق من سرحانه وخياله الجموح ، فيشده الواقع ، كأنها اليقظة بعد غفلة ، فيصدح يترجم مشاعره لائذا مستغفراً راجعاً ، حين يدرك .. أن الضعف بعد القوة .. هو سبيل الانسان وواقعه الحتمى .

يقول الشاعر :

رب روحـــى طليقـــة فى سماوا
تـــك والجســـم موثـــق مغلول
عبراتـــى عبـــادة وابتهال
وشهيقـــى التكبـــير والتهليل
وصلاتـــى تأمـــل ومناجا
تـــى خشـــوع وزفرتـــى ترتيل
لم يضـــع فى الظـــلام نورك
عـــن قلبـــى ، فقلبـــى إلى سنـــاك الدليل

* فى المهرجان الألفى لأبى العلاء ، يبرز .. بدوى الجبل .. شاعراً عملاقاً ، كأن فى نفسه شيئاً .. لم يقله فى بعض شعره ، فجاءت هذه المناسبة لتطلق لسانه أكثر تعبيراً وتحليقاً واجادة .

ولعل البدوى كلف بأبى العلاء ، كلف الكثيرين غيره ، وحين اتيح له ان يشارك .. فى هذا المهرجان ، انطلق لسانه وفكره بأعذب الألحان وأجمل المعانى وأعمقها ، يشدو بشعر ذى رنين وأصداء ، وقد قرأت قصيدته ، من وحى الهزيمة ، و « إيه حكيم الدهر » أكثر من مرة ووقفت .. على أبيات القصيدتين فى كثير .. من التأمل والاعجاب .. بهذا الشعر .. النابض الذى وعى الصدق ، فجاء آية .. من آيات الفن والجمال ، لأنه شعر يهز النفس ، ويؤثر فيها ، ويستقطبه العقل .. بالتأمل ، ويحتفى به ، ويأخذ المرء .. فى ترديده وانشاده ، ذلك أنه يغوص .. فى أعماق النفس ، وتجد فيه .. متعة لاتريد أن تفارقها من هذا التجاوب والاقتراب ، ومن هذا التأثير .. العميق الواعى الذى لايكاد ينتهى ، إلا بعد أن يترك أصداءه .. تجوب فى الجوارح وتترسب .. فى أعماق هذا الوعاء الانسانى الشفاف ، الذى يجد فى هذا الأثر تجاوباً .. مع نفسه ، أو انجذاباً إليه .

ورغم أن البدوى يشير من بعيد .. إلى رفيق سيف الدولة المتنبى ، وكذلك فقد أنشأ قصيدة جامعة بعنوان « كافور » ولكنه .. لايذكر المتنبى من بعيد أو قريب ، لكنه حفل .. بأبى العلاء وأطنب ، وأطرب .. فى الحديث عنه

وأرضاه ، وهو يصوره أبلغ تصوير وأجمله ، فى قصيدة .. بلغت أبياتها .. ثلاثة وتسعين ، بدأها بقوله :

حلى الندى كرامة للراح
عجباً أتسكرنا وأنت الصاح

ويقول فيها :

نفذت بصيرته لأسرار الدجى
فتبرجت منه بألف صباح

من راح يحمل فى جوانحه الضحى
هانت عليه أشعة المصباح

مرح على كيد الحياة وأهلها
يلقى شدائدها بأزهر ضاح

شرف المعارك بالجراح وبالردى
فبدار قسطك من أذى وجراح

واحمل بكفيك الحياة تحدياً
منها لأول معتد بسلاح

لاتشك من قصر الحياة فربما
أغنت إشارتها عن الافصاح

واختر لنفسك ميتة مرموقة
بين النجوم على الأديم الصاحى

سفر الحياة إذا اكتفيت بمتنه
أغناك موجزه عن الشراح

للموت فى اللجج العميقة رهبة
شمخت بسؤددها عن الضحضاح

هكذا يقف الشاعر مع صاحبه .. شيخ المعرة ، يتحدث إليه كأنه واقف أمامه ، يصغى إلى هذه الصور البيانية والجمالية ، ولا أدرى ، لعل أبا العلاء لم يحفل بها ، عاش بعيداً عن الأضواء ، واختار لنفسه مسلكاً ربما لايهمه كثيراً ، إذا وافقه عليه الناس ، أو اختلفوا معه ، وسواء عنده أرضوا عنه .. أم سخطوا عليه .

وهو هنا إذا امتد بنا الخيال ، حتى لكأنا نرى أبا العلاء يستمع .. إلى هذا الصوت ينشده ماقاله فيه ، ويصوره .. من منظار الشاعر ، الذى يعيش فى أواخر القرن الرابع عشر وبينهما .. مايقرب من ألف عام ، هل غير أبو العلاء نظرته .. إلى الحياة والناس أم أن الأيام لم تختلف ؟ ذلك .. أن الناس هم الناس ، ولكن تطوراً جد .. فيذهل الشيخ مما يسمع من غزو الفضاء وسبح الطائرات وطى الأرض ، وأن كلا طرفيها يتصلان ببعض فى لحظات ، وسوق الأدب كسدت والاحتفاء به ، الذى كان يشهده المتنبى ومن على شاكلته ، وأدركه أبو العلاء وإن لم يحفل به ، قد انتهى ذلك العصر ، وأصبح الناس لايبحثون .. الا على غذاء البطن ، أما الروح ، فلم يعودوا .. يهتمون بذلك فى كثير ولا قليل . ؟

لعل أبا العلاء .. قد ينكر مايسمع ، ولعله انكار موقوت ، ذلك أنه فلسف الحياة وأهلها ، فقد عرف .. ببصيرته هذه التقلبات وأن لاشىء يدوم فيها ، وأن البقاء لله وحده ، وماعداه زائل .

غير أن أبا العلاء يؤثر هذه المجاملة ، فهو مضطر .. أن ينصت إلى الشاعر يمجده رغم زهده فى ذلك ، ولكنه .. لايريد أن يترك شاعر بلاده ينشد وهو منصرف عنه لايحفل به ، فذلك منتهى الاهانة وسوء الظن . وأبو العلاء رجل ذو حساسية ، وشديد رهافة الحس ، فهو يأبى هذا النقص ، ولايرضى .. أن يصفه الناس بالكبرياء ، وهو من العيش والقناعة .. فى أيسر حال ، يكره التكلف ، واعتزل الناس ولا ادل على ذلك قوله :

ومــــاذا يبتغـــى الجلســـاء عندى
أرادوا منطقـــى وأردت صمتى

فلا عليه إذن أن يرفق بهذا الشاعر ، وأيسر ذلك أن ينصت إليه ، ولا أشك ، أن أبا العلاء قد اطربته هذه الصور المتتالية التى يرسمها الشاعر له ، ويرتفع بها ، وهو مانجده فى هذا الوصف المنساق فى غير تكلف ولاجهد ، وإنما البدوى يطلق نفسه .. على سجيتها كأنه مدفوع .. إلى هذا الاسترسال ، ولعل مرد ذلك إعجابه .. بابن المعرة ، لا .. لأنه من ترابه وانما وجد فيه خصالا أطلقت لسانه ، ونصعت بيانه ، فامتد به نفسه ، وطاوعه ذهنه ، وتلك سجية ..

فى الكاتب والشاعر ، إذا استهوته أشياء أجاد فى تصويرها ، وسهل عليه .. أن يجود وأن يحسن الأداء ، فترى فنوناً جمالية من التعبير الممتع الذى يأخذ بمجامع النفس ، التى تجد فيه سلوى وبراعة .. فى هذه الصناعة ، التى هى من عطاء الفكر الانسانى المبدع .

وأنا لاأريد أن أمضى فى هذا الحديث كثيراً ، ولو اتبعت النفس لكنت كطه حسين كلفا بأبى العلاء ، وبما يستهوى الانسان .. الذى يجد متعته .. فى هذه المواقف .. من الدراسة المحضة ،والعناية .. بشاعر أو كاتب ، فتمجد آثاره ، لأن شخصيته تتميز بخصال محببة ، تدعو إلى التأمل فيها ، وفى آثارها ، فلاتكاد تفرغ منها حتى تعود إليها كلما دعت المناسبة ، أو كلما جد أمر يذكر بها ، ويعيد الحديث عنها .

وديوان بدوى الجبل الذى بلغت صفحاته .. خمسمائة وخمسين صفحة ، فى طباعة ممتازة على ورق صقيل ، لاتكفيه هذه الوقفة المستعجلة ، غير أننى أوثر .. أن أقف اليوم عند هذا الحد من الحديث عنه ، حتى لايصبح مملا ، وإذا أتيح لى أن أعود اليه .. فى وقفة أخرى فسأفعل إن شاء الله .

مرصاد الفلالي وانحسار النقد

** أعاد النادى الأدبى .. بالرياض ، طبع « المرصاد .. الذى صدر فى عام ١٣٧٠ للهجرة ، بقلم الاستاذ / ابراهيم هاشم فلالى .. كما يشير الاستاذ / يحيى ساعاتي – فى كلمته المنشورة فى صدر الكتاب ، أن هناك طبعة ثانية للمرصاد .. فى عام ١٣٧٥هـ فى ثلاثة اجزاء طبعت فى القاهرة ، أما الطبعة الأولى فكانت فى اثنتين وأربعين صفحة ، صدرت عن مجلة المنهل .

وأذكر أننى قرأت الطبعة الأولى من المرصاد وأنا فى بداية حياتى الأدبية ، وأذكر كذلك .. أن هرجا كثيرا ثار حوله وحول صاحبه ، وقد أشار الاستاذ الفلالى .. إلى ذلك فى مقدمة الجزء الثانى .

ولست أكتب اليوم لأثير الغبار من جديد حول المرصاد ومن تناولهم بالنقد ، فثلاثون عاما قد تكفى لجلاء النفوس مما علق بها من صدأ ، من رواسب ذلك النقد ، ولكن .. ليس كل النفوس تعرف التسامح ، فمنها .. من يحقد وتنطوى على الضغينة .. التى لا يفارقها حتى الموت ، كأن ثأرا .. لم يقتص فيه ، معلق لا يمحوه إلا الدم وكأنه الشرف الرفيع .. الذى يشير اليه المتنبى بقوله :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى   حتى يراق على جوانبه الدم

وهناك نفوس ، وديعة ، وليست غافلة ، لكنها متسامحة ، لا تختزن الكراهية و « تستجرها » أمدا طويلا أو طوال الحياة ، كما هى الحال .. فى الصنف الأول من الناس ، الذين .. يحتويهم الغرور ، فيتصورون أنفسهم أنهم عظماء مبرأون من الأخطاء ، لا ينبغى لأحد .. أن يخدش كبرياءهم .

الصنف الثانى من الناس الذى مسه نقد المرصاد نسى ، وربما اقتنع فى

قرارة نفسه بأن سبيل الحياة الخطأ ، وأن فيها .. من يصحح الأخطاء ، بعلم واجتهاد وقد يخطىء المصحح لأنه بشر ، وبذلك تظل الحياة .. مسرحا كبيرا ، كما يقول يوسف وهبى ، فيها من يصيب بتوفيق الله ، وفيها من يخطىء ويجد من يقومه ، سواء قبل ذلك برضا أو رفضه .. بعناد واصرار عليه .

وحين نقرأ مرصاد الفلالى اليوم ، نجده .. جمع فيه نقدا وتقريظا ، من حصيلة نتاج جمعه عدد ممتاز ، كانت تصدره .. جريدة البلاد السعودية ، يشارك فيه نخبة من الكاتبين والشعراء ، وربما يلتمس العذر لبعضهم ، ذلك أن صحيفة ما .. تطالب من تتوسم فيهم التجويد ، ليشاركوا فى مدها بما ينتجون .. من شعر ونثر لمناسبة معينة ، فيقـدم الكاتـب والشاعـر .. ما يستطيع ، ويؤدى عامل العجلة أحيانا .. الى تقديم أى شىء من أجل المشاركة ومن أجل الشهرة ، وهى شهوة النفس البشرية إلا ما ندر .

ونقد المرصاد لمواد العدد الخاص أو الممتاز .. من صحيفة البلاد السعودية آنذاك ، لم يكن فيه تجن ولا تجاوز .. لمهمة النقد ، ولكن لا تعد مقالة أو قصيدة واحدة .. مقياسا لمكانة الكاتب والشاعر ، وإنما الحكم ينصب عادة على مجموعة من أعمال هذا وذاك ، يكون فيها القوى الجيد والمتوسط والضعيف .

وما نقوله .. عن العدد الممتاز من تلك الصحيفة ، يمكن أن يطلق على المجموعة الشعرية .. التى احتواها كتاب « شعـراء الحجـاز فى العصر الحديث » ، الذى أصدره الاستاذ « عبد السلام الساسى » . فى مطلـع الثمانينات .. بعد ألف وثلاثمائة للهجرة . وأنا مع الاستاذ الفلالى رحمه الله ، بأنه كان ينبغى على شعرائنا وكاتبينا أن يقدموا .. فى هذه المجموعة خير ما عندهم ، وخير ما يستطيعون آداءه .. ولا يعنى .. أن كل ما فى شعراء الحجاز غير جيد ، ولكن فيه .. من هذا وذاك ، وقد أشار الناقد .. فى مرصاده وهو يغربل الكتاب الى ما أعجبه وما لم يعجبه ، مبديا رأيه فى الجيد والردىء ، واضعا مقاييسه النقدية وموازين الصيرف .. الذى يفحص العملات ، ليقول هذا مصفى وهذا مغشوش ، وليس الخبرة النقدية .. هى كل شىء عند المشتغلين بالنقد ؛ ولكن يصاحبها الحس والتذوق ، وهى معايير ينبغى .. أن تتوافر عند الناقد ، وليس هذا فحسب .. هو عدة الناقد ، وإنما هناك الحيدة ،

وأعنى بها .. النزاهة فى النقد .. والناقد مثل القاضى ، فلا يحكم أو ينظر فى قضية ، وهو غاضب أو تعب أو جائع ، فهذه الحالات .. التى تلبس المرء ، تجعله غير طبيعى ، وتجعل المزاج معكرا ، لذلك .. فان الرؤية أمامه لا تكون واضحة ، وبذلك فلا تكون أحكامه دقيقة أو سليمة ، وإنما يتعرض للخطأ الذى هو من طبيعة البشر .

* نجد الاستاذ الفلالى قد وقف .. وقفات قصارا عند بعض الآثار الأدبية ، سواء .. التى نشرت فى العدد الممتاز من صحيفة البلاد السعودية أو شعراء الحجاز ، ووقف .. وقفات معتدلة ، لا أعنى جانب الحكم ، وإنما .. تتبع الكاتب أو الشاعر فى عطائه .. الذى بين يديه ، والوقفات القصار .. لا تكفى وإن أشارت الى بيت جميل وآخر ردىء .. ولكن مناقشة تلك الأمور .. بعد ثلاثين عاما قد لا تكون مجدية ، لاسيما وأن صاحبها .. انتقل الى دار البقاء ..

كما وقف الناقد .. مع بعض المؤلفات التى صدرت فى تلك الحقبة .. التى انشأ فيها مرصاده ، وذلك .. فى الجزء الثالث منه ، مثل كتاب « ربوع عسير » للاستاذ محمد عمر رفيع ، ومسرحيات الاستاذ عبد الله عبد الجبار ، و ــ ما وراء الآيات ــ للاستاذ أحمد محمد جمال و « ٤٦ » يوما فى المستشفى للاستاذ محمد عمر توفيق ، والزنابق الحمر ، للاستاذ أحمد عبد الغفور عطار وهى وقفات ممتعة جادة ، أدت مهمة النقد والتقريظ ، جال .. فيها الناقد بفكره وبالمقاييس النقدية ، فكان جيدا ومعتدلا ومركزا .

هذا ما أردت قوله .. عن المرصاد فى ايجاز .

مرصاد .. المرصاد

* لأستاذنا الكبير .. الشيخ عبد الله عبد الجبار من ص ٢٦٥ الى « ٢٨٤ » فى كتاب المرصاد .. باجزائه الثلاثة ، نجد له حديثا فى ثلاثين صفحة ، بدأ من الاستاذ عدنان أسعد ، وهو أحد الذين شملهم المرصاد فى الجزء الثانى ، ص « ١١٢ » فى دراسة كتابه « صخر وحجر » ويذكر صاحب المرصاد ، أن عدنان « يعرفه قراء الرسالة بمصر والمنهل بمكة ، أديبا وشاعرا وناقدا » . وكتاب الاستاذ عدنان لم يشغل من كتاب المرصاد سوى أربع صفحات ، وحجم

المرصاد متوسط .. فى مقاييس حجوم الكتب ، وقد لا يكفى هذا الحيز ، ولكن للراصد .. رأيه ، ووجهة نظره ، كما كتب صفحتين فقط عن كتاب أصدره الاستاذ عبد الله خطيب ، عنوانه (كيف كنا) . وكتب عن كتاب الاستاذ محمد عمر توفيق « ٤٦ » يوما فى المستشفى صفحتين فقط . فهل كان الناقد غير حفى بما أوجز عنه القول ، أم ترى له رأى آخر ؟ غير أنه لم يعلن هذا ولا ذاك ، رغم أنه لا يجامل كما رأينا فيمن نقدهم ، فلماذا أوجز بعض وقفاته ؟ لست فى مجال فيه سعة ، حتى أقدر واستنبط وأبحث ، وقد يفرغ غيرى لهذه المهمة ، وقد يعفى عليها الزمن اذا لم يجد المرصاد اليوم من ينقب ويتعقب الناقد وما تناول ، ليصل .. الى علة الوقفات القصار من بعض المنقودين .

وقد شغلنى هذا الرجوع الى مرصاد المرصاد ، وتركت نقد المرصاد ، قلت إن ناقد المرصاد بدأ من الاستاذ عدنان أسعد ، معلقا .. على نقد الاستاذ الفلالى ، رافضا بعض المعانى التى عنى بها .. صاحب المرصاد ، ثم يثنى الاستاذ عبد الجبار بعبد الله الخطيب ولم تشغل وقفة استاذنا سوى صفحة واحدة اشادة بالخطيب ، حتى قال : « لقد كان خليقا .. أن يكون أنجح رجل فى بلادنا لو صحت فى مجتمعنا المختل الموازين » . وهى نفس المساحة .. فى تعليقه على نقد صاحب المرصاد لعدنان اسعد ، ويصل ناقد المرصاد الى مقدمة شعراء الحجاز ، وما أثير حولها من شكوك ، ونقد حتى تبرأ منها كاتبها .. المرحوم حمزة شحاته ، وقيل يومئذ أن سبب البراءة ، هو حذف بعض فقرات منها ، من جامع كتاب شعراء الحجاز ولعل الاستاذ الساسى اليوم ، والموضوع .. أصبح للتاريخ ، أن يذكر للقراء لماذا تبرأ حمزة شحاته من المقدمة بعد أن كتبها ؟ ويحاجج الاستاذ عبد الجبار .. ويجادل عن المرحوم أحمد قنديل ، الذى رفضه الاستاذ الفلالى كشاعر فى الأدب الفصيح ، وإنما هو شاعر « حلمنتيشى » .

أريد أن أقول ، أنى لست فى مجال التقويم ، فلعل ما رآه صاحب المرصاد .. قبل ثلاثين سنة قد اختلف اليوم ، فثلث قرن فى عمر الزمان والأدب يفعل فعله . والرأى الذى اعتقده ، أن القنديل شاعر ما فى ذلك شك ، ولكن ليس كل شعره جيدا وعلى مستوى القمة . ولا ننسى مشاغل الحياة وهمومها ، والأديب فيها مطحون ، والأدب .. لا يستطيع كل فارس أن يجيد فيه وهو يقاتل ويكد ..

ويقف ويعلق الاستاذ عبد الله عبد الجبار في ايجاز ، على الشيخ محمد سرور الصبان رحمه الله ، والاستاذ محمد سعيد العمودى والشيخ الغزاوى والشيخ عبد الوهاب آشي ، « يناكف » .. صديقه صاحب المرصاد ، في بعض مفاهيم النقد ، وقبول أو رفض المعانى ، التى قالها الشعراء ولم تعجب الناقد ، ويراها الشيخ عبد الجبار صوابا .

المرصاد .. في رأى القرشي

* والشاعر والكاتب الاستاذ حسن عبد الله القرشي ، نجده في آخر المرصاد يشغل منه « ١٩ » تسع عشرة صفحة ، بعنوان « نقد المرصاد » ، نشر ذلك في مجلة المنهل في شهر المحرم ، « ١٣٧١ » ، أى منذ ثلاثين سنة .

والاستاذ القرشي يناقش الناقد فيما تناول من مؤلفين وشعراء ، لهم مؤلفات وقصائد ، سواء ما جاء في العدد الخاص .. من البلاد السعودية أو تلك الكتب ، مثل « فكرة » للاستاذ أحمد السباعى و « الهوى والشباب » ديوان شعر .. للاستاذ أحمد عطار و « أحلام الربيع » للشاعر طاهر زمخشرى ، و « بناة العلم في الحجاز الحديث » للاستاذ عبد القدوس الانصارى ، وكذلك مجموعة الشعراء ، التى أصدرها الاستاذ الساسى باسم « الشعراء الثلاثة » وهم حمزة شحاته ، ومحمد حسن عواد ، وأحمد قنديل .

ويثنى الاستاذ القرشي بعد مناقشة صاحب المرصاد في بعض آرائه ، فيقول « فان المرصاد كتاب ظريف ، جدير بالاقتناء ، وأن من يقول : أن الفلالى تنقصه النزاهة وتخونه الصراحة ، فما أصاب » .

هذه وقفات ، لم أقدم فيها رأيي ، إذ ليس مهما اليوم ، وليس هدفى أن أكتب هذا الموضوع لمراجعة الآراء .. في المرصاد أو مرصاد المرصاد أو نقد المرصاد :

نريد مراصد .. جديدة

* مضت ثلاثون سنة والساحة شبه خالية من نقاد ، يؤلفون في النقد ، ولا أعنى أنه لا يوجد نقاد ولا مؤلفات تستحق الكتابة ، نقدا وتقريظا . وإنما

لم نجد فلاليا جديدا يتابع حركة التأليف ، وينقد بنزاهة وحزم وعزم . وقد شهدت ساحة الأدب خلال الثلاثين عاما الماضية الكثير من النقد ، نشر فى الصحف وتبع ذلك النقد ما يشبه المهاجاة من المنقودين .

وليت الذين كتبوا فى النقد السليم الجـاد ، يجمعـون ما كتبـوا ويغربلونه .. من الشوائب ، ليقدموه صافيا سائغا للجيل الجديد من القراء ، الذين .. يعنون بالأدب .. والنقد ، خدمة للأدب . بهذا التقويم النقدى ، الذى .. يعنى بالجوهر ولا يعبأ بالفتات .. والقشور ، ليجد فيه القارىء المتعة والرأى السديد . وتجد المكتبة العربية مراجع .. نقدية للآثار التى صدرت ، على أن يكون هذا النقد .. مبرأ من الغرض والمرض ، ليكون بحق .. صورة مشرقة ، نقدمها الى القارىء العربى ، صادرة .. عن معرفة ودراية ، وعن علم ، بعيدا .. عن العبث والهوى .

إذا استطعنا أن نحقق هذا ، فسوف .. لا نصبح مجهولين عند إخواننا العرب . أما إذا انطوينا .. على ما عندنا مما يصلح وينبغى أن ينشر ، فسنظل حيث كنا ، لاسيما ونحن فى عصر ، جفت فيه ينابيع الأدب ، فجدبت الأرض ، وأعرض الفلاح عنها ، منصرفا .. الى المدينة حيث الدعة ، ولا يعنيه أن تنبت الأرض حبا أو تنبت حنظلا ، فقد عرف وهو يشقى ، أن المدينة يأتيها رزقها من البحر ، ولا يعنيها كثيرا مواسم الحصاد .. فى أرضها ، لأنها تملك المال ، وهو يجعل البحر طريقا ، لا .. أن يجلب فقط الدقيق والأرز والتفاح والرمان والأعناب ولكن ما دون ذلك .

انه منطق خطير مخيف . ولابد من تصحيحه ، بأن يعود الفلاح الى حيث يؤدى دوره ، لينبت الأرض بحرثه وكدحه ، ليأكل هو وتأكل المدينة من ورائه .. وإلا فسلام عليه وعلى الحرث والنسل .

فهل من صحوة .. أدبية ، تجدد ما بدأ الفلالى ، على أنغام النواعير ، فى موسيقى الشعر ينطلق به الحادى فى ليلة قمراء مع الركب ، بين مزارع غن ، وربيع متجدد ، وجنات فيح ، يتجدد فيها الشباب ، وتلوح فيها الاحلام .

أترانى .. بدأت أحلم وأنا أكتب هذه السطور ؟ أهى نشوة الآمال ، .

هروبا .. من واقع الواقع الذى نرد اليه كلما .. حاولنا الفرار منه ؟
وأقول كما قال الشيخ السباعى :

دعونا نمش ، لأن التوقف معناه الجمود والركود . والحياة عمل وحيوية . وهى فى كل الأحوال .. الى زوال ، ومع ذلك نحن مطالبون أن نعمل فيها .. ما استطعنا الى ذلك سبيلا ، والى الله المصير .

صُوَر أدبيّة

أفضل الدكتور / عبد العزيز الخويطر ، فأهدى الى كتابه الجميل .. « من حطب الليل » ، وقضيت معه فترات .. غير متصلة ، وسافرت قبل أن أتمه ، ثم عدت إليه ، لأن موضوعاته المستقلة تعطى الفرصة لمطالعة قدر منها ، ثم العودة لمتابعة شرائح الحلقات ذات المساحة المحدودة ، ذلك أنها كانت تنشر كأفكار فى صحيفة سيارة ، تحمل رأياً وتعالج موضوعاً أو قضية ، وتضرب مثلا وتنتقد خطأ وتأتى بمحمدة ، وتذم مسلكاً ما ، هى أفكار ، فيها معنى وفيها من هذا المزاج .. الذى تضمه بعض الكتب مجموعة ، بعد أن كانت منجمة عبر أيام ، تناثرت فيها ، مشاركة بما تشتمل من طرح قضية أو اقتناص بادرة تعن للفكر ، فتلقى ضوءاً ، وتفتح نوافذ ، وقد تثير مناقشة وتضيف جديداً ، وتحقق جدوى وتجدد حواراً ، وتقيم معركة .

ولم يسعدنى الحظ ، أن اقرأ هذه الفصول من حطب الليل أيام كانت تنشر فى جريدة الجزيرة ، ثم الرياض .. بالقياس إلى الفصل الثانى واذاعة الفصل الأخير .

وحسناً صنع الدكتور الخويطر ، حين جمع آراءه فى كتاب ، يتناوله الناس ويقرأونه .. فى يسر وأناة ، وربما أتيح لهم أن يقولوا كلمة حوله ، له .. أو عليه ، وربما كان غير ذلك .

وقد أعجبنى الغلاف الجذاب ورسومه ، فرأيت قطع الحطب ، والخضرة والبئر والدلو فى ظهر الغلاف ، وحوله .. هذا الفضاء الواسع ، فنقلنا الرسام إلى البئر والغابة ، حيث الهواء الطلق ، ولاسيما فى الربيع ، حيث العشب وضمخ الهواء بالزهر وعبير الأرض وثغاء الماشية ، والدر أوليا ومصنعاً ، بالوسائل الأولية ، فهو الروب ، ومنه الزبدة والقشطة والسمن ، إلى جانب البر ومايصنع منه .

يطلق المرء نظره فى كون الله الفسيح قبل اطلالة الشمس ، وفى الاصائل ، ويهجع مبكراً ، وينهض مصبحاً ، يؤدى حق ربه عليه ، ثم يسعى على رزقه أو يقضى وقته .. متأملا ، ينشد الراحة إذا كان طارئاً على القرية أو البادية .. فى مضاربها ، تاركاً وراءه صخب المدينة ومشاكلها المعقدة التى أتعبته وارهقته ، وملأت نفسه قلقاً .. وعناء ، وبددت هدوءه ، وماكان ينعم به من هذا الاستقرار النفسى ، ولعله ضاق بهذا الهدوء فبحث عن الصخب ، وحين عاش فيه حن إلى ذلك المنتجع .. الذى يتصل بحياته وجذوره وكيانه .

حن إلى الأرض لأنه منها ، وافتقد البساطة والحياة اليسيرة غير المترفة ، وغير المتكلفة ، فسعى إليها وقد تغيرت طباعه بعض الشىء ، فألف الراحة وحياة المدنية ورفاهيتها المغرية والمتلفة للبدن والمحرقة للزمن ، فأمراض المدنية كثيرة ، لأن كل شىء بثمن ، والزمن يتبدد لأن وسائل المدنية كثيرة ، بددت الوقت من سيارة إلى مذياع وتلفاز ووسائل لهو وسهر متأخر ونهوض متأخر كذلك ، إلى آخر هذه الانماط من سبل المعايشة التى اختارها الانسان أو فرضت على حياته غير مختار ، فهى قد أصبحت جزءاً من الحياة نفسها ، قد يكون اختارها ، لأنها جديدة وهو تواق إلى الجديد ، وقد يكون نحا نحوها لأنها مغرية ، وتبدو مريحة وليس فيها عناء ، فلبسها واحتوته ، ولكن التجربة .. لم تكن مرضية ، لأنها لم تكن مريحة ، فى مسلك حياته كلها ، فكثرت أوجاعه وهمومه ، وشقى بهذه المدنية ، وقد كان يضيق بركوده ، ولو كان له خيار اليوم لآثر العودة إلى الحياة الوادعة الهانئة ، تاركاً هذا البريق الذى ينغص حياته ، بجانب ما أتاح له .. من تطور وتقدم ، وقرب إليه العالم بحياته وطباعه ومايبدى ويعيد ، فى الصناعة والاختراع ، حتى الصعود .. إلى القمر وما وراءه .

وقد صعد البدوى والشاعر إلى القمر بخيالهما قبل الأمريكان والروس ، ومايزال بدراً مشرقاً مضيئاً ، وآية .. من آيات الله لم تغيره ولم تؤثر فى جماله مركبات الفضاء وصواريخ المخترعين ، ولم تغير كذلك آراء العشاق وهم يتناجون معه ، ويسهرون ويحلمون فى اويقات الرضا والقرب ، وحتى فى أوقات الهجر وعنائه ، وترتفع الحرارة فى الحال الثانية ، ويبقى البدر أكثر اقتراباً وأقوى أنيساً فى الوحدة ، وربما فى قرب المحبين بعضهم من بعض يشغلون عنه ، فهو ليس أكثر من مشارك من بعيد ، بهذا الشراع الفضى الساحر كأنه

رقيب مهذب .. يرعى هذه العواطف العميقة ، ويسرح معها ، وهو يطوى السماء ، كأنه حارس لقلوب تتناجى بضرباتها .. فى خفوق ، وتتمنى وتغرق .. فى بحر .. لاساحل له .. اسمه الحب . وقد تكون عاتبة غاضبة متألمة ، هاجرة مهجورة ، كذلك الحياة كالحرب ، كر وفر ، وكفصول السنة ، صيف حار ، تلك هى العواطف ، وصقيع ، وهو البرود فى فتور العاطفة ، وخريف فى تساقط أوراق وهبوب رياحه ، وهو زمن الشيخوخة ، وربيع كل مافيه جميل ، وأيسر مافيه أحلامه ، والحالمون من السعداء ، لأنهم فى الخيال يعيشون ، بعيداً عن واقع الحياة وآلامها ونغصها وكربها فى ربيع العمر ومتعة العافية والايسار . البر .. جميل إذا كان أخضر .. ممرعاً ، فيه أيسر الوسائل .. التى يحتاج إليها الانسان فى حياته ، ووسائل استثمار الأرض وتربية الماشية ، فى مناخ معتدل .. أكثر فصول السنة ، أو على التحقيق ، فيه الفصول الأربعة بمناخها المختلف .

هذه السبحات الخيالية ، كانت نتيجة .. لهذا الكتاب ، فى مطالعة فصوله والتأمل فى غلافه البراق ، ولست أريد أن أطيل الحديث حوله ، لا لأنى غير حفيل به ، ولولا اهتمامى به ماكانت هذه الاخيلة التى أوحى بها الى ، ولما كانت هذه الوقفة معه وحوله ، والكتاب بمحتواه .. المتعدد المناحى والصور ، يحدد معالم .. لتناول مختلف القضايا ، بسطا لها ومعالجة .. لما تضطرب به حياة الناس ، يشرح الأخطاء وينبه عليها ، ويحفل بالمزايا ويدل عليها ، وينتقد أمثلة مما يراها الانسان فى محيطه وعند الآخرين ، ويظهر عيوبها ونتائجها .

والكاتب القادر ، هو الذى يصورها بأسلوب .. تستهوى القارىء جاذبيته ، ويؤثر فيه بسماحة العرض ، وجلاء الفكر ، وعمق البصيرة .

ومن خصائص كتاب « من حطب الليل » أن موضوعاته قصار ، لايمل قارئها ، وكذلك ورقه الصقيل ، وحروفه الكبيرة المريحة ، وهو قليل أخطاء الطباعة ، وقليل الأخطاء .. فى أفكاره ، فالاختلاف فيها يسير مع كاتبها الفاضل ، لذلك آثرت .. عدم الوقوف عندها .. لأنها يسيرة ، والأسلوب مختار ، قليل الضعف .. فى سبكه .. ومنحاه .

وأمثال هذه الموضوعات السيارة ، قد لايتاح لكاتبها الوقت الكافى .. لتجميلها وتنميقها لأن السرعة .. لاتتيح .. كثير العناية لاخراجها .. فى سبائك مصقولة ، ذلك .. أن الارتباط بصحف تلتهم .. مايكتب فى سرعة ، تتيح للكاتب

الاناة ، ليعيد النظرة مرة ومرة .. فيما يكتب .

والعمل المتصل .. ومسئوليته والاحساس بها ، يصرف عن الكتابة الجيدة ، لذلك نرى ، الكثيرين .. ممن نتوسم فيهم المشاركة بآرائهم الناضجة البناءة ، ظلوا بعيداً .. عن ساحة الكتابة ، لأن أعباءهم ثقال ، وهم لايرضون لأنفسهم أن يشاركوا بما لاترضى عنه أنفسهم قبل قارئهم . ومن هؤلاء معالى الدكتور عبد العزيز الخويطر وزير المعارف ، حتى أنه .. فى كتابه هذا ، تواضع فسماه ـ من حطب الليل .. الذى يجمع حسب التصور الأخضر ، صعب الايقاد إلى جانب الجيد ، ذلك أنه جمع .. فى وقت قد لايمكن لصاحبه الاختيار .

وأنا مطمئن إلى أن مافى هذا الكتاب من أفكار ، جديرة بالاطلاع والمتابعة وحسن التقدير والاحتفاء ، ولايغض من قيمته ، فهو ثمرة تأمل ومعاناة حياة ومحصلة تجاريب ، بكثير من الوعى والاستبصار .. المركز ، فى سهولة عرض ، واقتضاب اداء .. غير مخل بمعنى ، وغير قاصر فكرة ، ثم هى .. ثمار ناضجة ، ووقفات واقع ، واداء قريب ، سهل الفهم والاستيعاب ، والافادة بما احتوى وبما عنى .

الملكات في الإنسان

.. الملكات .. فى الانسان ، تنشأ بالممارسة والانقطاع لاكتسابها .. سوى ما تحيط به الفطرة .. فالملكة الشعرية .. تتهيأ بانطباع انسجة .. فى المخيلة وكثرة المحفوظ ، والنسج .. على منوال من نظم .

والملكة الفقهية .. تحصل بتخريج الفروع .. على الأصول وتنظير المسائل .. وتفريغها .. والملكة الصوفية تتكون بالعبادة .. على نسق من الأنفراد والعزلة والرجوع الى الحس الباطن .. وهكذا حكم سائر الملكات ..

وهذا الموضوع .. يتناول . ملكة الكتابة الأدبية . وكانوا يقولون : إن العجم قاصرون .. على نيل تلك الملكة . لمخالطتهم لسانا آخر .. غير العربية لأن الملكة إذا سبقتها ملكة أخرى فى المحل .. فلا تكون إلا مخدوشة .. ناقصة . منحرفة عن العرب ، لكونها فى غاية القصور عنها .

وكذلك أهل العلوم .. قاصرون فى البلاغة .. وما الى ذلك . لما سبق .. الى محفوظهم ، وما يمتلىء به من القوانين العلمية ، والعبارات الاصطلاحية .. الخارجة عن أسلوب البلاغة ، ولا حظ لها فيها .

قال ابن خلدون :

أخبرنا صاحبنا الفاضل .. ابو القاسم ابن رضوان .. كاتب العلامة .. بالدولة المرينية . قال : ذاكرت يوما صاحبنا .. أبا العباس ابن شعيب . كاتب السلطان .. الى الحسن . وكان المقدم .. فى البصر باللسان لعهده . فانشدته .. مطلع قصيدة — ابن النحوى — ولم أنسبها له . وهو :

لم أر حين وقفت بالاطلال
ما الفرق بين جديدها والبالى

فقال لى على البديهية : هذا شعر فقيه فقلت له : ومن أين لك ذلك .. قال : من قوله ما الفرق — إذ هى من عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام

العرب فقلت : لله ابوك . إنه ابن النحوى .. وأما الكتاب والشعراء فليسوا كذلك .. لتخيرهم فى محفوظاتهم ، ومخالطتهم كلام العرب ، واساليبهم فى الترسل .. وانتقائهم .. الجيد من الكلام .

وإن قلتم أين ذلك من سيبويه والفارسى والزمخشرى وأمثالهم .. من فرسان الكلام وكانوا أعجاما ، تهيأت لهم هذه الملكة ؟.. أقول : إن اولئك القوم الذين بعد صوتهم وشاع صيتهم انما كانوا عجما .. فى نسبهم فقط ، أما نشأتهم .. فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب ، وذلك باتصالهم بالعرب .. الذين نشأوا فى أحيائهم حتى ادركوا كنه اللغة .. وصاروا من أهلها وإن كانوا عجما .. فى النسب فليسوا اعجاما فى اللغة والكلام ، لأنهم .. أدركوا الملكة فى عنفوانها ، واللغة فى شبابها .. ثم عكفوا على الممارسة .. والدراسة لكلام العرب ، فاستولوا على غايته ، وصاروا من اهله .

على أنه .. لا تتهيأ البراعة للاعجام . ممن أرادها .. إلا بعد طول مكث .. وكثرة ممارسة .

وقد أشار ابن خلدون فى مقدمة التاريخ .. الى الأساليب العربية .. التى هى موضع دراسة الجامعيين فى هذا العصر . وأن لكل فن من الكلام .. أساليب تختص به وتوجد فيه .. على انحاء مختلفة .

فالسؤال مثلا .. كان عند العرب . بخطاب الطلول . كقوله :

يا دار ميـــة بالعليـــاء فالســـــــــند

وتارة باستدعاء الصحب .. للوقوف والسؤال . كقوله :

قفا نسأل الدار التى خف أهلها .

أو باستبكاء الصحب .. على الطلل . كقوله :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل .

أو بالاستفهام .. عن الجواب . لمخاطب غير معين .. كقوله :

ألم تسأل فتخبرك الرسوم ..

ومثل تحية الطلول بالأمر .. لمخاطب غير معين بتحيتها كقوله :

حى الديار بجانب الغزل .

أو بالدعاء لها بالسقيا .. من البرق . كقوله :

يا برق طالــــع منـــزلا بالابــــرق
وأحـــد السحـــاب لهـــا حداء الاينـــق

أو مثل التفجع .. فى الجزع ـ باستدعاء البكاء . كقوله :

كذا فليجـل الخطـب وليفـــدح الأمـــــر
وليس لعـــين لم يفض ماؤهـــا عـــذر

أو باستعظام الحادث كقوله :

أرأيت من حملوا على الأعــــواد .

أو بالتسجيل .. على الأكوان بالمصيبة لفقده كقوله :

منابـــت العشـــب لا حـــام ولا راعـــى
مضى الـــردى بطويـــل الرمـــح والبـــاع

أو بالانكار .. على عالم يتفجع له .. من الجمادات كقوله :

أيـــا شجـــر الخابـــور مالك مورقـــا
كأنـــك لم تجـــزع على ابـــن طريـــف

أو بتهنئة فريقه بالراحة .. على من تقل وطأته .. كقوله :

القى الرماح ربيعة بن نـــــزار

.. هذه هى الأساليب .. التى كانوا يتبعونها فى الشعر ونفروا عمن خالف فيها .. أو ند عنها .

أما الصناعة فلها تعاليم أخرى .. استوفاها .. بعد ابن المعتز فى البديع . صفى الدين الحلى والباعونية والنابلسى .

ومكان ذلك اللون من الأدب .. فى منأى .. عن اللون الذى اطلقوا عليه اليوم .. اسم الأدب الواقعى لأن النموذج المصور للواقع .. يتجرد من الخيال والافتعال ، باسلوب خلو .. صرف ، لا دخل فيه للصنعة .. ولا يد للتنميق ، بينما عنى أصحاب الصنعة فى آدابهم بتجريد الصورة .. من اطارها الجوهرى .. ومثالبها العرضية ، حيث ادخلوا فيها .. عناصر من الخيال ، لتجمل ما اخرجوه وتزين ما بنوه .

وليتهم وفقوا فيما صنعوا أو أبدعوا .. فيما كتبوا ، ولكنهم .. بحكم غلبة العجمة حادوا عن النهج البلاغى .. الذى سلكه أمثال ـ قدامة بن جعفر ـ أو عبد الحميد الكاتب أو الجاحظ أو الجرجانى .

لذلك .. أذاب بيانهم ، الصهر النقدى ، فلم يلمح له بريق جودة ، ولا سلامة من ركاكة ، ولا استقامة من اعوجاج .

وليس فى عزوف هذا الأدب .. عن اصطباغه باللون الواقعى من عيب سوى عدم تطابقه لمقتضى الحال .. فى نظر المتقدمين ولا لتوغله .. فى تتبع الاسجاع دون ما داع .. وانحرافه .. عن ارسال الكلام ارسالا ، غير العجز .. عن اعطاء اللفظ حقه من المنطق ، فساء العذر وساءت النتيجة .

مَناهِــل الثقــافة

لم يختص بالشعر أمة دون أخرى ، بل لكل أمة منه مايعبر عن شعورها ، وتستروح به عقب النصب ، فيفيض على النفس سلوانا من متاعب الحياة .

وكادت العرب أن تكون أمة شعرية ، اتخذته أداة قيد لمآثرها ومفاخرها ، تستحث بنغماته الرواحل فى البيد ، وقد أولعت به منذ البداية وهى أمية . وكان الشعر يتقيد بأوزان وقواف ، حصر ضروبها الخليل الفراهيدى ، وتناقل عنه العلماء ، وضبط الخليل بن أحمد أوزان الشعر العربى إلى خمسة عشر أصلا ، سماها البحور ، وخالفه فى ذلك الاخفش ، فجعلها ستة عشر ، وكان بحر المتدارك هو الذى أثبته ، وتسميته بالبحر لها علة ، وهى كونه يغترف منه كل من أراد ، فليس هو وقفاً على أحد ، أما البحور التى وجد الخليل شعر العرب موزوناً بها ، فهى على تسميته ، الطويل والمديد والبسيط والوافر والكامل ، والهزج والرجز والرمل والسريع والمنسرح ، والخفيف والمضارع والمقتضب والمجتث والمتقارب ، وشرحها مبسوط فى العروض .

ولمع فى حضارة العرب شعراء ، كان لهم أثر بارز فى تطور الشعر وتجديد أوزانه . فأحدث المولدون أوزاناً استنبطوها من عكس دوائر البحور وهى :

المستطيل ، وهو مقلوب الطويل ، والممتد ، وهو معكوس المديد ، والمتوافر ، وهو محرف الرمل ، والمتئد ، وهو مقلوب المجتث ، والمنسرد ، وهو مقلوب المضارع ، والمطرد وهو صورة أخرى من مقلوب المضارع ، ومن الأوزان التى استحدثوها مافعله أبو العتاهية ، إذ نظم على أوزان لاتوافق ما استنبطه الخليل ، فلما انتقد على هذا قال : أنا أكبر من العروض . ثم خرج الشعر عن افقه التقليدى وتعددت مناحيه ، فنشأت بحور أخرى لاعهد للعرب الأوائل

بها ، وذلك حين امتد سلطان العرب ، وانضوت تحت لوائه أمم وشعوب تختلف لغاتها ، فأفادت من أساليب تفكيرها وكثرة فنونها ، ولاسيما فى أواخر العهد العباسى ، وهذه الفنون هى المعروفة بالسبعة ، يرد ذكرها فى كتب الأدب ، وخلا أكثرها عن شرحها ، وهى .

السلسلة والقوما ، والموشح والزجل ، والكان كان ، والمواليا ، ومنهم من أضاف إلى هذه الفنون السبعة ، فن لزوم مالايلزم ، وفن التشريع ، وفن التقويف ، وفن التشطير ، وفن التخميس ، وفن العروض ، فكانت خمسة عشر فنا ، وقال الاشبيهى ، منهم من جعل فن الحماق من السبعة وغيره يقول . هو متولد من الزجل كما سنبين ، وعند جميع المحققين أن هذه الفنون السبعة ، منها ثلاثة معربة أبداً ، لايفتقر اللحن فيها ، وهى شعر القريض والموشح والدوبيب ، ومنها ثلاثة ملحونة ابدا وهى ، الزجل والكان كان والقوما ، ومنها واحد ، هو البرزخ بينهما ، يحتمل الاعراب واللحن معا ، وهو المواليات ، وقيل : لايكون البيت منه بعض ألفاظه معربة وبعضها ملحونة ، فان هذا من اردأ العيوب التى لاتجوز ، وانما يكون المعرب منه نوعاً بمفرده ، ويكون الملحون لايدخله الاعراب .

وقد أوضح قاعدة الجميع وأمثلتها صفى الدين الحلى فى ديوانه وسماه . العاطل الحالى والمرخص الغالى ، وصاحبه شاعر مجيد من شعراء العراق ، وله فى فن الموشح مبتكرات ، ويقول المؤرخ الدمشقى المحبى فى خلاصة الأثر . إن أول من نظم الموشح المغاربة ، وهذبه القاضى هبة الله بن سناء ، وتداوله الناس إلى الآن ، وسمى موشحاً لأن خرجاته وأغصانه كالوشاح له ، وسبب تقدمه على غيره من الفنون لاعرابه كالشعر ، لكن يخالفه بكثرة أوزانه ، وتارة يوافق أوزان الشعر وتارة يخالفه ، وذكر العروضيون ان أول من نظم الموشحات من أهل الأندلس مقدم بن معافر ، فى أواخر القرن الثالث ، لكن حقق الدكتور جودت الركابى فى كتاب الشعر فى العصر الايوبى ، أن أول صانع للموشحات فى الأندلس هو القبرى الضرير ، وقال مصطفى صادق الرافعى فى كتاب تاريخ الأدب العربى : ولم نظفر بكلام عن هذا ، ولاتكشف لنا من تاريخه شىء . أقول — وقد تكشف لنا ذلك ، فهو القبرى الضرير ، وليس الغربرى كما فى تاريخ الأدب ، ولا الغيرى ، كما هو المشهور ، ولا الغريرى كما فى كتب التاريخ . وفوق

كل ذى علم عليم .

وقد كسدت هذه الصناعة فى أول الأمر ، حتى نشأ عبادة القزاز ، فأجاد فيها ، وانتقل هذا الفن إلى المشرق ، فنسجت المشارقة على منواله وأوزانه ومثاله .

يا جــيرة الابــرق اليمان هل إلى وصلــكم ســبيل

وفى مقدمة ابن خلدون المؤرخ قال : وأما أهل الأندلس ، كثر الشعر فى قطرهم ، وتهذبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التنميق فيه الغاية ، استحـدث المتأخرون منهم فنا سموه بالموشح ، ينظمونه أسماطا وأغصانا ، أغصانا يكثرون من أعاريضها المختلفة ، وأكثر ماتنتهى عندهم إلى سبعة أبيات ، ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الاغراس والمذاهب ، وتجاروا فى ذلك إلى الغاية ، واستطرفه جملة الخاصة والكافة ، لسهولة تناوله وقرب طريقه .

ومن محاسن الموشحات وغررها ، موشحة ابن سهل ، شاعر أشبيلية وسبته ، فيقول فيها :

هل درى ظبى الحمى أن قد حمى قلــب صب حلــه عن منكس
فهــو فى نار وخفــق مثلما لعبـت ريـح الصبــا بالقبس

وقد نسج على منواله أبو عبد الله الخطيب ، شاعر الأندلس والمغرب ، ومستهل موشحته .

جادك الغيث إذا الغيـث همى يا زمــان الوصــل بالأندلس
لم يكن وصــلك إلا حلماً فى الـكرى أو خلسـة المختلس

أما لزوم مالايلزم ، فقد نظم أبو العلاء المعرى فيه ديوانه المشهور باللزوميات ، وقال فى مقدمته مامعناه القافية تلتزم لها لوازم يفتقر إليها حشو البيت ، ولعله أول من نبه على هذه الصناعة ، وهو لم يدعها لنفسه لأنه نهج مطروق .

وقد التزم ابن الرومى فى كثير من قصائده مالايلزم ، وقد التزم حركة الفتح ماقبل الروى فى قصيدة على امتداد النفس فيها وهى التى يقول فيها :

لما تؤذن الدنيــا به من صروفها يكون بكاء الطفـل ساعــة يولد

مناهل الثقافة

كان العرب سادة البلاغة فى الجاهلية والاسلام ، وشعرهم الجاهلى والاسلامى كما يقول محمد كرد على فى كتاب الاسلام والحضارة سواء فى بلاغته وفصاحته ، لاينظم إلا بالمناسبات ، ويكفى فى بيان تأثير الشعر فى العقول أن الرسول عليه السلام كان ينصب لحسان بن ثابت منبراً فى المسجد ، يقوم عليه ينافح عن الرسول ، ومئات من الصحابة كانوا شعراء مجيدين ، وكان لهم فى الجاهلية من الدقة فى الموضوعات التى خاضوا عبابها ماكان ، وزاد شعرهم فى الاسلام رقة ، خصوصاً بعد تمام الفتوح وغشيان شعراء العرب الخلفاء والولاة فى مصر والشام والعراق وغيرها .

وكان الأمويون يفضلون كثيراً على الشعراء ــ ومنهم أمثال الاخطل ونابغة بنى شيبان . وفى طبقات الشعراء لأبن سلام قال عمر بن الخطاب : كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد ، وغزوا فارس والروم ، ولهيت عن الشعر وروايته ، فلما انتشر الاسلام ، واتسعت الفتوحات ، واطمأنت العرب فى الأمصار ، راجعوا رواية الشعر ، فلم يئلوا ، أى لم يلجأوا إلى ديوان مدون ولاكتاب مكتوب ، فألفوا ذلك ، وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم منه أكثره ، وقد كان عند النعمان بن المنذر منه ديوان فيه اشعار الفحول وما مدح به هو وأهل بيته ، فصار ذلك إلى بنى مروان أوماصار منه .

هذا ماكان من الشعراء ، أما النثر ، فأخذ يرتقى فى الاسلام ونبغ فى العرب خطباء عظماء أمثال زياد والحجاج وعتبة بن أبى سفيان ، وتلك الطبقة العالية من خطباء الخوارج ، وفى الكامل للمبرد ، والمظنون أنه لم يأت بعد على بن أبى طالب رضى الله عنه أوضح ولا أخطب من زياد والحجاج ، وفى البيان والتبين عد الجاحظ من الخطباء فى خلفاء بنى أمية معاوية ويزيد وعبد الملك

ومعاوية بن يزيد ومروان وسليمان ويزيد بن الوليد والوليد بن يزيد ، والوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز ، قال محمد كرد على ـ كان الأدب العربى يرتقى ويتدنى بفضل الحكومات وعلى مقدار أخذها بأيدى الشعراء والكتاب ، كان الشاعر المشهور فى الدولة الأموية ، هو الذى خاض فى مسائل سياسية ، ودعا إلى عصبية ومدح بعض القائمين فى الأمر وقدح فيهم ، وفاخر بقومه وملته ، والموافقون للخلفاء يلقون منهم أبداً معاضدة ورفداً ، وعلى هذا جرى الشعر فى دولة بنى العباس ، ولايكاد يشتهر فيها إلا من لابس الكبراء ، وتقرب من قلوب الخلفاء بهذه الضروب من الشعر وأهمها فى نظرهم المديح والهجاء .

وكان الشعراء منذ عهد الراشدين بل منذ عهد صاحب الشريعة يدعون إلى قول الشعر بما يخدمون به الدعوة الدينية أولا ، ثم الدعوة السياسية ، ومنذ عهد حسان وأغراض الشعر تدور على هذا إلى أن تأذن الله بمضى ذلك العهد فتولى من الأعاجم من لايفهمون الكلام العربى ، فضلا عن أن يقيموا للبلاغة وزناً .

وبدأ الشعر ينحط منذ قل فى الولاة من يقدره قدره ، ويثيبوا عليه ، وأخذ النثر فى القرن الرابع يتدلى بظهور أناس من الكتاب تعلقوا بالأسجاع ، ومن أشهرهم الصابى وابن عباد وابن العميد ..والخوارزمى واضرابهم ممن اخرجوا الكتابة عن طريقها المرسلة التى حصرت فى التأليف ، وتشبث كتاب الدولة بالسجع ومنه الطبيعى وأكثره متكلف ، فاعتور الانحطاط علوم الأدب وما اليها ، منذ انقطع فى القرن الخامس ظهور كبار الشعراء ، وبقى فى الشعر بقية من قوة إلى حوالى القرن السابع ، فتدهور بعد ذلك تدهوراً عظيماً ، إلى أن جاءت القرون الأخيرة فأصبح هيكلا من العظم لا دم فيه ولا لحم ، وكان ضعف الانشاء على تلك النسبة ، فأمست كتابة المؤلفين ضعيفة معقدة ، لا رشاقة فيها ولا سلاسة ، إذ أخرجت من قوانين السجع والترصيع ، تفقد جمال الديباجة وتندر المعانى وينعدم الابداع ، ويستغرب فى القرنين الثامن والتاسع ظهور مؤلفين ، مثل ابن خلدون وابن الخطيب فى المغرب ، والمقريزى والقلقشندى فى المشرق ، يكتبون العربية بهذه الرشاقة وهذا الابداع ، وماكان لهم شىء من لطف الآداء ، لولم يكونوا استقوا مادتهم من فحول الأقدمين ، ولولم ينطووا على علم كثير ومعارف واسعة ، وأصبح الأدب فى عهده الأخير عبارة عن شعر

مبتذل ركيك ، واستحال إلى أماديح لاغرض منها إلا تلقف الهبات أو غزل فج ، لايعدو غزل كل عصر بمعناه ، وهو رخيص مبتذل ، وللنثر أساليب منقولة وألفاظ مدخولة ، أفسدت اللغة بهذا البديع المريع ، ولو أردت أن تنقل إلى لغة أخرى ماكتب لاقتضى لك على الأقل ، أن تحذف نصف الجمل والتكرار ، هذا إذا لم يكن المعنى المراد آداؤه تافهاً فى ذاته ، ولايطالعك شاعر بصورة من صور عصره إلا إذا كان مما أخذ فيه وافر من التكليف والتعسف ، خلافاً لما نرى مثلا فى بعض شعراء عصرنا ، ممن إذا قرأت شعرهم تتجلى لك منه روح العصر أو أكثره ، ولم يأت أحد بعد القرن التاسع فى هذا الشرق العربى بضرب من الأدب يذكى بصاحبه وينتفع به فى غابر الأيام ، أو تآليف طريق لايستغنى عنه جمهور الناس ، ويعد ضياعه نقصاً فى بنيان التآليف العربية ، وإذا كتب لأحدهم الولوع بالأدب ، فيكون ذلك عن باعث نفسى فقط ، يتزين به صاحبه بين الملأ ، ويتجمل بطرائفه بين الأقران ، وضاق المحيط على الشاعر والكاتب ، فأصبح ابن قطر من الأقطار منعزلا عن البشر ، يتوهم أن أفق عالمه ينتهى ببلده ، ولايعرف ابن الشام شيئاً يذكر عن ابن بغداد ، وابن اصفهان ونيسابور لايبلغه عن ابن سمرقند ويلخ إلا أخبار متقطعة فى السنين الطويلة ، وفترت الهمم عن الاتصال ، وصعب الارتحال على وفرة وسائل النقلة ويسرها ، واكتفى كل قوم بما وقع تحت أنظارهم من الأقطار ـ هذا ماكان من أمر الشعر والنثر ، وتاريخهما فى الجاهلية والاسلام طويل ، وتدنيهما إلى حد الهزال والهراء أيام التخلف أطول ـ بقى أن أقول كلمة فى النهاية ، وكانت العرب فى جاهليتها لاتعدم كل قبيلة خطيبها أو خطباءها ، كما لاتخلو من شاعرها أو شعرائها ،

ورقيت الخطابة فى الاسلام بفضل الرسول وأصحابه والخلفاء ، وقويت حين نجحت الخصومة السياسية فى تلك الأيام كما يقول الدكتور طه حسين فى الأدب الجاهلى . والذى دون من كلام الخطباء وروى من خطبهم ، آية البلاغة على وجه الدهر ، وجاء الاسلام وصاحبه أخطب أمته ، وفى أصحابه مصاقع الخطباء .. كالراشدين ، ومن قاموا باستصفاء اللسان والدين فى الامصار ، ماهو مفخرة من مفاخر الأمم .

وأتى الخلفاء الأمويون ومعظمهم خطباء ومنهم من يعد فى أرقى طبقات الكتاب ، وفى قوادهم وعمالهم نبغ الخطباء الأبيناء والكتاب الذين لايشق لهم

غبار ، وكذلك خلفاء بنى هاشم ورجالهم ، وكذلك خطباء بنى على وخطباء الخوارج والمعتزلة .

كلام فى الفكر

* شاهدت .. بعض حلقات « ندوة الأسبوع » ، التى يتحاور فيها بعض الدكاترة عندنا ، فى موضوعات .. تختص بالأدب ، عبر شاشة التلفاز ، وربما فاتتنى بعض الحلقات وأنا .. فى سفر .

وقبل .. أن أمضى .. فى هذا الحديث ، فأنى .. أحمد لأخواننا الدكاترة هذا الاهتمام بأدبنا ، تراثا كان أو معاصراً ، فى هذه الفترة .. التى يصور فيها الأدب عندنا بالركود .

ولعل .. هذه الحوافز .. من دكاترة الأدب ، تعين .. على بعث أدبى جديد ، وتدفع المختصين .. إلى البحث والدرس والانتاج الجيد فى مستقبل الأيام ، لأن حياة بغير آدب ، هى حياة .. جافة قاحلة .

ولا أدرى ما صحة ماراه بعضهم من أن العلم والأدب يتصارعان ، ولهذا يمكن القول ، بأن العصر .. الذى نعيش فيه عصر علم فقط ، ولامجال للأدب فيه ، لأن العلم .. انتصر وقوى على الأدب ، فاختفى الثانى بهذا النصر العلمى العريض .

وفى تقديرى ، أن العلم والأدب يكمل أحدهما الآخر ، ويخدمه ويتيح كل منهما للآخر المجال .. للتوسع والانتشار .

فلا أتصور حياة أدب .. بغير علم ، ولا علم بغير أدب ، هما عنصران أساسيان فى الحياة ، وقد يضعف أحدهما ويقوى الآخر ، تبعاً لظروف الحياة ومتطلباتها ، والاهتمامات .. التى توجه لهذين العنصرين ، قوة وضعفاً ، وفقاً .. لتبعات الحياة ، واتجاه الانسان وطموحه وأهدافه .

وقبل .. أن أعقب على ندوة الأخوة الدكاترة ، ينبغى .. أن أشير إلى ظاهرة ، تثار .. بين الحين والآخر فيما يشبه الهجوم .. على حملة الشهادات العالية ، حتى يصل التفسير لهذه الظاهرة ، بأنه شىء يشبه الحسد ممن لم يتح لهم التحصيل العلمى العالى .

وينبغى .. على الذين يعنون .. بقضايا الفكر وقضايا المجتمع والعلم ، الا يحدثوا هذا الفراغ أو هذه الفجوة بين حملة الشهادات العالية ، ومن لم يصلوا إليها ، ممن قعدت بهم ظروف الحياة أو طموحهم إلى اختصار مسافة السعى وراء الشهادات العالية .

ولايفوتنى أن أذكر ، أن حملة الشهادات العالية هم أخوتنا وأبناؤنا ، أخى وأخوك وإبنى وابنك ، وابن عمك وخالك الخ ، ثم هم أبناء هذه الأرض وهذا التراب ، ليسوا غرباء ولاطارئين على الأرض .

أنهم رجال ، تحملوا المتاعب ، وقضوا السنين ، يقرأون ويبحثون ، جادين ومضحين ، حتى نالوا الدرجات العلمية ، فيما استنبطوا وقدموا من بحوث ، منحتهم الاجازات التى حصلوا عليها ، ثم عادوا .. ليشاركوا .. فى مسؤولية خدمة الوطن وبنائه فى تخصصاتهم ، فملأوا بعض المراكز فى الجامعة ، وفى أجهزة الدولة والقطاع الخاص .

ولاأريد أن أتحول فى موضوعى هذا إلى أمور جانبية ، تختص .. ببعض حملة الشهادات العالية ، الذين .. وضعوا .. فى مراكز إدارية .. بعيدة عن تخصصاتهم ، ولو وضعوا .. فى المكان المناسب ، لكانت الجدوى أكثر ، فيما تخصصوا فيه ، أو الذين شغلوا مراكز .. غير إدارية ، تختلف وتخصصهم الذى يمكن أن يبرزوا فيه ، بالتوسع .. فى أبحاثهم .. مما عنوا به .

هذا الموضوع جدير بالعناية ، لتحقيق نتائج أفضل ، حين يمارس المتخصص العمل .. الذى أعد دراسته وأبحاثه فيه ، وليس موضوعى هذا ، مناسبة .. لتناول هذه الناحية ، التى أرجو .. أن يعنى بها الجهاز الادارى فى الدولة .

وأعود .. إلى الندوة الأسبوعية فى التلفاز ، التى شارك فيها الدكاترة : عزت خطاب ، وأحمد الضبيب ، ومنصور الحازمى ، ونعيمان عثمان ، وهى ندوة ، تبحث فى أدبنا العربى قديماً وحديثاً ، تبحث فى عالمية الأدب العربى ، فى عصوره المختلفة ، وأنا أبارك .. هذه المحاولات الأولية ، وأرجو .. أن يتاح لها المزيد من النجاح ، وهى تعنى بمختلف قضايا الأدب العربى ، من جذوره .. إلى فروعه ، الأدب البعيد القريب والمعاصر .

والذى أرجوه .. من الأخوة الذين أتاحت لهم دراساتهم العالية ، الحصول على اجازات .. تمكنهم .. من انتهاج مسالك .. البحث الصحيح المركز ، وهو ماتوصف به الشهادات العلمية ، لأنها مفتاح الانطلاق .. إلى الدرس الجيد .. المركز ، على قواعد علمية وأسس سليمة ، وليست الشهادات عمقاً وتبحراً ، لايحتاج حاملها إلى مزيد ، لأن العلم والثقافة .. بحار لاساحل لها ، وقد أمرنا .. أن نطلب العلم من المهد إلى اللحد ، وليس كل حامل شهادة عالية .. بقادر .. على البحث العلمى ، وانما هو مهيأ ، إذا كان عنده استعداد لذلك ، وأصبر نفسه على المشاق ، وتحمل أعباء الدرس العميق ، فيما يريد أن يحققه ، وهى مهمة صعبة .. لايقوى عليها إلا أولو العزم ، لاسيما فى هذا العصر .. الذى يحترق أو يمضى بسرعة مذهلة ، فلايستطيع الانسان .. أن يلاحق نفسه فيه ، ليحقق مايريد أو بعض مايتمنى أن يدركه ، وما أكثر مشاغل هذا العصر ، وما أكثر همومه .. ومتطلباته .

أحاديث ندوة الأسبوع ، تكاد تكون سطحية وهامشية ، وأرجو أن يقبل منى الأخوة الدكاترة .. هذه المصارحة ، التى أصدقهم فيها القول ، فأنا أريد لهم ولندوتهم نجاحاً .. وقيمة ، تستحق الاكبار والتقدير .

والحديث فى الندوة يتشعب ، وقد يخرج أحد المشاركين فيها .. عن الموضوع المطروح إلى غيره .

وأنا والمشاهد الواعى الذى يتابعهم ، يريد منهم التركيز ، ويريد منهم عمق البحث ، وليس أحاديث عابرة شكلية ، بكلمات عن الأدب القديم ، وانتقالا فجأة إلى الأدب الحديث وكلمات .. عن الأدب اليونانى ، والفارسى والصينى ، وانتقالا إلى الأندلسى ، والشعراء المداحين ، وشكسبير ، وترجمة الأدب العربى .. إلى اللغات الأخرى ، فى أحاديث مرسلة سريعة ، أشبه بحديث عابر ، ليس فيه عمق البحث والدرس ، وإنما هى هوامش سطحية ، لاتمارس دراسة ، ولاتتصف بعمق المراجعة ، ولاتضيف إلى المشاهد الواعى جديداً .

أريد أن ألقى برأى .. إلى الأخوة الدكاترة ، ربما يجدون فيه شيئاً .. يمكن أن يكون مرتكزاً فى ندواتهم ، وهو أن يكون عندهم تسلسل ، وهم يبحثون .. فى قضايا الأدب العربى قديمه وحديثه . كأن يبدأوا .. بالأدب الجاهلى مراجعة وقيمة ، وماقيل فى هذا الأدب من الدراسات ، يصححون ..

مايرونه خطأ ، ويلقون بآرائهم فيه ، وماقيل عنه وفيه .. ليتناولوه ، فى كتب طه حسين ، حديث الأربعاء ، وفى الأدب الجاهلى ، وغير طه حسين .. ممن عنى بدراسة أدبنا القديم ، من الأوروبيين وغيرهم .. يخصصون حلقات .. للأدب الجاهلى ، وأخرى ، للأدب .. فى العهد الأموى ، ثم العهد العباسى ، من بغداد .. إلى الأندلس ، ثم الأدب فى عصور الركود والهمود والتخلف ، إلى أن يصلوا .. إلى عصر النهضة ، فى القرن التاسع عشر ، ثم أدبنا الحديث .

جوانب كثيرة أمامهم ، ودروب شتى ، على أن تتسم مناقشاتهم بالعمق والدرس ودقة الملاحظة ، والا تخرج المناقشة .. عن الجانب الذى يتناولونه بالبحث حتى يفرغوا منه .

أعترف ، بأن البحث الجاد العميق ، سيكلفهم المزيد من الجهد والمشقة ، ولا أدرى ، هل هم مهيأون لذلك ؟ هل ظروف أعمالهم ومسئولياتهم ، تتيح لهم .. النهوض بهذه المسئولية الضخمة ؟ فيمسك كل منهم جانبا بعينه ، يقتله بحثاً ومتابعة وفحصاً وتركيزاً .

مهمة صعبة فى تصورى ، والوقت عندهم .. أضيق من أن يعينهم على تحقيقها كما ينبغى ، وكما يجب أن تكون .

أما أن كان الهدف ، وفقاً لظروفهم ومشاغلهم ، وأن تكون هذه الأحاديث الخفيفة العابرة ، برنامجاً سريعاً ، يتناول هوامش ، فيها تذكير ولمحات .. عن الأدب العربى وغير العربى ، فان هذا البرنامج .. يؤدى هذا الغرض فى تزجية الوقت ، كأى برنامج عابر ، فيه شىء .. من تسلية ، لأنه أنتج فى سرعة وقدم فى سرعة وفى وقت محدود .

وسأمضى فى القول : بأننا نريد من إخواننا حملة الشهادات العالية ، أن يقدموا إلينا .. فى تخصصاتهم ممن يتاح له ذلك ، عمق الدراسة فى جدة ، وتركيز تناول ، ولاتشغلهم الوظيفة .. عن هذا الدور الكبير ، لأنهم جديرون بهذه المهام ، ولأنهم قد شقوا طريقهم الصحيح فى تخصصاتهم ، إلى السبل التى تؤدى بهم .. إلى تقديم حصيلة .. الدارس الواعى ، الذى يدرك أبعاد دوره وقيمة مايؤدى ، عن بصيرة وسعة معرفة ، ولاتتأتى المعرفة إلا بالدراسة العميقة المستأنية القوية ، لتكون النتائج .. التى يقدمونها ، جديرة بالبقاء

وجديرة بالاقتناء ، حين تحقق .. مايراد منها .. مما يثرى الحياة وينفع الناس .

وأرجو لكل ساع ومشارك فى بناء كيان وطنه وأمته ، مزيد العون والسداد .

رسالة الجامعة

في العدد الأول .. من مجلة « الكاتب المصرى » الصادر .. فى شهر شوال سنة ١٣٦٤ هـ الموافق شهر أكتوبر .. من سنة ١٩٤٥ للميلاد ، والتى كان يرأس تحريرها الدكتور طه حسين ، منذ خمس وثلاثين سنة قمرية ، كتب الأستاذ سليمان حزين .. فى هذا العدد مقالة بعنوان « الحرب .. والجامعات فى بريطانيا » تحدث فيه .. عن دور الجامعات فى بريطانيا ، والتحول .. الذى انتهجته الجامعات هناك ، قبل وبعد الحرب الكونية الثانية . وسأنقل مقتطفات من هذا الموضوع ، الذى شغل ثمانى صفحات وبضعة أسطر من تلك المجلة ، لما لهذه الأفكار .. من أهمية ، فهو يقول : « والذى يعنينا الآن .. من حركة التطور هذه ، أن نحاول أن نتبين مكان الجامعات من التحول الجديد ، ومبلغ مساهمتها .. فى ارهاف حساسية المجتمع ، لظروف البيئة والزمن وأطوارهما المتجددة ، بل مكانها .. من توجيه الفكر والحياة العملية العامة بالحياة العلمية والفكرية .. للجيل الجديد » .

ويركز الكاتب .. على دور الجامعات البارز .. فى الحياة العامة ، ومساهمتها فى ذلك إلى توجيه الفكر ، ولا أريد أن أكرر القول .. بجانب ما انقل من ذلك المقال دفعاً للاطالة والاملال .

ويشير الكاتب .. إلى أن الجامعات فى بريطانيا ساهمت كغيرها من أجهزة الدولة وأطرها ، « فاشترك رجال الجامعة وشبابها .. فى الحرب والقتال اشتراكاً فعلياً وأصبحت الدراسة مقصورة .. على من لم يبلغوا سن التجنيد ، أو على المتفوقين .. تفوقاً خارقاً ، والذين يدرسون دراسة خاصة ، تجعل من الخير للأمة .. استمرارهم لعلهم يساهمون .. يوماً ما فى تقدم العلم والمعرفة .. تقدماً يذكى من إنتاج الأمة وقدرتها .. أو على فئة قليلة .. من غير الصالحين للجندية والخدمة العسكرية .. فى أشكالها المختلفة » .

ويمضى الأستاذ حزين فى القول « وأصبح واجباً على الجامعات ، ان هى أرادت أن تؤدى رسالتها للمجتمع فى السلم كما أدتها فى الحرب ، أن تتخذ عدتها وأن تعدل سياستها ، وتجدد من اداتها الخاصة ومن طرائقها .. فى البحث والتعليم والتربية واعداد قادة الأمة فى المستقبل . ففتح المجال أمام التفكير الحر .. فى شئون الجامعة ووظيفتها فى المجتمع ، وكثر النقد ، واتسعت دائرته حتى شملت الجامعة .. بمعناها الأوسع فشارك فيه رجالها وأبناؤها ، وخريجوها .. فى مختلف مناحى الحياة ، بل شارك فيه رجال الأعمال والحياة العملية ، فى السياسة والصناعة والتجارة وما إليها ، فدعت الأساتذة الأجانب الذين لجأوا إليها .. من بلاد أوروبا قبيل الحرب وخلالها وكانت كثرتهم من قادة الفكر الحر .. فى القارة الأوروبية ، إلى المساهمة فى المناقشات الدائرة حول رسالة الجامعة .. فى المجتمع والجيل الجديد . وترتب على هذا كله .. أن خرجت الجامعات البريطانية من الحرب .. ببرنامج جديد يساير الزمن ، بل يسبق الحاضر إلى ماينبغى أن يقوم عليه المستقبل ، يحفظ للجامعة روحها وتقاليدها وتراثها ، وأن تحفظ لكل جيل وكل زمان .. حقه فى أن يفكر بنفسه لنفسه » .

« ان الجامعة .. إذا لم ترتبط بالبيئة المحيطة بها ، لم يعد لها وجود مميز ، وإذا لم ترتبط .. بحياة المجتمع وتحس حاجته العقلية والثقافية ، لم تستطع أن تستجيب .. لتلك الحاجات ، استجابة تعين المجتمع .. على أن يؤمن بقيمتها ، فيستجيب هو من ناحية ويتأثر بما تغذيه الجامعة .. من نتاج العقل وثمار الفكر . ويحرص الجامعيون الآن .. فى بريطانيا حرصاً شديداً على أن يؤكدوا للناس من جديد ، أن الجامعة .. بعيدة كل البعد عن أن تكون مجرد (معهد عال) .. يمثل ــ المرحلة العليا ــ من نظام التعليم العام .

فهى أكبر من ذلك وأعم من ذلك ، إذ هى تتصل .. بحياة الشعب وثقافته كلها داخل نطاق التعليم .. وخارجه » .

« والجامعة .. إلى جانب ذلك ، تعنى بناحية ثانية ، فهى القوامة .. على الأبحاث والدراسات التى تساهم بها الأمة .. فى تقدم العلم وازدياد المعرفة الانسانية ، وهذه الأبحاث ينبغى أن تشمل .. نواحى المعرفة جميعا ، سواء فى ذلك علوم العقل والثقافة الخالصة ، وعلوم المادة واستغلالها العملى .. فى قضاء

مصالح المدينة . وبدون هذه الأبحاث لايكتمل للجامعة كيانها ، ولاتعتبر جامعة بالمعنى الكامل الصحيح . بل أن من رأى القائمين على شئون الجامعات فى بريطانيا الآن .. أن من الواجب أن تهيأ الظروف بعد الحرب ، لينفق رجل الجامعة نصف وقته .. على الأقل فى اجراء الأبحاث العملية الخالصة كما أن من رأيهم .. أن ترفع الدولة اعانتها للجامعات .. إلى خمسة أمثال ماكانت تدفعه قبل الحرب ، وذلك .. حتى تتيسر ظروف البحث ووسائله ، من اقامة المعامل ودور .. التجارب وحقولها وغير ذلك » .

« ومن النواحى .. التى تعنى بها الجامعة فى اداء رسالتها ، أن تكون اداة .. لاذاعة المعارف ونشرها عن طريق التعليم ، وكثير من الجامعيين لايستطيعون أن يتصوروا وجود الجامعة ، إذا لم يقترن فيها البحث العلمى ، وتقدم المعرفة بالتعليم ونشر تلك المعرفة لاسيما بين شباب الأمة » .

« والجامعة ، لاتكون جامعة .. إلا إذا كانت مقراً للثقافة القومية العليا ، ومركزاً للبحث العلمى الخالص ، وداراً للعلم والتعليم ، وتخريج العلماء الناشئين ، والمواطنين الصالحين فى مختلف مناحى الحياة » .

« واهتمت الجامعة ، بل تحولت إلى مايسمى بـ (التعليم المهنى) كالهندسة والطب ، فزاد ارتباط الجامعة بالحياة العملية العامة ، حتى أحس رجال الجامعة فى الفترة الأخيرة انه أدى إلى نوع متطرف من التخصص فى التعليم ، فانصرفت جهود الجامعة .. إلى تخريج المحترفين .. الذين يجيدون المهن المختلفة ، ولكنهم لاينالون القدر الكافى .. من الثقافة الجامعية العامة . فالطبيب الجامعى مثلا ، قد يكون طبيبا ماهراً ، ولكن انصرافه الشديد لاتقان تعلم مهنته أثناء وجوده فى الجامعة ومستشفياتها يصرفه عن الافادة من وجوده فى الجامعة ، لتوسيع ثقافته العامة ، واستكمال أسباب تكوينه كمواطن .. يجب أن يتفهم المجتمع الذى يعيش فيه ، وأن يدرك قيمة مهنته .. فى الحياة العامة ، وكذلك حال المهندس وغيره ممن يتخرجون فى الجامعة وحتى فئة المدرسين قد يتبين الآن ، أن الجامعات فى بريطانيا .. لاتخرج منهم إلا ربع من تخرجهم دور المعلمين وذلك يعتبر نقصاً ، تسعى .. الجامعات إلى تلافيه ، إذ أن من يريد أن يحترف مهنة التعليم ، هو أولى من غيره بالحياة فى الوسط الجامعى ، والافادة منه فى تكوينه الثقافى العام ، إلى جانب اعداده .. لمهنته الخاصة » .

« وجانب آخر يستحق عناية خاصة « وهو جانب التربية الخلقية ، التى لايقصد بها هنا ترويض الطالب الجامعى .. على الخلق الكريم ، والاخلاق الفاضلة ، إذ ليس من وظيفة الجامعة .. تهذيب النفوس ، بعد أن يصيبها السقم ، وتقويم الخلق بعد أن يعوج ، ولن تستطيع الجامعة .. أن تحل محل البيت والمدرسة ، ولا أن تصلح .. ما أفسداه إلا بقدر محدود . لذلك يرى الجامعيون .. أن يقتصر التهذيب الخلقى فى الجامعة .. على ماتستطيع أن تتقن ، فتعين الطالب .. على تربية شخصيته .. فى دور الشباب ، وتحول نشاطه الفائض إلى ماينمى فيه روح الجماعة ، وتعوده .. تحمل المسئولية وقبول التضحية ، كمواطن يعيش للمجتمع .. كما يعيش لنفسه . ويذهب بعض الجامعيين فى بريطانيا .. إلى أن يقترح الخدمة العسكرية الاجبارية .. على الطلاب خلال عام ، قبل تقدمهم .. للدراسة الجامعية مباشرة ، فهى خير مايعود الطالب الطاعة ، ويجبله على حب العمل فى الجماعة ومن أجلها . وأن كانت كثرة رجال الجامعة ، ترى من الممكن تربية الشخصية وإنماء روح الجماعة فى الطالب إذا توسعت الجامعة .. فى تكوين جمعيات الطلبة ، من رياضية واجتماعية وعلمية وأدبية ، فهى التى تمكن الطلاب من أن يفيدوا .. إلى أبعد حد مما يعرف بالحياة الجامعية فى أوسع معانيها ، كل ذلك يعين الطالب .. بعد تخرجه ، على أن يصبح مواطناً صالحاً مهما كانت مهنته فى المجتمع ، عالماً أو طبيباً أو مهندساً أو معلماً أو غير ذلك » .

هذه أفكار ، رغم أنها .. مضى عليها أكثر من ثلث قرن ، إلا أن فيها أسساً وبناء وأنا لا أشك .. فى أن جامعاتنا تدرك دورها الكبير .. فى المجتمع ، برجالها وسعة آفاقهم ، وأنهم .. يستطيعون التخطيط السليم ، فى ظل وزارة التعليم العالى ومجالسها التى تضم نخبة ممن نالوا قسطاً وافراً من التعليم العالى ، يمكنهم .. من النهوض بجامعاتنا لكى تؤثر فى المجتمع وتقوده نحو الرقى والوعى والحياة الكريمة ، بما يسمى الانفتاح الواسع على المجتمع ، وإلا يقتصر دورها .. على تخريج أفواج من الطلبة والطالبات بما يتلقون .. من منهج دراسى ، قد يكون فى معزل عن المجتمع الذى سيخرج إليه الناجحون بشهاداتهم فقط ، وإنما هو الاندماج .. بمعناه العريض فى الحياة العامة ، دراسة وسلوكاً ومنحى ، وتأثيراً بآفاق واسعة وحصيلة علمية وثقافية ومهنية ، ليتحقق دور

الجامعة الكبير .. فى الحياة العامة نفسها ، تنعكس عليها ، وتغرس فيها الوعى والنظام ، والالتحام نحو الأفضل والأشمل ، على مسلك من السمو .. الذى رسمته شريعة الله من أجل خير الدنيا والآخرة .

قاهر الظلام

* منذ أن سمعت عن التفكير .. فى موضوع تحويل كتاب .. كمال الملاخ عن طه حسين ــ قاهر الظلام ــ وأنا أتوق إلى هذا العمل ، بكثير من التخوف ، فالعمل السينمائى تجارة للربح . ماذا سيفعلون .. بشخصية طه حسين ؟ . ومن هو البطل .. الذى سيتقمص شخصيته ؟ وكم نسبة النجاح .. فى هذا التقليد ؟ وأين العمق الثقافى والبعد الفكرى ، عند من نجدهما ليوازيا أو يقربا من العميد ؟ .

وكنت أستبعد نسبة النجاح ، وكنت مشفقاً .. من التشويه والتلفيق لاسيما السينما اليوم وهى عمل تجارى بحت ، ندرة الفن فيها كندرة الذهب فى عالم اليوم .

* ويوم يتحول كل شىء أو أشياء كثيرة .. إلى تجارة ، تفسد الحياة ، وتصبح .. غير ذات موضوع وغير ذات قيمة ، رغم الكلمات المعسولة .. التى تردد ، بأن الحياة حلوة ، وهى كذلك مع الايمان والصدق والخير والايثار ، هى كذلك .. فى ظل إنسانية ووفاء وغيرة ، وهى غثاء .. لايعبأ به ، إذا انسلخت .. من المثل والأخلاق والفضائل ، حين يصبح الكذب والخداع والتدجيل ، هى لغة وأساليب التعامل بين الناس .

قبل شهر ونصف ، عرض .. فى إحدى دور السينما بالقاهرة .. لقطة من الفيلم ــ قاهر الظلام ــ وكانت الشخصية .. التى تمثل طه حسين ، هو الممثل ــ محمود ياسين ــ ولايستطيع المرء .. الحكم .. على لقطة فى شكل إعلان .

* وعرض الفيلم فى الأسبوع الثالث .. من شهر فبراير ، وأتيح لى مشاهدته ، وهو عبارة .. عن لقطات .. من بعض حياة عميد الأدب العربى .. الدكتور طه حسين ، لأن حياة هذا الرجل الحافلة ، لايؤديها فيلم .. مدته أقل من ساعتين .

وكمال الملاخ رجل آثار ، وليس برجل تاريخ ، يترجم .. للرجال ثم هو منح فيلم قصته جائزة أحسن فيلم حين أنتج ، وكان الملاخ رئيس لجنة تقويم الأفلام .. فى عام ١٩٧٨ وهو مجروح .. فى هذا الحكم ، من واقع .. مركزه الذى يفرض المجاملة .

دعونا من هذا ، ولنبدأ .. فى استعراض الفيلم وقصته .

١ ــ الفيلم وقصته ، يبدآن .. مع طه حسين ، منذ طفولته مع التقديم والتأخير فى العرض ، حسبما يقتضى العرض الفنى والتجديد فيه ، ونرى حلاق الصحة ، وهو يضع قطرات .. مادة زرقاء .. فى عينى الطفل طه ، فيصرخ من الألم ، ونراه بعد ذلك .. فى الكتاب يتلقى القرآن الكريم ، فى لقطة سريعة جداً لاتعطى فكرة .

٢ ــ نجده بعد ذلك فى لقطة سريعة ، وهو يدخل الأزهر ، ويقول له الآذن أو الفراش .. فى الجامع ساعة دخوله .. لامتحان القبول ، أدخل يا أعمى ، فيمتعض الفتى ويتردد فى السير .

وفى قصة .. حياة طه حسين ــ الأيام ــ التى أملاها بنفسه ، يذكر العميد أن أحد رجال الأزهر ، هو الذى قال له : اقرأ ياأعمى ، وليس الفراش الذى قال له .. ادخل . ولانجد .. بعد ذلك شيئاً من قصة حياته فى الأزهر ودراسته فيه .

كما نجد لقطة أخرى سريعة عن دخوله للجامعة المصرية وحصوله .. على الشهادة .

٣ ــ وتأتى .. بعد ذلك .. رحلته إلى فرنسا ، ليدرس هناك فى السربون وتعرفه على سوزان التى أصبحت فيما بعد زوجه .

ونرى فى الفيلم .. فتاة فرنسية ، ولكنها تتكلم العربية ، وكم كان جميلا .. لو كان حديث الفتاة الفرنسية بلغتها عينها ، وتعمل ترجمة .. لحديثها .. مع طه ، ويبدو .. أن المشكلة هى أن محمود ياسين ، لايتقن الفرنسية ، وهذه فجوة .. فى الفيلم .

٤ ــ وبعد عودة طه .. من فرنسا وقد حصل على الدكتوراه ، عين محاضراً .. فى كلية الآداب ، وقدمه إلى الطلبة ، رجل .. ربما كان عميد الكلية ، وكان ينبغى فى هذا الموقف .. أن يتحدث طه حسين وهو يستقبل يومه الأول ، فيؤتى بشىء

من تسجيلاته مما يلائم الموقف .

٥ ــ وينتهى الفيلم بعد تعيين طه وزيراً للمعارف .. فى سنة ١٩٥٠ م واعلانه لذلك القرار الذى لاينسى وهو مجانية التعليم فى مصر . وأن العلم للانسان .. كالماء والهواء ، وهو قرار شجاع لم يسبقه إليه أحد فى مصر .

٦ ــ ولانعلم .. من الفيلم شيئاً عن حياة طه فى المجمع اللغوى أو غيره من حياته العامة ، ولا فى المؤتمرات العديدة .. التى شارك فيها . ولامعاركه السياسية .. والأدبية وخصوماته .

فهل نستطيع بعد ذلك أو قبله القول ، بأن هذا الفيلم يصور حياة طه حسين ؟

لا أحد يستطيع أن يقطع بذلك ، فهذه اللقطات السريعة العجلى لاتصور حياة طه حسين إلا فى القليل النادر .

ولو مد وقت الفيلم ساعة ، لألم بشىء .. من جوانب حياته العريضة ، سواء .. ماقدم منها كلمحات أو مايشير إليه بشىء .

٧ ــ لا أنكر ، أن محمود ياسين ، أدى الدور .. عن طه بقدر ما أتيح له ولكنه .. ليس كشخصية طه وعملقته ، ولا فى شىء من ثقافته وطول تجاربه ، ولكن .. يبدو ان هذا ما امكن تقديمه فى تجارة السينما .

والمسألة قبل ذلك وبعده .. تجارية بحتة ، بدءاً من القصة التى لم يكتبها متخصص ، يستطيع تصوير حياة طه حسين كما ينبغى .

ولو حولت الأيام إلى فيلم ، وأختير ممثلون كبار ، يمثلون حياة طه حسين وسوزان لرأينا العجب من هذه الحياة الحافلة بالجهاد فيها حتى بلغ صاحبها القمة ، بعبقريته واصراره وعناده وصبره وبلائه فيها ، حتى تسنم أعلى المناصب والدرجات العلمية ، وهو الفقير المحتاج ، غير أن صبره وقوة ارادته والعزيمة .. التى لاتفلها الخطوب ، هى سبله ، وبهذه الأسلحة الماضية استطاع هذا العبقرى أن ينتصر ، وأن يجتاز المتاعب والمصاعب ، وأن ينجح ، ويتفوق وينتصر آخر الأمر . ولم يرضخ لهزيمة ولم يأبه للخطوب ، ولم يتراجع ولم .. يتقهقر .. أمام الحروب .. التى خاض غمارها وأنما ثبت وقاوم ، وصحح خطأه .. الذى وقع فيه يوما ما . ومضى فى رحلته ، لم ييأس ولم يرح ولايستريح لم يضعف .

٨ ـ وليت هذا الفيلم كان له المزيد من العناية ، واستقصاء حياة طه ، حتى يكون صورة قريبة منه ، غير أن التجارة شيء والعمل المتقن الجيد .. شيء آخر .. بعيد جداً .. وما كنت .. لأتوقع عملا كهذا .. يكون بهذا النقص .

ولو سمى لمحات من حياة طه حسين أو من بعض حياته ، كمحاولة أولى لكان أصدق .

ورأيت رواد هذا الفيلم .. غير كثير ، لأن الناس يريدون غير هذا اللون من حياة الكدح ، يريدون المآسى والفرح والضحك واللهو ، وحتى العبث ، وينفرون من الأشياء الجادة والحقائق ، وحتى المثقفين لم نرهم .. فى ساحة هذا الفيلم .

٩ ـ والعجيب أن يعلن ، أن السيناريو عرض على توفيق الحكيم وبعض الأدباء . والسؤال : ماذا يعنيهم من نجاح أو فشل هذا الفيلم ؟

فتوفيق الحكيم خصم لطه حسين ، ولأحدنا .. أن يسأل ماذا كتب الحكيم .. بعد غياب طه .. صديق العمر ؟

لقد كانت هناك خصومات بينهما ، ترقى أو تهبط .. إلى حد القطيعة ، والآخرون قد لايهمهم فى شيء هذا العمل .. الذى لايمثل حياتهم هم أنفسهم .

ويبقى بعد ذلك الحكم .. لمشاهدى هذا الفيلم ، والذين يلمون بحياة عميد الأدب ودارسى كتبه ، بدءاً من الأيام إلى آخر ماكتب وألف .

١٠ ـ ومحمود ياسين ، يحترق ، لأنه يشارك فى الاذاعة والتلفاز .. والسينما بشره ، وليس هذا مسلك الفن والعمل المتقن فيه ، فالانتشار احتراق ، وهذا العمل بعيد جداً .. عن الاتقان والآداء الجيد ، الذى ينبغى الاستئناء فيه ، والريث والترتيب ، وطول التأمل والأناة .

ومحمود ياسين .. بهذا الاحتراق ، لايستطيع أن يحقق هذه الأسس ، ورجل الآثار .. كمال الملاخ يحتاج إلى أناة ووقت ليكتب ويصور حياة طه حسين .. كما ينبغى .

والعمل التجارى الخاطف شيء آخر .. مختلف .. عن الفن ومناخه وآدائه ، وماينبغى له .. من موضوعية وتجويد وصحة معالجة ، ليكون قيمة ، ومغزى ومعنى .

١١ ـ من المؤسف أن الأعمال الفنية اليوم ، لاتسعى للرقى بذوق الناس ، وإنما تسعى للهبوط بها ، وهذا هو الخطر المخيف . الذى يدركه الكثيرون ، ولكنهم .. لايعملون على معالجته ، لأن مايسمى فناً اليوم هو بعيد عنه ، وليس له إلا الاسم ، لأنه يركز .. على دغدغة العواطف والغرائز ، حتى يوشك أن يصبح عبثاً من العبث ، بهذا الاسراف ، فى المباذل ، والصور التى انسلخت .. من الاحتشام ، فماعت لتميع وتفسد ، والله سبحانه لايحب الفساد .

فمتى يصحو الناس ومن يهمهم الأمر من منتجين ومقبلين عليه ، وشارين لهذه البضاعة المزجاة ، ليزيدوا .. فى ترويجها ويعملوا على اشاعتها وانتشارها ، وهم يحسبون .. أنهم يحسنون صنعاً ؟

لقد واجه الممثل السينمائى .. عمر الشريف نقداً عنيفاً من الصحافة ، حين ظهر فى اعلانات دخان ـ كنت ـ لأنهم عدوه متاجرة رخيصة وهو المتفنن ، الذى ذاع صيته وطار اسمه فى خارج عالمه ، أليس هذا ترخيصاً للفن ، إذا أصبح العمل السينمائى اليوم فناً لاسيما هذا الغثاء الرخيص المنتشر ؟

* والتناقض الغريب ، نشهده فى عالم اليوم ، بحكم سيطرة المادة عليه ، فبينما .. ترتفع أصوات العلماء والأطباء بضرر التدخين ، وأنه يؤذى الصحة ، ويتلفها ، نجد .. على الجانب الآخر حملات مسعورة ، لترويج التدخين ومادته فى الصحف والسينما والتلفاز والراديو ، وعلى الحيطان .

ولا حاجة إلى القول ، بأنه ينبغى درس الدعوتين أيهما أسلم ، ولاسبيل للمقارنة . فالأولى تعلن بأن الدخان قاتل ، وليس لهؤلاء مصلحة أو مساومة ، سوى التنبيه من واقع المسئولية الانسانية ، للحفاظ على الكيان الانسانى ، بينما الأخرى تلهث وراء بيع .. أكبر كميات تنتج من هذه السموم ، ولتتدمر بعد ذلك صحة العالم .. وكيانه . المهم أن يدر بيع الدخان واعلاناته .. أرباحاً لاتحد ، وليذهب العالم الذى يدخن إلى الجحيم .

وقد أحسنت صنعاً حكومتنا ، بمنع الاعلانات .. عن الدخان فى صحفنا ، رغم أن كل الصحف التى تردعلينا ، تحمل الاعلانات إليه ، وتروج

له ، لا لشيء إلا للكسب المادى وحده ولاغير ذلك شيء ، ولو كان الأمر يتعلق .. بأغلى مايملك الانسان ، ورأس ماله الوحيد وهى صحته .

فيا له من عالم غريب ، متناقض ، يعرف .. مايضره ويقبل عليه ، ويحبب إليه ، ويسعى لاشاعته ويعلمماينفعه ويعرض عنه ، ولايبالى بهذا ولابذاك .

لقاء ابن خلدون وتيمورلنك

* استقراء التاريخ .. مسألة صعبة ، لأن فيها الحق والباطل معا . وما اكثر ما يهمل التاريخ ، وما اكثر ما يعنى به ، وما اكثر التزوير فيه والدس والاتهام والمتناقضات ، وما تميل اليه الأهواء والعصبيات ، انه وعاء كبير .. لأحداث الحياة وتقلباتها والوانها ويسرها وعسرها ، وفيه عبر وقصص الماضى .. للأمم الغابرة ، على ما يحوى من اختلاف الآراء والروايات ، وما يصنع عن مزاج ، ويكتب فى ظلال ظروف مختلفة ، تفرض مسالك معينة ، ويأتى نقاد ، ليبدئوا ويعيدوا فيه ، يؤيدون ويناقضون ، يقبلون أشياء ويرفضون أخرى ، ويضاف إليه .. ما يصنعه الرواة ، ويحذف منه ، ويعبث به الدساسون والأعداء ، فيشككون .. فيما لا يوافقهم .. وغربلة التاريخ .. مهمة صعبة وعسيرة ، وان كان .. لا يخلو من ثقات .. ذوى أمانة ، ولكن كر الأيام والعصور ، أضاعت الكثير وأبقت .. على القليل ، يتداوله الوراقون ، والمعنيون به ، تحفظه خزائن الكتب حينا من الزمن ، ثم يأتى إعصار .. فيبدد هذه النفائس ، وما يبقى منها تتلقفه الأيدى ، فيحمل .. الى المكتبات فى الشرق والغرب ، تبقى كنوزا عند ماليكها والمستحوذين عليها ، كما هى الحال .. بالقياس الى نفائسه التى فقدنا الكثير منها ، وحوتها مكتبات الغرب .. فى ظروف مختلفة .

أريد ان أعلن ، أننى لست كاتب تاريخ ، وقراءتى فيه .. محدودة جدا لا تتيح لى إصدار أحكام ولا إبداء رأى .. يمكن أن يكون له بعده ووزنه . غير أنى قرأت مقالة .. صديقى الكاتب الشاعر الأستاذ راضى صدوق فى هذه الصحيفة يوم الأربعاء ١٣ من شهر ذى القعدة الحرام سنة ١٣٩٩ ، بعناوين مثيرة ، فيها تشكيك واتهام لأحد مفكرينا الكبار ، مضى قبل ستة قرون ، لم نقرأ خلالها .. مثل هذا الاتهام ، لا من شيعته ولا .. من أعدائه فيما أذكر .

هذه العناوين .. التى كتبها الأستاذ راضى صدوق ، هى :

* عندما .. يسقط المفكر أو العالم .. فى امتحان التاريخ .

* ابن خلدون .. يدل العدو على مواقع الشام ومصر ويهرب .

اتهامات خطيرة .. ما سمعنا بها قبل اليوم . والأستاذ راضى .. يسند هذا الاتهام الخطير .. الى الأستاذ « صلاح الدين المنجد ». وعصر .. هذا الاتهام السنة الثالثة .. من القرن التاسع الهجرى ، حين زحفت جيوش التتار على مشرقنا .. بجحافلها بقيادة الطاغية تيمورلنك ، وسبقه إعصار مدمر قضى على الخلافة الاسلامية ، ودمر الحضارة على يد الطاغية الأول « هولاكو ». ومرد ذلك مؤامرة الصليبية .. فى الشرق والغرب ، لمحاربة الاسلام والمسلمين عبر التاريخ الطويل .

ومع الاعتراف .. بسعة اطلاع صلاح الدين المنجد ، وتحقيقاته فى التراث ، ومعرفته للكتب والمكتبات ، إلا أن ما ذهب إليه لا يعدو أن يكون دسيسة ، لتشويه سمعة مفكرنا الكبير ، والعجب .. ان تنطلى على رجل مطلع .. كصلاح الدين المنجد .

ولم يذكر لنا الأستاذ .. راضى صدوق مصادر المنجد فى اتهام ابن خلدون ، لنكون على بينة . والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن ، هو أن ابن خلدون لا يعرف الشام ، صحيح أنه مؤرخ وعلامة ، ولكنه .. لم يعش فى الشام حتى يلم بها ، فكيف يقبل العقل الواعى .. مثل هذا الاتهام ، دون أن يمحصه ، ويغربله ، ويعيد النظر فيه .. مرة ، ومرة ، ويكون له أكثر من مصدر .. يوثق به ؟

وابن خلدون .. حين خرج إلى الشام مع حاكم مصر .. فى ذلك العهد « فرج بن برقوق » خرج مكرها ، فقد كان خارج الوظيفة ، وقد ولى القضاء فى مصر حين انحدر إليها .. من المغرب ، وكان وقت .. زحف جيوش المغول على حلب وحمص سنة ٨٠٣ للهجرة ، قد بلغ من العمر .. سبعين خريفا ، فما الذى يدفع ابن خلدون .. الى منازع الخيانة ، وقد « كان رجلا قوى الشخصية ، بارز المكانة بين أعلام عصره ، شديد الشعور .. بتفوقه وامتيازه ، كثير التجارب والمغامرات وحين جاء إلى مصر لقى الأمرين .. من السعاية به ، والتأليب عليه ، وكان ابن خلدون .. واسع الدهاء ، عظيم الحيلة ، ولذا استطاع .. أن يقاوم الكيد والدس ، ويحتفظ برأسه .. على كتفيه ».

هكذا يقول عنه الأستاذ « على أدهم »، فى كتابه ـ تلاقى الأكفاء ـ الذى خصص فيه فصلا بعنوان « بين .. ابن خلدون وتيمور لنك ».

إن رجالات الغرب الذين أعجبوا .. بشخصية ابن خلدون ، وتحدثوا عن فكره وعبقريته خلال ستة قرون ، لو وجدوا منفذا .. إلى التشكيك فيه ، كما صنع احد شيعته .. صلاح الدين المنجد ، لما ترددوا .. فى إعلان ما ظهر لهم ، وهم قد درسوه ترجمة وفكرا ، وربما كانت فرصة لمنافسيه ، أن يفتشوا عن أخطائه وهفواته ، فيبرزوها ، فما بالكم .. بخيانة لأمته فى أحلك الظروف وأخطر المواقف .

وابن خلدون يعلم ، وهو المؤرخ ومفلسف التاريخ ، أن هولاكو .. قد اندحر حين غزا شرقنا العربى ، والله قادر .. على أن يقيض النصر لجنده ، فيهزموا به .. تيمور لنك ، وينبغى أن نذكر .. بكل فخر واعتزاز ، أن الجيش المصرى هو الذى هزم المغول .. فى كراته على الشرق ، الأولى فى « عين جالوت » والثانية فى حمص ، ودفع كيدهم ، وكان الاسلام الصيحة .. التى هزمت التتار ، الايمان يملأ صدر الحاكم والجندى .. « وا إسلاماه » صيحة « قطز » سلطان مصر ، مثل تلك النجدة التى انطلقت .. من فم المرأة العربية « وامعتصماه »، فتنهد .. المعتصم رغم تحذيرات المشعوذين من المنجمين ، فكانت وقعة « عمورية »، وكان النصر للاسلام والمسلمين ، وعبقت أشذاء النصر ، فى بائية الشاعر البحترى المشهورة ، التى مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب
فى حده الحد بين الجد واللعب

هكذا صنع الايمان .. فى عمورية ، ويوم زحفت جحافل المغول على الشرق ، وهكذا هو دائما .

ولست اريد .. أن أطيل وقفتى هذه ، فاتحدث عن النفير لمواجهة الجيش المغولى العاتى المدمر الساحق ، واستنفار المسلمين فى مصر .. إلى هذا الخطر الداهم ، فرخصت النفوس ورخص المال ، من أجل الفداء وصد العدوان والاستشهاد .. فى سبيل الله أو النصر ، وكان النصر .. للذين نصروا الله .

يشير الأستاذ – على أدهم – فى حديثه عن ابن خلدون ، فى الفصل الذى أشرت اليه آنفا ..، فيقول : « من الكتب القيمة والآثار الأدبية النفيسة .. التى أخرجتها لجنة التأليف والترجمة والنشر ، كتاب « التعريف بابن خلدون »، ورحلته .. شرقا وغربا ، وهو كتاب جدير بالتنويه ، لمكانة مؤلفه .. من ناحية ، وللطريقة العلمية والمنهج الصحيح .. الذى اتبعه الأستاذ – محمد بن تاويت – الطنجى ، فى مراجعة اصوله والتعليق على .. حواشيه .. ، من ناحية أخرى ».

ويمضى الأستاذ أدهم فى الحديث عن ابن خلدون فيقول : « والمؤرخ العلامة .. ابن خلدون فى طليعة المؤرخين المسلمين والمفكرين البارزين ، وقد ظفر بتقدير الكثيرين .. من المفكرين الغربيين ، الذين تناولوا .. البحوث التاريخية ، وخاضوا .. فى لجج فلسفة التاريخ ، ووضعوا أسس .. علم الاجتماع الحديث ».

ثم يعدد الأستاذ على أدهم آراء العلماء الغربيين .. فى ابن خلدون وثناءهم عليه ، حتى سماه بعضهم :– مؤسس علم التاريخ –. ويقول : « هنرى ألمر بارنز »– فى طرائق شتى ، كانت أكثر الحضارات تقدما .، فى العصور الوسطى ، ليست هى الثقافة المسيحية ، بل كانت حضارة المسلمين ، وكذلك كان بعض .. اقدر كتاب التاريخ فى العصور الوسطى .. من المسلمين وأعظمهم .. ابن خلدون ، وهو يسبق ويتفوق .. على أى مؤرخ مسيحى فى العصور الوسطى ، وذلك .. فى تفهمه الأساسى .. لمبادىء التقدم الثقافى الانسانى ، وحتى فى عصر فولتير فى القرن الثامن عشر ، لم يكن هناك مؤرخ .. فى العالم المسيحى يعادله من هذه الناحية –.

ويطول الحديث لو مضيت فيه ، أتتبع آراء الغربيين فى عالمنا ومفكرنا البعيد الصوت ، وليس إلى هذا قصدت ، وإنما الشىء .. بالشىء يذكر .

ولو كان ابن خلدون باع خرائط الشام ومصر وفر ، كما .. يزعم صلاح الدين المنجد ، وترويج الشائعة من الأستاذ راضى من غير استثناء وتأمل ومراجعة ، ولو صحت هذه الشائعة لرقص اليهود والغرب لهذه الخيانة ، وتشمتوا فينا ، وعيرونا .. طول الدهر ، ولكنها عصبية المنجد وسوء ظنه وسوء تقديره ، وأوشك .. أن أقول حنقه أو حسده .

واللوم لا يبرأ منه الصديق .. راضى صدوق ، الذى أرى أنه تعجل ، وهو القارىء الجيد ، وما كان ينبغى له .. أن يتعجل ، لاسيما فى أمر خطير .. كهذا ، أما فى مجال الخير والبر ، فالعجلة .. يحث عليها ، ولابد لمثل الأستاذ راضى ان يتبين فى النبأ السوء ، وليس هو وحده ، بل كلنا .. مطالبون بذلك ، حتى لا نندم حين ندرك الحق ، ويظهر لنا أننا أخطأنا حتى عن غير قصد ، فى اشاعة الاتهام ، والتشكيك من غير تثبت .. هدم وتقويض ، لاسيما .. فى موقف حرب بين الشرك والايمان ، ينسب إلى شخصية فذة ، جاهدت وجالدت ، وفخر بها أشياعها ، وتمنى منافسوها أن تكون منهم ، وأن تكون لهم ، بمجرد إطلاع على رأى قائل ، لا روية فيه ولا سند للتاريخ .. يدعمه ، ألا .. ما أيسر الهدم وما أصعب البناء ، ولكن عزاءنا ونحن فى محنة .. عبر أربعة عشر قرنا مع هذا التاريخ الطويل الحافل .. بالأحداث والخطوب والأحن ، ننافح ونقاتل .. على كل الجبهات ، لاسيما .. ما يدور فى الخفاء ، من دس وغدر وحياكة أباطيل لتفرقنا ، لأن أخطر شىء على أعدائنا وحدتنا .. فى ظل الاسلام ، اننا نردد ونحن نخوض معركة إثر أخرى ، ونواجه الاتهام والزور « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ».

فالخصوم والأعداء ، ما يفتأون .. يشككون فى تاريخنا وحتى ديننا ، ويريدون لنا ان نعرى مثلهم .. لنضيع .. كما ضاعوا ، لأنهم فقدوا المقوم ، فضلوا وأضلوا ، ويبقى الاسلام .. مشعا ، ينير السبل للسائرين ، ويهدى للتى هى أقوم إلى صراط العزيز الحميد .

تجده .. فى أقصر تعبير « قل آمنت بالله ثم استقم ». فكثير وكثير جدا .. أن نؤتى من حيث نأمن ، لا من حيث نخاف ، ومن شيعتنا لا من أعدائنا . ولاسيما .. فى مثل هذه المطاعن ، تلصق بشخصية بارزة ، لها دور .. متميز بارز ، يضرب به المثل ، ويشاد .. فى ساحات الفخار عبر قرون ستة ، وما أيسر ما تحاك له فرية ، كأنها ملحة ، وما أخطرها وأشدها .. على نفوسنا ، وستجزى كل نفس ما كسبت .

أعود .. إلى حديث الأستاذ على أدهم ، وسيظل ابن خلدون العلامة العملاق ، رغم هذه الفرية الملفقة .. الرخيصة ، حتى – لا سمح الله – يأتى ما يزيح الهالة .. التى سلطت على الرجل .. باستحقاق وجدارة ، وأكبر الظن ،

أن صاحب الباع الطويل ، الذى فخرت به أمته ، وفخر به غيرها من رجال العلم فى الغرب ، لاشعاعات فكره ، الذى أرخ للدول والجماعات ، وفلسف الحياة .. على نحو فريد ، حتى كانت له تلك المكانة الرفيعة ، سيظل علما .. فى رأسه نار ، بجلاء مسلكه وصفاء نفسه ووفائه لأمته .. ولا يضره .. إذا داهن تيمورلنك ، فذلك بعض دهاء ابن خلدون ليأمن .. هو وزمرة العلماء .. الذين كانوا معه .. شر هذا الطاغية . ولكن ابن خلدون لم يخن ، ولم يغدر بأمته ولم يبعها ، لا أرضا ولا جيشا ، فهو كما يقول عن نفسه ، « سليل أسرة عريقة .. نابهة ، وبيت من بيوت الرياسة والسياسة فى الأندلس ، وقد استقل أحد أجداده .. بامارة إشبيلية ».

ونستمع .. إلى الأستاذ على أدهم ، يتحدث عن خروج القائد الناصر فرج من مصر ، لملاقاة تيمور لنك :

« ففى أثناء .. وجود ابن خلدون بمصر سنة ٨٠٣ هجرية ، وردت الأنباء .. بأن تيمورلنك قد انقض بجيوشه الجرارة على الشام ، واقتحم مدينة حلب ، بعد أن قتل كثيرا من أهلها وخرب بيوتها ، وكذلك .. فعل بحماة ، وكان على عرش مصر فى ذلك الوقت الناصر فرج بن برقوق ، أحد سلاطين دولة الشراكسة . وكان لهذه الأنباء وقع شديد فى مصر ، واضطر الناصر .. فرج إلى أن يخرج بجيوشه لملاقاة الفاتح .. التترى ، الذى اخترق بعد ذلك الشام .. جنوبا .. قاصدا دمشق ». ويمضى فى القول :

« واصطحب الناصر فرج معه .. قضاة المذاهب الأربعة ، وجماعة .. من الفقهاء .. والمتصوفة ومنهم ابن خلدون ، ولم يكن راضيا .. فى بادىء الأمر عن هذه الرحلة ، فقد كانت سنه حينذاك .. قد تجاوزت السبعين ، وتعب .. من المهام السلطانية الخطيرة .. التى عانى الكثير منها بالمغرب ».

ويقول ابن خلدون .. عن خروج الجيش المصرى .. إلى نصرة الشام .. يومئذ : « جمع السلطان عساكره ، وفتح ديوان العطاء ، ونادى .. فى الجند بالرحيل إلى الشام ، وكنت أنا يومئذ معزولا .. عن الوظيفة ، فاستدعانى دواداره يشبك ، وارادنى .. على السفر معه فى ركاب السلطان ، فتجافيت عن ذلك ، ثم أظهر العزم على .. بلين القول وجزيل الانعام ، فأصخيت وسافرت معهم ».

ويتحدث الأستاذ على أدهم .. فى هذا الفصل ، عن ابن خلدون وتيمور لنك من كتابه « تلاقى الأكفاء ، فيقول كذلك :

« ونزل ابن خلدون .. مع سائر الفقهاء والعلماء .. فى المدرسة العادلية ، واشتبك المعسكران .. فى معارك محلية ، وكانت الحرب بينهما سجالا ، ثبت فيها الجنود المصريون ، ثم نما الى السلطان .. وأكابر أمرائه ، أن بعض الأمراء المنغمسين فى الفتنة يحاولون الهرب .. إلى مصر للثورة بها ، فبعد أن بدأت مفاوضات الصلح .. بين الفريقين ، ترك السلطان دمشق لمصيرها وارتد مسرعا .. إلى القاهرة ، خشية انتقاض الناس واختلال الدولة ، وصار أهل دمشق .. فى حيرة ، وحدث خلاف بين القادة والرؤساء .. حول تسليم المدينة ، وخاف .. ابن خلدون ان تقع المدينة .. فى يد الأمير تيمور لنك ، الذى لا يعرف قلبه الرحمة ، واجتمع ابن خلدون .. مع القضاة والفقهاء .. فى مدرسة العادلية ، واتفق .. رأيهم على طلب الأمان من تيمور لنك .. على بيوتهم وحرمهم « ورفض نائب قلعة دمشق .. هذا الرأى ».

ويمضى على أدهم ، فيقول : « ويروى لنا ابن خلدون ، أن تيمور لنك .. أجاب القاضى برهان الدين بن مفلح الحنبلى وغيره .. من الوجوه والقضاة الى التأمين ، فخرجوا اليه متدلين من السور ، فأحسن لقاءهم ، وكتب لهم الرقاع بالأمان ، واتفقوا معه .. على فتح المدينة . وأخبر القاضى .. برهان الدين ابن خلدون ، ، أن تيمور لنك .. سأل عنه ، وهل سافر مع عساكر مصر أو أقام بالمدينة ، فأخبره .. بمقام ابن خلدون بالمدرسة العادلية ».

ونتابع هذه القصة فقد تهيأ ابن خلدون لملاقاة تيمور لنك ، وتدلى من سور المدينة ، كما فعل من سبقه من القضاة والعلماء ، ولعلهم هم الذين اخبروا الغازى .. عن ابن خلدون .

ودخل مؤرخنا على القائد التترى ، واستدعى من بطانته الفقيه « عبد الجبار بن النعمان » من فقهاء الحنفية بخوارزم ، ليترجم بينهما ، وكان ابن خلدون يرتدى زى المغاربة فى دخوله .. على تيمور لنك ، ويقول على أدهم : « فعلم تيمور لنك .. انه ليس من أهل تلك البلاد ، فسأله قائلا : من أين جئت ، فيقول ابن خلدون : من المغرب .

ويسأل المغولى : ولم جئت ؟

فيقول ابن خلدون : « جئت من بلادى .. لقضاء الفرض ، ركبت اليها البحر ، ووافيت مرسى الاسكندرية يوم الفطر سنة اربع وثمانين .. من المائة الثامنة ، والمفرحات باسوارهم .. لجلوس الظاهر .. على تخت الملك ، لتلك العشرة الأيام .. بعددها ».

تيمور لنك : « وما فعل معك »؟

ابن خلدون : كل خير ، بر مقدمى وأرغد قراى وزودنى للحج ، ولما رجعت .. وفر جرايتى ، واقمت فى ظله ونعمته ، رحمه الله وجزاه ».

تيمور لنك : « وكيف كانت توليته اياك القضاء ؟»

ابن خلدون : « مات قاضى المالكية .. قبل موته بشهر ، وكان يظن بى المقام المحمود .. فى القيام بالوظيفة ، وتحرى المعدلة والحق ، والاعراض عن الجاه ،.. فولانى مكانه ، ومات بشهر بعدها ، فلم يرض اهل الدولة بمكانى ، فأدالونى منها بغيرى ، جزاهم الله ».

ويمضى الحوار ، تيمور يسأل ابن خلدون عن بلده ، فيقول : المغرب الجوانى .

ويسأل التترى عن معنى الجوانى ، فيقول له ، معناه الداخلى ، اى الأبعد ، والأقرب الى هنا .. برقة وافريقية . والأوسط تلمسان ، وبلاد زناته ، الأقصى .. فاس ومراكش ، وهو معنى الجوانى .

ويسأل تيمور .. عن مكانة طنجة ، ويجيبه ابن خلدون ، ويسأل عن سبتة وفاس وسجلماسة .

ثم يطلب تيمور لنك من ابن خلدون .. ان يكتب له بلاد المغرب كلها ، أقاصيها وأدانيها ، وجباله وانهاره وقراه وامصاره ، حتى كأنه يشاهده .

وكتب له ابن خلدون ذلك . ودار حوار .. بينهما عن النبط ، بقية ملوك بابل ، واختلفا ، وحاكم ابن خلدون المؤرخ الاسلامى الطبرى ، وقال : « إنه المؤرخ الأمة ومحدثهم ، ولا يرجحه غيره ».

فقال تيمور لنك : « وما علينا من الطبرى ، نحضر كتب التاريخ .. للعرب والعجم ، تناظرك ». فقال ابن خلدون : « وأنا أيضا اناظر .. على رأى الطبرى ». وجاء الخبر .. فى أثناء هذا الحوار بفتح باب مدينة دمشق ، وخرج القضاة .. وفاء بما زعموا من الطاعة التى بذل لهم فيها الأمان ، وحمل القائد المغولى على فرسه لأن ركبته كان بها داء ، ودخل دمشق ودخل فى تربة منجك عند

باب الجابية فجلس هناك ودخل اليه القضاة واعيان البلد ، ودخل ابن خلدون فى جملتهم « ثم انصرفوا وانصرف ابن خلدون الى بيته . فى داخل المدينة بعد ان استأذن فأذن له . ويقول الأستاذ أدهم « وتلطف ابن خلدون .. فى طلب مكتوب امانا لنفسه ولزملائه العلماء والقضاة ، وأجابه تيمور لنك .. إلى طلبه ، وانصرف إلى منزله ».

« وسمح له .. بعد ذلك تيمور لنك .. بالعودة الى مصر فى جمع من أصحابه ، ويشير الكاتب فى آخر هذا الموضوع إلى دهاء ابن خلدون وحنكته السياسية ، مما جعل الطاغية السفاح يأنس به ويرضى عنه ، وقد استطاع .. ابن خلدون بذلك أن يدفع الأذى عن نفسه وعن زملائه وأصحابه ، ويخرج من هذه المحنة ».

فكيف دل ابن خلدون العدو .. على مواقع الشام ومصر ، وقد فصلت .. ما دار وما كان ؟

واذا كان ابن خلدون قد شرح مواقع المغرب ، وكتبها كطلب قائد التتر ، فان ابن خلدون فعل ذلك مكرها ، ولا يقع فى حدسه أن التتار يستطيعون الوصول إلى المغرب ، عبر سبعة آلاف كم .

ولو كان ابن خلدون يريد أن يبيع بلاده وأمته ، لصنع ذلك وهو بالمغرب ، وحوله الأطماع والفتن ، ولكن حاشاه أن تكون نفسه صغيرة وهو الكبير ، وأن يكون خائنا وهو الوفى .. لأمته وإسلامه وعروبته .

وقد رأينا أن ابن خلدون كان داهية ، لاين وساير حتى أمن شر الطاغية ، لا على نفسه فقط ولكن على من معه ومن حوله فى ظرف كريب ، وقد عاد القائد المصرى إلى أرضه ليستدرك فتنة ، تاركا الشام ، فماذا يصنع ابن خلدون والعلماء .. والقضاة ؟ غير أن يداهنوا ، ويسلكوا سبل الحيل ، من أجل الخلاص .

ماذا يريد ان يقول صلاح الدين المنجد .. فى ذلك ، وما لفق ووصم بالباطل ، والباطل دائما زهوق .

وانتصر الحق على الباطل ، ودحر المغول . ولم يهرب ابن خلدون .. وانما سمح له القائد المغولى بالعودة الى مصر .

فهل .. إلى الرجوع للحق من سبيل ، بعد هذا البيان ؟

عواطف إنسانية فى الميزان

* من المعروف ، أن الشعر مركبه صعب ، وأن التعريف القديم ، بأن الشعر هو الكلام الموزون المقفى تعريف مبتور ، ذلك أن المنظومات النحوية وأشباهها من المتون .. موزونة ومقفاة فهل يقال لها شعر ؟ لا أحد فى تقديرى ، يدرك ماهية الشعر ، ويدرك أنه فن وابتداع وخوالج نفس ، ورعشات أحاسيس وموهبة ، والاحاطة بأدواته ومنها الوزن ، يقطع .. بأن الشعر بحور وقواف . ولكن الشعر .. ذلك التموج الفنى ، الذى يؤثر فيك إذا قرأته أو سمعته ، يصدر عن شعور عميق وتجاريب ، فى إتقان لغة ومعان وصفاء ديباجة ، وتحليق عال .. بعيد .

أنا لا أسوق جديدا .. بهذه الكلمات ، وإنما أشير الى أسس يعيها الشعراء الابتداعيون والنقاد ذوو البصيرة بالنقد .

ومهمة الناقد .. مهمة صعبة ، ربما كان فى مقدمتها أن يكثر خصومه ، الذين يمسهم النقد كطبيعة انسانية ، غير أن النقد الموضوعى ، ربما كان أقل تأثيرا ، وأنا لا أسمى التجريح الشخصى نقدا وإنما هو إسفاف ، وتجاوز للحد ، وإذا انحدر النقد الى الهاوية ، فحينئذ يكون التراشق بالاتهام ، ويخرج الموضوع الى .. اللاموضوع . وهذا مسلك يأباه الذوق السليم وتأباه النفوس الصافية ، ويأباه الخلق الدمث .

ولعلنا حين نقابل نقدا متزنا موضوعيا ، نتأسى بذلك الخلق القيم الذى يقول : « رحم الله امرءا .. أهدى الينا عيوبنا » . ومع ذلك أردد قول الفاروق عمر .. رضى الله عنه . « ما ترك الحق لعمر صديقا » . لذلك .. فان النقاد أكثر الناس خصوما وإذا غاب النقد ، غصت الساحات الفكرية .. بالرخيص من القول وكثر التافه من الكلام ، باسم الأدب والفكر .

والناقد لا يكفى أن يكون موضوعيا فحسب ، وإنما أن يتلمس الجيد فيذكره ويشير الى المحاسن والابداعات ، ويقف على الضعيف والردىء ، ويذكر عيوبهما .. حين يتأمل فى أناة ، ويتناول .. الموضوعات عن بصيرة وإدراك ، وعنده الحس ورهافة الذوق وخلفية ثقافية .

ولا أزعم لنفسى .. أننى بصير بوسائل النقد ومناهجه ، ولكنى اقرأ الشىء ، فيعجبنى أو لا يعجبنى ، فاذا عن لى .. أن أكتب رأيى فيه ، تناولته باجتهاداتى المحدودة ، فلا أغمط حق الكاتب .. أو الشاعر ، واذا دارت مناقشة ، فانى أستفيد من أخطائى ، اذا حدت عن جادة الصواب ، وأزداد معرفة .. بما أجهل ، وما أكثر ما أجهل وما أقل .. ما أعلم ، وجميل ذلك التعبير الدقيق ، وهو « نصف العلم أن يقول المرء .. لا أعلم » .

بين يدى ، محاولة شعرية للدكتورة « مريم البغدادى » .. اسمتها « عواطف انسانية » أفضلت تهامة فاهدت الى نسخة .. من هذه المحاولة ، وتهامة تفضل بتقديم إصداراتها الى من يعنون بالقراءة .. أمثالى ، وإن كانت عنايتى محدودة وتهدى تهامة كذلك هذه الاصدارات .. الى المبرزين من علمائنا ، والمبرزين من الأدباء والمفكرين ، غير أنى لا أرى اصداء .. لهذه المؤلفات عند أولئك النخبة ، الذين تصلهم هذه الاصدارات ، فلا أرى .. إلا القليل ممن يتصدرون للكتابة .. عما يصل اليهم من اصدارات ، كأنهم مشغولون عنها ، غير أن هذا المسلك قد لا يرضى تهامة ، ولا جمهور القراء ، الذين .. يريدون من كبار أدبائهم ومفكريهم أن يقولوا آراءهم ، فيما يصل .. الى أيديهم من هذه المؤلفات ، وفيها الجيد والمتوسط المستوى وربما دون ذلك .

وربما ليس من حقى أن أقول لتهامة ، لماذا نشرت هذا الكتاب .. لأنه دون المستوى ، فلا يليق نشره واشاعته بيننا ، وكذلك الى عالمنا العربى ، مع أنه نموذج من فكرنا ، يحمل سمعتنا الفكرية .. التى نغار عليها . وقسم النشر فى تهامة مجتهد ، يصيب ويخطىء .. كغيره من البشر ، والحال نفسها .. فى أنديتنا الأدبية ، وجمعية الثقافة والفنون وفروعها لعل من الدوافع الحرص على ظهور آثارنا الفكرية والعلمية ، كعون للمؤلفين الذين .. لا تساعدهم ظروفهم المادية على طبع ونشر ما كتبوا . وفى كل الأحوال فان هذه الخطوة والمبادرة فى النشر دليل نهضة ووعى ، يستحق المهتمون بها المزيد من الشكر والتقدير ، على

الانفاق والمجهود ، غير أن الحرص على اختيار الجيد .. يظل مبدأ اساسيا ، حتى تكون صورتنا .. عند الآخرين وضاءة ، تستحق الاحتفاء والاشادة بها . وكذلك الحال فى الداخل ، فينبغى أن تقدم للقارىء .. النتاج الجيد ، لربطه بفكر بلاده أولا ، ولتثقيفه ثانيا ، ولكى يثق فيما يقدم اليه .. من العطاء الجيد ، يتزود منه ويفخر به ، ويكون موضع اهتمامه ، وحفاوته ، وهو يقرأ .. ما تصل اليه يده من المؤلفات .. التى تزخر بها المكتبات فى عالمنا العربى ، وأعنى به .. القارىء الجيد الواعى .

من التعريف .. المسطر فى غلاف الديوان ، عرفت .. أن الدكتورة مريم البغدادى حصلت شهادة الدكتوراه .. فى الأدب العربى ، من جامعة باريس فى فرنسا ، وتشغل وظيفة وكيلة لكلية الآداب بجامعة الملك عبد العزيز بجدة ، ولها مشاركات فى اذاعتنا ، وقد نشرت لها قصائد فى بعض صحفنا ، وتنهض الآن ، « بترجمة كتاب عن الشعراء ـ التر وياردو ـ من الفرنسية الى العربية ، الى جانب مختارات شعرية ونثرية .. تحليلية ، من الأدب العربى القديم » .

إذن ، فان تخصص شاعرتنا هو الأدب العربى ، ولكنه تخصص .. من مصادر غربية ، أو فى أجواء غربية ، فى جامعة فرنسية .

أذكر أنى قرأت بعض القصائد .. التى كانت تنشرها فى بعض صحفنا السيارة ، ولم اقرأ لها نثرا ، وربما نشرت شيئا من ذلك .. ولم أره ، أو أنها لم تنشر ، وأرجو أن اقرأ لها شيئا من ذلك ، أو أسمعها عبر الأثير ، أما الذى أمامى اليوم فهو شعرها فقط ، وهو الذى سأتحدث عنه ، بقدر .. ما يتاح لى الحديث .

فى سطور اهداء الديوان تقول فى آخرها ، أن هذا الديوان الذى تقدمه للقارىء : « جهد المقل .. فى خطواته الأولى على درب شاق » . الدكتورة .. إذن تدرك أن درب الشعر شاق ، ولذلك فهى تتلمس طريقها فيه فى أولى محاولاتها ، وسنرى هذه المحاولات ونقف عندها ، لنقول ما لها وما عليها ، وأرجو أن يكون صدرها رحبا فلا تضيق بالنقد ، وأكبر الظن .. أنها تقدره كرسالة ، ذلك .. أنها دكتورة فى الأدب العربى ، أدبها وتراثها الذى كتب بلغتها الأصيلة .

أما مقدمة الديوان ، فقد كتبها الدكتور محمد عبده يمانى .. وزير الاعلام . ويقول الدكتور يمانى فى هذه المقدمة : « واذا كانت ولادة الشاعر

المجيد .. تتطلب قبل كل شيء موهبة أصيلة وثقافة واسعة ونضوجا فكريا ، فانها تتطلب الى جانب ذلك حسا مرهفا ووجدانا صادقا ونفسا شفافة .» « ولقد بدا لى أن المعاناة الشعرية للأخت الدكتورة مريم .. من خلال قصائد ديوانها — عواطف انسانية — ، عميقة الجذور ، تنم على ثقافة وسعة اطلاع ، صقلتها موهبتها الشعرية ، اضافة الى مقدرتها ، وتمكنها من آداب اللغة العربية ، فجاءت أشعارها جزلة صافية ، تنبض بصدق العاطفة ، وتتميز بالاصالة والجمال والعفة ، وتبدو هذه المعاناة واضحة فى بعض القصائد الممتازة .. فى الديوان » .

الدكتور محمد عبده ، يحدد فى المقطع الأول من مقدمته ، مواصفات الشاعر وخصائصه .. كأساس ، وهى تلميحات ذكية من الدكتور يمانى . ثم يتحدث .. فى المقطع الثانى ، أن معاناة الشاعرة عميقة الجذور ، ويبدو ذلك فى بعض القصائد الممتازة .

وفى آخر المقدمة ، دعا الدكتور يمانى للشاعرة بالتوفيق والسداد ، ومزيد من الانتاج الأدبى .

تصل بنا مصاحبة هذا الديوان الى القصيدة الأولى ، ص « ١٣ » وقد تطول المسيرة اذا توقفت .. عند كل قصيدة ، وتبلغ سبعا .. وثمانين ، وهو عدد وفير ، لا أظن أنى أستطيع أن ألم بها جميعها فى وقفة واحدة ، فقد يكون فى ذلك إملال للقارىء ، وأين له الصبر على قراءة .. صفحة كاملة من جريدة يومية ، أرجو أن أوفق فى الايجاز .. ما استطعت ، دون الاخلال فى تقصير عن الاحاطة بما ينبغى التوقف عنده .

ألاحظ أن شاعرتنا تسرف .. فى استعمال كلمتى الحب والهوى ، ففى القصيدة الأولى ، وعنوانها « لن أخون » ، ومطلعها :

أنبئـــت أنـــك قد وصلـــت سوانا
وتـــركت قلبـــى فى النـــوى عطشـــانا

وفى البيت الثانى تقول :

وأطعـــت غـــيرى فى الهـــوى وهجرتنى
وصرمـــت حبلى فاشتفـــى أعدانـــا

وفى البيت الخامس ، تتكرر كلمة الهوى ، وكذلك فى العاشر . أما كلمة حبيبى والحب ، فتكررت أربع مرات فى هذه القصيدة ، أما المستوى التعبيرى ، فهو المتوسط ودونه ، وهذه صورة :

فصل المواطن كان دوما صادقا
وارفق به خلا كذا انسانا
عد لى حبيبى أننى متلهف
والله أسأل أن يتم لقانا

هذا النموذج نظم وليس شعرا ، فالشعر تحليق وصور ، وتماوج الفاظ ومعان ، والذى قرأته .. اداؤه ردىء ، وألفاظه غير شعرية .

* وفى ص « ١٥ » ، قصيدة بعنوان « برانى الوجد » ، مطلعها :

سألت عليك يا أملى
وكان الشوق كاللهب

ومنها :

كتبت كلامنا بدمى
وجد القلب فى الطلب

ماهذا التعبير ؟ « كتبت كلامنا » أى شعر هذا ؟

وتقول منها :

شقيت بحبكم فسلوا
عن المحبوب من كثب

ومنها :

اتتركنى على رمق   بدمع دوم منسكب

هذا الشعر لا يهز ولا يطرب ، وربما قال قائل : انت تختار ما لا يعجبك وتترك الذى يعجب ، ولكن الشعر الذى أمامى مستواه ضعيف ، وهو الى النظم أقرب وان شئتم فاقرأوا معى :

شرحت لكم ضنى كبدى   وما ألقى من التعب
أحبك سيدى حبا   يفوق النار فى اللهب
وثم الآن تهجرنى   جزائى الهجر ، واعجبى
وجن بحبكم قلبى   رمانى الحب للنوب

أنظروا هذه التعبيرات الثقال « شرحت لكم » ، وما القى من التعب ، ويفوق النار فى اللهب ، وثم الآن تهجرنى وفيه الجمع بين العاطفين وهو ممتنع لغة ، وتكرار كلمة الحب حتى فقدت بريقها ، من كثرة التكرار المبتذل . وبجانب كلمات الحب والهوى ، التى تستعملها الدكتورة كثيرا ، كلمة « النوى » ، وهذا دليل .. على محدودية قاموس الدكتورة .. اللغوى ، وربما صلحت هذه المحاولات لتتغنى ، فقد تطرب فريقا من الناس أما قراء الشعر العربى الجيد ، فلا يعنون بهذه المراهقات .

ومن قصيدة « أنت أقصى غايتى » ، ومطلعها :

يا منيتى قد ضقت ذرعا بالفراق وبالنوى ..

تقول الشاعرة :

عد لى ملاكى كى تجرب صحبتى ومودتى
كيما ترى كيف العذاب وكيف كانت حالتى
أنى سقمت من الهوى بل حان وقت نهايتى
ما كان غيرك لى هوى بل أنت أقصى غايتى ..

* وقصيدة « حديث العفة » ص « ١٩ » نقرأ هذا المطلع :

قالوا : سحرت به ، فقلت : لحبه أتطوع ..

ومنها :

أن الملامة فى الهوى – يا لائمى – لا تنفع
لا تسمعونى فى الهوى ما لا أطيق سماعه

وكذلك قولها ، من نفس القصيدة :

حسب الهوى أنى تحملت السقام بمهجتى

ونصل الى قولها :

بل قد تمادى ثم أمرض جسمه كى يشتفى ..

وهكذا بقية النماذج :

يا ساحرى أنى لموضع رأفة لو تعلم
طوبى لمن يهوى ويوصل والحبيب يصونه
يا من أحب تعال وارحم مدنفا يتعذب

أستطيع أن أقول ، أن هذه المحاولات بدائية ركيكة ، وغير جديرة أن تنشر ، والشعراء .. الذين كانت لهم بداءات ضعيفة أهملوها ، حين نضجوا وبرزوا فى الشعر ، لانها تسىء اليهم .. وتركها .. فى عالم النسيان ، اجدى من اذاعتها ونشرها ، ولو حاولت الدكتورة أن تعبر عن مشاعرها نثرا ، ربما كانت أجود ، ذلك .. أن الشعر مركبه صعب ، لا يقدر على تطويعه إلا الملهمون الموهوبون .

وأمامى فى صفحتى (٢٢) ، و (٢٣) قصيدتان ، عنوان الأولى « الهوى نعمة » ، والأخرى « طعم الهوى » . فكفى هوى ، وكفى اسرافا فيه ، تكرارا وعناوين ، لأن هذا مسخ وليس شعرا ، واقرأوا إن شئتم معى ، فمطلع القصيدة الأولى :

ألا يا رفيقـــى ألا تفهـم   بأن فؤادى بكم مغـــرم
برانى الهوى واستبـد النـوى   وباحـت عيونـى بمـا اكتـــم
حللـــت محـــل سود العـيو   ن ذلك غـــيرك لا يعلـــم

إذا قبلنا المطلع وقبلنا الذى بعده ، فكيف نقبل البيت الثالث ؟
فلا معنى لسود العيون ، ولكنه سواد العيون ، وفى قولها :

ذلك غيرك لا يعلم ، ما معنى هذه الألفاظ ، حتى فى النثر العادى غير الفنى ، فان هذا التعبير .. لا يقبل . وأنا أعتذر للدكتورة اذا لم يرقها ما أقول وأنا لا أقدم شيئا من عندى وإنما نماذج من قولها الذى اسمته شعرا ، وما هو بشعر .. فى حقيقته ، وإنما هو نظم مختل المعانى ، ومتنافر الألفاظ ، فيه نبوء ، لا تسيغه الأذن العربية ، التى ألفت أن تصيخ للشعر الجيد المطرب . وأكبر الظن أنى أختلف مع الدكتور محمد عبده يمانى فيما ذهب اليه ، عن وصف الشاعرة وشعرها .

واستمعوا معى الى قولها من القصيدة نفسها :

وحـــين اكلمـــه فى الهـــوى   يشـــير الى كمـــا الاعجـــم
بكل الوسائـــل أفهمتـــه   وعلمتـــه وهـــو لا يفهـــم

أكلمه ، وكما الاعجم ، والوسائل ، وعلمته كلمات ، لا تتماشى وموسيقى الشعر ومعانيه العالية وفصاحة العربية ، لكونها لغة شاعرة ، كما وصفها كاتب العربية الكبير .. المرحوم عباس محمود العقاد .

وأنتقل الى القصيدة الثانية ، أو الأخرى ، ص (٢٣) ، ـ طعم الهوى ـ التى مطلعها :

أجبنـــى بربـــك يا أسمـــر أتوصـــل قلبـــى أم تهجـــر
اذا ما اردت وصـــالى فعـد الى الحـــى ان الهـــوى يكـبر

افعال الأمر هذه ، أجبنى وعد ، وهذا الفعل الذى يبدأ باستفهام أتوصل ، كلمات قلقة ، لأنها لا تتناسق مع ما بعدها أو ما قبلها ، ولكنها حشرت ، لتملأ فراغا وتقيم وزنا يختل احيانا .

* ومن هذه القصيدة :

ودعنـــى أناجيـــك يا فاتـــنى ودعنـــى الى وجهـــكم انظـــر

دعنى ودعنى ، ثم فعل اناجيك ، ينبغى ان يسكن بحذف يائه ، لأنه جواب فعل الأمر . والشاعرة تخاطب بالمفرد والجمع فى حال واحدة ، دعنى أناجيك ، ودعنى الى « وجهكم » .. فاين التوافق فى هذا التعبير والانسجام ؟

ومن هذه القصيدة ، قولها :

لأطفىء نار الجـوى ، لـوعتى تحـــوم بقلبـــى ولا تصـــبر

فاذا كان النجاء يطفىء نار الجوى ، فهل اللوعة كذلك ؟ وهل عجز هذا البيت له معنى ، من هو ، أو ما هو الذى يحوم بالقلب ولا يصبر ، وهل المقصود بالصبر هنا البقاء والمكث ، ولكن الشاعرة لم تستطع الاتيان بالكلمة .. التى تؤدى هذا المعنى ، لتحكم القافية فيها ؟ واستمعوا اليها تقول :

ودعنـــى أجـــرب دفء اللقـــا سيفـــرح قلبـــى به يزهـــر

وكلمة اجرب فعل مضارع جواب الأمر ، وموضعه السكون ، واذا سكن انكسر البيت ، والمشكلة فى هذه الافعال الأمرية ، التى التزمت بها شاعرتنا ، « دعنى » . وما معنى سيفرح قلبى به .. يزهر ، لا ترابط فى هذا التعبير وإنما هو متنافر .

وتقول كذلك :

فلســت بنــاس هواك الــــذى ... اذيب بقلبــى « كمــا الســكر »

وكما السكر ، تعبير ثقيل المعنى واللفظ وما الذى رفع السكر بعد الكاف الجارة على « ما »الزائدة ؟ وتقول :

ألا أيهــا اللائمـــى فى الهوى ... لماذا تلـــوم ولا تعـــذر
أجربــت نار الهـــوى لائمــى ... لظــى فى الفــؤاد وكم تصهــر

ولا أدرى ، من أجاز للدكتورة شذوذ هذا التعبير « أيها اللائمى » ؟ لو قالت لائمى كما فى البيت الثانى ، فالياء للمتكلم ، لكن دخل على الكلمة « ال » ، فلا معنى لوجود حرف « الياء » .. فى آخرها . والدليل على ضعف قاموس الدكتورة اللغوى ، هذا التكرار فى الألفاظ نفسها ، وهى الهوى ، ولائمى ، والفؤاد .. الخ : وتقول :

لك الشــمس نورا تعــم الدنا ... أيمكن شمس الهــوى تســـتر
محال ولو ذقت طعــم الهـوى ... لما لمت من بالهـــوى يســهر

الشمس فى أول البيت ، وهى فى عجزه ، وهى والهوى شىء لا نعرفه ، لأن الشاعرة غير قادرة .. على الاتيان بمترادفات ، فالهوى يتكرر ثلاث مرات فى بيتين متتابعين . والذى أعرفه أن الانسان يسهر من الهوى لا به . ولكن عدم القدرة على الصياغة ، تؤدى الى هذا الاضطراب المعنوى .

* وفى ص « ٢٤ » قصيدة ، بعنوان « لون من الهوى » ، فنحن سنغرق فى الهوى الى الاذقان ، « يا أمان الخائفين » ، كما يقول شيخنا ضياء الدين رجب .. رحمه الله .

تقول هذه القصيدة ، أو قائلتها تنشدنا :

ساضوى المدينــة من أجلــك ... وأخترق الصعب والشــائكــا
وأعبــر جزر الهـــوى كلهــا ... بقلبـــى أشيـــده بيتكــا

تريد أن تقول « وقلبى » ، وإلا فما هو الشىء الذى تشيده بيتا بفعل قلبها ؟ ألم اقل ان مثل هذه التعبيرات تصلح للمغنين ، وتطرب أنماطا من

السامعين ، يستهويهم هذا الكلام . وتقول الدكتورة :

سأزرع في الدرب ورد الهوى
سيزهر شمساً لنا تشرق
ويدخل بيت الهوى ضوؤها
وينتشر الزهر والزنبق

ولو كان لى من الأمر شيء لسميت هذا الديوان : « في الهوى » ، واستمعوا اليها إذ تقول :

بذا الشكل أهواك يا فاتنا أتحمل لى مثل ما أحمل

أما « بذا الشكل » فتعبير مرفوض ، وأقبل منها أتحمل لى .. الخ :
وأقبل منها قولها :

أتحمل شوقاً لمن يرتجى وصالا قريباً به يجذل

أما قولها :

وبالعين يرعاك لا ينثنى وعن درب حبك لا يغفل
يشاغله حبكم دائما يصون الغرام ولا يهمل

الرعاية لا تكون بالعين وحدها إن صح أن العين ترعى ، وانما القلب والمشاعر التى تصطفق ، واذا كان لا يغفل عن درب الحب فعلام يغفل ؟ ولماذا يعبر عن الحب بدربه ؟ وكلمة « دائما » .. في البيت الثانى ، حتى في التعبير النثرى الجيد لا تصلح ، فهى ثقيلة .. وتقول :

فأنت السرور وأنت المنى أحبك حقا ولا أكذب

كلمة السرور .. مستهلكة ، وعجز البيت ، ليس بشعر ، وانما هو نظم ، خال من الخيال والديباجة الشعرية .

* وقصيدة « رحيل » ، ص « ٢٦ » مطلعها :

تركت الصب في بلد وأنت الآن في بلد
فازهق بعدكم صبرى وبرد في النوى جلدى

ومنها :

كأن النار م الأشوا ق كالاسياف في كبدى
وأكتم حر أشواقى وكتمانى برى جسدى
واخفى دمعتى الحرى وان نزلت فكالبرد

مجرد الفاظ مرصوصة ، ليس فيها بريق شعرى ، حتى المعانى تضطرب ، ولا أدرى ـ كيف هذه الدمعة الحرى المكبوتة ، تصبح كالبرد .. اذا نزلت ؟ .. اليس هذا يحتاج الى تفسير من الشاعرة ، لنعلم ما تعنى ؟ أم أن برودة المناخ فى غير مناطقنا .. يحولها الى ثلج فتتجمد ..!

وفى ص (٢٧) قصيدة بعنوان ـ الحب اللعوب ـ تقول فيها :

كلما شئت انفصالا   هزنى شوقى وقالا
كيف تحيا دون قلب   مت حبا وانشغالا
والهوى يغزوك دوما   فى الحشا ، شئت المحالا

ومنها قولها :

قد سهرت الليل كلا   يا معنى سئت حالا
لا تلمنى يا رفيقى   فالهوى شوق فظيع

تعبير عادى ، لا يجذب القارىء ، وإنما هى كلمات تشغل حيزا ، واستأذن الدكتورة ، أن أسمى هذه المحاولات .. افكارا مراهقة . وهل قولها قد سهرت الليل « كلا » ليس شعرا ، وكلمة فظيع ، أتصلح قافية ، وهل هى كلمة شاعرية ؟ ولا أدرى هل علم الدكتورة بالعربية يعينها على هذه الصيغة « سئت » ، ولماذا لا يكون سؤت ؟

* فى ص (٣٠) ، تقول من قصيدة « رفقا بفؤادى » :

ويردد قلبى نبضاتى   أنى يا ربى أهواه

وأى نبضات يرددها القلب وهو مصدرها ؟ أما مطلع القصيدة فهو :

أصديقى قصة نجوانا   حرقتنى فى نار الصمت

* أما قصيدة « قطرات الندى » ص (٣١) فمطلعها :

قطرات الندى أروت قلبى   بكلام كالعسل الصافى

ومنها :

قلت أصبر يا قلبى حتى   لا تهلك م الشوق اليه
بنزاهته قد تيمنى   هذا القرشى المحبوب

○ ○ ○

لا تسأل عن قلبى ابدا   بهواكم قلبى قد صهرا

لعل هذا البحر الذى اختارته الشاعرة يوائم تعبيراتها الراكدة ، وثقيل على الحس والذوق هذا التعبير .. « بنزاهته قد تيمنى » و « هذا القرشى المحبوب » ولا تسأل عن قلبى ابدا . قلت حتى فى النثر لا يستساغ مثل هذا التعبير ، فكيف به فى الشعر ؟

وبعد ..

أجد نفسى مضطرا .. الى ترك هذا الديوان بعد هذه الوقفة ، وأنا مازلت فى ربعه الأول ، وقد تصفحته كله . واكثره .. من هذا النمط الذى سقت نماذج منه ، ومن الندرة ان تجد ابياتا فيها نبض . أما الكثرة فهى مثل ما استشهدت به . ولو مضيت اضرب الأمثال بهذ الشعر ، لاثقلت على الدكتورة وأثقلت على القارىء ، وأصبحت أثقل من هذا الشعر ، وأنا أعتذر للدكتورة اذا رأت قسوة فى التعبير ، ولعل عذرها انها فى خطواتها الأولى على درب طويل شاق ، كما عبرت هى عن نفسها وفى محاولتها هذه . ولكن ما قدمته من نماذج لا تتفق ومركزها الأدبى ، لاسيما وانها تكتب بلغتها الأم . وهى مدرسة فى كلية الآداب ، وشهادتها فى الأدب العربى . وطالباتها اللاتى يقرأن هذا الشعر ويدرسن فى كلية الآداب ، فماذا أو ما عسى يقلن عنها ؟ ربما ناقشنها فى هذا الديوان ، وربما تذرعت بالقول : انها تجربة أولى . ولكن لا يصح أن تقدمها دكتورة .

فلماذا لم تترك نفسها .. حتى تنضج شاعريتها ، ثم تبدأ مشوارها الطويل مع الشعر أو تتركه ، اذا لم تجد فى نفسها القدرة ، وتدندن .. كلما أتيح لها ذلك ، ولكن لا تنشر على القراء .. مثل هذه المحاولات ، فهى تسىء اليها كامرأة تحمل الدكتوراه فى الأدب العربى . فلا ينبغى لها أن تقدم محاولات فجة .. ضعيفة ، ربما ترفع عن تقديمها المبتدئون ، الذين ليس لهم نصيب من دراسة الدكتورة ، أو بعض ما وصلت اليه . وأنا هنا لا أفرض عليها رأيا ، فأنا لا أملك ذلك ، ولكنى أغار على سمعتنا الأدبية ، وأخشى من هذه الكبوات ، وعسى أن نقرأ للدكتورة فى النثر .. ما تهم بترجمته عن الفرنسية ، لنرى باعها فيه ، ولنقول بعد ذلك كلمة ، وفق ما نرى .

ومرة أخرى ، معذرة فى الاطالة ، ومعذرة الى الدكتورة إن لم يعجبنى

شعرها ، ولكن افكار بعض القصائد ، مثل « ولدى عدنان » و « قلب أم » ، والى ابن اخى ، تشملها عواطف انسانية ، غير أن التعبير دون المستوى الجيد ، وبعض الاحيان حتى المقبول ، وتركت كثيرا من الابيات المكسرة والركيكة التعبير والضحلة المعانى ، وهو كلام يبعث على الضحك والسخرية ، وذلك رفقا بالشاعرة والقارىء معا . راجيا للدكتورة التجويد فيما تنشىء من أدب ، واضطراد النجح فى آداء رسالتها الى طالباتها ، والى الفكر .. الانسانى .

في ذكرى عميد الأدب العربي

* قصة حياة طويلة ومضنية وهى صورة من الكبد الذى يعيشه الانسان وقدر عليه ، وليس له فيه خيار ولا مفر ، فالكبد شمول بالقياس الى الانسان وربما اختلف حجم الشمول من إنسان الى آخر وفق ظروف ومواقف تكبر فيها المعاناة أو تقل غير أن الشىء المسلم به أن الكبد أساس فى هذه الحياة الدنيا مهما اختلفت صوره ومدى تأثيره على حياة انسان أو آخر .

وليس من سلاح يستطيع احتمال هذا الكبد أو مقاومته الا الصبر ، ولا يكون الصبر الا حيث يكون الايمان الصادق ، فتترسخ فى النفس بذور الاحتمال حتى لا يهمها ضغط الحياة ومفاجأتها ، وما تأتى به من جديد يصل تصويرها بالعجائب كما يقول الشاعر القديم .

منذ الثامن والعشرين من شهر اكتوبر وأنا أتحين الفرص لا كتب عن رجل فى ذكرى رحيله الخامسة وما أكثر الذين كتبوا عنه مدحا وقدحا ، وان كانت الاخرى أكثر ، والصورة القادحة مهيضة ، تغلفها شهوة الـكلام والافتئات وحتى الظلم ، لانها افرازات هوى ورواسب ماض ، وأحابيل مترهلة لا تقوى على التصدى الجاد ولا مقاومة الرأى بالرأى ، وإنما هى تسلل فى ليالى دامسة حالكة ، تفتن بالبريق ، ولا تستطيع ان تصل الى الجوهر لانها لا تملك عدته ، وإنما هى تهدم وتغالط وترتكب الاخطاء ، فقد خلت الساحة من الرجل الذى يملك أن يسكت بالحجة والحق وحين اختفى تصدر الساحة غير أهلها ، وكانوا لا يجرؤون على المرور من جنباتها من تلك الرهبة ، لانهم عزل من السلاح وفى فراغ من الشجاعة التى تفرض المواجهة واقتحام الميادين بعدتها واعدادها .

سمعنا كثيرا من هؤلاء الصائحين ولو انهم التزموا جانب الحق وجانب العدل وحسبوا ما على الرجل وما له لقبلنا منهم الرأى ، بعدا عن الغيرة ،

وتجردا من الهوى وخلوصا الى الحق الصراح ، غير أن الذيـن وعـوا أو استطاعوا أن يعوا هذا المسلك الشجاع قليلون جدا ، وكانت الاكثرية هى المتصدية تنهش فى لحم الرجل وتسفه آراءه وتتهمه بالسرقة والبهتان وقلة الحيلة ، وضعف الحجة وسوء الطوية وفساد الرأى وفراغ النفس .

مجرد اوهام ورواسب فى النفوس وتقليد لا يحتكم الى عقل ولا تجرد رأى ، وإنما هو انسياق بلا روية وبغير بصيرة ، ولا يخرج عن معنى ، سمعت الناس يقولون شيئا فقلته ، وليس هذا بفكر يتبع ، ولا برأى يسمع ، وانما هو غثاء وهراء ، غير ان المنطق الحق إن يبارز الانسان خصمه جهارا ، وبعد انذار واستعداد هكذا الشجاعة والمسلك السوى .

أما أن يشهر انسان ما سيفه ويتقدم فى ساحة ليس فيها مقاتل ، بل ليس فيها أحد ، ويأخذ يجوب ميدانا ليس فيه سواه ، فما أشبه هذا بالذى أصابه مس فاختل توازنه ، وظن انه يتقدم من بطل ليتقاتل معه وقد أعلن للناس ليشهدوا الموقف ، وينبغى الا يحضر الا من كان ذا قلب شجاع وصبر على المكاره ، وتحمل مقاومة النفس وهى تشهد الدماء ، نازفة من أحد المقاتلين أو من كليهما حتى يسقط أحدهما أو كلاهما على أرض المعركة ويصفق أو يأسى الشهود وينصرفون عن هذا المشهد وقد ترك فى نفوسهم آثاره وأوزاره .

هذا فى تصورى ما حدث لبعض الاقلام التى تصدرت أو صدئت فأخذت تستجر الكلام وقد رحل الرجل بحسناته وسيئاته وأصبح بين يدى ربه ، أن شاء رحمه وإن شاء عذبه ، وكان ينبغى المواجهة وقد كانت من بعض من تصدى لآراء الرجل .

وبعد أن قدم الراحل تلك الحسنات فى اسلامياته التى قرأناها وشهدناها تمثل فى التلفاز ، باهرة ، لانها تصور مرحلة من أخطر المراحل فى ظهور الاسلام وما لاقى اتباعه من عنت الكفرة وما تحملوا فى سبيله من بلاء ، ولكنهم صبروا لأنهم آمنوا فكان إيمانهم سياجا دونه الموت الزؤام ، والنفس فداء للدعوة ، ولم تستطع القوى الشرسة أن تنال من تلك النفوس القوية بالايمان ، ولم يستطع صناديد الكفر أن يخترقوا ذلك السياج الايمانى بكل وسائلهم ودهائهم وحقدهم .

تجد ذلك فى ــ على هامش السيرة وفى الوعد الحق ــ .. والشيخان ، الى جانب عثمان وعلى وبنوه ، وما الى هذه الكتب التى ألفها صاحبها عن قناعة كما أعتقد ، وهو تراجع عن رأى انحرف به فلج وأعوج ، وتجنى على نفسه به ، ولقى من التصدى والتصحيح لرأيه الخاطىء ما يستحق أن يواجه به وهو يتحمل وزر ما أرتكب ، وهذا لا يعنى مطاردته حيا وميتا ، وإنما محاسبته حيا ، أما وقد رحل فانه ينبغى على اولى النهى أن يذكروا محاسنه أو أن يصمتوا ، أما أن يأكلوا لحمه ميتا بمنهج فيه كثير من التجنى ، فذلك غير سبيل الاصلاح ولا المصلحين لانتفاء العدلية فيه ، لغياب الطرف الاخر .

وانبرى نفر معدودون يردون وينكرون ما سمعوا وما رأوا ، وكان منهجهم فى الرد والنقاش فى منتهى الادب والاخلاق ، إذ ردوا الزيف من التهم والاقوال التى لا تسندها حجة وإنما هى دعاوى وأقاصيص مختلقة وآراء فجة وتلافيق واهية واهنة .

وما تزال أصوات نشاز ، لا تدرس ولا تمحص لتقول رأيا يؤخذ به وحجة فيها إقناع وحقائق لا تحتمل الشك ، وإنما هذه الاصوات تدب وتنهش وتفتعل لتقول أى شىء بعيدا عن منهج الدرس وأدب النفس .

فى أدب طه حسين متعة وجمال وبعد تأمل واستنتاجات لا يرقى اليها فى منطق الاقناع الا العباقرة ، ولا ينكر على الرجل العبقرية الا غير متذوق وغير ذواقة لجمال الادب ، وروعة الاداء فى الدرس الذى نجده عند طه حسين .

والذين جاءوا بعده يدرسون الادب الجاهلى والامــوى والعبــاسى والمعاصر ، بعضهم لم يخالفه كثيرا ، وبعضهم لم يأت بجديد ، وإنما هو مقلد فى أقل مستوى تعبيرى وديباجة أداء ، ودقة تناول ، لافق واسع ، يحلق وهو يقيم الدليل ويصور الواقع ويقدم البرهان . وحتى المخالفين لآراء طه حسين فى الشعر الذى عكف على درسه طويلا ، لم يأتوا بأدلة تقاوم أراء الرجل وتبطلها وتأتى ببدائل تناقض ما ذهب اليه طه .

وشغل طه حسين الناس حيا وميتا ، كما شغلهم المتنبى أكثر من ألف عام ، وقد صحب الدكتور العميد المتنبى وانصفه فى هذه المصاحبة ، فطه يقف عند البيت من الشعر للمتنبى ليقول لقارئه أنظر الجمال فى التركيب والالفاظ المتناسقة وقوة المعانى وروعة الاداء ، كما يقف على الابيات ، يفتتها كما يصنع

الكيماوى والمحلل ، والخبير فى تخصصاته .

ويقف طه على البيت الضعيف ليريك التكلف والصنعة المفتعلة وعدم التوفيق فى اختيار اللفظ وبعد المعنى عن القصد فيسحرك الكاتب بما يسوق من أدلة وتحليل ، فلا تملك الا أن تأخذ بأرائه لانه يلمسك بتلك البراعة والقدرة الفائقة موضع القوة وموضع الضعف فى البيت والمقطع والقصيدة فيضطرك ان توافقه وأن تمضى معه ، بقناعة المتأمل الذى يبهره الرأى المتعمق والمقاييس التى تأتى بالدليل لغة ومعنى وديباجة ومسلكا ومنحى .

ورغم أن طه متأثر بأبى العلاء وكلف به ، يؤثره على الكثيرين من فحول الشعراء ، ويأنس به ويلازمه ويرى فيه الشاعر الفيلسوف المترفع القوى الارادة البعيد عن التدنى ، فيه إباء النفس وعزتها ، لا يرخص شعره ولا يتزلف به ولا يبيعه ، فهو قانع باليسير من سبل الحياة غير طموح الى جاه ، وغير مكترث بلذات الحياة وزخرفها ومباهجها ، وذلها وعنائها وصخبها وبؤسها رغم ضآلة مكاسبه منها ولو ارادها لكانت له .

رغم ذلك .. أى هذا الميل غير المتحفظ الى أبى العلاء ، وهذا الكلف عند طه بصاحبه ، فى منهجه الحياتى وبعده عن البهرج والصدارة الا من وفاء لبعض من اختصهم بثنائه عن رابطة تجمع بينه وبين من مدح أورثى ، فان طه حسين كان منصفا للمتنبى ، يكبره ويعنى بدراسة شعره ، ويذكر مواقفه وقوة شاعريته وبعد صوته وحكمته ، فخصص له كتابا هو أحد المراجع القوية الجادة فى دراسة الشاعر وشعره وطموحه وأحلامه وآماله ، وجولاته بين الكوفة وحلب ومصر من بدء حياته حتى مماته .

ولعل أنضر أيام المتنبى وروعة شعره ، فى تلك الحقبة التى صاحب فيها سيف الدولة الحمدانى فى حلب ، تلك الفترة من الجهاد والفتوحات الاسلامية والنصر ، وكان المتنبى ذلك الصوت الجهورى الذى يهز الاصقاع ويحمس الجند ، فيدفعهم الى القتال والصبر ، ويزرع فى نفوسهم الشجاعة والبأس والاقدام حتى اذا ما ترك سيف الدولة بعد ان أسمعه تلك الميمية التى مطلعها :

وأحـر قلبـاه ممـن قلبـه شبم   ومن بجسمي وحالى عنـده سقم

الى ان قال :

لئن تركنـا ضمـيرا عن ميامننا   ليحدثـن بمــن ودعتهـم ندم

فكان ما توقع ، لقد ندم سيف الدولة على فراق المتنبى ، الصوت المقاتل مع الجند والمدوى فى الوغى يجلجل فى الاودية والاكام والقفار ، يحث على القتال والموت ، كان ذلك الشعر سيوفا بتارة لا تخشى الهزيمة وكانت تلك النفوس التى تغلغل فيها ذلك الشعر النارى لا تهاب الموت ولا تخشى الردى .

* وكما ندم سيف الدولة .. ندم المتنبى نفسه ، على ذلك الفراق والمجد الذى عاش فيه وأنشد أروع قصيده ودرر اناشيده ، وبعد ألف عام يأتى شاعر معاصر ينشد فى ذكرى المتنبى فيقول لسيف الدولة :

ياابن حمدان أنت لولا أبى الطيـب   أنـى لذكرك التخليد
أنـت أوليتـه العطايـا جزافا   والعطايـا مع الزمـان تبيد
أنـت لولاه ما رأينـاك فى السا   ح وللحـرب ضجـة وبنود

قصيدة طويلة للدكتور أمجد الطرابلسى من روح المتنبى وديباجته ونفسه رغم بعد الزمن .

ومعذرة لهذا الاستطراد ، فقد شغلنى المتنبى عن طه حسين ، ولكن طه حسين قد افرد للمتنبى كتابا فكان هذا التداخل فى الحديث بين الشاعر والكاتب ، وأنا أتحدث عن طه حسين وأدبه فكان لابد من موقف مع الدرس فى شىء من أثر العميد ، وليس هذا الذى أكتبه دراسة ، فذلك تخصصات الباحثين ، ولا يؤديه كلمة عابرة فى جريدة سيارة تكتب على عجل وتظهر فى عجل ، وما أردأ الادب الا العجلة والسرعة ، وليس تلك وهذه سبيل الادب الجاد ولا التأمل الدقيق ، ورحم الله طه حسين فقد ترك اثارا جديرة بالدرس والتأمل بتجرد من الهوى ، وبعد عن السخف من سقط الكلام فليس ذلك سبيل الدارس الواعى الحق الذى يريد ان يقول فيسمع لرأيه ويؤخذ بحكمه .

يوم للخبز .. ويوم للأدب

استاذنا الفاضل الشيخ اسماعيل حمدى الكاتب الاسلامى ، صاحب الاسلوب الرفيع والتعبير الدقيق والديباجة المحلقة ، والمنهج القوى ، والحجة الدامغة ، والوفاء للصحب ، مد الله فى عمره كتب الى رسالة جاء فيها :

« ما هذه المقالات والاحاديث التى اتجهت أخيرا أليها ؟ ما اصبرك يا رجل

على الكتابة فى المرافق والخدمات واشباهها ما بقى أن شاء الله الا أن تدخل معسكرا أو مخيما لاحدى شركات المقاولات وتظل فيه أياما لتكتب عن الجسور وأعمدة النور والآلات الرافعة والأسفلت والزفت » .

« أخرج من هذا الضيق يرحمك الله وعد الينا بالوجدان الذى عدت به من ـ فينيسيا ـ وقد اثملك الجمال حتى كتبت عنها المقالات أو الاغانى الحالمات ودع المدارس والمستشفيات والمرور والمرافق لكتاب التقارير والمذكرات » .

هذه هى نصيحة الاستاذ الصديق الصدوق ، ولعلى لا أخالفه كثيرا فيما ذهب اليه ، ولكن هل لى الخيار فى ذلك ؟ واذا ملكت ما يراد منى أو يريده شيخى ، الا يرى معى فضيلته أنه ينبغى أن يكون يوم للخبز ويوم للأدب حتى وأن أصبح الادب سلعة كاسدة ليس له سوق ، ولا أعنى الادب الرفيع ، فلذلك قراؤه وعشاقه ، ولكن اين هم ؟ وأين رجاله ؟

أما هذا الغثاء الذى يتصدر الساحة فلا خير فيه ولا بقاء له ، ولا يغنى فتيلا .

لقد أصبحنا فى عصر ندر فيه الحلم الذى يفضى الى تلك المناخات من التعبير الجميل الأخاذ الذى يهدهد النفوس ويدغدغ العواطف ، حين تمازجها الصور الجمالية فى اطاراتها الجذابة ، فتعمق فى نفس الانسان بذلك التأثير المنساب من روائع الطبيعة ودقة التصوير الذى ينقل بأخيلة مجنحة والهام أرتفع بالشفافية الى معانى الاحلام التى ينشدها المهمومون والكادحون ليجدوا بلسما يخفف أوجاعهم وينقلهم الى وشوشات الاغصان التى تعانقها نسمة وادعة ، وقطرة طل على شفاه وردة ولهى فتخفف وقدة دمها الفائر الى استرخاء لا يحركه الا أشعة شمس يوم جديد تعيد الحرارة الى أوردتها فتزداد أحمرارا بعد ان ثملت من ارتشاف الطل ونغمة كروان يسبح لخالقه ، فتحدث هذه الانغام من النسمة واهتزاز الاغصان وعبق الورد فى العين الوسنى ، ذلك المفعول السحرى من الحلم الجميل .

أنها لحظات تمر سراعا يلهو بها الساهر ويرقبها الولهان ، ويتصيدها الشاعر وتنفحها الأوتار ، تثير مكامن النفس الجريحة فتستجيب وتتذكر

وتحن ، ويلتهب فى جوارحها الشوق الممض فيألم مفارق وينعم مصاحب ، ويصحو الحس فى نفس ألفت أن تتصيد نفحات الفجر وأنفاسه العبقة وصفاءه المتوهج ، وتحيا بعد موتها بعيدا عن ازيز مبتكرات المدنية المقلقة وأدخنة المصانع الخانقة وعجيج المدن اللاهثة وصخب الحياة الذى يغزو السبات ويبدد الحلم ويقلق النفوس ويفجر الحياة على نحو ما وسط سعى العاملين المتزاحمين فى لهث ليصلوا الى حيث الكفاح اليومى راضين أو كارهين ، لا يأبهون بما حولهم من جمال ولا وقت لهم للتأمل ولا استعداد لنفوسهم ، أن تجيل أطرافها فيما حولها من صور الطبيعة وكم فيها من أسرار وحياة ، ذلك ان الحياة سوط لاهب للنفوس لتسعى وتكد الاجسام وتلغو الالسنة وتهذر بما يهمها وما أكثره ، فلا تلوى على ما عداه حتى أخذ منها الجهد مأخذه وأذنت الشمس بالمغيب ، عاد العامل الكادح مكدودا الى مسكنه يجر قدميه منقطع الانفاس ليرتاح ساعة ثم يأخذ فى التفكير فى شئونه وشجونه وغده المجهول وما يحمل من مفاجأت لا يعلم منها شيئا ..

فأين الأحلام فى هذا البركان الملتهب فى حياة الآلة والدخان ، والقلق ونذر الحرب والاقتتال والتناحر والترويع المتصل ؟

وسويعات الاستغراق فى غفلةمن هذا التطاحن ، سريعة الاحتراق تذوب متفلته بين استرخاء وتجوال وحب استطلاع فى حذر يقطع التأمل ولا يوحى بالأمن لأن العالم اليوم الا ما ندر يعيش فى دوامة من الهموم قلما تجد النفس هدوءا تركن فيه الى سبحات الخيال ليكون ذلك الآداء الجمالى الذى نسميه حلما فى تعابير وسنى وخلجات نفس تنزع الى الجمال تستوحى منه أناشيد تأسو الجراح وتلهب العواطف وتجدد الشباب ، وتعمق الارتباط بين الانسان وما حوله بعيدا عن العناء وإنما الى يسر من زينة الحياة وما أودع الله فيها من مغان ، وهى مجال عريض للمتأملين وتأمل المرء يعكس له صورها المختلفة بلون ذلك المنظار ومقاييسه واختلاف عدساته وقوة بصره وابعاد بصيرته .

شكرا لك ياسيدى الاستاذ على صادق نصحك ، ولعلك تفضل فتوافقنى أو تخالفنى حين اقول : دعنا نوائم بين الخبز والأدب او الحلم ساعة وساعة ، بقدر ما يتاح وبقدر ما نستطيع وما تفرضه علينا حياتنا العامة والخاصة .

الاسلام وكتاب من امريكا

* كتبت الى ابنتى من الولايات المتحدة تقول :

العيد هنا غير محسوس على الاطلاق ، بعض الطلبة العرب المسلمين والمسئولين عن المسجد فى ـ أوستن ـ عرضوا فيلما دينيا عن بعض الاماكن المقدسة ومقاطع عن بعض الشعائر فى عيد الاضحى .. الغريب أن الطلبة الامريكان فى الجامعة كانوا مهتمين جدا بالموضوع ولديهم حماسة وأسئلة كثيرة عن الاسلام ، لكن للاسف معظم الطلبة العرب ليست لديهم الكفاية اللغوية ولا المعرفة الكافية عن الدين مما يؤهلهم للمناقشة والعرض الشائق فى الموضوع .. ان « بروفيسورا » فى علم اللغات امريكيا مسلما اسلم قبل ست سنوات كان يعيش فى تونس ، المهم هذا البروفيسور كان يحضر العرض السينمائى الدينى ، سألنى بعد نهاية العرض : أعرف من قراءاتى للقرآن أن أحد واجبات المسلم ان يبلغ رسالة الاسلام للناس ، غير المسلمين فى كل أرض ، وبلادكم كأرض اسلامية ومنبع رسالة الاسلام مسئولة الى حد كبير عن هذا الواجب ..

ومضى يقول : لم أر أو اسمع فى حياتى علامة دين عربيا قام بزيارة لاحدى الجامعات الامريكية وحاضر فى الطلبة الامريكيين عن الاسلام وماهيته ، وأخبرنى ان قصة اسلامه كانت بجهد ذاتى قام به كلغوى يدرس اللغة العربية ودرس القرآن واقتنع بما جاء بعد مقارنته بالانجيل . ثم شرح لى وضع الفرد الامريكى وبخاصة طلبة الجامعات والشبان وقال : الناس هنا لم يعودوا يؤمنون بشىء مما جعلهم متخلخلين من الداخل ، لقد تعبوا من التكنولوجيا ويشعرون بخوف هائل من تحويل كل شىء الى الكمبيوتر هم فى رهبة عظيمة من المستقبل ، وهذا هو حديث أمريكا باكملها فى الوقت الحاضر ، ما يسمونه بـ ـ صدمة المستقبل ـ .

الشعب الامريكى الان فى أحسن أوقاته لتلقى دين الاسلام ، فهذا الشعب يتلفت الان فى كل الوجهات ، عله يجد باب النجاة من كل المتعارضات المحيطة به .

* ويتساءل البروفيسور الامريكى المسلم فيقول : لماذا الجهات الاعلامية فى البلاد العربية وخاصة فى السعودية ، كالجامعات لا تبعث بعثات دينية كأساتذة الجامعات ليحاضروا فى طلبة الجامعات الامريكية عن الدين الاسلامى ؟

وختمت ابنتى رسالتها بقولها : « وقد وعدت البروفيسور ان انقل اليك حديثه لتعرضه فى احدى مقالاتك » .

وها انا أؤدى هذه الامانة ارجو ان يكون لهذا الامل صداه وتسفر عنه نتائج ايجابية ، فأرى علماءنا الذين يجيدون الانجليزية يشدون الرحال الى هناك يذيعون الدين الاسلامى فى زيارة لجامعات الولايات المتحدة فيهدى الله بهم أناسا ، هو خير لهم من حمر النعم ، كما يعلن الحديث النبوى الشريف .

انه دورنا الكبير اليوم ، ونحن قادرون ان شاء الله على النهوض به ذلك أنه واجب مقدس ، وها هى الدعوة قائمة وملحة فى الطلب ولعل رابطة العالم الاسلامى تدعو الى شد الرحال لاشاعة دين الله فى الارض ، فالبشرية الضائعة تتلهف الى منقذ والدين الاسلامى هو علاج هذه النفوس وبرؤها وأمنها وامانها . اللهم : ان اعلاء كلمتك فى الارض ، جهاد فى سبيلك ، اللهم اعنا على ادائها ويسر لنا السبل ، فانت الهادى الى الخير والمعين عليه .

* قفلة ..

* قال الفضيل بن عياض :

الدنيا حلم ، والآخرة يقظة ، والموت واسطة ، ونحن فى اضغاث .

التاريخ للنقد والمعارك الأدبية

كنت أناقش .. بعض الأصدقاء من الأدباء الأوائل ، وكنت أقول لهم : لماذا لا يؤرخ للمعارك الأدبية التى دارت عبر نصف قرن من الزمن ؟ . أليست تستحق التسجيل وأن يقرأها الجيل الحاضر والأجيال القادمة .

وكانت الردود مختلفة ، أحدهم يقول : انها لا تستحق أن تسجل لأنها معارك شخصية ، ليس فيها رأى أدبى ، وليس فيها فكر ، ، فماذا تسجل ؟ . وهل يمكن ان تسجل شتائم وقذارات لفظية ، القى بها فى الساحة الأدبية ، على أنها نوع من الرأى والفكر والجدل الأدبى ، إن أكثرها بذاءات وترهات وأسقام لا خير فيها ولا نفع منها .

كنت أرى ان هذا الرأى « متشائم » الى حد السواد ، ومن الصعب الأخذ به ، مع قناعتى .. ان بعض ما قيل لا يصلح فعلا ان يسجل وان يدون . لكن هناك ما يمكن ان يعنى به ، وان يسجل كأثر وتاريخ أدبى .

فريق آخر أو رأى آخر ، يتوسط فى رايه يرى مثلا اسقاط الاهاجى المقذعة والمسائل الشخصية ، ونشر ما عدا ذلك ، بمعنى .. أن ينقى ويغربل ذلك النقد ، ويختار منه .. ما يصلح ان يقدم كتاريخ ويشار الى ما يهمل ، الى أنه أبعد .. لأنه غير جدير بأن يدون وان يبقى .

وفى خضم هذا الحوار وهذه الاستشارة ، يبرز رأى آخر .. لا يتحدث عن « لم » النقد الضائع وانما يتحدث .. عن التساقط ، ويعنى ان النقد فى عالمنا العربى ما يزال يمر بأزمة ، منذ ان بدأ فى عصر النهضة الى اليوم ، ونحن كجزء من هذا العالم ، فان الساحة النقدية محمومة ، ذلك انها تبدأ بالحديث عن الأثر وتنتهى بالتراشق والاتهامات الشخصية . وصاحب هذا الرأى ، يحمل الصحف .. هذه الجناية ، لأنها تفتح الأبواب للمتصارعين ، فلا تمسك العصا من وسطها ، وذلك بان تمارس صلاحياتها بأهمال القذى ، حين

يباشره ناقد ، أو الذى يلحقه النقد . اذ ان من واجب المسؤولين عن الصحافة فى جهاز تحريرها حماية الاخلاق من البذاءة التى تحمل العنف ، لا فى التعبير النقدى وإنما حينما يتحول النقد والرد عليه .. الى مهاجاة ، والى سوء أدب .

ويذكر صاحب هذا الرأى ان بعضا أو كثيرا من اصحاب الصحف ، ويعنى رؤساء التحرير ونوابهم ، يتلذذون بنشر هذه المعارك التى تشبه معارك « الديكة » كما يتلذذ بها فريق من القراء ، وتنال الصحيفة .. التى تروج لهذا الغثاء رواجا موقوتا ، ما دامت المعارك مستمرة ، الى ان يبلغ السيل الزبى .. كما يقال ، ثم يغلق باب النقاش او المهاترات ، وغالبا ما تتدخل .. الجهة المسؤولة فى الاعلام ، لاغلاق هذا الباب ، لأنه غير جدير ببقائه مفتوحا ، ذلك .. إن العابرين منه لم يحسنوا أدب المرور أو العبور .

هذه التهمة الموجهة الى الصحف قائمة ، وأحسب أنها صحيحة . ولو مارس القائمون على الصحف مسؤولياتهم الأدبية ، لما سمحوا بكثير .. من ذلك الغثاء الجارح .. أن ينشر ، بمعنى انهم يحذفون الالفاظ الجارحة التى تلمس الشخصية وتخرج عن الموضوعية . لو فعلوا ذلك ولم يجاملوا احدا على حساب أحد ، لكان للنقد .. فيما اعتقد مسار غير مساره الذى شهدناه ، وما يزال يسرح ويمرح فى كثير من الاحيان ، وعلى كثير من سنان الاقلام .

فى تقديرى . أن أصحاب الصحف .. لا يغيب عنهم خطر الكلمات الجارحة .. التى تمس الشخصية ، ولكنهم يتساهلون ويتسامحون ، فيكون رد الفعل الفادح ، وتكون النتائج المؤلمة والمحزنة ، وتنتهى المعارك الكلامية الى غير جدوى بانفلات الزمام .. من يد رئيس التحرير واعوانه فى بداية نشر المعارك ، وبعد ذلك .. لا يجدون بدا من الاستمرار .. فى التشجيع على مسلك التراشق بالالفاظ ، حتى يمل كبار الناس هذه الترهات ويضيقوا بها ، فتغلق الأبواب بعد أن يستشرى التنابز والتجريح الشخصى ، انها مسئولية أدبية ، يتحمل وزرها رؤساء التحرير ، أعنى نشر التهجم والعبث من أى كاتب وضد أى كاتب .

ورب قائل يقول : ان النقاد سيمسكون عن النقد وأقول أن هذا ليس بنقد ولكنه عبث . والوقوف فى وجهه يجعل الناقدين واصحاب الرأى .. يحافظون حين يكتبون ويناقشون ويجادلون ، إذا علموا ان اية صحيفة سوف لا تنشر

القذى اذا هم مارسوه وبعثوا به اليها ، وبذلك يصح المسار النقدى والأخذ والعطاء فيه .

واذا كان ما فات ، لن يصلح ، فهل من يطمئن .. الى أن الجديد سيكون ملتزما وجادا وموضوعيا ؟ أنا لا انكر طبيعة البشر ، لا سيما فى النواحى العدوانية ، عند الكثير او عند القليل غير ان الوسيلة هى ان القيادة فى الرأى والنشر حينما تمارس مسؤوليتها وهى « أهل » لهذه المسؤولية ، تستطيع ان تحد .. من العدوان وتجاوز الحد ، فتستقيم امور النقد والمناقشة ، لأن ضابط النشر الرؤية والفكر والتوازن اذا لم تسمح بالخروج عن المنطق ، فلن يكون ثمة مهاترات وترهات ، تنشر .. باسم النقد والرد عليه .

تلك التهميشة التى اوردها ، كان لا بد ان ترد .. خلال هذا الحديث ، لأنها ركيزة ونقطة ارتكاز ، ينبغى ان تلزم من خلال نشر الموضوعات النقدية وردود المعنيين فى مجال الفكر بمبدأ التوازن ، وهو ما يسمى بالموضوعية ، للبعد عن الهذر والسفه والسخف ، ولنحترم صحفنا ، ليحترمها الآخرون ، اما حين تتجاوز الحد .. فى فتح ابوابها وتنشر ما يرد اليها دون ان تغربله ، وتحذف منه .. السقم ، فانها تشارك فى تبعة العبث ، ورسالتها أرقى وأسمى من ذلك ودورها كبير فى التوجيه .. والاصلاح ومعالجة القضايا العامة والخاصة ، برأى صائب ، وفكر نير ، وأدراك عميق ، من واقع .. ما تضطلع به من مسؤولية .

وفكرت فيمن يؤرخ للمعارك الأدبية التى كانت منذ بدئها . والمؤرخ لتلك الحقبة ينبغى أن يتجرد من الهوى ، ويضطلع .. بهذه المسئولية الأدبية .

وجاء فى ذهنى صورة الاستاذ احمد السباعى ، وصورة الاستاذ عبد العزيز الربيع ، وان يجد احدهما او كلاهما العون .. من الروافد التى عاصرت تلك المعارك كالأستاذ الساسى ، والاستاذ حسن الصيرفى ، او التى جاءت .. فى أثناء تلك المعارك أو بعدها ، ولها عناية التتبع والدرس .

وعندى ان يؤرخ لتلك المعارك من عاصرها ، وعايش الأدباء الذين أثاروا المعارك وعايشهم لأنهم أكثر التحاما .. من غيرهم الذين جاءوا بآخرة ، وهدفهم تطبيق المنهج العلمى النقدى .. الذى درسوه فى الجامعات ، فقد يبعد بهم هذا المنحى .. عن اشياء كثيرة ، ولا يستطيع التوصل الى كل الأعماق ، وتظل هناك فجوات وزوايا ، لا يصل اليها الدارس غير المعاصر للحركة النقدية والأدبية ،

وغير معايش لها .

لا أدرى ، هل سن الاستاذ السباعى وصحته .. تسمحان بأن ينهض بهذه المهمة ؟ . واذا كان الجواب بلا ، فهل ظروف الاستاذ عبد العزيز الربيع الوظيفية تسمح له بذلك اليوم ؟ اكبر الظن ان الجواب .. سيكون بالنفى . اذن .. من لهذه المهمة ؟ .

من خلال الآراء التى استمعت اليها المعارضة والمتوسطة والتى بين بين . أرى انه ينبغى ان يؤرخ للنقد الأدبى عندنا وللمعارك الأدبية .. وان يبعد عن النشر ما يجافى الخلق الكريم ، والتأريخ للنقد والمعارك ، لا يعنى بالضرورة .. نشر المهاجاة والاقذاع ونبش القبور ، وانما دراسة موضوعية للتاريخ الأدبى ، نقدا ومعارك .

والحديث عن الرأى لا يعنى الشخصية الا فى حدود محدودة ، اذ لا يمكن فصلهما عن بعض ، والاثر ملك للتاريخ وللرأى ، يمحصه ويدرسه ، لا نريد الحياة الشخصية بدقائقها واسرارها ، وانما الفكر والعطاء الأدبى ، اكبر الظن انى لم أكمل الموضوع كما يجب ، فهل يفضل احد بأكماله ، اذا كان يتطلب اكمالات ، للوصول الى طرح هذا الرأى من اجل التاريخ للنقد الأدبى والمعارك الأدبية ؟ .. ولعلى أعود للموضوع مرة أخرى فى مناسبة ما . والنقد الأدبى شىء والمعارك الأدبية والنقدية .. شىء آخر بالطبع .

نغماتٌ من أوتار الشعر

منذ .. مايقرب من عامين ، جاءنى ديوانه الاول ، افضل فاهداه الى ، فقرأته واعجبنى ، وهمشت على بعض ابيات وبعض قصائد ، ومرت الايام ولم اتناوله بالكتابة ، وانه لمخجل او هكذا اشعر ، ان تأتيك هدية فتقصر .. دون الاحتفاء بها ، وهذا ماكان منى ، ولم اكن اعرف الشاعر ، ولعل حسن ظن منه ، ادى الى ان يبعث الى بديوانه الاول ، لعله سمع عنى .. كقارىء مستأن ، او محاول يكتب خواطر اجتماعية وبعض لمحات عن الأدب . ونسيت الديوان .. فى زحمة الحياة ، ولعله اندس بين الكتب ، ليبدو منى هذا القصور . ثم عرفت الشاعر وعلى الاصح سمعت باسمه ، ولكنى .. لم اذكر الديوان ، ثم لمحته عرضا فى زحمة الكتب ، فقلت لنفسى .. ربما فات الوقت على كتابة كلمة عنه ، ولكنى استبقيته ، ومرة اخرى .. تحكمنى شواغل الحياة ، حتى اتيح لى معرفة الشاعر ، فقلبت الامر وكنت .. بين الاحجام والاقبال فى الكتابة عن الديوان الاول ، خشية ان يقال ... ان التعرف .. ادى الى تناول الشعر ، فصمت ، وحينما جاءنى ديوانه الثانى ، انتابنى الخجل .. مرة اخرى ، وقرأت الديوان الثانى ، فوجدت فيه شعرا اسلاميا محافظا ، جيد العبارة ، منسق السبك ، فصيح اللغة ، مشرق البيان ، وقصائد الديوانين ليست بالطويلة .. المسرفة فى الطول ، ولا القصار ، التى لاتفى موضوعاتها حقها وشعر الديوانين يغلب عليه مسحة الوقار والموضوعية ، فى صور .. واضحة المعالم ، متماسكة البناء ، سلسة العبارة .. فى غير ابتذال ، لاتجد كلمات قلقة تصدم اذنك .. وانت تقرأ ابيات القصائد ، وتقرأ نقدات هادفة ، تنحو نحو الاصلاح والتوجيه ، فصاحب هذا الشعر .. مارس التربية والتدريس ، فهو صاحب رسالة يؤديها .. بين طلابه ، او اداها فى الماضى ، ثم يؤديها مرة اخرى .. فى هذا الشعر .. الذى اصدر منه ديوانين ، سمى الأول «جرح الاباء» وسمى الثانى «رسالة الى ليلى»

واذا كان الديوان الأول .. تناول قضايا اسلامية ، ومنها قضية .. الوطن المسلوب «فلسطين» ، ويدل على ذلك ... تسمية الديوان ان صدق ظنى ، فان الديوان الثانى .. يسلك المنحى نفسه ، وان اختار لاسمه احدى قصائده ، وهى القصيدة الاولى فيه . وهذه القصيدة أشبه برسالة ، وهى حقا رسالة ، ولكنها بلغة الشعر لابلغة النثر ، فيها شكوى والم ، وتنبض بالحزن الممض ، ولكنها ... ليست استسلاما ، ولاتوحى بالوهن ولا الاستكانة .. لما اصاب الارض والمرابع ، وما حل بالاهل والقوم ، ويعلن الشاعر فى رسالته هذه .. الى ليلاه ، ان الوقت .. ليس وقت لهو وهوى واحلام ، لان الخطب يصرفه .. عن الدعة ، والركون الى حياة تلفها البهجة او الفراغ ، لينعم فيها الخلى بأطيب العيش ، والسير على السندس ، بين الخمائل ، فلا وقت للاحلام ولا سبيل الى اللهو ، وانما هو الثأر والجد فى طلبه ، وحينما يحقق النصر المؤزر بفضل الله ثم بالجهاد ، غدا ستشرق الشمس ، وغدا نلتقى .. فى مهرجان العرس الكبير . ولن يتحقق الحلم الكبير .. الا بالفداء والتضحية ، والثبات على المبدأ ، ولن يجدى الكلام مهما كثر ، فهو سلعة بائرة ، فما اخذ بالقوة ... لايسترد الا بها . هذا هو منطق الحياة ، او على الاقل ... المنطق الذى يدركه اعداؤنا ، وليس له بديل .

وقصائد هذا الديوان .. جياد ، مثل قصائد الديوان الاول ، فنحن امام شعر اسلامى ، يضرب على وتر واحد وان اختلفت موضوعاته ، وتعددت مناحيه فان هدفه واحد ، فى سمت مشرق ، وبيان مبين ، يثير الهمم ... الى العلياء ، ويحث على الاباء والتمسك بالمثل العليا ، والخلق الفاضل ، والنصح والايثار ، واتخاذ عقيدتنا السمحة .. منهاجا ، واسلوب حياة .

ان مثل هذا الشعر حرى بالانتشار والذيوع ، وان يتخذ منه امثله .. فى مناهج الدراسة .. فى مدارسنا العامة ، ليعى ابناؤنا رسالة الاسلام وسماحته وخلقه وعزته ، ويتحلوا بهذا المسلك القويم .

والديوانان سليمان من الاخطاء المطبعية الا فى بعض الشكل ، وكنت ارجو ان لايقع ، حتى لايفسد على القارىء العادى لذة الاستمتاع بهذا الشعر الجيد المختار .

ان هذه الكلمة .. التى اسطرها ليست دراسة ، وانما هى تحية للشاعر .. المربى الكريم الاستاذ احمد فرح عقيلان ، كاعتذار عن تقصيرى .. فى ايفاء شعره حقه من الاهتمام الذى يستحق ، اذن .. فهذه الكلمة تحية لهذه الهدية القيمة ، وارجو ان نقرأ لشاعرنا شيئا من نثره ، واكبر الظن ، انه سيكون فى مستوى هذا الشعر الخالص ، لان الاستاذ احمد ... يملك سبل التعبير الجيد ، ويحلق ببيانه المشرق .. عبر تراثنا الغنى بالجمال والقوة والروعة والعمق .

تحية من الاعماق ... لشاعرنا المجيد ، كفاء اخلاصه لرسالته .. فى الادب على منهج اسلامى قويم ، نحو امته المجيدة ، فى زمن عز فيه الاخلاص والمخلصون وانحرف فيه المسار ، وطغت فيه المادة ، فاستعبدت العباد ، فاصبحوا من الغافلين ، والغفلة سبة الدهر ، واقرأوا ان شئتم قول الله تبارك وتعالى : (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بهاولهم آذان لايسمعون بها ، اولئك كالانعام بل هم اضل ، اولئك هم الغافلون» ... اللهم .. لاتجعلنا من الغافلين عن ذكرك ، وانح بنا الى سبل النجاة ، انك اكرم مسئول وخير معين .

أدبنا راكد

* أعترف لنفسى ، وأعترف لصاحب مجلة المنهل الزاهرة .. الاستاذ الكبير عبدالقدوس الانصارى ، وأعترف آخر الأمر لقراء هذه المجلة ، أن الاجابة .. على الاسئلة .. التى ألقى بها إلى أستاذنا الكبير ليس بالأمر الهين ، ولا تؤدى ذلك كلمات تلقى بسرعة ، لتنشر .. كرأى يحمل رداً مقنعا .. بجذور هذا الموضوع ، لاسيما والآراء قد تبدو متضاربة ، منها من يقول « مثلا » .. ان أدبنا الحديث .. فى صعود ، وهذا رأى .. فى تصورى متفائل ورأى آخر يقول .. بأنه راكد ، وهذا الذى اخترته ، لا .. لأنه وسط ، وإنما لأنه أقرب .. الى الواقع .

والرأى الآخر .. يقول : إنه متدهور ، وأنا لست .. مع هذا الرأى الأخير كما أننى لست مع الأول .

وإذا ناقشنا الرأى الأول ، فاننا .. لا نجد هذا الصعود .. الذى يراه البعض ، ذلك أن الصعود تطور ، والتطور المركز .. قيمة ومعنى ، ولا نجد فى الكثير .. الذى نقرؤه اليوم .. هذه السمات ، فأين الصعود إذن ؟

وحين أنتقل الى الرأى الثالث ، قبل .. أن أتحدث .. عن الثانى .. الذى اخترته ، فاننا نظلم أدبنا .. حين نصفه بالتدهور ، والتدهور .. معناه الانحطاط والضياع ومسلك .. الى النهاية ، وربما الانمحاء ، وفى هذا غمط .. للمحاولات .. والجهود .. التى تحاول أن تنتج ، وتعطى .. فى دائرة قدراتها ، وما يتاح لها .. أن تشارك به .. فى مجال الفكر ، لأمة .. لها ماض مشرق ، وتحاول اليوم ، وتتمنى .. أن تلتحم بذلك الماضى العريق ، بروافد .. تكون امتدادا له وارتباطا به .

ولعل لقضية الركود .. أكثر من صورة وأكثر من معنى ، ومن هذه الانماط .. السرعة التى تلف إنسان اليوم ، وهو اذا لم يسرع فى كل شىء .. فاته

الشيء الكثير ، فالحياة .. أصبحت سعيا متصلا ، والتوسع فيها وفى مطالبها .. ظل هو الشاغل للانسان اليوم .. الذى كان بالأمس يقضى حاجته فى دقائق ، أصبح يقضيها اليوم .. فى ساعات ، وفى بعض الأوقات .. فى أيام ، واحترق الزمن .. فى هذا التزاحم ، فأصبح الانسان .. يلهث وراء .. ما تفرضه عليه حياة اليوم .. على سعتها .. فى رقعته الواسعة .. التى يعيش فيها .

واحترق الزمن ، حرقته وسائل المدنية المختلفة ، الهاتف والمذياع والتلفاز والسينما والصحف والسيارة ، وأصبح طموحه أن يصل .. الى أقاصى الدنيا ويشهد ما فيها ، وكثرت أسفاره .. بهدف وبغير هدف ، وأصبح لا يمل السفر ، ولا يمل مشاهدة البلاد .. التى أتيح له رؤيتها أكثر من مرة .

وجنح الى الترف بهذه الوسائل المدنية ، ففقد قوته ، وأصبح .. لا يطيق العناء .. وبذل الجهد ، إلا فيما يوفر له المزيد .. من الحصول على المال ، وحولته وسائل المدنية .. الى ما يشبه الخمول فلم يستطع .. تحقيق ما كان يحلم به ، وضعف جسمه بهذه الدعة .. التى ركن اليها ، واذا حاول .. أن يجهد نفسه تعب ، فالمدنية اترفته ، ففقد صلابته التى كانت الصحراء ٭ عامل تقوية وعونا .. على التحمل .

صحافة اليوم « مثلا » .. لم تعد صحافة فكر وبحث ، وإنما تبعا للزمن ، أصبحت صحافة سياسة وخبر وصورة ، وكثير هى الوسائل .. التى أمست تعنى بدغدغة العواطف وحدها وانصبت عليها ، وبدلا من الارتقاء بعامة الناس فى الأذواق والمثل ، أخذت تنحدر بالعامة وتنزل معها ، لا أن ترتقى بها ، فكيف يمكن .. انتاج فكر يرتفع بالذوق ، ويتطلع الى السمو ، ويعنى بالقيم .. اذا كانت كل الوسائل المتاحة .. تحاول ان تهبط ، وتبعد عن المنهج الاسلم والاقوم ، والامثلة قائمة .. وفى ظنى أنها لا تحتاج الى بسط وتفنيد .

وسرعة الحياة .. فرضت على الأدب نفسه ، فأصبح ينتج فى سرعة ، وينشر فى سرعة كذلك ، من غير استئناء ولا روية ، فدوافع الحياة والعجلة .. هى التى أفقدته قيمته ، والبحث عن السهل .. الذى ينتج فى سرعة ويلقى فى سرعة .. هو المطلوب اليوم ، دون نظر .. الى المحتوى والقيمة ، بل أن القيمة ذاتها ، قد لا يلتفت اليها ، بحجة أنه معقد وصعب الهضم ، ويمله السامع والقارىء اللذان ألفا السهل والسريع ، وما يمكن .. أن يسمى رخيصا .

وكثير من انتاج اليوم مما يسمى فكرا ، والفكر مظلوم وبرىء منه ، لا يعالج قضايا الانسان ، ولا يصل الى نفسه .. فيؤثر فيها ، ويشدها اليه ، لأنه أدب تهويمى ، باهت الصورة ، ضعيف المعنى ، فاقد الاطار ، ضعيف اللغة ، انه الفاظ بغير معنى ، وما قيمة شىء لا معنى له ولا بصيرة فيه ، وإنما هى أوهام .. تلقى فى متيهة ، ليس فيها غنى ، وليس فيها عمق ولا تجارب .

الأدب .. بحث ومعاناة وصبر عليهما ، وسبر أغوار النفس الانسانية ، بحيث يجد فيه القارىء المتمعن نفسه .. فيما يقرأ . وليس الأدب .. بالذى يعنى بالأمور الطارئة ، حتى اذا زالت زال أثره وفقد قيمته ، ليس الأدب السياسة والساسة ، ولا الاقتصاد ، وإنما هو عمق الانسان ومشاعره ، وقضاياه الدائمة .. ديمومه الحياة وخلجات نفسه فى مناحيها الانسانية نحو المثل والقيم ، فى اتراحها .. وأفراحها وانتصاراتها ، وهو الذى يجعل من هزائمها .. حوافز الى النصر بالاصرار عليه والعمل له ، ونكران الذات فى إيثار .. وسلامة طوية وسماحة نفس وسجاحة خلق .

وينبغى ألا نفجع ونحن نتحسر .. على الركود الفكرى ، ذلك .. أن من طبيعة الحياة .. الازدهار والركود .

وعبر التاريخ الطويل ازدهر الأدب ثم ركد ، وازدهر مرة أخرى ، وإذا كان يركد اليوم لأكثر من سبب ، ربما أشرت الى شىء من ذلك ، فينبغى أن نعمل .. بعد أن نعلم الأسباب ، من اجل التغلب على المعوقات .. ما استطعنا الى ذلك سبيلا ، وبذلك ننشىء أدبا .. ذا قيمة وفعالية .

وأنا لست .. مع الرأى الذى يقول : إن العلم والأدب يتصارعان ، فيغلب أحدهما الآخر .. فى وقت من الأوقات ، وتنعكس الصورة .. فى وقت آخر .

هذا رأى لا يؤخذ به ، ذلك أننا نعلم .. فى العصور الزاهرة ، فى العهد العباسى مثلا ، كان العلم والأدب مزدهرين ولم يكونا متصارعين كما يقال اليوم ، وإنما كان أحدهما يخدم الآخر .. ويكمل بعضهما الآخر كذلك .

والتقنية الحديثة لا تحد .. من نهضة الأدب وازدهاره ، بل أن العكس هو الصحيح ، فاذا كانت التقنية .. قد خدمت الانسان ، فلا يعنى هذا أنها عطلت الأدب .. أو قضت عليه ، فالانسان حين يطمئن الى حياته يكون أكثر قدرة على التفكير والابداع ، والتمكين .. من الانتاج الجيد ، وأعنى الموهوبين

من ذوى الملكات والكفايات .. التى تثرى الحياة .. بنير الفكر المتوهج ، حين يصبر الانسان نفسه .. على تحمل البحث ، والاناة ، ويملك عدة البحث ، وتتاح له الظروف .. التى تعينه على العطاء الجيد .. ذى القيمة والبقاء ، كما بقى أدبنا .. منذ مئات السنين .. بقيمته ، وقوته وعمقه .

إن أكثر أدبنا العربى اليوم سطحى ، لأن النفوس .. التى تتلقاه تريد هذه السطحية فهى قد ألفتها فيما يقدم اليها بالوسائل .. التى تعرض هذا الأدب .

فلابد إذن من جعل قيمة للأدب الجيد ، واشاعته وتشجيعه وفرضه ، لترتفع قيمة الانتاج فى معناه ومغزاه ، ولا يتم ذلك .. إلا إذا عنيت وسائل الاعلام كلها به ، وقام عليها الاكفاء .. الذين يعملون على الارتفاع .. بذوق القارىء والسامع والمشاهد ، وقدر الأديب الحق ، وجعلت له حوافز ، تعينه على المضى .. فى الابداع .. بمواهبه وطاقاته .

أما إذا انصرفت وسائل الاعلام المختلفة ، وأعرضت عن جيد الفكر ولم تقدره ولم تعن به ، فلمن ينتج الأديب ولمن يكتب ؟. وبذلك .. يتحول كصاحب سلعة تعرض فى السوق ، ما تريده وما يسعى اليه .. فى اختيار ، ليس القصد منه الأفضل ، ولكن .. الأرخص والأدنى .

وتقدير الأدب الجيد لا يأتى بالوعود ولا الامانى ، وإنما بالعمل واختيار الأفضل ، الذى يعنى بالكيف .. لا بالكم ، وتقديره واحتسابه قيمة .. تستحق أن تتبنى تشجيعا واقبالا واختيارا ، لأن الأثر الجيد هو الذى يبقى مع الزمن ، ثم يصبح كنوزا ، كما هى الحال .. فى تراثنا الجيد الذى نطالعه ونحتفظ به فى اعتزاز .

والجيل الذى لا يهتم بتراثه ولا يتطلع الى الأقــوم ، ولا يحســن الاختيار ، جيل مهمل مقصر فى ذات نفسه وأمته ، ويحتاج .. قبل ذلك الى التوجيه فى المدرسة ووسائل أعلامه ، ليدل على الأحسن ليأخذ به ومنه ، واذا فقد هذا التوجيه .. فى مطلع حياته وتحصيله ، فهو غير ملوم ، الى أن ينضج عقله .. ويعمق ادراكه ، ولكنه اذا ركن الى الدعة فانه يكون اميل الى السهل ، معرضا .. عما فيه عناء ونصب ، ويكون قد غلبه الاستخذاء .. بعد فوات

وقت .. كان ينبغى أن يستغل فيها طاقاته ، لو وجد توجيها ورعاية .. ممن يملكون القدرة على ذلك .

وبعد : فأحسب أننى قد استنفدت الحيز الذى حدد لى فى هذا الموضوع ، وأنا لم أوفه حقه ، ذلك أنى لم أصل الى قول ما أريد والى تحقيق ما طلب الى ، وأحسب أن هذا الموضوع ربما يحتاج الى تجميع اطرافه ، لتكون له ركائز ، وربما أتيح لى شيء من تعقيب ، بعد أن اقرأ آراء المشاركين فى هذا الاستفتاء ، وشكرا من الأعماق للاستاذ الشيخ عبد القدوس الانصارى .. على حسن ظنه فى واعتذر عن تقصيرى فيما قدمت .

علي الجارم حياته وأدبه

أتيح لى ، فى رحلتى الى تونس ، أن اشترى بعض الكتب ، ذلك ان الكتب عندنا ندرت ، لأن القراء .. اوشكوا ان يختفوا ، وأين هم القراء الجادون ؟.

وثانى الأمور .. فى التكاليف ، ونيام الكتب فى المكتبات ، والنقل ، والتعطيل فى ادارة المطبوعات .

ولكن من السهل ان يصل كتاب بغداد وبيروت ومصر الى تونس ، وليس من السهل ان تصلنا كتب هذه البلاد .

ومن هذه الكتب التى ربما اتيح لى ان اقف على بعضها .. كتاب بعنوان « الجارم الشاعر » .. ليس كبير الحجم ولكنه متواضع فى مساحته ، غير ان مؤلفه رجل له اسم لامع فى عالم الأدب ، ولاسيما فى النقد والدراسات ، ولذلك اقبلت على شرائه ، وهناك سبب آخر ، هو ان هذا الشاعر قليل حظ من الدراسة والوقوف على آثاره ، وقلة الحظ هذه .. ركيزة ، لأنه يلعب دورا كبيرا فى مختلف شؤون حياتنا ، وحتى حياة الجماد ، والحيوان .. مؤلف الكتاب ، هو الاستاذ « احمد الشايب » .

فى رأى بعض الناس ان شعر الجارم شعر لغة ، ليست فيه صور وأخيلة وتجنيحات ، فالشاعر رجل درس اللغة العربية ، فجاء شعره .. فى هذا المجال التخصصى فهو شعر الى النظم اقرب منه الى الشعر .

وبعض الناس عرف شعر الجارم ، كما عرفوا نثره وعنايته بالنحو . ولا ننسى كتب النحو الواضح للمرحلة الابتدائية والثانوية ، وصاحب الطول فيه على الجارم .

وحتى اليوم ، رغم مضى .. اكثر من ثلث قرن ، لم يظهر كتاب فى النحو .. لطلبة المدارس اكمل ولا اشمل ولا أتقن من كتاب النحو الواضح ، على سعة الدراسات والتخصصات ، والجارم مشهور .. بصوته الجهورى فى القاء شعره وشعر غيره من الكبار امثال شوقى .

ونثر الجارم متين ، فيه هذه الرصانة وهذه القوة وهذه اللغة التى .. اختفت عنا ، إلا فيما نجده ، فى هذه الكتب القديمة ، حين نشتاق اليها والى جزالة اللفظ والتعبير ، فنفرغ الى ذلك بعض الوقت ، وربما جرنا البحث الى هذا الاستمتاع . الذى يأخذ نفوسنا فتزداد اكبارا واستمساكا بهذه اللغة الشاعرة ، التى اخذنا نبعد عنها .

الفصول التى كتبها احمد الشايب عن الجارم ، صدرت مجموعة فى عام ١٩٦٧ م ، وذكر المؤلف أن اغلبها كتب منذ عشر سنوات اى منذ سنة ١٩٥٧ م ، ولعلها اختفت من بين يديه كما هو شأن اكثرنا ، فلما عثر عليها ، اكملها ، وقدمها للطبع .

واذا بحثنا عن بطاقة هوية شاعرنا الجارم ، نجده ولد فى بلده «رشيد» سنة ١٨٨١ م فى عهد توفيق ، وقبل الاحتلال البريطانى لمصر فعايش الشاعر عهود توفيق ، وعباس الثانى والسلطان حسين كامل والملك فؤاد ، وتوفى فى عهد الملك فاروق .

ورشيد بلد غربى فرع النيل الغربى عند مصبه فى البحر الأبيض شرقى الاسكندرية على مرحلة منها . يقول المؤلف عنها : « مدينة ذات ابنية متينة ، طيبة الهواء ، بها محاكم شرعية واهلية ومساجد جامعة معمورة بالصلاة ، منها الجامع الكبير ، له شبه بالجامع الأزهر .

ويحضر الجارم الشاعر .. مؤتمرا طبيا فى بغداد ، فينشد فيه قصيدة جميلة ذات جرس مطرب وقوة تعبير ووحدة معان ، فهو يبدأها بقوله :

بغـــداد يا بلـــد الرشيد ومنـــارة المجـــد التليد
يـــا بسمـــة لما تزل زهـــراء .. فى ثغـــر الخلود

يـــا موطـــن الحـــب المقيم
ومضرب المثـــل الشرود
يـــا سطـــر مجـــد للعرو
بـــه .. خط فى لوح الوجود
يـــا رايـــة الاســـلام والاسلام
خفـــاق البنود
يـــا مغـــرب الأمـــل القديم
ومشرق الأمـــل الجديد

هذا الشعر ليس جامدا كما ينعت ، وليس ثقيلا .. على الاسماع ، ولكنه شعر جزل قوى ، فيه اطراب ومعان وصور شتى ، فهل هذا نظم ثقيل مشحون الفاظا لغوية جامد ، لا حياة فيه حتى ينفر منه ؟ .

إبدا ، إنه شعر متين ، ينحو فيه صاحبه المنهج السهل فى الفاظه ومعانيه ، ويمضى الشاعر .. فى القول :

بغـــداد يا دار النهى
والفـــن ، يا بنـــت القصيد
نبـــت القـــريض على ضفا
فـــك .. بـــين أفنـــان الورود
بغـــداد : أيـــن البحترى
وأيـــن أيـــن ابـــن الوليد
ومجـــالس الشعـــراء فى
بيـــت ابـــن يحـــى والرشيد

الشعر الذى سقت نماذج منه عن بغداد وتاريخها العبق لشاعرنا .. على الجارم ، ليس نظما والفاظا لغوية جامدة ، لكنه شعر فيه حياة .. الحياة ، وفيه هذه المسحة الفنية ، التى يتصف بها الموهوبون فى جمال التعبير ودقة المعانى والمواءمة بينهما ، وبين المناسبة ، وفيه هذه العذوبة الرقيقة .

والاستاذ احمد الشايب حين يؤرخ للأدب ويتحدث عن الذين يدرسهم ،

لا يهمل الروافد فى ذكر الاسماء البارزة ، وهو يتحدث عن أحدهم ، فيضرب الأمثال ويسوق الأمثلة ، لذلك نجده يقول وهو يمهد للحديث عن الشاعر الناثر المرحوم على الجارم : « ولم يخل عصر فى مصر من هذه السمات الأدبية المتأصلة فى الأزهر الشريف ، والتى بدت عند شيوخه ، أمثال الشرقاوى والخالدى والصاوى والقادرى » . وانظروا الى هذه المقابلة الجميلة ، وهى قوله :

ولم يخل عصر .. فى مصر .

واسمعوا الجارم يردد فى رثاء احدهم ، وكأنه يتغنى .. فى هذا الأنشاد الجميل ، ولا تهمنا مناسبته ، وقد لا نرضي عنها .

واذا النفس لم تكن منبـــت الأنس
تنـــادى القريـــب من أسبابه
وأشـــد الآلام ان تلـــزم الثغر
ابتسامـــا ، والقلـــب رهـــن اكتئابه
عصفـــت صيحـــة الـــردى بخطيب
وهـــو لم يعـــد صفحـــة من خطابه
سكتـــة أطفـــأت منـــار طريق
كم مشـــت مصر فى ضيـــاء شهابه

الحق على الجارم .. بالمدرسة الابتدائية فى بلده « رشيد » ، ثم الغيت هاته المدرسة فالحقه أبوه « بالمسجد المحلى » فى رشيد ، فحفظ بعض القرآن الكريم ، ولما انتقل عمل الأب القاضى الى «دمنهور » حفظ على الجارم كامل الكتاب العزيز ، ثم نقل والده الى الجيزة فالتحق الأبن بالأزهر ، وكان من شيوخه فيه الشيخ محمد عبده ، ويبدو ان الازهر اختلف مع طبيعة الفتى الذى اخذ يميل للأدب وموسيقى الشعر ، ولا مجال لهما فيه ، وانما هو ــ أى الأزهر ــ صرح لجلال العلم .

فأخذ يفكر .. فى مجال آخر ، وفى سنة ١٨٩١ م انشئت مدرسة دار العلوم تجمع فى دراستها بين القديم والجديد ، وتعنى بالأدب واللغة العربية والعلوم الكونية ، وكان يختار طلابها من المتفوقين فى الأزهر بعد آداء امتحان ،

فدخل الجارم دار العلوم سنة ١٩٠٣ م ، وتخرج فيها سنة ١٩٠٨ م وفيها .. « وجد متنفسا لمواهبه الفنية » ، وكان المتبع ان يبعث الى انجلترا .. اوائل خريجى دار العلوم لاتمام دراسة التربية .. واللغة والأدب الانجليزى ، والاطلاع على مظاهر المدنية الغربية .. فى بريطانيا غالبا ثم يعودون الى التدريس .. فى دار العلوم نفسها او المدارس الثانوية أو التفتيش .. فى وزارة المعارف ، وهذه الطائفة .. تكون ملحوظة المكانة ، فى تولى الوظائف والترقيات ، كما يقول الاستاذ الشايب وكان الجارم أول فرقته التى تخرجت عام ١٩٠٨ م ، فبعث الى لندن ، وعاد سنة ١٩١٢ م متقنا اللغة الانجليزية وآدابها ، وثقافة واسعة ، وأخذ شعره ينضج ، وهو فصيح اللسان ، خطيب مجيد .

واستأنف على الجارم . بعد عودته من انجلترا .. عمله مدرسا فى دار العلوم ، يدرس علوم التربية النظرية والعملية والنفس والصحة المدرسية . وفى سنة ١٩١٦ تزوج على الجارم من أسرة كريمة فى رشيد هى بدر الدين ، يتصل تاريخها بتاريخ اسرته ، وينظم فى هذه السنة قصيدة «الحرب والحرب » ، ذلك ان الحرب الكونية الاولى بدأت عام ١٩١٤ م ، وهذه القصيدة مطلعها :

مالى فتنت بلحظك الفتاك
وسلوت كل مليحة آلاك

ومنها :

ان الشباب وديعة مردودة
والزهد فيه تزمت النساك
فتشممى ورد الحياة فانه
يمضى ولا يبقى سوى الأشواك

وقد أنشدتها أم كلثوم .

وانتهت حياة الجارم فى دار العلوم مع وفاة السلطان حسين ، فنقل مفتشا فى وزارة المعارف ، وقد اكتملت عنده مراحله الفنية ، وعايش الجارم .. حركة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول ، وساند الجارم بشعره سعدا ومدحه ، والقى فى سنة ١٩٢٤ م قصيدة فى سعد بنجاته من خطر العدوان بقوله :

يا أبـــا الأمـــة يا من ذكره
مـــلأ الدنيـــا حديثـــا عطرا
هز مصر نبـــأ فاضـــت له
عبـــرات القـــوم تجـــرى مطرا

وتوفى سعد زغلول عام ١٩٢٧ ، فيرثيه الشعراء ، حافظ ، وشوقى ، والعقاد ومطران ، ويرثيه الجارم بقوله :

لا الدمـــع غاض ولا فؤادك سالى
دخـــل الحمـــام عرينـــه الرئبال

وبمناسبة افتتاح الجامعة المصرية سنة ١٩٣٢ ، انشأ الشاعر على الجارم قصيدة مطلعها :

دعـــوت بيانـــى أن يفيض فاسعدا
وناديـــت شعـــرى أن يجيـــب فغردا

لم تلق هذه القصيدة فى الحفل ، وانما القى الشاعر قصيدة شوقى التى مطلعها :

تاج البـــلاد تحيـــة وسلام
ردتـــك مصر وصحـــت الاحلام

وكان الجارم يلقى قصائد شوقى ، لفصاحة لسان الجارم وذرابة لسانه ، وكان شوقى عييا لا يحسن الالقاء .
وحين حل عيد « دار العلوم الفضى سنة ١٩٢٧ ، انشد الجارم قصيدة مطلعها :

يا خليلى خليانـــى ومـــا بى
او اعيـــدا الى عهـــد الشباب
لك دار العلـــوم فى كل نفس
اثـــر القـــين فى صقـــال الحراب

حسب مطريك أن كل نجيب
نفحة من رجالك الانجاب
أنت كالنيل كلما مس جدبا
هزه بالنماء والاخصاب

وفى سنة ١٩٣٤ م أهدى الشاعر الى صحيفة دار العلوم هذه القصيدة :

يا ابنة السابقين من قحطان
وسراة الامجاد من عدنان
أنت علمتنى البيان فما لى
كلما لحت حار فيك بيانى

ولما توفى الشاعر احمد شوقى ، رثاه الجارم بقوله :

هل نعيتم للبحترى بيانه
أو بكيتم لمعبد الحانه

وكان الجارم .. معجبا بشوقى ، يعارضه ويتأثره ويتأثر به ، كما يقول الاستاذ أحمد الشايب .

وحين ولى شوقى وحافظ ، حل محلهما الشاعر على الجارم مع شعراء آخرين ، وكان الشاعر ابعد صوتا ، وأوسع مجالا .. لنصاعة اسلوبه وجمال موسيقاه وجودة القائه ، ثم توافر له مع ذلك اجتهاده ان يتخذ معانيه .. من الواقع ، فلا يلجأ الى المعانى العامة دوما ، كما يقول الاستاذ الشايب فى دراسته للجارم .

وشارك الشاعر الجارم بشعره بعض المحافل العربية وويلات الحرب الكونية الثانية ، حتى توفاه الله فى شهر فبراير سنة ١٩٤٩ م .

وقد أحيل على المعاش سنه ١٩٤٠ ، ونال وسام النيل وعين عضوا بمجمع اللغة العربية ، ونال رتبة البكوية من الدرجة الاولى سنة ١٩٤٢ ، ونال وسام الرافدين من العراق سنة ١٩٣٦م ووسام الارز من لبنان من رتبة « كومندور »

سنة ١٩٤٧ م .

« وكان الجارم الشاعر ناثرا قوى الاسلوب رصين العبارة ، وكان يترجم عن الانجليزية ، نشرت له سلسلة « اقرأ » ، مجموعة من القصص ، هى : شاعر ملك وسيدة القصور وفارس بنى حمدان والشاعر الطموح وخاتمة المطاف ومرح الوليد وغادة رشيد ، وهى من القصص التاريخى ، وهاتف من الاندلس ، وترجم عن الانجليزية « العرب فى اسبانيا » وعرب مع مصطفى امين كتاب « علم النفس وآثاره .. فى التربية والتعليم » .

ويعرف الشاعر على الجارم الشعر بأكثر من قصيدة ، منها قوله :

الشعـــر عاطفـــة تقتـــاد عاطفة
وفـــكرة تتجلى بـــين افكار
الشعـــر أنشـــودة الفنـــان يرسلها
الى القلـــوب فتحيـــا بعـــد اقفار
الشعـــر همس غصـــون الـــدوح مائسة
ودمعـــة الطـــل فى اجفـــان ازهار
كم حكمـــة فيـــه لا تغنـــى بشاشتها
ومـــن حديـــث على الايـــام سيار

« وحينما توافد أدباء الاقطار العربية لتكريم المرحوم احمد شوقى فى سنة ١٩٢٧ ، حياه الشاعر بقصيدة » مطلعها

وقفـــت تجـــدد آثارها
وتنشر للعـــرب أشعارها

والشاعر الجارم ، كما يقول أحمد الشايب « يصون المديح عمـــن لا يستحقه ، ويضن بشعره على الابتذال والبهتان » ولذلك يقول :

قد حبسنـــا المديـــح عن كل مستام
وأجـــدر بشعرنـــا أن يصانا
لا تزيـــن العقـــود جيـــدا اذا لم
يـــك بالحســـن قبلهـــا مزادنا

لو مدحنـــا من لا يحـــق له المدح
لـــوى الشعـــر رأســـه فهجانا

وأنشأ الجارم مرثية فى صديقه « محمود النقراشي » ، رئيس وزراء مصر وهى اخر شعره ، ومات الجارم « بقاعة الجمعية الجغرافية ، وهو يستمع الى ابنه بدر الدين يلقيها نيابة عنه « عنوان القصيدة » وداع ، ومطلعها :

ماء العيـــون على الشهيـــد ذراف
لـــو أن فيضـــا من معينـــك كافٍ

وحين فاضت روح الشاعر ، حمل الى بيته ميتا « يرحمه الله » .

والاسلاميات .. فى شعر الجارم شائعة ، ويرد الاستاذ الشايب ذلك ، الى تأثر الجارم بشوقى ، وشعره الذى شارك فى قضايا الانسانية ، جاوز حدود وطنه مصر ، وانظروا الى قوله فى الحرب العالمية الاولى :

من سلـــب الاعـــين ان تهجعا
وبـــز ذات الطـــوق ان تسجعا

ونختتم بهذه الكلمة وقفتنا مع الشاعر على الجارم ، فى كتاب الاستاذ « أحمد الشايب » يرى المؤلف ان الجارم تلميذ شوقى ، يجرى فى غباره « فيقول » : هو منه ــ اى الجارم من شوقى ــ بمنزلة مهيار الديلمى من الشريف الرضى ، وذلك فى قول الجارم ، بمناسبة تكريم شوقى :

جزيـــت بشعـــرك شعـــرا وهل
تجـــازى الخمائـــل أمطارها
فكنـــت شريـــف قوافى البيان
وكنـــت بفضـــلك مهيارها

وعارض الجارم شوقيا فى عدة قصائد . فشوقى يقول :

الشعـــر ما لم يكن ذكرى وعاطفة
او حكمـــة فهـــو تقطيـــع واوزان

والجارم يقول :

والنفس ان لم تكن بالشعـــر شاعرة
ظنتـــه كل كلام جاء موزونا

وشوقى يقول فى اندلسيته عن الليل :

بتنـــا نقـــاسى الدواهـــى من كواكبه
حتـــى قعدنـــا بهـــا حسرى تقاسينا

قال الجارم فى صحراء السودان :

ثم انتقلنـــا الى الصحـــراء توسعنا
بعـــدا ، ونوسعهـــا صبـــرا وتهوينا

وفتن الجارم كما يقول الشايب .. بلامية البحترى

ذاك وادى الاراك فاحبس قليلا
مقصرا من صبابـــة او مطيلا

فيقول ، الجارم فى رثاء اسماعيل صبرى :

صادح الشرق قد سكت طويلا
وعزيـــز عليـــه الا تقولا

وفى موضوعات الجارم العربية تراه اعرابيا ، يتحدث بلغة البادية الجزلة القوية فى اعتزاز وفخر ، يقول فى لغة العرب ..

وسنـــى باخبيـــة الصحـــراء يوقظها
وحى من الشمس او همس من الشهب
تحدى بها اليعملات الـكوم ان لغبت
فـــلا تحس بانضـــاء ولا لغب
تهتـــز فوق بحـــار الال راقصة
والنصب للنيـــب يجلـــو كربـــة النصب

لم تعـرف السـوط الا صوت مرتجز
كأن فى فيـه مزمـارا من القصب

تصغـى الى صوتـه الاطيـار صامتة
اذا تردد بـين القـوز والهضب

هذا هو على الجارم الشاعر فى صوره القديمة والجديدة ، شاعر جزل ، ربما تاثر بشوقى والبحترى ولكن له أسلوبه ومنهجه ، وشعره يتناول مختلف الموضوعات ، يتخذ له نسيجا من الرياض والخيال والقمر والنهر ، يتحدث عن الحرب وادواتها والشباب والشيب والحضر والبادية ، ويستعمل الجناس ويصوغ من موضوعاته تشبيهات واستعارات .

وهو ليس شاعر لغة بمعنى ان شعره جامد أشبه بالنظم ، وإنما شعره جزل متعدد الصور ، قوى العبارة ، جيد السبك متين ، لان نصيبه من لغته وافر . وفى تقديرى ان شعره لم يدرس ، رغم ان ديوانه مطبوع فى عدة اجزاء منذ زمن . فهل يفرغ اليه الدارسون ، اذا كان الزمن ما تزال فيه بقية ، للعناية بالادب الرصين الجيد ؟

الأثافي في التنافي

على أثر التعقيب .. الذى كتبته فى هذه الصحيفة [1] ، بتاريخ ٢٨ من المحرم ١٤٠١هـ بالعدد « ٦٦٠٣ » ، حول « ثالثة الأثافى » ، التعبير .. الذى اطلقه الصديق ، الاستاذ عبد العزيز عطية ابو خيال .. على كتاب الاستاذ عبد الله جفرى « الظمأ » ضمن موضوع ابى خيال ، الذى عنى فيه ... بأربعة كتب أصدرتها مؤسسة تهامة ، فى سلسلتها « الكتاب العربى السعودى » .

وقد أشرت فى تعقيبى عن معنى الأثافى لغويا ، وأن ثالثة الأثافى .. لا يصح أن تطلق على كتاب أدبى ، وقلت : ان هذا التعبير .. يكنى به عن الذم ، غير ان تعقيبى لم يرض الصديق ابا خيال ، فبعث الى برسالة ، اثبتها بنصها .. ضمن موضوع اليوم ، ثم أعقب عليها ، وقد وضع لها عنوانا ، هو « تعقيب .. على تعليق » ، وأشكره على هذا الحوار الممتع ، وعسى ان يجره .. الى المزيد من الكتابة ، نتيجة ما يطالع من كتب ، فقلمه جدير .. بان يواصل الكتابة ، لانه رشيق ، يجمع .. بين الجد والهزل ، ونحن نفتقر .. الى هذا اللون من التعبير المجنح . واكبر الظن ... أن هذه « المشاكسة الأدبية » ... لا تغضب الصديق ، ولعلها كما قلت ، تدفع به .. الى المزيد من القراءة ، والكتابة ، وأرجو ان يكون عنده الاحتمال ، لقبول آراء الآخرين .. او رفضها ، غير ان الرفض ، ينبغى .. أن يكون بحجة ، وباقناع ، ليتحقق .. من وراء ذلك الجدوى ، للقارىء ، فيما يتابع من حوار مجد ، اعرف ان صديقى .. يهمه هذا الحرص ، منه ، ومنى ، والآن ــ أقدم .. تعقيب أخى عبد العزيز ؟

---

(١) جريدة البلاد التى تصدر فى جدة

تعليق .. على تعقيب

عزيزى عبد الفتاح « على سن ورمح »

تحية مباركة طيبة : ــ اولا ــ أشكرك على التعقيب .. الوارد ضمن مقالك المنشور .. بجريدة البلاد الغراء ، الصادرة ، فى يوم ٢٨ من محرم ١٤٠١ هجرية » .

« ويسرنى .. أن أعلق بدورى على ملاحظتك الكريمة ، على حديثى بشأن كتاب « الظمأ » .. للكاتب الصديق ــ عبد الله جفرى ــ وتعقيبك الخاص .. بالتعبير عن « ثالثة الاثافى » ، ومدعيا .. ان هذا التعبير ، لا ينطبق .. الا فى حالة « الذم » . والحق يقال ، أن هذه الملاحظة .. هى من وجهة نظرك ، ولكنك لو كلفت نفسك شيئا بسيطا .. كما عهدتك ضليعا ، ورجعت الى اقرب المعاجم .. المنتشرة على ــ رفوف ــ مكتبك ، لتأكدت أن ما يعنيه تعبير .. ــ الأثفية ــ ، أو الاثافى .. لم يكن قاصرا على صفة ــ الذم ــ .. فـ « القدر » الذى يوضع حسب قاعدة هذا التعبير .. على ثلاثة ــ أحجار ــ ، يمكن بالتالى .. وضعه على اربعة وخمسة ــ احجار ــ ، وهى قاعدة حسابية ثبوتية ، واكثر ثبوتا نظريا ، وعمليا ، اكثر منها .. ثبوتا لغويا ، من القواعد الثلاثية ، ومن الجائز ايضا ، ان يكون التعبير .. اكثر مرونة ، ومجالا لعدة ــ صفات ــ ، كالذم ، والشتم ، والمدح ، والقدح ، والردح .. ولا اكثر من معنى ايضا ، « فكما يحق للشاعر اخفاء معانيه ، فمن حق الكاتب والناثر .. ان ــ يقولب ــ تعابيره ، ويصوغ معانيه .. فى إطار الدوائر ــ الشائعة ــ ، لا فى بوتقة .. أنصاف الدوائر المعلقة ، التى عفى عليها الزمن » .

« يا اخى ــ عبد الفتاح ــ ، ألا ترى معى .. أن بعضا من التعابير والمعانى ، والألفاظ ، والأمثلة القديمة ــ جدا ــ ، قد مضى عليها الزمن ، واكل عليها الدهر وشرب .. فأصبحت لا تتواكب مع .. أساليب أهل هذا الزمان ؟ ، ولا نرى .. من يستعملها الا ــ قلة ــ .. من الضالعين فى اعماق القديم ؟! » .

« فيا عزيزى الفاضل : إن كل ما اعرفه .. عن هذا التعبير ، او عن هذا التعريف ، ما هو الا .. الفاظ ضخمة ، بعضها ــ كالزئبق ــ ، لا يستطيع امرؤ حصرها . فلماذا لا تحاول .. ان تبسط التعريف ، ولو على قدر ــ

عقليتى انا ـ ؟ ، لان التعبير .. فى نظرى ، هو التصوير .. لما يخشى فى عمقه من عاطفة وشعور ، من أحلام ، واوهام .. وعلى مقدار ما يحمله تصوير الكاتب او تعبيره من جمال وفنية وتأثير .. فى نفسيات القراء ، تظهر عظمته من فسولته . ان الشعر والتعبير الرائع .. كالجمال ، من الصعوبة بمكان .. أن تحاول اكتشاف مقاييس له .. » .

« فكما ان الجمال مشاع فى العالم ، وليس وقفـا .. على جنس ، او عنصر ، فكذلك .. فى رأى الشعر ، والتعبير ، والتصوير ، فها نحـن مقبلون .. على القرن الحادى والعشرين ، ولا زلنا نقرأ ، ونتدارس .. اشعار المتنبى ، والبحترى ، وشوقى .. وغيرهم من الرواد فى العصر الجاهلى .. »

« لذا .. كم كنت ـ افاجأ ـ ، بقولك العجيب : وهذا التعبير يؤتى به للذم ، وليس للثناء ، الى ان تقول : والاستاذ الجفرى .. لا يرضى بان يكون كـابه ـ الظمأ ـ .. ثالثة الاثاف .. وهاانـت بدورك أتيـت ـ لتكحلهـا فعميتها ـ ، لانك أردت ان تحفر حفرة ـ فوقعت فيها .. يا بعيد ـ .. »

« فيا عزيزى الفاضل : انى اوافقك .. لو قلت ، ان هذا التعبير متناقض بشكل مخيف ، مع المعنى المقصود به .. لتقدمة الكتاب . اما حكمك بان هذا التعبير .. يؤتى به للذم ، وليس للثناء ، فهو حكم خاطىء . من استاذ ضليع مثلك .. لان هذا الحديث ، عن هذا التعبير ، حديث مترامى الاطراف .. كما يقولون . لان الادباء الكبار لا يزالون . فى اخذ ورد ، حول الرسالة الحقيقية .. لفن الشعر والتعبير .

فقائل يقول .. كما قال اوسكار وايلد ، فى مقدمة تحفته الرائعة ـ صورة دوريان جراى ـ .. الفن هو خلق الاشياء الجميلة . بينما يصر آخرون .. على ضرورة ادائه وظيفة اجتماعية وراثية .. عن القديم . فمثلا ، ورد فى احد معاجم اللغة ان كلمة ـ اثفة اثفا ـ .. تعنى القدر ، جعلها على الاثافى . وبمعنى آخر و ـ تأثف ـ الرجل المكان ، لم يبرحه ، والقوم الامر وعليه تجمعوا ، وبمعنى ـ الاثفية ـ الحجر .. توضع عليه القدر . الجماعة ج اثاف ، وثالثة الاثاف .. القطعة من الجبل ، تجعل القدر عليها ، وعلى حجرين امامها . واخيرا .. يقال : ـ رماه بثالثة الاثاف ـ ، اى بالشركاء . ومن هذه ـ الرماية ـ ، رماك الله بالخير .. ترى ان تعبير ثالثة الاثاف .. لفظ زئبقى يتمشى

مع اى معنى . ان شئت او ابيت . وهناك مثل آخر يقول ــ لا تعدم ــ الحسناء ذاما .. وأصل هذا المثل يقول : ان احد ملوك غسان .. تزوج بابنة مالك بن عمرو العدوانية ، وكانت اجمل نساء زمانها ، فلما اهديت اليه .. شعر منها ــ بعيب ــ ، فانكر عليها .. فقالت : لا تعدم الحسناء ذاما .. ومن هنا ندرك تماما ان ــ الذم ــ عيب ، وما قصدك .. من هذه ــ المعاكسة ــ ، الا ــ التحريش ــ ، بينى وبين الصديق الوفى ــ عبد الله بن عبد الرحمن الجفرى ــ ، الذى لم ارفيه عيبا يعيبه غير ــ عيونه ــ الطويلة .. ان اجزت لنا هذا التعبير ! » .

« والحقيقة ــ لا مزاج ــ .. عندى للاشتباك معك ، فى نقاش عقيم ، حول قضية تافهة .. كموضوع ، ادائى الواجب كاملا غير منقوص ، على حيثى .. بشأن كتاب الظمأ ، والثلاثة الاخرين . كما لا أريد .. أن اتورط معك فى تصور مشين ، كما فعلت ــ معنا ــ .. ايام الصبا والشباب ، ايام كنت .. تشعل نار المعارك ، بيننا ، وبين روادنا الافاضل ، وشبابنا المتحمس امثالنا ،

والآن .. سنانا لا يسمحان لنا بذلك ، وختاما ، اشكرك اجمل الشكر .. على كريم ظنك بأخيك ، ومحاولاتى الادبية ، بين حين وحين . وما غيابى عن الساحة ، وما اخلائى لها .. الا للطليعة الشبابية .. المتحمسة لادب الحياة .. فزماننا قد ولى ، وهم .. أجدر منا بحمل الشعلة الحياتية . فانت مثلا لا سبيل لأن تعمل كل اوقاتك فى الكتابة ، فهناك وقت للعمل وآخر للنوم ، وثالث للنزهة ، ورابع ــ لحساب المقاضى ــ ، وخامس .. للسهرة على الكتب والمجلات ، ولن تكتفى بالاستماع الى ــ تومة ــ او فيروز .. بل تتطلع الى مشاهدة مسلسلات ــ عبد المنعم مدبولى ــ ، لتسخسخ .. من الضحك والحزن ، والالم ايضا .. لهذه المأسى . فان لم تعترف بهذا ، فانك فى حاجة .. الى استشارة طبيب نفسانى ــ حماك الله ــ » .

« اما بعد : لقد انست .. معك فى جدال ، لا اشك فى قلة جدواه ، ولكنك .. شئت ان تكون ــ المعاكسة ــ ميدانا ، لتقارع الحجج وصراع الاراء ، فليكن لك ما تريد . والى اللقاء القريب » . اخيك .. عبد العزيز عطية ابو خيال .

دور الحوار والتعقب

هذه .. هى رسالة الصديق ، كما كتبها ، وبعث بها الى ، اثبتها كما هى . وارجو .. ان يأذن لى بالتعليق ، ولا أريد أن اثقل عليه ، مادام .. لا مزاج عنده للاشتباك معى ، كما قال ، فاقول وبالله التوفيق :

(١) رجعت الى القاموس .. حسب نصيحة الصديق ، وكان « اقـرب الموارد » ، فوجدته .. يشرح الاثفيه بما يلى « الاثفية ـ الحجر يوضع عليه القدر ، ج اثاف ـ والجماعة الكثيفة . و ـ اثف القدر ـ بتشديد الثاء ، جعلها على الاثاف و ـ تأثف ـ الرجل المكان ، لم يبرحه ، وفى الاساس ـ وتأثفنا بالمكان ألفناه فلم نبرحه ـ وتأثفوه ـ اجتمعوا حوله ، و ـ على الامير ـ تالبوا عليه ـ . و ـ ثالثة الاثافى ـ القطعة من الجبل ، يجعل الى جانبها اثنتان » . و ـ رماه بثالثة الأثافى ـ اى بالشركله . وليس بالشركاء كما جاء فى تعبيرك . وأنت تريد الخير ، لاشك فى ذلك .

وعلى التعبير المحدد ، الذى جاء به الاستاذ ابو خيال وهو يتحدث عن كتاب الاستاذ الجفرى ، يعنى الاستاذ عبد العزيز بتعبيره ذاك ان الكتاب « ظمأ » قطعة من الجبل ، اضافة .. الى سابقيه ، كتاب الاستاذ قنديل .. رحمه الله ، وكتاب الاستاذ محمد عمر توفيق ، واذا جادل الاستاذ ابو خيال ، وقال انه عنى « الجماعة » كما ذكر القاموس ، فالظمأ ليس من الجماعة ، ولكنه أثر لكاتب ، وهو يتحدث عن الكتاب ، والكتب ، التى قرأها ، وعلق عليها . ويظل معنى ثالثة الاثافى « قاموسيا » ، القطعة من الجبل . فالاستاذ عبد العزيز .. جعل الكتب الثلاثة .. اثافى ، اى قطعا .. من الصخر . وقد أبعدت القدر .. وما يحمله من الاثافى ، وهى تلك الحجارة . وفى تقديرى ، انى لم اعد الحقيقة ، حين قلت .. ان هذا التعبير للذم ، او لم ابعد عن هذا المعنى .

(٢) كون ان القدر ، يمكن ان يوضع على اربع قطع من الحجارة ، او خمس ، ـ فليس هذا شأنى ، وانما العرب اعتادت .. حسب تجاريبها ، ان يوضع على ثلاث ، وذلك يجرى ، واثبت ، وأمنع .

(٣) ويقول الاستاذ الصديق ـ من الجائز ان يكون التعبير اكثر مرونة .. الخ ، وأنا مع صاحبى ، لو كان التعبير رشيقا ، وجميلا ، ومقبولا ، ولكنه ، جاء بكلمة معانيها محدودة .. ضيقة ، فلا مجال فيها .. كما اتصور للمرانة . والكلمة معانيها واضحة ، ولا مقارنة .. بينها ، وبين ما يذهب اليه الشاعر والناثر من اخفاء معانيه .. فى تعبيراته . فنحن امام كلمة لغوية ، لها معانيها .. التى حددها اللغويون ، والخروج عن معانيها .. خروج عن اللغة .

(٤) ويقول الصديق « ان بعضا من التعابير والمعانى .. والالفاظ ، والامثلة القديمة ـ جدا ـ ، قد مضى عليها الزمن ، او اكل عليها الدهر وشرب الخ :

أقول تظل لغة لتراثنا ، ولنا ، ومادمت قد استخدمت شيئا منها ، فلا يجوز أن تخرجه عن معناه ، ولك ان تجدد ، ولكن فى حدود القواعد ، والنحو ، وما تتفق عليه آراء أئمة اللغة ، من مصطلحات ، وتعريب ، وأداء لفظ .. لاكثر من معنى يحتمله ، وبغير اخراج القديم عن معانيه الموضوعة له ، وكذلك الجديد ، لا يكون مجافيا للذوق ، حين لا يلائم معناه .

(٥) نحن فى القرن الخامس عشر الهجرى ، وعلى نهاية القرن العشرين الميلادى ، ويقول الاستاذ العزيز : « فها نحن مقبلون على القرن الحادى والعشرين ، ولازلنا نقرأ ، وندارس .. اشعار المتنبى والبحترى وشوقى وغيرهم من الرواد فى العصر الجاهلى » .

أقول : انت تقرأ هذا ، لانه تراثك ، ومصدرك الادبى ، وشىء من مصدرك اللغوى ، وانت تقرؤه لانك محتاج اليه ، وحين تجد افضل منه من الجديد ، ربما اعرضت بعض الشىء .. عن قديمك ، ولا يعيب القديم انه قديم ، ولا الجديد .. أنه جديد ، وانما يعاب هذا او ذاك ، اذا كان رديئا ، وغثا .. لاغنى فيه .

(٦) وليس على من بأس ، بعدما سقت الدليل عن معنى الاثافى وثالثها ، ان أقبل رأيك فى تعبيرك بانه « تناقض بشكل مخيف » مع المعنى المقصود به تقدمة الكتاب » . ومعذرة فانا .. لا أحسن التكحيل حتى أعمى من اكحله .. اذن فانا لم اكحل ، وبذلك لم اعم احدا .

(٧) ولست معك فى قولك « ان تعبير ثالثة الاثافى .. لفظ زئبقى يتمشى مع اى معنى « . وتعبيرك هذا لا يقرك عليه احد ، لانه يعنى الفوضى ، على هذا الاطلاق العام ، الذى ذكرته . ولغتك يا صاحبى ، توقيفية ، وسماعية ، وقياسية .. مقيدة بحدود .

(٨) حين كنت اثير بعض المعارك فى السابق ، كنت أسير على سنن الحياة ، وأعنى ، المعارك .. بين الجديد والقديم ، وكنت اترجم احاسيسك ، واحاسيس الاخرين من الشبان والمتحمسين للمعارك الادبية ، وكنت انقل .. ما فى نفوسكم ، لان بعضكم يحجم ، ويتهيب ، وكنت انا اتقدم ، ويتقدم معى .. بعض الشجعان ، ولا ازعم لنفسى .. انى منهم ، وانما كنت كما قلت .. أصور أحاسيسهم ، وانقلها ، وهذا من طبيعة الحياة ، ومعايشتها .

(٩) انت يا صديقى .. تتخلى اليوم ، لانك مشغول ، اما الذين يتاح لهم بعض الوقت ، ليقرأوا ، ويناقشوا ، ويكتبوا ، فليس عليهم بأس .. فيما يصنعون . واحمد الله اليه ، انى مازلت قادرا .. على المضى فى سبيلى ، والمسألة ، ليست فى حاجة .. الى اعتراف ، او نكران ، وحين اجد نفسى فى حاجة الى طبيب نفسانى ، سأسعى اليه ، مقدرا نصيحتك الغالية . والكبار الذين سبقونا ، منهم العقاد ، وبرناردشو ، وغيرهما ، ولم اصل الى بعض ما وصلوا اليه ، ظلوا ، يكتبون ، ويفكرون ، ويقرأون ، حتى اخر رمق من حياتهم . فلماذا نتخلى ونحن قادرون ؟ .. اذا شغلتنا الحياة ، « مثلك » اعانك الله ، تجرى وراء المال .. بتجارتك ، ارجولك التوفيق ، اذا شغلتنى مثلك ، فلا بأس ان انصرف .. الى ما يشغلنى ، واظل اقرأ ، حسبما يقدر لى من فراغ . أما الكتابة فهى مزاج ، وقبل ذلك رسالة ، اذا كانت هادفه ، تعنى بالخير ، والاصلاح ، وواجب نؤديه عن قناعة ، ورضا .

(١٠) ارجو ان تثق .. انى لم اقصد ، حين كتبت تلك الكليمات ، تعليقا على تعبيرك فى الاثافى ، أن اسىء الى علاقتك ، لصديقى ، وصديقك الاستاذ الجفرى ، فهو رحب الصدر ، ويقدر ، انك تعبر عن مشاعرك ، وارائك ، حين تتحدث عن كتاب من كتبه ، وكتب الافاضل الآخرين ، وان اخطأت التعبير فى « لفظة » ، كما قدرت أنا ، وكما ترفض انت حينا ، وتوافق احيانا بان ذلك التعبير ، ، « متناقض بشكل مخيف ، مع المعنى المقصود » .

(١١) مرة اخرى .. شكرا من الاعماق ، للصديق العزيز ، على هذة الفرصة فى « المناكفة » ، معه ، فلقد أحب .. أن تتجدد ، او تأخذ .. هذا المسار ، لنلتقى ، ويذكر أحدنا الاخر ، ونذكر الماضى ، ونجدد الصداقة ، ويقول اخى رأيه ، يرفض ، او يقبل واقول انا كذلك .. ما اراه حقا ، نتفق ، ونختلف . ولا عليه ، ولا على ، ان نرضى ، او نغضب . فالمسألة ، رأى ، يصيب ، ويخطىء .

وتحية للعزيز وأرجو مرة أخرى ألا يبعد برأيه متى وجد الى الكتابة سبيلا فالكتابة والقراءة حالة صحية كما أعتقد

الرحال الشاعر .. والاشعار

الصديق ، والزميل ، الكاتب الشاعر ، الاستاذ يوسف رحال ، رجل عاطفى ، وفى الغربة .. تلتهب احاسيسه ، فيتألم ، ويحزن ، وينكر اشياء .. ربما رضى عنها ، او الفها ، ولكنها حالة من الغضب ، وعدم الاستقرار ، والضيق بالحياة .

واقرأوا ان شئتم كلمته المنشورة فى العدد « ٢٩٩ » من مجلة اقرأ .. الصادر بتاريخ ١٤٠١/١/٢٦ هـ ، بعنوان « اشعار كاذبة » . فى ــ منحنى الوداع ــ .

ويبدأ صرخته ونكره ، لقول الشاعر عمرو بن كلثوم

اذا بلـغ الفطـام لنـا رضيع تخـر له الجبابـر ساجدينا

ويعلق الاستاذ رحال على قول الشاعر من معلقته المشهورة الاهبى بصحنك فأصبحينا ، بان هذا الشعر سخيف ، وان الانبياء لم تحلم بهذا .

والاستاذ رحال ، يعلم ان هذا الشعر قيل فى العصر الجاهلى ، وكان ذلك العصر يقبل مثل هذا الفخر ، والتغالى .. فى التعبير . ولا شأن للانبياء بهذا ، فهم لهم شأنهم ، ورسالاتهم ، ودورهم فى نصح الامم ، ودعوتها الى توحيد الله واتباع نهجه القويم لا علاقة للانبياء بالشعر لا بالفخر ، ولا التغالى .

ويمضى الاستاذ الرحال ، يفند ابياتا من الشعر ، يقف منها ، موقف الرافض لها ، الذام ، المنكر . حتى انه ينكر قول الشاعر :

اذا غضبـــت عليـــك بنوتميم حسبـــت النـــاس كلهـــم غضابا

ويعقب بقوله : « بنو تميم قبيلة عربية ، لا يزيد عدد افرادها .. عن عشرين شخصا » .

والاستاذ الرحال ، يريد ان يطبق شعرا ، قيل ، قبل خمسة عشر قرنا ، وقبل اربعة عشر قرنا على حياته ، وحياتنا اليوم . لم ينس الاخ الرحال ، انه .. أمام تراث ، وهذا التراث كان يصلح للزمن الذى قيل فيه ، وبعضه .. مازال صالحا لعصرنا الحاضر ، كانه جديد ، بمعانيه ، ومغانيه ، وحكمه ، وصدقه ، وديباجته المتوجه ، وقوته ، وروعته .

والتراث اساس ، والجديد امتـداد للقديـم ، والقديـم اســاس ، والحاضر .. ابن الماضى ، لا سيما فى تراث امتنا ، وتاريخنا ، والشعر .. كما قيل ديوان العرب . ولن نستطيع ان نستغنى عن ذلك الماضى وتراثه . ومن حقنا ان نقبل من التراث الجيد منه ، ونترك السفاسف . وليس من العدل ، ان ننقل حياة شاعر .. قبل الف وخمسمائة سنة ، لتوائم حياتنا اليوم ، والا ، فان ما قاله .. مرفوض ، ومنبوذ ، وردىء وكذب . ذلك ان هذا الحكم جائر ، ويصبح مرفوضا ، لانه بعد .. عن العدل ، والمعادلة المتجانسة .

ولعل الاستاذ الرحال ، لا يفوته ، ولا ينسى ، ان كثيرا مما يكتب اليوم . لو نقل الى العصر الجاهلى ، او العصر الاسلامى الاول ، او العباسى ، لوصف بانه هراء ، و « بعر » ، وعبث ، وسخف . وكلم مبتذل ، لا قيمة له ، وان قائليه .. يعنون بالهذر ، وربما وصفوهم .. بانهم مجاذيب . وسيدافع كتاب اليوم ، وشعراؤهم ، بانهم قالوا .. مارأوا انه يوائم العصر الذى يحيون فيه ، القرن الخامس عشر ، بعد ان صعد الانسان .. الى الفضاء ، ونزل على القمر ، وغاص فى اعماق المحيطات ، وتعامل مع التلفاز ، يرى .. ما يجرى فى الكرة الارضية ، وهو على سريره ، وكرسيه الوثير ، ويركب الكونكورد ، ويتكلم بالهاتف .. مع كل الدنيا ، وبقدرة الله ، عاشت أجنة فى الانابيب ، وحدثت لها

ولادة طبيعية ، وعاش المولود .. وصنعت قنابل تدمر العالم بارادة الله ، لانه لا يكون فى هذا الكون .. الا ما يريد .

انا اعذر الصديق الرحال ، فقد يكون فى حالة نفسية ، جنحت به .. الى هذا القول . ولست معه .. فيما ذهب اليه ، فالتمس له العذر .. ولكنى لا اريده ان يسجل على نفسه نكران التراث ، وتحميله ما لا يحتمل ، واذا به شىء قد لا نقبله ، فما اكثر الجديد الفاسد ، وتلك طبيعة الحياة .. والبشر . فخذ يا صاحبى ما صفا ، ودع ما تكدر كما يقال .

نادينا الأدبي وأحلام شهرزاد

قرأت كلمة .. الاستاذ شكيب الاموى ، المنشورة فى العدد « ٥٠٥٢ » من جريدة المدينة المنورة الصادر .. بتاريخ ١٤٠٠/١٢/٣٠ هـ وتذكرت بعد قراءتها .. زيارة الدكتور طه حسين رحمه الله للمملكة فى عام ١٣٧٤ هـ .. مع الوفد الثقافى لجامعة الدول العربية وقوبل الدكتور .. بالحفاوة والتقدير ، بما يليق ومكانة الضيف الادبية . وفى إحدى المناسبات ، استمع طه حسين الى المحتفين به ، مشيدين بفكره ، ويعددون آثاره ومن ذلك ، قصته « احلام شهرزاد » . وحين وقف عميد الادب ، يرد على التحية ، قال هذه الجملة !
« ارجو ألا أكون قد جنيت عليكم .. حين انشأت احلام شهرزاد » .

تذكرت هذا الموقف ، وأنا اقرأ .. موضوع الاستاذ الاموى ، فصاحبى يحلم ، وقد رأيته ، وكأنه .. يتحدث .. عن وزارة للثقافة ، يراد انشاؤها ووزارة للحربية ، وثالثة للتجارة ، وروضة اطفال ، ومرافق مختلفة كثيرة وامام هذه المشروعات .. التى يتخيلها الاستاذ شكيب لنادى جدة الادبى ، هناك الملايين .. المرصودة ، تنتظر التنفيذ ، ويخطط الاستاذ لذلك .. فى بنود تبلغ الثمانية عشر بندا .

لذلك .. فقد أدركت أن صاحبى يحلم ، وكلامه .. فيه كثير من الخيال ، مع أنه يقول : انه موضوعى وعملى .. وان ماكتبه عن نادى جدة الأدبى ، يشمل الماضى ، والحاضر والمستقبل بقوله : « وأعتقد ان كل ما كتب ويكتب حول النادى .. لم يكن الا هامشيا عابرا ، ولم يتطرق قط .. الى كيفية ازدهار وانجاح النادى » .

وفى رأى الاستاذ شكيب ، ان كل ما كتب ، وما يكتب اليوم وغدا هامشى عابر . وما يكتبه هو فقط ، الاعمق ، والادق ، والاصوب ، والصحيح ، والآراء الاخرى لا قيمة لها ، ولا خير فيها ، ولا معنى لها ، ولا جدوى منها .

الاستاذ الاموى ، له منظور خاص ، اقرب الى الاستحالة ، وكأنه يريد ان يقول ، لا حاجة الى هذا النادى ، اذا .. لم يكن فى مستوى الاستحالة ، وان تكون له ميزانية .. وزارة ، وباصرار ، ويجب .. ان يرتاد باب النادى الادباء ، ويكون فيه جيش من المنظمين ، والعاملين ، والمستفيدين ، ونسيت أن اقول ، أنه فى رأى الاستاذ الاموى .. تواجد وزارة للدعاية وادارة عامة للاعلان ، والعمولات ، ومستفيدين وطفولة تعيش .. فى المناخ الثقافى .

إنها أحلام .. شهرزاد ، جميلة ، ومعسولة ، وقليل جدا .. منها ، ما يصلح للفكر ، والادب .

والاستاذ شكيب .. صاحب مداعبات ، لذلك عن له أن يشغلنا باحداها ، ونحن .. على أبواب اختيار ادارة جديدة للنادى ، فى منتصف الشهر الحالى .. ان شاء الله . كانه يريد ان يصرفنا بهذه المطالب والتخيلات .. للنادى المنتظر ، حتى لا يكون ، لانه مستحيل أن يكون .. بهذه الصورة التى القى بها . ربما بعد عشرين عاما .. يتحقق النمو ، والنجح ، فيكون فى انديتنا الادبية .. بعض أحلام الاستاذ الاموى .

ولعل الاستاذ شكيب يتخيل ان كل الادباء والمنتمين للادب ، عندهم قدرته المادية ، ولا يفكرون مثله .. فى كينونة الدخل الضرورى لمعاشهم ، وليس لديهم ما يشغلهم مثله ، فيرابطون فى النادى ، وينتجون ادبا بالكيلو او القنطار ، وتحت أيديهم كنوز ، ينفقون منها ، ويجب باصرار الاستاذ شكيب ، ان يرتاد النادَى كل أديب ، والا يسافر اعضاء النادى الا حسب موافقته ، اى موافقة ادارة النادى ، وان يكلف الوزراء القادمون ، وانظروا تعبير الكاتب : « فاذا وفد وزير على البلد .. كلف بالقاء محاضرة ، خصوصا فى الازمات » .

أى منطق هذا .. يا أستاذ شكيب فى تعبيرك « كلف » ؟ ثم يحاضر ، ولا سيما فى الازمات ، والحوار فى الازمات « السر » ، وهل يجوز ذلك ؟ وهو ضيف ، وباختصار ، هل كل ما يعلم يقال ، وانت تدرى ، ولكنك .. حين تتحمس لفكرة ، تفقد الدقة فى التعبير ، فتقول اى كلام .. يخطر على بالك .. وفى ظنى .. لو أنك تتريث حين تتحمس ، وتعيد النظر .. فيما تكتب للنشر ، لعدلت الكثير من آرائك .

لا أنكر .. ان بعض ما كتبه الاستاذ الاموى مقبول ، وقابل للتنفيذ .. فى ظل إدارة جيدة ، اذا قدر للنادى ، ان تكون فيه هذه الادارة ، ذلك ان الناس مشغولون .. بغير الادب اليوم .. وليس ثمة شيء بالاكراه ، ولو كان لى من الامر شيء ، لدعوت الناخبين .. لاختيار الاستاذ شكيب رئيسا لادارة النادى ، وأعطيه الاختيار كذلك . فى الاعضاء .. الذين يريد ، واعطيه ميزانية وفق أحسن ناد فى البلاد ، لا ميزانية وزارة ، وتقول له .. رعاية الشباب دونك الميدان ، فسر .. على بركة الله .

الاستاذ شكيب سواح ، لذلك أراد أن يسوح بنا .. فيما قدم من اراء . وانا كتبت عن النادى ، من واقع زيارة الاستاذ « احمد فرح عقيلان » . والحديث عن نادينا ، وما ينبغى لانجاحه ، وقلت له ما كتبت ، وكتب فى عكاظ يقول « انصفونا من ادباء جدة » ، ولم يرد عليه احد لانهم مشغولون ، ولسنا فى وقت « لبة وأدب » وانما حب المال ، حبا جما ، كما يقول القرآن الكريم .

ونادى جدة الادبى ، مر على تأسيسه اربع سنوات ، ولم يقدم شيئا يذكر ، وكانت ميزانيته .. تتأرجح ، ارتفاعا وانخفاضا ، ولم يحقق النادى اى نجاح ، ولا أريد .. الخوض .. فى الاسباب والمسببات ، فقد اعرف شيئا ، وتغيب عنى ، أشياء ، وليس من شأنى .. هذا التقصى ، لمتابعة السنين العجاف .

يريد الاستاذ شكيب .. للنادى « مبنى فخما ضخما » ، اى مبنى وزارة ، يا أستاذ ، الادب تواضع ، وليس مظاهر جوفاء ، وما قيمة المبنى الفخم الضخم الخالى الوفاض ؟. لماذا لا يكون للنادى مبنى بالايجارة اولا ، ثم يحصل على أرض ، ويجد من المواطنين القادرين المنفقـــين .. فى السراء والضراء ، من يتولى انشاء المبنى ، وفق ما كان فى نادى مكة الثقافى . تواضع يا سيدى والمهم ليس المبنى الفخم الضخم ، وانما استعداد النفوس لتطويق النادى ، والعمل للنهوض به ، اذا سمحت ظروف الناس ، ثم يتدرج .. نحو الافضل ، بفضل الحماسة ، التى أعلنتها فى مقالتك ، ولو كان العمل كلاما ، ونقدا لهانت الحال ، ولكن العمل .. غير هذا وذاك ، انه استعداد نفسى اولا ، واخلاص ، وتضحية ، وقدرة ونكران ذات ، وصبر ونحو هذا .

والتخطيط الداخلى ، وقد اعلنت انت سبله ، وفيه كثير من التجاوز ، يتم مع الادارة المختارة ، بالدراسة والتشاور والتعاون . وليس كلاما ينشر ، ليقرأه أى قارىء ، هذا الكلام يدركه المختصون بالادب ، وادارة النادى ، فقله لهم يا سيدى .. حين تتكون هذه الادارة ، كرأى ، مكتوبا ، او فى حديث . عبر الاجتماعات ، ولا اظن اى ادارة واعية .. فى حاجة الى ان يقال لها ، اصر على كذا ، ويجب كذا ، ويلزم كيت ، واصنعوا ما اقول . ليس هذا اسلوب حوار مجد ، وانما هى حماسة من حلم مزعج ، لذلك .. نجد فيها هذا العمق ، والموضوعية ، ليست هامشية ، كما اكتب انا ، وكتبت وكتب غيرى ، وكما سنكتب غدا فى هذا الموضوع . ومعذرة .. فنحن لسنا اصحاب تخصص ، لذلك نلجأ .. الى الهامشية وتفضل فامل شروطك .. التى تراها كفيلة ، بانجاح النادى الادبى ، وساهم يا سيدى .. اذا قصرت رعاية الشباب ، ولم تكف بنود ميزانية النادى ، فانت والحمد لله « ملىء » .. تستطيع ان تسهم ، لتحقق لهذا النادى « الغلبان » .. ما يحتاج من دعم مادى ، واراء . جديرة بالتقدير ، والاحتفاء .

أرجو أن تثق .. أننى لا أهزأ بهذا الكلام ، وأنت تعلم أن نقص القادرين عيب ، كما يقول المتنبى ، وان كثيرا من الامم .. تبنى المرافق لخير بلادها ، أعنى القادرين منها والاصل .. ان ينفق ذو سعة من سعته ، ولا يكلف الله نفسا الا وسعها .

وكما قدرت .. أن الاستاذ شكيب يحلم ، ويتخيل ، فهو بعد حديثه عن النادى ، يورد لنا حكاية ، ويسميها قصة ، ويقول فى النهاية « هذه القصة على هامش النادى ، وكل ناد وانتم بخير ، وحج مبرور ، وسعى مشكور ، وتجارة لن تبور .

ما على .. فانا لا أريد أن أفسد على الاستاذ أحلامه المعسولة ، وحماسته المطردة ، ولا أريد ان أنقله الى الواقع ، بان ما اعلنه ، صعب أن يتحقق ، عبر حلم .. وقته ثوان ، اودقائق ، او .. يحدثه خيال جامح ، والذى يملك الكثير ، يعجب ، لماذا لا يملك كل الناس مثله ؟ اذن هم كسالى ، او اغبياء ، او جاهلون . اذا لم تجد الخبز فكل « كعكا » ولن يكون عجبا ، اذا رؤى .. فى يد فقير .

شكرا للاخ الاستاذ شكيب الاموى ، وارجو ان نلتقى فى صالة اختيار اعضاء إدارة النادى فى الخامس عشر من المحرم ١٤٠١ ، اذا احيانا الله ، ثم ندير النقاش مجددا .. اذا شئت ان يأخذ هذا المسار ، بين المتاح المنطقى ، والحلم أو الخيال ، الذى يتنكب الخطوات العملية المتئدة ، لتجديد شباب النادى ، ثم ينطلق نحو البناء ، لازدهار الادب ، فى تعاون ، وجلد ، وعمل ، على بصيرة ويعلمنا القرآن الكريم ، بقول الله عز وجل : « وقل اعملوا » . ذلك هو دورنا ، وعلى الله قصد السبيل .

الأندية الأدبية المتهم البرئ

عزيزى الاستاذ حمد القاضى

أزجى اليك التحية ، وأرجو أن تقبل الشطر الأول .. من هذه الكلمات ، فهو موجه اليك ، لانك — سامحك الله — ، أقحمت صورتى ، مع الكلمة التى كتبها .. الأخ تركى العسيرى ، يندد فيها .. بالأندية الأدبية والثقافية فى البلاد ، ولعلك أيها العزيز ، أردت بوضع صورتى فى كلمة الأخ تركى المنشورة يوم الخميس ١٤٠١/٥/٦ هـ ، بالعدد « ٣١٣١ » .. فى العزيزة الجزيرة — الجريدة — ، أن تثير غبارا ، فقد كنا .. نتبع مثل المسلك ايام زمان ، واخترتنى أنا ، دون اخوتى .. رؤساء الأندية ، لانى وجه جديد ، فى الواجهة ، وان لم أكن جديدا .. فى النادى ، ولا اظن أنك متأكد ، أن الأخوة فى الأندية .. لن يردوا ، وأن دمى ، من واقع الجدة ، فيه .. بعض الحرارة ، وربما حماسة ، فأبادر .. الى تفنيد الاتهام ، وترك الأخوة الرد ، على كلام عام ، غير محدد ، اتقاء .. لشهوة الجدل ، الذى لا يفضى الى جدوى ، لك الشكر ، وانت رجل حسن الظن ، وتريد الخير ، وصولا اليه ، وتحقيقا له .

أما الأخ تركى العسيرى ، فأكبر الظن ، أن رد الاستاذ احمد فرح عقيلان مدير ادارة الأندية بالرئاسة العامة لرعاية الشباب كاف ، لذلك الاتهام . والمشكلة ، أن بعض اخواننا الشباب يسارعون فى احكامهم ، ويتعجلون ، وهم بعيد ، ويظنون ، ان الشيوخ ، يحولون بينهم وبين المشاركة ، ولا يأبهون بهم .

وفى مجال الحديث عن الأندية الأدبية ، حتى لا نخرج عن الموضوع ، فالمجال متاح ، لكل ذى رأى بناء ، وقدرة .. على المشاركة ، فى المسامرات ، ونشر الانتاج الجيد ، والحديث .. فى حركة المحاضرات ، والعضوية ، ولكن

اخواننا..لا يحضرون الانتخابات ، ولا النشاطات ، لا يحضرون حتى إن دعوا ، وتعلن الأندية ان الدعوة عامة ، حين تقيم محاضرات او حوارا ، او أمسية شعرية ، فلا يحضر ، الا أقل القليل ، ومع ذلك ، نسمع الاتهام ، ونسمع التجريح ، بأن الأندية حكر .. على نوعية معينة من الناس ، وانها تجامل ، وليس لها عطاء ، وانها متقوقعة .

ولا مجال للاسماء الصغيرة فيها ، وهذا يتنافى مع الواقع ، ففى الأندية شبان ، ولا أقول ذوى اسماء صغيرة ، والمشكلة ، كما اشرت ، ان اخواننا الشبان ، لا يحضرون يوم انتخاب الأعضاء ، ولا ريب ، انهم لو حضروا ، وكان بينهم ، اسماء لامعة ، لها دور فانها ستختار ، بدليل ان نادى جدة ، اختار شابين ضمن أعضائه وفى الأندية الأخرى مثيل .ولا يمكن اختيار اسماء لم تحضر ، ولو اختيرت ، لربما اعتذرت ، بأنها .. لم ... يؤخذ رأيها ، وانها غير مستعدة للمشاركة ، لسبب او اخر ، فاخواننا الذين فى ابراج اومشغولون ، ما الحيلة فى تقريبهم ؟، ارجو ان يفتح الأخ تركى نافذة ضوء توصل اليهم .

أما موضوع النشر ، فالشىء الجيد ، يفرض نفسه ، فى كل عصر ، بصرف النظر عن اسم صاحبه ، وليس الأندية الادبية التى تنشر الكتب . ولكن جمعية الثقافة والفنون وفروعها ، ومؤسسة تهامة ، وربما غيرها . اما الانتـــاج الضعيف ، فهو عبء ولا يخدم احدا ، وليبعث الأخ تركى او غيره .. بانتاجه ، الى أى ناد ، فان كان جيدا ، فسيلقى الرعاية والاهتمام ، اما اذا كان ضعيفا فسوف يرد الى صاحبه ، مع بيان ، بأن المستوى يحول دون نشره ، وكما قال الاستاذ احمد عقيلان ، فان بعض الاندية ، نشرت انتاجا ضعيفا ، ولكن هذا ليس مقياسا ، ولا قاعدة ، ولكنها من الاخطاء تبعا ، لمسلك الانسان ، الذى يصيب ويخطىء .

ان الاندية الادبية تحتاج الى التحام الشباب بها ، والى حضورهم ، وارجو الا يبخلوا بهذا وذاك ، لانهم روافد ، بأفكارهم البناءة ، وحماستهم ، وسيؤخذ بكل رأى وراءه هدف ينهض بالفكر ، ويدعم ويوسع خطا المسيرة لتواكب نهضة البلاد العريضة . اما اذا تخلف اخوتنا من الشبان ، واعتزلوا المشاركة حضورا ، وطرح آراء فلن تلام الأندية ، حين تستنفد اغراضها فى

دعوتهم بسبلها المختلفة ، واذا كان فى الأندية ، أخطاء ، ويرى بعيدو النظر تقويمها .. بسبل ، أقوم ، يمكن تنفيذها ، فليتفضلوا بما عندهم ، لان هذه الأندية ، حديثة عهد بالحياة ، وجاءت فى ظرف صعب جدا ، وهو انصراف الناس ، عن المعرفة ، الى حطام الدنيا ، وكان فى الامكان الجمع بين الاثنين بشيء من توازن ، وعدم الاخلال بهذا التوازن ، فى الميل كل الميل الى الفانى ، دون الباقى .

وينكر الأخ تركى على محاضر ، عاب ، او حمل على الشعر الحديث ، كما يسمى ، والرد على ذلك ، على من اتاح له .. الحديث ، أن ينسف تجذير الاندية من أساسها .

وهذا الكلام الذى يطلق من غير قيد ، ليس اصلاحا ، ولا يراد به اصلاح ، وليس هو نقدا ، ولكنها مصارعة غير متكافئة ، والأصل ، أن تنتقد العيوب والنقص ، فى هذه الأندية ، نقدا موضوعيا من واقعها ، بعد احتكاك ، ومعايشة . ويراعى فى الوقت نفسه انصراف الناس . عن الادب والمعرفة كأساس ، فى الضعف الذى تشهده الأندية ، فلا يعيب الانسان زمانه ، والعيب فيه كما قيل قديما . فالحكم على الناس والاشياء لا يأتى من التخيل ، والافتراضات ، ولكن من الواقع عينه ، وما يلازمه ، ويحيط به من عوامل . فماذا يصنع الأخ تركى العسيرى ، لوكان رئيسا لناد ، اوسكرتيرا ، واختار من يحاضر ، او يحاور ، ودعا الناس ، ولم يأته ، اكثر من عدد اصابع اليدين ، وربما كانوا ، من الأصحاب الاقربين؟ ايقف فى الشارع ، او امام مكاتب العقار ، او العابرين ، يجمعهم الى ساحة المحاضرة ، او النقاش ؟.. ام يعتذر الى محاضره ويغلق باب النادى ؟

الذى أرجوه من الاخ تركى وامثاله ، ان يدعوا الناس الى الالتفاف الى اكنان الفكر ، فهذا الحضور ، سيكون انطلاقة ، نحو الأفضل ، والتطور ، ودافعا الى النمو الفكرى ، اما الغياب ، فانما يقود الى الضمور ، وليست الاندية تتحمل تبعة المقصرين من ذات انفسهم ، وذات انديتهم ، وفكرهم ووطنهم . ولعل الاخ تركى يفضل فيزورنا ، ليحاورنا بما يجول فى نفسه وخاطره ، حتى يكون لارائه وزن ، بعد الممارسة ، العملية .. فى الالتحام

بالاندية ، لمعرفة مسارها من قرب ، ثم يحكم عليها اولها ، وشكرا مرة اخرى لاخى حمد القاضى على هذا التلويح بجر الشكل .. الذى لا نضيق به . ولكننا نأخذ فيه ونعطى ، وحين تكون ثمة قضية ، يختلف الناس ، ونحن الآن امام قضايا ، وفيها مجتهدون مخطئون لهم اجر ، ومصيبون ، ولهم اجران ، فطوبى للذين احسنوا الحسنى وزيادة .

كان أبى معلماً

كتاب .. ممتع حقا ، « عمل أدبى روائى انسانى » . كما ذكر على غلافه الأخير ، لا تتجاوز صفحاته ١١٩ صفحة ، كتبه الاستاذ عبدالتواب يوسف عن أبيه المعلم بهذا الاسم الذى اتخذته عنوانا ، لاتحدث عن هذا الكتاب الذى يكتبه ابن عن أبيه المدرس ، بصدق وتجرد ، لأن أباه كان مخلصا لرسالته ، وفيا لها ، بذل قصارى جهده ، ليضىء الطريق للآخرين ، يعطى من ذات نفسه ، يكد ويجد ، فى مطلع القرن الحالى فى قرى مصر النائية الصغيرة ، ينشر العلم ويشيعه بالمجان ، أو بدخل زهيد ، بدأ بجنيهين مصريين ، وهو سعيد كل السعادة بالنجاح الذى يحققه كل يوم ، بل كل ساعة ، فى حصة درس يؤديها لابنائه الصغار ، بل اخوته لأنه كان شابا وقت أن اختير مدرسا ، يبث فى نفوسهم روح حب الوطن ، ومعرفة تاريخه ، وجهاد رجاله للتخلص من المحتل ، الجاثم على أرض الوطن ، كان ذلك أيام المناضل سعد زغلول وجهاده .

والاستاذ « يوسف » يتحمس لانتفاضات أمته ، ويتابع بقلق أخبار اعتقال سعد زغلول ، ويشارك ببث الوعى فى القرية ، للمطالبة بالافراج عن الزعيم مع الشعب الذى وقف مع سعد ، ويندد بأعمال المحتل ، وقمعه لنداء الحرية . ويوسف يومئذ فتى يافع ، ولكن عقله ونفسه أكبر من سنه ، وبصيرته أبعد وأعمق من حجمه ، ليت تلاميذ الأمس وطلابه ، الذين أصبحوا اليوم رجالا ، يحتلون مراكز كبيرة مرموقة ، يديرون ويشاركون فى الحكم ، لهم أقدارهم ونفوذهم وكلمتهم المسموعة . ولهم الثراء العريض .

ليتهم يتذكرون اساتذتهم الذين أثروا فى نفوسهم ، وأناروا عقولهم وعلموهم ، وأضاءوا لهم سبل النور بالعلم ، فيدعوا لهم بالخير ، ويترحموا عليهم ، ويحسنوا الى المعوز منهم ، والذى قعد به جهده ، وتقدمت به السن ، ولم يجد من يواسيه .

ليتهم يفعلون شيئا من ذلك اعترافا بالجميل ، وكفاء جزاء ، ليملأوا أنفس مدرسيهم سعادة ، ويجعلوهم يجددون ذكرياتهم تغمرهم البهجة والرضا على ما قدموا وما بذلوا من جهد ، وما ضحوا من أجل أداء رسالتهم السامية فى اشاعة العلم ، ونشره بين طلابهم ، لكى يصبحوا رجال الغد ـ اليوم .

وما أسعد النفس ، حين تنال جزاء ما قدمت .. عن رضا ، تبغى الخير وتيسره ، لا تبغى بذلك جزاء ولا شكورا إلا من الله عز وجل .

وليس أقسى على النفس من الجحود والنسيان والاهمال ، لأن جزاء الاحسان إحسان مثله ، بل أكثر .

فى الفصل الأول من كتاب الاستاذ « عبد التواب يوسف » المطبوع فى دار المعارف بمصر فى العام الماضى ، يسأل الابن أباه هذا السؤال :

« هل يعطونك ما يقابل هذا الجهد الجهيد ؟ »

وكان الأب المدرس يبتسم ويرد فى هدوء :

« لا تتوقع من الحياة أن تعطيك مقابل ما تبذل . ثم أننى لست بقالا ولا عطارا ، فيمكننى تقدير ثمن بضاعتى ، ولكنى على ثقة من أن لجهدى ثمنا غير منظور ، لا أعرف كيف يمكن أن يؤدى لى ، بل لا أنتظر أن يؤدى . أننى أؤمن أن التعليم ليس وظيفة ولا مهنة ولا عملا ، انما هو « رسالة » و .. « حياة » .

هذا هو جواب انسان يؤدى دورا مهما فى الحياة ، والذى يملأ نفسه هذا الايمان بالواجب ، فى أجل رسالة لابد أنه أداها ويؤديها بكل ما يملك من قوة وصدق وتضحية وصبر .

ينمى فكره وعقله ، ويزداد حيوية كل يوم ، ويؤدى ما يعلم وما يتعلم فى اتقان وأمانة وصدق وحرص الى تلاميذه ، يحدثهم من القلب الى القلب ، ليصل اليهم ما يفرغه فيهم من معرفة ، ويؤثر فيهم ويشدهم اليه ، لأنه صادق ، وقد صدقهم ، وما كان من القلب فانه يصل الى القلب مباشرة ، ويعمق أثره وتأثيره ، ويحقق نتائج قوية لا تضعف ، ولا يتسرب اليها الشك .

وهذا هو دور المعلم المثالى ورسالته ، وما عدا ذلك فوظيفة ، كأى وظيفة ادارية أو استثنائية ، لا يعول عليها ، ولا تأثير لها ولا أهمية لشأنها .

يمضى عبد التواب ، يتحدث .. فى الفصل الأول من كتابه كان أبى معلما

عن أبيه ، فينبئنا بأن الأب .. سقط مريضا ، ومضى به نحو القاهرة الى طبيب ، أستاذ جامعى ، تجاوزت شهرته بلاده ، وانتظرا أمام عيادة الطبيب المشهور .. دورهما ، انتظارا طويلا ، ودفعا قبل ان يدخلا على الطبيب أجر الفحص جنيهين ، وكان يومئذ مبلغا له قيمته ، لا سيما ... على أمثالهما .

وحين جاء دورهما ... دفعا الى داخل عيادة الطبيب الكبير ، ونظر الطبيب .. نظرة تفحص ، فعرف الشيخ ، وراح يحييه ويرحب به ، وظن الابن ، أنها عادة .. عند الطبيب يلاطف زائريه ويحتفى بهم ، ثم بدأ يفحصه ، وأخذ ذلك وقتا أكثر مما يتوقع عادة ، فقد طالت عملية الفحص ثم أخذ الطبيب يسأل الشيخ أسئلة مختلفة ، أكثرها شخصية ، عن دراسة عبد التواب ابن الشيخ يوسف ، ثم قرر الطبيب ضرورة بقاء الشيخ فى أحد المستشفيات للعلاج والملاحظة ، وحدد لذلك مستشفاه الخاص ، وأحس الاب والابن بالحرج . من أين لهما نفقات الاقامة فى المستشفى وحالهما .. الله وحده يعلم به ؟

وكتب الطبيب بضعة أسطر على ورقة وطواها ، ومدها للشيخ وقال له : عليك .. ان تكون صباح الغد بالمستشفى وفى الورقة العنوان ، وأحضر معك الاشياء المطلوبة ، وهى الملابس .. وما اليها ، ومضى الشيخ وابنه الى باب العيادة .. والطبيب خلفهما ، يودعهما محييا الشيخ ، مجددا الترحاب .

وخارج العيادة .. والطبيب خلفهما ، فتح الشيخ الورقة .. التى تناولها من الطبيب فاذا بها الجنيهان .. اللذان دفعهما .. كأجر للفحص ، والتفت ليقول للحكيم .. فى دهشة ما هذا يا دكتور ؟ وابتسم الطبيب قائلا : هذه أجرة الكشف ، وسوف أكون شاكرا لو قبلتهما .

وسأل الشيخ الطبيب : لماذا تردهما ؟

وابتسم الطبيب مرة اخرى وقال للشيخ : سوف أكون سعيدا .. لو جلست الى لأشرح لك الأمر ، وعاد الاثنان الى العيادة .

« وتهدج صوت الطبيب العالمى الكبير » .

وسأل الطبيب الشيخ : « لا أظنك يا استاذى .. تذكرنى ، أما أنا فلم أنسك يوما ، وأنا واحد من أبنائك .. تلاميذك فى « بنى سويف »

ومضى الطبيب يقول : « أنا أعلم أن مواكب التلاميذ بالمئات ، بل

بالألوف ، قد مروا بك ، يأخذون من علمك ، وليس من السهل أن تذكرهم وقد كبروا ، أما هم فان صورتك .. لن تبارح ذهنهم ، ولقد عشت أنا شخصيا كل هذه السنين أنتظر لقاءك ، فأنت وراء كل خطوة ناجحة .. خطوتها فى حياتى » .

جلس الأب الشيخ والابن صامتين ، والطبيب يتحدث ، ويزداد صوته تأثرا وعمقا . ثم قال الطبيب : انى احتفظ هنا فى مكتبى بكراسة الانشاء .. التى كتب لى فيها بخط يدك الكريمة النبيلة .. عبارة فرشت طريق عمرى بالنور . ومد يده وأخرج الكراسة القديمة ، وقد جلدها ، وقلب صفحاتها ، ثم مد بها الى الشيخ ، الذى « تطلع الى خطه وكلماته فى لهفة » .

ووجد ما كتب بخطه الأحمر .. هذه الجملة :

« ليتك تصبح يا بنى طبيبا انسانا ، كذلك الرجل .. الذى صورته فى موضوعك .. هذا أملى فيك ، هل تحققه ؟ »

وحمد الشيخ ربه مرات ، وقال : « كنت أظن .. أنى أضعت حياتى هدرا » ورد الطبيب : « لقد صنعت حياة الاخرين ، لقد استطعت أن تبنى البشر ، أنتم « المعلمين » .. الصناع الحقيقيون فى مصانع الثقافة ، التى تنتج الأطباء والمهندسين .. والصحافيين ، والمحامين ، وكل الناجحين فى الحياة ، أنتم الأساس ، انتم صنعتم ابطالا .. وزعماء وقادة ، يعيشون جنودا مجهولين ، لكن ثق أن فضلكم فى قلوب ابنائكم » .

ودمعت عينا الشيخ ، وتمتم قائلا : « لقد عشت عمرى كله معلما » من أجل هذه اللحظة .. ان البعض يظن ، أن المرتب الذى يتقاضاه المعلم .. هو مكافأته عن عمله . لا .. ان مكافأته لحظة كهذه ، يتوج فيها عمله ، يتوج فيها عمره » .

وقدر الشيخ الجنيهين اللذين ردهما اليه الطبيب بمليونى جنيه ، واحتفظ بهما فى علبة بقية حياته ، لم تمتد اليهما يده لينفقهما حتى ساعة الحاجة ، وكان كلما ضاقت به الحياة واظلمت ، يمد يده الى العلبة .. ليفتحها وينظر الى الجنيهين ، فيعود اليه الأمل من جديد ، وتطيب نفسه .

وحين نتابع قصة الشيخ عبد التواب يوسف من أولها ، نجده طفلا فى

قرية « الفشن » من صعيد مصر ، الحقه ابوه بكتاب الشيخ « عبد السميع » ليحفظ القران الكريم ، ويظهر ذكاء الطفل الذى لم يتجاوز الثامنة ، ويزداد حفظه ، ويبز أقرانه ، حتى الذين سبقوه ، فيصبح عريف الكتاب ، ويتم حفظ القرآن فى ثلاث سنين ، ويقرأ تاريخ بلاده ، وجهاد زعمائه ضد المستعمر ، ويتابع نضالها ، ويشارك فيه ، بعد أن أصبح معلما فى القرى المجاورة لقريته .. فى صعيد مصر ، ويتعرض للفصل والطرد ولزوم قريته قسرا ، ويمضى يجاهد ويعلم ، ويزرع حب الوطن فى تلاميذه ، وكانت الساعة الثامنة .. من كل صباح موعد سعادته ، ليلتقى بتلاميذه ، ليحدثهم عن دورهم وما ينتظر منهم الوطن ، وكل حصة من دروسه ميلاد جديد له ولتلاميذه ، فأحبوه كل الحب ، وآثروه على غيره من المعلمين ، وتعلقوا به . وظل يتنقل من قرية الى قرية اخرى ، ينشر العلم ويحث على العمل ، لا يتوانى ولا يكل ، ولا يسعى الى جاه او مال ، وانما هو صاحب رسالة يؤديها ، سعيدا بهذا الدور الخطير .. الذى ينهض به ، الى ان توفاه الله ، فمشى فى جنازته البلد كله ، وفى مقدمة اهله تلاميذه ، يذرفون الدموع ويترحمون عليه ، لأنه غرس فيهم روح الجد والعلم ، لأنه « مثالى » .

لقد استمتعت بهذا الكتاب ساعات ، لا يعد لها شىء من متع الحياة .. ولولا خوفى من الاطالة لأتيت على كل دقائقه فى حياة هذا الرجل النادرة .

مع الأستاذ العقاد

اتفقت مع صديقى الأستاذ عبد العزيز الربيع .. أن نلتقى فى « الاسترا » بميدان التحرير فى تمام الساعة التاسعة من يوم الجمعة ١٤/٣/١٣٨١ هـ لنتمكن من الوصول إلى دار العالم الأستاذ العقاد مبكراً .. رغبة فى الحصول على مقعدين قريبين من الأديب الكبير .. ومن الصدف فقد كنا فى أتوبيس واحد ، هو راكب من الروضة وأنا من القصر العينى .. ونزلنا معاً فى ميدان التحرير واستقللنا أتوبيس مصر الجديدة حيث دار العقاد .. وفى تمام التاسعة والنصف كنا أمام المنزل رقم ١٣ حيث يقطن العقاد .. وظننا أننا بكرنا .. ولكنا حين دلفنا من باب مسكن المفكر الكبير .. وجدناه جالساً وحواليه بعض محبيه .. وقد استأنف حديثه .. ولم يكن المكان قد ازدحم .. فقد وصلنا فى الوقت المناسب ، وأخذت مكانى على يمينه أما صاحبى فقد لزم الركن المواجه للمحدث ، ثم أخذ أفراد الندوة الجامعة يتقاطرون تباعاً ، فيهم الأديب والطبيب والمهندس والطالب والقارىء وأمثالنا من عابرى السبيل .. إلى أن غص المكان بهم .. ثم أخذوا أماكنهم فى الحجرة المحاذية للحجرة التى بها العجوز المفكر .

سئل العقاد عن التنويم المغناطيسى ، فأجاب بأنه دخل فيه خرافات وألاعيب ، والصحيح أن الأشياء التى تقال .. يعرفها المنوم والمنوم بفتح وكسر الواو .. وماعداها كذب وأباطيل لأنهم لايعلمون الغيب وسئل عن الأرواح ، فقال : إننا لانستطيع أن نتجاوز الدين فى أمرها ، وقد سأل اليهود عنها الرسول صلى الله عليه وسلم ، فنزل عليه قوله تعالى « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » ، ولم يصل أحد إلى أسرارها وكنهها ، ودفعه الحديث المتسلسل عن الحياة والموت فقرر أن انقطاع النبض ليس معناه الوفاة ، وكذلك سكون القلب .. وإنما هناك غشاء يحيط بالمخ إذا تلف فان الانسان يتوفى بعد ثلاث دقائق من تلف هذا الغشاء .

وتوالت الأسئلة على الرجل المفكر .. فى كل شىء ، وهو يجيب على كل شىء يعرفه .. وسألته أنا عن رأيه فى شعر عزيز أباظة .. فقال : إن شعره سلس له طلاوة حلوة .. وأردف قائلا : إننى قدمته فى مجلس الفنون وأثنيت على شعره .. فقلت له هو القائل : إن المتنبى ليس له مبادىء ولا أخلاق ! فقال : إن هذا رأى خاطىء ، ولكنه لايدخل فى مقياس شعره .. وسألته لماذا لم ينصف أدباء مصر المتنبى عدا العقاد والزيات . حتى طه حسين طعن فى نسب المتنبى تبعا لرأى محمد محمود شاكر ، بحجة واهية ، كون المتنبى لم يرث أباه ، فقال العقاد أنه من الظلم أن يهضم المتنبى شاعر العربية المفكر ومقاييس هؤلاء النقاد الخاطئه جنت على الأدب كثيراً فى كل العصور .. ثم قال : مارأيكم فيمن يصف بشاراً بثقل الدم .. إن بشاراً دمه « شربات » وأحاديث العقاد لاتخلو من النكت والسخرية .. وهو يتحدث عن الأشياء حديث العالم الفقيه .

ثم يمضى يقول : إنه لم يرث أباه إلا ببضعة أبيات ، وقد نسيها ، وعدم رثاء المتنبى لأبيه ليس دليلا على الطعن فى نسبه . وسأله بعضهم عن سر إحساس إنسان برغبة غيره .. وقد تكون بينهم مسافة قد تزيد عن ألف كيلو متر .. فقال الرجل العالم : إن السر يرجع إلى المخ ، ومدى استعداده لاستقبال مايرسله المخ الذى يخاطبه وربما الرد عليه .. وهذه المزية لاتكون عند كل الناس ، ثم ضرب لذلك مثلا .. بالراديو ، وهو جهاز مكون من أدوات يأتى بالكلام من آلاف الأميال .. وقال إن عقل الانسان أقوى من الراديو وأكثر استعداداً ، والراديو إذا لم تستعمل مفاتيحه وتسير مؤشره لاتسمع أية محطة ، وكذلك المخ .. يحتاج إلى تشغيل وتوجيه وتركيز بعد الاستعداد . وتحدث العقاد ، فقال ، إن ماتوقعه عن الحرب العالمية الثانية وعن هتلر وموسولينى قد وقع .. وأكد أنه لايدعى بعلم الغيب . ثم قال أن مشكلة برلين لن توجد حربا .. والدليل أن خروشوف توجه إلى شواطىء البحر الأسود لقضاء أيام أجازته القصيرة هناك .

وعند العقاد قوة ظاهرة فى نفسه وعقله ، فهو قد ظل ساعتين ونصفا يتحدث من غير انقطاع ، يسأل فى شتى العلوم والفنون والآداب ، ويرد على كل سؤال من غير أن يحضر الرد ، أو يفكر حتى مجرد التفكير فيه ، وإنما يرد على أى سؤال بمجرد أن ينتهى السائل فوراً .

ورأيت أن بعض الحاضرين أحضر معه أوراقاً يدونون فيها الفوائد التى ينطق بها العقاد .. فى أثناء رده على اسئلة الحاضرين لأن هذه الفوائد تستند إلى حقائق علمية ذات دلائل قوية ، فهم يرصدونها ليستفيدوا منها . وتركنا العقل الكبير المفكر ، حين أعلنت الساعة الثانية عشرة لنعود إليه فى يوم الجمعة المقبل إن شاء الله .. نسمع ونتزود بعلمه وأدبه الغزيرين ..

من أحاديث الحيــاة

* تابعت ندوة الأسبوع ، التى قدمها الأخ سليمان العيسى ، مساء الثلاثاء ١٤٠٠/١٢/١٣هـ و ٢٠ منه ١٤٠٠هـ فى التلفاز .. عن التعليم الجامعى ، والابتعاث للدراسات العليا والانتساب ، وما للمدرس الجامعى السعودى ، وما عليه ، اشترك فيها الدكتور عبد الله التركى .. مدير جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، والدكتور حمود البدر ، وكيل جامعة الرياض ، والشيخ محمد عبد الله عرفه ، عميد كلية العلوم الاجتماعية .. بجامعة الامام .

ودار الحوار وتشعب ، وتناول خريجى الثانوية العامة .. ومستواهم والطالب الجامعى ، وأن الباب مفتوح أمامه .. طوال فترة الخطة الثالثة للتنمية ، كما نوقش ـ أن الاتجاه السائد ، بأن يلتحق كل خريجى الثانوية العامة بالجامعة .. وضع غير سليم وغير صحيح ، ذلك أنه ينبغى التوجه إلى المعاهد الفنية ، فنحن أحوج إلى الفنيين منا إلى الموظفين الذين تقذف بهم الجامعات ، وحتى الفنيين المحدودى العدد ، فانهم إذا تخرجوا نجد بعضهم أو أكثرهم لايمارسون تخصصاتهم ، وانما ينصرفون إلى وظائف أخرى أو أعمال حرة . ولمس الحوار .. دور التعليم العالى ولمن يكون ، بل أن أحد المحاورين ، قال : أنه للنابغين ، وأرى أن الأمور لاتسير على هذا النحو .

فى الواقع ، أن التحويلة .. تتطلب جهوداً وعملا متصلا ، لكى توجه الطالب إلى المعاهد الفنية ، ينبغى أن يكون هناك مغريات مادية ، وأن تتعادل الشهادة الجامعية والمتوسطة (مثلا) وشهادة المعهد الفنى وأن يكون مرتب خريج المعهد أكثر من خريج الجامعة .. وفق كادر معين . ذلك أننا فى حاجة ملحة إلى المهارات المهنية .. وأننا نرى الكهربائى والسباك والميكانيكى والسمكرى والنجار الخ .. يحصلون على دخل شهرى .. يعادل المرتبة الممتازة فى كادر الوظائف .

وإلى جانب الحوافز المادية وتعديل جدولة الوظائف الفنية فى الكادر ، لابد من بث التوعية من وقت مبكر ، والعبء الأكبر فى ذلك على وزارة المعارف .

وينبغى أن ينظر فى جداول المواد الأسبوعية ، فلايمتص المقرر كل الوقت ، إنما ينبغى أن يكون ثمة فترات للتوعية ، إسلامياً وحضارياً وسلوكاً وواجبات ، اخلاقاً وذوقاً ، يجب أن يغرس الذوق فى نفوس التلاميذ ، وأن يقال لهم هذا عيب وهذا مسموح ، وهذا مباح وهذا حرام ، وإذا قصر البيت ، فينبغى الا تقصر المدرسة تبعاً له . المدرسة .. ليست تلقين دروس ، ليعبر الطالب بها إلى النجاح وهو أشبه بالببغاء ، مسئولية .. وزارة المعارف عريضة ، وتحتاج إلى خطة .. كى تؤديها كما ينبغى ، والا ظل التعليم راكداً جامداً ، لايؤدى مايراد له ومنه كما يجب .

وحمل الدكتور عبد الله التركى المجتمع مسئولية التعليم الفنى ، وأريد أن أسأل : من هو المجتمع ؟ .. أهو البيت ، فالبيت ليس فيه وعـى ، والشارع .. نعرف مستواه . إذن لم يبق إلا الأساس فى التعليم . وقد كتبت أكثر من مرة ، بأنه يجب الاهتمام بالأساس فى التعليم الابتدائى والاعدادى ، حتى أنى قلت : أنه ينبغى أن يوضع دكاترة .. فى هذه المراحل الأولية ، فى التربية وعلم النفس والاجتماع ، ليخططوا ويبنوا أساسات متينة ينهض عليها البنيان ، أما أن تكون الأساسات رخوة مريضة ، فلايرجى بعد ذلك قوة فى مراحل ثانوية أو حتى جامعية .. إلا ندر ، يرجع إلى النبوغ والجهود الفردية وبعض الدوافع .

دعونا نلق نظرة على التعليم الجامعى ، وسبل الالتحاق بالجامعة ، ونظام الساعات ، وطرائق التسجيل والارشاد الاكاديمى والجو الجامعى الخ ..

المرحلة الثانوية ، وعلى الأخص السنة الأخيرة منها ، لاتهيىء الطالب للجامعة ، وإنما هو يدرس منهجاً علمياً وأدبياً ، أو من هذا وذاك ، فاذا تخرج فيها اتجه إلى الجامعة ، وهو لايعرف عنها شيئاً ، إلا أنها جامعة ربما فى نظره .. لاتختلف عن كونها مرحلة ما بعد الثانوية العامة .

فاذا جاء إلى الجامعة ، وجد دنيا أخرى .. غريبة عليه ، يختلف دورها عن دور الابتدائية والاعدادية والثانوية .. التى مر بها .

وأول عقبة يصدم بها الطالب ، وضعية نظام التسجيل فى جامعاتنا .. باستثناء جامعة البترول .. فالنظام الأمثل والمريح للطالب الغريب عن هذا المناخ .. أن تتجمع كل الأجهزة التى يمر بها الطالب فى أثناء التسجيل ، أن

تتجمع فى قاعة واحدة .. متجاورة فترة أيام التسجيل .. وبذلك يوفر على الطالب تلك الدوامة التى يدور فيها ، صاعداً إدارة وهابطاً من أخرى ، فى جو قاس من شدة القيظ ، وقد لايجد الموظف المختص ، و (يتلطع) انتظاراً ، أو يذهب لجهة أخرى ، إذا لم تكن الطلبات متسلسلة ، والا عليه ، أن يرابط أمام من لايجده من الموظفين ، حتى يعود .

أما تجمع الأجهزة المختصة بمتطلبات الجامعة .. وقت التسجيل فى ساحة واحدة ، فانها بجانب أنها تخدم الطالب ولاترهقه وهو طارىء على هذا المناخ ، تلفه دهشة الغربة ، فان الموظف .. لايستطيع أن يهرب ، لأنه مراقب ، وعادة مايكون موظفان .. فى كل قسم ، حتى إذا غاب واحد وجد آخر . وهذا النظام تعرفه جامعاتنا ، ولكنها لاتتعامل به . وهى قد أخذت بنظام الساعات الأمريكى . والأصل فى ذلك .. أن تأخذ بهذا النظام ككل ، فهو نظام متتابع الحلقات ، لاتتحقق جدواه بأخذ بعضه .. وترك بعضه الآخر ، لذلك فان وضع التسجيل الذى يجرى الآن .. غير سليم .

أثير فى الشهر الماضى ، قضية المعدل التراكمى ، وفصل .. بعض الطلبة من جامعة الملك عبد العزيز ، وهم الذين جاءوا بأقل من (معدل تراكمى ٢) .

وفى نظام الساعات ، نجد الجامعات الحديثة الآخذة بهذا النظام ، حين تستقبل طلبتها الجدد .. تضعهم فى أطار نظام حده الأقصى فترتان دراسيتان ، وهو مايعرف بــ (سمسترين) فاذا جاء بأقل من معدل تراكمى ٢ ، يعطى انذاراً للمرة الأولى ، وفى الفصل الثانى إذا تكررت نسبة ضعفه ، بمعنى أنه أتى بأقل من المعدل التراكمى ٢ ، يعطى أنذاراً آخر ، فاذا لم يرتفع مستواه فيصبح غير صالح .. لأن يكون طالب جامعة فيفصل ، ليبحث لنفسه .. عن مناخ آخر يصلح فيه ، كصناعى أو حرفى أو عمل حر ، ولايصبح عبئاً على الجامعة ، وأنى اقترح أن يوضع الطالب فى الجامعات السعودية فى أطار (طالب خاص) ، فى مرحلة التكيف مع المناخ الجامعى ، وحين يثبت جدارته وتقدمه ، فانه ينقل تلقائياً .. خلال السمستر الأول أو الثانى .. إلى طالب منتظم ..

ولو أخذت جامعاتنا بهذا المسلك ، لكانت اراحت وارتاحت ، وخلصت من هذا الارتباك .. فى قبول طلبة ضعاف .. ليس لديهم القدرة .. على التعليم الجامعى ، وصفت أقسامها وكلياتها منهم ، وبقى الجديـرون بالتعليـم

والمستحقون له .

والارشاد الاكاديمى .. أهم نقطة فى نظـام الساعـات ، فالمدرس الجامعى .. يسجل له مائة طالب ، وقبل أن يختار الطالب المواد ، ينبغى أن يستشير أستاذه ، ليرشده على مايقدم من مواد ومايؤخر ، وبذلك .. فلا يرتبك الطالب بمواجهة الأصعب ، على حين أن له الاختيار ، ويمكن أن يتدرج .. من غير ارهاق ولا اضطراب ، إذا اتبع نصح وارشاد مدرسه .. الذى يرعاه ويتبع خطواته وتحصيله العلمى .

هناك نقطة أخرى .. فى نظام التسجيل ، فلو اتبع النظام الذى أشرت إليه ، ووقف الطلاب .. فى صف متتابع ، لحصل الطالب .. على المادة التى يحتاج إليها قبل نفادها حيث أن الوضع الآن هو أن يأخذ الطالب الذى لايحتاج إليها قبل غيره .

ونأتى بعد ذلك .. إلى الجو الجامعى الداخلى ، فنجده فراغاً .. فى فراغ . فالطالب الذى يحضر (مثلا) محاضرة الساعة الثامنة وعنده أخرى فى الثانية عشرة ، يجد أن أمامه فراغاً .. ثلاث ساعات . وفى الجامعة لايجد حتى كرسياً يقعد عليه ، فهل يظل يتسكع .. فى أروقة الجامعة أم يذهب ؟ وإذا غادر الجامعة .. قد لايعود ، لعناء المشوار وطوله .

فماذا أعدت عمادة شئون الطالب لملء الفراغ ؟

قد يقال أن أمام الطالب مكتبة الجامعة ، والمكتبة .. ليست كل شىء ولا فى كل وقت .. يتوجه إليها الطالب ، وانما هو فى هذا الفراغ من الوقت .. يحتاج إلى مرافق وجوانب يقضى فيها وقته .. فى هدوء ، يتسلى ، ويشغل فراغه .. فى مناخ نفسى مريح ، فهل فى جامعاتنا شىء من هذا ؟ أكبر الظن .. أنه لايوجد شىء ، فكيف نهيىء الجو الجامعى الملائم .. بامكانات متواضعة وجيدة ؟ ماذا عند عمادة شئون الطالب من رؤية .. لايجاد هذا الجو ؟ وماذا فعلت حياله ؟ هل الامكانات قاصرة .. من بشرية ومادية ؟ وكيف نحقق نجاح تعليم أساسى للمستقبل ، وبعض المرافق .. ناقصة ، أو مشلولة ؟

هذه خواطر .. أوحت بها ندوة التلفاز عن التعليم الجامعى ، وكذلك قضية الطلبة .. الذين فصلوا من الجامعة ، لأنهم لم يحققوا تقدماً فى دراساتهم .

وفى حديث آخر إن شاء الله .. سوف أتحدث عن الابتعاث للدراسات العليا ، ومايبنبغى له من تخطيط ، ومتابعة ، وهو موضوع .. جد مهم ، لأن مستقبل الجامعة أية جامعة .. فى الابتعاث للدراسات العليا .

ان احدى المشاكل .. التى تواجه الطالب والطالبة ، نقص الكتاب الجامعى ، كأن يكون أحد أساتذة الجامعة قرر كتابه للدراسة ، ثم انتهى المدرس وغادر البلاد ، ولم يقرر بديل لكتاب ذلك الاستاذ ، ثم يقال للطالب والطالبة ، أحضر ذلك الكتاب ، السؤال : ومن أين ؟ وكيف ؟

أرجو أن تعالج الجامعة هذه القضية بأن تختزن كمية من الكتب التى لابدائل لها ، وتبيعها على الطلبة ، والا تطالبهم بمستحيل ، ولاترهقهم من امرهم عسراً . والمثل يقول : إذا أردت أن تطاع .. فسل مايستطاع .

وفى تصورى ، أن قضية الكتاب الجامعى .. لاتحل إلا إذا باشرت مطابع الجامعة طبع الكتب الأساسية ، والتى تعتمدها الجامعة وتهتم بها ، ففى ذلك ضمان لوفرة الكتاب الجامعى ، وبأقل تكاليف ممكنة ، وتزول الشكوى .. التى توشك أن تكون مزمنة ، والمهم اراحة الطالب من هذا الجانب ، ولايشغل باله به ويقلقه .

مع الزيات

لا أدرى من أين علم الأستاذ عبد الحميد مشخص بوفاة الأستاذ « أحمد حسن الزيات » رئيس تحرير مجلة الأزهر حاليا .. وصاحب مجلة الرسالة المحتجبة .. التى كانت مدرسة مدة عشرين عاماً وهو يذكر فى كلمته أنه قرأ لصالح جودت خبر الوفاة .. والتقيت بمن أعرف فى جراند هوتيل فقالوا لى إنهم لم يقرأوا عن ذلك شيئاً .. وكان فى نفس عدد الرائد « ٧٣ » الذى نشر فيه الأخ عبد الحميد رثاءه الشامل الوافى قصيدة لأستاذنا محمود عارف الوفى للأدب والأدباء ولاسيما العمالقة منهم الذين خدموا الأدب والعلم .. قصيدة رصينة ، كعادته يسارع إلى المشاركة فى السراء والضراء .. بدافع الوفاء والود .. لأنه فطر على أمثال هذه الخصال الكريمة .. وتتبعت الجرائد اليومية وصفحات الأدب فلم أقرأ كلمة واحدة ... وفاء لحق الرجل .. وقلت لنفسى .. رغم أن النصيب الكبير من أدب اليوم هو للشباب .. فلا أعتقد أن الجحود بلغ بهم إلى هذا الحد .. فلايذكرون فضل الرجل وخدماته فى مجلته الثرة .. ثم إن كثيراً من الأدباء أنصار الرسالة مايزالون على قيد الحياة ، وكثير منهم يكتب . كالعقاد والمعداوى وعباس خضر وعلى الطنطاوى وأنور العطار وكثير مثلهم .. ليس من المعقول أن ينكروا نصيب الرجل الأديب .. وانتظرت على مضض صدور عدد مجلة الأزهر لربيع الأول . ومنها سأعلم .. وعلى الأقل رفع اسمه من رئاسة التحرير . وتأخر عدد المجلة . وفتشت فى دليل التليفون عن رقم مجلة الأزهر فلم أجده ، ثم فتشت عن تليفون باسم الأستاذ الزيات فوجدته .. فسألت عنه فى منزله ، فقيل لى أنه لايأتى إلا فى الساعة الثانية بعد الظهر .. ولم تصدق أذنى ماسمعت ثم سألت الاستعلامات عن رقم تليفون مجلة الأزهر فعرفته .. فناديت عليه .. فرد على إنسان آخر وأجابنى أنه سيوصلنى بالاستاذ الزيات .. وكانت حجتى أننى أحتاج إلى مجموعات للرسالة .. ولكن لم أكلم الزيات لانفصال الخط ، وفى اليوم الثانى ناديت على المجلة ، فرد على الزيات بنفسه ، وكان

الصوت الذى كنت أسمعه فى المذياع .. هادئاً رزيناً .. واتفقنا على أن أزوره فى إدارة المجلة بالأزهر يوم السبت ١٣٨١/٣/٨ وكان الحديث يوم الخميس ١٣٨١/٣/٦ ، وفى يوم الخميس نفسه جاءنى الرائد وفى العدد « ٧٤ » رثاء من الدكتور عارف قياسة للرجل ، واتفقت مع صديقى الأستاذ الربيع لزيارة الزيات ، ومضينا إليه مع صديق ثالث هو الأستاذ عبد الرحمن من المدينة تخرج هذا العام فى كلية العلوم . والتقينا بالزيات فى مكتبه بادارة الأزهر .. وحين عرف أننى رئيس تحرير الرائد قال أن الصحيفة تصله بانتظام ، حتى أنه نقل فى عدد ربيع الأول ١٣٨١ مقالا نشر فى الرائد بقلم الدكتور عارف قياسة عن ديوان نزار قبانى « حبيبتى » . غير أن الأعداد التى بها رثاء الرجل لم تصله . ولم نستطع أن نفاتحه فى الموضوع . فما هو الحل إذا ماقرأ مانشر عنه ؟ وقد طلبت إليه أن يكتب كلمة للرائد .. وقبل .. وأخشى حين أعود إليه أجد الرجل قد علم بما حدث ، وهو قد يسر بهذا التقدير ، وربما استاء .. قلنا للزيات : اننا سمعنا نبأ ازعجنا وهو مادفعنا الى زيارته ، وقدمت له عددا من صحيفة الرائد .. التى كان بها رثاؤه ، ولكنه لم يهتز او يصدم كما كنت اتصور ، وانما قال : انه لشىء جميل ان يسمع انسان راى الناس فيه ، على اعتبار انه انتقل الى الدار الاخرة ، ويسرنى ان اعرف راى ادبائكم فى ..

وكان هذا اللقاء من الأمانى التى كنت أحبها فقد تحقق منها فيما مضى مشاهدتى للدكتور طه حسين ، ثم تحقق كذلك مقابلتى للأستاذ الزيات ولولا النبأ المزعج عن وفاة الرجل لما أتيح لى ملاقاته ، فالمشاغل والانصراف إليها يحول بينى وبين السعى إلى هؤلاء الأعلام ، يضاف إلى ذلك تقدير ظروفهم ومشاغلهم الجمة . ولعل إكبارى لهذين الرجلين وسواهما يرجع إلى حبهم وتقديرهم ، ومصدر هذا وذاك التأثر بما قرأت وسمعت . ولعل الفرصة التى هيأت لى المشاركة فى حضور ندوة العقاد الأسبوعية كان لها أثرها البالغ فى نفسى ! فأنا لا أقرأ للرجل كثيراً ، ولكنى حين استمعت إليه وهو يتحدث فى العلوم والآداب والفنون ، وكل الأشياء التى يسأل عنها أكبرت الرجل .. يضاف إلى اكبارى له عن بعد . قلت للأستاذ الزيات : اننى حين هممت لزيارتك ، وعلم صديقى الأستاذ عبد العزيز الربيع بهذه الرغبة أكد رغبته فى مشاركتى هذه الزيارة : وقال أن الأستاذ الزيات من البقية الباقية التى حملت لواء الأدب

وأدت أكبر رسالة فيه ..سألت الزيات عن الشعر الجديد فقال أن من شروط الشعر الموسيقى ، والشعر الحر يفقدها ، وسألته هل سينجح هذا الشعر ؟ فقال أن شعراً ليس له قواعد لايمكن أن يعمر أو ينجح ، وسألته عن الصعود إلى الكواكب فقال أن هذا من شأن العلماء .. أما الأدباء فقد صعدوا إلى هذه الكواكب من مئات السنين بخيالاتهم ، وسأل زميلى الأستاذ عبد الرحمن الأستاذ الزيات عما نسبه الأستاذ محمد محمود شاكر ونقل عنه الدكتور طه حسين الى المتنبى من الطعن فى نسبه بالقياس إلى أبيه ، وعلل ذلك أنه لم يرثه وإنما رثى أمه ، فرد الزيات بأن هذا الطعن لايصح ولاسيما فى المتنبى ونسبه ، وأن الطاعنين ليس لديهم الحجة القوية . وسألته أنا عن أحاديثه الأدبية ومقالاته الرائعة ذات الأسلوب السجعى السلس الجديد ، فقال أن الأمراض والشيخوخة حالا دون ذلك .. وإنه لم يعد يكتب الا افتتاحيات مجلة الأزهر التى يرأس تحريرها ، وقلت له : إننا عهدناك ولاسيما ونحن فى شهر مولد الرسول صلى الله عليه وسلم عهدناك تكتب بعنوان (على جبل النور) وغير ذلك من افتتاحيات الرسالة فى مثل هذه المناسبة .. فاعتذر الرجل بالمرض ، ولكنه قدم إلينا عدد ربيع الأول من مجلة الأزهر .. وكانت افتتاحية العدد – على بئر أريس – وهذه البئر فى المدينة المنورة أو هى بئر الخاتم كما تسمى هى فى قباء .. وهذه المقالة التى صدر بها الزيات مجلته ، كتبها خاصة للعدد الممتاز التى تزمع الزميله جريدة المدينة المنورة إخراجه بمناسبة مرور ربع قرن على إصدارها ، وحين نشره الزيات فى الأزهر ظن أن جريدة المدينة قد نشرته ، وقد أعجبتنى هذه المقالة فى مناسبتها وظروفها . وسألت الأديب الكبير عن نضوب الأدب فى عالمنا العربى ، فقال إن الأدب لايهيىء للناس معيشتهم ومتطلباتهم ، ولذلك فان الناس يسعون إلى سبل الحياة الكثيرة فقلت للرجل : إن الأدباء قبل خمسة عشر أو عشرين عاماً كانوا أحسن منهم اليوم ، فهل العلم يقضى على الأدب ؟ فأجاب بأن العلم يدفع الأدب وينميه كما كانت الحال قبل ألف عام .. حين كان ازدهار الأدب والعلم وكان رجال الدولة هم الأدباء أنفسهم كابن العميد وابن الزيات والصاحب وابن زيدون ، وكان الأدب هوايتهم وجمالهم ! ولعل المادة قد شغلت الناس اليوم لأن حياتهم تفرض عليهم الانشغال بما ينفعهم مادياً . حقاً إن الأدب اليوم لم يكن هواية وإنما أصبح احترافا ، وإذا

أصبح كذلك فهو كأى سلعة يعروها الهزال والتأخر .. سألت الزيات فقلت أن الناس لم يستطيعوا أن يكيفوا ظروف بعض أدبائكم الكبار كالعقاد وطه حسين والزيات ، هم يعرفون أن اداء الحج فريضة ، عليهم ويعرفون أن الرسول حذر المسلم المقتدر الذى لايؤدى هذه الفريضة ويعرفون الوعيد إزاء هذا التقصير فما هو التعليل ؟ فرد قائلا : أن بعضهم يحول بينه وبين الحج ظروف المرض أو عدم توفر المال أو الانشغال بالأعمال . فعلقت على ذلك بقولى : أعتقد أن السر هو تهويل الناس الذين يصورون أن الحج عسير بالقياس إلى شدة الحرارة .. لأنه يقع فى الصيف فى سنين كثيرة وعدم توفر الامكانيات ولذلك فان الأدباء الكبار يخافون على أنفسهم وهذا خطأ .. لأن الامكانيات متوفرة ولاسيما اليوم وسائل النقل بجميع أنواعها وأدوات التهوية وتلطيف الجو ثم إن الحرارة لم تبلغ الحد الذى صوره المهولون : فقال الرجل صحيح أن الناس يصورون الأراضى المقدسة فى الصيف تصويراً يخيف ، وأردف معلناً رغبته فى القيام بعمرة فى رجب المقبل ثم طلبت إليه أن يكتب إلى الرائد كلمة فوعد بذلك ، ولكنى لم أعقب معه ! خشية أن تكون أعداد الرائد التى بها رثاؤه قد وصلته ، وقد تفضل الصديق الربيع ليعقب وراء الكلمة التى وعد بها الأستاذ الزيات وعلمت من صاحب الرسالة أنه يزمع السفر إلى دمشق لحضور المهرجان الذى سيقام يوم ٢٣ من سبتمبر ١٩٦١ عن ذكرى الشاعر المفلق (البحترى) . وتحدثنا مع الأستاذ الزيات فى أكثر من موضوع ، تطرقنا إلى الضعف الكبير فى اللغة العربية عند خريجى كلية الآداب ، وقوة خريجى الأزهر . فرد بقوله أن ضعف خريجى كليات الآداب يرجع إلى المدرسين أنفسهم ، ومدرسو اللغة العربية حينما يصلون الى مستوى كبير ينتقلون إلى جهة أخرى أو يتقاعدون ، وأساتذة الأزهر أقوياء وفى الأزهر تدرس اللغة العربية وقواعدها وأصولها بتوسع وفى كلية الآداب تدرس اللغة العربية وآدابها وأعلنت للأديب الكبير حاجتى الى مجموعة الرسالة ، فأجاب بأن أعداد العشر سنين الأولى لاتوجد عنده وإنما يمكن أن تجمع من المكتبات .. وتفضل مشكوراً بالتبرع بمجموعات العشر سنين الأخيرة للرائد .

وتركنا الرجل فى مكتبه بعد أن قضينا معه حوالى الساعة من الوقت ، والواقع أن الرجل قد كبر وثقل سمعه بخلاف الأستاذ العقاد ، فالعقاد أكبر من

الزيات سناً ، غير أن العقاد أنشط من الزيات بكثير ، فهل نستطيع أن نقول أن العزوبة حفظت للعقاد شبابه ، أو أن هذا مقياس غير علمى ؟

وصورة الزيات اليوم تشبه صورة الشاعر الكبير « أحمد شوقى » فى أواخر حياته ، وضعف بصر الزيات .. وقد قضى زهرة شبابه مناضلا فى الصحافة والأدب .

شاعر من مدينة النواعير

* أعتذر .. لرفيق النواعير ، يستمد منها ألحانه ، ومن ظلال نباتها الأخضر .. وطيرها المغردة ، وصفاء جوها وهناءة العيش هناك ، والشاعر .. يتغنى بالجمال ويلهو به ويشغله ، فيلهث خلفه ويفتش عنه .. فى كل مكان ، فى المدينة والقرية ، والسفر والحضر . لأنه شاعر ومن أنغام الشعر وألحانه التغنى بالحسن والهيام به ، وكثرة الحديث عنه واطراؤه ، لأنه ملهاة ، وكثير من الشعر ملهاة وكثير منه عبث مراهقة فى مختلف مراحل العمر .

تفضل صديقى الشاعر .. على دمر ، فأهدى إلى ديوانه .. قبل بضعة أشهر ، ولم أفرغ الى قراءته ، وإنما شغلت عنه ، وفى كل مرة .. ألمحه على مكتبى أو فى أحد رفوف مكتبتى مهيأ للحديث معى ، أشعر بحرج ، وأمسك به وأقول فى نفسى ، متى تكتب كلمات .. عن ديوان صاحبك ؟ وماذا سيقول عنك وهو قريب منك فى الجفر .. بمنطقة الاحساء ، هل شغلت عنه أم نسيته أم ذهب الوفاء ؟ وأضع الكتاب فى مكانه ، عسى .. أن تكون العودة إليه قريبة وتمضى الأيام ، ولكنى آخر الأمر اضطر .. الى أن أقول كلمة ، ليست دراسة وانما كلمة عابرة لمقابلة ذلك الوفاء ، وحتى لايظن صاحبى بى .. أننى نسيته ، وصرفتنى الأيام عنه ولم آبه بما ينبغى أن أعنى به وخاصة الشعر الذى يعتبره الشاعر قطعة منه لأنه تعبير عما فى نفسه واختلاجاتها ومعاناتها ، وانعكاس لكثير من صور الحياة والتأمل ، الذى .. يتحول إلى هذا التعبير ويرقى فى جودته ، بقدر الصدق والانفعال والموهبة ، ويهبط بقدر التكلف وخلو النفس من أدوات الابداع .

بينما أتحدث عن صديقى الأستاذ الشاعر – على دمر – أتذكر أياماً خلت ، كنا نلتقى فيها .. فى جدة ، كان صاحبى مدرساً .. فى أحدى مدارسها ،

وكنت أنا .. أصدر صحيفة الرائد وكانت لنا ندوات ، ولقاءات ادبية حافلة بالاحاديث الفكرية يشاركنا فيها اصدقاؤنا كتاب الرائد البارزين ، وكان الادب مزدهرا وناضجا وله صوت وصولة فى المعارك التى كانت تدور بين فرسانه والاقران .

كان الشاعر على دمر وأبو تراب والأستاذ عارف وأخرون .. مثل الأستاذ الرفاعى ، حين يأتى إلى جدة ، نلتقى ونتحدث ، وكان النقد حامياً بين الشاعر والشيخ أبى تراب وأحمد الذهب ، الخطاط الذى يتحرش ويثير الغبار النقدى ، وكنا نلهب تلك المعارك ، وكنا نحاول بعناية ألا ننشر تجريحاً ، فقد كبرنا .. عن المهاترات وأعمال الصغار وعبثهم الذى لم يتخل عنه حتى من تقدمت بهم السن .. إلى أرذل العمر .

ونفتقد اليوم هذا المناخ ، وكان الأدباء بالأمس يلتقون فى أنديتهم فى بيت احدهم يتذاكرون ويتندرون ، ويعرض أحدهم .. ماعنده على الأخر ، من آخر ماكتب ، ويستشير فى قصيدة أو مقطوعة أو حتى بيت من الشعر .. صاحبه ، ويخلص المستشار النصح إذا كان له رأى ، ويستمع الأديب أو الشاعر لرأى صديقه فى غير ماكبرياء ، ولا ـ انتقام ـ ويحفظ المستشار .. السر ، فلايمن على صاحبه ولايتعالى عليه ، ولايشيع فى الناس أنه نصح لفلان أو عدل عليه أو صحح له .

وأصبحنا اليوم لانلتقى ، وإذا التقينا فى مناسبة فان كلمات المجاملة والسؤال عن الصحة ، وترداد كلمات ـ أوحشتنا ـ ومشتاقين ، وهى لقاءات عابرات ، وإذا كان ثمة من سعة ، فالحديث .. عن الحياة وهمومها ومعاناتها ، وهذا الضجر .. الذى لاحد له ، وندر .. أن تسمع من أحدهم ، فيقول : الحمد لله على أكبر نعمة وهى الصحة بعد اليقين ، فلا الغنى راض ولا متوسط الحال راض ، ولا أحد قانع ، وانما .. هو القلق النفسى والخوف والحرص القاتل والشح النفسى ، خوف المرض وخوف الفقر وخوف .. الموت .

وذهبت أيام الصفاء والنقاء والسماحة والحب والتسامح ، وأصبح البغض والأثرة والترصد والحسد حتى الحقد ، فماذا يهمك أن تفتش عنه ؟

ولاتجد .. غير التشبث بالحياة الخادعة الزائلة ، فلاقناعة فى النفس ، ولا اطمئنان فى الصدر ، ولاراحة .. من الهموم التى يصنعها الانسان لنفسه ،

ويلف فيها ، كأنه خالد فى دار الفناء .

ذهبت بهجة الحياة .. فى هذا الصخب ، فلم يبق .. إلا القلق القاتل وسيطرة المال .. على النفوس ، والأهواء المراض ، والتبرم .. بكل شيء ، فلم يعد شيء جميلا فى نظر الناس ، حتى الجميل .. أصبح ممجوجاً ، لاقيمة له ولاتأثير ولامعنى . والحديث طويل لو مضيت فيه .

وماذا عن ديوان الشعر ؟

صفحات هذا الموضوع .. توشك أن تنفد ، وأرجو أن يكتبها أى كلمة – تنفد .. أخواننا المصححون ، بدال مهملة ، ذلك .. أنهم يخطئون ، ويضيفون إليها نقطة ، فيغيرون معناها .

معذرة لصديقى الشاعر على دمر ، فأنا .. لم أتحدث عن ديوانه بشيء ، بل أنى .. لم أذكر حتى اسمه ، وهو – اشراق الغروب – وهو شعر حى نابض .. بمعانى الحياة ، أتراحها وأفراحها وجمالها ، ومعانيها إذن .. إلى وقفة جديدة .. إن شاء الله مع ديوان الشاعر نستمع إلى دندنته مع أصداء نواعير – حماه – .. بلد الشاعر ، ومجاليها ، وهو .. يتغزل ويشكو من الهجر ، والصدود ، ويعلن إباءه يضعف فى شكواه مرة ويقوى أخرى ، ويحب ، ويزهد ويتبرم ، ويصور الحياة كما يراها وكما يلقاها ، وكما يريد أن تكون ، لو أتيح له ذلك فالى لقاء جديد[1] .

---

(١) لم تتح العودة الى ديوان الشاعر ، فتركته للايام .

الاسكندرية حديث سامر

أولئك الذين تسحرهم مدينة الاسكندرية ـ تلك المدينة الحالمة الوسنى فى أحضان ، أو بين ذراعى البحر الأبيض المتوسط ، وأحب هذا البلد .. فى فصل الشتاء كما يحبها بعضهم ، فيه أحلم مع الموج المتلاطم ، وأفرح .. بقطرات المطر تتساقط على البحر والشجر والأرض ، فتغسل .. ماعلق بهذا وذاك من أقذار البشر وآثامهم ، وتغسل كذلك الآلام .. التى تطفح أو تخفف منها ، ولكنها .. لاتستطيع إزالتها فالله وحده وبقدرته .. المتمثلة فى كل شىء ، تندمل الجراح ويذهب الحزن ويشيع الخير والبهجة .. فى النفوس ، فتسعد .. حين يذهب ألمها ، ويذهب عنها السوء .

وتحلو الأحلام مع ارتفاع الموج وهزيم الرعد ، وتساقط المطر ، وصفير الرياح وتلبد الغيوم ، وأتوق إلى الدفء ، وأتفقد وسائله ، وأفتش عنها ، وربما تسرب خلسة شىء من خوف فى هذا الجو .. المعتم .. الممتع ، ولكنى سرعان ما أشعر بالاطمئنان ، لأن وسائل الدفء متاحة ولأن متعة هذه الرؤى لايقاس عليها .

ولعل .. سر هذه الحفاوة بهذا المناخ ، ذلك الفضل الكبير .. من الله عز وجل ، وهو العافية التى لم يعط ابن آدم .. خيراً منها بعد اليقين ، كما يعلن ذلك .. الحديث النبوى الشريف .

قلت .. أن فى الاسكندرية سحراً ، ذلك .. ما أراه ، من أجل ذلك أحب هذا البلد وأشغف به ، ويجذبنى كلما دنوت منه لاسيما .. فى الشتاء ، فالجو مصدر هذا التعلق وكذلك خلو المدينة من كثير .. من البشر ، الذين يتزاحمون صيفاً على شواطئها ، فلاتجد فيها .. رغم طولها موضعاً لقدم .

ثم أن الصيف له تكاليفه ، من ذلك الزحام والتزاحم اللذان لايطاقان ، فيفقد الانسان الاستمتاع .. باجتلاء مفاتن الطبيعة الرائعة . ثم الشتاء .. أكثر حنـــوا وأكثر حنـــانا وأكثر ملاءمة .. للتأمل فى تلك اللوحات فى الأفق . الشمس مع السحب ، والبحر .. والقمر ، والنجوم الخافتة البريق ، كأن بها خفراً ، والبحر فى الليل وفى النهار ، ومع مطلع الفجر والشمس .

أشياء .. تبهر النفس ، التى يتاح لها .. أن تتأمل ، وأن تعمق التصور فى هذه اللوحات ، فتنطبع فيها الوانها وخطوطها المتشابكة ، تستشف هذه الرؤى وتحفل بها وتطرب ، وتزهى بها ، حفية حفيلة ، لاتريد أن تذهب عنها ولا أن تفارقها ، ولاتنصرف عنها ولاتشغل إلا بها ، وتود أن يطول المقام فى حديث هامس .

هذه الصورة الخلابة باقية لا تتحول ولا تذوب ولا تنصهر بحمى الصيف ولفح الهجير وصخب البشر وعناء التزاحم وسعار الجشع والطمع اللذين يفسدان متعة التأمل وجمال الرؤية واجتلاء تلك الصور البديعة التى أبدعتها .. قدرة ماهرة صناعة ، فهى من صنع الله الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

وكنت .. كلما أتيح لى أن أذهب .. إلى هذه المدينة ، أبث وجدى إلى صديقى فضيلة الشيخ اسماعيل حمدى الاسكندرانى ، فتجد كلماتى .. عنده .. استحساناً ، لأنها ثناء على بلد هو منه ، وينتسب إليه .

وما أسرع .. مايعلن إلى .. حين يسمع .. أننى أستعجل السفر لجهة ما ، فيقول الست تحب هذا البلد ؟ فأقول : بلى ! .. فيرد ، ولماذا .. لاتبقى معنا أياماً ، لتبث المدينة .. التى أحببت وجدك وتطفىء شوقك ، وتبل صدى نفسك ، ذلك .. أنك تشتاق .. إذا بعدت عنها ، وتتوق إلى وقفة على الشاطىء الجميل ، وتحلم .. وأنت تتوسد موجه ، أو تسمع إلى سيمفونياته مع هدأة الليل ومغيب البدر ، أو وهو يرقبك فى ذلك النجاء الذى تخفيه ولاتبثه .. إلا لصاحبك ، كأن بينك وبينه .. صداقة طويلة الأمد ، وكأنك تجد .. فى هذا اللقاء ، تفريغاً .. لما تجد فى نفسك .. من العناء وهموم الحياة ، وأنت حريص .. على هذا التردد الى هذه الرفعة المحببة إليك ، لاتريد .. أن تفترق .. وصاحبك الذى أحببت .

أقول .. فى نفسى نعم ! ولعلى أتمتم سراً ، بأن الانسان .. متى ظفر .. بما يحب لايريد أن يتحول ولايشغل بغيره ، وانما يريد .. لو أتيح له أن ينحبس الوقت فلا يمضى ، وأن يتوقف الزمن ولذلك نجد شاعر الجندول .. يردد :

ليت هذا الليل لايطلع فجره

والشاعر ، لايريد الحياة سرمدا فى ليل إلى يوم القيامة ، إذن لاحتاج إلى نهار وضياء ، ولكنه يريد أن يطول ليله .

وهكذا .. ذوو الشوق جزعون ، يخشون ذوبان الزمن ، وهم يحلمون أو يلتقون .. مع من يحبون ، ويتمنون .. ألا ينقضى الوقت وهم .. فى لحظات السعادة الغامرة ، رغم أن نعيم الدنيا زائل ، ومتاعها قليل ولكنها الحياة بلهوها ولعبها وزينتها والانسان يأخذ منها مايحتاج له ، وبقدر .. امتداد يده ، وقدرته إلا أن يتعفف .

ولعل وهم الانسان وجشعه وجزعه ، لعل هذه الحواس والدوافع تريه أو تشعره ، أن لحظات سعادته أو فرحه ، وسروره .. قصار ، وهى كذلك .. إذا قيست بالزمن ومافيه من أحزان وأتراح وعناء وكبد . ولكن الخوف والحرص ، يجعل لحظات .. الانغماس فى المتعة أو التعايش معها .. لحظات عابرة ، وربما لايحس المرء فى غمرة النشوة والاغتباط .. بعمق سعادته أو رضاه .. كما ينبغى ، ولحظاته .. تذهب سراعا ، ثم يلتفت فلايجد شيئاً ، ويستيقظ وكأنه .. كان فى حلم معسول ، ثم تنبه منه ، أو كان سابحاً .. فى خيال ثم صحا .. على واقع لامحيد عنه ولا مفر منه .

تلك .. هى الحياة على حقيقتها ، شئنا أم أبينا . وقد صور متاعها واغتنام الفرص فيها الشعراء والأدباء ، وأوصوا .. ألا تفلت لحظات السعادة من المرء دون اغتنامها ودون انتهازها . واستمعوا إلى — ابن زيدون — فى سينيته المشهورة ، التى قالها فى السجن :

واغتنم صفو الليالى إنما العيش اختلاس

ولعل الحرمان أملى عليه .. هذا الحرص ، وربما فقد الشىء .. يؤدى إلى البحث .. والتخيل ، والذهاب بعيداً وإلى ماهو خير من الحال الحاضرة ، وهى

حرمان وعقاب ، وآلام وكرب واهدار للكرامة واذلال لها :

أعود .. إلى هذه المدينة ، ملهمة الشعراء والعباقرة ومنتدى الحالمين والسباحين فى بحار الخيال ، مع بحرها اللجى ، نحو لجيه وصفائه وبهاء ذلك الأفق الغائم ، وهو أكثر جمالا منه .. فى صفائه ، وإنما الصفاء فى تلك السحب .. الداكنة ، التى تحمل الخير والنماء ، وتوحى بالحب واستشعار البرد ، والتفكير .. فى الدفء ، لتكون بعد ذلك الأحلام وحبات المطر – تطقطق – على النافذة ، كأنها طارق مهذب ، عالى الحساسية يملأ نفسه الأدب ، فهو رفيق حتى فى لمس النافذة برؤوس الأصابع ، لايريد إزعاجاً ، ولا .. أن يكون ثقيلا لايطاق ، إذا .. ارتكب بعض الأخطاء التى كثيراً مايعبث بها الناس كأنهم سعداء بها وكأنها مصدر قوى أو فخر لأنها .. تزعج الآخرين ، وفى ذلك بعض المتع وهى كذلك إذا انعدم الذوق وقل الحياء وفسدت الأخلاق .

وتعلق بالزجاج حبات الماء ، والجو .. رمادى ، تطوقه غلالات شفافة . انه الحلم .. بين غيماته وتدثر نجومه واختفاء بدره ، إلا من أشعة خفيفة تعلن انه يرقب ، ولكن .. فى خفاء وأدب وعلو خلق ، لأنه جميل ، ومن صفاته .. الخلق الدمث والأدب .. العالى ، وجمال المسلك ، فهو أنيس ، ومن طباعه أن يكون لطيفاً رقيقاً مهذباً ، رفيقاً ، ناعماً .

أنا .. بين لوحات غيمة ونجوم وبدر ، تداخلت فى بعضها بعضا ، تتوشح اودية وفروعا كانهار الليل ، وتتجاذب ، وتتعانق .. فى حنـــــــان ، مضمخة بشذى فواح ، تسحرنا وتنشينا ، والبدر .. وسط هذا الأفق كعاشق ولهان جمع الحسن أو هكذا فنغبطه ، وربما نحسده .. فكيف بنفوسنا التى تستشف .. هذه الملامح الجميلة فى حركة أحاسيس ، وصفاء روح وجوارح تختزن التأمل ، وتضطرب إذا فرحت وإذا حزنت وتتعلق بالآمال ، وتزهو .. حين تجد حولها .. هذه الآفاق الساحرة الجذابة الوادعة ليست نافرة ولا شاذة وإنما هى قد ألفت السكون إلا من حركات ، مايولج من نهار فى ليل وليل فى نهار ، والتقاء موج .. بشاطىء ووصول سفينة إلى مرساها ، وعود غريب وشوق محب ونشوة نفس ولهى بين الأغصان ، تتأمل وتدندن حولها ، وهى .. فى شبه ذهول ، لأنها سابحة .

واختفاء شمس ، وظهور سحب بالظلام وغمرات النجوم فيه ، تؤنس وتداعب ، وتضيء وهى سمير الوحيد الذى شط به المزار ، وهجر جفونه الكرى ، وغاص فى بحر من التفكير والحيرة ، ذلك أنه قلق وخائف ومع ذلك فلاتفارقه آماله ولاتنسلخ عنه ، ولايريد أن تفارقه ، لأنها أحلامه ومنبع طموحه ومجتلى تطلعاته ، وما يحلم .. أن يكون له ويكون فيه .

على شيء .. من هذا النحو ، كنت أقف .. على شاطيء الأسكندرية وفى شرفة الفندق ونافذة حجرتى ، ومن خلف زجاج المطعم فى الفندق الجميل ، فى ستانلى ، وهو سان جيوفانى — فكان هذا السبح الخيالى ، ولم أستيقظ منه إلا ساعة ركبت القطار قافلا .. إلى القاهرة ، فكنت أتلفت من النافذة كأنى أودع عزيزاً تركته خلفى ، وأنا حزين لفراقه وكنت أود — وماتعنى الودادة لو أنى لم أتركه ، وانما يطول مكثى معه وبجانبه ، فقد أنست به وأحببته ، ولاأريد فراقه ، لو كان لى شيء .. من خيار ، وأنى لنا الخيار فى ذلك ، والحياة .. كما نعلم ؟ ولعل حركة التغيير ، هى .. هذه الانفعالات التى تعتمل ، وتتحول .. بعد ذلك إلى تعبير ، وامتزاج مشاعر ووقد شوق واهتزاز مشاعر ، وشحنات فى النفس تنطلق حينما يكون هذا الفراغ ، ونترك ما ألفنا وما تعلقنا به وانسجمنا ، وتلاءم مع نفوسنا وأمزجتنا وقتاً ، لعله .. لو طال . لأصبح العكس ، أو على الأقل الفتور الذى قد يفضى إلى الاملال ذلك أنه من طبع الانسان ، أنه يضيق وأنه يحب التغيير ، ويحب التجديد والانتقال ، وهى أشياء مركبة فيه .

وأنا لا أشغل نفسى .. بالقراءة وأنا فى القطار ، وانما أتأمل الخضرة إذا كان الوقت نهاراً ، وأنا أوثر السفر .. فى الضياء وقت العمل والسعى والمعاش ، ذلك .. أن الليل للسكون أما النهار .. فمبصر .

تركت الأسكندرية ، وركبت القطار وأنا أتلفت .. إلى الوراء ، كأنى نسيت شيئاً أو تركت عزيزاً ، لا أريد .. أن أبعد عنه وأتركه ، ولكن .. ماحيلتى وهذا ديدن الحياة ، ولا خيار لنا .. فى كثير من شئونها وإلا لما استطعنا .. أن نحقق مانريد ، ولا أن نصل إلى مانريد حتى فى مجال الخيار ، فالأشياء .. بحساب ، عملا وحياة وأسفاراً واقامة ، وهكذا نحن نضطرب فيما .. نحن فيه بقدر . فسبحان مقدر الأشياء القادر على كل شيء .

فى فينيسيا

يومان وثلاث ليال ، مضت وأنا فى مدينة الاحلام ، وهنيئا للحالمين الذين لا يفيقهم هم الحياة ومللها وغربة الروح فيها ، وهى أقسى من غربة البدن وحنين النفس .. الى لقاء من تحب .

هذا الشوق وهذا الحنين .. ينطفان ، أثر طى المسافات ، والعبور .. من المطار الى البيت وبعد ساعات من اللقاء والحديث ، غير أن غربة الروح .. حزن وألم ، وعناء داخلى وصولا الى السأم والملل ، والضيق بالحياة ، رغم غياب سقم البدن .

وتشعر النفس بغربة الروح ، حين تحس بالفراغ ، وتتأمل ما حولها وفى النهاية . والاجدوى من هذه الحياة ، ولا من الاقتتال فيها والحرب العوان ، من أجل لقمة العيش ومن أجل البقاء .

أى بقاء هذا ؟

إنه الى زوال ، ويسبق ذلك .. عناء وسقم وحاجة وانقطاع ، ويسأم منك .. أقرب الناس اليك ، ويتمنون رحيلك ليرتاحوا ، وربما وجدت شيئا من عناية اذا كنت كريما ، وكان بيدك ما يوفر لك شيئا من حماية ، ويعطيك نسبة من الخدمة ، وأنت تجود .. بما عندك على من حولك .

مجرد تصور هذه النهاية ، او هذا التقلب المفاجىء ، وهو شىء حتمى ، لان السير فى الطريق .. يؤدى الى النهاية ، ذلك ان لها بداية .

مسألة آتية ، ليس فيها مراء ، وربما تأتى فجأة ، والانسان غير مستعد لهذه المفاجأة ، ولكن الانسان لا يملك شيئا من خيار ، فيؤجل التوقيت ، فيأتى القدر .. الذى يحدد الساعة التى خفيت على الانسان ، وفى ذلك حكمة ، قد نلم ببعضها ونجهل شيئا آخر .

ولعل من النسيان ما هو نعمة ، نسيان الاوهام والهموم والاحزان

والآلام .. التى تمر ومع ذلك ، يصحو الانسان .. فجأة ، ويفيق ربما بانذار ، وربما بغيره ، فيحس بالهوة التى تنتظره وترعد فرائسه .. فى داخله ، وربما تغير وجهه وخاف ، ولكنه يخفى ما يحس ، وما يرى فى داخله .

وينشغل اذا لم يتشاغل ، حتى يدخل فى الدوامة فتلفه ، وهكذا .. دواليك

لست أدرى ، ما الذى حولنى وأنا أحاول .. أن افتح صفحة للبندقية ، أسبح مع حروفها ، وأسهر مع بدر هذه المدينة الساحرة .. الفاتنة ، بعد منتصف الليل فى زورق يمخر فى « هينة » .. عباب القنال .. نشوان يميد ، كانه ثمل من هذا السحر .. الذى يسبح فيه ، البحر والنجوم والبدر ، والاضواء .. على حوافى القنال ، يعكسها انسياب الموجة الزاحفة ، نحو الاعتاب المطلة ، كانها تنشد الراحة من هذا الذى يزعج سكونها وتأملها ، وانسجامها مع نسمة ، تداعب ترقرقها ، وتهمس بالهوى اليها ، وتعانقها فى صمت ، لا يصل اليه .. الا الغرقى فى بحر الاحلام ، بمشاعر يلهبها الحنين من فرط احساسها ، الى أداء وقفة عابرة ، بين غصن مياد وطير تغرد ، او وردة وقطرة طل اذابها الوجد ، من طول تعلقها فى الفضاء ، فاختارت الليل بصمته وستره ، لتهبط على شفة وردة حالمة ، فتصمد مذعورة ، قبل ان يشقشق الفجر ، فتحتضن القطرة الولهى المدلهة ، بتلك الشفافية والعبق المختبىء فى أعماقها ، خشية أن تطلع الشمس فتعتصره ، فيذهب بددا ، ليس لها منه إلا الذكر الحسن ، الذى .. يتعلق بأذيال الرياح ، فلا يعود يتردد إلا ببسمة جديدة ، من ثغر وردة وزهرة ، تفتضحان بها ، فتدلان على نفسيهما ، فتجذبان حتى تنفصل عن عالمها الشذى ، فى روضة ، ما عرفت المكر ولا الحقد ولا الكراهية ، ولكنها تنفح الشذى ، وتعيش على الهوى ، وتحلم بالحب ، ويستهويها الحنان .. فى كل شىء ، والجمال الذى وجدت منه ، فلا تتنكر له ، ولا تنسى جذورها ، حتى لا تفقد قيمتها الجمالية ، ولتبقى دائما .. مصدر فرحة النفوس الحائرة ، الظمأى ، بهذه الجاذبية .. التى وجدت فيها ، ولا غنى عنها ، حتى فى النفوس .. التى لا تعرف الجمال ولا تتذوقه ، ولا تريد أن تتعلق به ، حتى لو وصل اليها ، لأنه غير موجود فى داخلها ، فلا يعنيها منه .. قربه وبعده .

* انساب الزورق ، وقد مضى من الليل اكثره ، وعلى اضطراب الموج الحالم فى عيون الليل ، تطويه جفونه ، كانه افزع .. حين لامس صدر الزورق ، تدفعه آلة ، ليست حريصة على احلام الحالمين ولا يهمها إلا ايصاله بمن فيه الى الشاطىء ، لتستريح ، ويهدأ زفيرها ودورانها .

وأضواء الابنية ، التى راحت تعد السنين الطوال ، وهى تعانق اليم .. عناقا لا انفعال فيه ، تحلم كذلك .. فى غمرة هذا السكون ، وتنتظر فجرا ، ربما ودت الا يقرب ، فيقطع عليها تفكيرها وحلمها ، وما قد تشكو منه من تآكلها ، لأن الماء .. أقوى منها ، ومع ذلك راضية بهذا التعانق ، لان الماء طهور وحياة وأمل ، ولو كان فيه نهايتها ، ولكنها راضية بهذه النهاية ، لانه سيغطى جزءا منها ، فالتراب والماء .. يتجاوران وينسجمان ، والماء يرطب حمأة الصخر ، ويخصب به التراب ، فيكون منه الربيع الفواح والعطر .. فى ازهاره ، وبهجة النفوس ، انه احساس عميق فى الجماد ، لا تحس به .. الا النفس المرهفة ، الوادعة التى تلامس أصلها ، وتحن اليه ، وتجد فيه سلوى وعلاقة حبيبة ، لا صخب فيها ، ولا ما يذهب التأمل السابح .. فى الجمال . على عمق اسراره وبساطته .

وتتراقص انعكاسات المصابيح الخافتة على صفحة لجية ، وتحملها الموجة ، فتكون اكثر من شمعة ، تبرق بأشعتها ، وترتفع الهمسات تترقرق بنغمات وبوح ، يغذيها هذا الجمال المتجانس ، وتتمنى أن تسبح معه وقتا أطول ، وربما ودت .. ألا تقرب خيوط الفجر ، فتبدد .. ذلك السكون ، وتلك الأصوات الخافته .. تتهامس بذبذبات النفس العطشى ، لتعب من هذا المعين .. الذى حولها ، تسبح فيه .. مع نغمات شاعر الجندول .. الذى ألهمته البندقية أعذب ألحانه ، وأجمل أغانيه ، بهذا الفيض .. من وشوشات الجمال ، فثمل الشاعر ، ورددت الحانه الشواطىء والسهول الخضر وقمم الجبال ، قبل .. أن يتغنى بها الناس ، الذين يعيشون لذات الطبيعة ، ويعبون منها ، فيترنحون .. من فيضها حتى تغيب نفوسهم فى أعطافها ، فلا يفيقون .. إلا على واقع يفزعهم ، لأنهم فى الحياة ، وهى صخب ونصب ومعاناة .

ويذهب الحلم .. فى اليقظة ، وتصحو النفس من رقدتها ، وهى لم تنم ،

ولكنها .. كانت فى حلم عميق ، لا يبدده .. إلا ضوء الشمس ، وارتفاع الأصوات ، وأزيز الآلة ، تضج بالحركة ، حتى تغيب الشمس من جديد .

إنها لحظات على بساط ذلك القنال .. فى فينسيا الحالمة فى لياليها الهادئة .. ففى بياض أيامها ، يجنح اليها المكدودون ، الذين .. يستريحون من وعثاء الحياة فى أويقات ... يسترقونها من حياتهم ، ليسعدوا بالهدوء ، ويحلموا .. ما جنحوا الى الاحلام والتأمل ، وحب الطبيعة ومسامرتها ، والعب من مباهجها فى صمت النساك ، إلا من كليمات .. يرددونها فى داخلهم ، ابتهاجا .. بما أتيح لهم أن يستلهموه .. من عالم الجمال ،وهدهدات الليالى الناعسة ، فى غفلة من زمن المعاناة الذى لا نهاية له فى هذه الحياة .

وكنت أردد مع على محمود طه :

واصدحـــى يا خواطــــرى
طويـــت شقـــة الســـفر
ودنـــت جنـــة المـــنى
وحـــلا عندهـــا المـــقر

وكان صاحبى سالم ابن محفوظ يلهو مع اللاهين ويصخب معهم ، وكنت أردد فى نفسى بيتا من قصيدة .. قلتها فى ايام الشباب الدافق بالحيوية والتطلعات الشاردة :

ولـلـــورود شفـــاه للنـــدى همست
تقـــول يا طل أسكنـــت الهـــوى فينا

فى البُعْـد يَتحرّك الحنين

كلما بعدت عنك تحرك فى نفسى الحنين اليك ، فاستعد الى لحظات اللقاء .. لأن الشوق يشتد .. وأحمد ظروف السفر ، فهى مصدر هذا الحنين وتحريك الشوق الذى يخمد بالمعايشة والقرب ، وأنا لا أسعى لهذا البعد وانما أساق اليه وأنقاد لأنه ضرورة .

غير أن تصرم الأيام تزيد الحنين وتلهب الشوق الى حد الألم فيصبح شاغلا ومعوقا ويبدأ البحث عن العلاج وليس سوى العودة واللقاء ، واطفاء وقدة هذا الشوق ، الذى يشتد ويعنف كلما جد البعد وكلما طال الغياب وكلما جد التذكر الذى يدفع اليه الود الذى جعله الله بيننا بجانب الرحمة ليكون هذا التعايش الحفى بهذه الأسس التى تنميه وتبقى عليه وتغرس الحب وتدرأ عنه غوائل التمزق والتفكك متى كان ثابتا ومتى كان التقدير سائدا فى ذلك الذى يسمى تجاوبا من طرف التقابل فى صورة التكامل الذى تمضى به الحياة هينة ، رضية يرفرف على ينبوعها الحنان من ذلك الود الخالص الذى غرسه الخالق فى جنة ذلك السكون .

ولا يعرف الشوق إلا من يكابده ويعانيه ويعيشه ، وما أمتعه وهو يتجدد فى النفس فيحركها وينشط فيها الخلايا حين يقوى ويجد فى مسلكه الصحيح وسبله الأساسية بين الزوجين فى صدق ووفاء ، ونكران ذات وايثار .

تلك مشاعر تتحرك وتقوى حتى أنى أندم لأنى بعدت ولم اختر ، وودت لو كنا معا نقتسم الساعات والأيام واللحظات ، نهمس ونلتقى ولا نفترق .. إلا ساعات هى للعمل ثم يكون ذلك التعايش الخلى .. من المتاعب وعناء الحياة وهمومها .

مهما يكن من شىء فالقوم يحمدون عند الصباح السرى وبنفس هذه النتيجة تكون عاقبة الشوق ونهاية الحنـــين ، بتقدير الله ومشيئته .

والبعد .. انجلاء للنفس ومحك حين يستبد بها الفراغ وهى نزاعة الى الايناس والقرب ، وتريد أن يتجدد فيها شحنات الشوق ، وهذه الصورة الذاتية تتجدد فى كل وفاق ربما بأكثر حرارة ، ولعل التحفظ فى التزام الوقار هو طابع هذا التعبير لولا ذلك لكان أقوى وكان أكثر ابداعا وروعة ، ولكنى لا أميل الى أكثر من هذا البعد فى شرح الحال فقد أيقنت أن الشكوى لا تكون إلا الى الله ، فى كل حال ، وأن الصبر مدعاة لأن يكون سياج النفس ، وإن كان لابد مما ليس منه بد فى اظهار هذه المشاعر والى اعلان شيء منها كحافز للذين قد يضيقون بالحياة الرتيبة كما يرونها ، الى أن فيها جوانب انسانية وأن النفس تشتاق وتحن متى بعدت ، وحين تفقد بعض ما كانت تجد ، والسفر والبعد محك لذلك ، ونحمد الله اليه الذى يتيح هذا التقلب لتكون التجربة التى يتحقق فيها التقدير لذلك الود الهنيء وهو نعم الله على عباده نحمده عليها ونشكره ونسأله المزيد من فضله وأن يرزقنا اجتلاء هذه النعم كلما نسيناها وذابت معانيها فى نفوسنا بايلافها بما يتجدد فى حياتنا من شغف وما يؤدى اليه البعد من شوق وحنين الى من نحب فتتحرك مشاعرنا ، وتصفو نفوسنا وتهيج الذكرى حتى تبلغ القلق ، فنقفل عائدين بأشواقنا والتهاب مشاعرنا يملأ جوانحنا الحنين ، ولعل أحدنا يتمنى لو أن له أجنحة يطير بها ويطوى المسافات وينجز عمله فى لحظة ما يرقى فيها الوجد الى درجة يتحول فيها الى ضيق ، وتفكير فى العودة لذلك اللقاء فتهدأ نفس ، ويستقر فؤاد ، ويسكن روع .

فى الحيــاة سفر

* بعضنا يسافر .. فيطرح همومه ومشاكله بعيدا عنه ، يتركها خلفه ويعيش أيامه .. بعيدا ينعم بالحياة ، بكل ابعادها ، واذا كان فيه وازع من ضمير ، ندم على ما فرط ، واذا كان غير ذلك تباهى بما صنع . وينعم فريق آخر .. ببعض أبعاد الحياة ، محافظا سعيدا بالطيبات ، التى أحلها الله .. لعباده المؤمنين ، يتنقل بين الجنات والأنهار والجبال ، والبحار ، ينعم بجمال الطبيعة ينشد الراحة ، ويسعى الى سبلها ، ما أستطاع الى ذلك سبيلا .

* ومنا من يحمل همومه معه ، حتى سفره ، فهو مشغول ، ومهموم بها ، فلا يجد لذة فى سفره ولا سبيل الى الراحة والاستجمام ، وإنما مشاكله تلاحقه ، يبصرها يقظان ، وكذلك نائما ، يفكر فيها ويفتش عن حلول لها ، وقد يصل .. الى ما يريد ، وقد يحقق له نسبة من ذلك ، وقد لا يكون .

* وتمضى الأيام .. فلا يحس بجمالها ولا يأبه بجمال الطبيعة .. التى حوله ، وإنما هو فى دوامته ، شغلته الدنيا ، وكسبها ، فلا يريد ان تنصرف عنه ، ولا أن ينصرف هو عنها وليس فى اسفاره شيء يستحق ان يعده ، الا مكاسب العمل ، أو همومه فقط .

* والسفر مكاسب للنفس ، بالترويح عنها ، وتعارف على الأخيار ، واحتكاك بالناس ، ودراسة نفوسهم ، واخلاقهم ، وعاداتهم ، وتعرف على بلاد الله الواسعة ، واكتساب معرفة ، وبعد عن عناء الحياة ومتاعبها .

* السفر اذن ... الذى من هذا النموذج فيه متعة ، يستشعرها .. الذين يعطون لكل شيء حقه ، العمل فى وقته ، والراحة فى وقتها ، اى ساعة وساعة ، أو مرة ومرة ، وكل شيء فى وقته طيب وجميل ، ولا يكون شيء على حساب شيء .. الا فى الضرورات ، والظروف .. التى تحكم الانسان ... وقتا ما . وهكذا الحياة ، بصورها ، وأبعادها ، ومن اجل ذلك ، كانت ، وتمضى على النهج ..

الذى يدبره .. مدبر الأمر ، سبحانه وتعالى .

* فى تصور الكثيرين .. أن الأوربيين اكثر تنظيما لحياتهم ، ولا يمكن ان يعمل أحد ، وقت راحته ، او أجازته ، ولا تشغله همومه ، عن الاستمتاع بالحياة ، وقت التحول الى الاخلاد للراحة ، وتجديد النشاط والحيوية .
ولا يلهو .. فى أوقات الفراغ والجد ، ولكنهم ، يعطون الأشياء حقها ، وهم من اجل ذلك .. بعيدون عن الكرب والعناء ، فى تنسيق الحياة ، بحساب .. ربما كان دقيقا ، ومريحا ، ومقبولا ، وجميلا .

* والحياة تخطيط ، كما أنها اقتصاد وتدبير ، وأساس التخطيط النظام والتنسيق ، وما عدا ذلك .. الفوضى ، وربما جنح احدنا اليها ، فيجد فيها متعة ، لانها تخلصه من بعض القيود ، وربما وجدت هذه الفوضى فى قطاع من الأدباء ، ولا أعنى جميعهم ، وربما أنسوا الى ذلك ، خروجا من ضيق الالتزام ، وضيقا بحياة تكتنفها الرتابة والملل ، فيعود المرء الى طبيعته ، وبدائيته ، يتخفف من أثقال نظام ، اتعبه ولكنه خروج مقبول ، ليس فيه اذى لأحد ، ولا خروج عن مألوف يسىء اليه ، ولكنها حياته الخاصة ، يتصرف فيها ، ويميل الى السهل ، واليسير ، حتى اذا اكتفى أو اقتنع ورضى بهذه الحرية الخاصة ، وطرح متاعبه مما يراه اثقالا وعبئا ، عاد .. الى مسيرة التنظيم ، يجدد ، ويتأمل الحياة ، يأخذ منها ويعطيها ، ولكنه .. يعطى أكثر مما يأخذ .

* والسفر .. قد يطول ، وقد يقصر ، والعبرة فى الحياة .. ليست بطول الزمن ، فى كل الاحيان ، وفى كل شىء ، ولكن بقدر الجدوى ، فى دور الانسان ، يقاس الزمن ، والمسافر يئوب وقد لا يئوب .

* اذن السفر ألوان ، وصور . سفر فيه مكاسب ، وسفر .. فيه خسارة ، وسفر بلا مكاسب ، وبلا خسارة ، وسفر ، بين بين ، وهكذا الحياة .

ومن السفر ، ما يكون نهائيا ، أى بلا عودة ، مثل الذى يخرج بتأشيرة مغادرة نهائية . والسفر ، أى أنواع السفر ، يحتاج الى زاد ، وخير الزاد التقوى ، كما يعلمنا كتابنا العزيز وما عدا ذلك قد يهون .

السفر للاستجمام والراحة ، يحتاج الى المال والخبرة ، والرفيق .
والسفر .. الذى ليس له عودة الى الحياة الدنيوية ، زاده .. مخافة الله وتقواه ،

فى السر والعلن ، فى التعامل ، فى الصدق فى الاخلاص فى الامانة ، فى اسداء المعروف ، فى كف الاذى والشرور ، وحصيلة ذلك ايمان مطلق يملأ النفس ، فتستشعر الرضا والطمأنينة ، وتقر القلوب ، وتسكن النفس ، وتهون هموم الحياة والتسليم بقدر الله ، والعمل بما يرضيه ، وتكفير الذنوب ، والرجوع الى الله ، ومراقبة العبد لربه ، وتجديد ذكره .. جلت قدرته ، وتعالت أسماؤه ، انها تسابيح القلوب الخاشعة ، المستيقنة ، التى ، تزداد ايمانا .. حين تسمع آيات الله ، وتتوكل عليه ، ما أجدرنا أن نتذكر ، وما أجدرنا ان نعى .. ببصيرتنا ، وما أجدرنا .. أن نستمع القول فنتبع أحسنه ، لنكون من المهديين ، فيمن هداهم الله ، نستلهمه الرشد ، ونسأله العفو والعافية ، والتحلى بالحلم والصبر ، والخلق السامى ، وصدق الله العظيم القائل : « وما يذكر الا اولو الألباب » .

مَشاعر في الوَداع وَالفراق

كنت أحسب .. لساعة الوداع وآلامها ، واتوجس منها خيفة ، فأنا أخشى وقعها ، لأنها ساعة .. رهيبة ، عند ذوى الحساسيات .. حين يودعون .. من يحبون .

ويأتى الولد فى طليعة هؤلاء .. الذين يحدث فراقهم حزنا فى نفوسنا .

ولسنا نحن .. « غارسى » هذه العاطفة ، وهى ليست فى الانسان وحده ، لكنها فى الحيوان ، بنفس الحرارة والضعف .. التى عند الانسان .

ولولا هذه العاطفة المتأججة ، بين الابن وأبيه وأمه واخوته .. الخ . لاصبحت الحياة جحيما لانها خلت من اهم عناصرها ، وهى العاطفة ، هذه الخاصية .. التى تصنع ما لا يصنعه السحر ، ذلك ان اثرها وتأثيرها لا ينتهيان حتى تنتهى الحياة ، أما الأشياء المصطنعة فأكثرها .. او كلها مؤقت ، ينتهى بوقت ما .

ويشاء الله .. القدير ، اللطيف بعباده أن تتاح لى رحلة قبله ، فلا أجد ذلك الألم الممض ، وأنا أغادر المطار ، وهو معى ، وأوصيه بكلمات واسرع .. فى طريقى .. الى صالة المغادرة ، وهو سيغادر بعدى .. وقبل أن أعود .

وأثر الفراق .. ربما كان اقل ، لان لحظات الوداع اختلف توقيتها وشكلها ، وإنما يبقى الصدى والتصور والتفكر والتخيل ، ملامح تهز وتؤثر ولا تنسى ، ولكنها .. على كل حال .. اقل من ساعة الوداع .. تأثيرا فيما لو سافر قبلى ، وودعته فى المطار فسيكون تأثير ذلك .. اعمق فى نفسى . وتتجدد صورة الوداع والفراق أياما ، قد تطول وقد تقصر .

وكان لهذه الصورة مثيل فى نفسه يوم كان طفلا فى الخامسة ، فقد كنت مسافرا الى بريطانيا وجاء معى الى المطار ومعه جده وامه ، والصديق الحبيب .. يحيى توفيق ، وحين هممت بالانصراف .. مسلما عليه ومن ذكرت ، اصابته

حالة عصبية .. حزينة ، فأخذ يبكى ، ويصارع امه وجده ، لكى يلتحم بى ولا يفارقنى .

وفى السيارة التى عادت به من المطار الى المدينة ، وهى سيارة اخى يحيى انعكس تشنج التعب فنام ، وحمل منها نائما .. الى الليل ، وكان الوداع ضحى .

أننى أستعيد تلك الصورة الدرامية قبل اربع عشرة سنة ، وانا اشاهد اليوم تكرارا لها وهو المودع ، ربما كان رابط الجأش أحسن منى ، فقد تعود الى حد ما الفراق واللقاء ، وهو عاطفى جدا ، ولكنه .. يتحامل على نفسه ، ويتصبر ، وأمامه طموح يريد أن يحققه .

صورة اليوم .. امتداد لصورة الأمس واثرها الأثر نفسه ، ألم ومعاناة عنيفة .. من جانبى ، ولكنى أحمد الله اليه ، إذ أتيح لى ان اسافر قبله ، لتخف وطأة الوداع .. والفراق فى نفسى وربما فى نفسه هو كذلك .

أنها الحياة على حقيقتها ، ونحن لا نملك من أمرها ولا من أمر أنفسنا شيئا .. وإنما بلينا فيها ، لنعيش هذه الانفعالات والمعاناة ، تلك هى الحياة ومعناها وحقيقتها .

نضطرب فيها فنفرح ونحزن ، نغنى ونفقر ، نمرض ونصح ، نحب ونكره ، ونضعف ونقوى ، ثم نضعف الى نهاية هذا الشريط .. من حياتنا .

ليس لنا خيار لنبدىء ونعيد ، ولو ملكناه لاختلفت صورة الحياة ، واختلفت حياتنا معها ...، ولاختلف المفهوم .. الذى عرفه الناس ، واصطلحوا عليه ، راضين أو كارهين .

إن هذه المشاعر .. التى تهتز وتضطرب ، وهذه الجوارح .. التى تنفعل وتترنح ، وهذا القلب الذى يقوى ويضعف ويفرح ويحزن ، وهذه الخلجات .. التى تدمى .. حين تعتصر ، وتدمع العين .. صادقة فى تعبيرها ، لانها تدمع عن الم ، هذه الحواس .. هى المحرك الطبيعى ، فى شبكة النفس الانسانية ، وهى أى الحواس .. تستشف وتتأثر ، وبذلك ينعكس ما يضطرب فيها .. على وجوهنا وتصرفاتنا وملامحنا ساعة أو وقتا ما ، وربما تجدد .. ولكنه أقل عنفا .. من وقت وقوعه فى الساعات الأولى .

هذه الكلمات نموذج .. من حكايتى ، مع ابنى « وديع ، بمناسبة سفره للدراسة . وهى خلجات ذاتية يواجهها .. كل أب وكل أم ، إلا الذين قست قلوبهم ، ولعلهم قلة ، ولا قدرة لنا على غرس عاطفة الحب فيهم ، لإن ذلك من امر الله وحده .

ودعوت من الأعماق .. للابن بالنجاح ، وأن يشد الله أزره ، وأزر كل مجاهد ، وصبر جميل حتى اللقاء .. ان شاء القادر ، وهو سبحانه المستعان ، والمعين .

الحيـــاة (باى)

* معذرة ، فى استخدامى .. كلمة غير عربية ، فى بعض عنـوان هذا الموضوع ، ذلك .. أن صغيرى ، اعتاد ، أن ينطقها ، وقد حفظها ، وذلك ، اذا كان يغادر المنزل ، مع أبيه .. أو أمه ، أو أحد أقاربه .

والحياة فراق والتقاء ، ووداع . وبالامس .. غادر صغيرى المنزل ليتهيأ لسفر ، من أجل .. ان يدخل فى قسم داخلى للدراسة ، فى احدى البلاد العربية ، وقد ترك غيابه فراغا احسب أنه كبير ، لا يملأ بعض هذا الفراق .. الا صبر قوى ، ذلك أنه طفل صغير ، لم يبلغ الثالثة من عمره ، أو لم يكملها .. على الأصح . وغربته صعبة ، وفراقه اصعب ، غير ان القدر الذى لا يرده الا الله ، كانت هذه مجرياته ، وليس للانسان ، ان يعطله ، وليس منه مفر ، فنحن المؤمنين .. نؤمن بخيره وشره .. من الله تعالى ، الذى يقدر ما يشاء .. فى ملكه وخلقه ، ولو كانت الأمور خيارا ، لبقى هذا الطفل الصغير .. بين أبويه ، ينعم بحنانهما ، وحنان الاقرباء ، لا ان تطوح به الغربة ، وهو فى هذه السن ، التى يحتاج فيها الى رعاية ، والى حماية ، وتربية اسلامية ، حتى يعى ، وينضج ، ويعيش فى كنف وحنـــــان الأمومة والأبوة ، وادعا ، محاطـا بهـذا الحنـــــان .. الذى لا يقاس عليه ، حتى اذا شب واشتد عوده يمكن فى هذه الحالة .. أن يغرب ، وان يشرق ، وأن تختار له السبيل ، التى تزيد فى تربيته ، وعلمه ، وثقافته .

إننى أكتب هذه المشاعر ، من أعماق العطف ، لان فراقه .. عمق الألم ، ودفع بهذا الحنين .. الذى يمزق النفس ، ويدمى العيون ، ويجدد الاسى .

وليس الأسف .. على فراق امرأة من رجل فهذه سنة الحياة ولكنه .. فى تمزق الأسرة ، الذى ينصب على البنوة ، فتضيع .. بهذا التمزق .. الذى يحل بأسرة ما .

فالطفل ، أو الأطفال ، إما أن تتولاهم أمهم ، أو أبوهم ، وفى كل الأحوال .. يحدث هذا الضياع ويفقد الطفل الحنان المشترك .. الذى ينعم به غيره .. من الأطفال .. فى ظل الوالدين ، اذا كانت حياة الأسرة .. ناعمة ، وادعة ، ترفرف عليها ظلال السعادة والتفاهم ، والاستقامة فى معاشرة الزوجين واذا كان غير ذلك ، فحياة البنوة ، تتعرض لهذا الشر ، الذى تموج فى خضمه الأسرة التعسة ، بعصبيتها ، وسوء تصرفاتها ، واختلافها ، وشقاقها ، التى لا تكاد تنتهى حتى يتجدد ، فتعيش .. فى هذا الاضطراب .. الذى يملأ حياتها ، ويقلق سعيها ويبدد استقرارها ، فتمضى .. فى هذه القلاقل .. التى لا حد لها ، ولا تعرف .. الى راحة البال سبيلا . ما أشقى البشر ، حين يفقدون الاستقرار .. والحياة الكريمة ، وما أشقى البنوة ، التى تضطرب .. فى حياة التمزق .. فى جوى التقاء الشمل ، وفى مناخ الضياع .. يتشتت كيان الأسرة ، بما ينشأ من شقاق بين الأب والأم ، فيفقدون رشدهم ، ولا يحسبون للعواقب .. التى تؤدى الى هذا الشر ، ولا يأبهون بمسئولية الامانة .. التى حملوها راضين ، وهى هذا الخلف الذى وجد بينهم ، فلم يحرصوا .. على رعايته والتضحية .. التى يجب ان تكون من أجله ، ويسهل ، ويتذلل فى سبيلها كل صعب ، لو حكم عقل واع من طرفى النزاع ، وقدمت مصلحة .. هذا الكيان ، الأسرى .. على غيره ، من العناد ، وتجسيم الأمور ، وتمسك .. الى حد التشبث ، كل طرف برأيه مسئولية جسيمة ، لا يقوى على تحملها ، والتضحية فى سبيلها ، الا الاقوياء .. الذين يحكمون نفوسهم .. وقت الغضب ، وهم الاقوياء حقا ، الذين صورهم الحديث الشريف .. اننا نرى فى ساعة الغضب انهيارا ، قد يعقبه أسف وحسرة ، ولكن .. حين يفلت الزمام يعسر تداركه .. والتحكم فيه من جديد ، وحين تتخلى النفوس عن التسامح ، وتلج فى العناد والمكابرة ، يحل التفتت ، ويتقوض الكيان القائم ، ويضيع العرف .. فى جو محموم ، من التشنج الضار .

على ان انفصال الزوجين ، حين لا يكون بينهما ذرية ، يصبح أمرا سهلا ، غير ذى موضوع وأثره أقل فى النفوس ، وإنما الضرر .. يتحقق ، بهذا الخلف ، الذى يتحمل مسئوليته الأب والأم .. على سواء .

هذه مشاعر .. صببتها فى هذه الكلمات ، من تلك الصورة .. لذلك الصغير ، الذى قدر الله ، أن يفترق والداه .. عن بعضهما واختير له ، أن يودع .. فى احدى المدارس الداخلية خارج بلاد ابويه . وانا لم افتعل فيها كلمات مؤثرة .. مصدرها هذا التمزق ، وافتقار الصغير الى حنان أبويه فى سنه هذه المبكرة ، وإنما رسمت الكلمات فى مناخ .. من هدوء النفس ، وتملكها لزمامها ، بدافع الايمان بقدر الله .. الذى لا مفر منه ولا مناص .. مما كتب الله على خلقه ، كبارا وصغارا ، شاءوا أم أبوا ، ولو علم أحدنا ما فى الغيب ، لاستكثر من الخير وما مسه السوء .

ربيع اليوم والغد

قبل أيام .. كنت أسير وسط أشجار باسقة .. مخضرة ، فى يوم .. من ايام الربيع ، والربيع شباب وحيوية ، واحلام زهر .. وورد ، وتشبث بالحياة المتفتحة ، والطير تغنى جذلة .. طروبة ، لانها تنعم بالحياة ، رغم أن عمرها قصير ، أكثر مما ينعم بها الانسان .. الذى شقى بالمادة وطحنته الحياة .. التى يلهث وراءها .. فشغل عن التأمل فى مباهج الربيع الفصل الجميل حتى حبه للطبيعة لم يعد ذلك الحب الذى عرفه المستمتع بالحياة ، ويعيش فصول السنة الاربعة .

لم يعد للحياة طعمها .. الذى نقرؤه ، وتغير مذاقها فى نفوسنا وأخذنا نقول : لم يعد للأشياء مذاق .

والحق أن مذاق الأشياء فيها .. لم يتغير ، وانما الذى تبدل .. هو نظرتنا للأشياء فحاستنا .. هى التى تغيرت .. فلم نعد نتذوق الأشياء كما يتذوقها القليلون جدا اليوم .. ذلك أننا شغلنا عنها .. بما نسميه هموم الحياة .. ومتاعبها .

والحياة .. هى الحياة ، هى اليوم كما هى بالأمس ، الأشياء .. لم تفقد طعمها ، وانما نحن .. بتصورنا ، وبما نكثف من متاعبنا هو ما أفقدنا حاسة التذوق ولذة الطعم .

التضخم فى حياتنا ، والبعد عن البساطة ،والتكلف والانبهار الذى يغمرنا ، والدوامة ... التى نغرق أنفسنا فيها ، هى التى جعلت الحياة .. من حولنا .. لا لذة فيها ولا طعم لها . عدم القناعة .. فى السعى وراء الرزق الى حد التكالب ، جعلنا نمر بالربيع ، فلا نحس به ، ولا نأبه له .

نقول : ان الحياة فرضت علينا .. أسلوبا معينا ، والصحيح ، نحن الذين فرضنا على أنفسنا عناءها وحملنا أنفسنا .. أكثر مما تطيق .. ثم ظللنا نشكو ، ونلح فى الشكوى ، بأن الحياة تغيرت علينا ، غير أننا نحن الذين نتغير ، لأنا .. لا نأخذ بالأيسر من الأمور ، مع أننا نعرف طبيعة أنفسنا ، انها هلوعة وان الشح يملأ أركانها ، والحرص يسد علينا كل المنافذ الخيرة فنعمى ونحن نبصر ، لأننا لانبصر بقلوبنا .. وألبابنا ، وإنما نزن الأمور بميزان الخوف من الفقر وعقابيل الشيخوخة ، وننسى أن أرزاقنا فى السماء فلا تنقطع حتى نستوفيها ، وأن أجلنا بيد خالقنا فلا تموت نفس إلا باذن الله ، وضعف اليقين .. هو الذى يفضى بنا الى القلق ، والى الحرص المقيت ، ولو توكلنا على الله حق التوكل لرزقنا كما يرزق الطير ، تغدو خماصا وتعود بطانا . هكذا يعلمنا .. من لاينطق عن الهوى ، عليه صلوات الله وسلامه ، نحن نعى هذا الهدى المحمدى ، ونعى مانتلو من الكتاب العزيز ساعة ، ثم ننسى .

غير أننا ينبغى .. أن نتذكر وأن نذكر ، فالذكرى تنفع المؤمنين وتمنيت وأنا أمر بهذه الاطيار فى تلك الحقول الغناء .. ان أكون مثلها .. سعيدا ، حفيا بالربيع . فالنفس تصدأ وتمل ، القلوب تضيق فى الصدور ، ولكن ساعة فى وسط الطبيعة اليانعة تغسل أوضار النفس ، وتردها الى عالمها الروحى ، وتذكرها بربها .. بديع السماوات والأرض ، الذى يدبر الأمر ، وأبدع هذا الكون بقدرته ، جل شأنه .. وتعالت أسماؤه ، الانسان مسكين ، مخلوق ضعيف ، سلطانه فى لسانه وأحلامه ... وآماله ، تمضى السنون من عمره القصير وهو سادر مشغول غافل ، وشره فى غفلته هذه .. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل : « الناس نيام .. فاذا ماتوا استيقظوا» .. مرت بى .. هذه الصور ، وأنا أمر بين تلك الأشجار الخضر وفوقها وحواليها الطير مشغولة بحبورها .. وسرورها ، لا تأبه لما حولها ، ولكنها سعيدة بحياتها ، تسبح لخالقها الذى فطر السماوات والأرض .

ونحن «بنى الانسان» ... غافلون ، وتذكرت قول الفاروق عمر ، رضى الله عنه : ليت أم عمر لم تلده ليتنى كنت كبشا .. فأذبح .

كل هذا الخوف من عمر ، مرده إيمانه العميق ، وخوفه من الحساب ،

حساب ربه ، فهو يعى ببصيرته قول ربه جل شأنه : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ، فلا تظلم نفس شيئا ، وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » .

اللهم رحمة ، أين نحن .. من هذا الحساب الذى يتولاه العليم الخبير ، ويعرض غدا .. فى كتاب ــ لايغادر كبيرة ولا صغيرة الا أحصاها .. ويجد الانسان ماعمل حاضرا ، لازيادة ولانقصان ، ويقال له ــ اقرأ كتابك ، كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا . يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون .

وقالوا لجلودهم لم شهدتهم علينا ؟ . قالوا : أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول ، مرة واليه ترجعون.. وماكنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ، ولكن ظننتم أن الله لايعلم كثيرا مما تعملون .

آيات كالصواعق ، نتلوها ونمر بها فلا نتدبرها ، ولاتعلق فى قلوبنا .. كأن عليها اقفالا ، كما يقول القرآن .

اللهم عفوك ، اللهم لطفك بنا ، اللهم أعنا على أنفسنا . اللهم أعنا على أنفسنا .. اللهم أملا قلوبنا وأنفسنا بخشيتك ، فنخشاك بالغيب ، واهدنا الى الطريق المستقيم ، وتب علينا انك أنت التواب الرحيم .

غنيم خليفة حافظ

كنت حريصاً أن أراه ، فأستمع إليه ، وأتحدث معه ، وقد جاء .. قبل خمس سنوات .. حاجاً ، وما أسرع مر السنين ، ونزل فى فندق قريش .. بجدة ، وعلمت بأمره .. بعد مغادرته ، ومحمود غنيم رحمه الله ، شاعر .. بعيد الصوت ، وقد لقبوه بخليفة حافظ إبراهيم ، وغنيم أديب بارز مجيد .

وشاعرنا من رعيل الرواد فى مصر ، ولد فى احدى قرى المنوفية فى الريف عام ١٩٠٢ م ، وعمر سبعين خريفاً . وقضى فترة طويلة من حياته مدرساً فى القرى ، ثم تحول إلى القاهرة مدرساً كذلك ، وبعدها .. التحق بالسلك الوظيفى فى وزارة المعارف ، ثم عضواً فى لجنة الشعر .. بالمجلس الأعلى للفنون والأداب ، ونال جائزة الشعر التشجيعية على ديوانه الثانى .

أما ديوانه الأول « صرخة فى واد » .. فقد نال به .. جائزة الشعر الأولى .. فى مسابقة مجمع اللغة العربية عام ١٩٤٧ م .

إن شعر غنيم .. يتميز بالرصانة ، والقوة ، وجزالة اللفظ ، وحلاوة الموسيقى ، وهو شعر عمودى كله .

وقد عرفت شاعرنا بما كنت أقرأ له .. فى مجلة الرسالة المصرية ، وانتقال الشاعر .. إلى حاضرة مصر وتركه الريف ، فتح له آفاق المعرفة فى أنديتها الأدبية ومحافلها ، والاحتكاك بالرواد ووفرة الاطلاع ومعايشة المناقشات ، فى مناخ كان فى أوائل الثلاثينات ، إلى أواخر الأربعينات .. فكرا واقدا ، ثم خمدت هذه الجذوة ، بل سمها إن شئت ماتت .. ولا أدرى متى تبعث من جديد ، فى أرض الكنانة .

إن استعداد نفس شاعرنا ، وموهبته وتعايشه .. فى جو الثقافة العريضة ، وتخصصه فى تدريس اللغة العربية ، اخرجت منه شاعراً مجيداً ، يكفى .. أن سموه بخليفة حافظ .. ونحن نعلم مكانة حافظ إبراهيم

وشاعريته .. بين شعراء العصر ، بل أن من الناس من يفضله .. على الشاعر أحمد شوقى .

مازلت أذكر قصيدة المرحوم محمود غنيم فى « مناجاة الهلال » نظمها فى أثناء الحرب العالمية الثانية ، وهى من عيون الشعر ، ومن العجيب أن بعض من كتب عن غنيم ، كما سنرى .. ذكر الكثير من قصائده ، ولم يذكر هذه الرائعة بحق ، واستمعوا إلى الشاعر مناجياً الهلال ، وهذه القصيدة يتجاوز أبياتها الستين .. على ما أظن .

ماذا وراءك مرحبـــا بك عاما	رحماك أن الكون فى الـدم عاما
ما بال ظهـــرك يا هلال مقوسا	أحملت أعبـاء السنـين جساما
هم شبهـوك بمنجـل من فضة	ماذا حصدت ، أتحصـد الأياما
يا ابن الدجى حدث أعرك مسا	معى فلأنت أصدق من حذام كلاما

طبع للشاعر ديوانان فى حياته ، أما ديوانه الثالث ، فما يزال مخطوطاً ، وآمل أن نقرأه مطبوعاً ، لنعلم ماذا قال فى « أرض النبوة وحمائم الحرم » ، وهما القصيدتان اللتان نظمهما يوم جاء حاجاً .. قبل سنين خمس ، كما أشرت .

وغنيم .. من أشد الناس محافظة على لغة القرآن ، وقد خدم أمته ، ولغته عمره كله ، وظل فى هذا العمر يمد الصحافة الأدبية .. بفيض قريحته ، ويشارك فى ندوات الشعر والأدب ، ويثرى هذه الأندية ، بزاده العريض من الثقافة العربية ، ذلك .. أن الرجل .. درس فى الأزهر ودار العلوم ، فتكونت فيه هذه الثقافة بعمقها وقوتها وصفائها ، حين وجدت نفساً عطشى ، تفتحت على تراثها ، تحفل به وتهضمه ، ثم ترسله .. فى صياغة جديدة وأسلوب جديد ، واضافات جديدة ..

وصدر .. عن المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية فى العام الماضى .. الجزء الثانى عن شعراء وطنيين ، ويضم كلا من .. عزيز أباظة ، وعلى الجندى ، ومحمود غنيم ، ومحمود عماد ، وعادل الغضبان ، ولا أدرى ، كيف وجدت نفسى مسوقاً .. إلى الوقوف عند محمود غنيم وحده ، ربما .. لأن هناك مايشبه الصلة ، من اصداء قصيده ، الذى كنت أقرأها فى

الرسالة .

ونفس الصلة ، كانت مع عادل الغضبان ، أيام كان رئيس تحرير مجلة « الكتاب » التى كانت تصدر منذ عام ١٩٤٥ وحتى ١٩٥١ م على ما أذكر . وعرفته كشاعر عاطفى وجدانى ، لاسيما قصيده .. فى الاسكندرية .

وشغلت الدراسة .. التى جمعت فى كتاب خمسة من شعراء الوطنية ثلاثا وخمسين صفحة فيها نتيجة وافية عن الشاعر محمود غنيم وحياته ، والوقوف على بعض شعره .

ولمحمود غنيم مسرحيات شعرية ، هى النصر لمصر ، ويومان للنعمان ، وغرام يزيد ، والمروءة المقنعة ، والجاه المستعار .

وله كتاب اسمه « حديقة التلاميذ » . ودراسة عن حفنى ناصف ، ظهر فى سلسلة أعلام العرب ، وحقق مع آخرين .. الجزء الحادى والعشرين من كتاب الأغانى للاصفهانى ، وقدم دراسة عن أحمد الكاشف فى كتاب خمسة من شعراء الوطنية الجزء الأول .. الذى صدر فى عام ١٩٧٤ م .

هذا هو الشاعر الرائد ، عاش حياة الحرمان ، فالأيام لم تبتسم له ، فهو طوال عمره عاش موظفاً ، يتناول فى آخر كل شهر فتاتاً من فضلة ، هى زاد المضطر الابى ، والذى يرفعه شموخ نفسه .. فوق التدنى الذى ينال منه مايريد .. لو أراد ، ولكنه سلك منهج الاباء ، فى نفسية الشاعر .. الكبير النفس .. والهمة ، فمد اليد للأخذ .. يضعف النفس ويكسر فيها القوة ، والارادة والصلابة والترفع فى شمم ، يقوى فيها الصبر ، وتحمل المكاره ، واحتمال الأذى ، وبناها من الداخل بالتزام القناعة باليسير المقسم ، فى سلامة طوية ، عن الكثير الزائل من ذلك التلقى والمن والتسويف وانكسار نفس الآخذ ، بالقياس إلى الذين يحسون بفداحة الاستجداء وثقله عليهم ، لأنه ذل ، والذى يمنع ويعطى ويمن ، هو القادر الواحد ، الله .

هكذا عاش شاعرنا ، فقيراً .. من المال ، أما نفسه فهى طموح ، شامخة كالطود . لم تنحن له هامة ، شأن الفحول من لداته .. الذين آثروا عزة النفس عن اذلالها ، فكانوا رواداً وعمالقة ، وأمجاداً وأعلاماً وكباراً .

ولعل الاخلاص ، هو المسلك .. إلى منحنى هذه الرفعة فى هذا الترفع ، وهو ليس كبرياء على أحد ، بل أن نفوس هؤلاء الأدباء كنفس الطفل وداعة فى

مسلك الأخوة .. والحب ، والصفاء والصداقة .

فرحم الله الشاعر .. الذى ترجم مشاعر أمته عبر نصف قرن من الزمن .. إلى أن مضى ، وختم عمله بالحج للبيت العتيق ، الذى عاشت قداسته فى نفسه المؤمنة حتى جاءه ، وانشد فيه شعره « بعنوان » فى أرض النبوة ، وحمائم الحرم ؟ .. وقد نرى ذلك منشوراً ، إن شاء الله فيما بعد .

العقبة كانت مفتاح الهجرة

الهجرة .. من الهجر وهو الترك والابتعاد . والهجرة ، الفرار من الظلم والطغيان ، وأكثر ما يكون هذا ، فى الفرار بالعقيدة ، لممارستها فى حرية .

وقد هاجر الانبياء قبل محمد صلى الله عليه وسلم ، وهاجر الصالحون .

بل ان الحيوان الاعجم نفسه يهاجر ، من ارض الى ارض .

والهجرة الحقه .. هى الى الله ، والمهاجر .. من هجر السوء ، كما يقال فى الحديث الشريف .

والضيق ، والتضييق . اللذان حاقا بالمؤمنين فى مكة .. بعد البعثة المحمدية ، لم يكن منهما بد .. الا الهجرة .

وقد خرج منهم نفر الى الحبشة فرارا من هذا الضيق ، ليعبدوا ربهم هناك . فى شىء من الحرية .. تكفل لهم اداء هذه العبادة فى اطمئنان .

وتبعتهم قريش ، تقدم الاوتاوة ، وتكيد لهم ,, عند حاكم الحبشة فى ذلك الوقت ليعيدهم الى مكة لينكلوا بهم . ولكن النجاشى وجد فى اجوبة المؤمنين . حين سألهم ، عن عيسى عليه السلام بايعاز من وفد قريش ، الجواب الحق . الذى جاء فى الآيات القرآنية التى تلاها أحد الاصحاب وشرح من واقع الدين الاسلامى .. قصة عيسى المسيح فوجد النجاشى . فى الرد والبيان الحق واعلن فى قوة رفض اعادة المهاجرين الى ارضه .. الى قريش ، ورد عليهم هداياهم ، التى هى ثمن طرد المسلمين من الحبشة .

وهذه الهجرة موقوته ، أريد بها شىء من التنفس .. على المسلمين الذين ضاقت بهم مكة .

ولا شك ان قضاء ثلاث عشرة سنة فى ظل الاضطهاد والتنكيل . شىء كثير بالقياس الى المسلمين ، ولا سيما المستضعفين منهم ، الذين آمنوا بالله ورسوله ، واحتملوا صنوف الايذاء ، لانهم قالوا ربنا الله ، هذه هى جريمتهم

الكبرى ، عند المشركين ولم يحنوا للاصنام والاوثان رءوسهم .. ورسول الله ليس له قوة يحمى بها ويدافع عن اصحابه ، ويدفع عنهم الكيد والمكر السيء .

ولم يجد من القبائل التى تأتى فى مواسم الحج من يستمع الى دعوته ويتحمل معه الامانة وبعض من سمع منه ، طلب ان يكون له الولاء والخلافة بعد رسول الله كشرط ،وكأن الامر مقايضة .

وذهب رسول الله الى الطائف عله يجد من يسمع منه ، ويستجيب له ، ولكنه أوذى وعاد .. من هناك حزينا ، ولقى بعض السلوى من « عداس » الذى قدم له عنقود العنب ، وعرفه بعد أن سمى الرسول وهو يتناول حبات العنب ، فأخذ يلثم يديه ورجليه ، ويبكى على ما حل برسول الله من أذى .

ولم ييأس الرسول من هذا الصد والايذاء ، ولكنه خشى ان يكون ربه غاضبا عليه ، فأخذ يدعو بذلك الدعاء التوحيدى دعاء الضعيف ، يدعو القوى القادر ، وهو — أى الرسول — لا يبالى بما يلاقى ، فى سبيل ابلاغ دعوة الله ، وحمل الرسالة وهو حريص على رضا ربه ، فيتثنى فى دعائه ، بعد شرح حاله فيقول « ان لم يكن بك على غضب .. فلا أبالىَ » ذلك هو ايمان الرسل من أولى العزم .

وجاءت رحلة الاسراء والمعراج وهى تسرية ، من هذا العناء المتصل والحصار المقيت . وفيها اوحى الله سبحانه وتعالى الى عبده ما اوحى ورأى من آيات ربه الكبرى ، وفرضت عليه وعلى الامة المسلمة الصلوات الخمس .

وعاد رسول الله .. عليه السلام يعرض نفسه على القبائل ، عادته فى كل موسم حج ، فهو قد يئس من قومه ، ولا أمل فى ايمانهم ولا بد من البحث عن حل فى أرض غير مكة تؤوى الدين واتباعه لانه لا أمل فى انتشار الدين ، وممارسة العبادة فى هذا الجو الخانق ، فالدين يحتاج الى حماية ، والى انصار ، ومناخ .

لقاء العقبة

وكان لقاء العقبة الاول ، بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ونفر من الخزرج . وحينما دعاهم الرسول الى الاسلام ، نظر بعضهم الى بعض وقالوا :

تعلمون والله أن النبى الذى توعدكم به يهود ، فلايسبقكم اليه أحد

« ذلك أن اليهود وهم أهل علم كانوا فى شجارهم مع الأوس والخزرج يقول اليهود لهم : أن نبيا مبعوث الان ، قد اظل زمانه ، سنتبعه وسنقتلكم معه .. قتل عاد وارم » .

لهذا رأى هذا النفر الذين يحاورهم الرسول ، ليدعوهم الى الاسلام ، ان يكسبوا المبادرة .. قبل اليهود ، ليكونوا الأنصار ، ذلك ان الله اراد لهم الخير .
أما اليهود فهم كاذبون ، مخالفون فيما زعموا ، فهم لن يتبعوا الرسول مؤمنين برسالته ، وإنما يهددون القبيلتين ، الاوس والخزرج ، اللتين تعيشان معهما فى المدينة .

وحتى حلف اليهود ، مع هاتين القبيلتين ، ما هو الا لون من المسالمة الموقوته ، لأنهم ناكثو عهد ، وشرذمة فتنة ، ومروجو دسيسة ، وصانعو تفرقة . وقد ظهرت عدواتهم ونقضهم العهد فى غزوة الأحزاب ، وهو عهد أخذه عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فألبوا على المسلمين القبائل وخانوا عهدهم ، لأنهم لا عهد لهم ، وكانت الدائرة عليهم ، بعد ان هزم الله الأحزاب « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا وانزل الذين ظاهروهم . من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا واورثكم ارضهم وديارهم واموالهم وارضا لم تطئوها ، وكان الله على كل شىء قديرا »

هكذا كان نصيب اليهود . لقاء غدرهم ، تقتيل واخراج من المدينة واسر ، واخراجهم من حصونهم ثم تتبع اثرهم فى خيبر ، ذلك أنه بعد هزيمة الاحزاب ، قال الرسول لصحبه « لا يصلين احدكم العصر الا فى بنى قريظة » . فكانت الدائرة عليهم ، لأنهم خانوا الله ورسوله .
كان النفر الذين التقى بهم رسول الله فى العقبة ، فى العام الحادى عشر للبعثة سته ، هم :

أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث ، ورافع بن مالك ، وقطبة بن عامر ، وجابر بن عبد الله .
ونحن نعلم من التاريخ ان قبيلتى الاوس والخزرج ، كانتا فى تطاحن وحرب ضروس ، مدة مائة وعشرين سنة لذلك كانتا تتطلعان من توعد اليهود

لهما الى الدين الجديد ، والى الرسول المبعوث ، لتضع الحرب اوزارها ، ويعيشا معا فى سلام .

تلك كانت آمالهم ، وها هى قد بدت تباشير الخير .. تبرز على الساحة ، فى هذا المناخ المضطرب ، من الفوضى والاقتتال والمحنة المتصلة ، والشقاق الدائم .

شيوع الاسلام

بدأ الاسلام ينتشر فى المدينة ، بفضل الله ، ثم بفضل النفر الذين التقوا بالرسول ، وسمعوا منه واستجابوا لدعوته وتواعدوا معه ان يلتقوا به فى موسم العام القادم وانهم سيحملون الدعوة الى قومهم وقالوا كلمتهم المشهورة لرسول الله « فان يجمعهم الله عليك ــ يعنون قومهم بالمدينة فلا رجل اعز منك » . الله أكبر أن هذه الكلمات لبوادر ايمانية تهز الرواسى .

بيعة العقبة الاولى

فى العام التالى .. كانت بيعة العقبة الأولى اذ جاء اثنا عشر رجلا من الأنصار ، والتقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فى العقبة وبايعوه . وحين عودتهم الى المدينة ، بعث معهم الرسول مصعب بن عمير ، وامره ان يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الاسلام ، ويفقههم فى الدين فكان يسمى مقرىء المدينة » .

ولم يكن فى هذه البيعة شىء يتعلق بالجهاد ، لانه لم يفرض بعد ، لانه يتطلب مناخا ومقرا ينطلق منه .. والرسول بمكة مضطهد هو واصحابه فى حصار وضيق وتهديد .

العقبة الآخرة

فى بيعة العقبة الآخرة .. عاد مصعب بن عمير الى مكة ومعه جمع من المسلمين ، خرجوا مستخفين مع قومهم من المشركين للحج .

وتسلل المسلمون فى جنح الليل من بين قومهم الى موعدهم مع الرسول ،

فى العقبة ، وعددهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان وقالوا له :

خذ منا لنفسك ولربك ما احببت ، فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلا القرآن ، ودعا الى الله ، ورغب فى الاسلام ، ثم قال : ابايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، فأخذ البراء بن معرور بيده ، ثم قال : نعم ، والذى بعثك بالحق نبيا لنمنعك مما نمنع منه ازرنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب واهل الحلقة – أى السلاح كله – ورثناها كابرا عن كابر .. فاعترض القول – والبراء يتكلم – أبو الهيثم بن التيهان .. فقال : يا رسول الله ، ان بيننا وبين الرجال حبالا ، وانا قاطعوها – يعنى اليهود – فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم اظهرك الله ، ان ترجع الى قومك وتدعنا ، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم » .

وتمت هذه البيعة ، ثم أمرهم الرسول .. ان يعودوا الى رحالهم ، فقال العباس بن عبادة بن نضلة « والله الذى بعثك بالحق .. ان شئت لنحيلن على اهل منى غدا باسيافنا » .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا الى رحالكم » .

أنظروا الى الايمان .. حين يملأ النفوس .. فى منطق العباس بن عبادة ، ان يميل على المشركين فى منى هو ورهطه .. من المسلمين ، فيجزوا رؤوسهم ، وهم قد بايعوا .. حتى على الحرب ، ولكنها لم تفرض بعد .

ثم أذن الله بها ، فى أول آيه بذلك ، هى قول الله تبارك وتعالى « أذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير ، الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، الى قوله ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز » . وبلغت بيعة العقبة الاخيرة المشركين من اهل مكة ، وادركوا سعد بن عبادة .. قد ترك مكة ، وهو نقيب من الاثنى عشر نقيبا الذين طلب الرسول من المبايعين فى هذه البيعة الاخيرة ، أن يختارهم قومهم ليتحدثوا باسمهم او ليكونوا على قومهم – بتعبير السيرة ، وكانوا تسعة من الخزرج وثلاثة من

الاوس ، وقال لهم الرسول : « انتم كفلاء على قومكم ، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومى ، وكان اول من ضرب على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم البراء بن معرور ، ثم بايع القوم كلهم .. بعد ذلك » .

قبض المشركون على سعد بن عبادة واقتادوه الى مكة يسحبونه ، فرآه رجل ممن كان معهم فقال « ويحك ، اما كان بينك وبين احد من قريش جوار ولا عهد ، قلت بلى والله ، لقد كنت أجيرا لكل من جبير بن مطعم ، والحارث بن امية اعمل فى تجارتهما ، وامنعهم ممن اراد ظلمهم فى بلادى . قال : ويحك ، فاهتف باسميهما ، قال ففعلت ، فجاء مطعم بن عدى . والحارث بن امية . فخلصاه من ايديهم » .

قال عبادة بن الصامت رضى الله عنه : « بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .. بيعة الحرب ، على السمع والطاعة ، فى عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا ، واثرة علينا ، وأن لا ننازع الأمر اهله ، وان نقول بالحق أينما كنا لا نخاف فى الله لومة لائم » .

اذن مقدمات الهجرة قد جاءت .. فى هذه البيعة الاخيرة فى العقبة ، ثم شروع المشركين فى التضييق على الرسول ، الذى انتهى باجتماع آرائهم على قتله . لذلك اذن الرسول لاصحابه بالهجرة الى المدينة . وكان اول من قدم المدينة من الصحابة ابو سلمة بن عبد الاسد ، ثم قدم بعده عامر بن ربيعة ، ومعه امرأته ليلى بنت ابى حثمة « فهى اول ظعينة قدمت المدينة ، ثم قدم الاصحاب ارتالا ، فنزلوا على الانصار .. فى دورهم ، فآووهم ، ونصروهم وآسوهم » .

ولا أدل على وصف ذلك فى القرآن الكريم ، والاشادة ، بهذا الاكرام والايواء .. والايثار والحب ، انها نوازع ايمان العميق .

يقول الله تعالى فى الانصار ، تلك هى شهادة الحى القيوم « والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما اوتوا ، ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »

وكانت هجرة الاصحاب فى الخفاء لانهم ضعفاء .. مستضعفون ،

الا ابن الخطاب رضى الله عنه ، فهاجر عيانا ، امام قريش ، وتحدى كل من يعترض سبيله ، بأن الموت هو نصيبه . ولم يبق بمكة الا رسول الله صلى الله عليه وسلم وابو بكر وعلى رضى الله عنهما .

وجاء الصديق ، يستأذن فى الهجرة فكان الجواب « على رسلك ، فانى أرجو أن يؤذن لى . فقال ابو بكر : وهل ترجو ذلك بأبى انت وأمى ؟، قال الرسول : نعم « وهيأ الصديق الاسباب ، والوسائل للهجرة ، واتفقت قريش فى دار الندوة على قتل الرسول ، وجاء جبريل يؤذن بالهجرة ، وينهاه ان ينام فى مضجعه تلك الليلة » .

وأعلم الرسول ابا بكر بالهجرة ، فقال الصديق :

الصحبة يا رسول الله :

* ومضى الرسول الى على بن ابى طالب ، وامره ان يخلفه بعده بمكة .. الى ان « يؤدى عن الرسول الودائع .. التى كانت عنده للناس اذ لم يكن احد من اهل مكة .. له شيء يخشى عليه ، الا استودعه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما يعلمون من صدقه وأمانته »

واتخذ ابو بكر من ابنه عبد الله اذنا تمتص ما يقوله الناس عنهما فى النهار ، ليبلغه اليهما اذا جن الليل .. الى غير ذلك من خطة رعى الغنم بجانب غار ثور ، وقيام اسماء بمدهما بالطعام وهى خطة الفراسة والحذر والاحتياط ، فى وقت الغدر والحرب ، والتآمر . والخوف كذلك .

واجتمع المشركون على بابه ، لينفذوا خطتهم ، بقتله ، وخرج الرسول من بينهم ، وهو يتلو قول ربه .. « وجعلنا من بين ايديهم سدا ومن خلفهم سدا ، فاغشيناهم فهم لا يبصرون » ، فقد القى الله عليهم سنة من النوم ، لا اله الا هو الحى القيوم ، وترك عليا فى فراشة .

وكان ذلك على الراجح .. فى اليوم الثانى من ربيع الاول ، الموافق ٢٠ من سبتمبر سنة (٦٢٢) م

وأويا الى غار ثور ، وكانت عناية الله تحمى صاحب الرسالة ، وتصرف عنه عيون الاعداء ، وتأمرهم بمنه وفضله ، وكان خوف ابى بكر ، لا على نفسه ، ولكن خوف ابى بكر على رسول الله وكان الايمان يملأ نفس صاحب الرسالة ، حين يقول لابى بكر ، فى ثقة من ربه ، ومطمئنا له :

« ما ظنك باثنين الله ثالثهما » ؟ قمة الثقة واليقين ، والاتكال على من ؟ .. على الله . وفشل المشركون وخسروا .. وخسئوا ، ولما انقطع الطلب .. عن الرسول وصاحبه ، خرجا من الغار نحو دار الهجرة . ورأينا ما حدث لسراقة بن جعشم ، الذى يطاردهما .. من اجل الغنيمة ، ورأينا كذلك حال العنكبوت والحمامة وبيضها ، ورأينا بركة النبى مع شاة ام معبد العجفاء . فى طريق المدينة فامتلأ ضرعها .. حين لمسته اليد الشريفة ، وفاض الاناء باللبن .. من الضرع الذى كان يابسا .

وترعى عين الله رسوله ، فيصل وصاحبه .. الى المدينة ، وكان الانصار .. كل يوم ، يتأهبون ويقفون الساعات الطوال فى الشمس ، ليستقبلوا المختار المهاجر اليهم ، وهو النعمة المهداة .. الى البشرية ، وطال انتظارهم وترقبهم ثم اشرق نور النبوة ، على تلك البطاح ، فى يثرب ، فكان يوم عيد اسلامى . وتآخى المهاجرون .. الذين تركوا اموالهم واولادهم خلفهم فى مكة ، آخى الرسول بينهم .. وبين الانصار فكان الايثار والحب ، الذى وصفته الاية الكريمة .. التى اتيت بها آنفا ، وكان العهد مع اليهود بالمدينة .

المد الاسلامى

* وأخذ المد الاسلامى أبعاده .. فى انتشار الدعوة ، ثم على رقعة الارض ، وجاء النصر من الله ، وبلغت دعوة الله اقاصى الارض ، يحملها فتيان مؤمنون ، امتلأت صدورهم ايمانا ، فأخلصوا العمل ، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فكانوا العزة ، وكانت العزة لهم .

فهل يعود للمسلمين شبابهم اليوم بعد هذا الهجود ، ذلك يتطلب فهم الاسلام اولا ، ثم العمل بتعاليمه ، ونبذ الدنيا ظهريا .

وتمر السنة الهجرية الجديدة كتاريخ .. من اول المحرم ، وتمر كذلك الهجرة ، فى توقيتها فهل اخذنا من الهجرة عبرة .. ليومنا وغدنا ، أما أمسنا ، فقد انسلخ .

هل نحن فى العصر الذى يشير اليه الحديث ، غثاء كغثاء السيل ؟

لكنا يجب أن نعمل بصدق ، وادراك ، وان يعلم المتعلم ، الجاهل ويصحو علماء المسلمين ، فهم ورثة الانبياء ، واين هم من الجهاد الاكبر والاصغر ، وماذا ادوا لأمتهم .. فى شتى بقاع الارض .. من عمل جاد .. يريدون به وجه الله لا أحسب ان الهجرة ذكرى تمر .. فى تقليب اوراق التقويم ، وحساب الايام ، دون التأمل الى المهاجر عليه السلام ، والاصحاب ، الذين احتملوا قبل الهجرة الوان العذاب ثم كان الجهاد بعد ذلك ، والفتوحات ونشر دين الله فى فجاج الارض ، حتى تحقق للاسلام اهدافه ، والاصل اتباع منهج محمد صلى الله عليه وسلم . فهل تجدى الذكرى ؟

كانت الهجرة عزا ونصرا

* الحديث عن الهجرة .. حديث عن المهاجر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

ان اقرار الانسان بوجود الله وطاعته .. يعتبر فى بعض العصور جريمة ، ولذلك ضيق المشركون فى مكة الحصار على النبى والصحابة .. حتى أكرهوا على تركها والهجرة .. الى الحبشة مرتين ، ثم الى المدينة المنورة .

جريمة هذه الصفوة المؤمنة فى رأى الكفار ، أنهم قالوا ربنا الله . كما جاء فى القرآن الكريم « الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله » .

ورحلة الهجرة .. منها ما هو معلوم للرسول عليه السلام ، ومنها ما هو غير معلوم .

ولعل الرسول فى هذه الرحلة الشاقة المضنية ، قد تسلى بسراقة بن نوفل ، وتسلى بحلب شاة أم معبد ، حيث أكرمه الله .

ولم يكن بيت أم معبد فى الطريق التى سلكها الرسول ، وهى غير الطريق المعلوم للقوافل ، وحين نفد زاده من ماء وطعام ولمح بيت ام معبد أو خيمتها عن بعد جنح اليها وكانت عندها شاة عجفاء حتى أنها من الهزال لم تستطع أن تلحق بالشياه لترعى معها واستأذن الرسول ام معبد .. ليحلب الشـاة العجفاء .. بعد ان سألها زادا بغير ثمن .. لعزة نفسه ، ولكنه استأذن فى حلب الشاة ، لان العرب كانت ومازالت تقدم اللبن مجانا .. ولا تبيعه .

وقالت أم معبد .. بابى أنت وأمى ، ووصفت حال الشاة غير الخافى ، وبقدرة وارادة من يقول للشىء كن فيكون ، امتلأ ضرع الشاة وحلبها الرسول ثلاثا ، وقدم الحليب لابى بكر رضى الله عنه ، ولعبد الله بن اريقط الدليل .. وأم معبد ، وشرب هو اخر الأمر ، ثم ملأ الاناء وتركه لها .

ويجىء زوج أم معبد ، وتقص عليه القصة ، وكانت عنده أخبار ، بأن نبيا ظهر فى مكة وحاربه قومه . وطلب الى زوجه ان تصف له الرسول . فوصفته اجمل وصف ، فعرف انه محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن مشقة الرحلة ، أن ابن اريقط سلك طريقا غير طريق القوافل حسب الخطة ، فلو ضل الطريق ، لضاع الى غير ذلك من عناء الحر ، وكون الرحلة اثنى عشر يوما . غير ان ارادة الله فوق كل شيء ، وهو الحفيظ على رسوله ، الذى اختاره لاداء الرسالة وتمكينها فى الأرض وفى صدور المؤمنين .. لتتم حجة الله على خلقه اجمعين .

كانت الهجرة كما يقول ابن الخطاب رضى الله عنه « اعزازا ونصرا » .

والمدينة لولا الهجرة .. بلد مهمل لا قيمة له ، ولكنّ الهجرة جعلت منها بلدا له اهمية وتاريخ . حيث آوت الدين الجديد ، فبعثت المدينة المنورة بعثا جديدا ، وانطلقت منها الالوية .. تفتح الأمصار والأقطار .. شرقا وغربا وشمالا وجنوبا .

وكان فى المدينة الأوس والخزرج ، وهم أبناء عمومة وكان معهم وبينهم اليهود ، جاءوا ، اليها من الشام ، وهم اهل تجارة ، لا يهمهم الا المال والدسيسة . وكانوا يفتنون بين الأوس ، والخزرج ، عاما .. يكونون فى صف الأوس ، وآخر فى صف الخزرج . وظلوا على هذه الحال حتى هداهم الله للاسلام ، فانطفأت هذه الفتنة .

واليهود اشد الناس عداوة للذين آمنوا بشهادة القرآن الكريم ، واكثرهم جدالا فى دينهم ، كما تفصل ذلك الآيات المباركات من سورة البقرة .

والدين الاسلامى يحتاج الى سلطة .. لتنفيذ أحكامه ، وبدون سلطة لا ينهض .

... فى مكة حال المشركون بين النبى والدعوة الى الاسلام والمشركون كثرة .. لهم شوكة .

واستجابت المدينة للدعوة ، حين كان الرسول يعرض نفسه على القبائل فى الحج . وذلك فى لقائه عليه الصلاة والسلام بالانصار فى العقبة .

المدينة آوت ونصرت فوجد الاسلام منطلقا ، فانتشر وازدهر ، ولو بقى الرسول فى مكة مائة عام .. لما استطاع ان ينشر الاسلام فيها ... بسبب قوة شوكة الكفار ومحاربتهم للدين الجديد ــ الا ان يشاء الله .

والمشركون فى المدينة اقل منهم فى مكة .

فى مكة نزل من القرآن العقائد ، وقليل من التشريع مثل تحريم الميتة .

وبعد الهجرة نزل التشريع مفصلا .. حيث الأمن والحرية والاطمئنان .. لسريان الشريعة .

وحرم على المسلمين البقاء فى مكة بعد الفتح .. لتصدق هجرتهم الى الله ورسوله ، حيث تركوا اموالهم وأهليهم .. قبل الفتح فارين بدينهم . وذكر الرسول .. انه لن يبقى بمكة الا بائس ، لظروف قاهرة .. هو خاله سعد بن ابى وقاص ، وقد صدقت نبوءة الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث اقام خاله بمكة بعد انتقال الرسول الى الرفيق الاعلى .

كان الرسول وهو يودع اخر معالم مكة المشرفة .. يدعو ربه « اللهم كما حببت الى مكة فأحبب الى المدينة وأشد » .

نعم .. إن حفنة من تراب مكة والمدينة ... أفضل من عواصم العالم كله .

كان الصحابة من المهاجرين .. يحنون الى موطنهم الأول مكة ، وكان بلال يردد بيتا مشهورا « الا ليت شعرى هل أبيتن ليلة » . وكان حين يسمعه الرسول صلى الله عليه وسلم يقول له فى رفق ، حتى لا يهيج مشاعر المهاجرين ، ويوقد حنينهم ، يقول له عليه السلام « دع القلوب تقر » .

وحينما بشر الرسول المهاجرين بالعمرة فى السنة السادسة ، كانت الأرض لا تسعهم من الفرحة . وحينما ردتهم قريش ، وحصل صلح الحديبية ، حزن المهاجرون حزنا عظيما .

وحتى فتح مكة لم يقصده المسلمون .. لولا اعتداء قريش .. وقتلها حلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، ونقضها للعهد الذى كان بينها وبينه . فاعد الرسول العدة لقريش .. ليثأر لحلفائه .. المعتدى عليهم .

وفضل الهجرة ، كان من ثماره هذه الملايين التى تعد بالمئات .
تقول كلها — لا اله الا الله . محمد رسول الله — .

الهجرة اذن شئ طبيعى .. فقد هاجر نبى الله ابراهيم ولم يستقر فى موطن واحد . وسيدنا موسى وقد ولد فى مصر ، هاجر الى شعيب .. ومات فى سيناء . وعيسى عليه السلام وامه هاجرا .

لقد حمل الرسول عليه السلام .. النصيب الأعسر والأكبر من الأذى .. فى سبيل دعوته ... التى أمر أن يصدع بها . وكان قومه يثقون فيه ويسمونه الأمين ، وحين دعاهم الى الله ودينه قال له عمه ، وهو من أقرب الناس اليه — تبا لك — .

وعاد من الطائف حزينا .. فشكا الى ربه ضعفه وقلة حيلته . وهوانه على الناس . ولكنه استدرك رسالته ، فقال : ان لم يكن بك غضب على فلا أبالى .

هذه ملامح ، أو كلمات قصار عن الهجرة ، فى ذكرى الهجرة ، ونحن نشهد اليوم انبلاج فجر جديد على المسلمين .. ويقظة بعد سبات طويل ، وانتفاضة جادة ان شاء الله . ليقوموا بدورهم القيادى من جديد ، ليكونوا سادة الأرض كما كان اسلافهم من قبل ، وليكونوا أعزة اقوياء .. لا يطمع فيهم طامع ، ولا حاقد عليهم وعلى دينهم . ليعودوا الى الله ، أمة واحدة كما سماهم ربهم ، يعبدونه ويقيمون حدوده ، وينشرون الهدى والسلام فى الأرض .

ما أجدر المسلمين فى ذكرى الهجرة ، ان يعتصموا بحبل الله جميعا كما امرهم ربهم ليكون لهم النصر على اعدائهم ، حين ينتصرون على انفسهم بالجهاد الاكبر كما سماه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم .. لأنهم خير أمة كما سماهم ربهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله .

لقد أكرم الله المسلمين بالاسلام ، فجدير بهم أن يكرموا أنفسهم بالتمسك بهذا الدين ليكونوا عباد الله المكرمين ، وليكون لهم عز الدنيا وعز الاخرة .

بناء العقائد

* ضمن برنامج « التوعية الاسلامية » الذى تنهض به نخبة كريمة .. تدعو الى الله على بصيرة .. لتنير العقول بنور الله ، وتوقظ الأفئدة بدعوة الحق .. فى هذا البلد الذى انطلقت منه شعلة الايمان والتوحيد ، لانقاذ البشرية من الغفلة والضلال ، ولكى يسترد الاسلام مجده ويعيد سيرته الأولى ، حين يؤدى أتباعه رسالتهم وامانتهم بالدعوة الى الله .. الواحد الأحد ونبذ كل مبدأ يتعارض مع الدين الخالص ، الذى جاء به نبى الهدى وخاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم . لهداية الخلق .

ضمن هذا الاطار تقوم لجنة التوعية بجدة بجهد مشكور ، يشاركها فيه ... أنصار هذه الدعوة الخيرة من مفكرى الاسلام .

ضمن هذا البرنامج ، القى المفكر الاسلامى الاستاذ « محمد قطب » مساء الثلاثاء الماضى .. محاضرة بعنوان « العهد المكى عهد تربية واعداد » فى مدارس الثغر بجدة استمع اليها عدد وافر من الشيوخ والشبان .

وكانت محاضرة قيمة بحق .. بأسلوب عصرى واضح سهل ، فى التدليل

على تربية الصفوة الأولى من المسلمين فى مكة وتحضيرها للقيام باعبائها الجسام ، فى حمل الدعوة لاشاعتها فى العالم أجمع بقيادة خاتم الرسل عليه السلام .

وكانت تربية واعدادا شاقا كما دلل على ذلك المحاضر الكريم بأمثلة من واقع المعاناة ، ليكون رسل الدعوة قادرين على تحمل المكاره التى تنتظرهم وصابرين أقوياءِ على بناء الكيان الاسلامى الجديد .. وما ينتظره من حرب عوان من اعدائه . وما يتجشم أنصاره فى سبيل نشر الدعوة من مشاق ، من الجاحدين والمنكرين والضالين .

وكان الأساس او المنطلق .. الذى بنى عليه المحاضر الكريم الاعداد للدعوة هو .. لا اله الا الله ، تملأ القلب ، وتستشعرها النفس والجوارح ، تستيقنها حق اليقين ، لتكون منطقها وحجتها عليها وعلى الآخرين خروجا من الشرك بالله واخلاص العبادة لله رب العالمين .

وضرب المحاضر الأمثال من القرآن الكريم ، ومن عادات الجاهلية وحميتها الضالة المضلة رغم اعتراف المشركين بوجود الله ، ولكنهم لا يخلصون له العبادة ، ولا يعترفون له بالوحدانية ولكنهم يجعلون له شركاء ، كما بين ذلك القرآن الكريم .

وأن الأمة الاسلامية ، خير امة على الاطلاق وخصائصها التى ميزت بها ، حتى كانت خير أمة ، بشهادة خالقها .. سبحانه وتعالى وهى أنها :

١ ــ تأمر بالمعروف .
٢ ــ تنهى عن المنكر .
٣ ــ تؤمن بالله .

استشعرت هذه الخصائص واستقرت فى نفوسها ، فاخلصت لها ، وندبت عملها لها ، خالصة لله . فلم تأبه بما سوى هذا الاخلاص والتفرغ لحمل أمانتها ، بعد أن أعدت لها أعدادا شاقا مضنيا ، لتكون قادرة على اداء ما حملته ، لولا هذا الأعداد العنيف ، والامتحان الصارم الجـاد ، لما استطاعت أن تؤدى دورها ، ولكن الله العليم الخبير ، مكن فى نفوسها المنهاج بعد امتحان عسير ، فاستطاعت أن تحطم قيود الباطل ، وأن تنشر دعوة الحق ، وقد نذرت نفسها لها ، ونبذت كل شيء فى سبيلها ، المال والأهل والولد ، بل حتى أنفسهم نسوها ، وحتى العذاب الذى تعرضوا له ثلاثة عشر عاما والاضطهاد ، لم تلن قناتهم ، ولا نال منهم اعداؤهم شيئا مما كانوا يطمعون .. فى الرجوع عن نصرة الدعوة والدين الذى جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

آمنوا بالله ، فزادهم الله هدى ، وتشبعت نفوسهم بالصبر فى سبيل الحق وحده . ولم يبق فيها اية ثغرة ينفذ منها الباطل ، فيؤثر عليها . الايمان وحده ازهق ضده ، فصفت النفوس ، وأخلصت العبادة لله الواحد القاهر .

ترسخت الأسس فى نفوس هذه الصفوة بتدريب الرائد الأول لا يكبح بارادة الله وعونه ، حتى ملأ الأرض نورا وهديا وعدلا وبرا ورحمة .

والقرآن الكريم ، منه ما هو مكى ومنه ما هو مدنى ، وربما كان منه ما نزل فى بعض الأسفار والانتقالات والرحلات أو الغزوات ، التى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم بها .. بين حين وحين .

*فالقرآن .. كان نزوله يوافق سير الدعوة الاسلامية ، أينما سارت .. منذ أول يوم نزلت فيه سورة العلق .. الى ان ختم الله به التنزيل .. يوم حجة الوداع ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلته .. حين أقفل بها باب الوحى نهائيا . وختمت الرسالات نهائيا ، وتمت الحجة على جميع الخلق ، حيث نزل قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » .

إن السور التى نزلت بمكة من القرآن الكريم .. هى سور بناء العقائد وتثبيت الرجال عليها .

ان ما نزل من القرآن فى مكة .. كان مكرسا كله لبناء العقائد ولتصحيح النفوس ، ولتكوين الانسان .

واذا أعد الانسان أولا .. بناء على العقيدة الصحيحة ، التى تستقى الصواب من الحق الذى أنزله الله على نبيه ، واذا ثبت فى النفوس هذا البناء الصلب القوى ، عندئذ يهون كل شىء .

عندما تثبت العقائد الصحيحة التى تأخذ الهدى والصواب من الحق الذى أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن الهدى الذى جاء به محمد .

عندما تثبت هذه العقيدة فى الناس ، فان ارادة قوية بالغة القيمة ، تنطلق منهم . إذا أرادوا أن يغيروا هذه الدنيا غيروها ، وأن أرادوا أن يفوزوا بالنصر فازوا به .. بأسهل السبل .

ولكن ناسا بلا عقائد ، وبلا تكوين ، وبدون تربية قويمة ، لا تنتظر منهم جدوى ، ولا ترجى منهم فائدة .

إن القوة فى الحركة .. هى العقائد ..

فالقرآن الذى نزل بمكة ، كان لبناء العقائد .. واقامة الأفكار على أساس صحيح ، وبناء النفوس على الوعى الكامل .. بحقيقة خالقها وطرق سلامتها ، لان النفس إن تلفت أو عطبت ، تحول صاحبها الى شيطان رجيم ، ولان النفس ان صحت وسلمت واستقامت فى الفكرة والوجهة والارادة .. كانت نفسا ، يتحول صاحبها الى ملك كريم . كان القرآن الذى ينزل فى مكة .. مجردا لهذا القصد ، معدا لهذه الغاية ، غايته تربية النفس . وتهذيب الروح ، ورفعها الى الأفاق .

أمضى الرسول الكريم عليه السلام .. ثلاث عشرة سنة كاملة .. يعد النفوس ، ويبنى العقائد .. ويقيم الفكر على الأساس الصحيح .

أمضى هذه الفترة الطويلة .. يجرد الارادات من كافة الشوائب ، ويطارد الخرافات فى داخل هذه النفوس .. ويحدد الغاية والوجهة الكبيرة ، ويبرر المقاصد المنشودة .

كل ذلك برعاية الله وبوحيه وقرآنه .

والحياة بدون عقائد .. تصبح هراء ولهوا وعبثا .. لا جدوى منها .

ان المأساة التى تعانيها الانسانية .. هى مأساة العقيدة ، العقيدة التى بها ندرك أن العالم كله ستحدث له التصفية النهائية ، وأن الناس جميعهم سيساقون لرب العالمين ونحن ندرك قول الله تبارك وتعالى « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون »

هذا هو المعنى الكبير للتربية والاعداد أبان ظهور الاسلام للقلة التى آمنت ، ليكون منها المنطلق .. الذى أصبح اليوم يكون سبعمائة مليون .. يقولون لا اله الا الله .. فى شتى بقاع الأرض ..

أسأل الله .. أن يضع الصواب فى عقولنا ، وأن يجدد عاطفتنا ووجداننا لعبادته وطاعته ورضوانه ، وللأمل به .. والرجاء منه ، وان يذيقنا حلاوة الايمان ، وأن يأخذ بأيدينا الى صراطه المستقيم ، وأن يوحد صفوفنا تحت راية لا اله الا الله ، كما وحد قبلتنا ، وأسأله سبحانه ان يلهمنا طاعته ، ويجنبنا معصيته ، وأن يملأ بيوتنا بالخير ، ويملا صدورنا بالايمان والقرآن وأسأله أن يملأ هذا العالم أمنا وسلاما .. ويأخذه الى الحق طائعا أو راغبا ، إنه على كل شىء قدير ..

حديث الهجـــرة

لم تكن هجرة النبى محمد صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة خوفا .. من قريش او فرارا من الموت ، وإنما الهجرة ، كانت .. من أجل البحث عن مناخ صالح ، لتبليغ الدعوة ، وتقبلها ، وقد ضاقت بها مكة ، وحاربتها ، ولم يتم للدعوة .. أن تنتشر كما يراد لها ، لذلك .. كان لا بد من بحث عن ساحة أخرى جديدة غير مكة ، تعين على بث الدعوة ، وحمايتها وتقبلها ، واشاعتها ، حتى يتاح لها .. أن تنتشر ، كما يريد الله لها .

ولو كان النبى صلى الله عليه وسلم حريصا على حياته وحدها ، لهاجر الى الحبشة كما عرض على الاصحاب ، ان يخرجوا اليها ، وكان الهدف هو ايثار العافية بعد الضيق .. الذى لاقوه فى مكة ، والحصار الشديد .. الذى فرض على النبى صلى الله عليه وسلم وصحبه .

كان لا بد من البحث .. عن المخارج ، فكانت هجرتا الحبشة اولا .. للاصحاب من اجل التنفيس ، والترويح عن النفس ، بعد الكرب ، والعناء الشديد ، والحرب الضروس . وهذه حال موقوتة ، لذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم ، بعد اليأس .. من مكة والطائف يعرض على القبائل الدعوة ، وكانت الفرصة المتاحة مواسم الحج ، حيث تجمع الناس فى الحرم المكى ، من انحاء مختلفة ، خاصة .. من الجزيرة .

وكان توفيق الله فى بيعتى العقبة الاولى والآخرة . وتقرر بعد ان ضمن الانصار الذود .. عن الرسول عليه السلام ، وحمايته ، مما يحمون به ، أموالهم ، وأزواجهم وأبناءهم .

وفى المدينة بعيدا عن المحاربة ، وبعيدا .. عن قريش وحلفائها ، يستطيع الرسول ، أن يبلغ دعوة الله .. الى الناس كافة ، هكذا ، شاء الله ، وما شاء سبحانه كان .. وأتيح للدعوة الخيرة بتقدير الله ، ثم باخلاص الانصار أن

يتكون الكيان لتبليغ الدعوة ، فكانت المدينة المنورة الساحة الصالحة لذلك ، والفرصة المتاحة ومنها انطلقت الدعوة الى الامصار بعد ذلك النصر فى بدر وكان قبل المعركة استهداف عير قريش كنوع من الاعلان .. عن القوة الذاتية فى الصدور ، ولم تكن عدة حرب وجيشاً جراراً ، ولكنه كان إيمانا ، وهو أقوى من هذا او ذاك .

ولعل هذا التحرش الانتقامى ، دفع قريشا ، ان تركب رأسها ، وتزمجر ، وتتوعد وتهدد .. للانتقام ، من واقع كبريائها وخيلائها ، وان لها المهابة كما تظن ، والقوة تخيف بها ، فهى جارة الحرم ، وهى بطون متحالفة ومتقاربة عرقا ، فلها .. من اجل ذلك شوكة وقد اعانها على ذلك هزيمة ابرهة ، وأبرهة وجيشة ، لم تهزمهما قريش ، وانما قدرة الله ، رب الحرم يحمية .

وخروج المسلمين من المدينة ، يعترضون .. عير قريش ، دعا اليه .. ان المسلمين خرجوا من مكة تاركين اموالهم ، واسرهم ، فارين خفية بدينهم ، فهم قد اخرجوا من ديارهم لانهم قالوا : لا اله الا الله . وهم قد ظلموا ، من اجل ذلك ، ينبغى ان يغنموا الفرص وان الله ناصر المظلومين .

وليحق الله الحق ، كان الخروج الى العير .. ايذانا بذلك النصر فى بدر ، نصر الله جنده وعباده ، وهم اذلة ، قلة .. فى العدد ، والعتاد ، ذلك انه اراد سبحانه لدينه ، أن ينتشر ، ولدعوته ان تبلغ الآفاق ، فكانت الوسيلة ، التعرض للعير ، وقد نجت ، حين ساحل بها .. ابو سفيان بن حرب ، وكانت النتيجة .. الحرب ليعلم الناس .. فى اقطار الارض ، ان وعد الله حق ، ينصر رسله والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، هكذا ارادة الله .

وكان النصر فى بدر ، للقوة المستضعفة على القوة الباغية العتيدة بداية النهاية ، بهذه الحرب ، تم النصر للكيان الجديد ، الذى يحمل الدعوة ، ويحاول ، أن ينشرها ، ويذيعها فى الآفاق كما أراد الله ، وامر . فكان التعرض للعير الذى تمخضت عنه غزوة بدر .. الايذان ، لبروز الكيان للدعوة الهادية ، سمع بها القاصى ، والدانى قلة مستضعفة ، اذلة ، تنتصر على قوة اكبر منها ، واكثر جندا ، والقوة المستضعفة ، كانت بالامس ، تهان وينكل بها ، وتقاطع ، وتحاصر .. سنين ، ثم يشاء الله لها ، أن تجد مناخا ملائما ، وتهدد العير .. بالاستيلاء عليها ،.. فكانت المفتاح لذلك النصر ، والطريق اليه ، حتى اذا نجت

التجارة ، كانت الشوكة ، التى لم يكن المسلمون .. يتوقعونها ولا يودونها .. ولكن شاء الله ليحق الحق وينصر جنده وتكون لهم شوكة من ذات الشوكة ، وكان .. ما اراد الله واختار ، وما كان للمؤمنين الخيرة .

وكان الجهاد ، وكانت الفتوحات ، وكان النصر يغرب به طارق بن زياد الى ابواب اوروبا ، ويشرق به قتيبه الباهلى ، الى مشارف الصين ، فتيان ، فى اعمار الزهور يتوغلون شرقا وغربا فى مجاهل بعيدة ، لا يلمون بجغرافيتها ، ولا تاريخها ، وإنما يدفعهم الى هذا الزحف ايمان يملأ الصدور ، يؤمنون .. ان عليهم دورا ينبغى ان يؤدوه ، فيمضون فيه ، لا يخشون الشدة لانهم موقنون ان للحياة اجلا ، هم بالغوه وما دام لم يحن ، فما عليهم ، الا ان يمضوا نحو الغاية المثلى ، لا يخافون لانهم وعوا .. ما عليهم ، وكان لهم ما ارادوا .

وجئنا نحن اليوم ، لنجد دينا قيما ، لم نمتحن كما امتحن الأولون ، السابقون فى تبليغه والذود عنه ، وانما هو قد تركزت أركانه .. على هدى من الله وتوطدت اركانه وقواعده ، واستتب عبر قرون طوال ، وليتنا .. ننهض بايسر السبل فيه ، وله .

عام جديد وقرن جديد

استقبل المسلمون ، بالامس عاما هجريا جديدا ، كما استقبلوا قرنا هجريا جديدا ، وعام جديد ، وقرن جديد هجريان ، يعنيان الكثير ، عند المتأملين ، نرجو الله ، ان نكون .. من المتدبرين ، والواعين ، غير الغافلين .

أربعة عشر قرنا .. مضت على هجرة النبى صلى الله عليه وسلم من مكة الى المدينة والهجرة كانت للدين ومن اجل انتشاره ، حتى يبلغ الناس .. فى مشارق الارض ومغاربها وقد كان له ذلك بفضل الله وتقديره ، ثم بجهاد المؤمنين ، الذين صدقوا .. ما عاهدوا الله عليه .

والاسلام الدين القيم ، الذى مضى على ظهوره ، اكثر من اربعة عشر قرنا ، أثبت بالادلة وبشهادة غير انصاره ، انه صالح .. لكل زمان ومكان وانه الدين الباقى الخالص الذى لم تفسده الدسائس ، وانه الطريق المستقيم .. الى الخلاص من الضياع او الادواء من تمسك به فاز وظفر ، ومن أعرض عنه خاب وخسر .

والبشرية اليوم فى دوامة عريضة ، وليس لها انقاذ ولا منقذ الا الاسلام .

ومما يفرح ويسر ، ان هذا المفهوم اخذ منذ سنين ، يعمق فى النفوس التى اراد الله بها خيرا ، واراد لها الخير ، فنرى كل يوم اعدادا من البشر .. يعتنقون الاسلام عن قناعة ، وبعد دراسة وفهم وادراك ، لسماحة هذا الدين ، ويظل .. من أضلهم الله ، وختم على سمعهم وابصارهم وقلوبهم لا يؤمنون .

ويظل آخرون .. يلصقون بالاسلام اخطاء انصاره .. والاسلام براء مما يرتكب هؤلاء . فالاسلام الجوهر ، والمنحرفون ليسوا صورتـــه المشرقــة الوضاءة ، وليسوا منهجه المستقيم ، فالدين القيم يهدى الى الحق ، والى طريق مستقيم ، كما شهدت الجن حين سمعت القرآن الكريم .

وتاخر المسلمين اليوم وضعفهم ، هو انهم آثروا الحياة الدنيا ، وشغلوا بها ، فبعدوا .. عن الجوهر المصفى ، مثل اولئك .. الذين اعتذروا للرسول ، وقعدوا عن القتال ، فقالوا : « شغلتنا اموالنا واهلونا ، فاستغفر لنـــا ، يقولون ــ هكذا يعلن القرآن ــ بالسنتهم ما ليس فى قلوبهم .

الهجرة اليوم ليست جغرافية

علينا اليوم ان نهاجر ، وليست هجرة اليوم ، كما كانت بالامس ، من بلد الى بلد ، فرارا بالدين من أجل حمايته ، وانما .. لنهاجر الى الله ، ونفر اليه ، ولا اذهب بعيدا حين أسوق ذلك الحديث النبوى الشريف ، حيث يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت هجرته الى امرأه ينكحها أو دنيا يصيبها فهجرته الى ماهاجر اليه » . لنهاجر الى الله بالدعوة الى الدين الاسلامى ولن تجدى هجرتنا ولا دعوتنا حتى نكون صورة منها ، ولها . وليس حقا ، ولا منطقا ، ان نقول .. غير ما نصنع « كبر مقتا عند الله ان تقولوا ما لا تفعلون » . وانما يجب أن يكون سلوكنا .. مطابقا لاقوالنا ، والا .. فلا تأثير لما نقول ، ونحن ننتسب الى الاسلام وفى صورة شائهة . علينا ان ننشر الاسلام وتعاليمه ، ونرد الاباطيل .. التى يروجها .. الاعداء .. من الشيوعيين واليهود والمبطلين . وقل جاء الحق وزهق الباطل ، ان الباطل كان زهوقا .

الاسلام ، الذى بدأ بابى بكر وخديجة وعلى واسامة ، وعمار ، وبلال ، وصهيب ، ومضى على ظهوره اكثر من اربعة عشر قرنا ، وبلغ أتباعه اليوم اكثر من تسعمائة مليون نسمة ، اكثر من ثلث سكان العالم ما احراه وما اجدره ، أن يكون المعتنق الاول والاخير ، بدأ باولئك النفر فملأ صدورهم ونفوسهم وعقولهم ، حتى الاعجمى اللسان سعى اليه ، واعتنقه ، واحبه ، وملأ جوانحه ، وتحمل فى سبيله وهو الضعيف المستضعف .. الويلات والوان العذاب ، وظل يقول : أحد أحد ، وصهيب ما زال يتنقل بين الاديرة والرهبان ، هجر الملك والمال ، يفتش عن الحق ، هداه الله اليه ، فضاق بالضلال والفساد ، حتى تحمل فى سبيل ذلك آلام الرق ، حين استولى عليه ، وبيع بضاعة ، رضى بذلك ، وهو يتسمع .. فى مكة ويتحسس ، ان رسولا يبعث ، وتحمل الاذى ، هو والمستضعفون ، امثال ياسر وسمية ، وبلال ، ليس لهم انصار ، وليست لهم عشيرة ، وليس لهم ركن شديد يأوون اليه ، ثبتوا فى الامتحان ، حتى سمعنا الفاروق عمر رضى الله عنه يقول : ابو بكر سيدنا — اعتق بلالا سيدنا ... بلال الحبشى ،، يصفه الفاروق ، بجلال قدره بانه سيده ، لان بلالا من السابقين الاولين من المسلمين والمهاجرين . أية مكانه هذه ؟ لا اله الا الله . هكذا الاسلام يسوى بين المسلمين ، ويجعل الاكرم هو الأتقى ، ذلك ان الله خلق الناس من ذكر وانثى ، وجعلهم شعوبا وقبائل ، ولم يكن افضلهم ولا أكرمهم على الله وعنده ، غنيهم او شريفهم ، وإنما اتقاهم ، هذا هو المقياس .. الذى لا يتغير ولا يتبدل ، ولا يمارى فيه .

وحدة الأمة المسلمة

مع مطلع عام جديد ، وقرن هجرى جديد ، نرجو ونأمل ، أن يمن الله على عباده ، بأن يتبعوا سبله ويهديهم اليها ، وان يوحد .. كلمتهم ، ويؤلف بين قلوبهم ، وأن يعينهم على انفسهم وان يدفعهم .. الى ان يعتصموا بحبله جميعا ، وهو الوحدة ، فى ظل العقيدة والتمسك بها وبين ايديهم كتاب وسنة ، ما إن تمسكوا بهما .. لن يضلوا ابدا .

ولا يتحقق الكيان حتى يحرث المسلمون للآخرة ، ليزيد الله فى حرثهم ، أما من أراد حرث الدنيا ، فليس له فى الاخرة .. من نصيب .

اذا ملأت الدنيا الصدور ، فلم يبق فيها مجال لعرض آخر افضل . واذا ملئت بها النفوس حل الذل والبوار ، والهزيمة وهذه حالنا اليوم ، لاننا بعيدون عن الاسلام ، بعيدون عن الله . « شغلتنا اموالنا واهلونا » اسرفنا على انفسنا ، والذين أسرفوا على انفسهم .. لا يقنطون من رحمة الله ولكننا مع ذلك اترفنا ، وعاقبة الترف .. الهلاك والدمار ، نعوذ بالله من سخطه ، ونرجوه جلت قدرته ، أن يسلك بنا طريق الرشاد ، والصلاح ، حتى لا نضل ، ولا نطغى فى الارض . وأن يوفقنا ويوقظنا من غفلتنا ويجنبنا مزالق السوء . حتى لا نضيع كما ضاع غيرنا ، حين تاهوا ، وهاموا ، وباعوا دينهم بدنياهم ، فاستحقوا سخط الله .

قيم الاسلام وحضارته

إن للاسلام قيما ، وحضارة ، ينبغى أن نبلغها الى الناس ، وان نكون رسل خير ، ندعو الى الله على بصيرة ، حتى نفوز بذلك المعنى الكريم فى الحديث الشريف : لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم .. وقد شاهدت .. فى مسجد المركز الاسلامى بلندن يوم الجمعة الماضية رجلا انجليزيا ، اعتنق الاسلام ، وكان أكبر مغن اسمه كات استيغر وهجر الفحش ، واصبح يعمل للاسلام ، ويسلك منهجه ، وكم وددت ان اجرى معه حديثا ، لولا ضيق وقتى وسفرى ، ولكنى وكلت من يؤدى ذلك . ان العقلاء يعتنقون الاسلام ، بهداية الله لهم اولا ، ثم .. عن قناعة ، وعلينا ان نعمل له ، ولكنا مقصرون .

وليت الدول الاسلامية القادرة ، توجد لها قناه فى التلفاز البريطانى وكذلك الامريكى والالمانى تبث ساعتين كل يوم برامج بلغات تلك البلاد ، عن سماحة الاسلام وحضارته ، وقوامته ، ويسره ، وخلوه من الخرافات والاباطيل . ليت القادرين يصنعون ذلك وسوف يدخل الناس فى دين الله افواجا لان الاسلام ، هو المنقذ ولان العالم .. فى ضياع ، ويفتش بعقله وعلمه ، عن المنقذ ، ولا بد من العمل والله يعين على الخير ويجزى من احسن عملا . والحياة ساحة عمل ، وسعى ، واللبيب من اغتنم ذلك ، بما يقدر عليه ، والله سائله ..

اذا قصر فى اداء دوره كما ينبغى . وشاعرنا القديم يقول :

ولـــم ار فى عيـــوب النـــاس عيبا
كنقص القادريـــن على التمام

وأقول لنفسى ولأخوتى المسلمين ، ما اعلنه رسول الله قبل اربعة عشر قرنا : « ليس الايمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل » والله يأمرنا ان نعمل ، لانفسنا وللاخرين . فالاسلام دين شامل جامع انه دين التراحم ، والترابط ، والتعاون ، والمثل للقريب ، والبعيد ، قرابة دم ، وقرابة جيرة . ويكفى أن نتأمل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وقوله : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه »

إننا اليوم كثرة ، ولكننا .. كما يقول الحديث ، غثاء كغثاء السيل ، ولا يعنى ذلك اليأس والقنوط . وإنما العمل الجاد ، كل انسان على قدر طاقته ، فالاسلام ومجتمعه ، يتكون من الافراد وكل فرد فيه مسئول وعليه دور ، ألا ترى الى الامر بالمعروف انه مطلوب من كل انسان كفرض ، ويسبق ذلك فى بعض آيات الكتاب العزيز الدعوة الى الخير ، والامر بالمعروف نفسه دعوة الى الخير ، ونهاية ذلك الفلاح والنجاح والفوز المبين .

اذن كل انسان عليه دوره ، وواجبه نحو دينه ، التمسك به اولا كما يجب ، خلقا وقولا ومسلكا ، ثم ايصاله الى غيره ، من غير المؤمنين ، وتبصير المسلمين واعانتهم ، والاخذ بايديهم ، انه ليس واجب العلماء وحدهم ، ولا الدول الاسلامية وحدها ، ولكنه واجب القادر والقادر شامل ، أشبه بالقدرة فى الحج ، وعيا وجهدا وكفاية .. الخ .

إن الحديث .. عن الهجرة ليطول وكذلك واجب المسلم ، ولكنى لا أسرد .. تاريخا وإنما أكتب تذكيرا لنفسى اولا ، ثم لاخوتى ، حتى لا تلفنا الغفلة فنمضى ، ثم نندم لاننا فرطنا فى جنب الله ، ولا تقبل غدا معذرتنا ، ولا حجة لنا .. وليس التقصير بحجة وإنما مرده الغفلة وانغماسنا فى الدنيا والذى اهلك الكفار انهم بعدوا عن الدين وأذهبوا طيباتهم فى حياتهم الدنيا ،

واستمتعوا بها ، حتى وصفهم القرآن بانهم يتمتعون وياكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم وليس ذلك درب المسلمين والمؤمنين انها الذكرى التى تنفع المؤمنين اللهم حقق خير الآمال خالصة لوجهك الكريم .

بناء الأسس فى البيت والمدرسة

فى البداية حين يكون الحديث عن الأسس ، لابد من التركيز عليها ، فهى المنطلق ، فاذا كانت سليمة ، وصالحة ، بمعنى الاحتمال أمكن بعد ذلك بناء مابعدها عليها ، وأذا كانت غير ذلك عسر الاصلاح الى حد الاستحالة .

وفى حديثى اليوم وأحسب انه موضوع يستحق الاهتمام ينبغى تسليط الأضواء على ركيزة أساسية هى بمثابة الجذور بالقياس الى الاشجار والزرع ، وأعنى بذلك ـ البيت ـ الذى تظهر فيه النبتة بريئة خصيبة اذا وجدت رعاية واهتماما ، وتضيع اذا كان المنبت فاسدا والمناخ رديئا ، الى غير ذلك مما يتطلبه النبات من ماء وسماد ألخ .

اذا صلح البيت واستقام مسلكه كانت النتائج ايجابية ، ويبقى دور المشاركين للبيت فى التنشئة والمسئولية وهى المدرسة ، واذا كان البيت فى غير الصورة المطلوبة منه عسر دور المدرسة ، وهو دور مساعد ولكنه مهم وخطير .

الأم مدرسة

هكذا قالوا عن الأم ، فقد حملت المسئولية الكبرى فى التنشئة وهذا صحيح ، فربما تحملت ثلاثة أرباع هذه التبعة وتحمل الأب الربع ولا أعنى بهذا الانفاق ومسئولية الولى ، وانما المشاركة فى بناء الاسرة ورعاية البذور وتعهدها بمتطلباتها التى تنميها وتصلحها .

ربما كانت هذه التخصصات جوانب وهى أساسية فى المسئولية وهناك الاطار ، ويمكن أن نسميه المناخ بالقياس الى المنطقة يؤثر فيها الى حد المزاج نفسه . وهذا الاطار هو الجو الذى تعيش فيه الاسرة :

وبقدر صفاء الرؤيا ونقاء جو العلاقات بين الاب والام بقدر الحكم على التربة التى نما فيها الطفل ذكرا كان أم أنثى .

فالعلاقات بين الاب والام أساس فى هذا الحكم ، والبيت كما أشرت المنطلق الأول ونقطة البداية والتكوين ، ومابعده تفرع وانعكاسات ، ولا أنسى أن أقول أنه ربما وجد خارج البيت جو عكسى بمعنى أن الطفل ينشأ فى مناخ جيد ولكن المجتمع يؤثر على سلوكه ، وربما المدرسة تؤثر فيه لسوء تصرف مدرس او مدرسة وربما لتقصير من الطالب أدى الى أن يواجه مايكره فيؤثر فى نفسه .

إذن فان الاهتمام بالمنزل أولى خطوات البناء وأولى خطوات الصعود به ، ولابد من التركيز عليه توجيها وبناء واصلاحا وعناية ورعاية وأهتماما .

سبل الاعلام والأسرة

البناء صعب منذ عرف ، ويتطلب صبرا ومصابرة واصرارا على آدائه كمسئولية وواجب حتى تتحقق الآمال ويعلو الصرح الشامخ للامة مع الاهتمام بالصيانة وما اليها والأسرة هى ذلك البناء الذى ينبغى أن ينهض على اسس وحسن أداء وقوة وهندسة ، واحكام وبعد ذلك الصيانة والحفاظ على المنشأة ولايكون البناء السليم الا بخبرة وعلم وتوافر متطلباته ، والاعلام يتحمل هذه المسئولية فى البناء وهى مسئولية عريضة ليست هينة ولا سهلة .

برنامج البيت الذى يخاطب المرأة ينبغى أن يشارك فى كتابة مواده مختصون اجتماعيون ونفسانيون يحللون ويعالجون المشاكل ويوجهون وينصحون مثل أطباء يعالجون أسقاما فى جسد واحد ، كل منهم له دوره وتخصصه يشخص ويصف العلاج كما يشترك الوعظ الدينى بالنصح وما يحث عليه الاسلام من التعاون فى بناء الاسرة والحفاظ على هذا الكيان من التفكك والتمزق أذ من الاسرة يتكون المجتمع .

ولا أحسب أن برنامج الاذاعة أو التلفاز والصفحات التى تقدمها الصحف والمجلات عندنا يقتصر دورها على ــ طبق اليوم ــ وآخر صرخات الازياء وجوانب عن تربية الطفل والعناية به ، وماتستلزمه حياته .

ففى كثير مما نرى أشياء جانبية وثانوية ورتوش أقرب الى التسالى والطريقة التى تتخذ للتنفيس وليس للاسس ، بناء واقامة ومعالجة للامراض ، وهى انما انشئت لتثقف طبقة معينة من الشعب وتناقش قضايا بعينها مع تقديم الحلول كما تعنى برسائل الاسرة الاجتماعية والنفسية بحيث تناقشها ويرد

عليها ذوو التخصص .

ومايقال عن الاذاعة يقال عن الصفحات النسائية ، ويقال كذلك عن التلفاز ، ولا أحد يقطع برأى عن الراديو أو التلفاز بانهما وسائل تسلية وترفيه وثقافة فقط وانما هما إلى جانب ذلك وسائل خدمة أساسا فى جميع المجالات تقدمها للشعب ، ارشادات ونصائح وبرامج مدرسية فى مناهج الدراسة ، وتوعية بكل ألوانها وأبعادها لان التلفاز أصبح مؤثرا فى الاسرة ، وهى فرصته أن يشحن برامجه بما يفيد من الخدمة والارشاد ، يتحدث فى ذلك أهل العلم وأهل الذكر ، ليفيدوا ويصبح التلفاز وسيلة شاملة للاصلاح والبناء بجانب الثقافة وتوسيع المدارك والترفيه ومايتهض به ، وبذلك تتحقق الجدوى من هذه الوسيلة الحضارية كما يراد منها وكما ينبغى أن تكون وهى أقدر على تقديم كل الخدمة بالانفاق عليها أكثر من قدرة الصحافة وهى كذلك أداة مؤثرة غزت كل دار وأصبحت لاغنى عنها وحين تنهض برسالتها العريضة بأساليب مشوقة تبنى وتصلح فانها ستنجح النجاح الباهر ويحمد المشرفون على محطاتنا وهم جزء من وزارة الاعلام ، أنهم قد وفقوا ، واستطاعوا أن يحققوا آمالا وأحلاما وان يصلوا الى النفوس مما يراد لها خدمة وتوجيها وبناء مجتمع على أسس أسلامية حضارية محافظة ، ومعالجة الادواء وتفادى توسعها وما تؤديه من هدم واضرار للاسرة والمجتمع حين تكثر ولاتعالج ولاتشخص .

المدرسة بعد البيت

اذا كان البيت كما أشرت هو الاساس ، والبيت يحتاج الى بناء المسلك فى الوفاق بين أعضائه لتكوين أسرة يسودها جو الحب والوئام والتجانس صالحة ، ولكن بعض البيوت لايتوافر فيها هذا المناخ الهادىء الذى ينشأ فيه الطفل على مانحب له ، وانما يشيع فى هذا المنزل وذاك الشر والخصام والعراك المتصل بين أسس الجذور : الأب والام فى جو قاتم معتم لايكاد تنجلى سماؤه حتى يعود اليه الضباب من جديد فى شقاق دائم ولايدرك الرجل ولاتدرك المرأة أن هذا القتام الذى يشيع فى وسط هذه الاسرة ، تنعكس آثاره وهى سيئة على تلك النبتة الغضة التى تولد فى هذا البيت فتختنق بهذه الغازات السامة التى ترتفع صاعدة فى سماء الاسرة والبيت فيكون هذا التلوث الذى يمرض ويردى .

ولعل الانانية التى تطغى على نفس الاب والام هى سبب عدم الاهتمام وعدم التفكير فى الاضرار التى تنعكس على البنوة البريئة من ذلك الشجار بينهما ، فلهما حياتهما يهتمان بها ، ولا يهم ما يكون بعد ذلك .

وليس فى كل الاحوال تصدر هذه التصرفات وعدم الاهتمام عن جهل ، وانما حب الذات وعمى الانانية ، ولو سادت التضحية فى وسط هذه الشركة التى ارتضى تكوينها الاثنان ، الرجل والمرأة ، ثم كان منها تلك الفروع . لو فكر الاثنان وتعاونا على تبديد الخصام وعرفا تأثيره على الخلف وحكما العقل وجنحا الى الحق ورجعا الى الله ، يستلهمانه سبحانه الرشد والهناءة ، لاستطاعا فى كثير من الاحيان وفى كثير من البيوت أن يؤثرا العافية ويصبح مردود هذا المسلك الكريم ذلك النماء الصالح فى بيت يرفرف عليه الحياء وهو شعبة من الايمان والسعادة والطمأنينة .

ولايمكن أن تبنى الاسرة كيانا إلا إذا كان متسامحا شعاره الايثار ، لان الخطين متوازيان ، لايلتقيان وانما التسامح وايثار الخير هما السبيل الى الحياة الكريمة .

وليس من الحق فى شىء الجناية على البنوة من مسلك الأبوين فى حياتهما التى يسودها نزاع لاينتهى وسوف يسألان عن تلك الجناية ، ولو أنهما حينما وجدا نفسيهما غير منسجمين افترقا قبل أن ينجبا لتفاديا كثيرا من الشر يجنيانه على خلفهما .

من أجل هذه الادواء التى تشيع فى المنزل وتنعكس أثارها عليه بمن فيه ، وخاصة الاطفال فتؤلف فيهم عقدا وأمراضا مما يشاهدون ، بين أقرب وأحب الناس اليهم آملت أن تسلط الاضواء فى برامج مركزة فى التلفاز خاصة لانه مشاهد بكثرة ، ومفروض وجذاب يقدم هذه البرامج رجال متخصصون فى علم الاجتماع والنفس والوعظ والنصح والطب وكل مايتعلق بحياة الاسرة وبنائها مثاليا .

ولاشك أن التركيز فى هذه التوعية سوف يصلح ويحقق نتائج طيبة على مر الايام وقد تكون النسبة ضئيلة ، وانما نماؤها محقق باذن الله ، ومن منا يرتاح الى حياة الشجار والشقاق ؟ ومن منا يرضى لو كان له خيار أن تسود حياته القلق

والضيق وسوء الظن والاسقام الاجتماعية فتكون معاناة مريرة تحطم النفوس وتصمى وتشجى ؟

لذلك فان فى رحلة التلفاز لابد من الاهتمام بهذه الجوانب الاجتماعية تركيزا مطلقا لايجاد اصلاح لاشك انه من اهداف وزارة الاعلام ، فالوزارة التى تخدم الاسرة وترفه عنها يهمها أن تكون هذه الاسرة ناعمة البال هانئة وادعة فى حياة كريمة لتستقبل ما يصل اليها من أعلام بنفس مفتوحة راضية جميلة .

إذن : هو العمل بصبر وتنقية البرامج وطرحها على الاسرة أو على الاصح القاؤها الى الأسرة لمعرفة الادواء والبدء فى معالجتها بشتى الوسائل المتاحة من ذلك النبع والفيض الغزير ، من مناهل الدين الاسلامى ففيه كل الخير والسعادة للبشرية كلها هديا واصلاحا ومعروفا ، ووئاما وحياة كريمة .

والعلم الحديث بوسائله لايخرج عن تلك التعاليم الخيرة ، وانما هو يشخص المرض ثم يبدأ فى تقديم جرعات العلاج بصبر وتدرج ولكل مرض علاجه وأطباؤه وزمانه ومكانه ووسائله .

أرجو أن يخطو التلفاز نحو هذا المنهج على مسرح الأسرة ليلعب دوره الكبير وهو يؤدى رسالته فى المجتمع المسلم كما ينبغى .

ونعود الى المدرسة

المدرسة تتلقى الطفل خامة جاء اليها من بيته ، ربما هذه الخامة قد وعت شيئا ما مما يجرى على مسرح البيت صالحا أو طالحا ، وبدأت تتأثر بما رأت وسمعت ، وكلها أحاسيس وآذان تمتص وتسمع وترى مايدور ، مايضر وماينفع . وجاءت هذه الخامة الى المدرسة لتكوين آخر ، هو تلقى المعرفة ، ويلتقى الخطان .. البيت والمدرسة أو يفترقان وتبدأ حياة جديدة للطفل فى عالم جديد وغريب عنه لم يعرفه فى بيته .

ولعلى أشير بايماء الى أنى سبق أن كتبت أقول : أرجو الاهتمام بالطفولة كل الاهتمام لان هذه النبتة الغضة سريعة التأثر ، حساسيتها عالية ضعيفة ، قوية لذلك فان التعامل معها يتطلب مهارة وعلوما ، وخبرات فى علم النفس وسعة آفاق :

واﷲ انى لأوثر دكاترة متخصصين فى التربية وعلم النفس وعالم الطفولة ، فى السنوات أولى وثانية وثالثة ورابعة وخامسة وسادسة ابتدائية وكذلك فى فصول الاعدادى .

فى بداية التكوين ينبغى الاهتمام كل الاهتمام حتى اذا كان للزرع سوقه ليستوى عليها تركت رعايته لاقل خبرة لانه سيحيى نفسه بما ترسب فيها من توجيه صحيح سليم ، قوامه العلم والمعرفة .

كم أتمنى أن أجد دكاترة فى الصفوف الاولى الابتدائية لمدارس الذكور والاناث فتعيش الطفولة فى رعاية الله أولا ، ثم فى رعاية المعرفة الخاصة بعالمها ـ عالم الطفولة ـ نحن نستطيع ذلك لو وفرنا فى كل مدرسة من الابتدائية والاعدادية ثلاثة من أعلى المستويات فى علم الطفولة والتربية وعلم النفس لتأسيس البناء على نمط من الأسس القوية النقية فوجود صفوة من العلماء والعالمات مع بدء الحرث ، قبل السماد والبدء فى الزرع مع موسم الحرث والبذر وتحديد كميات الماء والسياج الذى ينبغى أن يكون لصيانة البذور والحرث من الأضرار .

الطفولة عالم عريض وتتطلب تخصصات معينة لمعايشتها لتؤلف منها لبنات قوية سليمة السبك والقوالب والصهر لتتحمل بعدذلك مايوكل اليها من أعباء وبناء .

لو تحقق ذلك عندنا ، ونحن الآن قادرون ، ولو أرسلنا بعثات من رجالنا الذين يميلون الى هذه التخصصات ومن فتياتنا ، ثم عادوا بالعلم والخبرة وعملوا فى مدارسنا فى سنيها الأولى يطبقون مادرسوا وتعلموا لأنشأنا جيلا يتحمل تبعاته بمهارة بعيدا عن النقص والتعقيدات .

ماضر وزارة المعارف والرئاسة العامة لتعليم البنات وهما تنفقان الكثير ، آلاف الملايين لفتح مدارس والتوسع فيها وتأمين متطلباتها من كتب ومدرسين واثاث ومايستتبع ذلك من أوجه النفقات ، لو انهما عنيا العناية الفائقة بالأسس ومقوماتها كما ينبغى لتكون قادرة على تحمل اعباء المستقبل بقوة ..

وأعود الى الزرع ، وليس هو ماء وأرضا وبذورا وسمادا ، ولكنه مع ذلك وقبل ذلك اعداد التربة واستعدادها للانبات .

واذا كان بناء المدارس والتوسع فى افتتاحها جانب تطور وحضارة ، فان للمدرسة مقومات وأولى هذه المقومات المدرس والمناخ الدراسى ، وبعد ذلك لايهم لو كان التعليم حتى فى خيمة أو فى فصول من صفيح ، ذلك أن هذا المجال ليس هدفه المظهر وانما الاسس اولا ، والاسس أخيرا ثم يأتى بعدها الجوانب الجمالية المكملة وهى جوانب فرعية فى تصورى .

والخطة تستهدف أول ماتستهدف الطاقات البشرية ، ومن هذه الطاقات التكامل ليكون عضو التدريس وفق التصور الاعلى أفقا فى البناء الحضارى ، ولايكفى كم مدرسة بنيت وكم طالبا تخرج ، فهذا مجال لايقاس على الكم وانما الكيف هو أساسه ، والكيف لايكون بعدد الناجحين والمتفوقين فحسب ، وانما بمستوى العقلية السليمة المتطورة التى روعيت فى سنيها الاولى وهى تتدرج حينما قصدت المدرسة ، فوجدت المناخ الملائم العلمى والنفسى والاجتماعى ، فى مستوى عال فعاشت فيه واينعت وثبتت جذورها ثم كان ذلك الازدهار من التلقى الجيد والنجاح والنتائج من ذلك الحرث الذى تكاملت فيه وسائله كلها فكان ذلك الزرع الذى يعجب الزراع قبل غيرهم وهم المربون والمعلمون من ذوى المستويات العالية التى يجب أن تتعهد الطفولة وبعد أن تنمو ويقوى عودها تتركها تكرع من العلم وقد عرفت طريقه فسلكته ، وتسلحت له بالخلق والتربية النفسية والاستعداد الذى يحميها من الزلل والوقوع فيه .

ولو كان لى من الامر شىء لصببت الاهتمام الذى نراه فى الجامعات بذلك المستوى من المدرسين على المدارس الابتدائية كلها من بنين وبنات لان هذه المدارس هى الاسس فاذا صلحت صلح بعدها كل البناء فى مختلف مراحله ، واذا لم تصلح كانت الحال أشبه ببنيان القصور على الرياح .

فالطالب فى الجامعة قد تخطى المراحل التى يحتاج فيها إلى رعاية أساسية واهتمام فهو يريد شيئا من توجيه يلقى مدرس فى الجامعة محاضرة قد يكون عدد الطلبة فى المدرج الواحد عشرة آلاف ومنهم من يسمعه ومنهم من لايسمعه ويقول لهم : ارجعوا الى كتاب كذا وكذا وابحثوا لتصلوا الى ماتريدون ، ومن الطلبة الغائب والمشغول عنه ، فهل يمكن أن تقاس المرحلة الابتدائية بالجامعة ؟ الجواب .... لا .

وللتعليم اطارات ولجان ومتخصصون ، يدرسون سلبياته وايجابياته ، ما أجدرهم أن يتطوروا وأن يطوروا نظراتهم وهم يلحظون التعليم فى الغرب وأمريكا ، يدرسون ويطلعون على مناهجه والتجديد فيها وسبل التطوير والبحث عن الافضل والأقوم .

ما أجدرهم أن ينهضوا بهذا ، وأن يكلفوا به ممن يملكون الامر وأن يؤخذ بالآراء البناءة التى تحقق الرؤيا البعيدة والبدء من البداية كما يقولون ، وهو الاهتمام بالاسس فى المنهج ومن يؤديه فى مراحله الاولى لطفل وطفلة عمر كل منهما ست سنوات وماتتطلبه هذه العقلية الغضة من مستوى يوصل اليها المعرفة ويسبق ذلك أسلوب التعامل والرعاية ، لا عن حدب لصغر السن بعاطفة الأبوة أو الأمومة وانما من وحى الدراسة العلمية لمتطلبات هذه السن ، والمرحلة الطفولية ، فالمسألة مسألة علم ومنهاج ودراسة قبل أن تكون عاطفة أو لا تكون ، وانما العلم يفرض مسلكا معينا ويتخصص فيه الذين لديهم الاستعداد لبثه ويبعد عنه من لايملكون طاقات تؤديه كما يجب .

وفى المدرسة كذلك

يأتى الى المدرسة تلميذ يحمل رواسب بيته وامراضه ، وتكون نتائجة فى المدارس ضعيفة واقل من المستوى ، وفى المدارس المتقدمة فى البلاد المتحضرة تدرس حال الطالب الضعيف والمتخلف فى دراسته ، حتى اذا توصلت الدراسة الى مكامن الداء بدأ العلاج والذين يدرسون هذه الجوانب أساتذة فى علم النفس .

ومن المؤسف أن يواجه التلميذ المريض نفسيا من معايشته لبيئته ، يواجه القسوة فى المدرسة لانه مقصر ، والقسوة لاتعالج الداء وربما زادته فيزهد التلميذ فى المدرسة ويهرب منها ، وتكبر حينئذ الخسارة فى المجتمع .

والاصل أن يعالج التلميذ المتخلف بعد معرفة مرضه ، ولكن القسوة عليه جهل بمسلك التدريس ، لان من ينهج هذا الاسلوب لايفقه شيئا فى التدريس سوى تلقينه كآية آلة تؤدى عملا ما من غير تغير أو عمق ابعاد ، وهذه الطرق تجعل بين الطالب والمدرسة فجوة قد تصبح هوة ، فلماذا لاتعالج هذه الحالات الفردية بالاساليب العلمية ؟

هذا جانب مهم ينبغي التركيز عليه ، وقد اشرنا الى ان المدارس والدراسة ليست عددا وارقاما وكثافة وكما ، وانما بجانب ذلك كيف ونماذج منهجية فى سلك التعليم ومناهجه واساليبه المتطورة وروافده الاساسية التى تصاحب الثقافة والمعرفة من سبل علم النفس والمجتمع .

وبدلا من أن نجد متخصصين نفسانيين فى مدارسنا ، وكان يوجد متخصصون اجتماعيون جاء التغيير وليته كان الى أفضل فأسميه تطويرا جاء التبديل ، فألغى الاشراف الاجتماعى من المدارس وكان ينهض بدور لا بأس به فى معالجة حالات معينة ، والدراسة ليست كتبا فقط ولكنها معالجة لاتوجد ضمن مناهج الدراسة الاولية والمرحلية ، ولكننا لانجد المختصين فى علم النفس والمجتمع لدراسة ومعالجة الحالات التى تنداح فى صفوف التلاميذ .

لا أزعم لنفسى أننى ادرك أكثر مما يدركه المخططون وهو أن للتوسع مشاكله وابعاده ، ولهذا وذاك تكاليفه وتبعاته ومسئولياته وهمومه .

نحن نعيش حالات توسع وتطور ، والتعليم أساسى ، مثل الماء وحفنة الحب اللذين عليهما عماد الحياة ، وتركز الدول على العناية بالزرع للاكتفاء قبل الصناعة فاذا كان التعليم بناء لشىء لا غنى عنه ، وهو مثل البناء ماينفق فيه لايعاد مادة يستفاد منها فى بناء جديد ، فلابد اذن من عمق الاهتمام ليكون كما يراد له .

اذن هذا التوسع وهذا التطور يتطلبان تلك الروافد التى تعين على البناء ، وهى التوجيه النفسانى أو المعالجة النفسانية ، والتوجيه الاجتماعى لبحث الأدواء والارشاد والمعالجة .

أحسب أن فى ميزانيات وزارة المعارف والرئاسة العامة لتعليم البنات مراكز كثيرة بهذه الأسماء ، يجب أن تكون أساسا ، لا أن يكون فيها موجهون وموجهات اجتماعيون ، ثم تلغى بجرة قلم ـ كما يقولون ، من غير دراسة ولاتعمق فى درس الحاجة ، وأنما الغاء لمجرد الالغاء توفيرا واقتصادا ، والذى ينفق الكثير لايبخل بالقليل مما يعد أكثر من ضرورى ، والا عد عمل كهذا فى مسمى الارتجال الذى لا يأبه للاسس وانما يلغى ويضيف ، من اجل التغيير والتصور فقط بالاستغناء عما ألغى ، هو الخطأ مجسما .. ما اجدر وزارة التعليم ورئاسة العلم تلافى هذه الاخطاء الكبار وان توجدا اجهزة متخصصة

للنفس والاجتماع تبحث وتدرس ، وتعالج مع هذا التوسع الذى كلما زاد وارتفع مستواه وتضخم زادت مشاكله وهمومه ، واصبح لزاما توافر اجهزة تقابل هذه الهموم وتستعد لها وتواكب التوسع امتدادا وعمقا ومسئولية ، ولا اعتقد أن أحدا يظن ان امة على الارض ليس لها مشاكل .

ولا اظن ان هذا يغيب عن وزارة المعارف ورئاسة تعليم البنات العامة ، وهى تسقط من حساباتها دور علم النفس وعلم الاجتماع وابحاثهما فى معالجة مايطرأ من سقم ينشأ فى البيت أو فى المجتمع أو فى جوانب الحياة يصارع الطفل الذى ينبغى ان يجد من يهتم به بحثا ومعالجة ، ولايكون هذا الا تحت سقف تلقى المعرفة والعلم فى هذا الاحتكاك وهذا التلاحم والتزاحم فى ظل العلم واشاعته كأنه الماء والهواء ينفق عليه وتكرس الجهود والمال لتقديمه سائغا متاحا يحمل معه سبلا شتى من الأسس ، التى تكمله درسا وبحثا ومعالجة لما يطرأ وهو مفترض فى ظل حياة سماها القرآن الكريم كبدأ بالقياس الى الانسان .

أحسب أننى قلت مايكفى فى هذا الموضوع ، فهل سيكون له صداه واستجابات تحقق مانرجو من خير ؟ ... أرجو ذلك .

بناء الأخلاق

* بناء الاخلاق ، شيء صعب جدا ، وهى تتبع بناء العقيدة ، والاسلام يعنى ببناء الخلق ، والحفاظ عليه ، ويؤكد على الحرص ، على هذه القيم التى لا تشترى بالمال ، وإنما تؤسس جذورها ، امتدادا .. لعمق الايمان .. فى النفوس .

والأخلاق .. من الأسس ، واذا فرط فيها ، تقوضت الاسس وعسر جدا ، وربما استحال اعادة تثبيت الجذور ، على النحو .. العميق ، الثابت .

وقد يسهل ايجاد الشيء ، او يتحقق تبعا لغيره ، فى تكامل الحياة ، غير ان المهم .. او الأهم ، هو الحفاظ على بقاء الشيء ، على فطرته ، واصوله .

وقضية المسلمين ، بالقياس الى حربهم الأبدية ، مع أعداء .. هذا الدين ، انهم قد عجزوا عن الصاق التهم بالاسلام ، وهم قد فعلوا ، من منطلق المغالطة ، وقد كشفتهم أساليبهم ، وايقنوا انه .. لا جدوى ، من محاربة جوهر .. نقى صاف ، لا كدر فيه ، ولا زيف وانها لحرب خاسرة ، وانهم لأضحوكة ، أمام أنفسهم قبل أن يكونوا أمام غيرهم .. من العقلاء فتراجعوا ، وأخذوا يتصيدون ، أخطاء أتباع الدين الاسلامى ، وهى أخطاء تتناقض ، او تتعارض مع روح الدين .

وبعضهم .. يسأل فى سخرية ، كيف تصنع هذا ، والدين يحرمه ؟ ذلك انهم فهموا الدين ، وقد لا يخجل مرتكب الخطيئة ، ولا يتورع ولكنه لا يجرؤ ، فيقول : ان الدين يسمح بها ، او يتجاوز ، او ما يدخل فى الاعتذارات ، التى لا تصح ، ولا تليق .

وحين عجز المحاربون للاسلام عن الحرب .. المتكافئة ، وليس فيهم كفاية ، لان أفئدتهم خواء ، ولانهم على ضلال .. ولم يبق فى وسعهم الا الاحتيال ، وما أكثر أساليبه ، وهم يفتشون عن الضعف فى نفس الانسان ، فيغزونه منه ، ذلك

أن السبل الموصلة سهلة ، وسريعة المفعول ، جنحوا .. الى بث السموم ، ودسها .

وأخذت مدنيتهم البراقة .. الخادعة ، تظهر وتنتشر ، وتغزو العالم كله ، من أجل تدمير الأخلاق والاخلاق سياج ، فاذا ذابت ، كان العرى ، الذى يفضى الى التفسخ.والاسلام ، الدين القيم ، بنى الخلق العظيم .. من روحه ، ورسخ جذوره ، فى نفوس المؤمنين ، فكانوا عبادا بالليل ، مقاتلين .. نهارا لاعلاء كلمة الله فى الارض ، فكانوا القدوة ، والاسوة الحسنة ، وسادوا الارض بالعدل والملك السوى وانتشرت الدعوة الخيرة فى ارجاء الارض ، تنشر السلام والوئام ، والحق ، والمساواة ، ويعلن القرآن الكريم ، منذ أربعة عشر قرنا ، ان اكرم الخلق على الله اتقاهم ، ولا شيء غير ذلك .

ومنذ ظهور الاسلام ، الى اليوم ، والى الغد .. القريب ، والبعيد ، نجد بين الحين والحين ، نفوسا اهتدت ، فاعتنقت الاسلام ، لانه المنقذ ، ولانه دين الحق ، وفيه المنجى .. من عذاب اليم .

وكثيرون .. الذين دخلوا فى دين الله كانوا عن قناعة ، بعد ما عرفوا الحق ، ودرسوا اسس هذا الدين ، وأدركوا سماحته ونقاءه ، وعدله ، وسمو خلقه ، والعلماء .. الذين يدرسون ، ويعملون فى المختبرات ، وتعمقوا كنه البحث العلمى ، فى هذا الكون ايقنوا ببصيرتهم ، ان لهذا الكون خالقا ، حيا قيوما ، يسيره ، فى نظام دقيق .. محكم ، ولقوا العبرة فى المرض ، والفناء ، وعجز الانسان رغم .. ما تيسر له من علم يسير وانه مهما قوى ، وطغى ، فان له ساعات ضعف ونقص ، وتقصير ، وأنه بغير معتقد يظل ضائعا بائسا فآمنوا .. عن علم ، ودخلوا فى الاسلام لانه المنهاج السوى الصالح لكل زمان ومكان ، ولكل الامم ، هاديا ومرشدا ، وان الله هو الحق وان ما يدعون من دونه الباطل ، لعل البداية ، كانت تأملا ودرسا بالقياس الى الذين اعتنقوا الاسلام وقد رأوا آيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم ، فتبين لهم انه الحق ، وانه على كل شيء قدير فسبحان من خلق السماوات والارض بالحق ، معلم الانسان ما لم يعلم الذى دعا الانسان .. أن يبصر فى نفسه ويتأمل ، ان فى السماء رزقه ، وما يوعد .

نحو الحفاظ على الخلق

* الخلق القويم ، من مواريث الانسان الصالح ، وجاء الاسلام ، يحث .. على التمسك بمكارم الاخلاق ، وخاطب القرآن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بقول الله تبارك وتعالى : « وإنك لعلى خلق عظيم » ، وقال عليه الصلاة والسلام ، بعثت لأتتم مكارم الاخلاق » .

فما أجدرنا .. نحن المسلمين ، ان نتمسك بهذا المسلك الحق ، فى تعاملنا ، وفى حياتنا العامة والخاصة ، وان ننشر خلق الاسلام وقبل ذلك نحافظ عليه .. فى سلوكنا ، وسعينا بارادة المؤمن وخلقه .

لقد غزت وسائل النشر فى العالم الاخلاق لتمسخها ، لأنها سبل لا تحكمها قيم ، ورخص الحب الساذج ، حتى اصبح سلعة بائرة يدلل بها ، فى عبث فى كلمة تنشر واغان مائعة وتمثيل رخيص ، فى عرض اجساد ومفاتن ، وامست هذه البضاعة التافهة ، حديث وملتهى الفتاة والشاب ، وشغلهم ، فى مرحلة خطيرة ، من تكويناتهم ، الجسدية وطاقاتها ، فالهبتها واعتصرتها ، لتفتح بعد ذلك طرق الانحراف .

وأصبح الحرج ، فى البيت المحافظ ، بين الاب وابنته ، وخاله وخالته واخته ، من هذه المشاهد ، التى تذل ، وتعبث بالاخلاق ، بدل ان تجد الاسرة المتجمعة فى دارها ـ الامثلة .. التى تقوى من معنوياتها وهى تقرأ الجريدة ، او المجلة ، او تستمع .. الى المذياع ، او تشاهد شاشة التلفاز .

لقد أحسنت كثيرا ، وزارة اعلامنا صنعا ، وهى تقدم المسلسلات التاريخية مثل على هامش السيرة ، والخنساء ، وسير الابطال ، وشدت هذه البرامج الكثيرين جدا ، من الاسر ، وأحيت هذه الالوان من التراث ، وتراثنا زاخر بالبطولات والقيم .

وليس عزيزا ان ينتج لتلفازنا ، واذاعتنا ، الكثير من هذه النماذج

وحتى النماذج الترفيهية ، ينبغى أن تخضع لهذا الخط ، بانتاج نصوص جيدة ، بعيدة عن الاسفاف ، والاثارة ، وكذلك الفرق التى تؤدى التمثيل ، من العناصر المحافظة ، بعيدا عن الاغراء ، وبشخصيات لا يفرضها الوجه والملامح ، التى تفتن .

وأن نلغى الاغانى المائعة ، التى تمجد هذا الحب الرخيص وتحث عليه فى غير ما حياء ، والحياء من الايمان .

وان ترتفع الصحافة .. عن السرف .. فى هذه النغمات المتوهجة المثيرة ، بالآهات والوله والدعوة الفاسدة .. الى هذا اللغو الذى يزرع بذور الافساد ، وتنحيها فتجد اراضى خصبة تتلقفها وتينعها فتكون شرا ووبالا .

نحن فى هذا البلد المقدس ، منطلق الدعوة ، الهادية الى العالم او الى الناس بالمحافظة على الخلق وبنائه ، وما يجوز فى بلد آخر قد لا يجوز هنا ، ذلك اننا البقية الباقية فى الاراضى حفاظا على مكارم الاخلاق والتمسك بالاسلام ، وتطبيقه شرعة وسلوكا ، فلا يليق بنا ان نفرط فى شىء منه ، لانه وحدة متكاملة ، نصا وروحا ، وينبغى أن يكون التطبيق .. وفق روح المنهاج ، لانه لا يليق بنا .. ان نأخذ ما يصلح لغيرنا .. على علاته ، ونشيعه ، وننشره فنتحمل تبعته وردود ـ فعله ، ومضاره ونحن مسؤولون امام الله عن اى تفريط او تقصير ، إنها مسؤولية جسيمة ، وتبعة كبرى .

ان أجهزتنا لا تنقصها الفطنة ولا الغيرة .. على دين الله ، والمجتمع المسلم ، والحماية .. أمر مسلم به ، فاى ضرر ينعكس على السلوك والحياة .

ما اكثر ما تحمل السلعة المستوردة ، من صحافة ، واغان ، ومسلسلات وافلام ، من هذه الادوار والاسقام ، باسم الفن ، والرأى والحرية الزائفة ، وعين الرقيب ، وحس المسؤولية ، ارجو ان يحولا بين هذا المجتمع الخير ، وبين هذه الاوضار .. التى تغزو ، من كل صقع ، وهم فاعلون ، غير اننا نريد ان تكون الفاعلية ، متسمة بمركز هذا الوطن الاسلامى ، وميسمه ، حتى لا يرى المقيم بيننا والعابر ، شيئا من تناقض ، بين المبدأ والمسلك او بين الاطار والصورة .

ونحمد الله اليه أن ولاة الامر وعلماءنا ما يفتأون ينصحون ويحثون فى جد متصل ، على التمسك بدين الله ، فى أقدس بقعة من ارض الله ، وهذه الدعوة ، والنصح وحدة .. لا تتجزأ ، فى الاعمال والاقوال ، ذلك ان الحرام بين والحلال بين .

وما أباحه الاسلام يوم اعلن ، وما حرمه ، هو مباح وهو محرم الى ان يرث الله الارض ومن عليها . ورسول الاسلام عليه الصلاة والسلام يعلن

للمسلم ، بقوله : « دع ما يريبك الا مالا يريبك » .

وحين يريد المسلم ان يكون قدوة تحتذى ، فينبغى عليه ان يكون الصورة المثلى .. للنقاء ، تبعا لمنهاجه .. الذى آمن به ، وتمسك ، ويريد .. أن يعم خيره العالم .

وصدقت يا رسول الله ، أنت القائل : « قل آمنت بالله ثم استقم » والاستقامة مسلك ، لقضية فى — السر والعلن ، وفى كل سبل التعامل ، والالتزام الحق ، والخير للنفس وللاخرين .

ولا بد من تجنب الترف ، لانه يفضى .. الى البطر ، وكفر النعمة ونسيان شكرها ، ويجب شكر المنعم المتفضل ، وعدم السرف ، لانه تبذير وهو حرام ، وقمة السلوك الطاعة وهى تقود الى الهدى ، ان الهدى هدى الله .

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ، انك انت الوهاب .

نعم : لقيام شرطة للآداب

كتب المربى الفاضل ، الاستاذ « عثمان الصالح » ، فى جريدة الجزيرة فى مطلع شهر المحرم الحالى ، ينادى ... بقيام شرطة للآداب .. فى البلاد .. وانه لمطلب كريم ، أكبر الظن ، انه جاء .. فى وقته ، ذلك ان البلاد اتسعت ، وحل فيها الكثيرون ، من غير أبنائها ، يحملون عاداتهم واخلاقهم وتصرفاتهم ، والقادم الى هذا البلد ، استقدم للعمل ، ولا نعرف عن خلقه شيئا ، وهو قد الف عادات وتقاليد ، كثير منها لا يتفق والمسلك السوى ، الذى ينبع من الدين الاسلامى ، لذلك ينبغى الملاحظة ، وتقويم الاعوجاج والمحاسبة على ما قد يبدو خطأ ، ويسىء الى البلد حتى لا يتسع الخرق على الراقع ، كما يقول المثل .

ومن الداخل ، فان التوسع والتطور ، واهمال التربية ، كل هذا يؤدى .. الى شىء من عدم المبالاة ، اذا غابت المراقبة ، والمحاسبة فى الاسواق العامة ، او فى طرق المدارس والجامعات ، وفى مختلف . الزوايا ، والمنعطفات واذا لم يكن ثمة وازع فى بعض النفوس ، عند المتسكعين والفارغين ومن اليهم ، والشواهد قائمة ، على الشواطىء حيث تذهب الاسر .. للتنفس ، وفى الطرقـات ،

والاسواق نسمع ونرى .. نزقا ، ولم يكن يعرف من قبل ، حين كانت البلاد . تعيش فى مساحات محدودة وحين كانت التربية ، وحين كان الأدب والحياء ، والخلق .. سمات الشبان والشابات ، بجانب الكبار اذا لم يكن وازع من الداخل ، فانه يأتى .. بالتأديب .

والتوسع والتطور لهما ثمنهما ، ثم النقص .. الذى دخل فى التربية فلم تعد صالحة .. كما يراد لها ، وكما كانت من قبل .

وما يقال عن هذا ، يقال كذلك .. عن الافلام ، التى تدخل الى البلاد .. تهريبا ، وتعرض فى أماكن ، الغرض منها الكسب السريع ، العريض ، وكثير من هذه الافلام كما يقولون ، تهدم الاخلاق وتفسدها ، وما يترتب . من وراء ذلك لا يخفى من سبل الضرر .

كل هذه الامور .. تدعو الى تواجد جهاز .. لشرطة الآداب ، فى البلاد ، للحيلولة ... دون الأذى وصده ، ومعاقبة مرتكبيه ، حتى لا ينتشر ويصعب علاجه ، ويعتقد . وهو شىء .. من الاصلاح وردع المنحرفين ، ومعالجتهم .. بالعقاب لانه الوسيلة .. الى الذين لم يثنهم عقل ، او ولى أمر ، أولم يربهم حتى الزمن .

ويدخل .. فى هذا الاطار المعاكسات الهاتفية ، وقد أصبحت عادة سيئة ، او موضة مرضية . وبالسلطان ، يوزع .. الذين يؤذون الناس ، ذلك انه اذا غاب العقاب ، والمراقبة التى تقود اليه .. تمدد الأذى ، وزاد ، الى أن يستشرى .

إن هذا البلد .. الذى تحكمه شريعة الله ، حريص .. على اقامة حكم الله ، ففى ذلك الأمن ، والأمان وذيوع الخير ، واختفاء الشر ، واشاعة الطمأنينة ، ويسر الحياة ولا يكون هذا كما يجب الا بمعالجة الامراض السارية ، التى تؤذى الآخرين ، وما يستجد منها .. والاسلام ، قد كفل العلاج ، لكل حالة ، وصلح اوله بذلك ، وآخره .. يدخل .. فى نفس المسلك ، وصلاح الاوائل .. كان يحكمه ايمان ، وتربية خلق ، وكانت الشريعة الفيصل ، فى ردع وعقاب المنحرف ذلك ان الناس بشر ، لهم اخطاء وكل انسان .. يتحمل وزره ، ويحاسب عليه .

وقيام فرق للآداب ، لا يتعارض مع مهام .. هيئات الامر بالمعروف بل ان الفريقين يكمل بعضهما بعضا لاداء واجب واحد ، على صورة اوسع ، واشمل ، واكثر دقة ، وتواجدا ، ليل نهار فى اكثر من مساحة .

وهيئة الامر بالمعروف ، هيئة دينية .. لها دورها فى الامر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وشرطة الاداب .. عين رقيب ، كثيرة التحرك والانتشار ، تغطى مختلف الجوانب ، فى هذا الاتساع العريض .

المسألة . فى رأيى ، هو دور اصلاحى حفاظا على القيم ، بوسائل التقويم ، وهو مسلك اسلامى وانسانى ، لحماية الاعراض ، والأموال ، والدماء التى حرمها المشرع الأول ... صلوات الله وسلامه عليه ، فى ذلك القول السديد ، فى حجة الوداع : ان دماءكم واموالكم حرام ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا .

وشرطة الآداب ، من سماتها الخلق القويم ، وعمق التدين ، ونضوج عمر ، وعقل ، للنهوض بهذا الواجب ، وهو واجب كريم ، وحكومتنا تحرص من واقع مركزها الاسلامى .. فى أقدس بقاع الارض ، على اشاعة الخير ، ودرء المنكر ، وبث المعروف ، بتطبيق شريعة الله ، ففى ذلك عز الدنيا والآخرة ، ونصرة الحق ، بالأخذ على أيدى الظالم .

نسأل الله مزيد التوفيق والعون فى مرضاته .

تعليق على ندوة الهجرة

أتابع .. بقدر ما يتاح لى ، برامجنا الهادفة فى التلفاز ، ومن هذه البرامج الناجحة الجيدة ، برنامج « مجالس الايمان » . الذى يقدمه الاستاذ زهير الأيوبى ، وفقه الله ، وسدد خطاه .

ويعجبنى استدراكات الاستاذ الأيوبى ، على بعض ضيوف برنامجه حين يستوجب الاستدراك ، وشكرت له فى نفسى يقظته ، وسرعة لمحه .

وكان آخر .. ما شاهدت ندوة الهجرة التى اشترك فيها الشيخ شيبه الحمد ، والاستاذ عبد العزيز الربيع ، والشيخ محمد المجذوب .

وكانت ندوة جيدة ، فى استعراضاتها الجميلة .. من ضيوف البرنامج ، ولا أريد الحديث عن الهجرة ، فقد افاض فيها المتحدثون والكاتبون ، وقد كانت النصر للاسلام .. فى مشارق الارض ومغاربها .

وقد استوقفنى .. فى تلك الندوة تخريجة للشيخ محمد المجذوب ، وكانت استنباطاته رائعة وجميلة ، وفيها جدة .

ولم يعجبنى قوله ، ما معناه ، ان الفتية من كفرة قريش ، الذين رابطوا .. امام الدار التى بات فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . ليلة الهجرة ليقتلوه ، منعهم من اقتحام الدار النخوة العربية ، التى تمنع هذا المسلك .

عندى ، أن هذا التخريج غير سليم .

أولا : ان الفتية الكفرة .. الذين وكلت اليهم هذه المهمة ، لم يؤمروا باقتحام مأوى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثانيا : أن هؤلاء النفر ، كانوا يخضعون لنظم بالية ، وضلالة ، وانانية ، وعصبية ، وهى لا تكبح جماحا .. فى الحمية الطائشة ، ولا يتوفر فيها شعور يوصلها بالخالق ، فكيف تتورع ، وهى قد جاءت للقتل ، الا تقتحم الدار ، لو أنها امرت بذلك ؟

هذا ما وددت .. التعليق به ، على ذلك الاستنتاج .. الذى ساقه الشيخ محمد المجذوب .. وما عدا ذلك ، فالصور التى اتى بها ضيوف تلك الندوة .. كانت رائعة لنتعلم من الهجرة دروسا وعبرا ونحن نتدارسها ونستذكرها .

تكريم الأوائل

* احتبست الاهات .. فى صدر شاعرنا الاديب الاستاذ طاهر زمخشرى ، مساء الاحد ٢/٨/١٤٠٠ هـ ، وهو يردد الحانه ، عن عروس البحر الاحمر (جدة) الحب ، والتاريخ ، والاهل ، والجمال البلد الجذاب ، الذى لا تكاد .. تغيب عنه ، حتى يحتويك الحنين ، لتعود سراعا اليها ، الى جدة . سر الجاذبية ما هو ؟ رغم كل المحاولات ، فلم أستطع أن أصل إلى هذا السر . ولا أريد هذا الحديث أن يشغلنى ، لا .. لانه حديث لا يشدنى ، ولكنى أخشى هذا السحر ، من جدة ، ان يصرفنى .. عما أريد أن أقول فى هذه الكلمة ، فوداعا جدة .. وأترك الحديث ، الى وقفة اخرى .

* قلت : احتبست الآهات ، فى صدر بابا طاهر ، وحق لها ان تحتبس ، كما احتبست الدمعة فى محاجره ، وهو يردد :

فربيعى أجدبت أيامه
وخريفى ذوب القلب الحديدا

وتهدج صوت الشاعر ، وخنقته العبرات ، وحق له أن يتأثر ، ذلك أن له حسا مرهفا ، ونفسا شفافة ، وقلبا عطوفا ، فجاشت مشاعره ، وهو يتغنى بجدة ، تتراقص الاضواء .. على صفحات الموج ، وتميس الجوارى على اثباجه ، ويتغنى الملاح بـ « حلم ليل ، من ليالى فينيسيا » او من ليالى كليوباترا ، فى زورق .. يسبح فى النور ، كما يعبر شاعر الجندول .

لا أريد أن أمضى فى أحاديث الاحلام ، رغم انها مشوقة ، طلية ، تهدهد المشاعر والاحاسيس ، ولا اريد ان امضى كذلك فى احاديث الامانى ، فهذا وذاك احاديث طويلة عذاب ، وانما اريد أن آخذ فى احاديث الواقع ، فذلك .. هو الهدف فى موضوع اليوم ، ولنترك الحديث .. عن الاحلام الى وقت ، وفرصة اخرى .

* أريد أولا ، أن يكرم الأوائل .. من أدبائنا ، والدولة .. قد اعلنت عن تكريمهم ماديا ، وأريد أن أتحدث عن التكريم المعنوى ، لرفع المعنويات ، للتقدير ، حافظ ابراهيم .. حينما كرم فى لبنان ، فرج الله كربة لبنان ، قال :

شـــكرت جميـــل صنعـــكم بدمعى

ودمـــع العـــين مقيـــاس الشعور

أريد من انديتنا الادبية فى مكة ، والمدينة ، وجدة ، والريـــاض ، وجازان ، وأريد من جمعية الثقافة والفنون .. ان تكرم ادباءنا الشيوخ ــ معنويا ــ.

* أريدها .. ان تكرم حمد الجاسر ، واحمد عطـــار ، وعبد القـــدوس الانصارى ، واحمد ابراهيم الغزاوى ، ومحمد سعيد العمودى ، واحمد سباعى ، ومحمود عارف ، وحسين سرحان ، ومحمد حسين زيدان ، وعبد الله بن خميس ، وعبد العزيز الرفاعى ، واحمد محمد جمال ، ومحمد حسن فقى ، ومحمد بن على السنوسى ، واحمد محمد العقيلى ، وابراهيم فودة ، وعزيز ضياء ، ومحمد على مغربى ، وطاهر زمخشرى ، ومن اليهم .

* أريد من الاندية الادبية .. وجمعية الثقافة والفنون ، ان تكرم هؤلاء .. فى احتفالات شهرية (مثلا) يقيم كل ناد حفلا ، على شرف رائد .. من روادنا ، يتحدث فيه الخطباء والشعراء عن دور الرائد ، وآثاره ليشهد وهو حى .. هذا التكريم من أمته ، تقديرا له ، ولما اعطى ، ثم يتحدث هو عن ذكرياته ، وبداياته ، ومراحل حياته ، وصحبة الكتاب والقلم ، وايامـــه الخـــوالى ، وصحبه .

* كذلك أريد من انديتنا الادبية ، أن تكرم الاوائل .. من رجال التربية والتعليم ، اولئك المعلمون والمدرسون ، الذين علموا .. وربوا اجيالا ، وتخرج على ايديهم رجال . هذا البناء العقلى المشيد ، الا يستحق ان يشاد به ؟

* كنت أريد ان اقول : وزارة المعارف ، ذلك انها اولى .. بان تؤدى هذا الدور ، من واقع دورها ، وواجبها ، ولكن لا بأس .. ان تشارك الوزارة ، ببعض رجالاتها ، ممثلة .. فى ادارات التعليم ، فالوزارة ربما كانت مثقلة باعبائها العريضة ، غير أن هذا لا يعفيها .. ان تكرم الرجال الاوائل ، الذين قامت على اكتافهم مهام التربية والتعليم ، فى اوقات صعبة ، غير ان مجالات

الاندية الادبية .. أرحب ، وكذلك جمعية الفنون والثقافة وفروعها . وكنت انتظر ان تنهض وزارة المعارف بهذا الدور تلقائيا ، دون ان تنبه اليه ، ولكن يبدو كما قلت .. أنها مثقلة ، اذن تشارك فى هذا التكريم ، وان تدعو اليه الاندية الادبية .. وجمعية الفنون والثقافة .

* أريد من وزارة الاعلام ، ان تكرم صحافيينا الاوائل ، عبد الوهاب آشى ، واحمد سباعى ، ومحمد حسن فقى ، وصالح محمد جمال ، وحسن قزاز ، وحمد الجاسر ، وعلى وعثمان حافظ ، وعبد القدوس الانصارى ، وعبد الله بن خميس ، ومحمد حسين زيدان ، وغيرهم . وغيرهم . واريد من الاندية الادبية ، وجمعية الفنون والثقافة . ان تشارك .. فى تكريم الصحافيين .

* وأريد من ديوان الخدمة المدنية ان يكرم الاوائل من الموظفين الاحياء ، الذين قام على اكتافهم الجهاز الادارى فى الحكومة ، فى وقت صعب كذلك ، حين كانت المرتبات ، تصرف كل شهرين وثلاثة اشهر ، وان تشارك الاندية الادبية ، وجمعية الفنون .. فى هذا التكريم . واريد من حكومتنا ، ان ترعى هؤلاء المسنين ، وترفع .. من معنوياتهم ، بتحسين التقاعد الذى يتقاضونه ، ذلك ان الغلاء ، ومطالب الحياة اكبر بكثير .. مما يعطى لهم ، واريد ان اردد مع .. الشاعر :

ان الكرام اذا ما ايسروا ذكروا
من كان يألفهم فى المنزل الخشن

* رب قائل يقول ، ما دخل الاندية الادبية .. وجمعية الفنون فى تكريم المدرس القديم والموظف المتقاعد ؟

وأقول .. اننى أرمى الى اكثر من هدف .

اولا : ان يستشعر اولئك الرجال .. اننا امة لا تجمد الفضل لأحد ، فما بالك .. اذا كان لأبنائها ، الذين عملوا ، وضحوا بشبابهم ، من واقع الانتماء للتراب الغالى .. الذى يشدهم اليه ، ويتعلقون به ؟ اليس هذا التكريم .. هو بعض الواجب لهم علينا نحن القادرين ؟

ثانيا : فى قيام الاندية الادبية ، وجمعية الفنون بهذا العمل ، او المشاركة فيه ، عملية ربط ... بينها وبين اولئك الرجال ، واعمار للاندية والجمعية ، وهما

فى حاجة اليوم .. الى هذا التقارب ، ذلك .. ان الناس انصرفوا عن الادب واللقاءات .. التى كانت رابطة بينهم ، فاصبحوا لا يلتقون ، الا فى المناسبات ، باعداد غير متكاملة ، او يلتقون عابرين بالصدفة وكل منهم يسعى مسرعا ، للوصول .. الى ما يريد .

* أريد الاندية الادبية ، والجمعية ، ان تستقطب هؤلاء واولئك وفيهم الواعى ، وذو ــ الرأى ، والذى يشارك بخبرته ، ويكون مجالس ، تملأ فراغ الاندية ، وهو فراغ كبير .

* وأريد من إماراتنا ، ان تستفيد من خبرات بعض المتقاعدين ، الذين كانت لهم مراكز مرموقة فى الدولة ، وكان لهم دور بارز .. فى العمل .

أريد ان يكون فى كل امارة .. بعض هؤلاء الرجال ، كمستشارين ، تحال اليهم المعاملات المعقدة ، ذات المعاضل ، ليدرسوها ، ويقدموا آراءهم حيالها .. فى تقارير تعين الحاكم على البت فى هذه المعاملات المعقدة ، التى تأخذ اليوم ، وبالامس .. مسارات ، عبر شروحات سطحية ، لا وقت لدراستها ، وتقديم الرأى المدروس عنها ، لضيق الوقت وكثرة .. هذه المعاملات ، وسعة البلاد ، وازدياد السكان ، وكثرة المشاكل .

* أريد .. أن نستفيد من خبرة النخبة من المتقاعدين ، لنشغل فراغهم ، ونستفيد من آرائهم ، فنوفر الوقت ، ونحقق نتائج ايجابية ، ونلقى عونا فى حل المشاكل ، وعضوا فعالا ، يؤدى ادوارا بارزة ، فى خدمة الجهاز الحكومى . وتكون الفائدة أعم .. للجهاز ، ولأولئك النفر الذين نختارهم ، من الصفوة ، التى خبرت الحياة ، وعركت الزمن ، ما احوجنا اليهم ، مستشارين ، ذوى رأى ومشورة ، فيها الاخلاص ، واداء الواجب ، والمشاركة فى المسئولية ، بالرأى الذى يؤدى ، فهم الصق بحياتنا ، واكثر دراية ، واحساسا ، من واقع المواطنة ، وطول التجربة ، فى قمة النضوج العقلى .

لعل أمراءنا .. يبدأون التجربة ، فهم واجدون بحول الله وقوته .. هذا العون الفعال ، ويجدون من يخفف عنهم أعباءهم ، بالرأى الناضج الذى لا ينقصه الاخلاص ، ولا الخبرة الطويلة ، من ممارسة الأداء الادارى الجيد . وعند الصباح يحمد القوم السرى ، كما يقال . وبعد :

* فهذه وقفات قصار ، كانت ملامح افكار تدور فى رأسى ، واثارها .. حفل فرع جمعية الثقافة والفنون بجدة ، فى مطلع هذا الشهر ، كان من المترنمين فيه .. شاعرنا الوجدانى ، الاستاذ طاهر زمخشرى ، وتحشرجت الكلمات فى حلقه ، فكانت نبراته مؤثرة ، أحس بها الحاضرون وكبرت فى نفوس شفافة ، تتناجى مع الكلمة الشاعرة ، باللغة الشاعرة ، انها المخاوف .. من خريف العمر ، رغم ان قلوب الشعراء لا تشيخ ، ولكن .. ما الحيلة فى الاحساس ، وما العمل مع المشاعر ذات الشفافية العالية ؟

* قلت .. ان التكريم المعنوى ، يرفع الروح المعنوية ، يزكى النفس ، يشعر بشيء من الاطمئنان ، يستشعر المحتفى به بشيء من سعادة . وبذكر الله تطمئن القلوب .

* أريد ان يطلق اسماء الطلائع .. من مفكرينا وصحافيينا ومعلمينا ، والبارزين على بعض الشوارع ، وهم احياء .

طاهر زمخشرى كنموذج ، اولى بالتكريم المادى والمعنوى ، واباء هذا الشاعر الاديب ، يجعله دائما .. فى شموخ نفسى ، فى قمة المأساه ، تجده يبتسم ،ويدغدغك بالنكته ، يسعى الى احبائه واصدقائه ، يتفقدهم ، ويسأل عنهم ، وقل الذين يسألون عنه اذا غاب ، هو محب ، وهو محبوب ، غير ان الحياة .. طحنت هذا الحب فى نفوس الكثرة ، وبقى يطفو على ملامح طاهر زمخشرى ، لم اقرأ قط لطاهر .. هجوا ، ولا ذما لاحد ، حتى شكواه من الزمان ، كان محدودا ، وفى اشكال مداعبات ، وفى كلمات عابرات ، يوصل اليها موقف ، او مناسبة .

ان صدى هذه الوقفات ، كان طاهر زمخشرى .. احد محاورها .

الا فلنكرم رجالاتنا ، من أدباء ، ومعلمين ، ومتقاعدين .. وهم احياء ، لنحيى فى نفوسهم البهجة ، ونشعرهم ، اننا معهم ، لسنا بعيدا عنهم ، وانهم قريبون منا ، واننا موفون لهم ، وفاء التزام ادبى ، وفاء حب ، وايثار ، ولسنا من الجاحدين ، ولا المنكرين ، ولا الناسين للجميل .

* أرجو ان اكون قد بلغت ، ما اريد ان اقول ، وارجو الله ان يعين .. على العمل . وعلى قدر اهل العزم تأتى العزائم ، كما قال المتنبى .

نقاش عن الفتوحات المكيّة

* نشرت جريدة الأخبار المصرية .. فى عددها الصادر يوم الجمعة ٢٣ من فبراير ١٩٧٩ كلمة بعنوان : الكتاب .. الذى منع مجلس الشعب تداوله ــ الفتوحات المكية .

وقد أثلج هذا النبأ .. صدور قوم مؤمنين ، لأن هذا الكتاب ، يحمل .. من الأباطيل والضلال .. الشىء الكثير ، وقد ظهر فى أوقات مظلمة ، وشاع ، وأردى ، وأصمى ، لما فيه .. من فساد الرأى ، وتخريب للعقيدة ، وحشد ترهات ، لا تليق بالدين القيم ، ولا يقبلها .. عقل مسلم نظيف ، ومثل هذا الكتاب كثير .. شاعت ، وانتشرت ، وأعمت .. وأضلت ، وظل الضعف .. فى العالم الاسلامى .. سبيلا الى انتشارها ، وشيوعها ، فالهيئات الدينية ، ضعفت ، لا تملك القوة ، ولا الارادة .. اللتين تمكنانها ، من المنع ، وحماية المجتمع المسلم .. من الأضرار ، والسموم ، التى تحملها هذه الكتب فالقوة فى السلطة ، والدين .. فى كثير من أرض الله بعيد عن السلطة ، فظل وأهله مهيضين ، ثم هناك عدم اكتراث ، من كثير من العلماء فى عالمنا الاسلامى حتى القادر منهم ، بعلمه ، ومركزه ــ مع الأسف ــ لا يحاول أن يرفع صوته ليمنع باطلا ، ويعلن رأيه ، ويدعو حكومته ، الى حماية الناس منه . وإنما لا يهمه الا مركزه ، وشهرته ، وارتفاع اسمه فى ضخامة .. الاسم والألقاب ، وسيحاسبهم ربهم ، على تقصيرهم ، وعدم تغييرهم ، لما يرون من منكر ، بأقوى الايمان وأضعفه .

والفلاسفة ماشأنهم والدين ؟

حمدنا .. لمجلس الشعب المصرى الموقر ، هذا الموقف بمنع طبع ، وتداول كتاب الفتوحات المكية ، لابن عربى . وكان ينبغى ، أن يمنع الأزهر ، ودور

العلم ، من زمن ، هذا الكتاب وأمثاله ، ولكن الأمور ، يبدو أنها مثل السفن ، والرياح .

ولكل أجل كتاب . فشكرا لمجلس الشعب الموقر ، على غيرته ولا شك ، أن هذه الخطوة تفرح الكثيرين ، من الغيارى ... على دينهم ، حين يرون منع هذا الكتاب ، لحماية الناس من خرافاته ، وأساطيره ، وهو مخرفة ، بأسم الاسلام ودينه ، ويظل قرونا ، فلا يتصدى له ، بالمنع والحرق . ومزيد ، من هذه التشريعات البناءة ، من مجلس الشعب ، فى البلد الشقيق ، وفيه من دعائم العلم العديد وفى مقدمتها الأزهر الشريف .

وليس عجيبا ، ولا عجبا ، أن يمنع مجلس الشعب ، فى البلد المسلم هذا الكتاب .

ولكن العجاب ، أن يتصدى بعض رجال الفلسفة ، ومن كنا نقدر غيرتهم على الاسلام ، ولهم من الاتزان العقلى أبعاد لا تقف بهم ، هذه المواقف ، التى أيسر .. ما فيها انها شاذة ، إذا قيست ، بفكر انسان مسلم ، يعلن أنه من أساتذة الفلسفة الاسلامية .

والسؤال ، قبل مناقشة ، د . زكى نجيب محمود ، وصلاح رسلان ، ماذا تعنى الفلسفة ؟

أهى الاباحية الفكرية ، التى تقود .. الى الالحاد والكفر ، والشرك بالله ، وقد جعل للجمال الها ، وللخمر كذلك ، وللنور ؟

وتذهب هذه الفلسفات .. فى الضلال ، حتى تدخل الشرك ، وتردد مع المشركين : « اجعل الآلهة الها واحدا . ؟ ان هذا لشىء : يراد ؟ « كما جاء فى القرآن الكريم .

واستمعوا الى رأى زكى نجيب محمود وصاحبه الذى نشرته جريدة الجمهورية يوم الأربعاء ٢٨ من فبراير ١٩٧٩ م يقول زكى محمود فى ذلك : « ليس هناك عاقل .. يوافق على هذه المصادرة ، فكتاب .. ابن عربى من عيون التراث العربى ، وقد قام .. بالبحث والدراسة فيه .. آلاف المتخصصين على مر الأجيال والعصور ، ولا يجب أن يحول انسان .. باحث أو مثقف .. بين الكتاب والاطلاع عليه .

هذا رأى الدكتور .. زكى نجيب محمود ، الذى يعنى بالفلسفة الاسلامية . وهو رأى ، فيه جرأة ، اذا كان الدكتور .. قد اطلع .. على هذا الكتاب .. المملوء بالخرافات ، والأباطيل والعجيب ، أن يقول : أنه من عيون التراث العربى ، اذن ما هى ذيول التراث العربى ؟ .. اذا كان هذا الكتاب الفاسد .. من عيونها ؟

لا يقول هذا الرأى . الا نزق ، وعهدى بزكى محمود أنه ذو عقل ، وفهم ، وادراك .

وتسأل الدكتور عن الذين قاموا بالبحث والدراسة ، فى هذا الكتاب ، من أى صنف هم ؟ وما هى اتجاهاتهم وماذا قالوا عنه ، وما هو وزنهم ، فى ميزان العقيدة الاسلامية ، النقية ، المبرأة ، من كل نقص ، وسوء ؟ هذا ، ما يمكن أن يطلب من الدكتور زكى .. أن يجيب عنه ، ويقول رأيه فى محاسن هذا الكتاب ، ان كان له محاسن تذكر ، وهذا الكتاب ، كما أشرت ، ضرب من المخرقة فى الفكر الاسلامى الصحيح .

وماذا يفيد منه الباحثون ، الذين يطالب زكى محمود ، الا يحرموا منه ؟ وكيف نستطيع أن نمنعه .. عن غيرهم ، من أوساط المثقفين ، الذين يحرص زكى نجيب محمود .. على الحفاظ عليه والأبقاء ؟ وكثير ما هو .

فالتماثيل والأصنام ، والأنصاب ، والأزلام ، على هذا المعنى ، تراث ، لابد ، حسب رأى ، صاحبى ، من الابقاء عليها ، وفى التراث فحش وهجر كثير ، وفيه خنى ، وقذارة ، وفسوق .

أيسمح ، باشاعتها ، وتداولها ، بين كل الأيدى ، المراهقة ، وأرباع المتعلمة ، وأنصافها ، ليصبح الضرر ، عالى النسبة ، وما هى الجدوى .. من انتشار الفساد ؟ ؟، والا فانه تراث فقط يصل اليه ، الخاص والعام ، ويضر ، ولا ينفع لانه تراث ، ينبغى أن يبقى وكفى بشره الكثير ؟

والدكتور زكى ، هو العاقل ، الذى يطالب بالابقاء .. على هذا البلاء من التراث . أما الذين ، يريدون حماية الناس ، من أوضاره ، ومساوئه ، فهم .. فى رأيه ، ليسوا عقلاء ، سبحان الله ، وسبحان ربى ، ما أسرع ، ما تعمى الأبصار وتعمى البصيرة .

ولكن الفلسفة ، لايهمها ، الا أن تجد ، ويشاع .. كل شيء ، من أجل الثقافة والفكر ، وأن يباح كل شيء ، وأن ينسلخ من الدين من اجل الفكر .

أى فكر هذا ؟ وأى علم هذا ؟ .. لا اله الا الله ، قتل الانسان ما أكفره . ولعل الدكتور زكى ينسى أن الدين غير الفلسفة ولكنه مبهور بالماديات فلم يعبأ بالروحانيات ان الروح غير المادة ، وهو يدرك هذا ، ولكنه .. يشطح مع الفلاسفة ، وهو ليس منهم بالطبع ولا يصنف .. حتى فى كتاب الفلسفة ، فهى بحر عميق ، وإنما هو مجتهد ، وتدركه الأخطاء ، كما تدرك غيره ، وهى محددة ، فى بعض كتبه . وليست هذه الوقفة ، وقت الاشارة اليها .

استاذ مساعد الفلسفة الاسلامية

أما الدكتور ــ صلاح رسلان ، استاذ مساعد الفلسفة الاسلامية بكلية الآداب ، بجامعة القاهرة ، فلافض وصاحبه فاهما ، يقول : « ليس من حق مجلس الشعب .. أن يصدر قرارا بمصادرة الكتب ، والمؤلفات الفكرية ، وكتاب ــ الفتوحات المكية » . يدرس فى الجامعات ، وفى الدراسات العليا ، وموضوعات للبحث والدراسة ، الى أن يقول :

« يجب أن نعمل .. على توفير المناخ الفكرى الصحيح ، بعيدا .. عن المصادرة ، أو التحريم وبهذا .. لا نود ان نتهم ، بأننا أقل من الأسلاف ، والأجداد حرصا .. على الفكر الحر ، والثقافة بأوسع معانيها ، خاصة اذا كانت المؤلفات .. من أمهات التراث الفكرى ، وليس من حق أحد ، أو هيئة .. من الهيئات ، أن تصدر حكما .. بمصادرة احد عيون التراث فالتراث ، تراث الخ .. » .

كلام السيد صلاح رسلان ، متناقض ، وهو دليل الارتجال ، فلا هو ، ولا صاحبه ، قال ، أن الكتاب ليس فيه عيوب ، تهبط الى الالحاد ، ولم يقولا ، الا انه تراث وكفى . أيكفى هذا .. ايها المعلمون ، والمفكرون ؟

إن هذه الدعوة معناها الفوضى ، حين يقال : ليس من حق احد .. مصادرة كتاب ، ينسب الى التراث . وما أكثر الغث ، و ــ الهباب ــ ، فى التراث ، الذى فيه ، من خصوم المسلمين ، وهيئاته عصور الانحطاط .

وتناقض صلاح رسلان ، هو أنه يدعو الى توفير المناخ الفكرى الصحيح .. من جهة ، ونحن معه فى الصحة والتوفير للمناخ .

ولسنا معه فى هذه الفوضى ، لاباحة أى تراث ، وأى كتاب ، ولو كان هداما ، يشاع ، وينتشر ، ولا يحجر على تداوله .

وهو محفوظ فى المكتبات ، لامثال زكى ورسلان ، يطلعان ، ويدرسان .

ولكن الكارثة ، أن يدرس فى الجامعات للطلبة ، لتشيع هذه السموم ، والأفكار المدمرة بينهم ، ثم يقال ، ان بعض الشباب منحرفون ، وملحدون .

وبعضهم ، أو كلهم ، لانهم ، وجدوا .. من يشجعهم على الانحراف ، بما يقدم اليهم .. باسم الفكر ، والتراث والثقافة .

هذا هو الفكر المعلول حقا ، الذى يريد ، أن يشيع الضر ، فى المجتمع المسلم ، وينتشر الالحاد ، بين المتعلمين ، بهذه الدعوة الفاسدة ممن يتصدرون الرأى . باسم الفلسفة الاسلامية ، والفكر .

أدعو الله مخلصا ، ان يقوى من شوكة علماء المسلمين ، وهيئاتهم التشريعية ، ليعلموا المزيد ، حتى يحولوا بين انتشار هذه السموم ، وبين أبنائنا ، ومجتمعنا ، ويقوا المناهج ، والمكتبات ، من هذا الغثاء ، ومن هذه الأوضار ، ولسنا مسئولين .. عن التراث المريض ، نحفظه ، ونشيعه ويجب ان يحرق ، مما يتعارض والعقيدة ، ويفسدها ، وليت صلاح رسلان يقول لنا ، أو لطلابه فى الجامعة من هم الاسلاف والاجداد ، الذين حافظوا على ما أسماه : الفكر الحر ، وما أبعاد الحرية ، وعمقها ، حتى إن اتصلت بالعقيدة .. لتفسدها ؟

هل الفتوحات المكية فكر حر ؟ وفى أى عصر وجد واين الاسلاف فى عصر تأليفه ؟

انه كلام يلقى على عواهنه ، تجهيل للاخرين ، وهو جهل ، مصدرا ورأيا والله الهادى الى سواء السبيل .

صحافتنا في ميزان التقويم

* قرأت .. نتيجة الحوار ، الذى دار فى جامعة الرياض ، مساء يوم السبت ١٤٠١/٢/٢٧ هـ والذى نشرته صحيفتا الجزيرة .. وعكاظ ، واشترك فيه الدكتور عبد الرحمن الشامخ ، والاستاذ حمد الجاسر . وخالد المالك ، وهاشم عبده هاشم وادار الندوة ، الاستاذ احمد السباعى .

أريد البدء .. بمناقشة الآراء .. التى القى بها .. فى هذا الحوار ، والاسئلة التى القى بها مدير الندوة ، ولا على .. ان ابدأ بغير ترتيب — ولكنى الم .. المامة ، توشك ان تكون عابرة على أصل الى نتيجة من هذه الالمامة ، حول .. تلك الاراء التى ناقشت دور الصحافة عندنا ما لها ، وما عليها .

وجه الاستاذ أســـامة السباعى سؤالا ، الى الاستاذ .. هاشم عبده هاشم وهو : « الى اى مدى .. تستفيد الجريدة من مدخولها او ارباحها ؟ ، واعتذر الاستاذ هاشم .. عن الاجابة على هذا السؤال بالتحديد ، لانه لم يكن اداريا .. فى مؤسسة صحافية ، الرد الطبيعى ان الصحيفة اية صحيفة ، تستفيد من دخلها المالى لتطويرها ، لان هذا التطوير .. يؤدى الى المزيد من الدخل ، الذى يعود عليها ، غير ان هذا السؤال يتولد عنه سؤال جديد ، وهو القيادة فى التحرير ، هل هى قادرة .. على الاستفادة من الانفاق لرقى الصحيفة ؟ ذلك ..

أن مجرد الانفاق لا يكفى اذا لم يكن له مردود ، والمردود الاول .. ليس الربح كما قد يتبادر الى الاذهان ، وانما .. تحسن مستوى الصحيفة لتكون مقروءة ، وبذلك تكون رائجة ، ومن الرواج يكون النجح . والصحافة كما اثير فى الندوة ليست تجارة ، وانما هى رسالة وخدمة . والذى ينظر اليها .. من منظور الربح ، يخطىء فى هذا الحكم . وبعض صحفنا .. تعانى ازمات مالية حتى توشك على التوقف ، ولعل المثل امامنا ، وهى صحيفة اليوم التى اوشكت على

التوقف ، لولا دعم وزارة الاعلام ، فاذا كانت النفقات المطلوبة .. اكثر من الدخل .. فكيف يطلب المزيد .. من الانفاق ؟ فى هذه الحال .. ينبغى البحث عن علة ركود الصحيفة اذا كانت متخلفة ، ثم اسباب وعلل .. عدم الرواج ..

وفى ظل الاستمرارية .. مع معالجة الاخطاء واسبابها ، لا ضير على الدولة ، أن تعامل الصحف .. التى تحتاج الى دعم ، لكى تنهض كما ينبغى لها ومنها ان تعاملها .. معاملة شركات الكهرباء ، التى ضمنت لها الدولة ربحا محددا حصيلته ١٥٪ خمسة عشر بالمائة ، فالكهرباء خدمة والصحافة خدمة .. ورسالة . هذا هو الحل الامثل فى رأيى ، وبعد ذلك تحاسب الدولة المؤسسات الصحفية .. اذا قصرت فى دورها المطلوب منها .. والمحاسبة .. ينبغى ان تحدد ، اذا كان التقصير .. اداريا او تحريرها ، اذ المهم .. ان تؤدى الادارة دورها ، ويؤدى جهاز التحرير دوره كذلك ، فى ظل نظام متطـور للمؤسسات .

ثم ماذا يراد .. من الهيئة العامة للمؤسسة ان تؤدى ؟ اينفـق الاعضاء .. من جيوبهم الخاصة على الصحيفة او المجلـة ، من اجـل استمراريتها .. وكفى ، ويذوب رأس المال فى الانفاق ؟ الاصل .. ان تغطى الصحيفة او المجلة نفقاتها فى كل ظروفها ، فى ظل سياسة تنسيقية وتعاون تحريرى وادارى ، واذا نجم عجز مالى تتحمله الدولة ، كما هى الحال .. فى شركات الكهرباء ، كما اشرت ، شريطة ان يكون اعضاء الهيئة العامة .. قادرين على معالجة الاخطاء فى الداخل ، ليكون التوازن .. هو المعيار ، وبايدى الاعضاء المتفهمين لهذا العمل وللاخطاء ، وتحديد القصور والتقصـير ، بعيدا .. عن المجاملات التى تؤدى الى التمييع والتسيب .

ان عدد لجان الاشراف على التحرير التى اشار اليها الاستاذ هاشم ، هم خمسة ، وليسوا اربعة ، وهذه اللجنة ليس من مهماتها .. ان تشارك جهاز التحرير فى اجازة المواد التحريرية من مقالات واخبار سياسية ، حتى يطلب اليها ان تبقى .. بجانب جهاز التحرير ليل نهار ، وان مهمتها كما فى تصورى وكما يريد .. نظام المؤسسات القائم ، ان تتابع سير الصحيفة ، وتسجل ملاحظاتها .. على ما تنشر ، والخط .. الذى تسلكه ، وتجتمع كل اسبوع مرة ، لتلقى بملاحظاتها الى رئيس التحرير وجهازه ، أعنى مدير التحرير وسكرتيره ، وتناقش هذه الملاحظات لتلافى الاخطاء ورسم خطط التجديد ، واستقطاب

الرأى ، وتقليص الموضوعات الضعيفة ، والبحث .. عن بدائل افضل ، ولا شك انه فى ظل هذا الحوار وتقبله من قبل جهاز التحرير وابداء الرأى فى الملحوظات ، والاتفاق على المجدى المفيد ، يمكن الوصول .. الى تعاون مثمر ، بين لجنة الاشراف وجهاز التحرير ، اذا وثق الجميع ، بان الهدف كله هو نجاح الصحيفة التى ينتسبون اليها ، بتطويرها ورواجها . وهذه اللجنة .. لم تأت من فراغ ، وانما اقتضتها .. وضعية المؤسسات التى اصبحت جماعية ، بعد ان كانت الصحيفة ملكا .. لفرد واحد ، ليتوازن الحرص فى الملكية الفردية والجماعية .. ولا اسلم التسليم كله بان العمل الجماعى غير ناجح ، فنحن بذلك .. نخالف ذلك النص النبوى « يد الله مع الجماعة »

أشار الاستاذ هاشم .. الى خطوة الدمج ، بانهـا كانـت فى عام ١٣٧٥هـ ، والصحيح أنها كانت فى عام ١٣٧٨هـ . كما أشار الى قيام المؤسسات ، وتكليف أصحاب الصحف الفردية يومئذ بتكوين هيئة عامة ، لتصبح اعضاء مؤسسة .. كل صحيفة . فقد كان هذا ، غير أن وزارة الاعلام عند تكوين المؤسسات ، لم تقبل كل الاسماء .. التى اختارها اصحاب الصحف ، وانما قبلت بعضهم ، وأضافت من عندها ، اسماء اخرى ، ثم دفعت .. بهؤلاء واولئك ، وقالت للمؤسسات ، هؤلاء .. الهيئات العامة لكل مؤسسة .

إن نظام المؤسسات الصحفية ، نبت بين يوم وليلة وادى مهمته .. فى قيام مؤسساتنا ، ولعله صلح لفترة تجريبية اقتضتها الظروف يومئذ ، ولكن بعد انسلاخ سبعة عشر ربيعا ، .. وعبر متغيرات شتى ، وتطور حياة وخطوات تنمية طموحة ، أنجزت الكثير الرائع ، لم تعد ورقتان وثلث بصالحة ، او قادرة على ان يوائم صحافة .. ينبغى .. ان تساير هذا التطور والمتغيرات ، ولا فى منظور البلاد وما حولها ، اذ لا يصح ان يحدث التطور فى جوانب كثيرة ، ويترك جوانب أخرى أساسية ، لها الدور والفعالية مع اسس النهضة ، ذلك ان الصحافة واجهة متطورة ومظهر حضارى ، ويقاس رقى البـلاد .. على حريتها .. ونجحها .. فى اداء دورها القيادى .. فى مجالها ، كما ينبغى ..

والصحافة .. ليست صورة وخبر فقط ، وانما هى قبل كل شئ .. رأى ناضج واع ، متزن قوى صادق ، اما الصورة فهى فى التلفاز ، والخبر فى

الراديو ، عبر المئات .. من المحطات الاذاعية فى العالم . ثم هناك التحليلات السياسية ، وصحافتنا .. لم تخط فى هذا الجانب ، ولعل السبب قلة المحللين او شح الانفاق ، فى مكافأة .. من يؤدى هذا الدور الكبير .. ولا تغنى التحليلات .. التى تنقل عن الصحافة العالمية ، ذلك .. انها تمثل منظورا ، يخضع لسياسات معينة مخطط لها .

وأنا لست مع الرأى القائل ، بان صحافتنا .. بلغت من حسن الاخراج والمظهر اخر ما يمكن ان تبلغه صحافة اليوم .. وسر معارضتى لرأى شيخنا الجاسر ، أن الاخراج ينتابه التغيير المتصل ، وليس فى كل الحالات .. الى الافضل وانما ينتابه الاضطراب . ولعل سبب ذلك ، اما تدخل جهاز التحرير فى التخصص الفنى ، او تفاوت الكفايات .. فى الاخراج او الاثنين معــا ، فالعملية .. تخضع لشىء من المزاج ، ولا سيما أمزجه بعض المحررين الذين يشرفون على الصفحات ونحو ذلك ، ولابد .. من ارضاء الخواطر ، حتى لا يفقد المخرجون وظائفهم . غير ان كفاية جهاز التحرير تعطى الخطوط العريضة للمخرجين ، ثم تطالبهم بان يضعوا خبراتهم ومواهبهم .. ويوظفوها .. فى اعمالهم . والصحافة ثبات على مبدأ فى خطط اخراجها ، ولكن هذا الثبات شبه مفقود فى صحفنا ، وبذلك يتذبذب اخراجها ومستواه المتقلب . والمخرج الصحفى .. أشبه بالمستشار فى ديوان ما ، الذى يرضى رئيسه باتخاذ الرأى الذى يريده الرئيس ، فيعطل المستشار خبرته وعلمه القانونى .

وأتيح لى الاطلاع على رأى .. الدكتور غازى القصيبى ، الذى صنف صحافتنا فى المرتبة الثالثة .. بالقياس الى صحافة العالم العربى .. وأنا .. لا أتردد فى موافقة الدكتور غازى القصيبى فى هذا الحكم .. واكبر الظن .. أن توفر كوادر تحمى الصحفى وتضمن له حقوقا مشروعة ، من سكن وعلاج ، وتقاعد فى شكل تأمين اجتماعى او نحوه ، وتخفيض قيمة تذاكر سفره وأسرته ، ومرتبات توائم جهده فى مهنة البحث عن المتاعب ، وامتيازات معنوية ونحوها ، الى جانب ــ وهو جانب مهم ، أن الخــبرة الفنــية ، فى الاخراج والعمل الفنى فى المطابع بكل جوانبه .. ومع الاسف .. عبر السنين الطوال ، لم تستطع .. بناء طاقات بشرية فنية ، تؤدى دورها .. فى صحافتنا ومطابعنا . ولست بواضع التبعة على مؤسساتنا ، ذلك .. ان قدراتها المالية لا تتيح لها اداء

هذا الدور المهم ، ولعل وزارة الاعلام مع وزارة العمل مع المعارف ، قادرة .. على بناء الكوادر الفنية ضمن خطة مرسومة ، ذات حوافز ومغريات ، تدفع بعاشقى الصحافة .. الى الانخراط فى هذه الاعمال .. بمختلف شعبها .. مرحليا .

وأنا مع الرأى .. الذى يحكم بالشبه بين صحفنا .. ولكن ليس فى كل صفحاتها ، وإنما الصحفات الاولى .. على الاخص .. ولى رأى . قد يكون مرفوضا وقد يكون مقبولا بعض الشيء وهو .. ان التصريحات الرسمية والاخبار الرسمية ، لو نشرت بالتتابع ، بمعنى ان تنشر اليوم فى المنطقة الوسطى ، وغدا فى الغربية ، وبعد غد .. فى الشرقية فسيؤدى ذلك الى اختلاف مسحة الواجهة الصحافية ، والذى لا يتاح له قراءة التصريح والخبر الرسمى اليوم ، يقرأه غدا او بعد غد . اكبر الظن .. ان هذا الرأى قد يواجه بالسخرية والضحك .. وهو .. على كل حال وجهة نظر ، صوابا ام خطأ ، ولا أعنى بالاراء الخبرية التى لا تحتمل التأجيل ، وانما تلك التى لا تحترق بسرعة ، وتتصل بنشاطات ومرافق عامة .

* لا أخفى .. ان صحافتنا تطورت ، وما زالت .. تتطور ، وأمامها المجال متاح للمزيد منه ، فى ظل الدعم المادى ونظام لها .. متطور ، ومرن وقيادات فى مؤسساتها .. فى التحرير والادارة ، وهيئاتها العامة ، تعطيها اهتماماتها ، وتعطى مجالس اداراتها مكافأة على اجتماعاتها ، وتكون الهيئات لها اهتمامات بها من أجل نجاحها ، وملتصقة بها ومتجاوبة معها ، وتهتم بالرأى والفكر ، ولها اراء .. فى النجح والتطوير ، ومواكبة الحياة العامة .. والدولة قادرة .. ان شاء الله على الدعم المادى وسن ، كوادر .. التى تحقق رقى الصحافة ونهضتها ، وهى جزء .. من نهضة البلاد ..

والصحافة .. ليست وظيفة ، ولكنه اداء من عاشقين لهذا العمل ، بمواهب وكفايات وطموح .. نحو التطور ، والتزود من الزاد الثقافى من ذوى حواس ، يسعون نحو التجديد ، لان مجد الصحفى ينتهى عند غروب شمس كل يوم ، ما لم يجدد نفسه ونفسيته وعطاءه ، يدفعه طموحه ، ويجد بالمقابل الضمانات ليومه ، وغده ، والتقدير الذى يدفع بخطواته نحو الافضل ،

المتجدد والاداء الجيد ، تبعا لنمو الحياة ، التى لا تنهض الا بالتضحيات والاخلاص ، والصحافة .. ليست مركزية ، وانما هى تنافس .. على ساحة الوطن العريضة .. لاداء رسالة وخدمة ، تأخذ بالافضل وتستفيد من تجارب الاخرين ، وتستفيد من اخطائهم وتنافس فى الاحسن الذين سبقوها احقابا ، والاجدى ،.. فى خطها الذى يوائم طبيعة البلاد وخطها المرسوم ومنهجها الحياتى .. وبذلك يتحقق الهدف منها ، فى ظل السياسة الواضحة القويمة .

هذا ما عن لى أن أعلق به على تلك الندوة الناجحة ، التى اتسمت بالصراحة والوضوح والموضوعية ، ولولا تلك الخصائص فى ذلك المناخ الذى دار فيه الحوار ، ما قدر لنا .. ان نقرأ تلك الاراء ، ولا ان نعلق عليها ، وهى جديرة بالاهتمام ، ومعالجة السلبيات التى أثيرت والتعليقات التى طرحت بعدها .

حديث عن الصحافة

تطرق حديث الاستاذ ميشيل أبى جودة ، الذى نشرته جريدة الجزيرة قبل أيام ، خلال زيارته للرياض ، تطرق الى اعلامنا والى صحافتنا ، فوصف اعلامنا .. بانه دون مستوى قدراتنا ، ودون النهضة التى تعيشها البلاد ، والتطور السريع .. الذى وجد مناخاته . وكان التركيز على الصحافة ، وصحافتنا تحتاج الى الروافد المادية لكى تنطلق الى افاق اوسع ، والمال .. يوفر الكفايات التى نشكو من نقصها ، ذلك .. ان الصحفى يبذل من الجهد .. اكثر مما ينال من تقدير مادى ، فى وقت أصبحت فيه المادة عنوانا وأساسا ، وبدونها لا تتحقق الحياة التى ينشدها الانسان .. مما يحتاج اليه .

والصحفى عندنا انسان عادى ، ليست له امتيازات ولا تقدير ولا حقوق ، رغم أن عمله كبير ومطالب بالمزيد فى ساحات المتاعب والمعاناة ..

كيف نطالب بالتطور والمزيد .. من التفوق بدون مقابل ، وهو يرى غيره .. فى بلاد مختلفة ، يحظى بالرعاية والعناية والتقدير ، حتى فى أضيق الظروف ، يركب بأجور مخفضة وينال فرصا مختلفة وله سمة ، تضفى عليه .. تقدير دوره ، ويتاح له .. أن يشارك فى الكثير .. من المؤتمرات والاجتماعات العامة ؟

كيف تنهض صحافتنا ، وهى لم تستطع .. أن تكون شركة توزيع .. تنقلها ، وتوصلها .. فى وقت صدورها ، الى الابعاد .. التى نريدها لها ؟

وكيف تتطور .. بدون اغراءات للعاملين فيها ؟ وكيف تستقطب الكفايات والتخصصات ، ومصروفاتها .. فى وضعها الضيق .. اكثر من دخلها ؟ ومعونتها الرسمية منذ اربع سنوات .. لم تزد ، وارتفع ثمن كل شئ حتى قيمة اشتراكاتها .. مقيدة ، وحتى الحصول . على هذه الاشتراكات فى كثير .. من أجهزة الدولة ، لا تخرج منها الا بعناء العناء للقيود المالية ، كيف اذن تبنى صحافة قوية فى ظل هذه المعاناة والمتاعب الاساسية ؟ نتيجة نفاد

البند وعدم وجود سيولة ، كذلك بعض الاشتراكات البسيطة المحدودة ، التى لا تغطى تكاليف اجور الموزعين ، تذهب .. اجــور « تــكاسى » للمراجــع « المحصل » ، وان وجد الموظف اليوم لا ينجزه ، وان عاد غدا .. لا يجده ..

هذه بعض المكابدة التى تعانيها صحافتنا ، فهل نطمع .. فى « مجلس الاعلام الاعلى » ان يحقق الحوافز والدوافع للصحافــة ، لتتخلص من عجزها ؟ .. لان ثمة تصورات .. فيها الكثير من الخطأ ، تقــول : ان الصحافة .. تعيش فى رفاهية وفى ثراء . ولا داعى للالحاح ولا للزيادة فى الدخول .. ونفقات الصحافة معلنة ومعروضة ، ليس فيها غش ولااخفاء .

فهل تزول هذه المعوقات فى طريق الصحافة ، بما يعالجه مجلسنا الاعلامى وتتوافر الامكانات ليصح مطالبة الصحافة بمزيد من التطور ومواكبة الاحداث ، ام تظل المطالبة .. من جانب واحد هو ان تعطى الصحافة دون ان تأخذ .. ما يمكنها من العطاء ؟ .. أحسب .. ان هذا تناسب مغلوط .

* * *

الذى يلفت النظر ، وأنت تطالع الاعداد الاولى .. من صوت الحجاز المكية ، ان الكثيرين يوقعون مقالاتهم برموز وأسماء مستعارة ، لا يمكن الاهتداء .. الى أصحابها الا من الشيوخ الذين عاصروا صدور الجريدة ، وعرفوا .. من هم أصحاب الرموز والاسماء المستعارة ، مثل « الغربال » .. وقارئ ــ جدة ، و « طلاع الثنايا » و « انا » وبقية الرموز بالحروف ، وقليلون .. اولئك الذين كانوا يوقعون مقالاتهم المختلفة باسمائهم الصريحة ، منهم الشيخ احمد بن ابراهيم الغزاوى ــ والشيخ عبد القدوس الانصارى ، والشاعر حسين سرحان ، وقصائد الاستاذ محمد حسن عواد ، وعبد اللطيف ابو السمح ..

وأجد فى صوت الحجاز مقطوعات شعرية ، وبعض القصائد للاستاذ الشيخ حمد الجاسر يوقعها هكذا « بدوى نجد الجاسر » إبان اقامته فى مكة ، ربما وهو طالب .. فى ذلك العهد وقد تخلى الشيخ الجاسر عن الشعر او تخلى عنه ، لانه .. ليس بشاعر ، وقد أكد هذا بنفسه فى حديثه ، فى « الوجه الاخر » .. مساء الاثنين ١٣٩٨/٣/٢٠هــ .. واعتبر ما قاله .. نظما ، وتفرغ للبحث .

فى العدد « ٥٥ » قصيدة للشاعر ــ حسين سرحان ــ عنوانها « فى العام الهجرى الجديد ١٣٥٢ » .. مطلعها :

سلام على العام الجديد اذا بدا
وما أنا الا معجب ومسلم

وقد انتقد هذه القصيدة ــ عبد اللطيف ابو السمح ــ فى العدد ٥٨ بقوله : « فلا معنى لقوله ــ يريد الشاعر ــ « اذا بدا » ، وهذا كما يقال لضيف عندك .. فى زيارتك سلام عليك اذا زرتنى فانه يكون متأخرا عن وقته ، وكان الواجب .. أن تقوله قبل أن يزورك » . وقد رد الاستاذ السرحان على ابى السمح ، والقصيدة نشرت فى ٢٧ من المحرم ، وابو السمح يقول : ان العام قد بدا فعلا فلا حاجة لان يقول الشاعر ــ اذا بدا ــ ويقول السرحان : وهذا مع كونه لا يغير الشعر الفنى فى شىء ، ان القصيدة .. بدأنا فى صنعها .. قبل أن يستهل علينا هذا العام بمحرمه ، فلزاما أن نقول تلك الكلمة التى يستنكر جانب الناقد .. محلها فى التعبير ، ويصرح بعدم جوازها ، الى اخر الدفاع والحجج .

الصّحافة

* الصحافة اليوم ، تلعب دورا بارزا .. مهما ، فى حياة الشعوب التى بلغت الرقى الحضارى ، والتطور العلمى والثقافى ، ونالت من الوعى .. ما حقق لها .. المزيد من النهوض فى ميادين الحياة العامة . ولم تعد الصحافة تنقل الأخبار العابرة ، كوسيلة إعلامية .. محدودة الامكانات والأهداف ، ولكنها أضحت مدرسة وكالمدرسة .. تدخل كل مكتب ، وكل بيت ، وهى وسيلة تثقيف شعبية ، وهى الى جانب ذلك .. مظهر حضارى ، تقاس عليها الأمم والدول ، على قدر رقى الصحافة ، وقيامها بدورها القيادى ، أو تقصيرها فيه ، تقاس حياة الأمة .. التى تصدر عنها صحيفة ، أو صحف ومجلات فى مختلف الفنون . وليس المقياس الصحافة .. التجارية المادية ، ذات الأهداف الضيقة ، أو على التحديد ، ذات الاتجاه المادى ، فهذه ليست صحافة وإنما هى وسيلة تجارية على مستوى رخيص ، لانها تبتز المال بأكثر من طريق ، وكلها طرق غير مشروعة ، لأنها مقابل الحصول على المال .. لا تقدم شيئا يستحق التقدير ، وإنما هى تعنى بالقشور وبالأمور الجانبية ، ذات المظاهر الرخيصة . فهى إذن صحافة هدف رخيص .وهى فى ظل حرية مكتسبة تمارس إتجاهاتها ، لتحقق لنفسها المال بالوسائل المختلفة .. التى توصلها إليه . وصحافة كهذه .. ليس لها حساب .. فى مقاييس التقدير .. القيمى والتاريخى ، لانها صحافة مصالح محدودة زائلة ، وليست صحافة قيادة ، لها رأى .. يسمع ويحتاج إليه ، ولها حكم عادل وواضح ، ليس وراءه أهواء ولا ينشد مصالح ذاتية .

والصحافة الحقة ، هى التى تحمل رسالة .. صادقة جادة ، فيها سمو الهدف ، والأخلاق والبناء .. والاصلاح ، وتصطدم بالمشاكل فى سبيل أداء هذه الرسالة ، لأن الاصلاح عسير وصعب ، ولا يمارسه ويصبر عليه .. بصدق الا أولو العزم من الرجال .. فالطريق طويل .. وشاق ، يتفصد فيه عرق السائرين ، الذين آمنوا بالعمل الجاد .. يؤكد ذلك .. صدق النية ، وثبات الرأى ، والاصرار على تحمل المتاعب ، فى سبيل الواجب .. والواجب .. عبء ثقيل .

والجهد وحده .. لا يكفى .. لينهض برسالة اعلامية وتثقيفيــة ، وتوجيه .. الى الاصلاح ، فى صحافة جادة ، صادقة مع نفسها أولا ، ثم مع من تخاطب ، صدق .. هو امانة العمل السليم الصحيح تؤديه .. بنفس الصدق ، والوفاء للوطن .. الذى تصدر عنه ، وتعبر بلسانه ، وتدافع عنه .. فى حوازب الأمور ، وتظهر سماته وملامحه ، وتشيد بنهضته ، وتشيع رقيه .. فى الآفاق .. التى تصل إليها ، بوسائلها الخاصة أو بوسائل الآخرين ، الذين استطاعت .. أن تجتذبهم وتؤثر فيهم ، بما تقدم إليهم من زاد وأفكار وصدق ، فيما تنقل .. وتعبر .

والصحافة فى العالم المتحضر .. المتطور ، تتمتع بجانب الحريــة الممنوحة لها ، بالدعم المادى الفعال ، الذى يغنيها فى أداء رسالتها .. كما يجب ، فلا تضعف .. بنقص دخلها الأساسى ، ولا تضمر بتقلص وارادتها ، فهو دخل ثابت ، يرتفع .. بقدر الاحتياج لموجات الغلاء ، ومتطلبات التوسع الصحافى وحاجات التطور .. فى أرقى البلاد الديمقراطية ، كفرنسا وبريطانيا وألمانيا وهولندا وغيرها ، تنال الصحافة .. من الدولة معونات مجزية .. تسد النقص ، وتعين على التطور والتوسع ، وتسد النقص .. فى الدخول المشروعة من إعلان وتوزيع ، فلا يكون هناك عجز فى ميزانيتها ، يخلخل كيانها ويهددها ، فينعكس ذلك .. على رسالتها .. التى تنهض بها .. وهى جزء من الحياة فى خطط النمو ، وقاعدة فى المجتمع .. لا غنى عنها فى مسيرة التطور والرقى العقلى .. والحضارى .

والصحافة الوطنية ، الملتزمة برسالتها وأهدافها وصدقها ، هى درع للبلاد والدولة ، وسند قوى .. فعال ، له دور خطير ، تؤدى الصحافة .. الملتزمة برسالتها .. ما لا يؤديه السلاح ولا وسائل الاعلام الأخرى .. فالكلمة المكتوبة أقوى وأبقى ، وهى تحتاج الى شجاعة من نوع معين ، لا تتوافر فى الكثيرين من الشجعان ، أو من يعدون أنفسهم شجعانا ، فهى نمط من الشجاعة ، والتفكير والثقافة وقوة الارادة ، والصبر وبعد النظر ، وهى قيمة .. قاعدة مستقلة فى موازين التقويم ، بين المهن ورسالات الاصلاح ، والبناء والتوجيه ، وقيادة الرأى العام . وليس كل كاتب موضوع أو ممارس لهذه الرسالة ، هو المجلى .. فى هذا الميدان ، الذى تتوافر فيه المواصفات المطلوبة ، لمن يجب أن يحل فى هذه القاعدة .

والحكومة التى منحت الصحافة حريتها ، وأعلنت على لسان قادتها .. أنها تأخذ بها إلى التطور ، لتؤدى رسالتها .. كما يجب ، وقد أعلن سمو ولى العهد .. ونائب رئيس مجلس الوزراء .. الأمير فهد بن عبد العزيز .. مؤازرة حكومة جلالة الملك .. للصحافة ، وعونها .. وسد عجزها المالى ، وسن أحسن الأنظمة .. لتؤدى الصحافة المحلية أهدافها .. على بصيرة ، من خط الحكومة الواضح .. ومبادئها ، التى تنبع من شريعة الله السمحة ، وهذا ما ننتظر تحقيقه .. بمبادرة كريمة من حكومتنا الراشدة ، لأن الحال اليوم .. أصبحت ملحة إلى ذلك ، من واقع الأمر .. الذى فى غنى عن بيانى .

وأنا اطرح امر صحافتنا وعجزها المالى أمام سموه . ليفضل بمبادرة كريمة ، تنقذ مؤسساتنا الصحفية مما تعانيه ماديا ، بسد عجزها القائم ، ورفع نسبة المعونة السنوية إلى الحد الذى يغطى عجزها ، بعد إجراء حساب .. على وضعها اليوم . ورفع قيمة الاشتراك .. وكذلك رفع نسبة القروض الممنوحة لها لبناء ديار طباعية ، بما يسد .. تكاليف المطابع الحديثة ، التى لا تقل عن عشرة ملايين .. كحد أدنى ، بما فى ذلك المبنى الضرورى .. الذى تنشأ فيه .

هذه لمحات ، اسهمت بها من واقع تجربة ، ومن واقع حقيقى مدعم بالأرقام ، بحكم ممارسة هذا العمل ومعايشته أرجو أن تجد هذه الكلمات أصداءها وطريقها الى أولى الأمر فيكون لها أثرها الفعال ثم يتحول الأمر .. إلى واقع من الدعم المجزى ، إيمانا من حكومتنا بدور الصحافة الكبير ، وهى ــ أى الحكومة ــ تخطط خططا خمسية للاعمار .. والتطور العريض والانفاق الكبير ، للبناء ورقى البلاد ، وهى تدرك .. أن الصحافة فى مقدمة هذا الرقى والتطور ، ولا يتحقق ذلك لها ، إلا اذا استطاعت الوفاء بالتزاماتها ، حين يصبح دخلها على الاقل يغطى نفقتها ، مع الأخذ فى الحسبان ، تطورها ، وانتشارها ، ووصولها .. شرقا وغربا الى حيث يراد لها أن تصل ، تحمل راية الحق والكلمة الصادقة ، والدعوة الى التى هى أقوم ، وهى سبيلنا .. فى هذه الحياة ، لأنها رسالة السماء ، التى آمنا بها واتخذناها .. شرعة ومنهاجا .. ذلك لأنها من عند الله ، الذى ارتضى لنا الاسلام دينا ، وسلكناه .. خطا وعملا ، لأنه الطريق الحق الى خير الانسانية كلها .. وسعادتها ، اذا أخذت به وتمسكت بعراه الوثقى .

ان تكاليف صحافتنا خلال عام واحد ، ارتفعت ثلاثة أضعاف ،

ودخلها .. لم يزد شيئا .. فكيف تستطيع .. أن تواصل رحلتها الطويلة . اذا لم يتح لها دخل ، لا أقل .. من أن يوازى نفقاتها ؟.. وكل شىء محسوب ، فليس فى الأمر تهويمات ، وأرقام خيالية وتخمينات وافتراضات ، ولكنها أرقام حقيقية ..

ولا يمكن .. أن يقضى على العجز القائم ، الا بمعونة الحكومة والا فانه سوف يتضاعف ، وتصبح نتائجه .. هى مردود رسالة الصحافة ، فى اعلامها وتثقيفها ، والمظهر الحضارى للبلاد والدولة .. التى تصدر عنها وفيها .

ومعونة الدولة لصحافتنا ، لا تتجاوز .. بأى حال ١٨٪ من نفقاتها .. ودخول الاعلانات والتوزيع والاشتراكات . لا تجاوز الـ ٦٠٪ من واقع النفقات الفعلية ، فكيف ، ومن أين تأتى مؤسساتنا الصحفية بالعجز .. الذى قد يزيد عن ٣٠٪ من هيكل النفقات ، ولست محتاجا .. ان اضع ارقاما للدخل والمنصرف ، ليعرف هذا من هذا ، ولكن .. بقياس مقدار المعونة ، بالنسبة الى امكاناتها ، يمكن .. لاى انسان ، أن يعرف ، حجم النفقات وحجم الدخل ، ولا أذيع سرا إذا قلت : إن معونة مجلة اقرأ ، أقل من ٦٪ من نفقاتها .

وصحافة تسير فى هذا الخضم العميق .. ما تزال تتعثر ، ولست أعطى لنفسى الحق .. بأن أعدد عوامل هذا التعثر ، ولكنى اكتفى بالاشارة .. الى النواحى المادية ، وهى .. من أهم الأسباب التى تعانيها .. فى مسيرتها .. فاذا تحقق لها سد احتياجاتها .. استطاعت .. أن تواصل مسيرتها . وأن تنال من الرقى والتطور .. ما يراد لها .. ومنها ، والا فانها ستخفق بهذا الاختناق الذى يحيق بها ، ولا يمكن أن يطلب منها .. أن تلعب دورها القيادى .. وهى عاجزة عن تأمين احتياجاتها من المال .. الذى ينهض بها .. الى الآفاق التى تدعم وجودها ، وتحقق الجدوى الفعالة منها .

مِن صُوَر الحيَـــاة

حين نفتش فى حقيبة الذكريات ، نجد المزيد ... من هذه الذكريات ، تستحق الوقوف والتأمل ، لأنها فكر ومعاناة ، وسياحة مع الحياة ، والحياة أكبر مدرسة عرفتها العلوم والبحث والدرس ، تعلم ، ويفيد منها من يجلد فيها ، ويقاوم عناءها .. وآلامها وإحنها ، ويتذرع بالصبر ولا ييــأس ، وإنما ... يمضى فى دربه ، يتأمل ويرصد ويسعى ، ويقيد ما يتأمل ، ويدرس ، ويلاقى ، حتى تكون عنده ذخيرة ، من عبر الدهر ودروسه ، ويتدبر فى الحياة والخلق ، وتاريخ العابرين ، فتصبح عنده حصيلة لا تساويها شهادات ، ولا مقررات ... تخضع لحصر ، محددة الأهداف والأبعاد .

وحقيبة الذكريات التى أمامى ، لشاعر من طراز معين ، فى تعايشه مع الحياة ومع الناس ، فهو نمط له أسلوب معين ، فى حياته ، وأدبه ، ليس بدعا من الناس ، وليس غريبا عنهم ، ولكنه ... يختط لنفسه السبل التى يرضى عنها فينتهجها ، وهو راض ، عزيز طوال حياته .. على نفسه ، وعلى الآخرين ، صافى النفس ، طيب القلب ، لا يحقد ولا يبغض ولا يتكبر ، لا ، لأنه شاعر وفى الشعراء من يغتر ، فيشمخ على أبناء جلدته ، والتاريخ قد ذكرهم فى صفحاته .

صاحب الحقيبة ، وهو اسم ربما لا يلائم الشعر ، وربما يلائم النثر أكثر ولكنه جميل ، حين اقترن بالذكريات ، وفى الحقيبة ... صور ، ومواقف من الحياة التى عاشها الشاعر ، وخبرها وألم بالابعاد التى أتيحت له فيها ، ويتأمل ويرسم لوحاته ، مبتسما راضيا ، لأن الوداعة فى نفسه ... ليست مصطنعة ، ولكنها طبعية ، وهو يبتسم ... فى كل ظروفه ، لأنه أدرك معنى الحياة ، أنها لا تساوى حرص الانسان فيها ... على مباهجها الزائلة ، يشقى ويكدح ثم يفارقها ، وهو بها ... متشبث ، لا يريد فراقها ، لو أتيح له ذلك ، وإنما يتركها كرها لا كارها لها .

فى ظل هذا المفهوم ، يعيش شاعرنا ، كالطائر ... الذى يغرد على الأيك ، يعيش يومه ، ولا يحمل هموم غده ، فهو غير مكلف بمشاكل الغد وتبعاتها ، ، وإنما هو سعيد ... بين الأغصان والورود ، ينعم بفيئها وعبقها ، ويردد ألحانا على سمفونية الطبيعة ، يعزف على أوتاره ألحانا شجية ، تتردد ، فى جنبات الجنات ، وعلى خرير المياه ، وعلى حوافى الجداول الرقراقة ، حيث الخضرة ، تملأ النفس غبطة ، وتبعدها عن صخب الحياة اللاغبة ، وتبعدها .. عن ضجيجها وعجيجها ، فلا يحفل .. بما يصطرع فيه الأحياء .. من تكالب .. على بريقها الزائف الزائل ، فى تناحر وتباغض وتحاسد ، مرد ذلك الحرص الخوف من الفقر ، واهتبال كل الفرص .. كأن الانسان خالد فى حياته الدنيوية .

مسكين هذا الانسان ، يدفعه طموحه ، وتسيره آماله ، ويشقيه حرصه وشح نفسه ، فأسرته الدنيا ، وكبلته بقيود ثقال ، فملكته ولم يملكها ، وتملأ الغفلة نفسه فيصدق عليه الحديث النبوى الشريف : « الناس نيام ، فاذا ماتوا استيقظوا » .

ونعود .. الى « حقيبة الذكريات » ، والى صاحبها الشاعر ، الاستاذ طاهر زمخشرى ، وهى آخر ديوان شعر صدر قبل أيام يحمل أغانيه وألحانه ، وهو حفى بشعره ، ينشئه ويجمعه ثم يطبعه ، فلا يسأل أحدا .. أن يعينه على نفقاته ، ولا يستجدى أحدا لأن فيه إباء الأديب ، ونفسية الشاعر العف اللسان واليد والنفس .

وجاء بابا طاهر .. من تونس ، يحمل نسخا من حقيبة ذكرياته ، ولم أفاجأ .. حين دخل على ، فقد سبق وصوله إشاعة .. بأنه قضى ، ومع أن الموت حق ، ولكن ما بداخلى .. كان فيه بواعث اطمئنان . لم أجزع حين سمعت النبأ . وقال لى صاحبى ، حين أشيع الخبر : اتصل واسأل ، وضحكت فى نفسى ، من اسأل ؟، وماذا يعنى موت شاعر اليوم ؟.. مد الله فى عمره ، لاسيما وهو بعيد عن دياره ؟ ذلك .. أن حياة الناس اليوم ، تفككت فيها الأواصر ، وأهمتهم الحياة ، فلم يعودوا يأبهون .. إلا لأنفسهم ، حتى أواصر القربى ، أصابها الجليد ، فلم تعد فيها حركة ولا تساؤل ولا تفقد ولا مواساة ، ولا شىء من عناية .

الدنيا وحدها هى الشاغل ، وهى هم الناس كأننا فى يوم المحشر ، كل امرىء يقول : نفسى ، نفسى . وينبغى أن نردد ذلك الأثر الكريم : « اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ، ولا مبلغ علمنا » .

وقلت لبابا طاهر ، بعد السلام والتحيات وبث الأشواق ، قلت فيما وصفه هو بالشجاعة منى : قيل ، أو أشيع بأنك قضيت ، وسمعنا هذا عن فلان ، وفلان .

وضحك الاستاذ الزمخشرى ، وكأن الأمر لا يعنيه ، ولكنى كما قلت .. فهو ليس حريصا على هذه الحياة .. حرص الأكثرية ، وغير متشبث بها ، فهو يعيش يومه ، أما غده ، فانه يترك أمره .. لقدر الله ، إذ ليس له ، ولنا فيه رأى ، أو أمر ، فالأمر كله لله .

وعاد .. من تونس بابا طاهر ، مع حقيبة ذكرياته ، يحمل بين جوانحه ، حبه العارم لترابه ، وصحبه ، وتعلو وجهه تلك الابتسامة الراضية ، يترنم بذكرياته ، ويدندن بأنغامه ، يسعى الى اصدقائه ، كنموذج من وفائه وحبه ، يسأل عنهم ، ويتحدث اليهم ، ويسمع منهم .

يتحدث عن السفر ، والأصدقاء الأوفياء ، وعن الحب فى معناه الأصيل الصادق ، حب الوفاء ، يتحدث عن الجميل ، يذكره ، ولا ينساه ، فهو شاعر .. سريع التأثر ، وكأنى بشاعر النيل يردد على ربا لبنان الفسيح ، فى ذلك المهرجان .. الذى أقيم لتكريمه ، فقال :

شكرت جميل صنعكم بدمعى ودمع العين مقياس الشعور

فى هذه السطور العابرة ، لم أتحدث عن الشعر .. الذى احتوته الحقيبة ، وإنما تحدثت بشىء عن صاحب الحقيبة ، وعن النبأ .. الذى أشيع عنه ، وعن الشاعر .. وموقفه من الحياة ، فهو شاعر .. يرسم الصور ، ويعيش فى عالم شعره وأدبه ، مع الحب وللحب ، ليس الحب الصورى ، أو الحب الرخيص الزائف ، ولكنه حب الوفاء والايثار ، حب المعنى وحب الروح ، فى زمن ندر فيه الصدق وعز فيه الوفاء ، وتقلصت فيه القيم وشحت فيه النفوس ، وتكاسلت فيه الهمم ، ومع ذلك فالخير باق ، لأنه أقوى من ضده .

لغة القرآن

الذين أتيح لهم أن يحفظوا القرآن الكريم والذين تأملوه ووقفوا على معانيه ، وحفظوا بعضه ، ويعيدون النظر فى آياته بين الحين والآخر ، من الذين يمارسون الكتابة الأدبية أو العلمية ، هؤلاء استفادوا من لغة القرآن، المصفاة النقية ، الأفصح والأوضح معانى والحجة .

نجد طه حسين حفظ القرآن طفلا فى القرية ، والعقاد والرافعى وأمثالهم صحبوا كتاب الله ، فكانت كتاباتهم خلوا من الأخطاء الا ما ندر فقد أفادتهم لغة الكتاب العزيز وقرأوا بجانب القرآن الشعر الجاهلى والاسلامى فكان ذلك كله مصادر اثراء لغوية وبرزوا كتابا كبارا متمكنين من اللغة التى يكتبون بها ، على حين ظل كثير من الذين لم يتقنوا لغة القرآن والأدب القديم يخطئون وهم كبار .

وقبل شهور قرأت كلمة للاستاذ الأخ سباعى عثمان فى عكاظ يناقش فيها الأستاذ الخطراوى الشاعر ، عن حرف (ان) بعد كاد ، واحتج الأخ سباعى بالقرآن الكريم الذى لم يأت فيه هذا الحرف الناصب للفعل بعد كاد ، ويسبق الفعل المضارع الذى يليه ، ولعل رأى الشاعر ان العرب استعملت (ان) .. والذى لا شك فيه ان حذف هذا الحرف الناصب أفصح ، ولا أقول ان اثباتها غير فصيح ، فقد سمع من العرب ، وقاله الفاروق عمر رضى الله عنه وهو فصيح ، والقول فى هذا ان القرآن أفصح ، وما سمع عن العرب فصيح وأعنى من يحتج بهم .

ورأيت وقفة أخرى للصديق سباعى فى اللغة ورجع فيها الى القرآن الكريم وكانت كلمة بئر هل هى مذكر أم مؤنث ، وأسعفته لغة القرآن ، فقد جاء فيه (وبئر معطلة) وقد حمدت لأخى هذه الفطنة وهذا الاهتمام ، فهذه اللغة الرائعة فى ذلك التعبير المحكم المعانى الدقيقة الجامعة فى الكتاب العزيز ، تحدت العرب الذين شككوا فيه عند نزوله ونعتوه باوصاف شتى ، بأنه سحر وشعر وأساطير ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم اكتتب آيه ، فهى تتلى عليه بكرة

وأصيلا .

ولكن إفحام الذين نزل القرآن بلغتهم ، كما قال ربنا سبحانه وتعالى فى إحدى آياته : (وما أرسلنا من رسول الا بلسان قومه) . أولئك الجهابذة الفصحاء لم يثبتوا للتحدى لأنه أقوى منهم ، ذلك أن القرآن من عند الله ، وطالبهم أن يأتوا بسور من مثله ثم بسورة واحدة . وبلغ التحدى مداه أن يأتوا بآية ولكنهم عجزوا لأنهم أمام معجز .

القرآن مصدر أساسى للغة الفصيحة والأفصح ، الى جانب أنه كتاب تشريع ودستور للمسلمين ، وحوى .. ما جاء فيه (ما فرطنا فى الكتاب من شىء) .

وأنا أقرأ .. بين الحين والآخر اخطاء فى اللغة لرجال .. يحملون أكبر مؤهل علمى ، وربما أسرع .. من يقول لى : ان التخصص لم يكن فى اللغة وأقول : آمين ، ولكن الذى ينبرى للكتابة بأية لغة وخاصة لغته ، يجب ان يتقنها والا كان هذا النقص الذى نراه ، ولا يحاول أصحابه تقويم لغتهم واصلاحها ، وأنا واثق من أنهم لو رجعوا .. الى القرآن يتلونه ، وبكل حرف .. أجر وثواب ، لوجدوا .. الى جانب هذا الخير بغيتهم من اللغة ، ولفهموا كل يوم جديدا من القرآن وهم يتأملونه ويدرسونه . وربهم قد أمرهم أن .. يقرأوا هذا الكتاب وأن يتدبروه ، وأن يكون زادهم وأى زاد أفضل من كتاب الله ، يدفع للتقوى ، ويهذب النفس ، ويعلم الأدب والحياة . وتخشع النفس عند سماع آياته ، وبه تطمئن القلوب ، وما أحوج قلوبنا اليوم وفى كل يوم الى الاطمئنان .. وتلاوة القرآن تدفع هم الروع ، اللهم آمن روعاتنا .. والقرآن حين نحسن مصاحبته وتلاوته سوف يكون شاهدا لصاحبه .. يوم القيامة ، وسيكون شاهدا عليه اذا هجره، واساء الصحبة .

قلت : ان الذين أفادهم القرآن كلغة ، كانوا يتصدرون .. الكتابة والخطابة ، فكانوا روادا وكبارا ، لا يشق لهم غبار ، فقد اسسوا عقولهم بلغتهم ، ولم تتأثر اللغة الأم ، حتى بعد ان خالطتها لغة اخرى أجنبية ، لناخذ مثلا طه حسين ، درس وحفظ القرآن طفلا ثم جاء الى الأزهر فدرس على الكبار مثل سيد على المرصفى وأمثاله ، فأتقن اللغة العربية بدراسة نحوها وصرفها وقد انصرف الصرف اليوم واختفى . ودرس طه التفسير والأدب القديم على نحو ما يومئذ ، ثم ترك الأزهر ومعه زاد .. كبير من اللغة ، حتى اذا ذهب .. الى

فرنسا يدرس .. بلغتها الأدب والتاريخ القديم ، ويتزود .. من مناهل المعرفة ، وحمل الدكتوراه من السربون وعاد الى مصر ، بدأ يدرس الأدب العربى بلغته ، حتى اصبح عميدا لكلية الآداب ولم تضعف لغته وانما زادت قوة ، لانه يغذيها بهذه المعرفة العريضة من الأدب العربى القديم ، فزادت لغته قوة وسعة وعمقا ،. ولم ينس الفرنسية التى درسها وأتقنها ، ونحن نعلم أنه كان خطيبا .. بالفرنسية ، مثلما كان فى العربية ، وانه يسحر حين يتحدث بهذه أو تلك ، لأنه يجيد بامتياز الالقاء ، وله نبرات رنانة ، ولسان ذرب ، وبيان واضح اشد الوضوح وذو فصاحة لا يقاربه احد .. اذا تحدث ، كما ان له اسلوبه الذى اتسم به وتفرد .

وآخرون ، مثل لطفى السيد والعقاد والزيات ، درسوا الفرنسية والانجليزية باتقان ، وكذلك المازنى وزكى مبارك ، ولكنهم .. لم يتخلوا عن عربيتهم بل كانوا حراصا على ان يظهروا بحق ، أنهم أبناء العربية الأم ، وان دراسة لغات أخرى ، هو إثراء .. للمعرفة وللعربية نفسها .

ولعل ابناءنا .. من الشبان . يجنحون الى كتابهم بين وقت وآخر ، يتأملونه ، ويستظهرون معانيه ، ويتعلمون منه ، وتقوى الرابطة .. بينهم وبينه ، فهو الأنيس وخير رفيق ، وأثرى زاد ، وأنفع سلاح « يهدى الى الحق والى طريق مستقيم » .

حين سئل المحامى مكرم عبيد : بم بلغت هذه الفصاحة فقال : إنه حينما انخرط .. فى سلك المحاماة قال له أبوه : عليك بالقرآن لتقوى حجتك ، وأنت تترافع أمام القضاء .

فاذا كان قبطى ينصح ابنه بحفظ القرآن ، ويعمل الابن بنصيحة أبيه ، ويبرز فى المحاماة حتى اذا ضاق قاض وغضب ، أسرع مكرم ليرجعه الى الهدوء بقوله من الكتاب الكريم « ادفع بالتى هى أحسن » .

اذن نحن المسلمين وأبناء المسلمين ، أولى الناس .. بهذا الكتاب ، نتمسك به ، حفظا فى الصدور ، وعملا ودراسة وتأملا ، فيه الحجة والبرهان والدليل ، بان الهدى هدى الله .

أحبابنا أبناءنا ، الذين تدرسون فى الجامعات .. داخل بلادكم ، وخارجها فى البلاد العربية والأجنبية ، خذوا معكم هذا الزاد ، واسألوا أهل الذكر .. عما يغمض عليكم من أحكامه ومعانيه ، واجعلوه فى قلوبكم ، فهو

شفاء لها وانقشوا آياته .. فى صدوركم ، فهى خير زاد ونور فبها يجلى الغم ، وتلاوته تذهب عنكم كيد الشيطان ، وتأنس نفوسكم وتطمئن . احملوه فى جيوبكم وأنتم طاهرون ، وانظروا فيه ، تتعلموا وتعرفوا جديدا مما لم تعرفوا ، وما لم تأت به العلوم الكونية ، فكل جديد .. يظهر ، يوجد له دليل فى هذا الكتاب ، الذى لا يأتيه الباطل اجعلوه نور ابصاركم ، تهتدوا به اذا حرصتم ، وتعلموا أحكامه ، ومن اسلوبه تعبيراتكم .. فيما تنشئون من دراسات ، فهو معين ، وهو معين .

وليرجع كتابنا ، لا يستنكف منهم احد الى هذا الكتاب ، اذا أرادوا اللغة الأفصح وليجنبوا .. اقلامهم .. الزلل ، والخطأ الذى ينبه اليه الناشىء ، هو عيب .. فيمن يمارس حرفة الكتابة او الحديث ، وقد تفشت العامية فى الكتابة والحديث ، حتى تجاوزت حدها .

ولو اننا دربنا أنفسنا .. على الفصحى .. من البداية بمرانة لأصبحت شيئا طبعيا فى أحاديثنا وكتاباتنا ، ولتقلصت العامية ، التى تجد التشجيع والانتشار ، ولسنا فى حاجة اليها ، بالقدر الشائع اليوم ..

وليت مدارسنا وجامعاتنا تأخذ بمبدأ تدريب الطلاب على الخطابة بالفصحى بدءا من المرحلة الاعدادية ، وهذا أمر يخص وزارة المعارف والجامعات وما اليها ، ويخص المنهج ، ولعله ممثل فى بعض مراحل الدراسة ولكن لابد مما ليس منه بد كما يقال ، ونحن هنا فى مهد العروبة والعربية أولى الناس بالحفاظ على اتقان أداء هذا التراث وفق منهج يغار أهله على لغة القرآن ويحرصون على اشاعتها فبها يفهم القرآن وتتقن دراسته ونصل الى معانيه وأحكامه . والله نسأل مزيد السداد والقبول للعمل الصالح .

حوار عن التعليم

– جاء الى مؤسسة البلاد .. للصحافة والنشر ، يوم الخميس الماضى ، الدكتور عبد الله الزيد مدير عام التعليم .. فى المنطقة الغربية ، وكان معه .. بعض المسئولين ، عن التعليم ، فى مكة المكرمة .. وجدة والطائف ، ويبدو انه جاء لموعد يجرى فيه هذا الحوار ، يحضره مدير عام مؤسسة البلاد .. الدكتور حسن ابو ركبة .. ولم اكن ادرى عن هذا الموعد .. قبل هذا اللقاء .

وحضر ، من مؤسسة البلاد .. الزملاء سباعى عثمان ، وعبد العزيز التميمى ، وشاكر عبد العزيز ووجدت نفسى .. أشارك فى هذا اللقاء ، القى باراء وأسمع الى اجابات عنها ..

– وكان الدكتور الزيد ، صريحا ، ذكيا ، متفتحا ، واعيـا .. لدور التعليم .. ورسالته ، يتقبل النقاش .. برحابة صدر ، حتى العنيف منه ، ذلك .. أننا جميعا فى هذه المصارحة ، ننشد الخير ، ونتطلع الى التطور .. الذى يخدم التعليم ، ويجعل .. من مدارسنا صروحا للعلم والمعرفة فى تكامل تخطيطى ، ومنهجى ، ومسلك رسالة خطيرة ، تحتاج .. الى الكثير من الوعى ، والجهد والعناء ، فى كل وجوهها ، والا كانت النتيجة التخلف ، من مسيرة الحياة الجادة فى أهم أسسها

– والقيت بأفكار .. فى هذا الحوار ، حول الكتاب المدرسى ، وتأخير وصوله الى أيدى الطلبة .. مع بدء الدراسة ، وابتعاث المدرسين .. فى اثناء العام الدراسى ، لاكمال دراساتهم وغربلة المنهج ، من الحشور ، لان عدم مواءمة الكتاب المقرر للدراسة ، اذا لم يكن مؤلفه متخصصا ، ولم يفحص من خبراء التعليم ، ولم يطرح للتشاور .. من هؤلاء المتخصصين ، كان عبئا .. على الطالب ومعطلا لمسيرة تحصيله ، التى يجب ان تكون مثمرة .

- وتحدثت عن الاسس وبناء الاساس فى المرحلة الابتدائية بناء قويا على قواعد مدروسة تحمى الاساس من التصدع ، وهذا لا يكون ، الا فى ظل مدرس واع برسالته ، وله من المعرفة شئ عريض ويتقن اساليب التلقين وبناء الاسس وكذلك الكتاب ، ثم المناخ المدرسى ، وانه لابد من تضحية .. واهتمام .. بمدرسى بناء الاساس ، والا كان الاساس عرضة للتقوض ، وكانت الهزالة تلاحق البناء .. الضعيف الاسس والنتيجة .. خسارة عريضة ، يدفعها ، او يتحملها الطالب فى جميع سنى دراسته ، وتدفعها الدولة ، تكاليف .. وانصرام زمن وكلها تكاليف غالية .

- وتحدثت .. عن توزيع حصص الدروس .. فى الجدول الاسبوعى وإنى لاحظت .. فى السنة الثالثة الثانوية شعبة العلوم ، ان الحصة الاخيرة او التى قبلها ، السادسة او السابعة والطالب مرهق ، استنفد كل قواه فتكون الحصة الاخيرة او التى قبلها درسا صعبا فيزياء ، او كيمياء ، او أحياء . كيف يستوعب الزهن المرهق ، المتعب ، هذا الدرس .

وقلت : ان تعطيل الدراسة يوم الخميس شارك .. فى هذا الارتباك فى توزيع الجدول وحمل الطالب عبئا ثقيلا ، بجانب أنه استفاد والمدرس راحة فيه .، وفى يوم الجمعة .

- وكان الدكتور .. عبد الله يجيب بصراحة واعلن .. ان البدء .. فى البداية ، أى من اليوم ولا يتحمل تبعة الماضى ، وأخطاءه .

- وكان يستطلع اراء زملائه فى المنطقة ، وكانت اجابات الزملاء له غير مباشرة يربطون النقص والاخطاء بالظروف ، ولم تكن كثير من اجاباتهم مقنعة لى ، لان العمل الجاد .. فى رأيى ، تخطيط ، وتحسب — للظروف — وحساب .. للحاضر والمستقبل .. تأخير الكتاب مثلا ، لماذا نخضعه للظروف .. لماذا .. لا نحسب قبل التغيير .. الزمن الذى ينجز فيه ونحتاط لهذا .

- لنتأخر سنة ، فى تبديل بعض المناهج ، حتى يكون الكتاب .. فى مستودع وزارة المعارف ، ثم نلغى الكتاب الماضى حتى يجد الطالب فى اول يوم من بدء الدراسة .. الكتب المقررة أمامه ، كاملة على رحلات الدراسة .

- اما ان تبدأ الدراسة وتمر شهور ، وبعض كتب المنهج سواء المستحدثة أو القديمة ، المجدد طبعها ، لم تصل الى المدرسة فمبدأ مرفوض ، شكلا

وموضوعا ، لان الطالب وحده .. يتحمل هذا الوزر ..

- وتناول النقاش التغذية والمعلبات التى يرفض الطلبة تناولها ، وتفرض عليهم بالاكراه ، وهى متراصة .. فى حجر المدارس دون أن يقرر استبدالها ، بمواد اخرى غذائية ، يرغب فيها الطالب ولا يعرض عنها .

- وتحدث الدكتور حسن ابو ركبة ، عن الاحصاء لأنه اساس ، فى التخطيط ، وبدونه يصبح العمل .. غير دقيق ، وغير متناسق ، وغير مكتمل ، وقلنا جميعا : أجل انه اساس .. فى خطط التنمية والبناء ونقصه عائق لخطة التنمية ، وقد يعترض الخطة عائق ثان ، يجعلها تتعثر وهو التنفيذ .

إذن : الاحصاء الشامل وسلامة التنفيذ .. هما الاساس .. فى نجاح خطة التنمية الشاملة

- وتركت .. أعضاء جريدة البلاد .. يديرون حوارهم ، مع الدكتور الزيد ، ورفاقه ، لانصرف لعملى الادارى ، وسأحاول .. ان تكون لى وقفة أخرى .. من هذا الحوار ..

وشكرا للدكتور عبد الله الزيد ، على اتاحة هذه الفرصة وشكرا لروحه الرياضية ، فى تقبل النقد ورحابة صدره .. فيما يعنف من مناقشة ذلك .. انها تهدف الى تحسس الخطأ ، والبحث عن الافضل فى سبيل العمل ، والاستفادة من التجربة ، والمعايشة والاستفادة كذلك ، من تجارب الاخرين قبلنا ، فيما نرى .. أنه يعيننا ، على بلوغ امالنا وطموحنا .

إنسانية الطب

* الحياة .. حين تخلو من الانسانيات ، فانها تخلو من الرحمة ، وإذا خلت من الرحمة ، فانها تصبح غير جديرة بالبقاء ، لأنها ستكون حياة تعسة قاحلة ، فاذا كان الله سبحانه وتعالى ، وله المثل الأعلى ، قد كتب على نفسه الرحمة ، وقال فى كتابه العزيز « وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة » . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : الراحمون يرحمهم الرحمن ، ويقول ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء . الا يكفى الانسان هذا الحث ؟ الا يكفيه .. أن الله قد خلق له عقلا .. يفكر ويتدبر به ، ويميزه .. عن الانعام وفضله على كثير .. ممن خلق تفضيلا .

ولكن الانسان يضل حين تعميه المادة ، بل يطغى ، قال تعالى : « كلا أن الانسان ليطغى أن رآه استغنى » ، إن إلى ربك الرجعى » ، ثم هناك الحساب والعقاب والجزاء .

وكثيرون .. أولئك الذين ينسون الحساب ، فهم فى غفلة ، وليس للانسان الا ماسعى ، أى سعى كان ، مثقال ذرة خير ، أو مثقال ذرة شر ، يجده الانسان أمامه ، ولايجد المال ولا ماترك .. وخلف ، وسلب ونهب ، وجمع بحق أو بغير حق ، وهذه الكلمات للذكرى ، وأولو الألباب هم الذين يتذكرون ، والذكرى .. تنفع المؤمنين .

ربما كان العجب أو المحزن ، أن غير المسلمين ، نجدهم يقدسون مهنة الطب فى إنسانية ممارستها ، وفى تعاملهم مع الآخرين من بنى البشرية .. دون تفريق بلون أو عرق .

كنت مرة أتحدث فى ذلك مع الصديق الأخ خلف عاشور ، مدير مصلحة الزكاة والدخل بجدة سابقاً وبعض شئون الحياة حتى وصلنا إلى الطب .. والعلاج .. فذكر لى أنه كان يعالج المرحومة ابنته ، التى توفاها الله فى النصف الأول من شهر شعبان ، يرحمها الله ويعوض سبحانه صبر والديها بالجزاء ..

الذى هو له أهل .

ذكر .. أنه كان يعالج فقيدته فى ألمانيا ، وقرر الأطباء أن تبقى تحت العلاج بمختلف الوسائل ، ولكن الأب خشى أن مامعه من نقود .. لاتكفى ، فاهتم ، وسأل كم مقدار المصاريف ؟ .

ولكنه عجب ، حين سمع من إدارة المستشفى فى ألمانيا ، بأن عليه أن يترك عنوانه ويذهب لشأنه ، وسوف يصله بيان بالمصاريف ، وعليه أن يسددها فى خلال سنة .

الطب عند أهله .. ليس استغلالا وابتزاز مال ، ولكنه قبل ذلك وبعده ، عمل إنسانى يستشعر فيه الطبيب الصادق إنسانيته والخير ، للتخفيف عن الانسانية آلامها ، بما علمه الله ، وهذه الرسالة الانسانية أشبه بالامانة ، التى ارتضاها الانسان ، ورحب بها ، وتقبلها وحملها ، ثم أضاعها وفرط فيها وأهملها ، بل أكلها .. واستغلها أسوأ استغلال ، ولذلك وصفه القرآن الكريم بأنه ظلوم جهول ، لأنه ليس أقوى من السموات والأرض ، والجبال التى أبت حمل الأمانة حين عرضت عليها فى اختيار .

ولكن الطب عند بعض من ينتمون إلى الاسلام ، يختلف مفهومه الانسانى ، حين انتزعت الرحمة من نفوسهم ، وقد كتبت كلمة قبل شهور ، عن مريض جاء إلى طبيب ، ففحصه وكتب له الدواء ، وقال له : ارجع بعد ثلاثة أيام ، وجاء المريض فى الموعد ، وفحصه الطبيب وأخذ كشفية أخرى ، وكتب له دواء جديداً ، وكان عند هذا الطبيب ، صديق حضر زيارة المريض الأولى والثانية ، وسأله : كيف تتعب زبونك ، فيتردد عليك أكثر من مرة ؟ وكان رد الطبيب ، الذى يخاف ربه : « بدك أطيبو من أول زيارة ؟ » .

منتهى الصدق ومنتهى الأمانة ، ومنتهى الانسانية ، والحق والخلق .

كيف ننتصر على أعدائنا ، ونحن لم ننتصر على أنفسنا ؟ والله لايكون هذا ، إلا إذا .. هدنا ، وعدنا إلى الله .

ويرتفع اللغو ، والكلام الحاد ، عن بعض الأطباء بمناسبة ما ، وتحمى الحديدة ثم تبرد ، ذلك .. أن بعض الناس لايهمه إلا المال ، والمال وحده ، ممن يستطيع وممن لايستطيع ، وهذا كثير .. والحمد لله ، أو أنه على مبدأ صاحبنا ،

لايصح أن « يطيبه » من أول زيارة ، كأن البرء بأيدى الخلق ، وهم ليسوا أكثر من وسيلة وسبب .

وهناك أطباء ، تملأ الانسانية نفوسهم وقلوبهم ، لايهمهم المال ، لأنهم يحسون أن المال سيذهب ، والحياة قد كفل رزقها الله ، والولد علمه وارمه فى البحر لاتترك له إرثا ، تجمعه من حرام وربما أفسد ماتركت ، فاقترفت جنايتين ، جمع المال من أكثر من وجه ، وتركه لمن جنى عليه .

نعم : هناك أطباء .. انسانيون فى خلقهم وتعاملهم ، قدوة وصور مشرقة ، ولكنهم قلة وبعيدون عن الضوء وعن التظاهر ، لأنهم قانعون ، رضوا بالقليل اليسير ، لم تجرفهم الحياة والجشع وسوء الظن بالله .. وشح النفس ، ليسوا كغيرهم ، من المتكالبين المستغلين الذين يسيئون إلى إنسانية المهنة ، هؤلاء غير جديرين بأن يتركوا سدى ، ولكن يجب أن يحاسبوا وهم يرتكبون الأخطاء ، ويجنون على الرسالة الانسانية ، وعلى الذين يجب أن تمد إليهم يد الرحمة من كل من يستطيع أن يعين .. والا فأين نحن من قول الرسول صلى الله عليه وسلم .. « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » ، وقوله : المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا . وقوله المؤمن أخو المؤمن ، لايظلمه .. إلى آخر الحديث ، الايمان ليس بالتمنى ، ولكن ماوقر فى القلب وصدقه العمل .

أذكر أن رجلا قصد طبيبا ، ليسعف مريضا ، وأكثر الأحوال التى تدعو إلى طلب الطبيب فى البيت قاهرة ، لأن المريض لايستطيع أن يذهب أو ينقل إلى عيادة الطبيب .. ولكن بعض أطبائنا أو الذين يعملون فى البلد ، يرفضون فى أصرار زيارة مريض لايستطيع الوصول إليهم ، بحجة أن العيادة بهـا مراجعون ، وهذا الذهاب إلى مريض .. فى داره ، يضيع على الطبيب وقتاً ، ويضجر المنتظرين وكان الوقت وقت حج ، وقال أننا فى موسم بمعنى دعنى الحق نصيبى فيه .

وطبيب آخر مختص بأمراض القلب .. إذا اتصلت به تليفونيـا ، يادكتور .. من فضلك أريد موعداً ، يرد عليك فى صلف مافيه موعد ، تعال وأمسك « سرأ » وطلب ميعاد للزيارة ليس خطأ ، ولكن الطبيب أصبح لايأبه للناس لأنه استغنى .

وطبيب ثالث ، جاءه مراجع .. وهو فى السلم ، يرجوه ، ويلح فى الرجاء أن يذهب معه لأن عنده مريضاً ، فى حال لاتساعده على الذهاب .. لعيادة ما ، ويرد الطبيب فى رفض : الموعد انتهى ، تعال بكرة .

هذه نماذج ، تدل على إنسانية الطبيب ، وخلقه ، وأسلوبه مع الناس ، وأنه لمن اليسير .. اثبات هذه الحالات ، ولايكفى .. أن يوجه تنبيه أو انذار ، أو اغلاق العيادة بعد تحقيق لثلاثة أيام ، ولكن على قدر الموقف لتختفى هذه الآلام .. ولابد من القول أن المراجع ، ليس خصم الطبيب ولا عدوه ، فهو أى المريض محتاج إلى الطبيب ، ولكن بعض مواقف الأطباء ، تجعل المريض والمراجع .. ينقم على الطبيب لموقف الأخير الذى اختاره .

وما أكثر مايدافع هؤلاء .. بأن الطبيب إنسان ، ويجب أن يرتاح ، وأن يشم الهواء ، و .. ونحن لانختلف ، ولكن الدين المعاملة .

يُقبلُ رمضان فتختنق عبرات الأسرة

أقبل شهر رمضان ربيع الارواح المؤمنة ببركاته وأنواره ، ومباهجه وبره وشعائره الغالية ، يحمل بشائر الرحمة ، وفرحة المغفرة ، ورضوان الله بالعتق من النار .

يستقبله المسلمون فرحين به ، مغتبطين بحلوله بينهم ، فيقبلون على الطاعات ، ويشمرون الى العبادة ، وينبذون المعاصى ، يتوبون ويستغفرون ، ويحسنون ، ويتسامحون ، وينعمون بحلاوة العبادة ، ويغشون بيوت الله يتلون كتابه العزيز ، ويتوبون مما اقترفوا ، ويتمنون على خالقهم ان يتقبلهم برحمته التى وسعت كل شئ ، وان يفيض عليهم من بركات السماء ، ويشملهم بعفوه وبره وأن يتقبل منهم أنابتهم اليه وسعيهم فى مرضاته .

* غير أن معانى رمضان واسراره اعمق من هذا ، فلا يكفى أن يصوم الانسان عن الطعام والشراب ويصلى ويكثر من العبادة وتلاوة كتاب الله وإنما يصاحب هذه الاعمال الصالحات صيام اخر وعمل آخر ذلك ان يمسك لسانه عن نهش لحوم الناس وأن تصوم جوارحه كلها والا يغش ولا يكذب ولا يظلم ولا يفسق ، ثم لا يصوم النهار ويعبث فى الليل ، يمسك نهارا ويجأر فى الليل بما هو محرم بمجرد أنه أفطر .

فالعبادة مسلك سوى ، وعمل متصل ، واجتناب المعاصى والتمسك بالحق وخفض الجناح للمؤمنين وحسن المعاملة وان يقول للناس حسنا ، والا يصخب ولا يساب ، حتى لا يضيع صيامه فيصدق عليه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : رب صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش . اللهم اعنا على أنفسنا فنؤدى أماناتنا كما تحب وترضى .

* وغاب الاب الولى عن الساحة ، ترك فى الدار ارملة وخمس بنات تفيض أعينهن من الدمع وهن يستقبلن شهر رمضان ، يخيم على الدار حزن والام

والصغيرات يرفعن اعينهن فلا يرين الزوج والاب يملأ عليهن المنزل ، يغدو الى عمله فى الصباح ويعود بعد الظهر ويجلس مع أسرته على مائدة الافطار ، فتستتب الحياة وتهدأ النفوس ، وتطمئن بهذا الايناس . فالرجل قوام الاسرة ، حتى إن كان له ولد فاذا غاب الاب اكفهرت الحياة ، وكئبت النفوس ، وامتلأت الما ، وشعرت بفراغ ، فتأسى وتئن وتبكى ، يلفها حزن عميق حين ترى الجيرة تنعم بحنو الاب ، يغدو الى السوق ويعود محملا بأطايب الرزق ويلتئم الشمل عَلى مائدة الافطار يرفرف على الاسرة الهناءة وتحس بالاطمئنان وتقضى ليالى رمضان حفيلة بها هانئة وادعة مثل غيرها من الاسر المسلمة لا يشغلها شىء عن حياتها المستقرة والوارفة الظلال ، تعيش مباهج رمضان وروحانياته وأنواره واسماره والغبطة تملأ جوانح الاسرة وتحفل بما حولها ، وتتزاور وتتعايش فى هذا المناخ الثر بالخير واليسر .

وينتظر الصغار العيد ويقبل الاب بالجديد ليفرح الاسرة وخاصة صغارها ويحتفون بانوار العيد وافراحه ، يلعبون غادين رائحين فى بهجة العيد وهم منه فى بهجة .

* ولكن هذه الاسرة ، وغيرها الكثير ، يحل بها رمضان وهى منكسرة النفس ، ترفع عيونها فلا ترى الاب والزوج فسرعان ما تخفضها فى اسى ولوعة يخيم عليها الحزن المحض ولا تجد غير البكاء سبيلا وملهاة لما يحز فى النفوس الغضة ، والزوجة الارملة ، واذا كان رمضان فرحة عند الكثيرين ، فانه فى هذه الاسرة التى فقدت راعيها ، حزن ليس كمثله حزن ، وحين نرى هذه الصورة نحس باللوعة ونشارك فى المصاب الجلل ويعتصر نفوسنا الالم المبرح وليس ذلك اعتراضا على قدر الله ، وانما هى الشفقة تملأ النفس التى تدرك عمق هذا الفراغ الذى تركه الولى بذهابه ، وخلف صغارا ورحل عنهم بغير عودة ، ودع الحياة وترك من فيها حتى اقرب واحب الناس اليه .

وما أكبر وقع الفراق وما اشد حزن من ترك الذاهب عن الدار الفانية لا سيما فى المواسم التى تحتفى فيها الاسرة بالتئام شملها وتحل بها المناسبة فلا تجد عضدها وعونها فى الحياة فتشجى ويعمق فى احاسيسها الالم العميق الصامت فلا تعبر عنه الا بالاجهاش باكية ، ذلك ما تملكه وما تؤدى به التعبير عما حل بها لا تلوى على شئ الا التفكر فى الذاهب بغير ايذان .

* ولابد لهذه الاسرة وامثالها من قلوب تملؤها الرحمة تواسى وتمسح الدمعة وتربت على مكامن الجراح وتشغل بعض الفراغ بالتواجد مع الاسرة من الاقربين لتخفف من اللوعة وتحسن بما تصنع ابتغاء وجه الله ، وتهيىء المناخ الذى ينسى بعض الشيء آلام الفراق وتنشر الوداعة وتردد معانى الصبر وتقدم ما تحتاج الاسرة فى ايام وليالى رمضان والعيد ، وما أكبر أجر هذه المواساة التى تبادر بها النفوس الحساسة التى تدرك عمق الصدمة ، وهول الرحيل ، وهوة غياب الاب ، ذلك أن مجرد وجود الولى استشعار بالطمأنينة فى كل الظروف ، ولاسيما فى المناسبات التى تحفل بها الامة وتتجاوب اصداء الحياة بها ، مع نسمات الفرحة فى اجتماع الاسرة وتحوطها وبعضها مع بعض .

* وهذه الصورة .. ترددت فى نفسى ، من واقع اسرة ، أو اسر ، فقدت من يعولها ، قبل رمضان ، فعمق أثرها فى نفسى ، والقيت بها ، بهذه الكلمات المختنقة والتعبير المضطرب ، لا أحزن بها ، نفوس علت وتحس بالصوم ، وانما لتغزوها فتزيد فى تأملها وتحس بعمق .. من خلال التفكر فيها لترق نفوس ، وتستيقظ وهى فى خضم الحياة العصى والعمل والكدح ، تستشعر النعمة والعافية ، وترقى بهذا التصور فى حال الفناء والزوال ، وتتراجع نفوس ، لا تأبه لشيء ، لانها غافلة بان الحياة .. هذا ديدنها ، وان الرحيل عنها امر لا مراء فيه ، ولا ريب .

ويتعاطف الناس ، ويتسامحون ، وتكبر النفوس .. عن الصغائر ، وتتخلص من صلفها وكبريائها ، وجهلها ، وغرورها ، وما تمتلىء به بعض النفوس . من البغضاء .

تدرك أن هذه الحياة الى فناء ، ولا ينبغى الا العمل الصالح ، والذكر الحسن ، وأن المال والجاه ذاهبان ، وان الجميل باق . ولابد من اسداء المعروف ، ونشر الخير ، والايثار واشاعة الحب ، خالصا لله .

فى رمضان ، والنفس فى شفافيتها ، وارتفاع معنويتها ، وصفاء النفس ورقى الروح ، متغلبة على ادران المادة .. وكل صورها ، ومسكين الانسان .. الذى لا يحسب للفراق حسابا لانه متشبث بالحياة ، كأنه خالد فيها ، وسبب ذلك غفلته ، وحرصه على البقاء وهو بقاء موقوت ، مهما طال ، وكل امامه العبر ، واللبيب من يعتبر ويحسب لما بعد الموت ، ويتهيأ لذلك السفر المحقق .. اللهم رحمتك ، فانت أرحم الراحمين

حياتنا الفانية

البشرية فى غفلة متصلة ، لا تنقطع عنها ، وأنا أعنى الكثرة ، التى تزخر بها الحياة ، ثم تمضى عنها .. آسفة على فراقها ، وحزينة ، لأنها لم تقدم شيئا يذكر ، أو لاشىء لغدها ، كزاد لها . وتلك حسرة الانسان وخسرانه ، يوم يصبح لغيره زاد ، وليس له مثله ، ذلك أنه فرط ، وقصر ، ولم يتخذ لكل شىء عدته ، ولم تجد معه المواعظ ، ولم يفد منها . ومصدر كل هذا غفلته المستديمة ، وصدق خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو القائل : « الناس نيام ، فاذا ماتوا استيقظوا ».. اللهم لا تجعلنا من الغافلين .

بالأمس .. قرأت نبأ وفاة أخى وصديقى الأستاذ « محمد العامر الرميح ».. الأديب والشاعر ورجل الخلق الدمث ، يرحمه الرحمن الرحيم ، كان بيننا ود ، وتوطد ، حين عمل المرحوم مراقبا للمطبوعات بجدة .. فى الثمانينات ، وكان يكتب فى الصحيفة التى كانت عندى ، من وقت لآخر حسب ظروف فراغه من مسئولياته ، وكان شاعرا رقيقا وجدانيا ، وكاتبا واعيا ، فى ادبه مسحة الأدب المهجرى ، وطلاوته ، وجماله ، وتجنيحاته ، وسلاسته ، وسبحاته الواسعة .

وكان المرحوم ، صادق النصح ، يدل على الخير ، ويوصى فى اخلاص بملحوظاته ، فيما كنت انشره فى صحيفتى ، وكان وهو الشاعر ذو الخلق الكريم ، وديعا فى نصحه ، ولا يجرحك ، ولا يجهر به ، وانما يهمس اليك ، فى سمت الناصحين الأوفياء ، وكنت حفيا بارائه ، استمع اليها ، واعمل بها ، فاتجنب الوقوع فى الأخطاء .

وكان للمرحوم محمد العامر الرميح ، بصيرة نافذة ، وكان صائبا فى آرائه ، وكان يتلمس الخير ، ويستهدفه ، ويدل عليه ، وكان واعيا ، شجاعا ، وكان نمطا مستقلا ، للأديب البصير ، وكان موضع تقديرى واحترامى ، وكنت استشيره فيما يحزب من امر ، فكان سخيا لا يضن برأى ، ولا يكتم نصحا ،

ولا يجاهر به ، ولا يعلنه لأحد ، ولا يمن به .

وباعدت بيننا الأيام ، فقد انتقل الى الكويت ، ثم الى بيروت ، ليعمل هناك ملحقا ثقافيا وصحافيا ، وكنت اسمع اخباره من بعد ، وكنت اطمع فى زيارته ، والالتقاء به ، وحالت دون هذه الأمنية .. مشاغل الحياة ، فلم القه ، حتى كان النبأ المفجع بوفاته ، حملته الى ، والى عارفيه واصدقائه صحافتنا ، فكان لذلك رنة حزن فى نفسى ، وجمت ، وهى تقرأ الخبر من غير تفاصيل عن اصباب الوفاة ، وادركت انها المنية ، والتوقيت ، الذى لا يتجاوزه الانسان اذا حان .. تعطلت اسباب الحياة ، ولا يجدى معها شىء ..

انتقل الصديق الوفى ، فى وقت عز فيه الوفاء .. الى رحمة ربه ، التى وسعت كل شىء ، وهو شاب ، يمتلىء حيوية ونشاطا ، يكتب ، ويؤلف فى كتب الأدب ، وينظم الشعر الحى النابض ، فى هدوء نفسى وجمالها ، وسماحتها ، وحب للأدب والفكر ، فى إتقان ، آداء ، ورقة اسلوب ، مصدر كل ذلك شفافية نفسه ، ودماثة خلقه ، والايثار .. الذى يتحلى به ، ورقة النفس الكريمة ، وطيبة المحتد ، خصال كريمة ، نفجع لفقدها ، كما نفجع بذهاب صديق ، اتخذ من الوفاء مسلكا ، يشيعه الى من حوله ! فيجد الحب ، والتقدير ، والتكريم ، ويترك ذهابه فراغا كبيرا .. فى نفوس عارفيه ، والحافلين بفضله .

ان الموت حق .. لا مفر منه ، وتبقى الخسارة .. فى فقد المثل ، من نعرف ، ومن لا نعرف . رحم الله الأديب ، محمد العامر الرميح ، فقد كان صورة مشرقة ، واضحة المعالم ، ذا سيرة تنم عن نفس عالية ، تحب الخير للآخرين ، وتدل عليه ، وتعمل له . رطب الله ثراه ، وانا لله ، وانا إليه راجعون ..

الموتُ مَا مات

لا أدرى ، لماذا سمى العرب فى هذا المثل الموت تسمية المؤنث ، ولكن هذا المثل .. ليس من أمثلة الفصحى حتى يحتج به فيها .. وقد سقته لاجعله عنوانا لهذا الموضوع ، وهو تأكيد الرحيل عن هذه الدنيا ، التى كتب عليها الفناء .. فهذا المثل يؤكد بقاء هذا المنجل .. يحصد الارواح من الاجساد .

وأن الفراق باق كذلك .. فما دام هناك موت فهناك فراق . وهى عملية استمرارية فى الحياة الى أن تنتهى .

إنه محور هذا الحديث الشيخ حسونة البسطى .. يرحمه الله .. فقد عاش عمرا طويلا ، بلغ المائة عام ، وفى السابع عشر من رمضان سنة ١٤٠١ هـ توفاه الله ، فترك فراغا .. فى نفوس أصدقائه ، الذين كانوا يلتفون حوله .. يترددون عليه ، يسمعون الى أحاديثه ويحدثونه ، يضيق بهم احيانا فيعلن غضبه ، اما هم فكانوا يستملحون هذا الغضب ، ويمعنون فى زيادته ولكنه سرعان ما ينطفىء ، وكان بيته عامرا بهؤلاء الاصدقاء وفيهم علية القوم ، كان يصبر عليهم .. فى مضايقاتهم ومزاحهم ، كما كان يصبر على اسقامه فى سنيه الاخيرة . فصبر الشيخ حسونة ندرة ، وله جلد .. قل من يحتمل قسوته ، كما له ارادة صلبة ، وقدرة على التحمل ومقاساة الوحدة القاتلة . ويبدو انه قد الفها ، ومما يؤكد ذلك ، انه كان يضيق بالمجاورة والمعايشة المتصلة ، وانه يحب الوحدة والعزلة ، ويهرب من الصخب والزحمة ، ويؤثر عزلته فى داره فى حارة الشام ، عن قصر منيف ، رغم حفاوة اصدقائه به وسعادتهم فى ان يخطو اليهم ويبقى معهم ، يحدثهم ويثيرون حفيظته ويسمعون لاذع القول ، وقد الفوه فلا يضيقون به ، ولا يتبرمون بما يلقى من كلمات كرد .. على المضايقات ، ليس لان هذه الكلمات فقدت معانيها ، وانما لان الاصدقاء ، قد عرفوا .. انها للمداعبة ، وانها الرد الوحيد حين يضيق الصدر ..

وكان الشيخ حسونه .. أيام صحته ، يسعى الى أصدقائه ، يزورهم ويشاركهم مناسباتهم ، ويتناول وجبة عندهم فى الظهيرة او المساء ، ثم لا يقدر على الاستمرار فى البقاء . فيطلب من أقرب شخص اليه .. ان يوصله الى داره ، وهناك يجد الراحة ، يخلو الى الشيشة وبراد الشاى ، وقبل ذلك الهدوء والبعد عن المماحكة الفارغة .. التى الف ان يدور فيها مع أصحابه الذين كانوا يقولون .. أن هذا الاسلوب يبعث فى نفس الشيخ التوهج والنشاط ، حين ينفعل ، وهم يجنحون الى ذلك .. اذا رأوه متكاسلا ، او قد انتابه بعض الخمول ، اما اذا كان طبيعيا وأخذ يتحدث ، وهو قليل المجاملة ، فان المعاكسة تقل نسبيا .

ومن فضل الله على الشيخ حسونة .. رطب الله ثراه ، أنه كان محبوبا ، محل إيثار وعطف .. كل من عرفه ، وكان هو بالمثل ، فبرغم الجهامة .. التى قد يحس بها الانسان .. الذى لا يعرفه او يقابله لاول مرة ، برغم ذلك .. كان إنسانا له عواطفه وحنوه ، ورقة قلبه وتدفق احساسه والسعى فى الخير ، لمن يعرف ولا يعرف ، وكان يريد وجه الله فى هذا السعى ، والخير لمن يشارك فيه بالعطاء ، وكان يخدم الناس من هذا الجانب وفى غيره ، فى الاعمال والعلاج ونفقات الزواج ، وفك العسرة والسفر والموت .. الخ .. وكان موفقا وكان أصدقاؤه الذين يقصدهم يستجيبون له .. وكان من ميزته ، أنه لا يمن بما يصنع ، ولا يعلن عون الاخرين ليحفظ لهم الاجر من الله .

كان مسموع الكلمة ، نافذ الرأى .. ولو فى الخطأ يجامل من باب التقدير ، فكان ملجأ .. تراق على مسامعه هموم الكثيرين .. وكان يخفف ويستمع ويعين ، ولو بالتصبر .. واللجوء الى الله كاشف السوء ، المنجى من الغم ، مجيب المضطر اذا دعاه ، هكذا .. كان احدنا اذا ضاقت به السبل ، يتجه الى الشيخ حسونة .. يرحمه الله ، يفرغ عنده همومه ، ثم يعود من عنده وقد ملأ الاطمئنان نفسه ، حين يسمع منه « فرج الله قريب » ودعها لله . وكن بالله ولا تبال .

كان الشيخ حسونة .. يتدخل حتى فى الاعمال التى لا يدرى .. بعدها عند الكبار ، لمصلحة أحد أصدقائه ، فى شركات وأمور مالية ، وكان موفقا لايرد ولا

يرفض رجاؤه ، وكانت داره المتواضعة ملتقى الكبار .. وذوى المراكز فى الدولة ، كانها جاذبية تشدهم الى هذا الرجل الذى أحبوه حين قربوا منه ، وسمعوا عنه قبل ذلك ، فجاءوا اليه بحكم الفضول او الرغبة فى مسايرة صديق .. يتردد على هذه الدار . فيسأل الانسان نفسه : ماذا فيها ؟ .. ودعونا نرها . يأتى هذا فى وقت تمزقت فيه العلاقات ، وقتل الفراغ النفوس ، وركبها القلق والشح والخوف ، وفرغت الصدور من الطمأنينة . فما أسرع ما تقبل على مجلس تبدد فيه بعض همومها ، هروبا من الهموم نفسها ، وانسلاخا من دوامة الحياة والعمل ، والضيق والمضايقات .

من لايعرف الشيخ حسونة ؟ . إن أصدقاءه يتأخرون عنده فى لعب البلوت أو وراء اكله ، وتتصل الاسر ، وقد ادركها القلق ، فتجد وليها عند الشيخ حسونة ، وهى ترضى عنه وتغضب عليه ، ولكن كفة الرضا اميل ، لذلك نرى القدور بالاطايب تحمل اليه .. أيام كان يأكل ، ويأكل معه من حوله . كانت الرعاية متصلة ، وهى وليدة وفاء وايثار .. لصداقة طويلة ، أو حتى غير طويلة . إنها عن قناعة .

وكانت مكتبة الشيخ حسونة العامرة ، قبل أن تنقل الى مدرسة الفلاح بجدة ، عبر اربعين سنة .. مقصد للباحثين ، قبل ان تنتشر المكتبات ، وقبل ان توجد الجامعات ، وكان لا يضيق بقاصديه من طالبى العلم وربما اخذت منه كتب ولم ترد اليه ، كان السفراء وكان الوزراء والوجهاء من كل مكان ، يعرفون الشيخ حسونة ويسعون اليه ويسمعون منه ويتحدثون اليه ، ويرضون عن صراحته وشجاعته ، ولم يكن صاحب هدف لمصلحة شخصية ولا يطمع فى أحد ، ولا يريد الاساءة الى احد .. ولا ابتزاز قادر الا فى مجال السعى لانقاذ ملهوف ، وفى حدود لانه كان حساسا ، يخشى ان يصدم مرة ونحن نعرف ان الذى يعطى يتعب ما عدا ربنا ، والذى يأخذ لا يمل .

عرفت الشيخ حسونة لأول مرة . فى منزل المرحوم « يحى با ناجه » قبل خمس وثلاثين سنة ، فى نفس الزى الذى استمر فيه حتى يوم وفاته ، ثوب وسراويل ، وصدرية وكوفية بلدى وعكاز ، وينتعل السباط ، لا يتحدث كثيرا ولا يطيل الجلوس ، واذا لم يعجبه حديث نقضه ورده .

كنت أترددَ عليه لماما فى الشهور الاخيرة ، بعد أن انتقل من منزله فى حارة الشام الى شارع عثمان بن عفان ، وآخر مرة كانت فى الاسبوع الاول من رمضان وكان صوته ضعيفا ، حسبته من اثر النوم ، وكان يقوم على خدمته شاب من غير هذه الديار لا يعنى به كثيرا ، والمريض كثير القلق ، يضيق بكل شئ .. وعلمت بعد ذلك من الدكتور حامد مطبقانى مدير مستشفى جدة الوطنى الجديد ان الشيخ حسونه كان بالمستشفى ، ثم كان يصر على ترك المستشفى الى داره ، وكان الدكتور يصر من جانبه على بقائه فى المستشفى للعناية به ، لانه كان فى الايام الاخيرة لا يأكل وانما كان فى شبه صوم متصل ، الا ما تشتهى نفسه من بعض الفاكهة .

والحق أن الدكتور حامد مطبقانى رجل بر ، وكان الشيخ حسونة خلال سنوات عشر .. ينعم بهذه الرعاية من الدكتور المطبقانى والعناية فى اى وقت ، وفى حضور الدكتور وغيابه . فمتى تدرك الازمة الشيخ ، نتيجة اكلة دسمة وتجاوز العيار ، ينقله احد اصدقائه الى المستشفى فيحسن استقباله ، كما قلت سواء الدكتور حامد فى البلاد او غائب عنها ، وتهيأ له حجرة بشتى السبل .. حتى حين يكون المستشفى مزدحما . ويعالج ويسعف ثم يعود بعد يومين او ثلاثة الى داره . وهكذا فى كل مرة وفى كل آونة .

توفى الشيخ حسونة .. قبل فجر يوم السبت ١٧ / ٩ / ١٤٠١هـ فى المستشفى الوطنى الجديد ، ولم يعلم الكثير من محبيه واصدقائه .. الا من الجريدة التى نشرت الخبر . ولم يخبر الذين جهزوه ودفنوه أصدقاءه ليشاركوا فى ذلك ويلقوا نظرة وداع عليه .. قبل ان يوارى ، وهم يعلمون اصدقاء الشيخ الاقربين اليه ، وإنما أسرعوا الى مواراته رغم ان الثلاثة ايام الاخيرة تنذر بالرحيل .

وقد ترك كما قلت فراغا كبيرا عند الذين كانوا يترددون عليه ويأنسون به وبحديثه ، ويرون فيه رمز وفاء وطيبة نفس ، ندرت فى هذه الايام ، وندر مثل هذا المجلس .. الذى يوجد فيه رجل مسن ، يلتقى عنده اصدقاؤه ، فى ساعات الليل والنهار ، بغير مواعيد ، وبلا اذن للدخول ، كان الانسان يلج فى بيته ، بل ان بيوتنا مغلقة الابواب ، وبيت الشيخ حسونة .. مفتوح الباب ليل نهار ولكن هذا الباب قد اغلق ، لان صاحبه خرج منه ، وترك الدار خالية ، وترك أصدقاء حزانى لفقده ، هم يؤمنون بأن الموت حق ، ولكن الفراق مر ، والالفة .. تنطبع

فى النفس ، انه تعلق وانتماء ، والبين مواجع وفراغ . وتتعمق الآلام حين يفقد الانسان عزيزا غاليا ، لم يسىء ، وانما يحسن ، فيفقده الذين كان يشاركهم الامهم ، ويسعى لمسح دمعة حزينة ، ويربت على رأس ، ويأسو ويواسى ، ويحنو بما يملك وبوجاهته ومشاعره ، فيحول الدمعة الموجعة الى دمعة فرح ، مجراهما واحد ، ولكنها فى العين تختلف ملامحها .. من حال الى اخرى .

كان الشيخ حسونة نموذجا .. للصداقة والحدب ، والوفاء والعون والايثار والحب ، وصفاء النفس والسعى فى الخير وخدمة الناس ، ممن يعرف ولا يعرف .

وكان مجاب الرجاء ، كما كان كبير الامل فى ربه ، وكان شجاعا ، لا تفزعه هموم الحياة ولا يأبه لها ، كان قوى الارادة لا يخاف الموت ، وطال به مرضه ، فكان كل يوم يزداد صبرا ، وكان احساسه الداخلى فى تعبيره بانه اثقل على أصدقائه وحملهم الكثير . وكانوا سعداء بهذا الاثقال ، ولكن دوامه من المحال .

أرجو الله جلت قدرته .. أن يرحمه ، وأن يحسن اليه ، وأن يرطب ثراه ، ويعوضه عن صبره الطويل فى مرضه ، وقبل مرضه .. الجنة .

لماذا تطاول البنيان على البيت المحرم ؟

الحفل التكريمي .. الذى أقامه سعادة رئيس بلدية جدة .. المهندس محمد سعيد فارسى .. لأمين العاصمة المقدسة .. المهندس عبد القادر كوشك .. كان بادرة كريمة ، شكر الناس عليها المهندس الفارسى ، لاسيما ومكة وجدة .. كما وصفتا بلد واحد ، أو أن الرابط بينهما .. ليس جديدا .. فجدة .. هى مفتاح الحرمين الشريفين والعاصمة التجارية .. البحرية ، التى يأتى عن طريقها رزق ربى ، للبلاد ، ومحط رحال الحجاج .. ثم قرب المسافة الى غير ذلك .. من الصلات القوية بين المدينتين ، فى البلد الواحد . وقد رجا بعض ابناء مكة .. أن يحقق أمين العاصمة الجديد .. كل ما يحتاج اليه بلد الله الحرام .. وأنا معهم أرجو ذلك ، لأن التطور الذى نريد ، ويتمشى مع مكانة أقدس بقعة على وجه الأرض ، يفرح المسلمين ويسعدهم ، كما هو محل اعزازنا وسعادتنا ، وقد دأبت حكومتنا الراشدة .. على الانفاق على مكة بسخاء وبذل ، ولا أدل على ذلك من التوسعة الفريدة .. لبيت الله الحرام وشق الطرق .. بين الجبال ، وما حققت وتحقق للمشاعر .. خدمة لحجاج البيت الحرام ..

أحسب .. أن مكانة مكة والمدينة فى نفوس وقلوب المسلمين .. مما لا يحتاج الى وصف فالأولى . مقر البيت العتيق ، وقبلتهم والثانية دار الهجرة ، منطلق الدعوة الهادية والمركز الاسلامى الأول .. لنشرها ، فى شتى بقاع الأرض ..

ويلاحظ .. فى هذه الايام .. أن البنيان حول البيت الحرام قد ارتفع ، وارتفع ، حتى يوشك أن يغطى عليه ، وأنا .. لا أعترض على العمران واهتمام الناس به ، كجزء من المظهر الحضارى ..

لكن اعتراضى .. يتحدد فى أن تملأ قداسة الحرم الشريف .. قلوبنا ونفوسنا ، ولا تصرفنا الدنيا .. وحب المال .. الى تجاوز الحد ، فننسى تلك القداسة ، ويزول احترامها من أفئدتنا ولا يشغلنا سوى المال والمال وحده ، فنتطاول فى البنيان حول البيت الحرام ، فيغطى بهجة الحرم ، ويؤثر على رهبته وقداسته ..

ولا حرج عندى ولا جناح .. أن يرتفع العمران ، ويرتفع حتى مائة دور ، ولكن بعيدا عن الحرم .

أحسب .. أن ما أحس به ، من بدء طغيان ارتفاع البنيان الملاصق للمسجد الحرام .. من تأثير على هيبة الحرم ، يحس به علماء المسلمين وكبراؤهم والصادقون .. ممن تعلق قلبه بالبيت العتيق وأرجو مخلصا .. من حكومة جلالة الملك المعظم ، وفى مقدمتها .. سمو ولى العهد .. ونائب رئيس مجلس الوزراء .. الأمير فهد بن عبد العزيز .. ايقاف هذا التطاول .. على البيت الحرام بالبنيان ، إجلالا له .. وابقاء على مهابته .. فى نفوس الوافدين ، وحكومتنا شديدة الغيرة على المقدسات .. ومكانتها ، وهى تفخر بأن تصف نفسها فى اعتزاز .. بأنها خادمة الحرمين الشريفين ..

والأمر ملح اليوم .. قبل الغد بأن توقف الحكومة البناء حول الحرم كساحات ، ومتنفس له تجد فيه جحافل السيارات التى تزيد .. يوما بعد يوم بكثرة هائلة مواقف ، ثم ازدياد الوافدين الى البيت العتيق .. كل يوم كذلك ..

وما يسمح ببنائه .. بالقرب من الحرم ، ألا يتجاوز ارتفاعه ارتفاع المسجد نفسه .. وأنا أذكر أن التخطيط فى الحرمين .. لا يكون لعام وعشرة ، وانما لأكثر من ذلك .. ولعل التوسعة التى تجرى الآن .. لمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم .. تعطى هذه الصورة المطلوبة .. والحرم فى مكة .. محتاج .. الى مساحات .. من جوانبه الأربعة .. كبيرة ، كمتنفس له وليصلى فيها المسلمون . فى أوقات الزحام .. لذلك فان البناء حوله .. سنعود اليه .. ربما فى الخطة الخمسية الثالثة ، لنزيله من أجل التوسعة ، فلماذا لا يكون العمل من اليوم ..؟

ولا أريد الخروج عن موضوعى ولكن عن لى أن أذكر بما رأيت ..
والذى أرجوه .. أن يتوقف ، وبصورة عاجلة .. التطاول فى البنيان ..

على بيت الله الحرام وذلك .. فى الأماكن الملاصقة له .

أدعو ابن مكة .. المهندس كوشك كما أرجو حكومة جلالة الملك .. أن تأخذ بهذا المبدأ ، لأنه من صميم خدمة الحرمين ، وتعظيم البيت الحرام .. وشعائر الله .

العمران ومتطلباته

أعلم .. كما يعلم الكثيرون من عامة الناس ، أن العمران الحديث ، فى عصر الحضارة والمدنية له مواصفات ومتطلبات ، لأنه يختلف .. عن العمران قبل نصف قرن أو يزيد ، والمهندسون ورجال البلديات .. يعلمون أكثر من علمى ، وعلم العامة .

العمران الحديث ، يتخذ فى أسفله وكذلك .. الدور الأول ، والثانى .. بل ويخصص مبنى ، كل طبقاته .. مواقف للسيارات .. بأجور معقولة ، فى المراكز المختلفة من المدينة . والمساحات التى تبنى من أرض ما .. ولا أعنى الفيلات ، وأن كانت تدخل فى تخطيط المساحات العمرانية ، لا تتجاوز الثلث .. من مساحة الأرض ، والبقية .. متنفس للأطفال الذين لا يمكن أن يسجنوا .. داخل شقة من حجرتين أو ثلاث ، على نسق البناء التجارى الذى نشهده اليوم ..

والمحير .. أن هذا النظام وهو ضرورى وملح ، لم يؤخذ به ، وصاحب الأرض ، يريد أن يستغل كل سنتيمتر من أرضه ، ليبنيه ويؤجره ، فالوعى الحضارى بعيد عن الكثيرين .. وربما الشح ، وعدم فرض هذه الأسس من جهات التصريح ..

لكن السؤال الحائر : ما هو دور البلديات ..؟ هى تخشى الملاك ، ولا تستطيع أن تقف فى سبيلهم ، فقد يكون بعضهم أقوى منها غير أن الحق .. أحق أن يتبع فوجود جراجات تحت كل مبنى حق للساكنين ، ووجود حدائق .. ومتنفسات للاطفال .. فى ساحة كل مبنى .. حق كذلك لهم ، فلماذا لم تطبقه البلديات ، أم أنه لا يوجد تشريع ، واذا لم يوجد ، فلماذا لم يطالبوا به .. ليس الآن ، ولكن منذ ثلث قرن مثلا ..؟

أحسب أن البلديات فى المدن الكبرى ، فى جدة ، ومكة والرياض والدمام والمدينة .. مدينة بتقصيرها ، لأنها لم تحقق شيئا أساسيا فى البلاد .. وسيكون بل كان من نتائجه .. هذا الاختناق وأصبح الناس والقادمون يعيبون علينا ، بانا مقصرون ، أو نجهل أسس البناء الحديث ، أو مهملون .. فى واجبنا ، ولا عذر لنا اليوم ولا عذر لنا غدا ، حين يزداد الاختناق وتكون الطامة الكبرى .

فهل لى .. أن أرجو .. سمو وزير البلديات ، أن يضع فى حسابه اماكن لمواقف السيارات ومساحات للأطفال ؟.

ولعلى اتساءل : كيف ولماذا تعنى الحكومة .. بهذه الجوانب فى الوحدات السكنية التى تقوم الآن ببنائها .. للمواطنين ، ولا تفرضه على الملاك .. الذين يتطاولون فى البنيان ..؟

أليس هذا .. تناقضا عجيبا ، يلفت النظر ، ويدعو الى التساؤل المطرد ؟.

إنسانُ المملكة وملامحهُ

اتيح لى حضور الندوة التى نظمتها « جمعية الثقافة والفنون » ، وسعودى جازيت مساء الأحد ١٣٩٩/٩/٥ بجدة وادارها .. الاستاذ أياد مدنى ، وكان ضيوف الندوة الاساتذة عزيز ضياء ، وعبد الله مناع ، وعبد العزيز الدخيل ، وموضوعها ، الملامح الاجتماعية لانسان المملكة العربية السعودية .

وكان أول المتحدثين بعد كلمة التقديم التى بدأ بها الحديث الاستاذ أياد تحدث فى البداية الاستاذ عزيز ضياء ، تعرض لاصالة ملامح المواطن وكرمه وشجاعته والترابط الاسرى وذكر الخصال الكريمة فى انسان المملكة العربية السعودية وأن ما يرى اليوم من فجوات فى الشخصية وملامحها الاجتماعية ما هى الا ملامح طارئة وذكر أن هذا الموضوع لا يكفيه ندوة تلم به وانما ربما تطلب مجلدات تتسع لهذا البحث .

وتحدث بعد ذلك الدكتور عبد الله مناع وبدأ الاختلاف فى وجهات النظر ذلك أن ، انساننا فى رأى الدكتور المناع (ذاتية متعاظمة) .

أما الدكتور الدخيل فكان مطلبه .. بحوثا علمية ودراسات تكون ركائز ليمضى منها الحديث أو يعتمد عليها فى اعطاء وجهة نظر ، وتعرض لدور التربية والظواهر الاجتماعية .

المعلقون ..

بعد هذه البداية اتيح لبعض المعلقين ان يتحدثوا وكان أولهم الاستاذ محمد سعيد طيب الذى أعلن أن المواطن سلبى وكسول وتحدث عن الانتماء وما ينبغى له من ملامح ، وضرب أمثلة منها التجنيد أو خدمة العلم كما سماها

الاب عزيز ، وذكر الطيب أن هذا المشروع اذا اقر فسوف يلجأ الناس الى التهرب منه بكل الاساليب والحيل وهذا يجرح المواطنة الحقة .

بعد ذلك تحدث الاستاذ أمين عبد الله فعارض الاستاذ طيب وأعلن انه يختلف معه فيما ذهب اليه ، واتفق الى حد كبير مع الاستاذ عزيز ضياء فى الآراء وأعلن الاستاذ أمين أن مواطنى المدن يعيشون مزاحمة ربما افقدتهم بعض خصائصهم وأبعدتهم عن التمسك بملامحهم ، وضرب الأمثلة وتحدث عن البدوى والزارع الذى كان له نصيب من الندوة وما ينبغى ان يكون عليه من التطور فى حياته أولا ثم فى انتاجه ، وأشار الاستاذ أمين الى أن وسائل الاعلام تظلم المواطن حين تركز عليه وتصفه بالتقصير والسلبية ، واتهامه بعدم الانتماء وتحميله كل ما يحدث ، دون الالتفات الى تلك العوامل التى يحدثها القادمون بعاداتهم وسلوكهم .

وعلق قبل ذلك الدكتور حسن بلخى بكلمة موجزة عن الذاتية المتعاظمة .

وعلق المهندس يحيى كوشك والدكتور عبد الواسع والاستاذ عزت مفتى .

وانفضت الندوة بعد ثلاث ساعات من المناقشة والتعليقات ، وكان ثمة مجال لحديث اطول لو كان فى الوقت سعة ، غير أن الحاضرين وأنا أحدهم خرجوا بملامح عن هذا الموضوع وبوجهات نظر وإن اختلفت بين ضيوف الندوة وبين المعلقين فيما بينهم وبين المختارين للحديث ، إلا أن المتأمل يجد مجاله الى تكوين رأى وكان ينبغى فيما أرى أن يقف أحد المعلقين فيأتى على الآراء التى ألقى بها ويأخذ منها نماذج ويقول رأيه فيما سمع بأدلة من الواقع ، غير أن هذا الموضوع كما قال الاستاذ ضياء لا تكفى فيه ندوة واحدة وانما بحثه يتطلب مجلدات .

تعليقى الخاص

لم يتح لى أن أشارك بكلمة مع المعلقين فقد رأى الاستاذ أياد انهاء الحديث لا لأنه أخذ سمات جدلية فالمناقشة كانت تدور فى مناخ ملائم جيدا وانما رأى أن ثلاث ساعات تكفيه ، من أجل ذلك فانى اعطى نفسى فرصة ابداء رأيى مكتوبا كتعقيب فيما دار من مناقشة فى هذا الموضوع المهم اليوم .

الصفات التى ذكرها الاستاذ عزيز ضياء لمواطن المملكة العربيـة السعودية من مثاليات كانت الى ربع قرن مضى ، وقد أخذت تندثر ومنها ما هو باق ربما اندثرت فى المدن ، وقال ما معناه أن ما يشوب الملامح اليوم حالات طارئة .

أولا : خصال الكرم والشجاعة وما اليها لا تقتصر على مواطن المملكة وحده وانما هى سمات العربى الأصيل فى عالمنا العربى كله من خليجه الى محيطه .

ثانيا : الموجة الطارئة التى خلخلت السمات الكريمة لا أريد البحث عن أسبابها إنما اسأل كيف ومتى تؤول وماذا ينبغى للتخلص منها ؟

ثالثا : أننى أتفق مع الدكتور مناع فى الذاتية وهى سمة لا تسر ولابد من البحث عن علاج لها بشتى السبل والوسائل .

رابعا : اتفق كذلك مع الاستاذ محمد سعيد طيب فى السلبية والكسل وعدم المبالاة والهروب من تحمل المسئولية ، نحن سلبيون ونحن كسالى ، والأدلة كثيرة لا نريد أن نعمل كما ينبغى وانما تقتلنا الذاتية المتعاظمة وكثير من شبابنا اليوم مثل حى على ذلك .

وما أكثر ما تسمع من قصص حدث رجل قبل اسبوع فقال : يعرف صديقا له ابن أصر على العمل فى السعودية وسعى الأب لتلبية رغبة ابنه بكل السبل ، وتهيأت له فرصة الابتعاث لدراسة ميكانيكا الطائرات ، بمرتب ثلاثة آلاف ريال فى أثناء الدراسة وسأل الابن الطموح وماذا تسمى وظيفته .. بعد التخرج ؟

فقيل له : ميكانيكى طائرات فرفض إلا اذا سميت وظيفته مهندسا والأمثلة كثيرة أمامى وأمام غيرى ، ذلك أننا نستنكف من العمل ونريد دخلا بغير مجهود ، وحتى بغير عمل اذا استثنيت اعمالا بعينها ربما تنحصر فى وظائف بمسميات معينة وعلى طراز بعينه وماعدا ذلك فمرفوض .

خامسا : الانتماء الموجود أو المتواجد يوشك أن يكون صوريا أى غير عميق كما ينبغى له ، ولا يمكن ان نفسر هذه السلبية بهذه المزاحمة التى تشهدها البلاد من الوافدين ، ففى كل انحاء الدنيا يوجد وافدون من انحاء

العالم غير أن سمة المواطن وغيرته على وطنه تظل بارزة قائمة متواجدة ، ولو تمسك المواطن هنا بالأسس كاحترام نظام وطنه لاضطر الوافد إلى أن يحافظ تقليدا أو أنه يجد من يتصدى له منبها ومحذرا ، غير ان المواطن يرتكب الخطأ ويعلم أنه قد اخطأ بعلم فكيف نطالب الوافد بعدم مجاراة هذا التسيب اذا كان رب الدار بالدف ضاربا ؟

سادسا : اتفق مع الاستاذ أمين عبد الله فى بعض ما ذهب اليه ولا أعتقد أن المزاحمة وحدها هى سبب هذه السلبية ولكنه الاهمال ، والتقصير وعدم المبالاة ، وربما كان ثمة أسباب رئيسية أخرى .

ولا أختلف مع أحد فى أن سبل الاعلام تتحمل مسئولية التوعية وأنها ينبغى أن تعنى ، بتركيز مستمر متصل وشحنات تحدد المسئولية وواجب المواطنة ، وما يترتب على التقصير من ردود فعل وما يتطلبه الانتماء من أدوار يجب أن يؤديها المواطن فى الحفاظ على احترام الأنظمة والغيرة ، وأن يكون ذا فاعلية فى وطنه ومجتمعه بادراك وفهم ، وان يعالج الاخطاء فى نفسه أولا ثم أنه سيجد أن من معه ملتزم بالسلوك الذى ينبغى أن يسود بالتعاون بين مواطن ومواطن فى ايجابيات .

ربما كانت سلبيات الاعلام بعض العوامل فى تلك السلبيات لأنها أى وسائل الاعلام لم تؤد دورها كما يراد منها .

سابعا : التربية فى المنزل وفى المدرسة ، قصر المنزل وقصرت المدرسة ، فكان هذا التسيب ، وكم أتمنى أن تزرع المدارس فى نفوس التلاميذ أصول التربية الاسلامية خمس دقائق فى كل حصة يقف المدرس « المثل » ليغرس ناحية انسانية فى نفوس طلابه ، يتحدث عن الأخلاق وهو مثل لها وعن السلوك والواجب وسمة المواطنة والواجب ودور الانسان وما هو ؟ وكيف ينبغى أن يكون ايجابيا ومحترما يدرك ما عليه قبل أن يبحث عن ما له ؟ ينكر ذاته فى سبيل وطنه وعزته والنهوض به لأن هذا الطالب المثل ورجل الغد ذو المسئولية .

لاشىء من هذا فى المدرسة ، ولاشىء من هذا فى المنزل ، فكيف نبنى أجيال المستقبل ونحدد لها سماتها وملامحها وقد انسلخ الكثير من سمات الماضى وتلك الحسنات التى كانت سائدة زرعت بالفطرة والتقليد والتربية والفطرة باقية

ولكنها لا تجدى بغير رعاية وصيانة وتوجيه ومراقبة والحث على المثل وغرس المسالك السوية .

ثامنا : أريد أن أقول للدكتور عبد العزيز الدخيل وهو يطالب ويبحث عن المراجع التى تكون الدراسات عن المناحى التى تبحث فى مثل هذه الندوة أنها لا توجد ، وهو يعلم هذا ، وتواجدها يتطلب جهود الدارسين المتخصصين فى البحث العلمي وهم قلة ؛ ذلك أنه من المستحيل أن يكون كل حامل أكبر شهادة يستطيع ان يقدم بحوثا علمية فى مجال تخصصه لأن عملا كهذا ينبغى له جهد وسهر وعمل غير أننا نطمع أن يهتم المتخصصون والقادرون على ملء الفراغ والنقص ببحوث تصبح مراجع ، أعلم أن فى ذلك عناء وأي عناء ولكننا أمة كأى أمة توافر فيها حملة الشهادات العليا الذين يحسنون البحث العلمى وفيهم القدرة وعندهم الطموح على خدمة أمتهم بما ينقصها مما هم قادرون على آدائه وتحقيقه .

بهذه اللمحات القصار أختم هذا التعليق على تلك الندوة الجيدة التى أتيح لى أن أحضرها ، وأستمع فيها إلى آراء قيمة ، تريد الخير للوطن وابنائه وتغار عليهما وتريد كذلك ان يكون المواطن وملامحه الاجتماعية صور نابضة سامية من تلك الملامح الانسانية الخيرة التى جاء بها الدين الاسلامى دين العقيدة الراسخة والمسلك السوى والخلق العالى ، والايثار والسماحة واليسر ولعل الغفلة وضعف الوازع الدينى من أسباب تلك السلبية التى ننكرها اليوم ولابد من الرجوع الى الأسس فى الدين القويم ، لتكون منهاجنا ومنطلقنا ومبدأ حضارتنا ونهضتنا ورقينا وسماتنا وبذلك تكون النموذج الصالح الحق والمثل الذى يحتذى .

الشيوعية لا تهدأ

ما أحرانا أمة التوحيد أن نكون دائما فى يقظة من الالحاد ، وأن نتسلح ضد الشيوعية ومبادئها الهدامة ، وهى كلها هدم وتخريب وما احرانا .. ان نفيق من غفلتنا وأمامنا ذلك الشر المستطر الذى يحارب الأديان السماوية وفى مقدمتها الاسلام لأنه المثل للعقيدة والانسانية وتكريم الانسان .

وما أحرانا أن نخفف من غلوائنا فى الجرى وراء حطام الدنيا الفانى وأن نعى كيد الالحاد ونتصدى له بعقيدة راسخة قوية لا يحلها البغى ولا أية قوة على وجه الأرض ، أما إذا استسلمنا الى الترف فانا لا نلوم إلا أنفسنا كأمة مسلمة فى شتى بقاع الأرض .

لقد ندد « جاباروف » السكرتير الأول للحزب الشيوعى فى أقليم التركمان فى تقرير طويل قدمه فى ٢٠ من يوليو الماضى باستمرار تأثير الاسلام فى تلك الجمهورية السوفياتية التى تحدها ايران وافغانستان جنوبا ، وذكرت صحيفة « ترمانيستايا اسكريا » اليومية أن جاباروف ..قال بصورة خاصة : أن منظمة الحرب تقلل ما اسماه من شأن تأثير الدعاية الدينية وأن عدد الأماكن المقدسة « المزعومة » على حد تعبيره لا يقل وسمى المتدينين دجالين كما سمى السمات الدينية فى الجنائز والزواج والختان وصفها بأنها عادات الماضى البائد وقال : أنها مازالت موجودة بتأثير من رجال الدين المسلمين ومضى يقول : أن أعضاء الحزب والشبان الشيوعيين ورجال الفكر يمارسون فى أغلب الأحيان هذه الطقوس الدينية ، وأعلن عن أسفه لشيوع عادات دفع المهر وزواج الفتيات فى سن مبكر وتعدد الزوجات ، وندد بمراكز الأكاذيب كما اسماها عند الأجانب التى تنهض بدعاية كبيرة لصالح القومية التركية والاسلام .

انها نذر الشيوعية التى ما تفتأ تحارب الأديان وخاصة الاسلام فهل لنا أن نستيقظ ونعمل ؟ اللهم نعم .

زوجات الأدباء

** كنت أتمنى ، قبل كتابة هذا الموضوع ، قراءة مذكرات واراء .. تبحث .. فى جو المنزل لرجل أديب ، بضاعته وافكاره فى الكتب والصحف ، والقلم والورق .. هذه تجارته ، وارباحه وخسارته .

* فهذا الاديب ، فى بياض نهاره ، موظف ، وفى بقية يومه ، قابع ، بين كتبه وأوراقه ، يقرأ ، ويسود ، ويسهر شطرا .. من الليل ، وله « هيات » يفرغ فيها جيبه ، اذا جاز .. بسوق الكتب وسقى الله ايام زمان ، حين كانت المكتبات ،. تغص بفيض زاخر .. من الذخائر النفيسة ، وكان فى الوقت سعة للقراءة ، وكانت هموم الحياة .. أقل فداحة ، وأقل مؤونه ، وأيسر .. فى التناول والمعايشة ..

* اخترت الاديب ، لان حاله محدودة .. الى حد الضيق ، ولا سيما الاديب العربى .

* وربة البيت .. همومها كثيرة .. وأعباؤها ثقيلة ، تلد وتربى ، وتطبخ ، وتغسل ، وتكوى ، وتنظف بيتها ، ترتبه .. كل يوم ، والاطفال يعبثون ، يخربون ، وتستقبل ضيفها ، وتعنى بهم ، تعمل .. ليل نهار ، فى صبر ودأب ، فى هذا الكيان الصغير ، ترعاه وتحنو عليه ، وتهدهده .. بحنانها وعطفها ، وحبها العارم . والرجل الاديب ، فى خارج هذا الكيان ، يكدح ، ويعمل ، ويجرى وراء الرزق المقسوم .

* أما داخل المنزل ، فهو .. بين اوراقه وكتبه ، مشغول بالقراءة ، ومشغول كذلك بالكتابة ، فهو .. فى وسط اسرته ، البعيد .. القريب ، مشغول عن زوجه ، ومشغول عن أبنائه ، وتضيق بعض الزوجات .. بهذه الحياة الرتيبة ، ولكن الاديب .. سعيد بها .. حفى بهذا الاستغراق فى المطالعة والكتابة .

* وضيق المرأة .. لا ينحصر فى انشغال الرجل عنها .. بحرفة الادب ، ولكن بهذه الفوضى .. التى يعيشها داخل المنزل ، فالكتب متناثرة ، فى حجرة الاستقبال ، والنوم ، والجلوس ، والصحف كذلك ، تملأ الدواليب .. وتتناثر هى الاخرى فى كل مكان .

والمرأة .. تلم ، وتجمع ، ويعود التناثر ، واحتلال الكتب والصحف .. لاكثر من زاوية ، وفى اكثر من مكان ، والرجل سعيد بهذا كله ، تمتلئ عيناه ، بهذه المناظر ، ويرفض التنظيم ، ربما لانه غير قادر عليه ، ولان حاله ضيقة ، فالمنزل محدود المساحة ، والبساطة .. طابع حياته ، لان ظروفه متغيراتها جد ضيقة ، حتى بعد التطور فى المسكن واثاثه ، فالكتب على المكتب ، وفى حجرة النوم والصحف .. فى كل مكان .

* أما فى الحياة .. التى سبقت تطور اليوم فهى اشد ضيقا ، وقل .. من استطاع .. تحديد حجرة لمكتبته .. ومطالعته ، وربما جنح الى تقسيم حجرة .. محدودة المساحة ، الى اكثر من غرض ، لضيق ذات يده ، ولانه يوائم .. بين حياته ، فى صبر والزوجة تشاركه هذا الضيق .. بهذه الحياة ، فى صبر كذلك ، تحتمل العناء ، فى لم الكتب والصحف ، وهو ينثرها .. من جديد ، وربما .. يتحول هذا الضيق الى شجار ، والى عناء .. لا حد له ، والمرأة معذورة ، لانها بتبعاتها .. التى لا تنتهى ولا تحد فاذا اضيف اليها عناء اخر ، يتجدد كل يوم ، باكوام الكتب والصحف ، زاد عناؤها ، بجانب انشغال الرجل عنها .

* هذه لمحات .. من حياة الامس . اما حياة اليوم ، فربما كانت .. اقل شكوى ، ذلك ، ان فتاة اليوم ، قد تعلمت ، واذا اتيح لها شئ من الوقت ، اتجهت الى القراءة فشغلت بها ، وربما تناقشت مع زوجها ، فى الافكار ، واتفقت معه ، او اختلفت وربما ، اتجهت كذلك .. الى ابنائها ، تساعدهم على دروسهم ، فهى أكثر صبرا فى هذا المجال من الرجل ، وارحب صدرا ، ثم هناك التلفاز الشاغل لا سيما فى برامجه المفيدة والمسلية ، وهناك الراديو ، الى غير ذلك .. من وسائل الحضارة .. التى استنزفت الزمن .. وطوته بسرعة ..

* وامرأة الامس ، بكل صفاتها الكريمة ، وربما لم ينقصها .. سوى التعليم ، لذلك فهى تضيق بالكتاب ، وبانشغال الزوج فترى فيه – اى الكتاب – .. كأنه خصم لها ، ولكن صبر الرجل .. يعينه ، على المواءمة ، الى

حد ما .. على هذه الزوجة .. ما استطاع الى ذلك سبيلا ، فالاديب ، لا يستغنى عن كتابه ، لانه غذاء فكره ، ولا يستطيع الاستغناء كذلك عن زوجه ، لانها انيسته وشريكة حياته ، وعضده ، وكافلة شئونه ، ومهيئة راحته بجهدها وحدبها عليه ، وتوفير سبل الهناء له ، فى هذا الكيان .. الذى بدأ بهما ، ثم يتحول الى اسرة ، فيها الولد والبنت ، وتكبر المسئولية ، ولا يتم التعايش الامثل ، الا بالتضحيات .. من الجانبين وتعاونهما .. على تربية النشء .. كما يجب ، وتعليمه .. ورعايته بالغريزة .. التى اودعها الله ، فى قلبيهمـا . فالحياة .. خلق ، وتعاون ، ونكران ذات .. امام المسئولية المشتركة ، التى قبل بها الطرفان ، ليعمر هذا الكون ، كما اراد الله له .

* فالزوجة سكن للرجل ، ثم مودة ورحمة .. بينهما ، وتلك آيات .. لقوم يتفكرون ، كما يعلمنا كتابنا العزيز .

* والتعايش .. فى مناخ الادب ، سلاحه الصبر ، وصبر المرأة اكثر ، على تحمل ضيق الحياة ، والقلة ، وترفع هامة الرجل بتحصيله الفردى من الفكر ، فى اوساطه وربما خارج بلاده ، وتبقى المرأة .. كالجندى المجهول ، الذى يضحى بروحه ، لبناء كيان الرجل .

* والاوفياء من الرجال .. هم الذين .. يردون الجميل .. للزوجة المعنية ، الحادبة ، المضحية فى بناء الكيان الاسرى وتوفير الراحة للزوج ، ليصل الى اربه ، بسعيه وعمله وبناء شخصيته فى المجتمع ، وصدق ذلك الشاعر القائل :

ان الكرام اذا ما ايسروا ذكروا
من كان يألفهم فى المنزل الخشن

* واذا كانت الصداقة تضحية ، فالمعايشة الزوجية اكثر من تضحية ، ولكن فى كلتا الحالتين ، بوفاء ، وحب .. وايثار ، ولا يكون ذلك ، الا بالبعد عن الانانية .. والشح .

بين قضبان القفص الذهبي

من احلام الرجل ان يدخل هذا القفص ، ونحن نسميه ذهبيا ، وقد يكون ، اذا اصبحت الحياة الزوجية .. هناءة ويسرا ووفاقا ، وهو من حديد صدىء ، اذا كان غير ذلك .

ونفس الحلم عند المرأة ، هى كذلك تحلم بهذا القفص ، ونحن نضرب المثل ، فنقول : دخل فلان ، أو سيدخل .. فى القفص الذهبى . وما يقال عن الرجل ، يمكن ان يقال كذلك عن المرأة ، فالامر واحد .. بالقياس الى كليهما . فليس الرجل وحده .. الذى يدخل القفص الذهبى .. فى مقاييس الاحلام والامانى ، وانما المرأة كذلك .. تدخل فى هذا القفص ، لانها دخلت فى هذه العلاقة الزوجية ، فارتبطت بالرجل ، كما ارتبط بها .

ولعل .. من الحياء .. ان لايقال دخلت فلانة .. فى القفص الذهبى ، وانما يقال دخل فلان ، أو سيدخل ، وربما قالت النساء .. فى مجالسهن ، ان فلانة دخلت هذا القفص ، اذا جاز لهن ذلك .

ولا ادرى ، من اين جاء هذا التعبير ، وربما قلت .. ان معناه .. الارتباط ، والتقيد ، بهذه العلاقة التى امر الله بها ، ودعا اليها ، ليعمر الكون ، وتكون الالفة ، وهذا الاسكان المتبادل ، يدخل فيه الرجل ،وتدخل فيه المرأة ، يسكن كل منهما الى الآخر ويطمئن ، ويكونا بدء حياة .. تتحول بعد ذلك الى اسرة ، وهكذا .

والزواج امر لابد منه ، وهو بداية كيان الاسرة ، فالمجتمع ، والاحلام متعة وبهجة بهذه الحياة ، انها نعيم ، يعيشه الانسان ..وهو يتهدهد فى اجواء الحب ، بعد الليالى والساعات الى ذلك اللقاء ، ثم تبدأ الاحلام تتجلى .. فى غبطة ومذاق .. فى هذا الايناس ... الذى جمع بين نفسين وقلبين ، التقيا على خير ، وعلى هدى الله ومنهاجه القويم ، لتكون الحياة

صافية ، يتحملان تبعاتها ، ويتعاونان عليها ، ويفرغ الحب شحناته .. فى هذين القلبين ، ليكون الوفاق والوئام ، والايثار والصفاء والهناءة ، وتبدأ الحياة وسط الاحلام ، وتظل الاحلام ما بقى الحب ، وقد تجد الحياة ، ولكن الحب يبقى .. رقراقا .. عذبا نقيا ، ينشر سحائبه وتوهجاته فى العيون وعلى الشفاه ، وتمضى المسيرة .. فى هذه الاخوة والزوجية ، مع الحياة ، فى جدها ولعبها ، يتقاسم الزوجان العبء ، هنيئين .. بهذا الالتحام ، فى تحمل المسئولية ، مسئوليتهما معا .

ويظل القفص ذهبيا فى هذا المناخ .. على مدى هذا الوئام والوفاق ، الذى يتكافأ .. فى الوفاء ، والتقدير ، بعيدا عن الاستغلال .. بكل صوره ، وبعيدا .. عن الانانية والاثرة . هو قفص خيارى ، وربما كان غير خيارى ، يدخله الانسان .. راغبا فيه ، وربما متخوفا منه ، حذرا ، ولكن اذا .. ما أصبح فيه ، فلن يكون له خيار .

وما دام الانسان يحلم فهو سعيد ، وهو هنىء الحياة ، وقد يكون القفص من حديد ، او وهميا ، ولكن تصور الذهب لانه نفيس ، يضفى بريقا وقيمة ، لان الذهب دائما غال ، وقيمته فيه .

والحياة الزوجية ، حلم وفرحة ، فلا عجب .. ان يكون اطار ذلك .. ملائما لتصور الحياة الجديدة للرجل والمرأة ، تصور ، يوشيه جمال التخيل ، واشعاعات الآمال ، وغبطة الامانى ، ورقرقة الرؤى .

اذن .. ليكن الدخول .. الى ما يوائم .. هذه الصور الحالمة ، فى جنة من نخل ورمان وزهر ، تتناغى مع الطل ، مع اطلال فجر جديد ، من حلم الحياة ، حتى للنبات ، وجميل صنع الله ، لتكون هذه المواءمة الصافية ، صفاء الافق فى الصحراء ، فينجلى الحب ، نقاء ومغنى ومعنى .

من هنا صيغ القفص ، صاغه ماهر من خبراء الجواهر والذوق ، من اجل الاغراء . فالانسان فيه فضول ، لو وجد قفصا ذهبيا يسعه ، لدفعه فضوله الى تلمس قضبانه الغالية البراقة ، ولما عارض ان يدخل فيه ، وهو يعرف انه نوع من الحبس ، شاهده فى معدن آخر ، به الطيور ، قد حبسها هو ، ليستمتع بتغريدها وحركاتها وحبها ، مع الفجر تسبح خالقها — وان من شىء الا يسبح بحمده — ، وتتغنى ، رغم انها سجينة ، وربما كان بعض

تغريدها احتجاجا .. على هذا السجن ، ذلك .. ان التغريد من طبعها ، فهى تغرد ، انى وجدت .

ولست ارى ان المتزوج يدخل قفصا ، ولو كان من لؤلؤ وزبرجد وياقوت ، ليدخل فى السجن ، الا اذا كان سجن الحب ، فى شركة هذه الحياة ، التى اذا كانت وادعة ، كانت نعيما .. وسعادة . فمرحبا اذن بهذا السجن .

واذا كانت الحياة .. لا سمح الله ، غير هانئة ، وبغير وفاق وانسجام ، فان القفص ، مهما كانت جواهره ومسمياته ، يتحول الى سجن وكرب ، كله صدأ ، وقوة تحول بينك وبين التحرك والانطلاق ، يكون هذا بالقياس إلى الاثنين معا ، وتصبح الحياة شقاء لا يطاق ، نسأل الله العافية ، وهنيئا للحالمين ، وأمالا لهم بحياة .. يحفها البر والتوفيق والقبول عند الله ، لتكون وادعة هنية ، رقيقة الملامس والحواشى ، فيها خفر العذارى ، واليسر والعطف ، فهى حب .. على طول مسافة الدرب الطويل .

ومرحبا بالقفص ، ليكون مأوى لقلبين .. التقيا على كلمة الله ، وليصبحا .. قلبا واحدا ، ذا نبض واحد .

ذلك أن هذا الكون ، لا يعمر الا بالايمان بالله ، ثم بالحب . فلنعمل لتعميق ايماننا ، وترسيخ جذور الحب ليمرع فى نفوسنا ، ثم يكون عطاء ، فى صفاء البرد الطاهر ، تحطه غيمة مسخرة ، فيها الحياة ، لمن يعمل للحياة ويعمق الامن فى نفسه ، من عمق ايمانه الراسخ برب العالمين .

القعقاع بن عمرو

* قبل أيام ، كان بيدى .. كتاب ، عن « القعقاع بن عمرو .. فارس بنى تميم » ، ومؤلفه الاستاذ ــ محمد امين الميدانى ــ ، لم نعرف عن حياة هذا البطل .. شيئا يذكر قبل اسلامه ، ولم يهتم المؤرخون .. إلا بادواره البطولية ، فى الحروب الاسلامية ، وما تحقق فيها من انتصارات وفتوحات .

ولعلنا ونحن .. فى شهر الجهاد .. والنصر ، ولعل أهم مجاهدة .. فى شهر رمضان جهاد النفس ، والمعركة معها ، ولا أصعب .. من مجاهدة النفس ، واذا .. انتصر الانسان على نفسه امكنه الانتصار .. على ما عداها ، وهو ييمم نحو الحق والخير ، وأول انتصار على النفس ، اكتساب الصبر والزهد فى الحياة وبذلك ترتفع معنوية الانسان وتكبر نفسه ، ويبعد عن .. الصغائر ، ويرنو الى المجد والعزة والايثار والعدل والمروءة ، وتلكم بعض خصـال الأماجد .. فى تاريخنا الطويل ، فدانت لهم الدنيا ، وليت شبابنا وشاباتنا ، يفرغون .. فى بعض اوقاتهم الضائعة الى الالمام .. بتاريخ البطولات ليأخذوا منه زادا لحياتهم ومستقبلهم حين يستلهمون .. تلك الامجاد ، فى غابر الأيام . ولعل رمضان فرصة ومجال تأمل ومطالعة لتلك الحقبة من حياة المسلمين الأوائل ، وجهادهم وانتصارهم .. على نفوسهم ، وقد انتصروا بذلك ، على البغى ، وكانوا .. رسل خير وانسانية وأمثلة من الشجاعة والبأس ، فى سبيل الحق ، والهداية ، فكانوا قدوة وأمثلة تحتذى ، وفرسانا وعبادا ، وهم مع ذلك .. فى قلة زاد وقلة عدد .. فى مناسبات كثيرة ، غير أن إيمانهم هو عدتهم وقوتهم وبأسهم وكثرتهم وزادهم .. الذى يعول عليه .

* قيل أن القعقاع بن عمرو ، وفد على رسول الله .. صلى الله عليه وسلم فى السنة التاسعة للهجرة مع وفد من قومه .. بنى تميم ، ليعلنوا اسلامهم ،

وقيل : إن الرسول عليه السلام سأل القعقاع ذات يوم : ماذا أعددت للجهاد يا قعقاع ؟ ، فقال : طاعة الله ورسوله .. والخيل ، فاستحسن الرسول صلى الله عليه وسلم .. هذا الجواب ، وقال له : تلك الغاية .

وقبل .. أن أمضى فى الحديث عن هذا الفارس البطل وما أبلى فى الجهاد ، لابد من الاشارة الى صاحبنا كشاعر وسنرى نماذج مما كان يرتجز وينشد إبان معاركه وانتصارات جيوش المسلمين التى شارك فيها وهو قد شارك فى فتوحات العراق والشام .

ولا أنسى .. ولا تنسى أمتى تلك السمة التى جعلت من القعقاع صفة المدد من الجند فى شخصه وحده فكأنه يعدل وحدة قوية من الجيش نرى ذلك حينما وجه الخليفة ابوبكر الصديق رضى الله عنه سيف الله خالد بن الوليد الى فتح العراق بعد أن فرغ من قتال المرتدين وقال له أبوبكر « واذنا لمن شاء بالرجوع ولا تستفتحا بمكاره » أى أن يترك الخيار للمسلمين الذين شاركوا خالدا فى حرب الردة فلا يكرههم على الذهاب معه الى فتح العراق ومحاربة الفرس وحين نفذ خالد أمر الخليفة تخلى عنه الكثيرون فكتب خالد الى ابى بكر رضى الله عنهما بهذه النتيجة وطلب اليه أن يمده بجنود آخرين يمضون معه الى العراق للفتح وهنا تبرز السمة البارزة التى اشرت اليها فى شخصية بطلنا الذى نتحدث عنه . فقد ارسل ابو بكر الي خالد الذى يطلب المدد بالجند أرسل اليه بالقعقاع بن عمرو وحده وسأل الأصحاب « فى استغراب » أبا بكر : « اتمد رجلا قد انفض عنه جنوده برجل ؟ فكان رد الخليفة الراشد هذا الجواب الذى لا مجال للجدال فيه وقد ازال نبرة استغراب السائلين حول الخليفة ، قال ابوبكر : « لا يهزم جيش فيه مثل هذا « يعنى القعقاع » .

وهذه الشهادة من خليفة المسلمين لم تصدر إلا عن معرفة بالرجل الذى اختير ليكون بمثابة المدد من الجيش بطولة ، وشجاعة ، وكفاية . وصحت فراسة ابى بكر ومعرفته بالرجال وهو الرجل النسابة الذى يعرف القبائل العربية وجذورها .

وكان جند المسلمين يومئذ كما وصفهم القائد خالد بن الوليد فى كتابه الذى وجهه الى « هرمز » حاكم الفرس على مدينة « الابلة » ميناء الفرس

الرئيسى على الخليج وهرمز كان رجلا عسكريا وقائدا محنكا بتعاليمه وازدرائه للعرب « كما يقول المؤرخون » .

وكان كتاب خالد موجزا جامعا ، اما الاسلام أو دفع الجزية وختمه بقوله وهو بيت القصيد كما يقولون : « فقد جئتك بقوم .. يحبون الموت كما يحبون الحياة » . وجنح هرمز الى القتال كما يحدثنا التاريخ .

* حين طالب هرمز خالدا بأن يتقاتلا وهما راجلان كان قد بيت الغدر لقائد المسلمين وهو أن ينقض بعض الجنود من الفرس اختارهم على خالد وهو مشغول بالاقتتال مع هرمز فيقتلوا خالدا ويفت ذلك فى عضد المسلمين وحين اشتبك خالد مع هرمز « انشقت صفوف المسلمين عن فارس مقدام يسرع والسيف فى يده لاحقا بخالد وقد رأى جند الفرس يخفون للغدر به وهو مشغول عنهم بصراعه مع هرمز كان هذا الفارس المقدام هو القعقاع الذى لم يجد وقتا لتنبيه أصحابه لغدر الفرس فأسرع بنفسه لينقذ خالدا ووصل اليه قبل أن يتمكن منه جنود هرمز فأثبت القعقاع وهو لايزال فى أول معاركه قوة ملاحظته وسرعة بديهته وحسن تقديره فرد كيد الفرس » . ومنذ معركة « السلاسل » المعروفة لمع نجم بطلنا القعقاع فى ساحات المعارك والفتوحات الاسلامية يسير من نصر الى نصر وصدق تقدير سيدنا أبى بكر : — لا ينهزم جيش فيه مثل هذا — .

وحين فتح خالد « الحيرة » وكان القعقاع جنديا فى جيشه انشد يقول :

سقـــى اللـــه قتلى بالفـــرات مقيمة
وأخـــرى باثبـــاج النجـــاف الكوانف
فنحـــن وطئنـــا بالكواظـــم « هرمزا »
وبالثنى قرنـــى « قـــارن » بالجـــوارف
ويـــوم احطنـــا بالقصـــور تتابعت
على « الحيرة » الروحاء احدى المصارف
حططناهـــم منهـــا وقـــد كاد عرشهم
يميـــل بهـــم ، فعـــل الجبـــان المخالف

وحين توجه خالد بجيشه نحو فتح « الانبار » و « عين القمر » استخلف

القعقاع على مدينة الحيرة ليكون أميرا عليها إدراكا من خالد لكفاية هذا البطل التى لمسها بعد تلك التزكية من الخليفة الذى اختاره ليكون بمثابة فرقة من جند يمد بها خالدا .

وبعث خالد بلواء من جيش المسلمين الى « الحصيد » لقتال الفرس بقيادة القعقاع وانتصر المسلمون وقتل فى هذه المعركة ـ روزمهر ـ على يد فارسنا المقدام القعقاع وانشد الفارس البطل قائلا :

ألا ابلغـــا اسمـــاء أن خليلهـا
قضى وطـــرا من روزمهـــر الاعاجـم
غداة صبحنـــا فى حصيـــد جموعهم
بهنديـــة تفـــرى فراخ الجماجـم

وحين أنتصر المسلمون فى معركة « المصيخ » ارتجز القعقاع :

سائل بنا يوم المصيــخ تغلبـا وهل عالم شيئـا كآخـر جاهل
طرقناهم فيه طروقا فأصبحـوا احاديث فى أفواه تلك القبائـل
وفيهم ايـاد والنمـور وكلهـم اصـاخ لما قد هزهـم كالزلازل

* وبفتح « الفراض » والتى تقع على نهر الفرات انتهت مهمة القائد خالد بن الوليد التى بعثه فيها الخليفة وكان للقعقاع دوره الكبير فى تلك المعارك وجهاده المظفر فسجل أروع البطولة والمقدرة وبرهن بحق على أنه الفارس الذى لا يهزم جيش انضم الى صفوفه . وانشد القعقاع :

لقينـا بالفـراض جمـوع روم وفـرس غمهـا طول الســلام
ابدنـا جمعهـــم لما التقينـــا وبيتنـا بجمـــع بنـــى رزام
فما فتئت جنـود السلـم حتى رأينا القوم كالنعـم الســوام

* وارجو أن يتاح لنا وقفة أخرى مع جيوش المسلمين فى فتح الشام ونحن نصاحب بطلنا المغوار ـ القعقاع بن عمرو التميمى ـ لنرى من بلائه فى الجهاد المقدس لاعلاء كلمة الله فى الأرض ونشر الدعوة الخيرة الهادية الى أقوم السبل .

ملامح من السلوك

* فى جنيف بسويسرا ، تجد فى محطات الحافلات للنقل العام أجهزة يضع فيها ركاب الحافلات قطعا من النقود فتخرج اليهم تذاكر يصعدون بها الى الحافلات ، لتنقلهم من مكان الى آخر ، وليس فى هذه الحافلات مفتشون وباعة وانما سائقوها فقط .

* وفى بعض المدن الايطالية ، يجد ركاب حافلات النقل أجهزة داخل الحافلات ، يضعون فيها قيمة التذكرة لتخرج اليهم ، ماعدا الذين يتعاملون مع شركة النقل بالشهر . وليس فى هذه الحافلات كذلك باعة تذاكر ولا مفتشون وانما سائقوها فقط .

تأملت هذه الصور وما قد تكون عليه الحال عندنا حين تنشأ شركة النقل داخل المدن الكبرى ، كيف يكون تعامل الناس واماناتهم لو .. تخلينا مجرد تخيل ان يتبع نفس الأسلوب الذى نراه فى سويسرا وايطاليا .

* والمسألة عندى سلوك وتربية ووعى ، ما احرانا أن نسترد بعض خصالنا الكريمة التى انتهجها الغرب ، فنحن أولى بها وأنه لشىء مخجل حقا أن نتخلى عن قيمنا ومثلنا ، ونرى غيرنا يعمل بها حتى ندخل فى استغراب ، ونحن نرى حسناتنا يمارسها غيرنا وكأنها غريبة عنا ، وكأننا لا نعرفها ولا تربطنا بها صلة ، أرجو مخلصاً أن نعود إلى تلك الخصال الحميدة، نتخذها رموزا ، تدل علينا ، ونحترمها لنحترم أنفسنا حين نلتزم المسلك السوى والمنهج القويم فى الامانة والحفاظ عليها ، ونحن قد ارتضينا محلها وقبولها والتزام اعبائها . فهل تتحقق الآمال ؟.. أرجو ذلك .

تعقيب ..

* قرأت تعقيب سعادة أمين مدينة الرياض ، المنشور فى العدد الماضى من هذه المجلة ، والواقع اننى لم اشك فى الشيخ النعيم ، وانما اعلنت ملاحظاتى على حديثه الذى نشرته له صحيفة الجزيرة ، فى نقاط تحمل التساؤل فى مقارناته ، والأمثلة التى ضربها ، وأكدت انه يسعدنا أن تصل الرياض عاصمة المملكة الى

الرقى والتقدم ، فهذا ما يليق بها ، لأنها محط انظار العالم الذى يسعى اليها ، صداقة وتبادل آراء وتشاورا ، وتعاونا كمركز لدولة لها وزنها السياسى ورأيها المستقل ، وخطها الواضح واستراتيجيتها الرائدة ، ودورها الكبير ومنهجها القويم .

ومعرفتى أو جهلى لأمين المدينة شيء ، وتعليقى على أقواله شيء آخر فأنا لم أتجاوز مجرد التعليق على ما تحدث به ولم التمس تفسيرا لما قال يبعده عن معناه .

* وفى هذا التعقيب القصير أوجز التعليق .

١ ــ مسألة أزمة الغاز مسألة عارضة فى بلد ينتج الغاز ، وهى ليست أعقد من أزمة الموانىء التى واجهتها البلاد ، واهتمت بها الدولة ، ووضعت الحلول وانفقت المال ، حتى زالت الازمة والحمد لله .

٢ ــ كون بلدية الرياض تعطى تصاريح للبناء بحجم يجعلها أكبر بلدية فى الدنيا فهذا كذلك شيء عارض وموقوت ، وسوف يتقلص حينما تبلغ المدينة كفايتها ويصبح حجم البناء الجديد عاديا ، فنحن فى طفرة توسع وفق الاحتياجات ، ومتطلبات الحياة فى الخطط المرسومة ، انمـــا الانجـــازات الحضارية والرقى لما تتطلبه الحياة العامة هى مقاييس الآداء والعمل والتطوير على انماط واضحة سليمة ومدروسة قويمة .

٣ ــ لم أعلق من قبل على كون الرياض أنظف من لندن وروما ، رغم الفارق فى مساحات العمران والسكان ، مما لا يصح معه المقارنة ، ولم اشك فى هذا الاعلان الذى ربما كان فيه تجاوزا .

٤ ــ اذا عدنا الى حديث الشيخ النعيم المنشور فى الجزيرة نجده يقول : « مدينة الرياض السعودية أقول انها أحسن من جدة ، وأحسن من مكة ، وأحسن من الدمام ، وأحسن من غيرها من حيث احترام انظمة البناء والشوارع ، وداخل مدينة الرياض أفضل من أى مدينة أخرى فى المملكة ، مراقبة البناء والحرص على ذلك .. أفضل من أى مدينة أخرى فى المملكة .

٥ ــ الكبرى يكلف ثمانين مليون ريال وكبرى التجارة يكلف فى مكان آخر مائة وثمانين مليون ريال أو أكثر .

٦ ــ أن الجهد الذى يبذل فى مدينة الرياض أكثر من أى جهد يبذل فى أى مدينة أخرى اسألونى عن أى مشروع لكم فيه رأى وأنا أرد عليكم وأقول : ان النتائج التى تحققها مدينة الرياض أفضل من أى نتائج تحققها البلدية فى أى مدينة بالمملكة ، هذه أوقع عليها » .

٧ ــ لماذا ينفذون المشروع فى مدينة جدة ولا ينفذونه فى مدينة الرياض نعم لماذا يهتمون بجدة أولا ؟ »

* هذه نقاط من أقوال الشيخ عبد الله النعيم المنشورة فى جريدة الجزيرة ولا أريد أن أعلق عليها بشىء فهى صريحة وواضحة .

* لعل المقارنة التى لجأ اليها أمين الرياض بين ما أنجزه وما تحقق فى مدن المملكة الأخرى الكبرى رغم أنها غير دقيقة هو موضع الحساسية فى الموضوع وهو ما أشرت اليه بالتجريح .

ولو أكتفى الشيخ النعيم وقال : انجزنا كذا وبنينا كذا وعملنا كيت وكيت لكان أسلم وأدق وابتعد عن الحرج .

لقد سرنى تراجع الشيخ النعيم فى حديثه المنشور فى مجلة اقرأ عن بعض الاخطاء وهو من أجل ذلك يقول فى اقرأ « ومن يتكلم ثلاث ساعات من الذاكرة تسقط منه جملة أو يتداخل لديه تعبير أو لا يوفق الى اختيار الكلمة الأمثل فى واحد أو اثنين من التعبيرات » .

وأعلن للشيخ النعيم أننى لست من قراء العناوين وحدها ولكنى علقت على حديثه بعد قراءته والتهميش عليه فى الملاحظات التى ابديتها ويسرنى أن التقى به واسمع منه متى اتيح لى ذلك .

وأكرر القول : بأنه يسعدنى ويسعد كل مواطن أن تكون عاصمتنا من أرقى وأنظم مدن العالم ، ذلك أن انجازاتنا مكاسب للمواطن وللوطن نفسه ، وخير يعود علينا جميعا ، كما يفرحنا كل انجاز وتطور ينال أى جزء من وطننا الغالى ، لأنه عزيز كله وكريم كله ، وهذا الشمول فى العناية والبناء هدف أولى الأمر الساهرين على رفاهية المواطن واسعاده على أرضه وهو مسلك غير جديد على حكومتنا الراشدة الحريصة على نمو كل شبر من هذا التراب الذى تربت عليه الامجاد عبر تاريخ عريق فى القدم ومهد الرسالة الخاتمة التى انتشر منها نور الهداية فى كل اصقاع الكون .

شكرا لسعادة امين الرياض على مزيد ايضاحه ، وأرجو له مزيد العون والتوفيق ، لينهض بعاصمتنا الى المستوى الذى يليق بها ، بتوجيهات حكومة جلالة الملك المعظم نحو الخير والاصلاح الشاملين « والله لا يضيع أجر من أحسن عملا ».

* تلقيت من سعادة الشيخ « عمر أحمد بادحدح » .. عضو لجنة مساعدة السجناء المعسرين والمعوزين نسخة من التقرير السنوى لهذه اللجنة . والحق أن هذه اللجنة الموقرة بما تنهض به من سبل الخير فى اعانة السجناء المعسرين لسداد ديونهم ، حتى تؤديها عنهم ويفرج عنهم ، تبتغى بذلك وجه الله فيما تعمل له وتسعى ، لجديرة بالتقدير والدعاء لها بالعون فيما تنهض به لاعانة المعسرين من السجناء فى سداد الحقوق الخاصة التى عليهم .

ولاشك أن القادرين على العون غير قليل فى هذا البلد ، وما أحراهم أن يمدوا أيدى العون الى أخوان لهم فى حاجة اليهم ، لاسيما فى شهر البر والاحسان والتقرب الى الله بالعبادة والتصدق « أن الله يجزى المتصدقين » .

أن أية بسمة على شفة سجين يفرج عنه وأية بسمة على شفة زوجة أو ابن يلتقيان بالزوج والأب ، لفرحة غامرة يتصاعد الى السماء منها أجر كبير لمن أحسن وأعان ، وسعى لبث الخير والاغاثة ونشر البر ومد يد العون .

ان المال فان ، والعمر فان كذلك ، ولا يبقى إلا العمل الصالح الذى يرفع الى رب العباد الذى يجزى على الحسنة اضعافا مضاعفة فى ميزان المعروف والاحسان .

إن أى انسان يحب الخير لنفسه يجب أن يسعى اليه ويشيعه ليجده غدا ثم أن المعروف ينعكس على صاحبه فى الدنيا والله يعوض على المنفق ويخلف عليه ويبارك له فى ماله ويعظم له الاجر .

وما اسعد الذين يسارعون فى الخيرات وما أكرمهم على ربهم وعلى الناس وهم لها سابقون .

ان أعمال لجنة مساعدة السجناء المعسرين ، ومد العون اليها وهى تؤدى دورها المبارك ، لخصلة كريمة يحث عليها الدين الاسلامى ، دين التعاون على البر والتقوى ، دين الايثار ، والنفوس الكريمة هى التى تعطى من القليل قبل

الكثير ، وأى ثناء أبلغ من هذه الصورة التى نتلوها فى قوله تعالى « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون » .

فالى القادرين اسوق هذا النداء ، من ذلك الصوت الصالح ، للعون والاسراع فيه فالله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه ، كما يقول رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم ، ويا سعادة من أحسن عملا ، وانتصر على نفسه ، وسخا بشىء مما يملك فداء لنفسه وتحصينا لماله ، وتنمية له ، بما يقدم من احسان ويصنع من معروف . سدد الله على الخير خطانا ، وأحسن للمحسن ، واعاننا .. على زرع المعروف ، واشاعته ، بسخاء ورضا نفس ، ليكون لنا الجزاء الأوفى عند مليك مقتدر .

ماتت أرملة كارل !

هذه القصة على بساطتها ، لعبت دورها عائلة يهودية من بائعة فطير الى تقويض ملك ، وهكذا دأب اليهود عبر التاريخ .

وقد نشرتها جريدة الكوريرى ديلاسبرا الايطالية فى ٢ من يونيو ١٩٧٧ م ، بقلم انتونيا بيسادارفو وبقيت بين اوراقى ، فقد شغلت عنها .. كل هذه الايام

« أبومدين »

انطفأت .. بعد حوالى الثمانين سنة فى (لاستوريل) ملجأ الكبار .. فى المنفى ، فى نواحى لشبونة فى البرتغال ، انطفأت الشمعة ، حيث كانت (ماجدة لويسكو) ارملة (كارل) حاكم رومانيا .. منذ عشرين سنة تقطن هذا الجزء الصغير من المعمورة .

وكان اسم ماجدة الاول ، والاصلى (استر جروين برن) ، ولكن اباها .. الذى كان بائع قطايف فى احد شوارع بوخارست ، ثم ارتفع الى الطبقة الراقية ، اعتقد انه من الافضل .. ان يتخلص من جميع ما كان يربطه « باسرائيليته » مبتدئا .. اسمه (لويسكو) ، وكذلك تغير مع هذا الاسم .. الشعر الاحمر المشابه للهيب النار ، والعيون الكبار الزرق .. الساحرة والشفاه الرطبة ، التى تغطى اسنانا بيضاء كأنها البرد ، وبشرة كأنها البلور .

كانت ماجدة ، وهى فى سن السادسة عشرة .. محبوبة « الدودوية » — فرقة يهودية — وكانت مشهورة فى مجتمع بوخارست ، وقد تزوجت ضابطا .. يسمى (تامبينو) ثم طلقت منه ، بعد برهة ، من هذا الزواج وفى هذه الاثناء .. كان الامير كارل ، ولى عهد رومانيا .. قد فسخ زواجه من (زيزى

لاميرنو) ، وتزوج الاميرة (السنا) اليونانية ، كان ذلك نتيجة تعارف فى سنة ١٩٢٥ م .. فى مصيف (سينايا) ولكنها فضحته بشناعة فى البلاد ، وتنكرت لكل ما نالت منه .. من ايامه ، وشهرته ، فحكم عليها بانها مبتذلة .. ودون ، ومن الراغبات فى المغامرات ، وقد حاول الملك « فرناندو » والد الامير التنغيص عليها بوساطة الشرطة ، لتترك البلاد .

وفعلا .. رحلت الى باريس ، غير ان الامير كارل .. ظل متعلقا بها ، فلحقها فى باريس ، حيث وضع تحت تصرفها مسكنا فى « شوسى داتين » ولم يخف هذا الحادث عن اعين الكتاب .. ومصورى الصحافة .. الذين يتتبعون هذه الامور فى حوادث الايام ، وملاحقتها ، حيثما تكون . ولم تكن هناك صعوبة .. فى العثور على الزوجين العاشقين ، لانهما كانا يترددان على ارقى المطاعم ، دائمى التجوال فى اكبر الشوارع المزدحمة بالملاهى ، مما اثر كل هذا .. على سمعة الامير ، وضيع من بين يديه ولاية العهد ، بعد موت والده .. الملك فرديناندو ، حيث ارتقى العرش اخوه الصغير « مشيل » واصطلحت على كارل المصائب ، فضيع ايضا زوجته ، التى طلبت اليه فى تمسكن والم ، الطلاق حين احاطت بما حدث له من تدهور ، وضياع فرصة الملك الذى كانت تحلم به ، فتصبح ملكة .

غير ان حادث الطلاق .. لم يؤلمه ، بل اوجد فى نفسه شيئا من الرضا ، لأنه اصبح رجلا سعيدا .. وحرا ، واحيا فيه الامل .. بأنه يستطيع بعد هذا التخلص .. الزواج من مدام (لوبسكو) .

غير ان موانع امامه ، اهمها .. الجانب المادى ، ثم العيون التى تلاحقه غيرة ، فى اوساط « دودويا » ومنهم رجل .. يعرف باسم « مترسكو » . هذه الامور كانت تقف حائلا دون زواجه من ماجدة .

وبعد ثلاث سنوات ، رجع الى بوخارست ، وبالتحديد ، فى ١٩٣٠/٦/٦ . ثم اعلن رسميا توليه العرش ، واصبح يعرف .. بالملك كارل الثانى ، ملك رومانيا . اما مدام (ماجدة) التى كان يلاحقها كظلها . « بريو » وحاشيتها الصغيرة ، فقد انتقلت ماجدة لتسكن فى فيلا اميرية ، على ضفاف الالبا واباتشى ، حيث اصبح كارل .. من ضيوفها الدائمين ، وكان متعلقا بها ، واصبح قصرها ملتقى له ، مع مجموعة من الشخصيات الراقية

والمهمة .

وبعد عشرة اعوام .. من هذه الاحداث استطاعت .. عائلة لوبسكو اليهودية بدهاء ، ان توطد عائلتها ، فقد توفرت لها ثروة واسعة وبذلك تطورت اوضاعها فى المجتمع ، واصبحت لها علاقات ونفوذ ، فاستطاعت التدخل فى الشئون السياسية للبلاد ، واتهمت ، سواء .. كان ذلك حقا او باطلا ، بانها امرت شخصا يسمى « كالتسكو كودرنياد » .. الذى يعتبر رئيس الحرس الحديدى فى الدولة .. المهم ، لقد اضطرت ماجدة ان تترك الحياة والمال ، لان كارل ترك من جديد العرش .. للامير ميشيل ، وتركت معه .. البلاد ترافقهم حاشية .. من اربعين شخصا ، وكثير من الاثاث والمتاع ، وذلك فى ٦/ ٩/ ١٩٤٠ م ، واخذوا طريقهم الى الالتجاء خارج بلادهم ، هروبا من الحرب العظمى الثانية ، التى كانت قد نشبت .. فى نصف المعمورة .

رحل كارل وماجدة ، ترافقهم آلامهم ومشاكلهم ، يجوبون الارض من كوبا ، الى المكسيك ، فالبرازيل ، وفى النهاية ، وبمساعدة « عرقها » دودويا ، استطاعت ماجدة ان تستعمل جميع نفوذها ، للتغلب على اكبر معركة ، من معارك حياتها ، والتى كلفتها سنين طويلة .. من الكفـــاح ، والصبـــر ، والاحتقار ، بجانب شخص ضعيف ، متردد ، غير جرىء ، يرفض دائما الزواج من ماجدة لويسكو ، مما جر عليها آلاما .. الزمتها الفراش ، فى ريودى جانيرو ، حتى ربيع سنة ١٩٤٧ ، حيث اعلن اليها اطباء سراية « كوباكوباتا » ان مرضها عضال ، وخشوا .. الا يزول عنها .

فى هذه الاثناء ، برزت دوافع .. اعطتها القوة ، فتشبثت بكارل ، طالبة منه ان يمنحها فرصة العمر ، وهى ان يتزوجها ، ولم يكن له بد ، من ان يلبى رغبتها شفقة عليها ، واكراما لها ، فتزوجها . فى كنيسة نائية ، ان صح ان يقال عنها ذلك فى الساعة الثامنة .. فى مساء ٣ من يوليو ١٩٤٧ م ، وبعد التصديق على عقد الزواج من المحكمة ، بشهادة ثمانية اشخاص ، فى كولوكوبا اصبحت ماجدة .. ملكة رومانيا .. فى المنفى ، تتصرف فى حياة جديدة ، وشعرت .. حينئذ انها على شاطىء السلامة ، وانها تستطيع الرجوع الى اوروبا ، لتتمتع بالسعادة والاستشفاء ، على بلاجات البرتغال ، حيث حرمت منها زهاء سبع سنوات .

وقد تحسنت صحتها ، ومكنتها .. من اجتياز الكارثة التى مرت بها فى فيلا « مارسول » فى احدى الضواحى الرائعة ، من العالم ، فى البرتغال ، وهى موت الملك كارل .. بين ذراعيها بسكتة قلبية .

منذ ذلك الحين ، وهى منطوية على نفسها ، لا يدخل عليها احد .. فى تلك الوحدة الهادئة الساكتة ، ترتدى الملابس السود ، حزينة وحيدة .. تتأمل فى الزبرجد الذى كان العشاق يشبهون اعينها به ، وملامح .. الوجه الجميلة ، اصبحت تميل الى الاصفرار ، ممسكة نفسها بالبعد عن العائلات الارستقراطية.. المشابهة لها فى المنفى . وقد عبرت عن هذا البعد بلغتها الفرنسية ، بان بعدها عنهم كبعدها عن العالم الاخر ، وتشغل نفسها وروحها بقراءة الانجيل ، وبكتاب « البعث » لـ (فوبينو) حتى ماتت .

موقف رائع للفضل بن الربيع

يقول أصحاب التراجم ان : « الفضل بن الربيع، بن يونس بن العباس : وزير أديب حازم .. كان أبوه وزيرا للمنصور العباسى ، واستحجبه المنصور .. لما ولى أباه الوزارة ، فلما آل الأمر الى الرشيد ، واستوزر البرامكة .. كان الفضل من كبار خصومهم ، حتى ضربهم الرشيد تلك الضربة ، فولى الوزارة الى أن مات الرشيد ، واستخلف الأمين ، فأقره فى وزارته ، ولما ولى المأمون .. استتر الفضل سنة « ١٩٦ هـ » ثم عفا عنه المأمون .. واهمله بقية حياته وتوفى « بطوس » سنة ٢٠٨ هـ وهو من احفاد ابى فروة « كيسان » مولى عثمان بن عفان » .

هذه ترجمة لشخصية الفضل بن الربيع .. سقتها للايضاح .. أما هدف الموضوع فهو موقف انسانى نبيل نادر .. لهذه الشخصية الفذة .. وما اكثر المواقف الانسانية لاسلافنا .. وما أجدرنا بأن نستذكرها ونبحث عنها بين صفحات تاريخنا المشرق وأن نعمل بها ..

والموقف الرائع .. الذى هزنى — وما أكثر ما تهز الانسان .. المواقف الانسانية من نفوس كبار — التى يقول عنها المتنبى : « تعبت فى مرادها الاجسام » .. قالوا : إن رجلا زور خط الفضل بن الربيع فكتب ورقة بألف دينار لصالحه . وذهب بها الى وكيل الفضل .. وبينما اخذ الوكيل يزن الألف دينار للرجل .. جاء الفضل الى وكيله .. فى أمر ما .. فأخبره وكيله أنه اخذ فى تنفيذ امره باعطاء الرجل الألف دينار .. وناول الورقة المزورة الى الفضل .. فقرأها ثم نظر الى الرجل .. فوجده يكاد يموت من الخوف .. فماذا كان موقف الفضل ؟

قال لوكيله : أتدرى لم جئتك ؟ .. قال : لا .. قال : جئتك استنهضك لتعجل بأعطاء الألف دينار للرجل .. والتفت الى الرجل المرعوب وقال له :

لا بأس عليك .. طب نفسا .. فأخذ الرجل الألف دينار .. وقبل يد الفضل .. وقال له : سترتني سترك الله في الدنيا والآخرة .. وانصرف .

أى موقف هذا ؟ .. وأى نفس هذه .. نفس الفضل الكبيرة ؟

إنني حين قرأتها .. اهتزت جميع جوارحي وكدت أبكى .. لهذا الموقف الانسانى الرائع

ويقابل هذا على عكس الصورة الكريمة .. ما قرأته فى جريدة الاخبار قبل أقل من شهر .. فقد دخل شاب .. جائع من اللحم .. دخل شقة خالية من اهلها .. فوجد فيها ـ المصاغ ـ الثمين فلم يأخذه وذهب الى الثلاجة فوجد فيها فخدة لحم .. فأخذها وعند خروجه التقى بصاحبة الشقة فقبضت عليه وسلمته للسلطات لمعاقبته ... وتطوع أحد المحامين .. للدفاع عن الشاب واكد فى دفاعه أنه ليس لصا ولو كان كذلك لأخذ الجواهر ولكنه جائع الى اللحم .. وحكمت المحكمة بشهر سجن للشاب .. مع ايقاف التنفيذ .

أين موقف هذه المرأة .. من موقف الفضل بن الربيع ؟ وكثير فى تاريخنا امثال الفضل بن الربيع .. وكثير كذلك المواقف التى تشبه .. موقف هاته المرأة ..

ماذا عليها لو تركته .. وسترته .. وهو لم يمس ثروتها .. ولكنه اخذ شيئا يسيرا .. لعله محروم منه ؟

فى تقديرى .. أن صاحب الفضل فى القرن الثانى الهجرى .. والشاب فى اواخر القرن الرابع عشر .. لو عومل الأخير معاملة انسانية .. كما كان موقف الفضل مع ذلك الرجل .. لما عاد لمثل هذا الاسلوب .. ويعجبنى فى مثل هذا الموقف .. قول ابى الطيب المتنبى :

ترفق ايها المولى عليهم
فأن الرفق بالجانى عتاب

مؤتمر للأدباء العرب

أشاد صديقى .. الاستاذ عبد الغنى قستى فى زاويته « لمسات » .. يوم الاحد ١٨/٢/١٣٩٧ هـ . بالدور الكبير الذى قامت به جامعة الملك عبد العزيز .. فى شهر ربيع الاول سنة ١٣٩٤ بعقد مؤتمر ادبى .. للأدباء

المحليين وأكد الدعوة لهذه الجامعة لتجدد مثل هذا المؤتمر .. يشارك فيه الادباء ـ ممن يحملون المؤهلات العلمية .. العالية ـ الذين لم يتم لهم .. المشاركة فى ذلك المؤتمر ..

وطالب الاستاذ القستى الجامعة .. بأن يشارك فى المؤتمر أدباء البلاد العربية ..

وفى تقديرى .. أن عقد مؤتمر للادباء العرب .. فى مهد الأدب والفكر .. ليس من اختصاص الجامعات .. ولكن يمكن للجامعات .. أن تشارك فيه .. وان يكون لها دور فعال فى تنظيمه ومساندته .

وكنت قد طرحت رأيا فى مجلة « اقرأ » قبل ايام .. استنهضت فيه الرئاسة العامة لرعاية الشباب .. لتقوم بهذه المهمة ..

وأنا مع صديقى الاستاذ عبد الغنى .. فالدولة هنا قد استضافت العديد من المؤتمرات .. ذات الأهمية .. ما أجدرها أن تقيم مؤتمرا للفكر يشارك فيه البناة من أدباء العروبة . ذوى الاتجاهات البناءة الرائدة والمشهود لهم باستقامة التفكير .. ولا يشارك فيه المتطرفون فى آرائهم والمنحرفون عن الطريق السوى ..

وقد لفت نظرى فى كلمة صديقى القستى قوله : « الأمر الذى يؤكد أن أدب المملكة .. له مكانته بين الآداب العربية الأخرى » ..

فى تصورى الخاص : أنه لا يوجد أدب مملكة .. وأدبُ قطر ثان عربى .. فالادب العربى .. واحد .. هنا وفى مصر وتونس والمغرب واليمن والكويت .. الخ ..

فلا يوجد أدب جزيرة .. وأدب مصرى وأدب مغربى أو سودانى او سورى .. لانه أدب أمة واحدة .. هى الأمة العربية التى لغتها « الضاد » والأدب والعلم .. لا وطن لهما بصورة عامة فكيف اذا كان أدبا لامة واحدة .. ذات لغة واحدة ؟

ربما كان لأخى عبد الغنى وجهة نظر معينة فى ذلك .. ولكنى ذكرت .. ما فهمت من تعبيره فى الفقرة التى نقلتها من كلامه .. وله تعزيزى وتحياتى ..

فى البريد

* حمل الى البريد .. رسالة من الاخ محمد عبد الله الخشان .. بمدرسة ابى فراس الحمدانى بجدة .. ومع شكرى لاطرائه الكريم .. على مشاركاتى الكتابية بجهد المقل .. انقل فقراتها المتعلقة بالموضوع .. الذى تضمنته الرسالة الكريمة .. وأنه لصوت صالح ينبغى العناية به والحرص عليه .. تقول الرسالة :

« حينما تأتى اوقات الصلاة . او المؤذن يرفع النداء .. نجد وللاسف الشديد .. أن هناك فى الاسواق .. معظم المحلات التجارية فاتحة أبوابها .. وكأن اصحابها لم يسمعوا النداء .. لاهين فى مكاسبهم الزائلة .. والأدهى من هذا ان اماكن الاستريوهات رافعة اصوات اجهزة التسجيل بغير أدب بعيدا عن الضمير فالمؤذن يقول لا اله الا الله . حى على الصلاة .. والمسجل يردد الاغانى والموسيقى بأعلى صوته .. وهذا منكر . فلماذا لا تتخذ بحق هؤلاء اشد العقوبة .. لقاء أعمالهم هذه الشاذه ويطالب الاستاذ الخشان المسئولين للحد من هذه الظاهرة السيئة ..

وانا مع الاخ محمد .. فنحن أمة مسلمة .. والله قد خلقنا لعبادته .. فيجب ان نكون عبادا طائعين .. ومن شذ منا ينبغى ان يرد الى الطريق المستقيم .. بالنصح اولا .. ثم بالعنف ثانيا .. اذا لم يجد النصح ..

وأنا واثق ان حكومتنا من أولى مسئولياتها الحفاظ على استمرارية الأمر بالمعروف .. واولى مهامه تنبيه الغافلين الى الصلاه .. لان ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة .. كما جاء فى القرآن الكريم ..

هدانا الله .. الى سواء السبيل ..

مدارس البنات

* بعض مبانى مدارس البنات القديمة .. لم يهتم باصلاح مبانيها وترميم التالف فيها .. فالدرج تتكسر وتتعثر فيه البنات .. ويسقطن على الارض .. والمدرسة المتوسطة الأولى نموذج لذلك ..

بعض المدرسات يتلفظن بألفاظ غير مهذبة .. من المدرسات المستقدمات .. فهل من رسالة المدرسة التهذيب أم الألفاظ غير المهذبه .. أصبحت من التهذيب ..؟

بعض مديرات المدارس .. لا يكلفن أنفسهن بالمرور على الفصول .. للوقوف على حقيقتها ودور المدرسة .. وهو مبدأ من واجبهن .. ولكن هذا البعض .. لا تغادر مكتبها الا وقت الخروج فهل هذا صحيح فى مقاييس الواجب ؟

اذا لبست طالبة عباءة خفيفة ـ مثلا ـ لا تنبه من المختصات الى تغييرها .. وهذا هو الواجب .. بل تؤخذ منها وتترك تخرج بغير عباءة .

التشديد فى غير محله .. فبعض المدارس تمنع الطالبة من وضع اى لون من ـ بكل ـ الشعر الا الابيض .. وحتى ولو كانت البكلة من لون الزى المدرسى .. فهى ممنوعة .. وتوكة الشعر ممنوعة . فلماذا هذا التشديد فى شكليات يسيرة .. ونحن نقرأ قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : (من شدد شدد الله عليه) .. أنا لا أدعو الى زينة .. ولا أدعو الى تفسخ .. ولا ما فى حكم هذا ..

الزى : يقبل فى المدارس أى موديل .. بشرط ان يكون ضمن مواصفات الستر .. وفى مدرسة ما يمنع اى موديل .. لو زاد بشىء بسيط مثل الأزارير .. وتجبر الطالبة على تغييره دون النظر لأى خلفية واهمها ان تكون الطالبة فقيرة ونحن نعلم كم تكلف خياطة الزى اليوم ..

والمسئولون عن التعليم لمدارس البنات يحسنون التوجيه والتنبيه .. وهو من صميم واجبهم كما ان من صميم واجب مديرات المدارس .. المحتكات دورا كبيرا .. لأنها امانة فى اعناقهن .. وادارة المدرسة .. يدخل فى صميمها كل ما يدور فيها ويتعلق بها ..

ياامان الخائفين

قبل يومين مرت ذكرى شيخنا ضياء الدين رجب .. رطب الله ثراه .. فقد

كان سمحا كريما بشوشا حانيا متعاطفا .. قريبا الى قلوب الناس .. لانه شاعر .. ولأنه أديب .

وكانت الالسنة تردد معه دائما : يا أمان الخائفين .. فالأمن مبتغى النفوس .. والامن مبدأ اساسى فى الدنيا والاخرة .. فالقرآن يردد قول الله تعالى : « أولئك لهم الأمن » « وهم فى الغرفات آمنون » .

فيا أمان الخائفين .. اجعلنا من الآمنين دنيا وآخرة ..

ورحم الله شيخنا ضياء الدين رجب وشمله بعفوه وكرمه .. انه هو البر الرحيم ..

محمد سرور الصبان

قد يكون من العسير على مثلى أن يتحدث عن رجل يتمتع بثقة وشغل عدة مناصب مهمة وكان بارزا لامعا وذكيا فطنا ولماحا ، غنى باصدقائه ووفى لهم أكثر مما وفوا له .

فأنا لست من جيل هذا الرجل ، والجيل الذى بعده ، وعلاقتى به ينم عنها عزوف لذلك فلا ينبغى أن تسمى علاقة بمفهومها العريض ولذلك فإن معلوماتى قاصرة إلا من السمع والالمامات اليسيرة التى اتيحت لى ، فرأيته عدة مرات وهو فى مجده ورأيته بعد ذلك وقد انقلبت الأيام كعادتها فى التغيير وقد تقدمت به السن ، ولكنه كان يتجلد وكأنى به ، بيت – أبى ذؤيب الهذلى – المشهور ، فهو يتمثله ويتقيد بتلك الروح التى لا تريد أن تبدو ضعيفة ولا تستسلم الى الضعف وانما نجد دوافع تحملها على المصابرة ، والاحتمال والأيام تمر وللحياة نهاية يعبر من ممرها الخلق عالى الشأن ودانيه ولا حيلة للانسان فى الاختيار ... وهو قد أيقن أن الحياة لا تدوم على حال واحدة وانما الدهر قلب وربما فى غمرة النشوة والشباب والحياة ينسى الانسان تقلبات الدهر ولا يذكرها أو تخطر له على بال ، لأنه مشغول بما هو فيه ، ولم اليأس والماضى قد أنقضى والحاضر جميل والمستقبل لا نملك من علمه شيئا ؟ ولم الانشغال بالمجهول ونحن لم ندركه ولا ندرى أنبلغه أم لا يبلغنا هو ؟ مثل هذا التصور ربما يجول فى بال الكثيرين .

ومثل هذه التخيلات إذا أتيح لها أن تنداح لحظة فى الذهن قد تفضى الى هذا التصور وهذا الحساب غير الدقيق ، ذلك أن نشوة الحاضر تغطى ما مضى وتحجب التأمل فيما هو آت .

والانسان ضعيف ، سريع التأثر والتقلب بما ينال وبما حوله وحين تدركه

الصحوة يعود الى حساباته اذا كانت له حسابات وربما ندم وربما حمد الله ورضي بقدره ، وسعد بما أحسن وحزن على ما فرط ، فيسرع ليمن ربه عليه بتوفيقه ويرجع تائبا منيبا على ما فرط وأسرف وقبل أن أمضى فى الحديث فأن بيت ابى ذؤيب الذى أشرت اليه هو :

وتجلـــدى للشامتـــين أريهـــم
انى لريب الدهـر لا أتضعضـــع

والذى لا مراء فيه أن محمد سرور الصبان كان كثير الاحسان ، حتى فى ساعات عسره كان يأخذ من غيره ويمنح من يقصده فلا يرده خائبا ، ولم يرحم الرجل حتى فى ظروفه الضيقة ولماذا وقد عود الناس ؟، والناس والشيخ محمد سرور يترجمون قول المتنبى :

لكل أمرىء من دهره ما تعودا

وقد يختلف المعنى الذى عناه المتنبىء ولكن الناس يفسرونه لغاياتهم ومصالحهم وما على من ألف أن يعطى إلا أن يمضى فى سيرته فلا يعتذر ولا يرد سائلا وان كان لا يملك ما يطلب منه ولا يريد أن يظهر أنه تخلى عن أصحابه وقاصديه ، حتى فى ساعات عسره .. ولعل مرد هذا الاباء وكبر النفس التى تربت على الطموح والمظهر الجميل والايثار والبر والمعروف ونحن نعلم أن محمد سرور توفاه الله وهو مدين ومع ذلك ظل يعطى حتى آخر أيامه ويواسى ويتحمل المغارم فى صبر الكبار وإبائهم وحرص المظهر الذى يجذب القاصد وخاصة المتعود على الطلب والأخذ بين الحين والحين ، وأنا حينما استشهدت ببيت الشاعر الهذلى الآنف كمسلك لمحمد سرور الصبان ، فى أيام افتقاره لا أعدو الواقع فالرجل كان ذا نعمة وجاه وقديما قالوا : كل ذى نعمة محسود . كما قال ابن ربيعة فى قصيدته المشهورة :

ليت هندا أنجزتنـا ما تعـــد وشفـت أنفسنـــا ممـــا تجد

قال ذلك الشاعر :

حســـدا حملنـــه من أجلها وقديما كان فى النـاس الحسد

مات محمد سرور الصبان وله من الاحساس الشيء الكثير ، كثيره خفى ولعل من دوافع كتابة هذا الموضوع أننى أطلعت قبل أيام .. على رسائل من الرجل يرحمه الله لاناس كان يواسيهم ويحسن اليهم وحين يشكرونه يرد عليهم برسائل قصار بأنه يؤدى واجبا ، وهو سعيد بما يؤدى وتجد السماحة فى كلماته ولا يشعرك بحرج وهو يمد يد العون اليك ويجدد بره ولا يذكره ولا يكشفه ولا يمن به ولا يتعالى ولا يشمخ ولا يهين من سأله ، ولا يتبرم به ولا ينكر عليه تكرار الطلب ، وإنما يعطى مبادرا ومعتذرا لمشاغله وكثرة مسئولياته .

والاشياء البارزة فى هذا الرجل كثيرة ومنها صبره النادر على من يسيء اليه لأنه تأخر عن تلبية طلبه فيواسيه أكثر ويمد اليه يد العون ويعتذر اليه ومنا الكثيرون الذين اذا أسيء اليهم جنحوا الى الاساءة بمثلها وأكثر واذا كانوا يعطون منعوا جزاء ما لاقوا من عنت .. غير أن محمد سرور كان على النقيض من ذلك وهو لا يسلك هذا النهج خوفا أو جبنا وانما هى المصابرة التى تنبع من النفس الكبيرة باتباع طريق أمثل لا يقدر عليه إلا الكبار والذين لا يحكمهم الغضب وإنما هم يحكمونه ، ويملكونه ساعة الغضب ، وهم قلة قليلة ومصدر ذلك الحلم الذى يضرب به المثل اتسم به رجال قليلون فى تاريخ أمتنا ، ومن الانتصار على النفس أن تحسن الى من يسيء اليك وهى قدرة لذوى العزائم وهم فى الوقت نفسه ندرة ومحمد سرور من هؤلاء الندرة .

ونحن قد نجد من يمسك اساءته وهو قادر على الانتقام ولكنه يمسك عن الاحسان وفى هذا خير ، غير أن الذى يقابل الاساءة بالاحسان فانه يرقى الى مستوى البر بهذا الانتصار على نفسه الى حد إرغامها على المسلك العكسى وهو منهج إسلامى قويم أن تحسن الى من يسيء اليك وكان محمد سرور من هذا النمط النادر .

كنت أتمنى أن يترجم لهذه الخصال الكريمة فى هذا الرجل اصدقاؤه الذين عايشوه وعملوا معه ونالوا من حدبه ورعايته حتى وهم بعيدون عنه فى العمل ، وقد نالوا حظوة لا ينكرونها فيتحدثون عن المصاحبة وأيدى الرجل البارة المحسنة وخصاله وقوة إرادته ورجولته ومواقفه معهم ومع الكثيرين من الناس كوفاء منهم فليس أمرأ من طمس الوفاء بالنسيان ولا أقول بالتنكر .

ولقد ذهب الكثيرون من أصدقاء محمد سرور ، مضوا قبله ومضوا بعده وهناك بقية قادرة على التحدث عن حسناته ، وجدير بنا أن نذكر محاسن موتانا كما يعلمنا ذلك الأثر والمثل السائر ـ ربما أشرت من قريب أو بعيد الى أمثال شيخنا محمد حسين زيدان ، والاستاذ محمد على مغربى ، والاستاذ احمد قنديل والشيخ عبد القدوس الانصارى ، والشيخ أحمد موصلى ، والاستاذ يس طه والاستاذ أمين عبد الله والاستاذ السيد هاشم زواوى ، والاستاذ محمود عارف والسيدين على وعثمان حافظ .

وربما كان هناك الكثيرون ممن أعرف ولا أعرف ممن عايشوا الرجل ونالتهم رعايته ومزاملته وهم أقدر على ترجمة النواحى الجمالية فى محمد سرور الصبان وأزيد فاذكر الاستاذ محمد حسن فقى وعبد الوهاب آشى وحسين سرحان وغيرهم .

* أما أنا فأنه يقصر باعى عن التحدث عنه ، غير أن نخبة من كبار الموظفين فى الماضى مايزال بعضهم أحياء ، قادرين على الحديث الطيب وذكر الحسنات ممن يكتبون وممن يحسنون حديث الذكريات ، ولعل من هؤلاء الشيخ محمد نور رحيمى والشيخ نورى عباس ومن إليهم ممن كانوا فى وزارة المالية وغيرها وصاحبوه وعايشوه وتعلموا منه ولا ينسون تلك الحقبة من الزمن ومحمد سرور جزء من تاريخ هذا البلد رجل ادارة ودولة ورجل أدب لامع لماح ذكى له مواقف فى الاحسان والرعاية والحدب لا تنسى وهى لا تشمل الملتصقين والمقربين اليه فحسب وإنما تصل الى البعيدين عنه ممن يكتب اليه رسالة بالبريد أو يقصده فى داره التى كانت تعج بالكبار والمحتاجين والساعين تقربا وطلبا لمعروف .

* الذين يؤرخون والذين يذكرون المعروف وأهله ، أكبر الظن أنهم لا ينسون محمد سرور الصبان ولا يهضمونه حقه ولا يمكن بحال من الأحوال أن يتجاهلوه ولعل من هؤلاء مؤرخنا الشيخ أحمد السباعى ، والشيخ محمد سعيد العامودى ، والاستاذ أحمد عبد الغفور عطار مد الله فى حياتهم بجانب من ذكرت آنفا ، هؤلاء يحملون أمانة الحديث وهم إن فعلوا فانما يؤدون واجبا للصحبة والمعايشة ، ان لم يكن نالهم شيء من تلك الرعاية والاهتمام من جانب الرجل ولا أذكر أننى سمعت من يتحدث ويثنى على الرجل وليت هذا يتحول الى

صفحات مقروءة كاعتراف بالجميل وذكر المعروف وتقدير الرجال والحث على الخير فى ذكر مناقب الرجال وهى صور من التاريخ الذى ينبغى أن يسجل ويقرأ .

رحم الله محمد سرور الصبان وأحسن اليه .

ابن زيدون

يقول شوقى :

ابـن زيـدون عبقـــرى زمانه ... قصر المحسنـــون عن إحسانه
أخذ الـــروم فى الجزيـرة عنه ... ومشـــوا فى خيالـــه وافتنانه

ولد ابن زيدون فى قرطبة بالأندلس سنة ٣٩٤ هـ فى زمن الدولة العامرية ، فى أول عهد المظفر بن المنصور . بعد سنة واحدة من موت المنصور بن أبى عامر ، وهو من أسرة عريقة من بنى مخزوم ـ بطن من قريش ـ وهم عشيرة خالد بن الوليد . وابن زيدون كما يقول شارح ديوانه الأستاذ كامل الكيلانى ... أحد ثلاثة تسموا بابن زيدون وهم :

١ ـ أبوه عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون وكنيته أبو بكر ، وكان فقيهاً بقرطبة .. وكان قاضياً وعالماً مشهوراً وأديباً واسع الثقافة .

٢ ـ أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون ـ شاعرنا الذى نتحدث عنه فى هذه الدراسة وكنيته ابو الوليد .

٣ ـ ابنه أبو بكر بن زيدون الذى تولى بعد وفاة أبيه وزارة المعتمد بن عباد وقتله يوسف بن تاشفين بعد أن استولى على ملك بنى عباد سنة ٤٨٤ هـ .

وابن زيدون الشاعر أشهر الثلاثة بعيد الصيت ، واسع الشهرة ، لأنه كان شاعراً مجيداً ممتازاً ، لثقافته الواسعة وموهبته الخارقة ، ومن سوء حظه أنه كان فى عصر كثير الفتن والصراع فى سبيل الملك والأطماع ، بين دويلات المغرب المجزأة الى قطع ، حتى أن حكامها ... سموا بملوك الطوائف . وفى ذلك يقول الاستاذ «نيكلسون» مؤلف كتاب تاريخ العرب ، تفرقت امبراطورية عبد الرحمن الثالث العظيمة وظهر على أنقاضها عدة ممالك صغيرة «دويلات» أنشأتها الظروف والمصادفات ، وكان يحكمها بعض القادة المظفرين . وشبه

نيكلسون تاريخ أسبانية فى القرن الحادى عشر الميلادى بتاريخ إيطاليا فى القرن الخامس عشر ، فقد كان وجه الشبه كبيراً جداً بينهما ، فان هؤلاء القادة الذين اقتسموا بلاد الأندلس .. أشبه بأولئك القادة الذين كان يطلق عليهم فى إيطاليا اسم CONDOTTIERI وكان من بين ملوك الأندلس ملوك العبادية الذين قطنوا أشبيلية ، وهم أقواهم ، وقد أطلق عليهم كتاب المسلمين اسم «ملوك الطوائف» وعلى الرغم من أن ذلك العصر كان عصر تدهور سياسى ، ورغم أن أسبانية تشكو عجز مواردها الاقتصادية فقد وصل المجتمع فى تلك الأيام الى مستوى لم يصل الى مثله من قبل ، فقطعت البلاد شوطا بعيد المدى فى الآداب والعلوم فى ذلك العصر ، ويعد أزهى عصور الاحتلال الاسلامى فى اوروبا وكتب العلامة «دوزى» فصلا مركزاً ممتعاً فى ذلك العصر ، ومما جاء فيه أن قواد البربر بعد الانحلال الاسلامى ، اقتسموا جنوب جزيرة الأندلس فيما بينهم ، حكم الصقالبة الشرق ، فصار ماتبقى ، بعد ذلك نهبا مقسما بين الطارئين المتوثبين على الحكم وآخرين من بقايا الأسر العريقة ممن سنحت لهم الفرصة وساعدتهم على الثبات أمام «عبد الرحمن الثالث والمنصور» ، وانتهى الأمر بأن تكون من المدينتين الكبيرتين قرطبة وأشبيلية حكومتان دستوريتان ، وأسند حكم قرطبة الى ابن جهود من بنى عباد وتأثرت أشبيلية بما يجرى من الحوادث فى قرطبة وكان يحكمها قاسم بن حمود ، وكانت مرتبطة بالعاصمة قرطبة خاضعة لملوك الدولة الأموية ثم لدولة بنى حمود . كان ابن زيدون من زعماء الفتنة التى زلزلت دولة بنى حمود والعلويين حتى قضى عليهم وقامت الطوائف على أنقاضهم وكان عمره وقت الثورة ثمانيا وعشرين سنة وقد بدأت الثورة سنة ٤٢٢هـ فقربه إليه ابن جهور وهو أبو الحزم بن جهور الذى إستولى على المملكة فى قرطبة بعد خلع الجند لآخر خلفاء بنى أمية ، وكانت مدة حكم ابن جهور أربع عشرة سنة ثم خلفه ابنه أبو الوليد محمد بن جهور ولقبه إبن جهور «بذى الوزارتين» وكانت بين إبن زيدون والوزير الأديب أبى عام ابن عبدوس منافسة شديدة لاشتراكهما فى حب ولادة بنت المستكفى ، وكانت رائعة الجمال أديبة ممتازه ، فكاد له ابن عبدوس والناقمون على ابن زيدون عند أبى الحزم حتى غيروا عليه وسجنه بتهمة التآمر على قلب نظام الحكم ، وقد لبث ابن زيدون فى السجن خمسمائة يوم كما جاء فى هذا البيت من قصيدته الطائية :

مئون من الأيام خمس قطعتها أسيراً وان لم يبد شد ولا قمط

أنشأ ابن زيدون فى السجن أروع شعره وأقواه وأرقه وبثه آلامه ، وأحزانه ، وقصيدته السينية التى عنوانها :

«فى السجن» فى طليعة هذا الشعر الرائع الذى يبلغ به القمة فى عصره ، وقد بعث بقصيدته هذه الى صديقه الوزير الكاتب ابن حفص بن برد ، قال ابن زيدون الشاعر الوزير :

مـــاعلى ظنـــى باس	يجـــرح الدهـــر وياسو
ربمـــا أشرف بالمر	ء على الآمـــال ياس
ولقـــد ينجيـــك إغفا	ل ويرديـــك احتراس
والمحاذيـــر سهام	والمقاديـــر قياس
ولـــكم أجـــدى قعود	ولـــكم أكدى التماس
وكذا الدهـــر إذا ما	عز نـــاس ذل ناس
وبنـــو الأيـــام أخيا	ف سراة وخساس
نلبس الدنيـــا ولكن	متعـــة ذاك اللباس
يـــا أبـــاحفص وماسا	واك فى فهـــم إياس
مـــن سنارأيـــك لى فى	غســق الخطـب اقتباس
ووِدادى لك نص	لم يخالفـــه قياس
أنـــا حـــيران وللأ	مر وضـــوح والتباس
ماتـــرى فى معشرحا	لوا عن العهـد وخاسوا
ورأونـــى سامـــر يا	يتقـــى منـــه المساس
أذؤب هامـــت بلحمى	فانتهـــاش وانتهاس
كلهـــم يســـأل عن حا	لى وللذئـــب اعتساس
إن قســا الدهـــر فللما	ء من الصخـــر انبجاس
يلبـد الـــورد السبنتى	ولـــه بعـــد افتراس
فتأمـــل كيـــف يغشى	مقلـــة المجـــد النعاس
ويفـــت المســـك فى التر	ب فيوطـــأ ويداس
لايـــكن عهـــدك ورداً	إن عهـــدى لك آس

واغتنم صفو الليالى إنما العيش اختلاس
وعسى أن يسمح الدهـ ـر فقد طال الشماس

إن هذه القصيدة التصويرية من غرر الشعر العربى ، فهى تجمع بين جزالة اللفظ والرقة واتساق المعانى القوية العميقة الى جانب وحدة الموضوع فى الشكوى والضيق من صروف الدهر وتقلباته ، ولا أعتقد أنها تحتاج الى شرح وتفسير فهى واضحة المعانى ، رغم أن ألفاظها منتقاة جزلة فى غير اسراف فى العمق أو التقيد اللفظى والمعنوى . وقصيدة الشاعر – ذكرى أيام الوصال – من المختارات المشهورة فى الأدب العربى ومطلعها :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

وهى قصيدة فذة بلغت الذروة فى الروعة وقوة الأداء والتصوير ... وقد بعث بها الى صاحبته أديبة الأندلس المشهورة «ولاده» يذكرها بأيام الوصال ، ويصور فيها مايلقى من آلام الفراق والوجد المبرح ، وفيها يقول الشاعر العملاق :

إن الزمان الذى قد كان يضحكنا أنسا بقربهم قد عاد يبكينا
غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا بأن نغص فقال الدهر آمينا
فانحل ماكان معقودا بأنفسنا وانبت ماكان موصولا بأيدينا
وقد نكون ومايخشى تفرقنا فاليوم نحن ومايرجى تلاقينا

ثم ينتقل فيها الى الاستعطاف والى عتب صاحبته معلنا وفاءه وإخلاصه فيقول :

ياليت شعرى ولم نعتب أعاديكم هل نال حظا من العتبى أعادينا
لم نعتقد الا الوفاء لكم رأيا ولم نتقلد غيره دينا
ماحقنا أن تقروا عين ذى حسد بنا ولا أن تسروا كاشحا [1] فينا
كنا نرى اليأس تسلينا عوارضه وقد يئسنا فما لليأس يغرينا

---

(١) الكاشح الذى يضمر لك السوء .

الى ان يقـــــــــول

ياروضة طالما أجلـت لواحظنا	وردا جلاه الصباغضا ونسرينا
وياحيـاة تملينــا [٢] بزهرتها	منـى ضروبـا ولـذات أفانينا
ويانعيماً خطرنـا من غضارته	في وشي نعمى سحبنا ذيله حينا
لسنا نسميـك إجـلالا وتكرمة	وقـدرك المعتلى عن ذاك يكفينا

إلى آخر هذه القصيدة الرائعة التى لايسمح المجال بسردها كلها والتحدث عن جمالها الفنى ، فهى خريدة من النوادر فى موضوعها . لقد توسل ابن زيدون إلى ابن جهور بشتى السبل ، بالمديح وبوساطة أصدقائه ، فلم يجد أذنا صاغية ، ولذلك فر من السجن وهجر قرطبة ، ولم يعد إليها إلا بعد وفاة ابن جهور وتولى ابنه أبو الوليد مكانه فرجع الى قرطبة وانضم الى ابى الوليد ، وقام بالسفارة بينه وبين ملوك الطوائف فأعجبوا به وتمنوا استئثارهم به لبراعته وحسن سيرته ، ويحدثنا تاريخه بأنه استرد مكانه ومجده وحظه ثانية ، ولكنه لم يطمئن لأبى الوليد فقد خشى النكال والسجن ، لأن الوشاة والحساد يتربصون به ، ففر هارباً من قرطبة متنقلا فى مدن الأندلس ثم اتصل بحاكم أشبيلية عباد بن محمد الملقب بالمعتضد ، فألقى إليه بمقاليد وزارته ، وقربه إليه ، ولما مات المعتضد وخلفه المعتمد بن عباد ، سعى الواشون به إليه ، فأبعدهم ولم تنجح خطتهم فى النكاية بابن زيدون ، وقربه إليه وأعلى شأنه وزين له ابن زيدون غزو قرطبة حتى ملكها عنوة بفضل دهاء وبعد تفكير ابن زيدون وسعة حيله ، ثم انتقل المعتمد وابن زيدون إليها وجعلها عاصمة ملكه . .. ويقول شارح ديوان ابن زيدون الأستاذ الكيلانى فى الفصل الخاص بملوك الطوائف وهو يتحدث عن حياة ابن زيدون «ولما وقعت الثورة ضد يهود أشبيلية انتهز ابن عمار وابن مرتين [٣] وأنصارهما هذه الفرصة لاقصاء ابن زيدون عنهم تخلصا من منافسته ، فزينوا للمعتمد أن يوفده الى اشبيليه لشدة تعلق اهلها به واستغلال حبهم فى تسكين الاضطراب ، وكان المعتمد يعلم مايكنه أهل أشبيلية لابن زيدون من الحب وماله عندهم من المكانة والخطر . وكان ابن زيدون مريضا

(٢) تملينا : تمتعنا ونعمنا .
(٣) من خصوم ابن زيدون .

فاضطره المعتمد إلى السفر ، فلم يستطع مخالفته ، ولم يلبث أن اشتدت به الحمى والسقم فلحقت به أسرته ، وقد تكالبت الشيخوخة والمرض ، فتوفى فى ١٥ من رجب سنة ٤٦٣هـ فحزن عليه أهل أشبيلية أشد الحزن ودفن فيها فى احتفال مهيب . ومكث فى خدمة آل عباد تسعة عشر عاماً ، ولو طال عمره قليلا لأفلح حساده ومنافسوه فى تغيير قلب المعتمد عليه والتنكيل به ، كما أفلحوا فى مثل ذلك من قبل ، ولكن الموت أنقذه من دسائسهم وكيدهم ، ورحمه من شرهم ، وبموته اختفى علم من أعلام الشعر والنثر فى عالمنا العربى الكبير ، وأفل نجم كان ساطعا خلابا يملك نواصى الكلام ، وقد برع فى كل فن تناوله حتى قل نظراؤه .

ومن ذلك ، فقد روى أن ابنته توفيت ، وهو فى أوج مجده فقدر الرواة أن من عزاه من البارزين الذين يكبرون الشاعر ويعترفون بعلمه وفنه ، يبلغون ألفاً ، ولم يرد ابن زيدون على اثنين برد واحد أو لفظ واحد ، ومهما كان فى هذه الرواية من مبالغة ، فانا نعرف منها أن الشاعر المفلق والناثر البليغ الحجة ، كان نادرة زمانة فى لغته ، ويصدق على تلقيبه بذى الوزارتين ، زعامته فى الشعر والنثر فانك حين تقرأ له قصيدة ثم تقرأ له مقطوعة نثرية تنسى القصيدة ، وكذلك حين تقدم قراءة النثر .. وقل من أجاد وجمع بين هاتين الميزتين فى أدبنا . وفى المقدمة أبو العلاء المعرى .

واشتهر شعراء المغرب بالتجديد فى الأدب العربى وخاصة الشعر ، فهم أول من أنشأ الموشحات ، والموشحات الأندلسية من أشهر الأدب العربى فى هذا الباب ، وشعر المغرب يمتاز بمسحة شفافة ، عليها من جمال الطبيعة والجو الرائق العبق قلما تتوفر فى شعراء أهل الشرق . ونقف عند موشحة فذة فى الديوان عنوانها « ذكرى قرطبة » يقول الشاعر :

سقى الله أطلال الأحبة بالحمى
وحاك عليها ثوب وشى منمنما
وأطلع فيها للأزاهير أنجما
فكم رفلت فيها الخرائد كالدمى

إذا العيش غض والزمان غلام

أهيــم بجبــار يعــز وأخضـع
شذا المســك من أردانـــه يتضوع
إذا جئت أشكوه الجـوى ليس يسمع
فمــا أنــا فى شىء من الوصـــل أطمع
ولا أن يزور المقلتـــين منام

إلى أن يقول منها :

سقــى جنبـــات القصر صوب الغمائم
وغنـــى على الأغصـــان ورق الحمائم
« بقرطبــــة » الغــــراء دار الأكارم
بـــلاد بهـــا شق الشبـــاب تمائمى
وأنجبنـــى قوم هنـــاك كرام

ويــوم لدى النبتــى فى شاطــىء النهر
... ...
وليس لنــا فرش سوى يانـــع الزهر
ويــوم بجـــوف « الرصافـــة » مبهج
مررنـــا بروض الأقحــوان المدبج
وقابلنـــا فيـــه نسيـــم البنفسج
ولاح لنـــا ورد كخــــد مضرج
نــراه أمـــام النـــور وهـــو أمام

ويختتم هذا الموشح الجميل ولم نأخذ منه إلا شذرات ، يختمه الشاعر المجيد بهذا المقطع الرائع المؤلم ، الذى يندى بالحسرة والألم الممض على ما تصرم من أيام السعادة والحياة الكريمة الوادعة حينما كان « العيش غضا والزمان غلام » :

فقــل لزمـــان قد تولى نعيمه ورثــت على مر الليـــالى رسومه
وكم رق فيـــه بالعيش نسيمه ولاحت لسارى الليل فيه نجومه

« عليك من الصب المشوق سلام »

وليس المجال بسامح للاستشهاد بأكثر مما أثبت من هذا الشعر الخلاب الرائق والسهل الممتنع ، أما نثر ابن زيدون ، فهو آية فى البلاغة والجمال وقوة البيان ، وهو نثر يتفق مع عصره الذهبى الذى بلغت فيه الثقافة العربية ذروة مجدها . وقد ضاع نثره كما ضاع شعره ، فلم يحفظ لنا منه الزمان إلا القليل المشوه كثيره ، ويكفى للتدليل على تمكن الشاعر من نواصى لغته رسالتاه الشينية والسينية ، وهاتان الرسالتان اشتملت كل كلمة منها على شين وسين ، مما يؤكد أن الشاعر كان قويا بارعا فى الاحاطة بهذه اللغة الثرة الغنية بمفرداتها . ولابن زيدون رسالتان مشهورتان هما الرسالة الهزلية وقد انشأها تهكما وسخرية فى ابن عبدوس منافسه وخصمه على لسان « ولادة » والرسالة الجدية كان قد بعث بها الى صاحبه ابن جهور ، وهما غاية فى البلاغة والاستشهاد بالأمثال العربية ضمنها فى هاتين الرسالتين الى جانب استشهاده بالشعر ومعانى القرآن والأحاديث النبوية وصفات الوفاء والكرم ، والبخل والشح ، والشجاعة والحلم ، وغيرها مما اتصف به الخلق وعرف عنهم من عرب وعجم ، ما حوته الأسفار وتناقلته الألسنة ومجالس الأدب والاسمار ، ومشت به الركبان من المشرق الى المغرب ، وبالعكس فلم يترك صاحبنا « شاردة ولا واردة » إلا أتى بها فى الرسالتين الهزلية والجدية . وله رسائل كثيرة حفظ لنا قليل منها ، وإذا كان لابد من الاستشهاد ببعض نثره الذى جاء فى رسائله ، فانى أقتطف منها فقرات لتكون كشاهد على تجويده فى النثر كما جدد فى الشعر ، ومن رسالته الجدية الى ابن جهور قوله :

« والله ما غششتك بعد النصيحة ، ولا انحرفت عنك بعد الصاغية[٤] ولا نصبت لك[٥] بعد التشيع ، ولا أزمعت بأسا منك مع ضمان تكلفت به الثقة عنك ، وعهد أخذه حسن الظن عليك ، ففيم عبث الجفاء بأذمتى[٦] وعاث العقوق فى موقاتى ، وتمكن الضياع من وسائلى ؟ ولم صادقت مذاهبى ، وأكدت مطالبى وعلام رضيت من المركب بالتعليق

---

(٤) صاغية الرجل خاصة الذين يصغون اليه ويغشون مجلسه .
(٥) عاديتك .
(٦) العهود والحرمان .

بل من الغنيمة بالأياب وبأن غلبنى المغلب[٧] . وفخر على العاجز الضعيف . ولطمتنى غير ذات سوار[٨] ومالك لم تمنع من قبل أن أفترس وتدركنى ولم أمزق ؟ » .

وهكذا يمضى فى هذه الرسالة وأمثالها على هذا النحو المنتقى ، وكنت أوثر الوقوف على بعض رسائله التى بعث بها الى أبى مسلم بأشبيلية والى المظفر من ملوك الطوائف والى المعتضد ، ربما كان الأمر يدعو الى الوقوف عند هذه الرسائل ، للتأمل والدرس ولكنى آثرت غير هذا دفعا للاطالة .

لقد قال الحسن بن بسام فى كتابه « الذخيرة » عن ابن زيدون « كان ابن الوليد غاية منثور ومنظوم وخاتمة شعراء مخزوم ، أحد من خبر الأيام خبرا ووسع البيان نظما ونثرا الى بحر ليس للبحر تدفقه ، ولا للبدر تألقه ، وشعر ليس للسحر بيانه ، ولا للنجوم الزهر ، اقترانه ، وحظه من النثر غريب المبانى ، شعرى الألفاظ والمعانى » .

وحيا شاعر مصر الكبير المرحوم أحمد شوقى ، ابن زيدون بقصيدة جميلة عذبة ، صدر بها ديوان ابن زيدون ، قال :

يا ابـن زيـدون مرحبـا ... قد أطلـت التغيبـا
إن ديوانـك الـذى ... ظل سرا محجبـا
يشتـكى اليتـم دره ... ويقـاسى التغربـا
صـار فى كل بلـدة ... للألبـاء مطلبـا
جاءنـا « كامـل » بـه ... عربيـا مهذبـا
تجـد النص معجبـا ... وتـرى الشرح أعجبـا
أنـت فى القـول كلـه ... أجمـل النـاس مذهبـا
بأبـى أنـت هيـكلا ... من فنـون مركبـا
شاعـراً أم مصـورا ... كنـت أم كنـت مطربـا
ترسـل اللحـن كلـه ... مبدعـا فيـه مغربـا

والحق إن الاستاذ الكبير كامل كيلانى ، قد بذل مجهودا جبارا فى إخراج

(٧) أى الضعيف .
(٨) يشير الى ضعف المعتدى .

ديوان ابن زيدون وبعض رسائله ، وتهذيب هذا الشعر والنثر مما علق بهما من عبث الرواة والنساخ ، ولم ما تفرق منها أو ما استطاع ، ورتبها ونمق ما شك فيه ، حتى أصبح الشعر خاصة رائعا رائقا مشروحا كما قال شوقى سهل التناول قريبا من القارىء والدارس ، فرحم الله كاملا وأثابه على خدمته لتراث أجداده وما عاناه فى سبيل حفظ هذا التراث وما لقى من نصب ومشقة ، وأين من يعنى اليوم بمخطوطاتنا المهملة المبعثرة فيهذبها ويقدمها لقراء العربية فى صورتها الحقيقية أو قريبة منها باسم خدمة الثقافة ، للثقافة نفسها ؟ لعل الزمن أو التطور مسئول عن هذا الانصراف ، لأن طابعه السرعة باعتباره عصر آلة وماديات ، فكان التقصير فيه عيبا من عيوبه ولكل عصر عيوب قد تختلف عن الأخرى صورة ومعنى ..وكثرة وقلة .. أو هكذا حياة البشر ، والحياة نفسها .

شعر وشعراء

* فى البداية ينبغى .. أن أعلن ، اننى لن أحاول المساس بما يجرح أصحاب رسول الله عليه السلام ، وخاصة أولئك الاخيار ، السابقين .. من المهاجرين والانصار ، الذين رضى الله عنهم ، ورضوا عنه الذين جاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وأوذوا ، فى سبيله ، وقاتلوا ، من أجل الدعوة .. التى أمنوا بها وتحملوا فى سبيلها ، ما هم جديرون به .. من التكريم ، أولئك .. الذين باعوا أنفسهم لله .

* ولعل كلمة قلتها ، وهى ان الصحابى الفارس .. الشهيد .. عبد الله بن رواحة .. أشعر من صاحبه ، حسان بن ثابت الانصارى رضى الله عنهما ، ثم كان .. من أثر ذلك موضوع ، نشره الاستاذ « ياسر فتوى » فى العدد (٢٠٢) من هذه المجلة ، يدافع فيه .. عن حسان الشاعر ، ويميل كفته .. على صاحبه .. ابن رواحه ، ولم يكتف الاستاذ فتوى بذلك ، وإنما تعرض .. لما الصق بحسان .. من تهمة عدم الشجاعة فى القتال حتى وصفه المؤرخون بالجبن .. وحاول الاستاذ ياسر .. ان يدفع هذه التهمة عن صاحبه ، غير انه أى الاستاذ فتوى لم يجد سبيلا تعينه على الدفاع ، وانما رفض أقوال المؤرخين ، مجرد رفض ، وهذا لا يكفى ، ذلك .. أن هذا الدفاع ينقصه الدليل ، الذى لم يأت به الاستاذ ياسر ، لانه لم يجده ، أو يجد ما يعينه على الوصول اليه .

* وأنا .. سأسوق اليه الدليل العكس ، وقبل ذلك ، فانى .. لا أنسى ، أن أعلن .. أن حسانا ، جاهد بلسانه ، بالذب .. عن الدعوة ، وقارع المشركين بشعره ، الذى يعلن مثالبتهم ، أما .. فى مجال القتال ، فأنا لا نجد له دورا بعكس صاحبه ابن رواحة ، الفارس الشاعر ، الذى قاتل بلسانه ، ويده ، حتى استشهد .. فى غزوة مؤتة ، وهو يحمل الراية بعد ان استشهد صاحباه ، زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب ، رضى الله عنهم أجمعين .

* بين يدى كتاب ، تتجاوز صفحاته .. الخمسمائة ، من تأليف الدكتور « محمد طاهر درويش » ، طبع فى دار المعارف بمصر ، من مكتبة الدراسات الادبية ، عنوانه « حسان بن ثابت » .

وبين يدى كذلك كتاب مختصر يقع فى مائة وست وعشرين صفحة من سلسلة « اعلام المسلمين » عنوانه ــ عبد الله بن رواحة ــ ، أمير شهيد ، وشاعر على سرير من ذهب ، من تأليف الدكتور « جميل سلطان » .

وهما مصدران حديثان ، عن هذين الصحابيين ، ولا شك .. أن مؤلفى هذين الكتابين ، رجعا الى المصادر القديمة ، وغربلاها ، ووقفا على أقوال المؤرخين ، فى هذين الرجلين ، لذلك ، فسأكتفى ، فى هذا الموضوع ، بالاعتماد .. على هذين الكتابين ، وقبل .. أن أشرع فى الحديث ، أود .. أن أشكر الاستاذ ياسر فتوى ، الذى يفضل من حين الى اخر .. بزيارتى ، ويتاح لنا احيانا .. الحديث فى موضوع من موضوعات الادب ، فيختلف الرأى ، ويتولد عن .. ذلك نقاش ، قد نتلاقى فى بعضه ، وقد نختلف فى مجمله ، فى جو .. من الود ، والادب ، لا يخرج به ، ولا بى ، عن الموضوع ، الى ما نجده فى أحيان كثيرة ، من سرف ، فى مثل هذه المناقشات ، يخرج بها .. الى اساليب ملتوية ، لا تفيد فى شيء ، وانما هى أوضار ، وقلة حيلة ، تدفع .. الى ضيق الخلق فيتحول البحث .. الى ملاحاة ، وضرب .. من العبث ، يمارسه الكبار ، قبل الصغار ، وينتهى الامر الى ما يشبه القطيعة ، وليس ذلك من روح الادب فى شيء ، لا أدب النفس ولا أدب الدرس .

وحين تناقشت والاستاذ ياسر . فى العام الماضى ، حول ابى العلاء المعرى وأبى الطيب المتنبى ، انتهينا انتهاء الرياضيين .. المتنافسين ، الصديقين ، تعادلا ، أو فاز احدهما على الاخر ، فهما أصدقاء ، قبل أن يتنافسا ، وبعد ذلك ، وليس مهما ان يقتنع هو برأيى ، ولا أن اقتنع أنا ، وكلانا .. نبحث عن الحقيقة التى نريد الوصول اليها .

* الحديث . عن حسان .. أولا ..

* يقول الدكتور . محمد طاهر درويش ، فى كتابه .. « حسان بن ثابت » ص « ٤٥ » بعنوان فرعى رمز له بحرف « ح » الشعراء الذين أدركهم الاسلام وأثره فى شعرهم .

* فكان للانصار .. فى هجاء قريش مذهبان ، أحدهما يوشك أن يكون جاهليا ، يعارضون به .. هجاة قريش ، بذكر الوقائع والايام والمآثر .. والاحساب ، والانساب ويعيرونهم المثالب ، ويمثله حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، والاخر اسلامى ، يهجوهم ، بالكفر والضلال ، والبعد .. عن الحق والهدى ، ويمثله .. عبد الله بن رواحة ، فكان أشد القول عليهم .. اذ ذاك قول حسان وصاحبه ، وأهونه قول ابن رواحة ، لانهم جاهلون ، لا يفقهون .. الا معنى جاهليا ، فلما أسلموا ، صار اشد القول عليهم ، قول ابن رواحة .

* وفى غزوة الخندق ، التى يعلن القرآن الكريم ، قول الله تبارك وتعالى « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويا عزيزا » .

يقول الدكتور ، محمد طاهر درويش : « فى هذا الفزع .. كان حسان بحصنه فارعا ، وكانت صفية بنت عبد المطلب .. أيضا فى هذا الحصن ، فلنستمع حديثها عنه ، قالت : « وكان حسان بن ثابت معنا فيه .. مع النساء والصبيان ، فمر بنا رجل من يهود ، فجعل يطوف بالحصن ، وقد حاربت بنوقريظة ، وقطعت .. ما بينها وبين رسول الله .. صلى الله عليه وسلم ، وليس بيننا وبينهم احد يدفع عنا ، ورسول الله والمسلمون فى نحور عدوهم ، لا يستطيعون ان ينصرفوا عنهم الينا ، ان أتانا آت فقلت : يا حسان « ان هذا اليهودى كما ترى يطوف بالحصن ، وانى والله ما آمنه .. أن يدل على عورتنا .. من وراءنا من يهود ، وقد شغل عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فانزل اليه فاقتله ، قال : يغفر الله لك .. يا ابنة عبد المطلب ، والله لقد عرفت .. ما أنا بصاحب هذا .. قالت : فلما قال لى هذا ، ولم ار عنده شيئا .. احتجزت ، ثم أخذت عمودا ، ثم نزلت من الحصن اليه فضربته بالعمود .. حتى قتلته ، فلما فرغت منه ، رجعت الى الحصن فقلت يا حسان : انزل اليه فأسلبه فانه لم يمنعنى من سلبه .. الا انه رجل ، قال : مالى بسلبه من حاجة يا ابنة عبد المطلب » .

« وابن عساكر يروى هذه القصة مع اختلاف يسير ، ويذكر من حديث صفية ، ان اليهودى ترقى اليهم فأطل عليهم ، فقالت لحسان : قم اليه فاقتله ، فقال : ما ذاك فى ، لو كان ذاك فى ، لكنت الان مع رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، فقالت اربط السيف على ذراعى فربطه ، فقامت الى اليهودى ، حتى قطعت رأسه ، ثم قالت لحسان : خذ بأذنه .. فارم برأسه اليهم ، واليهود أسفل الحصن ، فقال : الله ما ذاك فى ، فأخذت برأسه ، فرمت به عليهم » .

* الرواية الأولى ، لابن هشام فى السيرة ، ويمضى مؤلف كتاب حسان يقول : « وهكذا .. لا نرى لحسان ظلا .. بموقع الاسلام .. بين المجاهدين ، ونرى الاخبار متواترة .. عن تخلفه ، مفصلة لحاله فيه ، ونرى أكثر الذين أرخوا له .. يصفونه بالجبن — فى سيرة ابن هشام ، وفى الكامل لابن الاثير ، والبداية والنهاية ، والاصابة ، وتهذيب التهذيب ، والاستيعاب ، وأسد الغابة ، وتاريخ دمشق ، ومفتاح السعادة ، والشعر والشعراء ، وطبقات الشعراء الخ ..

ويمضى المؤلف فى القول ص « ٢٣ » . كان الفخر غريزة قاهرة ، وطبيعة غلابة فى نفس حسان .. غذاها ونماها ، وزادها قوة ، ولكن النسب العريق ، وتلك المآثر الخالدات ، وجاهه العريض عند الملوك ، واضطراره الى اعلان مفاخره ، حين رأى خمول ذكره .. فى ميادين المعارك والحروب » .

* يعلل المؤرخون ، بأن حسانا كان معذورا ، فى قعوده عن القتال « وكان على حال .. تجعله قليل الغناء فى الحروب ، بل ربما .. كان حمله على غيره من المحاربين ، وكان بعده عن المعركة .. خيرا له ولهم » .

ويعللون أنه ربما كان مصابا بعلة ، لا يقوى معها .. على مقارعة الخصوم ، والكر والفر .. فى ساحة الحرب ، « وربما صاحب هذا علة نفسية مخامرة ، وقد عرف ذلك من نفسه ، فمال بها .. عن مواطن الصراع ، وتجنب الهجاء ، وربما كانت هذه العلة .. أصيلة قديمة » .

« ويبدو ان حديثه عن سيفه وشجاعته ، كان صدى .. لهذه الخواطر الحبيسة فى صدره ، وتعبيرا .. عن أمان مكبوتة ، تحاول .. ان تنطلق الى عالم الحقيقة ، فيصورها ، قولا .. حين عجز عن أدراكها عملا » .

« ولم نجد له فى جاهليته .. موقفا واضحا صريحا .. قاتل فيه ، مع أن قريعه .. قيس بن الخطيم ، كان شاعرا ، وكان فارسا وله مواقفه .. فى حروب قومه وشعره .. واضح الدلالة ، على ما صنع فيها » . وقيس هو القائل :

أجالدهم يوم الحديقة حاسرا ... كأن يدى بالسيف مخراق لاعب

* وقد تناقلت الاجيال .. اتهام حسان بالجبن ، حتى انتهى الى أبى العلاء المعرى ، فقال :

وما نفس حسان الذى شاع جبنه ... بأسلم من نفس الكمى المخالس

وعن قيس بن الخطيم ، « ذكروا ان الرسول صلى الله عليه وسلم . جلس فى مجلس .. ليس فيه إلا خزرجى ، ثم استنشدهم قصيدة قيس بن الخطيم الأوسى :

أتعرف رسما كاطراد المُذَهَّبِ ... لعَمْرَة وحشا غير موقف راكب

– أجالدهم – البيت ، فالتفت اليهم فأنشد بعضهم ، حتى بلغ قوله الرسول ، فقال : هل كان كما ذكر ؟ فقال ثابت بن قيس : والذى بعثك بالحق .. يا رسول الله ، لقد خرج الينا يوم سابع عرسه ، عليه غلالة ، وملحفة مورسة ، فجالدنا كما ذكر .

وحسان ، كان يقاتل فى مجال اخر واسع ، بشعره الكثير ، دفاعا عن الاسلام ، أما الميدان ، فقد تركه لغيره وكان هو .. غازيا بشعره .. ولسانه . وكان عبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك .. يقاتلان ويهجوان .

* « ولم يكن حسان يظهر بشعره هذا فى المقدمة .. عند اعداد المعارك او السير اليها ، فيجتمع بالقوم ، يدعوهم للجهاد ، ويرغبهم فى الاستشهاد ، ويثير حميتهم .. على الاعداء .. لم يكن يحمس لها ويدفع اليها ... قبل وقوعها ، ولكنه .. كان فى اعقاب المواقع ، يصورها ... ويحصى آثارها ، ويفخر بالنصر ، وبالرسول صلى الله عليه وسلم ، وبقومه ، ويعير الاعداء ، بعد ان تنقضى . وهذا موقف اقرب الى التصويرية ... والسلبية ، لا ايجابيا . انشائيا » .

* وحين يتحدث .. فى معركة أحد ، يذهب به الزهو ، وهو فى موقف الهزيمة المحزنة ، فيفخر بنفسه ونسبه ، وأبيه وخاله فخرا طويلا ، ومطلع قصيدته :

منع القوم بالعشاء الهموم ... وخيال اذا تغور النجوم

ولا ننسى ، أن حسانا .. « كان اثيرا عند الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويدعو له بالتأييد ، ويحسن الاصغاء اليه ، ويتفقده اذا غاب ،

* وحين مات الفاروق عمر .. رضى الله عنه ، « لم يكن نصيبه من حسان بأكثر من نصيب أبى بكر فرثاه بثلاثة أبيات » ، ويقول الدكتور درويش : « ولو ان حسانا نظر نظرة المرء .. الى خليفة المسلمين العظيم ، الذى فتح الله على يديه الخير .. للأمة ، لأطال فى رثائه ، ولوجد مجال القول واسعا ، ولكنه لم يهتز لحادث .. بعد فقد الرسول ، ولم يستعظم موت احد بعده ، ولم يكن له من الصلات الخاصة .. بالخليفتين ، ما يثير شاعريته ، ويلهمها قوافيه الأوابد » .
* ويقول المؤلف عن حسان : « كان فيه عنجهية وصلف جاهلى ، لازماه بعد اسلامه .. روى ابن سعد ، ان عمر بن الخطاب ، بلغه ارتداد « جبلة » فشق ذلك عليه ، وقال لحسان بن ثابت : أبا الوليد أما علمت .. ان صديقك جبلة بن الأيهم .. ارتد نصرانيا ؟ قال : « إنا لله وإنا اليه راجعون ، ولم؟ قال : لطمه رجل من مزينه ، قال حسان : وحق له . فقام اليه عمر بالدرة ، فضربه بها » .
ويمضى المؤلف ، يقول : « وهذا لون .. من الحب والوفاء .. مشوب بالزهو والعنجهية ، وكذلك كان حسان .. متطرفا مغاليا فى حبه وبغضه ، ورضاه وسخطه ، وقد أحب عثمان ، فتعصب له .. وأقام على الوفاء له بعد موته ، وامتنع عن بيعة على ، وهو شيخ ضعيف ، ضرير ، لا حول له ولاقوة » .
ويميل الى التصريح بالعورات ، حين يغضب ، ويفحش فى ذلك ، لا يبالى ان يصيب به امرأته » ـ الديوان رقم ٧٢ .
* « لم يقل حسان شعرا فى حنين .. الا قوله يعاتب الرسول صلى الله عليه وسلم على حرمانه الانصار الفىء ، على حين قال عباس بن مرداس السلمى ، وهو حديث عهد .. بالاسلام .. عشر قصائد ، قوية جميلة .
* إن هذه المواقف .. التى سقتها ، لا تجعلنى أنكر مواقف الرجل .. فى الذود عن الدعوة ، عشرة أعوام .. ينافح ويقاتل بلسانه ، ويدافع عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى ثبات ، وديمومة ، ووفاء ، وشعره كثير بقى أكثره ، على حين لم نجد الا القليل .. من شعر ابن رواحه ، وشعر عبد الله مصفى ، لا خشونة فيه ، كما نجدها .. فى بعض شعر حسان ، ولا أدل .. على ذلك من الابيات التى استدل بها ياسر فتوى ، وسوف نرى ابن رواحة فى جاهليته ، واسلامه ، وسنرى كذلك من سيرته ، مما يمكن الوصول اليه ، ثم دور ابن رواحة فى الجهاد ، كفارس شجاع ، لم يتخلف فى معركة ، حتى استشهد فى

مؤتة ، وحسبنا هذا تضحية ، وهل شيء أغلى .. من الجود بالنفس ؟ ذلك هو غاية الجود ، كما يقول الشاعر :

* وقبل أن أترك هذا الموضوع لا أنسى حزن حسان على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين انتقل الى الرفيق الاعلى ، فاسمعه يقول فى انكسار نفس وضعف :

تذكرن آلاء الرسـول ومـا أرى — لها محصيا نفسى ، فنفسى تبلد
مفجعـة قد شفهـا فقـد احمد — فظلـت لآلاء الرسـول تعدد
وما بلغـت من كل امـر عشيرة — ولكن لنفسى بعـد ما قـد توجد
اطالت وقوفا تذرف العين جهدها — على طلل القبر الذى فيه احمد
فبوركت ياقبر الرسـول وبوركت — بلاد ثوى فيها الرشيـد المسدد

ويمضى فى وصفه ، يذكر المحاسن .. التى اعتز بها ، وسعد وذلك الحنـــان ، والقلب الرحيم ، والصفح الكريم ، مما الفه عند رسول الله ، وذلك العطف ، والرعاية ، ويذكر الوحشة التى ملأت نفسه ، بعد ذهاب افضل الخلق ، فيقول :

من ذا الذى عنده رحلى وراحلتى — ورزق اهلى اذا لم يؤنسوا المطرا
ام من نعاتب لا نخشى جنادعه — اذا اللسان عتا فى القول او عثرا
كان الضياء وكان النـور نتبعه — بعد الاله وكان السمع والبصرا
ذلت رقـاب بنـى النجـار كلهم — وكان امرا من امـر الله قد قدرا

ثم يقول :

يا أفضل الناس إنى كنت فى نهر — أصبحت منه كمثل المفرد الصادى

والى وقفة اخرى ، مع ابن رواحة . ان شاء الله ، وربما عدت الى حسان .. اذا اقتضت الحال .

عبد الله بن رواحة

* كانت الوقفة الماضية مع الصحابى .. الشاعر ، حسان بن ثابت الانصارى ، ووقفة اليوم مع الصحابى . الفارس الشهيد الشاعر ، عبد الله بن رواحه ، ولعل وقفة اليوم ، تختلف عن وقفة الأمس ولايعنى هذا .. الانتقاص ، من المنافح عن الدعوة حسان بن ثابت ، وإنما .. لاختلاف دور كل منهما . فالأول .. جاهد بلسانه ينافح عن الدعوة ، والرسول صلى الله عليه وسلم والثانى .. له جهادان ، بنفسه مقاتلا ، وبلسانه ، مدافعا ، وأكبر الظن .. أن الفرق كبير بين الرجلين ، وقد أدى كل منهما دوره .. الذى يحسنه ، غير أننا .. فى مجال الموازنة سوف نجد ، أن كفة ابن رواحة أرجح ، ولا أظن .. أن الأستاذ ياسر فتوى يجادل فى هذا ، لأن دور كل من الرجلين .. يختلف عن الآخر ، ورغم أن الموضوع كان عن الشعر ، إلا أن الأستاذ ياسر وسعه ، من أجل ذلك أتيح لى أن أكتب أكثر من موضوع ، لمتطلبات الموقف ، من ذاك التوسع ، الذى عناه الكاتب مشكوراً ومأجوراً .

* وقبل الدخول .. فى عمق الموضوع ، فانه يسعدنى ، أن أذكر أن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال : فى عبد الله : « رحم الله ابن رواحة ، إنه يحب المجالس .. التى تباهى بها الملائكة » ، وحسب ابن رواحة اعتزازاً .. هذه الشهادة ، من رسول الله . ويقول فيه كذلك : « رحم الله أخى .. عبد الله بن رواحة كان أينما أدركته الصلاة أناخ » .

* ويقول الصحابى الجليل .. أبو الدرداء : « لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فى بعض أسفاره ، فى اليوم الحار ، الشديد الحر ، حتى أن الرجل .. ليضع من شدة الحر .. يده على رأسه ، ومافى القوم صائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعبد الله بن رواحة » .

❋ ويقول الامام ابن كثير : « وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم .. بالشهادة ، فهو ممن يقطع له بدخول الجنة » .

❋ وقال الامام ابن حجر : « وقالوا : كان عبد الله .. أول خارج إلى القتال ، وآخر قافل منه » .

❋ الكتيب الذى بين يدى ، عن عبد الله بن رواحة ، كان محاضرة للدكتور جميل سلطان ، ألقاها .. فى المجمع العلمى الدمشقى سنة ١٣٦٣ هـ ، ثم .. توسع الدكتور جميل فى بحثه ، حتى كان هذا المؤلف المتواضع ، عن ذلك البطل . الشجاع ، ذلك أن ابن رواحة كما يقول الكاتب : « أغفله الرواة والمؤرخون ، والمترجمون ، إلا فى القليل .. من الأخبار ، والاشعار والمتفرق .. من الاشارات .. واللمحات .

❋ ويمضى المؤلف .. فى القول « عبد الله بن رواحة ، مثل .. من الأمثلة الصادقة فى الايمان .. والاخلاص والتفانى فى سبيل المبدأ ، اجتمع له من الخصال .. الكريمة ، مالم يكن يجتمع لسواه ، فهو زعيم مطاع ، وفارس شجاع وقائد مجرب ، وصحابى مقرب ، وشاعر . شديد ، وشهيد سعيد » .

« صرف .. كل هذه السجايا الطيبة ، فى سبيل تأييد الدعوة الاسلامية الجديدة ، والذود عن حياضها .. أيام البعثة والحروب وإذا ذكرت المدينة المنورة .. فى التاريخ الاسلامى ، ونصرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلقد كان عبد الله بن رواحة .. من بناة مجدها ، بل من أعلام أولئك البناة الذائدين . عن كلمة الحق الخالدة إذ شهد الحروب .. والمشاهد كلها مع رسول الله .. صلى الله عليه وسلم ، إلا الفتح وما بعده ، فانه قد استشهد .. فى سبيل الله عز وجل » .

❋ كان ابن رواحة ، يقرأ ويكتب من صغره ، فى وقت .. ندرت فيه هذه الميزات ، قبل ظهور الاسلام ، كما كتب الشعر صغيراً ، ثم أصبح شاعراً ذا خطر ، وكان يناقض قيس بن الخطيم .. فى الأيام التى كانت بين الاوس والخزرج .. فى الجاهلية .. يقول المؤلف :

« كان ابن رواحة .. من ألمع الصحب شخصية ، وأظهرهم أثراً ، وأول من شهد العقبة الثانية .. مع السبعين من الانصار ، يوم أخذ النبى صلى الله

عليه وسلم .. عليهم أن يمنعوه ، مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم وازرهم ، وقد أقام الرسول حينئذ عليهم .. أثنى عشر نقيباً ، كان عبد الله بن رواحة أحدهم ، وكان .. هو وسعد بن الربيع ، نقيبى بنى الحارث .. بن الخزرج » .

وبعد الهجرة .. « أصبح ابن رواحة شاعر النبوة ، وأحد أمناء الوحى ، يكتب .. بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

« وكان عبد الله بن رواحة جريئاً ، يغلى ايماناً وثقة بالله تعالى ، فلم يتمالك نفسه .. أن يقول : « يارسول الله ، انى أشير عليك ــ ورسول الله أعظم وأعلم بالله .. من أن يشار عليه ، يقول ابن رواحه : أن الله أجل وأعظم من أن ينشد وعده ، فقال صلى الله عليه وسلم : « ياابن رواحة ، ألا أنشد الله وعده ؟ .. أن الله لايخلف الميعاد » .

* وحين خرج رءوس الكفر : عتبة بن ربيعة ، وأخوه شيبه ، وابنه الوليد بن عتبة . للمبارزة فى هذه المعركة ، التى فصلت بين الحق والباطل ، برز من المسلمين ثلاثة من فتية الانصار .. هم : عبد الله بن رواحة ، وعوذ .. ومعاذ ابنا الحارث ، ولكن المشركين ، ركبهم الغرور ، فرفضوا .. مبارزة أبناء الانصار ، فطلبوا أكفاءهم .. من قومهم ، فخرج إليهم حمزة وعبيدة بن الحارث وعلى .

هكذا .. نرى ، ونجد صاحبنا فى المقدمة دائماً .

* وأبلى عبد الله بن رواحة بلاء حسنا .. فى غزوة أحد ، وحين استشهد حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه ، رثاه بن رواحة ، بقصيدة أولها :

بكت عينى وحق لها البكاء ... ومايغنى البكاء أو العويل
على أن الاله غداة قالوا ... أحمزة ذاكم الرجل القتيل

وهذا الشعر .. سلس سهل ، قوى المعانى ، كبير التأثير ، بعيد عن التكلف ، وخشونة اللفظ .

* وحينما انصرف أبوسفيان من غزوة بدر ، أعلن للمسلمين ، بأن الموعد من قابل « بدر الصفراء » فرد عليه عمر .. بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم قائلا : نعم أن شاء الله . وحين حل الموعد ، جاء أبوبكر وعمر .. رضى الله

عنهما ، يعلنان للرسول الموعد ، وسر الرسول بذلك وخرج فى ألف وخمسمائة مقاتل ، غير أن أبا سفيان لم يخرج ولم يف بوعده . واستخلف الرسول صلى الله عليه وسلم .. على عاصمة الاسلام .. عبد الله بن رواحة .

* وفى الخندق ، كان بن رواحة يرتجز ، وهو يحفر .. وينقل التراب :

والله لولا أنـــت ما اهتدينا ولاتصدقنـــا ولاصلينا
فأنـــزلن سكينـــة علينا وثبـــت الاقـــدام أن لاقينا
أن الذيـــن قد بغـــوا علينا إذا أرادوا فتنـــة أبينا

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم .. يرفع صوته : « أبينا .. أبينا » ..

* وكابد عبد الله .. ماكابد المسلمون .. فى هذه الموقعة ، وكانوا يأكلون مايبعث به أهلوهم وكانت عمرة بنت رواحة ، أم النعمان .. بن بشير ، وأخت عبد الله .. ترسل ابنتها بجفنة فى ثوبها ، إلى زوجها بشير ، وإلى أخيها عبد الله .. ورآها الرسول صلى الله عليه وسلم .. يوماً وهو جالس فى أصحابه ، فقال : تعالى يابنية ، ما هذا معك ؟ فأخبرته ، فأخذه فى كفيه ، ونثره على ثوب بسط ، وأمر بأن ينادئ .. بأهل الخندق .. فاجتمعوا يأكلون منه ، حتى صدروا ، وإنه ليفيض .. من أطراف الثوب .

* ونحن نعلم من التاريخ سرية عبد الله بن رواحة .. لأسير بن رزام ، سيد اليهود فى خيبر ، وقد هم أسير بالغدر .. بابن رواحة الذى كان رديفه ، وفطن الرجل النابه ، فكان أسرع منه ، وضرب ابن رواحة ، ابن رزام بسيفة ، فقطع رجله ، فسقط أسيراً عن بعيره وكان بيده مخدش ، فضرب به عبد الله ، فشجه فى رأسه .

* ولما فتح الرسول خيبر بعث ابن رواحة .. يقدر الزرع ويخرص عليهم ، وأراد اليهود .. أن يرشوه ، ليرفق بهم ، فقال : والله .. لقد جئتكم من عند أحب الخلق إلى ، ولأنتم أبغض إلى من أعدائكم ، من القردة والخنازير ، ومايحملنى حبى أياه ، وبغضى لكم .. على ألا أعدل فيكم ، فقالوا : بهذا قامت السماوات والأرض .

* فى السنة السابعة ، كان ابن رواحة .. فى الصحبة مع رسول الله ، إلى مكة معتمراً ، وعبد الله بين يديه ، آخذ بزمام ناقته ، وهو يرتجز ..

خلو بنى الكفار عن سبيله ... قد نزل الرحمن فى تنزيله
بأن خير القتل فى سبيله ... خلوا فكل الخير فى رسوله
يارب أنى مؤمن بقيله ... أعرف حق الله فى قبوله
نحن قتلناكم على تأويله ... كما قتلناكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

فقال عمر : يا ابن رواحة ، فى حرم الله ، وبين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. تقول هذا الشعر .. ؟ فقال الرسول : خل عنه ياعمر ، فوالذى نفسى بيده ، لكلامه .. أشد عليهم من وقع النبل .

* وكان خاتمة مطاف بطلنا المجاهد ، فى مؤتة .. سنة ثمان من الهجرة ، ثالث قائد ، وشهيد حمل الراية ، بعد استشهاد .. زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب .. وحين جاء ابن رواحة ، يودع رسول الله ، قال :

أنت الرسول فمن يحرم نوافله ... والوجه منه فقد أزرى به القدر
فثبت الله ماآتاك من حسن ... فى المرسلين ونصراً كالذى نصروا
أنى تفرست فيك الخير أعرفه ... فراسة خالفتهم فى الذى نظروا

ثم قال : يارسول الله ، مرنى بشىء أحفظه عنك .. فقال صلى الله عليه وسلم : « انك قادم غدا .. بلدأ السجود فيه قليل ، فأكثر السجود » .

* ولما رأى المسلمون .. كثرة الروم وأحلافهم .. فى غزوة مؤتة ، أرادوا .. أن يكتبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فشجعهم عبد الله بن رواحة ، وقال : « والله ماكنا نقاتل الناس .. بكثرة عدد ، ولابكثرة سلاح ، ولابكثرة خيول ، إلا بهذا الدين .. الذى أكرمنا الله به ، انطلقوا ، والله لقد رأيتنا .. يوم بدر ، مامعنا إلا فرسان ، ويوم أحد .. إلا فرس واحد ، فإنما هى احدى الحسنيين ، إما ظهور عليهم ، فذلك ماوعدنا الله ووعدنا نبينا ، وليس لوعده خلف ، وإما الشهادة فنلحق بالاخوان ، نرافقهم فى الجنان .. فقال الناس : « قد والله صدق ابن رواحة » .

فقال عبد الله فى محبسهم :

جلبنـا الخيـل من أجـا وفرع ـ تغزمن الحشـــيش لهـــا العكوم
حذوناهـــا من الصـــوان سبتا أزل كأن صفحتـــه أديم
أقامـــت ليلتـــين على معان فأعقـــب بعـــد فترتهـــا جموم
فرحنـــا والجيـــاد مسومات تنفس من مناخرهـــا السموم
فلا وأبـــى مآب لنأتينها وأن كانـــت بهـــا عرب وروم
فعبأنـــا أعنتهـــا فجاءت عوابس والغبـــار لهـــا بريم
بذى لجـــب كأن البيض فيها إذا برزت قوانسهـــا النجوم
فراضيـــة المعيشـــة طلقتها أسنتهـــا فتنـــكح أو تئيم

* وحين استشهد صاحباه زيد وجعفر ، دعاه الناس ، وهو فى جانب العسكر ، فتقدم ، فقاتل حينا ، ثم نزل ، فأتاه ابن عم له بعرق من لحم ، وقال له : شد بهذا ظهرك فأنك قد لقيت .. فى أيامك هذه مالقيت ، فأخذه من يده فانتهش منه نهشة ثم سمع الحطمة فى الناس فقال لنفسه وأنت فى الدنيا والقى العرق من يده ، ثم أخذ سيفه ، وأسرع ، وقال مخاطباً نفسه :

يانفس إلا تقتلى تموتى هذا حمـــام الموت قد صليت
وماتمنيـــت فقـــد أعطيت أن تفعلى فعلهمـــا هديت
وأن تأخرت فقد شقيت

* ثم حدث نفسه ، فيما يذكر المؤرخون : « يانفس .. إلى أى شئ تتوقين ، إلى فلانة : امرأته ـ فهى طالق ، وإلى فلان وفلان ـ غلمان له ـ فهم أحرار ، وإلى معجف ـ وهو بستان له ـ فهو لله ولرسوله ، ثم قال :

يانفس مالك تكرهـــين الجنة أقســـم بالله لتنزلنه
طائعـــة أو لا لتكرهنه فطـــالما قد كنـــت مطمئنه
هل أنـــت إلا نطفـــة فى شنه قد أجلب النـــاس وشـــدو الرنه

* أى نفس هذه ، طموحة إلى الشهادة .. فى ثبات واقبال على القتال ؟ وأى فداء هذا .. ؟ أنه الايمان .. الذى يملأ النفس ، لاعلاء كلمة الله .. أنه الهدف

الكبير ، الذى يتوق إليه المجاهدون ، فترخص الدنيا الفانية ، وتصغر فى أعينهم ، ويريدون .. ماهو أبقى .. من الخير ، ومادام الموت آت ، فلم لايكون فى سبيل الله ، حيث النعيم المقيم ، والفوز بالرضوان ، وجنة عرضها السماوات والأرض .. ؟

* كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد قال له .. حينما أنشده قوله :

فثبــت الله ما آتـــاك من حسن ـــ تثبيت موسى ونصراً كالذى نصروا

« وأنت فثبتك الله يابن رواحة » .. قالوا : فثبته الله .. أحسن الثبات ، فقتل شهيداً ، وفتحت له أبواب الجنة ، فدخلها سعيداً .

* ورثى حسان شهداء مؤتة ، وخص القادة الثلاثة بقوله :

فلايبعـــدون الله قتلى تتابعوا ـــ بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر
وزيــد وعبـدالله حــين تتابعوا ـــ جميعــا وأسبــاب المنيــة تخطر

وقال فى عبد الله بن رواحة ، وذكر زيداً وجعفراً .. فى كثير من شعره ، قال حسان :

ثم جودى للخزرجـــى بدمع ـــ سيـــداً كان ثم غـــير نزور

* مناقب عبد الله بن رواحة ..

* يقول الدكتور .. جميل سلطان : « ذكرت زوجة .. لمن تزوجها من بعده ، حين سألها عن صنيعه أنه ــ كان إذا أراد أن يخرج من بيته ، صلى ركعتين وإذا دخل بيته .. صلى ركعتين ، لايدع ذلك » .. « وكان أحد الشعراء المحسنين .. الذين يردون الأذى .. عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والاسلام والمسلمين . وكان من الذاكرين الله كثيراً » .

قال أبو الدرداء : « أعوذ بالله .. أن يأتى على يوم .. لا أذكر فيه عبد الله بن رواحة ، كان إذا لقينى مقبلا .. ضرب بين ثديى ، وإذا لقينى مدبراً .. ضرب بين كتفى ، ثم يقول : ياعويمر ،، أجلس .. فلنؤمن ساعة ، فنجلس ، فنذكر الله ماشاء ، ثم يقول ياعويمر ، هذه مجالس الايمان ، مثل الايمان ، مثل

قميصك ، بيننا .. أنك قد نزعته ، إذ لبسته ، وبينا أنك قد لبسته .. إذ نزعته ، القلب .. أسرع تقلباً من القدر .. إذا استجمعت غليانها » .

* كذلك .. كان شأن ابن رواحة ، كلما لقى رجلا .. من أصحابه قال له : تعال نؤمن بربنا ساعة .

وقال عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من حديث طويل : « نعم الرجل عبد الله بن رواحة . وكان النبى يخطب ، فدخل عبد الله بن رواحة ، فسمعه يقول : أجلسوا فجلس عبد الله مكانه .. خارجاً من المجلس .. دون تأخر ، فلما فرغ عليه السلام ، بلغه ذلك ، فقال له : زادك الله حرصاً .. على طواعية الله ، وطواعية رسوله .

ابن رواحة المحدث

* وابن رواحة ، له شأن مذكور .. فى رواية الحديث ، كما يقول المؤلف جميل سلطان ، فقد روى .. عبد الله بن رواحة ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وعن بلال مؤذنه ، وروى عنه جماعة كثيرة ، منهم : ابن عباس ، وأسامة بن زيد ، وأنس بن مالك ، والنعمان بن بشير ، وأبوهريرة .. وأرسل عنه جماعة .. من التابعين ، كأبى سلمة بن عبد الرحمن ، وعكرمة ، وعطاء بن يسار ، وغيرهم من عظماء الاسلام .

ابن رواحة الشاعر

* حينما انهزم المشركون .. يوم الأحزاب ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن المشركين لن يغزوكم .. بعد اليوم ، ولكنكم تغزونهم ، وتسمعون منهم أذى ، ويهجونكم ، فمن يحمى أعراض المسلمين ، فقام عبد الله بن رواحة ، فقال أنا ، فقال عليه السلام : أنك لحسن الشعر ، ثم قام كعب بن مالك فقال أنا ، فقال عليه السلام : وأنك لحسن الشعر .

« وكان يهجو قريشا ثلاثة نفر من الانصار ، يجيبونهم : حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة .. وكان حسان وكعب .. يعارضانهم بمثل قولهم .. بالوقائع والأيام ، والمآثر ويعيرانهم بالمثالب ، وكان

عبد الله بن رواحة .. يعيرهم بالكفر ، لأنه من أقبح المخازى ، وينسبهم إليه ، ويعلم أنه ليس فيهم شر من الكفر .

ومن شعره قوله ، حين قال له الرسول : عليك بالمشركين :

نجالد الناس عن عرض فنأسرهم
فينا النبى وفينا تنزل السور
وقد علمتم بأنا ليس يغلبنا
حى من الناس إن عزوا وان كثروا
ياهاشم الخير إن الله فضلكم
على البرية فضلا ماله غير
إنى تفرست فيك الخير أعرفه
فراسة خالفتهم فى الذى نظروا
أنت النبى ومن يحرم شفاعته
يوم الحساب فقد أزرى به القدر
فثبت الله ماآتاك من حسن
تثبيت موسى ونصرا كالذى نصروا

* وروى هشام بن عروة عن أبيه قال : سمعت أبى يقول : « ماسمعت أحداً أجرأ ولا أسرع شعراً .. من أبى رواحة .. سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له يوماً : « قل شعراً تقتضيه الساعة وأنا أنظر اليك » .. فانبعث مكانه ، يقول :

أنى تفرست فيك الخير .. إلى أخر الأبيات ..

* ولعبد الله فى الرسول أماديح كثيرة ، عد بها .. من كبار شعراء الاسلام ، إلا أن ماوصل إلينا من شعره قليل ، ولعل ابن رواحة قد ترك الشعر ، حين نزلت الآية الكريمة من القرآن : « والشعراء يتبعهم الغاوون « إلى آخر الآية ، فخشى عبد الله أن يكون منهم ، وحين أنزل الله قوله : « إلا الذين آمنوا » .. الخ : هدأت نفس ابن رواحة .. ثم أنه شغل .. بالقتال ، وهو أهم من قول الشعر ولكنه لايتخلى عنه إذا دعت الحاجة الى الأجدى . واعترف أن شعره القليل .. الذى وصل إلينا ، « لايكاد يعطى فكرة .. عن مناحيه الفنية » كما يقول

الدكتور سلطان .

وكان مما مدح به الرسول ، وقيل .. إنه من أحسن ماقال :

لو لم تكن فيه أيات مبينة كانت بديهته تنبيك بالخبر

* إذن ضاع كثير .. من شعر عبد الله بن رواحة ، والذى وصل إلينا أقل قليله ، ولعل العصور الأولى ، حفلت به ، ثم ضاع ، « وقد عده أبوزيد القرشى ، صاحب الجمهرة من « أصحاب المذهبات » ، وهن للاوس والخزرج .. دون غيرهم .. من العرب ، فجعل المذهبة الثانية .. لابن رواحة ، وذكر ابن سلام الجمحى ، صاحب طبقات الشعراء : أن عبد الله بن رواحة .. أحد الشعراء الثلاثة الفحول .. من شعراء القرى العربية .. وذكر أنه ليس فى طبقته « اسود منه » وأنه كان يناقض .. فى الجاهلية .. قيس بن الخطيم .. شاعر الاوس » . وقد ضاعت .. هذه النقائض ، فلم يدونها ابن سلام ، وذلك نسيه المؤرخون ، وربما أن شعره .. قد ضاع .. قبل القرن الثانى الهجرى ، فلم يعرف عنه .. سوى القليل .

* ومن مذهبة ابن رواحة فى الجمهرة ، قالها فى الجاهلية ، وهى احدى نقائضه :

تذكر بعـد ماشطـت نجودا وكانـت تيمـت قلبـى وليدا
كذى داء يرى فى النـاس يمشى ويكتـم داءه زمنـا عميدا
فقـد صادت فؤادك يوم أبرت أسيـلا حده صلتـا وجيدا
تزيـن معاقـد اللبـات منها شنوفـا فى القلائـد والفريدا
فان تضنـن عليـك بمـا لديها وتقلـب وصـل نائلهـا جديدا

إلى أن يقول .. فى مجال الفخر :

متـى ما تأت يثـرب أو تردها تجدنـا نحـن أكرمهـا جدودا
وأغلظهـا على الاعـداء ركنا وألينهـا لباغـى الخـير عودا
وأخطبهـا إذا اجتمعـوا لأمر وأقصدهـا وأوفاهـا عهودا
إذا ندعـى لثـأر أو لجار فنحـن الأكثـرون بهـا عديدا

ومنها يقول :

ومانبغـــى من الاخـــلاق وترا ... وقـد نلنـــا المســـود والمسودا
تركنـا جحجبـى كبنـــات فقع ... وعوفـــا فى مجالسهـــا قعودا
وكنتـــم تدعـــون يهـــود مالا ... الآن وجدتـــم فيهـــا يهودا

* وحين تخلى أبوسفيان عن وعده ، فى بدر الثانية ، قال ابن رواحة :

وعدنا أبا سفيان بدرا فلم نجد ... لميعـــاده صدقـــا ومـــا كان وافيا
وأقســـم لو وافيتنـــا فلقيتنا ... لأبـــت ذميمـــا وافتقـــدت المواليا
تركنا به أوصـــال عتبـــة وابنه ... وعمرا أبـــا جهـــل تركنـــاه ثاويا
عصيتم رســـول الله أف لدينكم ... وأمركم السىء الـــذى كان غاويا
فانـــى وأن عنفتمونـــى لقائل ... فدى لرســـول الله أهلى وماليا
أطعنا ولم نعـــد له فينـــا بغرة ... شهابا لنا فى ظلمة الليـــل هاديا

زكى مبارك

فى سنتريس ، اقامت مديرة الثقافة هناك احتفالا ، بذكرى ابن هذه القرية الدكتور زكى مبارك ... رحمه الله ، ولعل عزاء الفقيد ، ان اهل قريته ، لم ينسوه ، كما نسيه المثقفون ، وحملة الأقلام . فقد خرجت القرية ، كما تقول الأخبار (بأسرها ، كأنها فى يوم عيد ، لتكريم ذكرى عظيمها).

واذ كان جيل زكى مبارك ، تجاهله ، لأن الرجل .. كان مقاتلا ، وكان عنيدا ، فلماذا اهمله الجيل .. الذى جاء بعده ؟

سؤال يتبادر الى الأذهان .. لا احد .. يستطيع ان يقطع برأى ؛ بأن فكر زكى مبارك .. لا يستحق الدرس ، ولا احد كما اتصور ، يستطيع كذلك .. ان ينفى عن الدكتور مركزه الأدبى ، ومعاركه الأدبية فى صولاته ، وجولاته ، يكفى ان نذكر كتابه القيم .. النثر الفنى فى القرن الرابع ، وكتبه الأخرى ، الأخلاق عند الغزالى ، والتصوف الاسلامى ، وحب ابن ربيعة وشعره ، والموازنة بين الشعراء ، وعبقرية الشريف الرضى . الى جانب مقالاته .. واشعاره وكتبه الأخرى .

ورب قائل يقول : ان الرجل كان عابثا ، غير ان الخاصية ... لا تحول بيننا ، وبين دراسة فكره ، وهى لم تحل بين الدارسين وأدب ابى نواس ، وغيره ... من الخلعاء ، لأن الدارس .. يتتبع الأثر ويقف عنده ، يقومه ، ويعرج على سلوك صاحبه ... اذا رأى ان .. هذا العوج .. يضيف الى الدراسة جديدا ، او الى الأثر ، من المميزات ، او الملامح ، كتدليل .. لما يؤكد رأى الناقد ، أو الذى يدرس الآثار الفكرية ، فيرد اسبابا ، او دوافع وصورا الى عوامل ظاهرة .. فى سلوك صاحب الأثر ..

ولعلى اميل الى سوء حظ زكى مبارك ، الذى جعله منسيا ، بعد رحيله ، اما فى حياته فكان مقاتلا ، وكان عنيدا ، لذلك .. هابه الكثيرون حيا ، تحاشيا .. لمصادمات ، لا يقوى عليها الا زكى مبارك وامثاله ، من ذوى الطبائع الصلبة ، اما الهشة ، فانها .. تؤثر العافية ، ذلك انها لا تستطيع ان تجابه ، ولكنها ... لا تتورع ، ان تغمز ، وتلمز وتقرص فى الخفاء ، لأنها تعمل فى الظلام ، او تظهر فيه ، مثل الخفافيش ، لا تستطيع مواجهة الضوء . وهذا يعد نقصا فى الشجاعة . اذ ليس من طبيعة الشجاع .. الختل ، والخداع والغش ..

نعود لزكى مبارك ، لأقول : انه لم يعدم .. من يعنى بأثره ، فقد صدر عنه كتاب بعنوان « زكى مبارك فى العراق »، الى جانب بعض المحاولات العجلى ، ولعلنا نرى دراسات عن الدكتور ، ماله ، وما عليه ، ليعلم الجيل الجديد ، مكان زكى مبارك ، فى عالم الأدب ، والدراسات المنهجية .

ولعل عناية قريته به ، فى يوم ذكراه ، تعويض له .. عن الجحود .. الذى يلقاه من الدارسين ، الذين لم يعنوا به ، ولعل نفرا ما يفرغون لمؤلفاته ، فيدرسونها ، ويبرزون معالمه ، ويحددون موقعه ، من جيله . وهذا اجدى .. فى الاهتمام بزكى مبارك ، من احياء ذكراه ، عاما وعاما ..

شمعة تدمع

العمر .. شمعة ، أوقد فى أحد طرفيها عود ثقاب ، فبدأت تضىء ، تلك هى الحياة ، ولكن الشمعة .. تتناقص .. كل ثانية .. وهى تشتعل ، ذلك .. هو الزمن .

وبين الايقاد ، وذوبان آخر قطرة من ذرات المصباح ، واحتراق الذبالة ، زمن ، قد يطول ، وقد يقصر ، وهو ما يحسن تسميته بالعمر .

والمسافة .. بين البدء والنهاية ، تلك المساحة .. المختلفة الابعاد ، والاعماق . والضوء .. قد يشع ، اذا سلم .. من الاعاصير ، وما يؤدى .. الى تذبذبه ، وقد يخفت ، لضعف عناصر مادته .. التى تشتعل ، الا انه يظل .. يقاوم ، من اجل البقاء ، كمبدأ ، وللبقاء أطول .. كأمل ، لانه ، تواجد لكيانه ، وهو هدف .

وللحياة الدنيا .. بعد واحد فقط ، ولهذا البعد .. اكثر من ظل ، ذلك ان له كيانا . والانسان ، عمار الكون ، يتجدد المخلوق ، بالخلف ، بين البداية والنهاية . عبر الدهور ، يرقى وينحدر .. تبعا لدوره ، وما يحيط به .. من مسببات ، وبقدر فعاليته ، سلبا وايجابا ، وما يسوقه اليه تفكيره ، يخطىء ويصيب ، لانه اصلا خطاء ، للنقص .. الذى فيه ، وهو عامل اساسى .. فى تكوينه ، لان الكمال الاتم .. ليس من صفاته ، فهو يطغى ، ويفتر ، ويضعف ، ويقوى ، وهو طموح ،وقانع ، ومسيطر ، ومنهزم ، ويعيش آماله ، واحلامه ، فيه الغفلة .. التى تصل به الى الغياب ، وهو موجود ، ولكنه فى سبات ، فاحساسه ساكن ، بالقياس .. الى اليقظة الحقيقية . ولكنه يصحو .. فى غير دنياه الفانية ، أو بعدها .. على التحقيق .

وهو يصحو ، وقد انتهى الامل ، وتوقف العمل ، وفقد القدرة .. على اضافة شىء جديد . الى رصيده ، من مكسب ، أو خسارة ، ومن نجاح ،

أو فشل . فالسعى .. طابع الدنيا ، وهى حقل التجاريب ، التى تفضى .. الى نتائج ، هى له .. وعليه ، وتتساوى احيانا ، وتختلف ، فى اكثر الاحيان ، فيكون ماله اكثر ، أو ما عليه ، أكبر حجما ، لا من مقاييسه هو ، وميزانه .. الذى يخطىء ويصيب ، وانما .. بميزان ادق ، واحكم .. لا يخطىء ، وبحساب لا ظلم فيه ، وانما .. هو العدل ، والقسطاس .

وحين يظلم المرء نفسه ، غير مبال ، أو غير يقظ ، بدافع الكبرياء ، أو سوء المسلك ،فهو وحده .. يتحمل التبعة ، لا لانه اجتهد .. نحو سبل الخير وأخطأ ، وانما .. لانه تمادى ، وهو يحسب ، انه يحسن صنعا ، كنوع .. من المغالطة ، التى يصل الى ابعادها لو تجرد من هواه ، وحاسب نفسه ، كما يريد ، ان يحاسب غيره ، فهو .. غير منصف فى الاولى ولكنه دقيق فى الاخرى ، وهو يجور فى الاولى ، كما يجور فى الثانية . ذلك ، ان المقاييس تختل فى موازينه ، وهو حين يخالفه التوفيق ، يصل الى هذه النتائج .. الأكثر سلبية .

والذى يزيد من خطئه ، انه يعرف الحق ، ولكنه .. لا يضعه فى حساباته وسلوكه ، لا مع نفسه فحسب ، ولكن .. حتى فى تعامله مع الاخرين .

وتضعف الشمعة ، وهى تتناقص بالاحتراق فالشمعة .. تأخذ فى التناقص والتميع حتى تذوب ، وتلتهم الشعلة بقية الذبالة ، فتفقد الشمعة حجمها ، راضية أو مكرهة ، فتلك .. هى النهاية المؤكدة ، التى تقررت فى الازل .

وحين يفقد الشىء صلاحياته : يدب اليه الوهن ، شاء ام لم يشأ ، فليس له خيار فى ذلك ، غير انه .. وهو قادر ، فانه متاح له ، ان يكون له اثر ، يعود عليه ، حسب المنهاج الذى يختار ، وامامه السبل ، يسلك منها ، ما يهديه اليه عقله ، وبصيرته ، فيهتدى ، أو يضل .

هو قد يصبر ، ليعلم .. ما يضره وما ينفعه ، وطلب اليه .. ان يعمل ، وليس له سلاح الا يقينه ، فهو زاده الاول والاخير ، فاذا اهتدى فلنفسه ، وان ضل .. فعليها ، هو أمام فرص ، يأخذ بها أو يدعها ، ونيته .. مطيته ، والاستقامة سبيله الواضح المعالم ، التى امر .. ان يسلكها ، بعد .. ان يؤمن .. وذلك هدى الله .

ساعة وساعة

* ذلك .. هو الأدب النبوى العالى ، حين قال رسولنا صلى الله عليه وسلم « ساعة .. وساعة ، ياحنظلة » . وحين قال عليه السلام « روحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فان القلوب إذا كلت عميت » .

وندرك من هذا الأدب العالى ، أنه لابد من الترويح عن النفوس ، والتماس مايخفف من متاعبها ، فليست الحياة كلها جداً ، وليست كلها هزلا ، ولا أريد الهزل المستقبح الرخيص ، وانما التخفيف من الجد المضنى .. إلى التنفيس المباح ، ومن أجمل وسائل التنفس الأدب .. فى صوره الجمالية ، وأخيلته ونماذجه الرائعة .. الأخاذة .

وقد سألنى بعض بنى .. لماذا لا أكتب فى الأدب ؟ ولم اقل لهم : أن سوق الأدب قد نفقت ، وانما قلت : أن مطالب الحياة اليوم .. تصرف عن الأدب ، فتدار الكتابة فى غير شئون الأدب .. وربما كانت اجدى ، غير أن هذا لايعنى الانصراف عنه ، فهو جمال فى الحياة وجمال للنفوس ، ومتعة للأرواح ، يصقل الأذواق ويرهف الحس ، لمن يعيه ويتذوقه ، رغم هذا الركود .. الذى فرضته الحياة اليوم ، وهو أمر لامفر منه ، ولكنه لايعنى التوقف ولا الجمود ، وانما ينبغى أن تأخذ المحاولات طريقها .. للعطاء الجيد والابداع ، والبحث والدراسة ما استطاع الأديب إلى ذلك سبيلا ، وليس أضر على الأدب من الاستسلام والانصراف عنه .. لأن البحث عن بديل له .. معناه الافلاس ، ولسنا فى عصر يشجع على الافلاس الأدبى ، كما أننا لسنا فى عصر أدبى بحت ، فالحياة لاغنى لها عن الأدب ، ولاغنى لها عن العلم ، ولاغنى كذلك عن بقية شئونها وشجونها العامة ، وإذا كان المال والبنون زينتها ، فالأدب الرفيع .. زينة من زيناتها ، لأنه من اخلاقها العالية ، ولأنه متعة .. ترتاض فيه النفوس اللاغبة ، فتجد فيه السلوى ودفع الآلام ، أو تخفيفها على الأقل ، والأدب غنى لايعدله غنى المال ، ولاغنى الحياة . إنه غنى من نبع لاينضب .

* ولا أدل على هذا الغنى ، من هذه النماذج الباقية ، فالمال يفنى والأدب الحى النابض يبقى مع الأيام .. رائعاً ، جميلا ، أخاذاً .

واستمعوا إلى أمجد الطرابلسى .. يخاطب سيف الدولة .. بعد ألف سنة فى قصيدته ، التى انشأها عن المتنبى ، بمناسبة مرور ألف سنة .. على وفاته ، لنرى روح المتنبى ، قوة وتعبيراً وجمالا ، منها قوله :

يابن حمدان انت لولا أبو الطـ	ـيب انـــى لذكرك التخليد
أنــت أوليتــه العطايـــا جزافا	والعطايـــا مع الزمـــان تبيد
انت لولاه مارأينـــاك فى السـا	ح ، وللحـــرب ضجـــة وبنود

أجل : لقد ذهب ماناله المتنبى من عطايا سيف الدولة ، ولكن ما اعطاه المتنبى لسيف الدولة باق مع الزمان .. لم يمح ..

ابن زريق

* والأديب ، قد يحفظ ذكره كتاب واحد ، وقصيدة واحدة أو بضع قصائد ، وابن زريق الكاتب ـ البغدادى ـ كثيرون لايعرفونه إلا من خلال قصيدته المشهورة ، التى شرق بها الرواة وغربوا ، أنها قصيدته العينية ، التى سارت مسير الأمثال ، قصيدة واحدة ، عاش بها صاحبها ، ولكنها قصيدة خليقة بالبقاء ، وجديرة بالترديد ، لجمالها ومعانيها ، وصدقها ، فهى وليدة معاناة ، وهى قصيدة تصويرية رائعة ، وهى أشجان قلب ملتاع مروع ، أكرهته الحياة على الفراق ، فراح ينثر أشجانه ، حتى بلغت قيمة هذه القصيدة أن قيل فى شأنها « من تختم بالعقيق ، وقرأ لأبى عمرو ، وحفظ قصيدة ابن زريق ، فقد استكمل الظرف » . يقول ابن زريق :

لاتعذليــه فان العـــذل يوجعه	قد قلت حقا ولكن ليس يسمعه
جاوزت فى لومـــه حدا أضربه	من حيث قدرت أن اللوم ينفعه
فأستعملى الرفق فى تأنيبــه بدلا	من عنفه فهو مضنى القلب موجعه
قد كان مضطلعاً بالبـين يحمله	فضلعت بخطوب البـين أضلعه
يكفيه من لوعة التفنيـد أن له	من النـــوى كل يوم مايروعه
ما آب من سفـــر إلا وأزعجه	رأى إلى سفــر بالرغـــم يتبعه

كأنمـــا هــو فى حــل ومرتحل
موكل بفضـــاء الأرض يذرعــه

إذا الزمـــاع أراه فى الرحيـــل غنى
ولو إلى السند أضحــى وهــو يزمعه

تأبــى المطامـــع إلا أن تجشمه
للـــرزق كدا ، ولـــو ممـــن يودعه

ومـــا مجاهـــدة الانســـان واصلة
رزقـــاً ولا دعـــة الانســـان تقطعه

والله قســـم بـــين النـــاس رزقهم
لم يخلـــق الله مخلوقـــاً يضيعه

والحرص فى المرء والأرزاق قد قسمت
بغـــى ألا إن بغـــى المرء يصرعه

هكذا حديث الشاعر إلى من يهوى ، أنه يعتذر عن البقاء ، ويؤثر الارتحال فى طلب الرزق ويلتمس من صاحبته أن ترفق به ، وألا تبالغ .. أو تتمادى فى تعنيفه ، ويكفيه من هذه الآلام .. هذا الفراق المتصل ، والترحال .. الذى لاينتهى . وربما كان القلق مصدراً من مصادر شقاء ابن زريق ، فهو حائر ، لايميل إلى الاستقرار وانما اتخذ من الترحال سبيلا لحياته ، أو لما فى نفسه من دوافع ، وكثيرون أولئك الشعراء .. الذين تكتنف حياتهم الحيرة .

وهذه القصيدة الرائعة ، لاتقف عند الاعتذار فى الترحال والتماس السلوى ، وبث الاشجان ، واشاعة اللوعة ، ولكنها مع ذلك كله ، لاتخلو من صور جمالية ، عن طموح الانسان وأطماعه ، وحرصه ، والايمان بقدر الله فى تقسيم الأرزاق ، وأن الله لايضيع ماخلق ، فقد ضمن الرزق لمخلوقاته ، لايعزب عنه سبحانه من مخلوقاته أحد ولا من أموره فنحن نقرأ قوله تعالى « وفى السماء رزقكم وماتوعدون » ونقرأ كذلك « وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل فى كتاب مبين » . وقوله : وكأين من دابة لاتحمل رزقها الله يرزقها وأياكم ــ وقوله : « فابتغوا عند الله الرزق ، واعبدوه واشكروا له » ، وقوله جل شأنه : « ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » . والآيات فى هذا كثيرة .

* ويمضى ابن زريق فى رائعته هذه بهذا الأسلوب السلس القوى ، وفى هذه الشكوى الممضة ، وهذه التباريح المتوقدة والأنين الذى لاينقطع صداه ، من نفس حرى ، تموق وتتودد . وتتعذب ، وتبوح بما يعتلج فيها من اوار الفراق ، وعذاب البين ومرارة البعد . اسمعوه يستسلم للظروف القاهرة ، يغرد فى

حسرة .

أستودع الله فى بغـداد لى قمرا بالـكرخ من فلك الأزرار مطلعه
ودعتـــه وبـــودى لو يودعنى طيـب الحيـاة وأنـى لا أودعه

أنه يؤثر أن تفارقه طيبات الحياة ، ولكنه لايودع ، ولايفارق « قمره » .
وابن زريق يعلن فى جهر ، أنه مكره على الفراق والرحيل ، رغم أن صاحبته تحاول المستحيل فى بقائه قريباً ، ولكنه يفارق ، ودموعه تنساب على خديه ، ودموعها هى كذلك ، وليس لهما حيلة .. كما يبدو ، فى الغاء هذا الفراق .. والانسان لايملك مايريد ، ومواقفه .. تضعف وتقوى ، وهو غالب حينا ، ومغلوب أحياناً كثيرة .

كم قد تشفـــع بى ألا أفارقه وللضرورات حال لاتشفعه
وكم تشبث بى يوم الرحيل ضحى وأدمعـــى مستهـــلات وأدمعه
أنـــى أوســع عذرى فى جنايته بالبين عنــه ، وقلبـى لايوسعه

كان خط ابن زريق فى برنامجه .. غير مايريده قلبه لكنه لم يأبه بهذا القلب ، فكان من أثر ذلك هذا التعبير الأثير ، فى هذه الصورة المؤثرة ، فى شفافة ، تومض باشعاعات لاتنطفىء .

كم قائل لى ذنب البين قلـت له الذنب والله ذنبى لسـت أدفعه
أنـــى لأقطــع أيامـــى وأنفذها بحسرة منــه فى قلبـــى تقطعه
لايطمئن لجنبــى مضجــع وكذا لايطمئن له فى البيـت مضجعه

* وأنا اعتذر لقرائى .. عن الوقوف عند كل مقطع ، فقد يحتاج ذلك إلى حيز غير يسير من هذه الصفحة ، وربما انكر على البعض هذا الاخلال بالخط الذى سلكته فى كتاباتى ولكنها ساعة .. وساعة ، وأنا مضطر أن أحافظ ، واتحفظ فى موقف مثل هذا الموقف ، أمام هذه القصيدة النادرة .

هل الزمان معيــد فيــك موقفنا أم الليالى التى امضيت ترجعه ؟
من عنده لى عهد لايضيــع كما عندى له عهـد ود لا أضيعه
ومن يصــدع قلبــى ذكره وإذا جرى على قلبــه ذكرى يصدعه

علماً بأن اصطبارى معقب فرجا فاضيق الأمـر أن فكرت أوسعه
عسى الليالى التى اضنت بفرقتنا جسمى ستجمعنى يوما وتجمعه
وإن تنـل احـــدا منـــا منيته فمـا الــذى بقضـاء الله يمنعه

آمال عراض ، ودعوة إلى الصبر ، حتى وصل التعبير فى رهافة هذا الحس ، أن أضيق الأمر .. أوسعه ، لأن الفرج مع الكرب ، وتختتم القصيدة بذلك البيت وهو أن المنية إذا حانت ، وهو قضاء الله ، لايرده شىء .

ولابد أن أشير ، وهو ماينبغى أن يكون الركيزة ، فى حياتنا كأمة مسلمة أن نتمسك بالمثل ، ومن هذه المثل قول الله عز وجل : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين » فالتقوى أساس . فى العلاقات العاطفية ، والا فهى نزغة من نزغات الهوى .. الذى هو ضرر كله ، وأذى ، وسوء عاقبة ، ثم تكون هذه العلاقة البعيدة عن التقوى عداء يوم القيامة .

أن أقيموا الدين

أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ما أسعد المسلمين حين يرون .. ان شرعة الله ... تحكم بين العباد ، فى أنحاء متفرقة ... من العالم العريض ، وخاصة .. فى بلد مسلم ، جرب الحكم بالقوانين الوضعية فلم يصل بها ولم تصل به .. الى الاهداف العليا البعيدة المرامى ، فى الأمن والقصاص ، وأخذ واعطاء الحقوق ، والقيام بالواجبات كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والحب والبغض .. فى الله ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ، وان المؤمنين اخوة ،، وان المؤمن للمؤمن .. كالبنيان المرصوص ، يشد بعضه بعضا ، والايثار ، وحب الخير للاخ .. كما يحبه المرء لنفسه ، الى غير ذلك من الأحكام ، والوصايا الفريدة ، التى جاءت فى الكتاب العزيز ، وفى سنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

وإن أمتنا ، لا يصلح آخرها .. الا بما صلح به أولها ، فقد كانوا أعلون ، لانهم .. مؤمنون وكان لهم النصر لأنهم كانوا .. يقاتلون بالايمان ، لا بالعدد ، فسادوا الارض ودانت لهم الدنيا ، وتركوا تراثا .. لا يبيد ، من المثل ، والاخلاص .. التى اذهلت العالم ، ومن العلوم ، والحضارة الحقة ، البانية التى اقتبسها منهم الغرب ، حين ناموا ، فى عصور الظلام ، وحين نسوا الله ، فأنساهم أنفسهم ، وتخلفوا لانهم بعدوا .. عن دين الله ومنهجه القويم . فحل بهم الذل والجهل والمرض والفقر ، وهى أشد أعداء الانسانية .

لقد أثلج صدور المؤمنين ، اعلان دولة باكستان المسلمة تطبيق الشريعة الاسلامية ، وإنه لنصر للمؤمنين .. هذه الخطوة الرائعة .. من ضياء الحق ، حاكم باكستان اليوم ، نرجو الله .. ان يعينه على هذا المسلك ، وان يأخذ .. بيده الى الحق ، والى الخير والى طريق مستقيم .

ونقرأ كذلك فى الصحف ، ان الشقيقة مصر تحاول تطبيق الشريعة الغراء ، وهو نصر آخر للانسان المسلم ، وللمسلمين قاطبة ، وسيكون لمصر النصر .. على عدوها ، وعدونا ، حين .. تسلك هذا النهج الصالح وحين تصبح الكلمة فيها لشرعة الله ، سوف .. تزدهر ، وتنتصر وتخرج من أزماتها ، ومشاكلها ، لأن الله مع من يكون معه ، ومصر دولة اسلامية ، بها .. ذلك الصرح السامق .. الأزهر الشريف ، الذى ينشر العلم ، ويبدد نوره الظلام وينشر دعوة الله فى الأرض ، ويعمل بها ، ويطبقها منهجا ، ومسلكا وحكما .

ما أسعدنا .. بهذه الانباء .. التى تحمل الينا ، من باكستان ، ومصر وبلاد اسلامية مختلفة ، تحاول اقامة الحق ، بتمسكها بمنهج الله ، لا فى العبادة وحدها ، وإنما .. فى حياتها ، وتعاملها ، وتعايشها ، ومسلكها .. الخاص والعام ، وهو .. أى منهج الله ، الطريق الأقوم ، والاخلاص والسلامة والمنجاة ، هو الحق .. الذى ما بعده حق .

والأمة الاسلامية ، التى تبعد .. عن منهج الله ، تظل مختلفة ، تعانى القلاقل والاحن وتعانى .. من الاجرام ، ما لا حد له ، وتعيش مشاكل تطحنها ، حتى تفقدها مقوماتها .

وصدق الله العظيم القائل .. فى الكتاب العزيز « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا .. والذى اوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ان أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ، ما تدعوهم اليه ، الله يجتبى اليه من يشاء ، ويهدى اليه من ينيب » .

ويقول الزمخشرى .. صاحب الكشاف : أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه – والمراد اقامة دين الاسلام ، الذى هو توحيد الله وطاعته ، والايمان برسله وكتبه ، ويوم الجزاء وسائر مايكون الرجل باقامته مسلما ولم يرد الشرائع التى هى مصالح الأمم ، على حساب احوالها ، فانها مختلفة متفاوته و – شرع لكم من الدين – .. دين نوح ومحمد .. ومن بينهما من الانبياء .

أرجو الله لامتنا .. مزيد الهداية الى الحق ، ومزيد الخير .. وهى تسترشد بهدى ربها ، وتعمل على مرضاته ، وتلتمس طريقها ، على منهاجه ، باتباع أوامره ، والبعد .. عن نواهيه ، لتكون بحق كاسلافها خير امة اخرجت

للناس ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله .

والله سبحانه وتعالى هو القائل : « ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

اللهم انا نسألك بفضلك الهداية ، والسلام للعالم ، انك على ما تشاء قدير .

وما النصر إلا من عند الله

❋ قبل يومين ، مرت بالمسلمين .. ذكرى خالدة فى تاريخنا كله ، ذكرى يوم النصر فى بدر ، وكان جبريل عليه السلام ، قد أخبر رسول الله .. صلى الله عليه وسلم ، بعير قريش .. القادمة من الشام الى مكة ، تحمل تجارتها ، وان الله وعد رسوله والمؤمنين معه احدى الطائفتين ، إما العير ، وإما قريش ، أى الحرب .

❋ واستشار نبى الله أصحابه ففضلوا العير ، لانه لم يكن معها سوى أربعين رجلا ، غير أن الله سبحانه وتعالى «يريد معالى الامور ، ونصرة الحق » .. فالمسلمون .. قد هاجروا من مكة الى المدينة ، فرارا .. بدينهم ، وهم قلة مستضعفة ، ولكى يشيع هذا الدين ... كما أراد الله له ، ولكى ينتصر المؤمنون ، وتقوى شوكتهم .. لانهم أنصاره ، فيقوى بقوتهم ، لابد له .. من جولات فاصلة ، اذن .. هو القتال ، وليس عرض الحياة الزائل ، وأن كان التعرض لمال قريش .. يشعل الحرب بينها وبين المسلمين .

❋ وما دام المسلمون .. قد خرجوا من المدينة ، يريدون العير ، فالله سبحانه وتعالى ، قد اختار لهم الأبقى والأقوى ، فأختار لهم النفير ، وهو القتال ، وهو ناصرهم ، ومؤيدهم ، لتكون كلمة الله هى العليا .. وصدق الله العظيم القائل : « وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم » . وقوله : « وعسى ان تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا » .

❋ ونجت العير .. من تعرض المسلمين لها ، ذلك .. أن حرص أبى سفيان ، وحساباته ، أطلقت العيون أمامه ، حتى لايفشل أمام قومه ، حين تضيع تجارتهم ، وهو القائد التجارى المحنك . فلما علم ... من عيونه .. التى سبقته بخروج المسلمين لغزوه ، ساحل بالعير ، وترك الطريق .. الذى كان يرتاده ، فنجا ، ونجت تجارة قريش .

* وعقد الرسول القائد صلوات الله وسلامه عليه ، ذلك المؤتمر التاريخى .. مع أصحابه ، يستشيرهم .. فى امر الحرب ، لان أمر التجارة .. التـى خرجوا .. من أجلها ، قد أخذت طريقها .. الى مكة ، بهذا الاحتياط .. الذى اتخذه .. أبو سفيان ... ولان الله وعد عباده احدى الطائفتين ، ولم يبق .. الا الحرب أمامهم .

* فأعلن المهاجرون ، وفى مقدمتهم .. أبو بكر وعمر .. رضى الله عنهما ، تأييدهم للنبى ، وأن يمضى .. لما أمره به ربه .

* غير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مضى يقول : (أشيروا على أيها الناس) وهو بذلك .. يريد رأى الانصار . وأدرك ذلك سعد بن معاذ رضى الله عنه ، مايعنيه القائد ، لان الانصار فى العقبة ، ضمنوا حماية الرسول اذا وصل الى ديارهم فى المدينة ، يحمونه فيها ، مما يحمون به أباءهم ونساءهم ، فالمسألة هنا .. مسألة دفاع فقط ، ولكنهم ... وقد خرجوا من المدينة ، فقد تغيرت الصورة ، وأصبح الدفاع هجوما ، لذلك ألح رسول الله صلى الله عليه وسلم فى دعوته الى الاصحاب .. أن يشيروا عليه ، حتى بعد أن تحدث المهاجرون .. بأنهم معه فيما أراد الله ، وما تقرره القيادة المختارة من السماء .

* وكانت كلمة سعد بن معاذ .. التى انتظرها رسول الله .. عليه السلام .. المنطلق ، بهذا التأييد المطلق .. من الانصار لرسول الله .. حملت كلمات سعد النصرة غير المقيدة .. بزمان أو مكان ، بذلك التعبير القوى .. الواضح ، الرائع البليغ .. قال سعد بن معاذ رضى الله عنه : « قد امنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا .. على السمع والطاعة فامض يارسول الله لما اردت ، فوالذى بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر .. فخضته ، لخضناه معك ، ماتخلف منا رجل واحد وما نكره .. ان تلقى بنا عدونا ، انا لصبر فى الحرب ، صدق عند اللقاء ، ولعل الله أن يريك منا .. ماتقربه عينيك ، فسر بنا .. على بركة الله» .

* هكذا .. كانت آراء أركان الحرب ، فى هذا الجيش ، الذى .. لايعدل فى عدده .. ثلث جيش قريش ، وليس معه سوى فرسين ، وسبعين ذلولا .. ولكن القوة ، ليست فى العدد ، ولا فى العدة ، وانما فى الصدور ، التى ملأها الايمان ،

فغلبت كل نزعة ، وآثرت الباقية من الحياة .. على الزائلة الفانية .

وسر رسول الله عليه السلام ، بهذه الكلمة الصادقة من سعد ، فيها هذا التأييد المطلق للقائد المختار ، لتنفيذ أى قرار ، يريده الله ورسوله .

* وأمر القائد .. نحو الحرب لان الله سبحانه .. أراد أن يحق الحق بكلماته ، أى أن يثبته ويعليه .. بآياته المنزلة .. فى محاربة الكفار ، الذين لم يرضهم سلامة العير ، ونجاتها ، وانما غلا فى رؤوسهم الطغيان ، فقرروا الخروج الى بدر ، لاقامة مهرجان ، تبسط فيه الولائم ، وتعاقر الخمر ، وتغنى القيان ، فيسمع العرب ... بخروج قريش ، فى هذا الزهو ، والكبرياء بعد أن نجت العير ، فتزيد مهابة العرب لهم ، وتحسب لشوكتهم الحساب ، ثم يعودون الى مكة ، يجرون أذيال الفخر ، والخيلاء .

* من أجل ذلك ، والله أعلم ، أراد الله للقلة الضعيفة ... أن ينصرها ، على الكثرة والقوة .. بقتلها ، فتذل ، ويعز الضعفاء ، وقطع دابر الكافرين ، أى استئصال آخر الكافرين ..

واستغاث المؤمنون ربهم ، فاستجاب لهم ، بألف من الملائكة مردفين ، أى متبعين .. بعضهم بعضا ، أو بمعنى : متبعين أياهم المؤمنين ، أى : يتقدمونهم ، فيتبعونهم أنفسهم .

* وكانت ارادة الله ، فنصر عباده المؤمنين ، وكسر شوكة الكفر فقتلوا ، وأذلوا ، وهزم ... من بقى منهم ، وحل بهم النكير ، وذهبت أحلام رءوس الكفر .. بارتفاع مهابتهم عند العرب ، وتحولت المهابة .. الى جند الله ، لا اله الا الله : ألا إن جند الله هم الغالبون . ذلك أن النصر لرسله والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد .

* هكذا اختار الله لعباده «ذات الشوكة» فى الحرب ، والمؤمنون ، ودوا غير ذات الشوكة أى عير قريش .

* وهكذا كانت النتيجة الباهرة إنه نصر الله لهم ، وكان لهم الفخار ، وكانت تلك البراءة .. من عند الله ، لم ينلها غير البدريين التى لاتقاس عليها أوسمة ولاشىء أكبر فى صدور الناس ، وذلك فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لعل الله قد أطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم» .

ونحن نجد .. أن هذه البراءة ، أو هذه المكرمة الالهية ، ظلت وسام

عفو ، حتى حين يخطىء حامل وسام بدر بما يستحق عليه أكبر عقاب ، وانظروا كمثل ، الى قصة الصحابى البدرى « حاطب بن أبى بلتعة » الذى كتب الى قريش ينصحها ، وكان النبى والمسلمون ، يتجهزون .. لفتح مكة فى رمضان ، ورمضان ارتبط بالنصر ، فهو شهر القرآن ، وشهر الصبر ، وشهر صفاء النفس ، وقرب العبد من ربه لانه يصوم له ، وهو سبحانه ، وتعالى ، قد وعد بأنه يجزى به .

* ماكان ذلك الصحابى البدرى يريد خيانة للمسلمين ورسولهم ، وانما كما أعلن وقت التحقيق ، أنه أراد أن ينصح قريشا ، لانه كان لصيقا فيهم ، ويريد أن تكون له يد .. بهذا الصنيع .

* وحين طلب الفاروق عمر ، من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم أن يضرب عنق حاطب ، لغيرته ، حتى وصفه بأنه منافق .

* وقال له من بعثه ربه رحمة للعالمين ، قال له القائد ، وهو يعرف بلاء جنده ، والمكرمة ، التى أضفاها رب العزة العليم ، الخبير على أهل بدر . من المؤمنين ، الذين امتحنوا بالحرب ، واستجابوا لله ولرسوله ، لما يحييهم ، بعد أن ذهبت عنهم العير .

* قال رسول الله ، ليصرف عمر عما أراد واختار ، أنه من أهل بدر ، أى من الذين غفر الله لهم ، الله أكبر ، أن المشاعر لتنداح ، وتهتز ، والجوارح تضطرب ، كأنها كلها ألسنة تلهج بهذا العز ، ولهذا الرضا الربانى ، ولهذا الاعزاز .. الذى لا أعزاز بعده .

* تمر بنا هذه الذكرى .. ونحن على مانحن فيه ، ذلك .. أننا بعدنا عن ربنا ، فحاق بنا الضعف ، ونحن كثرة ، وعندنا من القوى المادية الكثير ، ولكن القوة فى الاعماق ، انه الايمان ، الذى لايفله سلاح ، غير أن المسلمين ... ركنوا الى الدنيا ، فتكالبوا عليها ، وتركوا الجهاد ، وكأننا ، وددنا .. غير ذات الشوكة ، وأخطر مافى الامر ، فقد التضامن الحق ، ولو اعتصم المسلمون بحبل الله جميعا ، ولم يتفرقوا ، لكان ذلك من عدة النصر ، وأسبابه ، والايمان العميق ، هو السلاح الاول ... فى أى معركة .. بين الحق والباطل وهو الطريق الى النصر .

ما أجدرنا ، ونحن فى شهر النصر ، من بدر الى الفتح ، الى حطين الى السويس ، ما اجدر المسلمين .. ان يعيدوا النظر فى مواقفهم ، ليكونوا قوة مهيبة .. فى وجوه أعدائهم ، حين يخلصون النية ، ويصدقون العمــل ، فيجاهدون بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله .

ان ربهم يؤكد لهم ، فى كتابه العزيز : بأنهم الاعلون ...ان كانوا مؤمنين .. أن النصر .. يتطلب عدته ، والمسلمون يملكونها اذا رجعوا الى ربهم ، وتمسكوا بكتابهم وسنة رسولهم ، قولا وعملا .

لقد تداعت الامم على المسلمين .. عبر التاريخ ، وقد وعوا الصبر وأن لهم .. أن يتنبهوا من غفلتهم ، فهى الردى ، وليس لهم مخرج .. من المحن ، الا بالتضامن ، فى توحيد الكلمة ، ليتوحد الصف ، نحو هدف كريم ، هو القوة ، فى وجه أعداء الله وأعدائهم ، وليست القوة الفردية ، يشنها بعضهم على بعض .. بغيا بينهم ... ويحلمون بنصر وهمى .. ذلك .. ان النصر لايتأتى ببغى بعضهم على بعض ، وانما بالوحدة الشاملة ، فى ظل راية التوحيد .. وما أكثر الامثال فى دستور المسلمين الخالد ، قال تعالى : « ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون» .

* ما أكثر المناسبات للذكرى ، وما أكثر ما نتلو القرآن ، ويتردد على مسامعنا ، يعظ ، ويذكر ، ويعلن .. أن هذه الدار الفانية ..لها مابعدها ، انها الدار الباقية فالحياة مجال عمل ، وقد أمرنا ان نتدبر آيات كتابنا ، ولو فعلنا ، لكانت حال المسلمين غير حالهم اليوم ، وما أكثر مانقرأ ، ونسمع قول الله تعالى : « أفلا تعقلون ، أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها ، أفلا تتفكرون ، أفلا تتذكرون ؟» .

هذه المواسم ، رمضان والحج ، والهجرة ، نبراس للذكرى ، ومن الذكرى العمل الجاد ، لا للدنيا وحدها ، لأن حطامها .. لايغنى فتيلا ، اذا لم يكن سعيا .. فى مرضاة الله ، وتضحية ، ونستعين الله بالصبر والصلاة ، بقلوب مؤمنة .. خاشعة ، ونفوس صافية يملؤها الايمان ، وندعو الله على بصيرة ، ونعمل للنصر ، ولعزة الاسلام .

ما أجمل الذكرى ، وهى تنفع المؤمنين .

نرجو الله أن يعيننا على أنفسنا حتى لاتضل ، ويعيننا على أعدائنا .حتى لانذل ، وأن يأخذ بأيدينا الى الحق ، والى طريق مستقيم .

المساجد وخطباء الجمع والوعظ

الدولة .. تبنى كل يوم المزيد من المساجد ، وتنفق عليها بسخاء ، وأوشك .. أن أقول الى حد الاسراف ، فى الزخرف الخارجى أما من الداخل ، فان التكييف ، والفرش الجيد ، يؤديان .. الى مزيد من الخشوع ، والعبادة المستأنية ، فى هذا المناخ المطمئن ، فلا يتضايق المصلى من الحر ، حتى يؤدى صلاته بعجلة ، لينصرف عن المسجد ، ولكن المسجد اليوم مستقر للبقاء فيه ، لا .. للانشغال بالدنيا ، وانما بذكر الله .

ونهج المواطنون القادرون .. المنهج نفسه ، فى بناء المساجد ، وتهويتها ، أو تبريدها ، واختيار السجاد الجيد لها ، وكذلك خطباء الجمع ، الذين .. يحسنون النصح ، والأرشاد ، وتبصير الناس .. بما ينفعهم ، ومايضرهم .

* ان وزارة الحج والأوقاف ، ترعى المساجد التابعة لها ، ممثلة للدولة ... فى أنشاء بيوت الله ، وتأثيثها ، والحفاظ على مكانتها ، وأن دورها لكبير .

غير أن ثمة قضية لا أظنها تخفى على الوزارة نفسها ، أنهم خطباء الجمع .

اننى أتحدث عن جدة ، لانى أقيم فيها ، ولا أتجاوزها ، الا حين يتاح لى سفر الى بعض مناطق المملكة ، وهذا السفر محدود ، لذلك فالحديث عن جدة وحدها اليوم .

* اننى لا أعدو الحقيقة ، اذا قلت : أن كثيرا من مساجد هذا البلد الكبير ، العريض ، الذى يعج بالسكان ، لا يوجد فى مساجدها خطباء ، يحفظون آيات الكتاب العزيز ، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، التى يستشهدون بها ، وماداموا ، لايحسنون هذا ، ولاذاك ، فلا تسأل عن اللغة العربية ، و (التخبيص فيها) . ولذلك فهم يتحدثون على الهامش ، كلمة من هنا ، وكلمة .. من هناك ، ويخرجون من موضوع ، ويدخلون فى آخر ، ولايستفيد المصلى من

خطبة الجمعة سوى كلمات تردد ، لاتؤثر فيه ، ولاتبصره ، ولاتوعيه .

* وهناك المساجد الخاصة ، بعض هذه المساجد ، تجد رعاية .. ممن أنشأها ، وبعضها الآخر .. لانراها فيها ، وتجد فيها خطباء ، جل همهم الصراخ ، وليس فيما يقولون موضوع واذا سألت أحدى ادارات الاوقاف .. عن هذه المساجد الخاصة ، يقال لك ، انها ليست تابعة لنا ، ولاشأن لنا بها ، ولاسبيل لنا عليها .

وأنا أسأل : من المسئول عن هذه المساجد ؟ .. لا أعنى الصرف عليها ، أو اصلاحها ، وتعيين أمام ، أو خطيب لها ، وانما من المظهر العام ، لأن هذه المساجد .. فى البلد ، فمن يقوم خطيب الجمعة ، ويراجعه ، ويحاسبه ، لاسيما حين يكون من غير أهل البلاد ؟

فى رأيى ، أنه ينبغى أن يكون هناك مرجع ، جهة معنية ، تسمع هذا الخطيب ، فاذا أحسن وأجاد ، تدعو له بالسداد ، واذا أخل ينبه ، ويرشد ، حتى لايزيد ، ولايتمادى فى أخطائه

اذا كانت وزارة الحج والاوقاف ، ليست مسئولة .. عن هذه المساجد ، فينبغي من باب الغيرة ، والمسئولية ، المشتركة ، أن تتدارس الوزارة مع جهة ذات تخصص ، فى الدعوة والأرشاد لكى تؤدى دورها ، نحو هذه المساجد .. التى لاتتبع الوزارة ، لأنه لايعقل ، أن تكون هذه المساجد بدون ضوابط .. فيما يختص بالناس ، مأمومين .. فى الصلوات الخمس ، وفى الجمعة وخطبتها ، لان الجمعة فى الاسلام ... لها قوامتها ، ودورها ، وهى تجمع أكثر مما تجمع بقية الأيام وان لخطبتها شروطا ، ومقومات ، تعود على المصلى ، فى دينه ودنياه .

وأنا حين أرجو من وزارة الحج والأوقاف ، أن تعالج مع أولى الشأن موضوع المساجد الخاصة ولا أتحدث عن الناحية المالية ، أو البناء ، وما الى ذلك ، وانما مايتصل بالناس ، وعبادتهم ولاسيما خطب الجمع ، أى أن قضيتى تنحصر فى الأئمة ، الذين يجب ان يحسنوا قراءة كتاب الله والخطباء الذين يجب كذلك ، أن يتقنوا هذه المهمة .

فى الوقت الذى .. أرجو فيه الوزارة المشاركة ، بأن تتحاور مع من يعنيهم

هذا الامر ، برعاية هذه المساجد ، من الجوانب التى الحت اليها .. أرجو أن تعنى الوزارة بالمساجد التى تتبعها من حيث الأئمة وخطباء الجمع لتؤدى أمانتها كما ينبغى .

ولو ندب معالى وزير الحج والأوقاف .. بعض رجاله ، من المسئولين عن المساجد فى ادارة الاوقاف او غيرهم من الواعين ، الذين يدركون الأخطاء ، وطافوا مساجد (جدة) لوجدوا الكثير كما وصفت ، ولحزن الوزير ، وحزن الغير من المخلصين .

واذا جاز لى أن أسأل : كيف تؤدى رسالة المسجد ، وهو على هذا النحو .. من الضعف لا فى بنائه ، والعناية به ، وانما فى الرجال ، الذين يؤمون الناس ، ويخطبون فيهم ، ليعلموهم ، ويرشدوهم ، ويوعوهم وينصحوهم ، والدين النصيحة .

* بقيت كلمة آخرى ، عن الوعظ فى المساجد ، أرجو .. أن آتى عليها ان شاء الله فى كلمة آخرى . وأرجو آخر الأمر أن يتسع صدر معالى وزير الحج والأوقاف لهذه الشكوى ، لانها تهمه ، وان يجد لها الحلول الموائمة ، وان أسمع .. ان الاصلاح جار . ولله عاقبة الأمور .

المركز الإسلامي في روما

زرت يوم الجمعة ٢٣ من صفر ١٤٠٠هـ المركز الاسلامى فى روما ، وهو عبارة عن شقتين فى احد جوانب روما ، جزء منها مسجد ، تقام فيه صلاة الجمعة ، والتراويح ، فى رمضان ، والجزء الأخر .. ادارة للمركز ، وهو مركز متواضع ... فى عمارة سكنية لايحمل حتى لافتة ، أو أى شىء يدل عليه ، ويهدى اليه ، رغم انه .. يشرف عليه سفراء الدول الاسلامية ، كما قال لنا امام المسجد ، أو خطيب الجمعة على الاصح ، لان المسجد ... كما ذكرت لاتقام فيه سوى الجمعة ، والتراويح .

وسألت ... عن المركز الجديد ، والمسجد الجديد ، الذى منحت أرضه الحكومة الايطالية ، منذ بضع سنين ، فقيل : ان هناك مشكلة حول الارض . من السكان المجاورين يعارضون فى بنائها مسجدا ، لانهم يرونها متنفسا لهم ، والقضية امام المحاكم ... منذ وقت غير قصير ، ولو كان لى من الأمر شىء ، لتركت هذه الارض التى يدور حولها نزاع ، وفتشت عن غيرها ، لأنه لاينبغى ان يقام مسجد على ارض حولها مشاكل ثم ان هذه المشاكل ، قد تمتد ، وربما تتطور ، بعد بناء المسجد .

ولعل فكرة بناء مسجد فى بلد الفاتيكان ، ليس بالشىء السهل ، فالفكرة .. كما سمعت قديمة ، ربما تقدمت بها الجامعة العربية . منذ عشرين سنة أو يزيد ، ولم تلق ترحيبا ، فأسدل عليها الستار ثم تجددت ، اثر احدى زيارات الملك فيصل الى روما ، يرحمه الله ، فقبلت الحكومة الايطالية الطلب ، ومنحت الارض ، وهذا يرجع الى بضع سنوات . ثم اخذت الحكومة السعودية تعد للمشروع ، الذى لم يشترك فيه حتى الآن ... كما سمعت سوى العراق والكويت .. التى تبرعت بمليون دولار ، أما العراق فنصيبه جيد ، ربما لايقل

عن نصيب المملكة ، هكذا سمعت . أما باقى الدول الاسلامية والقادر منها .. فلم تسهم بشىء بعد . لماذا ؟ لا أدرى . ربه لظنها ان المشروع لن يتحقق ، أو لنفس المنهج عند البعض ، التقاعس فى المواقف ، حتى بعد الالتزام ، فلا تدفع بعض دولنا ... ماتعلن عن تبرعها ، او التزاماتها فى المؤسسات السياسية ونحوها وكلها قادرة ، وبمعنى ادق كل دولة .. على حسب حجمها وقدرتها ، ورحم الله المتنبى الذى وصف القادرين على التمام ، فأحسن وأجاد ، وأبدع ، اذا كانت هذه حالة القادر .. من التسويف والمطل ، فكيف بحال غيره ، على حين ... نجد الانفاق والاسراف ، فى ابواب مختلفة ، بعيدة عن المسجد ، ومايقرب الى الله ، اللهم رحمتك . ولا ادرى ، هل يتم مشروع مسجد روما والمركز الاسلامى ، أم يظل الاصرار ... على التمسك بالارض المتبرع بها من قبل الدول الاسلامية ، وتظل الخصومة ، والرفض من جيرتها ... ام ان الفكرة مرفوضة من اساسها ؟ ليت سفراء الدول الاسلامية ... ينشرون بيانا يعلنون فيه ماتوصل اليه المشروع .. وعلى الاصح .. مشكلة الارض ، وما انتهت اليه ، وهل ثم امل فى الحصول عليها ومتى ؟ ذلك ان الزمن يمر ، ومر وقت ليس بالقصير كان يكفى ، لانشاء المشروع ، واقامته ، كما هى الحال ، فى المركز الاسلامى بجنيف ولندن ونحوهما .

ولابد .. كما اتصور من خطوة جادة ، تبرهن عن نتائج ، وتفضى اليها ، سلبا أم ايجابا . ومادامت الحكومة الايطالية .. موافقة على اقامة المشروع ، فالارض كما اصور ليست مشكلة ، وارض الله واسعة ، ولم التمسك بأرض بعينها ، حولها نزاع طال الزمان عليه ، دون ان ينتهى ؟ ... لماذا الاصرار بصوت مسموع على أرض بعينها . ترتفع المعارضة حيالها .. الى المحاكم ، فلا تبت تلك فيها بسهولة ، ربما لصعوبة الموقف ، فيميع الامر من باب ... المجاملة للدول الاسلامية ، حتى .. لاتصدم بالرفض ، فيكون رد الفعل .

الذى ارجوه ، الا يطول الانتظار اكثر مما انصرم من الزمن ، فما احوجنا الى مسجد فى روما ، تؤدى فيه الصلوات ، وتقام فيه الشعائر ، وبجانبه مركز اسلامى ، تقدم فيه المحاضرات ، فى مختلف المناسبات ، فى شتى المنازع ، أمنية ، كم نتمنى ان تتحقق وان يكون فى المركز والمسجد ، وكل مسجد فى أوروبا وامريكا ، واى بلد غير اسلامى من هم جديرون به ، للتعريف بالاسلام ،

وتقديمه فى صورته السمحة ، المشرقة ، فهو ، جوهر ، وناشروه والداعون اليه ، ينبغى ان يكونوا صورة له ، ومنه ، سمتا وخلقا ، فى مستوى أعلى نحو الرسالة الجوهر ، امانة ، ودعوة ، وروحا ، وتضحية واخلاصا ، لامجرد وظيفة ، ولا مجرد شيء ... من مظاهر ، لاتغنى فتيلا ، ليكونوا رسل هداية ، ودليل خير يدعون اليه ، ويطبقونه فى مسلكهم ، قبل ان يطالبوا به غيرهم والا ... فلا جدوى ، اذا كان القدوة .. غير قدوة .

أساليب شتى في التبشير

كنت .. وبعض ابنائى ، فى أحدى البقالات الكبرى .. فى مدينة « استن » بولاياة تكساس ، بأمريكا . نشترى بعض ما نحتاج لطعامنا ، وكنا نتحدث بلغتنا العربية ، فمرت من جانبنا سيدة مسنة ، ولما سمعت لهجتنا وهى غير لغتها .. اعترضتنا ، للتعرف علينا ، فحادثت الابن ، فقال لها : اننا من بلد كذا ، فسألته عن أبويه ، وعرضت سبل التعرف والدعوة الى لقاء ، والتعرف ، مع آخرين .. والدعوة الى أكلات عربية ، وتقديم خدمة ، فى المدارس أو الجامعات ، واعتذر لها الفتى ، وشكرها .. بأننا لا نحتاج الى خدمتها ، ولا نريد دعوة الى طعام ولا الى غيره ، وقال لها أن آبائى .. ليسوا هنا .

وسألت الابن ، بعد انصراف السيدة ، عما تريده ؟ فقال : أنها من دعاة التبشير فهم كبارا وصغارا ، شبانا وشابات ، وعجائز ، هذه مهمتهم ، يعترضون طريقك ، يتعرفون عليك ، ويدعونك .. الى لقاءات ، ويقيمون الولائم ، ويقدمون الخدمات ، فى تسهيل الالتحاق بالمدارس ، والجامعات ، ويشحنون من يتعرفون عليه .. بدعاوى التبشير ، ليتبع ملتهم ، ثم يتركونه ، ويبحثون عن غيره ، وهذا هو دورهم ، وتنفق على هذا المسلك مؤسسات كبرى مختلفة ، وخلفها الكنائس ، تدعم ، وتحث ، وتقوم مناقشات عن الملل والنحل ، ولكن مع الأسف .. أكثر الطلبة المسلمين ، ضعيفو الاحاطة بعمق الدين الاسلامى ، لذلك يعجزون .. عن التصدى والجدل ، والاقناع .. بعالمية الدين الاسلامى ، وصلاحه .. لكل زمان ومكان وأنه الدين الحق الباقى ، وأن الكتاب العزيز .. لا يأتيه الباطل ، وأن الدين الاسلامى ، لم يحرف .. ولم يغير ، كما فعل اليهود والنصارى بدينهم .

وعرفت فى أكثر من بلد زرته ، أن الشبان المسيحيين .. يلقون العناية والرعاية ، تقام لهم بيوت .. تنفق عليها المؤسسات والكنائس ، ويأوون اليهم ،

بتكاليف يسيرة رمزية . وهناك جمعيات تلقنهم الدروس والأساليب .. وتطلب اليهم نشرها .. وبثها بين مختلف الاجناس .

وتمنيت أن يكون للاسلام وابنائه فى أوروبا وأمريكا .. وشرق آسيا .. اكثر من كيان ، وان يتسلح الشبان المسلمون .. بسلاح الدين الاسلامى ، ليردوا على الباطل بالحق وأن يكون ثمة .. دعاة ووعاظ ، وعلماء ، يعرفون اللغات الأجنبية الحية ، ليواجهوا الحرب الصليبية المتصلة ، والحملة على الاسلام ، وتشويهه ، والحط منه ، ويكون منطلق الدعاة الحق والعمل ، والمجادلة .. بالتى هى أحسن ، كما يعلمنا القرآن الكريم .

انها دعوة الى المسلمين القادرين ، والى الدول الاسلامية ، لتنهض بدورها ، ورسالتها ، فى سبيل دينها ، الذى هو عصمة أمرها . وما أكثر القادرين ، ولكن ما أقل العناية بهذا الجانب ، وما أكثر التقصير فيه ، الى حد التفريط . فمتى ينهض القادرون من المسلمين ، ليدعوا الى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويصدوا الهجوم على دينهم .. بالحجة ومنطق الحق ؟

وهل حق علينا اليوم .. معنى الحديث الشريف .. كثرة ، ولكنا غثاء .. كغثاء السيل اللهم أعنا على أنفسنا ، واهدنا للتى هى أقوم .

في ذكرى الأستاذ العقاد

❊ مرت قبل اسبوع الذكرى الخامسة عشرة لرحيل كاتب العربية الكبير عباس محمود العقاد دون ان يكون لها صدى الا من مقتطفات عابرة فى الصحافة والتلفاز بمصر .. ذلك ان الأحداث السياسية اكبر ، او هى شاغل لأجهزة الاعلام فى هذه المرحلة التى يترقب توقيع اتفاقية سلام فى الشرق الأوسط .

❊ والعقاد رجل عملاق بحق ، ذلك أنه عف يعتز بشخصيته ، ويحترم نفسه ففرض احترامه على غيره .

فهو لم يتزلف ولم ينافق ، ولم يداج ، ولم يلبس ، ولم يدلس ، وانما عاش عمره الطويل مرفوع الهامة ، قوى الارادة ، يرقى به التحدى الى المجابهة مع الكبار من ذوى السلطان والجاه ، لا يبالى وهو يدرك أنه على حق بما يكون من نتائج ، فهو يؤمن أن الرزق فى السماء والأجل بيد الله والفقر ليس معرة للانسان .

❊ ولم ينسب للعقاد رحمه الله أنه استجدى أو انحنى بطلب جاه أو مركز .. حتى الوظيفة هجرها ، لأنها لم تلائم طبعه ، ولم توافق مزاجه ولا عرف عنه وضاعة تشين مسلكه ، ولا ما يلحق به ذل ، ويحط من قدره .. ولا يعرض نفسه لمهانة بتصرف شاذ ، ولا يأبه للصغائر ، ولا يدس أنفه فى أمور لا تهمه ، ولا يتتبع ما يعنى به الكثيرون من الناس ويشغلون به أنفسهم من هذه التوافه التى تلتصق بالخلق .

فالعقاد كبير فى نفسه ، كبير فى تصرفاته ، وخلقه ومنهج حياته ، يفرض فيه العنف ، يأخذ به نفسه اولا ، ثم نجده فى خصوماته يلجأ إلى هذا الأسلوب فى تحد وقوة ، لا يتراجع ولا يمل الجدال لأنه عنيدا عاش ، وعنيدا مات ، يتمسك برأيه مهما كانت النتائج ، لا يحيد عنه ولا يتراجع فيه ، يقف دونه كأنه طود شامخ لا يتزحزح ولا يريم ، يصارم ويقاتل بعنف لا هوادة فيه

ولا استثناء ولا يفر ، وإنما يثبت حيث هو ، ينافح فى قوة ، ويقاوم فى شدة ، ويرد فى عنف ، لا يعرف إلى اللين سبيلا ..

* ولعل من اسباب هذا الثبات انه نظيف أولا ، نظيف اليد والنفس ثم هو بعد ذلك وقبله عالم لا ينازل خصمه عن جهل ، ولا يدعى وإنما يجادل بعلم ومعرفة وسعة إدراك وعمق إحاطة لأنه رجل عبقرى ، أثرى المكتبة العربية بفيض مؤلفاته فى مختلف الفنون التى درسها ، وتعمق فى فهمها .

وهو رجل عصامى كون نفسه بجهاده وصبره وجلده ، وتحمل الكثير من المتاعب فى سبيل مجاهرته بالحق ، ودحر الباطل ، ولقى الكثير من العنت لأنه لم يطأطىء هامته ، ولم يدخل فى روعه الخوف ليتراجع فيؤثر العافية وقد تكلف فى سبيل مسلكه هذا القوى الثابت بتلك النفس الطموح التى لا تهاب ولا تخشى العواقب فى سبيل الجهر بما ترى أنه حق ، تكلف الثمن غاليا حتى فاته قطار الحياة الزوجية الوادعة الهانئة . ولعله آثر ألا يجنى على من يرتبط بها ، بما يصيبه من أذى ، وهذا إدراك النفوس الكبار فتحمل تبعة مسلكه وحده وآثر الوحدة متحملا عناءها وشظف العيش فى حياة رجل عزب من غير قرينة ، يسكن إليها وتخفف من آلامه ، وتتحمل بعضها ، وتواسى وتسلى او حتى تتوجع ، وهو أقل ما يجب وأدنى حد يشاركه به .

تحمل وحده تبعة مواقفه وهكذا أراد هو نفسه . ومرد ذلك قوة النفس وبأسها وعنادها وارادتها ، التى لا تفل ، ولا تستسلم لهزيمة ولا تأبه للشدائد وإنما تتخذ منها قوة بهذا المراس المتصل فتزيد فى قوتها وبأسها وهى تنافح على ما تراه حقا وصدقا فى دوامة الحياة الجامحة .. تؤدى فيها دورا كبيرا فى الاصلاح والبناء على أكمل وجه وأخلصه وأصدقه وأوضحه فى نقاء نفس ونظافة يد ، وعفة خلق ، وشجاعة قلب .

يتحمل صاحب هذه الخصال الجادة وحده ، تبعة كل هذه الصفات ، لا يتخلى عن واحدة منها ، ولا ينكص على عقبه ولا يتولى ليتراجع فى شىء قاله أو صنعه لأن ذلك ليس من طباع النفوس الكبار ، ولا سمة للرجل الشجاع ، الكبير القلب ، الواثق من تصرفاته ، والراسخ العلم ، ورغم ان الخطأ يدرك تصرفات الانسان ، الا ان الشجاع من يثبت لا ليمارى فى خطأ وإنما ليعلن فى ثبات وإرادة أنه قال ، وأنه صنع ، ولا يقف دون رأيه فى باطل ، وإنما

لا يهرب ، ولا يدركه الضعف والوهن ، وهو يعتذر وقد أخطأ ، وهو ينشد الصواب وصح منه العزم .

* ورغم مرور خمس عشرة سنة فان العقاد لم يدرس فكره حتى اليوم كما ينبغى ، وما كتب عنه أيسر مما ينبغى ، رغم أن فى الساحة العربية العديد من حملة المؤهلات العلمية العالية والدارسين الذين فى مقدورهم أن يعنوا بهذا الفكر الجبار فيقدمون عنه دراسة عريضة الى جيل اليوم وجيل الغد ، ذلك أقل ما يجب . لهذا الرجل العملاق .

ولا ادرى ، هل القادرون يتهيبون الخوض فى أدب العقاد وفكره خشية أن يختلف رأيه مع آرائهم فيجدون أنصاره يدافعون عنه يردون آراءهم ؟ ، أم هم يخشون ألا يصلوا إلى فكر العقاد فيذهبون مذاهب شتى يبحثون ويستنتجون وينطقون آراءه أو آراءهم هم ؟

أم أن العصر ومشاغله ومتاعبه يحول بينهم وبين الخوض فى فكر الرجل العملاق فلا يريدون أن يكلفوا أنفسهم عناء الدرس ، ولا يرضون أن يقدموا أعمالا لا يرضى عنها العقاد ومريدوه ، ولا يرضون هم عنها ؟

مهما يكن من شىء .. أرجو أن يجد فكر العقاد الدارسين من رجال الفكر ليقدموا الينا دراسة ممعنة مستأنية تجدر بالرجل الكبير وفكره بعيدا عن العجلة التى لا تأتى بشىء ذى بال ، لا يستحق أن ينظر فيه لأنه ليس بذى قيمة .. ورحم الله أديب العربية الكبير ، وأحسن اليه ..

أحمد حسن الباقوري

* قبل سنين خلت ، رأى القراء العرب والمسلمون ، شطحة من شطحات احمد حسن الباقورى ، فى مجلة «العربى» ... التى تصدر فى الكويت ، حول الحجاب ، وشيئا يمس أمهات المؤمنين «واستنكر المسلمون هذا الرأى المريض ، وردوا على الباقورى « الذى ينتمى الى علماء المسلمين » ترهاته .. والحقيقة ان الباقورى .. ليس عنده علم . هذه حقيقة لايمارى فيها العارفون ... والصادقون ، والمخلصون لدينهم .

* ومرة اخرى ، وربما مرات ، لأنى لا اتابع الرجل .. فيما يقول ، ويعلن ، او يكتب .

كان يتحدث فى شهر رمضان ، عبر تلفاز القاهرة ، فكان يقول : أن التغنى بالقرآن ليس حراما . ويستشهد بحديث نبوى ، يقول : «ليس منا من لم يتغن بالقرآن» . ويذكر الباقورى .. آراء الفقهاء ، واكثرها يشير الى ان المقصود بالتغنى .. هو الاستغناء ولكن الباقورى ، يذهب الى ان التغنى .. هو الغناء . وكتاب الله أجل من أن يتغنى به بمعنى التطريب وان كان رأى احد .. أن معنى ذلك الانتشاء بقراءته ، او سماعه .

حتى يقول الباقورى : أن المسافر بالقوافل يسلى نفسه بالحداء ، فذلك القصد من التغنى بالقرآن .

وهذا الكلام مردود على الباقورى ، ومن يرى رأيه ، اجلالا لكلام الله من جهة ، ثم ان التغنى يعنى فى لغة العرب .. الاستغناء ، مثل قول القائل :

كلانا غنى عن اخيه حياته
ونحن اذا متنا اشد تغانيا

ولعل فى العصر الحديث ، احد العاملين والمروجين للتطريب بالقرآن المقرىء مصطفى اسماعيل ، وقد مات الرجل .

* ومن سقطات الباقورى ، مانشرته مجلة «روز اليوسف» ... فى عددها الصادر بتاريخ ٤ من أغسطس ١٩٨٠م ، واسمعوه يقول الى الصحيفة : كما نقل عنه : «ويرى الشيخ الباقورى ان تمثيل الادوار الدينية ... ليس حِراما ، فلا مانع من تقديمها على الشاشة ، طالما كانت اقرب الى الحقيقة ، فقد رأينا الغرب يقدم قصة حياة المسيح ... بعد ان استعان بالصور والتماثيل ، التى توضح معالمه وشكله . ولو كان لدينا فى الاسلام هذا التصوير ، وهذا التمثيل .. لسيدنا محمد لأمكننا تقديم شخصيته على الشاشة» .

أيقول هذا الكلام انسان سليم العقل ؟ وهل الاسلام مثل المسيحية .. التى مسخت ، ولم يبق من الدين المسيحى الا اسمه ؟ ، هل نحن مثل الذين يقولون : المسيح بن الله ؟ ويقولون الله ثالث ثلاثة ؟ . أهذا هو المقياس عند الباقورى ، الذى اصابته لوثة فى عقله ، بعد ان اقعده الشلل عامين لم يبرح داره ، حينما اخرج من وزارة الاوقاف بتهمة ، الله يعلم حقيقتها ، لا أريد الخوض فى ذلك ، وانما المهم الآراء المريضة .. التى يصعدها بين المسلمين ، على اساس انه عالم اسلامى ، وهو من الجاهلين .

لقد ضعف الطالب والمطلوب . فرأى كهذا لايجد من يتصدى له ، ويلجم صاحبه ، بل ويحاسب ويعاقب .. اذا لزم الأمر ، واتساءل : اين الازهر القلعة الاسلامية ، وأين مركز البحوث والافتاء والجماعات الاسلامية ؟ ارجو ان أرى الرد المفحم الملجم لهذا الافتراء وهذه الترهات وهذه الامراض ، ولاحول ولا قوة الا بالله .

في نادي مكة الثقافي

* في نادى مكة الثقافى ، كان مساء الاربعاء الماضى ... موعدا للاحتفاء بالاشراف ، كما سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم حملة كتاب الله فى هذا الموسم الروحى ، مع كتاب الله ، وهو النهج الكريم ، الذى سلكته المملكة العربية السعودية ، فى مسابقات باسم القرآن ، وتمنح الفائزين .. فى حفظ الكتاب العزيز وتجويده ، جوائز مالية ، واستضافتهم ! فى بلد الله الحرام ، باشراف وزارة الحج والاوقاف . انه لنهج قويم ، فى العناية بهذا النور الربانى .

بدأ حفل النادى ، بالقرآن ، واختتم به ، وتحدث الاستاذ محمد سعيد العمودي ، وعبد القدوس الانصارى ، واحمد محمد جمال ، تحدث الاثنان الاولان . عن فضل مكة ، وتحدث الاستاذ جمال عن القرآن ، فاحسنوا جميعهم ، كما تحدث الدكتور حسن باجودة .. استاذ الدراسات القرآنية البيانية ، بجامعة الملك عبد العزيز بمكة وعضو النادى ، عن القرآن وهديه ، فأحسن الحديث ، والقى الاستاذ عبد الكريم نيازى .. عضو النادى ، قصيدة جيدة ، عن النور الذى انزل ، لانقاذ البشرية ... من الضلالة الى الهدى ، فكان موفقا ، مؤثرا ، وتحدث بعض اعضاء الوفود .. عن دور المملكة .. فى العناية بكتاب الله ، وتكريم حملته الأشراف وقدم الحفل الاستاذ يحيى كتوعة ، عضو النادى ، وانها لبادرة كريمة من نادى مكة الثقافى بهذه المشاركة فى تكريم .. هذه الصفوة من اهل القرآن .

وكان لكلمة الاستاذ احمد محمد جمال الاثر الكبير حيث اعلن ، واهاب بشبان هذه الامة المسلمة ، وخاصة طلاب الجامعات ، بأنـه لا قيمـة لشهاداتهم ، اذا لم يعنوا بكتاب الله ، يدرسونه ، ويعملون به ، وكذلك اصحاب الثراء ، ليشاركوا فى الانفاق ، والاسهام فى هذا الموسم القرآنى

السنوى . ولا ريب . فان حال المسلمين لن يكون لها شأن ، ولن ينصروا على انفسهم ، وعلى اعدائهم ، الا اذا تمسكوا بهذا الكتاب ، وعملوا به ، وبسنة الرسول عليه الصلاة والسلام .. الذى انزل عليه هذا الكتاب المبين ، انه سلاحنا ، وقوام اولانا واخرانا ، وهو النصر والحق ، وهو صراط اللـه المستقيم ، من تمسك به هدى الى صراط الله العزيز الحميد .

اللهم أعزنا بالاسلام ، وبربيع قلوبنا .. هذا الذكر ، الذى فيه الخلاص من الهم والغم ، وفيه الفوز ، والنجاة ، يارب لك الحمد ، انت ولى النعم ، الحى القيوم ، سبحانك ... لانحصى ثناء عليك انت كما اثنيت على نفسك ، لا اله الا انت عليك نتوكل واليك ننيب .

أدب الرسائل

* لست أريد أن أتحدث عن أدب الرسائل ، وهو باب كان له مع العناية الشيء الكثير ، ولكنه يوشك ان ينسى ، لأنه أهمل ، ولست أريد أن أبحث أسباب هذا الاعراض ، مع أن فى بعض الرسائل التى يتداولها الناس أو الخاصة تلقى اهتماما كبيرا بالمعنى والديباجة المشرقة والتحليق الفكرى ، وهى التى تكتب فى ساعات صفاء النفس ، أو حتى فى كدرها . فهى لاتخلو من ومضات ابداع وروعة . أما النموذج الصافى ، فانه من خاصة البيان والبلاغة والسحر الحلال .. تتجلى فيها بعض نعم الله على عباده ، بما يهبهم من فضل الجمال ، وليس الجمال .. جمال الصورة ، فهو يزول مع كر الأيام ، ولكنه جمال الخلق ، وجمال التعبير ، وجمال التعامل الكريم .

ولست أريد أن أسترسل فى هذه الصور فهى واسعة . وليس المجال مجالها .

وانما أريد أن أقدم لرسالة من طبيب صديق ، كان فى الجبهة السورية مع اخوته فى حرب ، رمضان ١٣٩٣هـ .

وهذه الرسالة فى غنى عن التقديم ، وأنا لم أعدل فيها حرفا واحدا ، فهى تصور بحماس رزين معركتنا مع عدونا «اسرائيل» .

وتصور تضامن أمتنا واستبسالها فى القتال ، وصبرها فى البأساء ، وهو صبر ليست حديثة عهد به ، وانما هو فى طبيعتها وفى إيمانها بربها .

الرسالة بدباجتها المنسقة ، تتحدث عن الجندى السعودى ، وهو يقاتل بجانب اخوته الآخرين . على الجبهة السورية شجاعا .. صابرا ، لايهاب الموت ، لأن فى هذا الموت نصرة .

لا يكون نصر الا بالموت ، ولعله ثمن النصر .. على حق وبيقين . وفى سبيل الله .

والحرب ليست تسلية والحياة الكريمة فى الدنيا والآخرة لها ثمن . والشهيد فى سبيل الله حى عند ربه . والمقاتل الصابر الشجاع له العزة ، وله النصر المبين كفاء اقباله على اعدائه ، واحتسابه .. لقيامه بدوره فى الحياة .

والجندى المؤمن .. الذى يقاتل أعداءه .. مجاهدا فى سبيل الله ، له خير الدنيا والآخرة ، وله عزة المؤمنين .

من هنا قيل : أطلب الموت توهب لك الحياة .

وربما يطول بى الحديث عن مقام الجندى المؤمن المجاهد فى الله ، انه عنوان النصر اليوم ، ومع الصديقين غدا . منزلة عالية فى الدنيا والآخرة ، لاينالها الا أصحابها .. الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه .

ولاشك أن وراء هذا الاقدام الصادق ايمانا بالجهاد وان وراءه اعدادا جادا ، وتدريبا استنفد الكثير من الجهد والعطاء والعمل المثمر .

ولنترك للرسالة الحديث عن جندى هذا البلد ، من أخ .. راعه ما رأى منه ، فسطر مشاعره فى رسالته التى تحمل الاعتزاز والاعجاب .

لنستمع الى الصديق الدكتور موفق اللحام ، ان صح هذا التعبير ، أو لنقرأ وصفه .. كما كتبه بخطه .

عزيـــزى أبا وديــع

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فاننى أذكركم فى كل لحظة من لحظات العمر وكذلك ابنى صبيح فهو يذكر أخاه وديع دائما وأبدا .. فنحن نعتبركم بأنكم أهلنا ، واعتقادى أننا بالنسبة لكم أهلكم أيضا . وان الذكرى هى النفحة الطيبة من نفحات الحياة ، حيث أن الذكرى ، هى صور الماضى الجميل ، والماضى جزء لايتجزأ من الأنسان .

الا أننى تذكرتك أيام حرب رمضان فى أصعب الأوقات . تذكرتك والموت قاب قوسين أو أدنى تذكرتك فى ليلة ظلماء ولمعان القنابل ودوى المدافع وأزيز الطائرات هى وحدها التى تضىء الظلام الدامس ، وهى وحدها التى تدل على الحياة فى هذا السكون الرهيب . لقد تذكرتك فى تلك اللحظة الحاسمة من تاريخ أمتنا العربية ، حيث كان لى الشرف بأن أكون أحد ضباط الجيش العربى السورى الذين خاضوا غمار حرب رمضان المباركة . كانت اسرائيل قد حشدت

كل قواتها وكل امكاناتها على جبهتنا الشمالية وكان علينا أن نصد هجومهم الشرس ونلقنهم درسا يذكرون به يهود العالم أجمع .

وكنت أتأهب ورفاقى لاطلاق النار ، واذا بى أسمع صوتا يخاطب رفاقه ويعطيهم الأوامر بالقتال بلهجة استطعت أن أميزها بسهولة ، وقد كانت نبرات صوته مشبعة بالايمان والثقة بالنفس ، أنها لهجة من لهجات العرب ، ولكنها ليست لهجة عربية سورية . ونظرت الى جانبى وكان الليل حالك الظلام ، فلم أستطع أن أتميزه من لباسه لاعرف البلد الذى ينتمى اليه ، فأصخت السمع وتذكرتك ياصديقى .. وتذكرت لهجتك ولهجة وديع ، وعرفت أنهم اخوة لنا فى الجنوب ، أتوا ليقاتلوا فى سبيل الله . ومن أجل الذود عن حياض الوطن . من أخوة لنا اتوا من المملكة العربية السعودية ليقاتلوا فى سوريا جنبا الى جنب مع أخوتهم العرب السوريين فقد دمعت عيناى عندما سمعتهم ينادون الله أكبر .. الله أكبر ، ويقاتلون قتال الأبطال ، لقد دمعت عيناى ياصديقى ليس شفقة عليهم ، فهم ليسوا بحاجة الى الشفقة ، لقد دمعت عيناى فرحة مما أعطانا الله ، فأين نحن اليوم من الامس القريب ؟ ان أمس القريب قد انمحى تماما ، وعدنا الى أمسنا البعيد .. أيام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وأيام أبى بكر وعمر ، يوم كانت جيوشنا تأتى من مكة والمدينة المنورة ... لتدك حصون الروم والفرس ، يوم كانت المدينة عاصمة العرب ، ويوم كان العرب كلهم فئة واحدة ، وقد جمع الله القلوب ووحد الهدف ، يوم كانت راية الاسلام ترفرف فوق أقطار وأمصار الدنيا .

لقد دمعت عيناى فرحا بلقاء أخوة لنا نفتديهم بأرواحنا .

لقد تذكرتك يا أخى وتذكرت لهجتك الجميلة . وتبادر الى ذهنى كيف أننا نعيش فى حى واحد .

وتذكرت دارك الجميلة التى أجتمعت بك فيها ، وكيف أصلاها اليهود الصهاينة المجرمون بوابل من قنابلهم المدمرة حتى أنها أصبحت كتلة من الأسمنت والحديد .

كنت وأنا أتذكرك وأتذكر دارك ، أتذكر أبائى وهم يتراكضون تحت الأنقاض طلبا للنجاة وأنا أتأجج غضبا وحقدا على المجرمين اليهود الصهاينة .

لذلك كان تصميمى على القتال كاملا ، والنصر والشهادة فى سبيل الله والوطن .

ولقد كان الصوت المنبعث فى دياجير الظلام بلهجتك الجميلة مطمئنا ومبشرا بالنصر المؤزر ،يأتينا من عند الله ، وكانت ليلة الميلاد ، وكانت ليلة ليلاء ، وانقلب الظلام الى ضياء من كثرة الأضواء المنبعثة من الرصاص والمدافع والدبابات .

وكان صوتك الى جانبى طيلة الليل ، وكان ترديد «الله أكبر» يشق عنان السماء . بصوت عربى أصيل .

وكان صوته شبيها بصوتك ، وكنت أتخيلك أنت يا أخى عبد الفتاح وأنت تقول : تقدموا ياجنود الله .. تقدموا أيها الأبطال : فهذا يوم كيوم بدر ، تقدموا وأعطوا درسا لهؤلاء الغزاة المعتدين ليكونوا عبرة لمن يعتبر وتحدثه نفسه بتدنيس أرضنا العربية الطاهرة .

وكانت ليلة رهيبة .. أعطتنا العزة والكرامة والحقت باليهود الخزى والعار .

وكان النصر حليفنا ، وما طلع الصبح حتى كان أبطال العرب قد سحقوا الجيش اليهودى وفقؤوا عين دايان الأخرى ، وتركوا دماء الكلاب تلف أجسام القتلى من الصهاينة الأنجاس .

ولا أستطيع أن أصف لك كل شىء ، فهذا يحتاج الى رسائل كثيرة ومطولة ، ولكنى أقول لك ، أننى اجتمعت بهذا الأخ المسلم الذى قاتل مع رفاقه جنبا الى جنب ومع اخوته السوريين ، ودافع عن سوريا وكأنه يدافع عن جدة ، وهو أسمر اللون نحيف الجسم .. قاسى القلب على الكفار ورحيما بأخوته ، وكم كان عجبى كبيرا حين قال لى وانا اعانقه عناق الابطال للابطال فوق أنقاض طائرة فانتوم .. أحرقتها صواريخنا الجبارة ، والى جانب حطام دبابة «سانوتوريوم» يتصاعد منها دخان أسود .. احترقت بقنبلة مدفع مضاد للدبابات على أيدى أخوتنا السعوديين .

لقد قال لى هذا البطل الشجاع «كنت أتمنى الشهادة لاذهب الى الجنة ، وأروى لجنودنا كيف أصبح العرب جميعا أخوة يقاتلون فى سبيل الله ويقتلون أعداء الله وثقتهم بأنفسهم عظيمة وايمانهم بربهم وبدينهم قوى متين» .

فحيا الله العرب فى كل مكان وحيا الله عرب السعودية الاكارم وحيا الله مليككم العظيم فيصل الذى خاض المعركة ومدها بالمال والرجال . وتحية ملؤها الصبر لأرواح الشهداء الأبرار وخاصة ذاك الجندى العربى السعودى الذى أحرق الدبابة الاسرائيلية بقذيفة مدفع صغير يحمله بطل شجاع .

تحية لأخوته الأبطال الميامين وسلامى لك أيها الأخ وسلامى الى كل فرد من المملكة العربية السعودية تلك البلاد التى ظهر فيها الاسلام وانتشرت منها أعظم حضارة عرفها التاريخ .

والسلام عليكم ورحمة الله

اخوك الدكتور
موفق اللحام

جد جرح

قصيدة مشهورة ، ترددت على الالسنة ، وتغنى ، منذ وقت طويل ، يتجاوز المائة سنة ، ذلك .. ان صاحبها .. توفى فى القرن الثانى عشر الهجرى ، فى دار الهجرة ، وهو سورى الاصل ، والقصيدة مطلعها : —

بات ساجى الطرف .

وقد وقفت .. على ترجمة ، لصاحب هذه القصيدة المشهورة ، التى سارت بها الركبان كما يقولون ، والترجمة ، كانت للدكتور زكى مبارك ، جاءت .. فى احدى مقالاته .. التى كان ينشرها فى مجلة الرسالة المصرية .. فى الاربعينات الميلادية .

ومن تلك القصيدة ، هذا البيت ، الذى اخذت جزءا منه ، عنوانا .. لهذا الموضوع . وأحسب ان الشاعر الدكتور ناجى .. اخذ هذا البيت ، واضاف اليه كلمة واحدة .. فبيت صاحبنا ، يقول :

كلمـــا داويـــت جـــر حـــا .. جـــد جـــرح

وناجى يقول :

كلمـــا داويـــت جرحـــا جــ د بالتـــذكار جـــرح

ما علينا ، فالموضوع اليوم ، لا يتصل بهذا المبحث ، وانما المصادفة .. دعت الى هذه الاشارة العابرة ، وسبق ان كتبت موضوعا ، فى احدى يومياتى .. بهذه الصحيفة ، فى العام الفارط ، عن صاحب هذه القصيدة ، بعد .. أن قرأت ما كتبه عنه زكى مبارك .

مضت ايام .. حوالى الشهر ، على البحيرة .. التى كانت فى شارع ، سمو الامير فهد ، واخيرا بعد سبح السيارات والمارة فيها ، عولجت ، وانتهى اذاها ، فى شارع رئيسى كبير ، يعبر بالسيارات ، من كل الجهات ، حتى سماه الفنان .. بمجلة اقرأ الاستاذ محمد مهداوى ، بمدينة ملاهى ، لان السيارات .. فى هذا

الشارع ومفارقه ، اشبه .. بوضع .. مدن الملاهى ، تتلاقى السيارات ، ويدق بعضها بعضا ، ويمنع الاذى ، تلك الصدامات الكاوتش . ولكن الطفح ، عاد ، كما رأيت مرة اخرى ويبدو ان المعالجة ، كانت وقتية ، فعاد الطفح .. من جديد .

غير ان النهر ، الذى يتدفق كل يوم ، فى شارع الملك عبد العزيز ، الذى ينبع من امام « فندق القدس » .. مقابل .. فندق جدة بلاس ، مصدره .. مجارى العين العزيزية ، كما قال لى .. الأخ محمد على ابو صفية ، مساعد رئيس البلدية ، ومدير البلدية ـ قسم البلد ـ .

والمجرى الآخر ، قرب .. مستشفى الدكتور خالـد ، عنـد بنايـة الجمجوم ، وليس جديدا ، وربما مضى عليه .. اكثر من سنة .

وكنت طوال الايام ، أترقب معالجة ، لمجارى العين العزيزية الدافقة فى الشارع ، تلوثه ، وكذلك المارة ، حيث .. تمر السيارات .. مسرعة ، فلا يبالى قائدوها .. بالماشى ، تبعا للمثل القائل . الراكب .. لا يرى الماشى ، ويصل انسياب .. مجارى العزيزية ، الى فندق ـ انترناشيونال ـ عند اشارة « باب جديد » .

كما .. كنت اتوقع ، خلال الشهور ، معالجة .. التدفق ، فى شارع المطار ، فى الموضع .. الذى اشرت اليه . غير ان كلتا الحالين ، لم تعالجا .

وربما ، قام قسم المراقبة فى البلدية ، بالتنبيه ، والكتابة ، الى فرع بلدية البلد ، غير ان اجراءا فعالا .. يبدو ، لم يتخذ ، رغم .. وجود اوامر .. من الامارة ، بتكليف .. اصحاب البيارات بنزحها ، ومعاقبة المخالف ، اذا لم يستجب .

أحسب ، ان العين العزيزية ، قادرة .. على اصـلاح مجاريهـا ، ومعالجة .. انسداداتها او ربطها .. بالمجارى العامة ، حتى يسلـم هذا الشارع .. من ويلات هذا القذى ، فلا يتلف زفته ، ويتجدد الاخدود فيه . وتفادى .. هذه الاضرار ، مبدأ ، من مبادىء النظافة .. التى ينبغى العناية بها ، حفاظا .. على صحة الناس .. من الاذى ، ونفس الحال ، فى ذلك المجرى بشارع المطار . وهما مسئولية بلدية البلد . ويبدو .. ان التنبيه ، لم يجد ، والاجراءات الموقوتة ، لم تصل .. الى نتائج ، غير ان الموضوع ، يتطلب

حسما ، كما حدث ، فى شارع الامير فهد ، حينما طفح الكيل .

اننا .. على ابواب العيد ، يسرح الاطفال .. فى الشوارع ، يحتفون بالعيد ، فلا أقل من ان تكون الشوارع ، والاحياء .. التى يمرون منها .. نظيفة ، من جميع اوجه النظافة ، فلا تتلطخ ثيابهم الجديدة ، ولا يؤذيهم تكدس القمائم .. فى الساحات .. والاحياء .

والعيد .. مظهر جمالى فى النفوس ، وانه .. ليكون اجمل ، حين تتوافر النظافة ، والطهارة وها هو رمضان .. يودع ، وكان فيه .. ما كان ، من هذه المياه القذرة ، تنساب ، فى اكبر الشوارع فتعكر .. صفاء النفوس ، وتؤذى الصائمين ، فكان .. ذلك .. التأفف ، وسد الانوف ، والهروب من « الطرطشة » ، حتى لا يكون .. اذاءان ، فى النفس ، وفي الملابس . ولو كانت .. هذه المياه طاهرة ، لهان الامر .

انه رجاء .. الى سعادة رئيس بلدية جدة ، ان يعمل .. على حماية الناس .. من هذه الاضرار ، وهو الذى يهتم . بمظهر المدينة ، ويحرص .. على توفر النظافة ، لأنها من الايمان ، والله المعين .

مَعَالم

مزايا هذا الشهر ـ رمضان ـ كثيرة ، وهو فرصة للذين يرجعون الى ربهم بذنوبهم وأثقالهم منها .. ليتجاوز سبحانه عنها بفضله ورحمته ..

رمضان يعود عاما بعد عام ، ولكن الاعمار تنتهى ويذهب الأحياء فلا يعودون الى هذه الدنيا ، ذلك قدرهم الذى لا مفر منه . اذن .. فان من يدرك رمضان ينبغى ان يصفى حسابه فيه .. تصفية واحدة ، مثل من يدرك الحج .. شريطة الا تتجدد الذنوب ، وينكث العهد ، وتنقض التوبة فلا فائدة من مثل هذه التوبة ، لانها ليست نصوحا .

والله سبحانه وتعالى يقول « وانى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى » .. والذين يتوبون ويؤمنون الايمان الصادق ويعملون الصالحات .. يبدل الله سيئاتهم حسنات .. كما جاء فى القرآن الكريم .

رمضان شهر القرآن .. هداية الله الى خلقه ودستور المؤمنين ، وحجة الله على الخلق ، فيه خير الدنيا والآخرة ، وفيه النجاة من الكرب اليوم وغدا ، وما تخلف المسلمون فى عصر من العصور .. الا وهم بعيدون عن كتابهم هذا ، وما رجعوا اليه واقاموا حدوده .. الا كانت لهم العزة والرفعة والفوز .. والنصر .. رمضان شهر النصر ، عبر تاريخنا الطويل ، ولعل هذا النصر .. كون الانسان قريبا من ربه .. بقلبه ومشاعره وعقله وروحه ، فكان الله معهم ـ « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ، أجيب دعوة الداع اذا دعان » ..

الايمان الحق ، والاستجابة الى الله .. الطريق الى العلا والاعزاز .. والحياة الكريمة .. التى تليق بالمؤمنين الصادقين .

لا جدال اذن .. فى ان علو شأننا لا يتأتى الا بقد ما نكون قريبين من الله .

وما أيسر العمل الصالح لمن يبتغيه ، عبر وساوس الانسان والفتنة التى تحوط به ، واشد فتنة على هذه الامة كما قال رسولها صلى الله عليه وسلم .. هى المال ، والقرآن الكريم يعلمنا بما جاء فيه قول رب العزة العليم بنا والمكون لهذا الكيان من طين ، قال تعالى « انما اموالكم وأولادكم فتنة » . وبعد هذه الأية .. يأتى قوله عز شأنه « فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا واطيعوا ، وانفقوا خيرا لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » . اية تعالج الفتنة وتغلبها ، بتقوى الله وسماع ما أمر واطاعته ، ثم الانفاق فى سبيل الله ، ولا يتلاقى انفاق وشح . اذن فالكريم قريب من الله . قريب من الخير ، لأنه عرف طريق الله ، وتغلب على النفس الشحيحة التى اذا مسها الخير منعت ، والبخيل بعيد من الله ، بعيد من رحمته .

رمضان .. موسم الأرواح ، وفرصة العمر .. ليحاسب الانسان نفسه ، ويفتح صفحة جديدة .. اذا كان راشدا .. ويعتقد انه اذا أمسى فلا ينتظر الصباح ، واذا اصبح فلا ينتظر المساء ، انه يسعد حين يطرح اوزاره . ويهرب منها الى الله .. تائبا .. عسى ان يكفر عنه سيئاته انه الفوز العظيم الذى ينعم به من يتزحزح عن النار ويدخل الجنة .. وانه لفوز حين تغمرنا رحمات الله ويحاسبنا حسابا يسيرا وقد كان رسولنا يدعو ربه .. ان يحاسبه حسابا يسيرا . وبعد الحساب اليسير الانقلاب بسعادة غامرة الى الحور العين ، وهم ما عناهم القرآن بالاهل ، او مع الاهل الذين كانوا فى الدنيا .. يلحقون بالسعيد اذا كانوا على النهج الكريم « والذين امنوا واتبعهم ذريتهم بايمان الحقنا بهم ذريتهم » .

رمضان .. شهر الامة المسلمة وموسم سعيها الجاد الصالح ، ولقد أكبرت إشارة معالى الشيخ فى كلمته .. حين لام على الذين يرددون شهر اكتوبر ويتركون رمضان .

رمضان له تاريخ فى هذه الامة وانتصاراتها ، ذكريات لا تنسى ، مواقف ايمانية .. بطولية ، نصر اعز الله به هذه الامة بدءا من بدر وامتد الى عصر صلاح الديـن ، وتجـدد فى يوم العـاشر من رمضـان .. نحـن أمة مسلمة ، نرتبط بتاريخنا ومواسمنا الدينية ، وأسماء شهورنا وأيامنا ، لنا فيها اعزاز ، ولنا ذكر .. انتصرنا حين عدنا الى الله .. وفررنا اليه سبحانه ، نسأله النصر والتأييد والعون .

سلاحنا عزائمنا والاتكال على الله .. ومعيار ذلك الايمان الحق الذى لا تزعزعه الاحداث وانما يزداد معها رسوخا وعمقا وتمكنا من النفوس حتى تصفو وتخلص فى جهادها من اجل اعلاء كلمة الله ، واقامة حدوده .

من فضل الله على خلقه معالجتهم بالصوم ، تتخلص أجسامهم من رواسبها وفضلاتها وتشفى ، انه طب السماء .. وقد ادركه العلم بآخرة ، فجربه ، وأخذ يعالج به الأمراض المستعصية .. ، يعالجها بالصوم ، فصحت .. ونحن طبنا عندنا ، وعلاجنا عندنا ، ولكنا شقينا حين تركنا كل ذلك خلف ظهورنا ، وذهبنا نفتش عنه عند اطباء الافرنج وعلماء الافرنج ، فباعوا علينا بضاعتنا . ما اخلقنا ان نتوكل على الله حق التوكل ، ونتمسك بما عندنا من أسس وقيم .. لا نحتاج بعدها الى سواها ..

ذكريات مع الشيخ الغزاوي

رحم الله شيخنا احمد بن ابراهيم الغزاوى الذى مضى الى ربه بعد حياة طويلة ، حفلت بالعمل والمثابرة والصبر حقبة من الزمن ، أخلص فيها الرجل لوطنه وقادته وكان مثال الموظف الحريص الذى يقدر عمله ، وفنى فيه ، وفق المنهج الذى اعطى له ، والمركز الذى وجد فيه ، بعد تنقل فى بداية حياته الوظيفية المختلفة ، فكان امينا .. على الوظيفة من واقع حرصه ، حتى انه لايغادر البلاد ، ولايغيب عن البلد الحرام ، مقر عمله الا نادرا وفى حدود المناسبات الكبرى ، وشعره الذى كان يلقيه ... فى مواسم الحج فى مكة ومنى ، فى تجمع المسلمين ، يجنح فيه الى الحث على وحدة الأمة المسلمة ، والاعتصام بحبل الله المتين ، وتقوية اواصر الاخوة المسلمة ، والبعد عن الانقسام والتناحر والفرقة ، كان يوقع على هذا الوتر ... فى كل موسم حج ، وفى كل مناسبة اسلامية ، اكثر من نصف قرن من الزمن ، الى جانب مشاركته فى المناسبات الكبرى ، كصوت مجلجل ، يجيد بتفوق الالقاء الذى يشد الجماهير ، فهو خطيب منبرى ، ورائع الاختيار .. فى اختطاف الصور ، وسبك الالفاظ الجزال ، والقوافى الرنانة ، والبحور الكاملة التى توائم الكلمات والقوافى ، وكذلك التزامه مع مجلة المنهل حوالى ثلث قرن ، يكتب فيها تلك الشذرات الذهبية ، ينقب ويبحث عن فرائد اللغة ومصطلحاتها ، والامثال والعادات ، والتاريخ وأصل الكلمات العامية والعربية ، وما دخل فيها من اللغات واللهجات الاخرى ، على نحو دقيق ، لاينهض به الا محيط وصابر .. على هذه الاستنباطات والبحث الوعر .

ويقال : ان عند الرجل الكثير مما كتب .. ولم ينشر ، من غير شعر المناسبات ومما كان ينشىء ويخفى ، كمسلك اختاره لنفسه ، وحساسية تحيط

به ، كنوع من الوقار ، التزمه مركزه فى الدولة ، منعه من أظهار ماكان ينشىء من ادب فى المنظوم والمنثور ، كحصيلة لمطالعاته الواسعة فى الكتب ، كتب التراث والحديث ، الى جانب حرصه الشديد على متابعة الصحف وماينشر فيها محلية او خارجية ، ولعل احدى جامعاتنا ، تبادر الى شراء مكتبته الغنية كما اتصور ، لتفيد منها وبها [1] . وان يبحث اصدقاء الفقيد عن انتاجه ، فيجمع ويبوب وينشر ، شعرا ونثرا وفاء له واثباتا للتاريخ ، فقد اصبح ماترك ملكا للتاريخ ، بعد ان كان له وحده وهو حى .

وأستأذن القراء ، بأن اجيز لنفسى التحدث عن بداية معرفتى بالفقيد عليه رحمة الله ــ فأول ماسمعته ، كان يوم عودة الجيش السعودى من فلسطين فى عام ١٣٦٨هــ . فالقى قصيدة يحيى فيه جيشنا بدوره فى الجهاد ، فى قصر خزام او حوله ، ومطلع تلك القصيدة :

عـــاش البواســـل وليفـــن النتابيـــل

ولا اذكر بقية البيت ، وربما كانت هذه الشطرة عجز مطلعها وصدق شوقى حين قال :

اختـــلاف النهـــار والليـــل ينســـى .

ثم سمعته ثانية فى ميدان الصبان ، ايام كانت تقام فيه المباريات ، فقد أقيم فيه مهرجان شعرى ووقف الغزاوى منشدا فى قوة وشمم ، وكان بجانبه شاعر فحل هو الدكتور «حسان حتحوت» ومطلع قصيدة صاحبنا وكانت المناسبة اتحاد بين مصر والسودان اذا لم تخنى الذاكرة . فقال الغزاوى فى عهد الملك سعود رحمه الله .

احيى السمـــر والبيض الرقاقا ــــــ واملأ مسمـــع الدنيـــا اصطفاقا

وحينما انشأت والصديق محمد سعيد باعشن صحيفة الاضواء ، فى عام ١٣٧٧هــ . كنت والباعشن عند الاستاذ محمود رضا مدير مطبعة السيد الشربتلى فى الكيلو الخامس بطريق مكة ، نبحث امكانية الطباعة ، فجاء الشيخ

---

(١) اهديت مكتبته إلى جامعة أم القرى

الغزاوى مارا بالسيد محمود رضا ، ورآنا ، وعرف اننا نعد العدة لاصدار الاضواء ، وكان فى قوته وفى مركزه كالاب بالقياس الينا ، وكانت حماسة الشباب ملء اهابنا كما يقولون ، وبادرنا ونحن نتهيبه ، لخبرته فى عالم الأدب وبعد صوته ، ومركزه فى الدولة وسنه . بادرنا دون ان يبدو منا مايثيره قائلا : وهو يهز «البسطون» الذى كان يصاحبه : ان من ينقدنى سأضربه بهذا البسطون ، ولم نقل له شيئا ، ولكن وقر فى نفسى كلامه ، فى صورة التحدى ، وترسخ فى نفسى هذا التحدى وتعمق .

ومرت شهور ، وكان الملك سعود رحمه الله يعالج فى امريكا ، وعاد معافى وجاء الشيخ الغزاوى فى فندق قصر الكندرة ، يهنىء بالسلامة من المرض وألقى قصيدة مطلعها :

الشـــرق عوفـــى وقـــد عوفيـــت والعـــرب

ووجدتها فرصة ، وتحرك فى نفسى ذلك التحدى ، فتصديت للقصيدة ... اشرحها واخرج عيوبها ، وقلت : انها مسخ لقصيدة المتنبى المشهورة :

المجد عوفى إذ عوفيـت والكرم وزال عنـك الى اعدائـك الالم

لاسيما والشيخ قد حشد فى قصيدته تلك الفاظا لاتليق بشاعر كبير ، ولا بالمناسبة التى قيلت فيها ، مثل قوله :

اســـتوى المـــاء والخشـــب

وقولـــــه :

والصـــدع والرجـــع والاســـنان والركـــب

وكان ان انعكس اثر ذلك النقد على استاذنا الشيخ محمود عارف عضو مجلس الشورى ، فقد اريد انتداب احد اعضاء الشورى مع اخرين من دواوين الدولة ، للوقوف على املاك الدولة فى المملكة ، وكتابة تقرير عنها ، وكان الدور على الصديق محمود عارف ، لأن زملاءه اعتذروا وليس فى وسعه ان يعتذر ، ولعل الشيخ الغزاوى رحمه الله ركز عليه ، فطاف الاستاذ عارف على سيارة «لورى» شمال البلاد وجنوبها رحلة ربما استغرقت ستة اشهر او اكثر ، تعب

فيها ، واستفاد جغرافيا ، وحين حط رحاله فى جدة ، التقينا به . « مسلمين» ، فبادرنا قائلا : انا صاحبكم ، ونقدكم الشيخ احمد غزاوى ، يجعل اثار النقد تنعكس على تصرفاته معى ، ربما يظن ، اننى احرضكم على ذلك ، فدعوا الرجل وشأنه اذا اردتم راحتى ، فضحكنا ، ولم يكن امامنا الا ان نستسلم ، فأستاذنا لانرضى ان نغضبه ولا ان نخسره ، وكثير هم الذين يضعفون امام اصدقائهم ، وقليل هم الذين يتصلبون ويصرون على ارائهم ومواقفهم .

غير ان العلاقة مع المرحوم الشيخ الغزاوى توطدت وقويت ، ولم يعد يهز العصا فى وجوهنا ، ملوحا بها انه يضرب من ينتقده ، لو لم يثرنا فى البداية لما شغلنا انفسنا او تصدينا لما يقول ، فهو شاعر ، يجيد ويخفق ، ولا بأس عليه .

واشهد ان الرجل : كان كريم الاستجابة ، فقد كنا نكتب اليه فى المناسبات مثل مرور عام على اصدار صحيفة ، فنستكتب اخوتنا ، وكان الشيخ الغزاوى اول المبادرين والكاتبين ، ولعل قصيدته التى قدمها الى الرائد «الصحيفة» كتحية فى مطلع عام جديد لها ، وقد اشرت اليها ، فى مقالى «جدة على السنة الشعراء» المنشور فى العدد الخاص عن «جدة» صورة حية ، لنفسية الرجل الكريمة وايثاره لجدة واهلها ، وما الرائد الا معلم فى جدة ، ارجو الله له الرحمة والغفران .

الاضراب والمظاهرات

كان يوم الثلاثاء ٢٧/٢/١٤٠٠هـ ، يوم اضراب فى ايطاليا ، دعا اليه الحزب الشيوعى فيها ، فتعطلت المصالح ، وكثير من المرافق العامة ، وانشلت الحركة ، حتى فى الفنادق غاب العمال ، فلا طعام ، ولاخدمة .

وايطاليا ، ابتليت .. منذ سنين بالاضرابات ، وكثرة المظاهـرات ، والسبب ، الشيوعية ونفوذها ، واجرامها فى حق الشعوب ، فهى تبث سمومها ، وتريد ان تدمر العالم .. لو اتيح لها ذلك ، والعالم .. فى ضياع ، لانه فقد ايمانه بربه ، فهو عالم ملحد .. كفور ، استحق هذا البلاء .. الذى حاق به ، ولاينقذه منه ، الا رجوعه .. الى ربه ، يرجوه النجاة ، ويعبده بحق ، فهو سبحانه ، الخالق ، الرازق ، المنجى ... الذى ينصر الحق ويرفع البلاء ...

والذى زار البلاد الداخلة .. فى الفلك الشيوعى ،، راى زراية الانسان ، وذله وانسحاقه ، فهو فقير ، جائع ، ضائع ، مهين ، مضطهد ، محروم ، خائف ، لاحول له ولا قيمة ، يتساقط .. على فتات العيش ، لانه محروم من النعمة ، ومن الامن والامان ، معدم .. لايقدر على شىء ولايملك شيئا ، لاحيلة له ، لايملك شيئا ، وليس له ارادة ، ولا حق هكذا الشيوعية ، مدمرة ، ماحقه ، لاتبقى على شىء ، كالطوفان ، وكالنار ... فى الهشيم والاعصار الجارف .

وكنت وانا ارى المظاهرات فى ايطاليا .. من قبل فئات الشبان ، اتمنى لو اتيح لتلك الحكومة ان ترسل جماعات منهم ... بين الحين والآخر لزيارة الدول الشيوعية ، ليروا بأعينهم الحرمان ، والخوف ، والذل ، حتى يذكروا نعمة الله عليهم ، ويثوبوا الى رشدهم ويؤمنوا ، ولاسبيل الى المقارنة ، فبلد صغير مثل سويسرا ، اذا قيس بأكبر بلد شيوعى لانجد للمقارنة سبيلا ، بين حياة الرفاهية والامن ، وحياة الانسحاق والحرمان والمهانة .

ليت عقول المتطرفين والملحدين .... تثوب الى رشدها ، وتتأمل ، وتفكر ، لتعود الى سبل الخير والرشاد ، فهى الطريق الأمثل ، والأسلم ، والهدى .. هدى الله واذا كانت البشرية . تريد الاستقرار ، والحياة الكريمة ، وقد كرمها ربها ، وخلقها فى احسن تقويم ، فلتناهض الشيوعية ، وتحاربها .. بكل الاسلحة ، وتقف فى وجهها سدا منيعا ، لتحمى نفسها وكياناتها ... من الدمار .. الذى لايبقى ولايذر ، نعوذ بالله من الكفر والالحاد ، والشيوعية وويلاتها المهلكة للبشرية والانسانية جمعاء .. فسحقا للشيوعية وانصارها ، ودعاتها ، ومعتنقيها .

ليت البشرية ، تتدبر امرها ، وتتخذ موقفا معاديا لبلاء الشيوعية ، وتنتصر لنفسها وللحق ، لتعيش فى امان وامن ، هانئة .. وادعة ، لايكدر صفوها .. وحياتها وباء الشيوعية الكافرة الملحدة ، التى تنكر وجود الخالق ، وتعمل .. على تدمير البشرية ، اينما كانت ، وحيثما وجدت ، نرجو الله ان يدمر الشيوعية واعوانها ، وان يجعل كيدها فى نحرها ، وينزل عليها بأسه الشديد .. الذى لايردعن القوم الظالمين . وان يعم الكون السلام ، الذى هو مطلب البشرية والانسانية كلها . فلا حياة بغير امان واستقرار وقربى من الله ورجوع اليه ، فهو سبحانه .. الذى يكشف السوء . وينجى من الغم عباده المؤمنين .

كلنا يشكو فمن المشكو ؟

* فى عزاء المرحوم الشيخ حمزة عجاج ، جلس بجانبى معالى الشيخ محمد عبد الله رضا ، وزير التجارة السابق ، وسفيرنا فى القاهرة ثم فى باريس سابقا ، وكنت بجانب الشيخ على دفع ، وكنت واياه زميلين فى الجمارك ، وهو اكبر منى سنا واقدم عملا ، واكثر خبرة ، واكبر مركزا ، وقال الشيخ محمد رضا ، موجها الحديث للشيخ على دفع ، يا اخ على « لماذا انت مخزون لا تظهر ، بدرى عليك ، فأنت لست عجوزا ؟. ورد الشيخ ، بما نرد به عادة ، من الانشغال ، وهموم الحياة ، وأخذ الشيخ محمد يقول : إن الناس .. أصبحوا لا يلتقون الا ندرة وفى مثل هذه المناسبات ، حتى فى الأفراح لا تجد كل الأصدقــاء والاخوان ، البلد كبر ، والمشاغل كثرت .

وقابلت رجلا آخر ، هو الشيخ محمد على ابو داود ، ولم أره منذ خمس عشرة سنة ، منذ ان تركت العمل فى الجمارك ، وكنت اراه فيها ... يراجع ويخلص البضائع بنفسه ، لا يعتمد على مخلص ، كما هى الحال اليوم .

ودار الحديث نفسه ، وهو حديث أصبح معادا ، وأصبح شكوى ، وضعفت أواصر العلاقات ، بين الأصدقاء ، وحتى بين الاهل بعضهم بعضا ، وأصبحنا والعياذ بالله اشبه بأولئك الذين كانوا يعتذرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن يكذبهم ، حين قال على السنتهم ثم عقب عليهم ، فى قول الله تعالى : « شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم » .

واخذ الشيخ ابو داود .. يقص على أخبار الجيل الماضى ، فيقول مثلا : اذا مرض رب اسرة ، كان الجار يبعث خادمه ، او جاريته الى بيت جاره المريض ، او المسافر ، ليسأل ربة البيت هل تحتاج شيئا من السوق ، فتعطى

الرسول قروشا وتخبره أنها تريد كذا وكذا من الخضار واللحم وما اليهما ، والذى ليس له خادم او جارية يدق بنفسه على باب جاره الغائب او المريض ، ويؤدى هذه المهمة . وكان الرجل ، حين لا يرى صديقه او جاره فى الصباح . يبعث بابنه الى بيت الصديق او الجار ، يسأل عنه ، ويتفقده ، ويسأل الاسرة هل تريد شيئا من السوق ، وكان الخبز يوضع على عتبة الباب ، فيأخذه اول مار ، يحمله الى الفرن ثم يعود به ناضجا وكان العالم من البلد بعمته وجبته ، لا يستنكف فى آداء هذه الخدمة لاخيه المسلم ، وكان من لا يرى صديقه قبل الزوال ، وقد اعتاد ان يراه ، يسعى الى بيته بعد الظهر .. يسأل عنه ، ربما كان مريضا ، او حل به مكروه ، وكان .. وكان الشيء الكثير من التراحم والتواد ، وقربى النفوس والايثار ، والحب ، حتى ان من لا يملك ارضا يتبرع له صديقه بالهواء ، فيبنى دارا فوق دار الصديق المالك .

واليوم اختفت هذه الملامح الخيرة ، وذهب الود ، وحل محلها ما يشبه القطيعة والنفور والجحود وانحسر التوقير . يغيب صاحبك فلا تسأل عنه ، ولا تتفقد حاله ، ويختفى جارك ، فلا ينال منك ايسر حقوق الجار ، وهو السؤال عنه . حتى ذوى الأرحام .. انقطع بعضهم عن بعض ، وبرغم سهولة المواصلات ، فحتى المكالمة الهاتفية عزت ، والسؤال تقلص . ركب النفوس الشح فى كل شيء فجفت العاطفة ، وانحسر الوفاء وغاب التراحم ، وتحكمت القطيعة ، بقصد ، او بغير قصد ، وتغيرت النفوس ، ومازلنا نلوم الزمان ،

ولا نلوم انفسنا ، ولا نحاسبها على التقصير والتفريط . اصبحنا نفرط .. فى اشياء كثيرة ، وضعف فى نفوسنا كيان القيم . نرددها ، نلوكها ، ولكنا لا نصنعها ، ونشكو ، ولكنا لا نبحث عن العلاج ولا نعمل له ، كأننا فى يوم المحشر ، نفسى ، نفسى ، نسرف فى اشياء ، امرنا ان نكون فيها قواما ، ونقصر فى اشياء ، امرنا ان نتجمل بها وفيها . شغلتنا الدنيا ، فاصبحت اكبر همنا ،

وتركنا ذلك الدعاء الكريم ، نسيناه ، فندر من يقول اليوم « اللهم لا تجعل الدنيا اكبر همنا ولا مبلغ علمنا » . فسلط الله علينا اعداءنا من كل مكان : كأمة مسلمة ، لها كيانها ومقوماتها ، يبلغ تعدادها مليار نسمة ، مستضعفة ، اما القوى فيها ، فانه فى اقتتال دائم ، مع اخيه وجاره يتربص به الدوائر ، والكيد

له ، ويتحين الفرص للانقضاض عليه ، بدلا من مواجهة الاعداء .. الذين يحيطون بنا ويسعون الى تمزيقنا وتفتيتنا وطحننا ، نسينا خالقنا ، فأنسانا انفسنا ، فما اجدر المجتمع المسلم .. ان يفيق ، وان يصحو ، وان يعى ما اوجب الله عليه ، نحو نفسه ، ومجتمعه ، وامته ، فيؤدى دوره ليكون جديرا باستخلافه فى الارض .. كما أراد الله ، لا يكفى ان نشكو والشكوى لله ، ولكن ينبغى ان يحل العمل والاخلاص فيه .. محل الشكوى ، فذلك هو الطريق الحق .. ودعونا نردد بنية خالصة لله فى كل وقت « اللهم لا تجعل الدنيا اكبر همنا ولا مبلغ علمنا » .

الدكتور حسن أبو ركبة

قرأت فى جريدة « البلاد » كما قرأ غيرى ، خبر قبول استقالة الصديق ، الأخ الدكتور حسن ابو ركبة من ادارة مؤسسة « البلاد » للصحافة والنشر وكانت استقالة الدكتور اصرارا منه ، بعد أربع سنوات ونصف عملها فى المؤسسة ، حقق فيها الكثير لها ، من التطور والنهوض ، وكان له دور كبير .. فى انشاء دار « البلاد » للطباعة والنشر ، واعطى الكثير من جهده للمؤسسة والمطبعة ، وحقق الكثير لها من النجح والتطوير ، وكان كثير الصمت ، قليل الكلام ، كثير التحمل ، كثير الصبر ، لا يغضب بسرعة ، ولا يحب ان يثأر لنفسه ، أو يقابل اساءة بمثلها ، سمح التعامل ، كريم الزمالة ، طابعه البارز الوداعة ، والهدوء . ولاشك ان مؤسسة البلاد قد خسرته ، كرجل ادارة ، وخبرة ادارية واسعة ، يعالج المشاكل بنظريات فيها الكثير من البعد والتريث ، لا يتعجل فى اتخاذ القرار ، فكان نعم الزميل ، ونعم الصديق . ولن انسى الأيام الجميلة التى جمعتنا فى الادارة ، بدون سابق معرفة ، ورغم اننا كنا نختلف ، ولكنه اختلاف تحكمه المصلحة العامة ، وسرعان ما نعود .. الى التفاهم ، لأن الهدف لم يكن الخلاف الذى يعنيه المثل السائر « خالف تعرف » وانما كانت وجهات نظر ، تلتقى حينا ، وتتباين احيانا . وطوال ايام الزمالة ، وسيظل إن شاء الله مكان التقدير والود ، هما طابع العلاقة الكريمة .. التى يحرص واحرص على امتدادها ، ذلك ان الصفاء هو مظلة الحياة الوادعة ، المستقرة ، الهانئة ، والعجيب فى الحياة ، وهى محك بارز للعلاقات ، انك من السهل ان تخسر صديقا ، ومن الصعب ان تبنى صداقة .. على خلق . ذلك .. أن الاخلاق لم تعد مطلبا كريما اليوم ، والصداقة المثلى ندرة ، والوفاء نردده ، ونقرؤه .. ولا نجده فى كثير من علاقاتنا العامة والخاصة .

ان الدكتور حسن عبد الله ابو ركبه ، كان مثالا للخلق الدمث ، كاسمه ،

وكان مثالا للأدارى الامين الناجح ، المخلص لعمله ، يؤديه برباطة جاش ، ويعلمه الادارى الذى اتقنه دراسة ، ووسعه خبرة واحسنه آداء ، بجد وصبر ، وتضحية ، كما كان عميدا ناجحا فى كلية الاقتصاد والادارة بجامعة الملك عبد العزيز ، واستاذا مشاركا فيها اليوم ، ينهض بالاعباء التى توكل اليه ، ولا ادل على ذلك من اختياره عضوا فى مجلس الاعلام الاعلى ، وفى المؤسسة العامة للكهرباء ، ورئيسا لمجلس إدارة مشروع الامير فواز السكنى التعاونى من قبل وعضوا فعالا فى الجامعة ، يختار للمهمات فيشارك فى الوفود الى الجامعات الامريكية .. لدراسة الأسس والتطور فى الدراسات الجامعية ، وتبادل الآراء ، ثم عكوفه على البحث العلمى ، الذى هو مقياس نجاح الاستاذ الجامعى فى دوره القيادى الكبير ، ونجاحه فى الدور ، الذى يخدم الجامعة ، ويبرز مكانة عضو هيئة التدريس .

تحية وفاء واعزاز واكبار . لأخى الدكتور حسن ابو ركبة ، فهو جدير بكل خير ، وبكل تقدير وبكل احترام .

شركات التأمين ما شأنها ؟

* الحديث .. عن مكاتب ، وشركات التأمين عندنا ،حديث من فراغ ، إن صح هذا التعبير ، فالبلد .. انتشرت فيه ، من تسمى بشركات التأمين ، جاءت .. من كل مكان ، لجمع المال ، وامتصاصه ، واذا كان ذلك بحق ، فلا نجادل فيه ، أما اذا كان بغير حق ، فينبغى أن ينتهى هذا الغزو عند حد .

فالتأمين .. بالصورة التى شاعت هنا ، مكاتب .. لا يزيد حجمها .. عن شقة تستأجرها ، وتطبع ــ ابواكا ــ تضع عليها اسمها ، وتعلق لافتات على ابوابها وتعلن عن نفسها ، تأخذ ، ولا تعطى ، تأخذ بغير مقابل .

والتأمين قائم .. على كل السلع المستوردة ، فهو اجبارى ، تعرضه المصانع . والشركات التى تصدر الينا السلع ، واذا احتاج المستورد .. الى شىء من التعويض ، لقاء تلف او نقص السلعة .. التى استوردت ، فانه فى الغالب ، لا يحصل .. على سوى المطل ، حتى يترك حقه ، ويؤثر العافية ، او الخسارة .. على الاصح ..

والتأمين يفرض على السيارات .. التى تشترى بالتقسيط .. فرضا اجباريا .. من وكلاء السيارات .. لضمان حقهم ، ولكن حين تتعرض السيارة للتلف ، فان التأمين ، الغالب الاعم ، يتخلى عن التزامه ، واذا جادل المؤمن ، يساوم ، وربما حصل . بعد لأى ، وملاحاة ، على نسبة .. مما يستحق .. حسب ــ بوليصة ــ التأمين ، ذلك ان التأمين كمبدأ ، لم يقر ، ولم يكن له حكم ، يحمى المؤمن ، وكان المؤمن يدفع فقط ، ولكنه لا يأخذ شيئا .. اذا اصبح له الحق .. فى الاخذ ، حسب مبدأ التأمين ، الذى تقره الوثائق ، لأن أصحاب مكاتب وشركات التأمين ، أمنوا المحاسبة ، والحكم ، فوجدوا سوقا رائجة .. وغنما ، فيأخذون الاموال ، باسم التأمين ، ولا يعطون شيئا ، وبذلك يصبح التأمين .. على هذا النحو ، نوعا من ابتزاز اموال الناس بالباطل ،

وتجارة ، بغير رأس مال ، لها مكاسب ، وليس فيها خسائر وهى بهذه الصورة اشبه بالربا ..

* ولا أدرى ، هل مكاتب وشركات التأمين .. المهاجرة الينا .. من كل مكان ، وهى قد وجدت أرضا خصبة ، تزرع فيها وتحصد ، قد حصلت على أذن من أحد أجهزة الدولة بممارسة هذا العمل ؟

اذا كان الجواب بالاثبات ، فالجهة التى منحتها الاذن .. ما أجدرها .. أن تحاسبها وتعاقبها .. إذا أخلت بشروطها ، وأن تحمى الناس من واقع هذا الترخيص ، واذا كانت تلك الشركات ومكاتب التأمين .. قد فتحت ابواب هذا الاستغلال ، وامتصاص اموال الناس ، بغير حق ، قد استأنفت أعمالها .. على مسرح الحياة ، بغير اذن ، فانها تمارس عملا .. بغير شرعية ، مثل الذى يعمل .. فى التهريب ، ويجب أن تحاسب ، وان تدفع ضرائب ، وترد الحقوق .. الى اصحابها .. من المتضررين ، ولم يحصلوا على تعويض ، وان تتدخل وزارة التجارة بحزم لتحسم هذا الموضوع ، من واقع سلطتها ، واختصاصها ، ومبدأ الحياة والتعامل اخذ وعطاء فلا يكون اخذ بغير عطاء ولا عطاء .. بغير أخذ .

* ان البلاد لا تستفيد شيئا . من ثراء شركات التأمين ، والتأمين لا يقف ، عند حد معين ، على السلع المستوردة ، والسيارات مثلا ، وإنما يتعداه ، الى التأمين على الحياة ، والحرائق ، وتلف الممتلكات .. بمختلف السبل .

ونرى .. فى المكاتب والاسواق ، نماذج من اولئك .. الذين مهـروا ، وبرعوا .. فى أساليب الدعاية والاغراء ، بفوائد التأمـين ، ضد العجـز والشيخوخة ، والموت ، ومختلف حوادث الحياة ، بسبل .. اشبه بالتمثيل .. فى حمل الانسان .. وهو حريص ، على الوقوع .. فى شراك التأمين ، ويبدأ .. بدفع أقساط من دخله .. وهو يحلم .. بان مردودا كبيرا .. سوف يعود عليه يوما ما ، وليس لديه شىء من ضمان .. سوى ورقة مكتوبة .. تحمل اسم شركة التأمين ..

وربما اختفت هذه الشركة يوما ما .. من البلاد ، بعد ان تمتلئ ثراء ، ويصبح مردود الاشتراك ، حسرة واسفا .

* وشركات التأمين لم تبدأ اليوم ، وانما هى قديمة ، واذكر تواجدها ، قبل عشرين عاما ، وربما اكثر .. وهى اليوم اكثر انتشارا ، من بلاد عربية ، وغير عربية ، وهذا عمل ليس له مبدأ ، لانه غير مشروع .. او لم يصبح مشروعا ،

وإنما وجد .. من جانب المستفيد ، ولم يعترض عليه ، رغم انه .. لا يوجد تشريع .. يحمى من يشترك فى التأمين ، حتى الجمارك .. تتقاضى رسوما .. على قيمة التأمين ، وتشترط فى اجراءات الافراج عن السلع ، وجود شهادة التأمين ، لانه شيء أساسى .. فرض على السلع المستوردة ، من المصدر ، وتضيفه الى قيمة السلعة .

* وينتهى العمل .. عند هذا الحد ، أخذ بغير رد ، فى حالة الاستحقاق .. لاسترجاع .. ما يمكن أن يسمى حقا ، ذلك ان التأمين يعنى التعويض ، حسب شروط اتفاق التأمين ، فى صوره المختلفة ، ولكن لارد ، واذا حصل شيء من تعويض فهو نسبى ، وقد لا يساوى مبدأ الاتفاق ، والعلة ، ان المؤمن ـ بكسر الميم ـ لا يجد الحماية ، ليحصل ما يستحق ، لقاء خسارته ، التى فرض عليه أن يدفع المقابل ، لينال ـ وفق منطق الاتفاق ـ التعويض ، او باقدام الانسان تلقائيا على التأمين ، مثل التأمين على السيارة ، حتى اذا وقع امر الله ، وحدثت كارثة ، لاية نتيجة ما يخلص صاحب السيارة او قائدها ، من الحق الخاص ، بقيام شركة التأمين ، التى امن فيها ، بسداد هذا الحق .

* ربما كان الموضوع ، أبعد من اختصاص وزارة التجارة ، فى بعض الجوانب ، لذلك ، فانى ارجو ان تفضل وزارة الداخلية .. بالتدخل ، فى هذا الامر لحماية الناس .. من هذا الاستغلال ، اولا ، ثم بحث شرعية .. تواجد شركات التأمين فى البلاد .. كالحال .. القائمة بالقيام الى المقيمين .. فى البلاد .. بطرق غير مشروعة ..

ولعل بعض شركات التأمين .. تتستر .. بغير ما تمارس ، كأن تكون .. مسماها ، تزاول التجارة ، بمختلف الطرق ، وتعمل .. لما تهدف اليه ، واذا كانت كذلك ، فانها تمارس .. لونا من الغش .

* فى كل الحالات أرجو ان يحدد المسلك ، فى هوية التأمين ، ومن يمارسه ، بالمشروعية ، ام بغيرها ، واذا كان بمشروعية ، فلابد من حماية حقوق .. من يتعامل مع مكاتب وشركات التأمين ؟ واذا كان هذا العمل غير مشروع ، فكيف تعمل شركات التأمين ومكاتبه فى البلاد .. هذه السنين الطوال ، من غير ان يحقق فى أمورها ، ومناهجها وتواجدها ومسلك عملها غير المباح ، او المباح شيء منه ، مثل التأمين الاجبارى .. على السلع المستوردة وغير المباح ، وما

تتقاضاه .. هذه الشركات ، باسم التأمين ؟ ثم كيف يحمى المؤمن ، اذا كان العمل مشروعا ؟

* وكذلك بحث هوية .. شركات التأمين ، وعملها الاساسى .. الذى وجدت من أجله ، والوان ممارساتها .. لهذا العمل ومسلكها فيه . وهل هى تدفع ضرائب ، ام انها تأخذ فقط ، وما الحق فى هذا وذاك ؟

* أحسب .. ان هذا الموضوع جدير بالاهتمام ، لوضع حد له ، سلبا .. ام إيجابا لينجلى الامر .. امام الناس وحتى لا يكون استغلالا ، وبهدف الاستغلال فقط ، والحكومة حريصة .. على وضع الامور فى انصبتها ، وحماية المواطن ، وتدارك الاخطاء ، والحد من الاستغلال ، بكل صوره واشكاله ، حتى لا يبغى بعض على بعض ، فى صور تعامل .. غير متوازن ، وغير متكافئ .

حاجتنا إلى الغاز المركزي

الغاز اليوم وسيلة حضارية متطورة ، يلعب دورا كبيرا فى حياتنا ، والحديث يقتصر على النوع الذى نستخدمة فى الايقاد والطهو ولم يعد استعماله مقتصرا على المدن وحدها ، ولكنه وصل القرى ومضارب البادية كوسيلة سريعة ونظيفة تلعب دورا كبيرا فى حياتنا ، فأصبح مثل الغذاء وإلى أن تصبح الكهرباء عامة ، تؤدى كل الخدمات بصورة أفضل واستمرارية ، بغير نقص ، وبـدون ، انقطاع ، يبقى الغاز الوسيلة الوحيدة فى المنزل والمطعم والقرية ولدى البادية فى شرق البلاد وغربها .

والغاز اليوم ومنذ بدأ استعماله وأخذ فى التوسع تحكمه شركة — حسب علمي — تسمى شركة الغاز الاهلية ، توزعه فى اسطوانات من ذات الخمسة وعشرين والخمسين رطلا ، وربما أكبر من ذلك ... فصاحب المنزل والمطعم والبدوى عليهم فى بادىء الأمر شراء اسطوانات الغاز مملوءة ويدفعون قيمة الاسطوانة وقيمة مافيها واذا فرغت حملوها الى بائع الغاز للحصول على اسطوانة ملأى بالقيمة المحددة ، ومن الناس من يشترى اكثر من اسطوانة ليؤمن حاجته ، حتى اذا فرغت الاسطوانة المركبة فى الموقد فى أثناء الطهو ، والرجل فى عمله ، قامت ربة البيت مثلا بتركيب الاسطوانة الاحتياطى ووضعت الفارغة جانبا ليحملها الرجل الى بائع الغاز ويأخذ آخرى معبأة ، وقد لايجد صاحب الغاز الذى فى حارته ، وقد يجده ولايجد عنده غازا فيذهب الى غيره فى مكان آخر وشارع آخر وربما حى آخر ، يدور باسطوانته ، ليحصل على الغاز ويأتى به .

وكانت الحال ميسورة فى حمل الاسطوانة من باب العمارة التى يسكنها المرء الى شقته التى قد تكون فى الدور الاول او الثالث او السادس ، وقد لايكون بالمبنى مصعد ، وقد يكون معطلا ، وما أكثر أعطال المصاعد ، وما أبطأ اعادة

تحريكها ، لان المصاعد كثرت وشركاتها كثرت أعمالها وازدحمت وأصبح الوقت لايسعفها لتلبية جميع الطلبات بشكل سريع ، وارتفعت تكاليف الاصلاح تبعا لمبدأ وحرية العرض والطلب ، كما يقول الاقتصاديون ، وقد يحجم صاحب العمارة عن اصلاح المصعد لكثرة عطله ، وقلة الأيدى الماهرة التى تحسن اصلاح العطل ، الذى يتجدد ويتجدد مع ذلك دفع الأجور لشركات المصاعد باسم الاصلاح والصيانة ، وما أردأها من صيانة والشواهد قائمة .

وامام هذه الأوضاع فان العامل الذى ترجوه أن يحمل لك الاسطوانة من سيارتك الى أحد الأدوار التى تسكن فيها وياسوء حظك اذا كنت فى دور عال ، أجرة العامل خمسة عشر ريالا ، وقيمة الغاز أثنا عشر ريالا ، انها معادلة صعبة .

وقيمة الاسطوانة الفارغة تتفاوت بين محل واخر من المحلات التى تبيع الغاز ، فالاسطوانة ذات الخمسة وعشرين رطلا فارغة فى احد المحلات بمائة وخمسة وعشرين ريالا ، وفى محل آخر بمائة ريال .

وما أدرى ... هل شركة الغاز الأهلية وضعت قيمة للاسطوانة الفارغة أم تركتها لذوق البائع وحسه ، وهل من جهة معنية كوزارة التجارة تتدخل لتحديد قيمة الاسطوانة الفارغة ام تسارع الشركة فتعلن عن ذلك وتحاسب من يتجاوز الحد فى القيمة ؟

قلت إن الغاز أصبح مادة ضرورية لا غنى عنها ، يستهلك بكثرة مثل الأرز والخبز واللحم والخضار الخ ..

والمدن الكبرى اتسعت وبعدت اطرافها ، والعامل عزيز والوقت أصبح ضيقا ، والتكاليف باهظة .

وأسأل : الم يحن الوقت ونحن نبنى للتطور ونخطط للمستقبل القريب والبعيد ، الم يحن الوقت لتوفير الغاز مركزيا ؟

لا أعنى ان كل عمارة تضع خزانا للغاز بأسفلها ، فهذا حل غير عملى ، وخطورته أكثر ، وانما أعنى الغاز المركزى الذى يصل الى المنازل عبر مواسير أشبه بمواسير الماء ، بعداد فى كل شقة أشبه بعدادات الكهرباء ، والهاتف الخ .

ولعل الجهة المعنية بهذا الموضوع اليوم هى وزارة البلديات وأعلم أن سمو

الأمير ماجد رجل طموح ، يقدر حاجة الناس ، واحتياجاتهم فيما يدخل فى اختصاص وزارته ، فاذا كان هذا المرفق كما أعتقد يدخل فى اختصاص وزارته ، أرجوه أن يشرع فى دراسة له تبدأ مع السنة المالية الجديدة للدولة ليأخذ طريقه الى التنفيذ بعد ذلك ، لان حاجة المدن الكبرى ملحة اليوم الى توفر غاز مركزى يريح من هذا العناء الذى اشرت اليه فى توصيل الغاز الى مساكننا ، فالرياض وجدة والدمام ومكة والمدينة وما اليها ، ما أحوجها الى الحصول على هذه المادة الرئيسية فى حياة الناس اليوم ، وهو مشروع من ضمن المشروعات فى المدن الكبرى أخذ به غيرنا منذ سنين طوال ، ولم يكن عندهم الغاز منتجا وأنما مستورد ونحن اولى بأن نستفيد بسهولة من مادة تستخرج من بلادنا وتصنع فيها لتصل الينا مثل البنزين والزيوت وغيرهما . والله المعين .

بدعة تكاليف الزَّواج

مازال المجتمع عندنا يجار بالشكوى بما يسمى (غلاء المهور) والموضوع عندى أكثر من غلاء مهور ، ولكنها التكاليف والاشتراطات التى لاقبل للشباب المقبل على الزواج بها .

كنت فى الاسبوع الماضى أحضر عقد زواج ، ودار الحديث مع بعض الاخوة المدعوين عن عجز شباب اليوم عن الزواج لتكاليفه الكثيرة فقال احدهم ، دع المهر ، وتصور أن هناك دعوة اسمها شراء – فيدوتيب – قيمته تسعة عشر الف ريال . ذهب شاب يخطب فتاة فقبل الطلب مبدئيا وقال أهل الفتاة : بقيت الشروط ، ومن الشروط تأمين – فيدوتيب .

العملية أصبحت مظاهر وتعجيزا والنتيجة بقاء فتياتنا عانسات ، وبقاء الشبان بغير زواج ونحن بهذا المسلك الشاذ نخالف نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم الذى أوصانا بقوله : (اذا .. أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، الا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير) .. وأى فتنة تكون عندما يصبح الشباب الراغب فى الزواج بغير زوجة ؟ وأى فساد يكون حين تصبح فتياتنا عوانس بغير زواج ؟

إنها الجناية التى تقود الى فساد الاخلاق فى المجتمع فتقوض اركانه ، وتهز كيانه ، وتودى بقيمه .

المجتمع المسلم يجنح الى هذا المسلك من الانحراف حين يتحكم الهوى فى منهج الزواج بهذه الاشتراطات التى لايقدر عليها الراغب فى الزواج .

ذلك أن الاصل فى المنهج الاسلامى اختيار الرجل ذى الدين والخلق ، أما المال فتقديمه فدية واكتسابه رأس مال ، فليس من الدين فى شىء ونحن فى مجتمعنا الاسلامى أصبح الكثيرون ، منا يحيدون عن المسلك الصحيح السليم ، ولم يجد الوعظ ولا الخطب ولا هذه الأصوات التى بحت تدعو الى القصد فى طلب المال ، وانفاقه فى تكاليف الزواج .

الزواج اليوم يكلف مئة الف ريال ، فمن أين للشاب صاحب الدخل المحدود من وظيفته ان يوفر هذا المبلغ ؟

قلت من قبل ، وأجدد القول اليوم ، أن المظاهر تتحكم فى عقولنا والدافع اليها الأمهات يتحكمن فى الرجل ، ولم يصبح الكثيرون من الرجال قوامين على النساء كما حدد القرآن الكريم .... هذه القوامة ، بل النساء هن القوامات على الرجال ، فالآية انعكست تبعا لهذه الأهواء المنحرفة ، ذلك أن الهوى يقود الى هذا المسلك السيء ، وذو الهوى ظالم لنفسه ، وظالم لغيره .

والرجل الكفء ذو الامانة والدين حينما يتزوج ويغنيه الله من فضله لايبخل على أهله ، ولا على بيته بما يستطيع من وسائل المظاهر ، لانه يحب أن يكون مظهره جميلا ، وبيته جميلا ، وأهله فى غنى . أما تقديم المال مهرا وتكاليف فى حفل الزواج فليس مقياسا على حسن الاختيار وعلى نجاح الزواج ، والذين يتمسكون بالمظاهر ويعدونها مغنما ليتحدث عنهم الناس ، هم غافلون لانهم لم يفتشوا عن الرجل ، ولم يختاروه ، وانما همهم المال وكم قدم فلان ، وكم عنده ؟ وهذه دعوى باطلة وفاسدة .

وكثيرون الذين ندموا بتمسكهم بهذا المظهر ، غير أن الأسوأ ان الآخرين لم يعتبروا ولم يتعظوا بهذا الندم وظلوا متمسكين بالقشور وتناسوا المثل والمبدأ القويم وبعدوا عن دينهم وأساءوا الى بناتهم ، بل أجرموا فى حقهن وسوف يحاسبون على هذا المسلك المشين وسيجنون حصاد مازرعوا ويعضون على أصابعهم ندما يوم لاينفع الندم .

ولا أدرى ... متى يستيقظ الضمير عندهم ، وفى نفوس الأمهات اللاتى يتحكمن ، ويفرضن على الرجل المتقدم لخطبة بناتهن بما يصرفه عن الزواج حتى تكون الفتنة ويكون الفساد الكبير ، الذى أعلنه من لاينطق عن الهوى عليه الصلاة والسلام .

ردوا أنفسكم الى شيء من القصد أيها المسلمون ، وعودوا الى دينكم ، ففيه سعادتكم وسعادة أبنائكم وبناتكم ، ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، فالحياة فناء والمال زائل ، ولايبقى الا الذكر الحسن والمعروف بين الناس ... ويانداما من اتبع هواه وكان أمره فرطا .

ايران والخطر الشيوعي

الشاه ... يتحدث لاكتوبر

نشرت مجلة اكتوبر .. فى عددها الصادر بتاريخ ٢٩/٦/١٩٨٠م حديثا .. لشاه ايران السابق محمد رضا بهلوى ، وكانت عناوين الحديث :

قال لى الشاه :

* كانت غلطتى .. أننى أسرفت فى الديمقراطية .
* وقفزت عشر سنوات الى الأمام .
* إن ايران تزحف الى الشيوعية .
* خوفا على ابنى .. لم ارق مزيدا من الدماء فى ايران .

ولعلّ الذى يهمنا .. من هذا الحديث ، هو قول الشاه : ان ايران تزحف الى الشيوعية .. هذا الخطر يخيفنا نحن المسلمين ، من ضياع بلد مسلم وشعب مسلم ، فتلحق بافغانستان ، التى استولى عليها الروس ومزقوا كيانها وشردوا شعبها ، وفرقوه .

وحين نتابع حديث الشاه ، نجد رده على السؤال التالى :

* قلت : ما الذى يجعل جلالتك تعتقد ان ايران الشيعية .. سوف تتجه بهذه السرعة الى الشيوعية ؟

وكان جواب الشاه :

* (لان ايران لاتجد ماتاكله .. ولايستطيع احد ان يطعمها او يسقيها .. فلامفر من الشيوعية ، لان ايران بعيدة عن الدين ، وليس الدين .. هو هذه الجرائم اليومية التى ترتكب ، والدماء التى تراق ، والسجون التى يتكدس فيها الابرياء .. ثم يقولون لشعبنا دائما : انكم شعب من المتسولين الشحاذين التعساء ... بدلا من ان يقولوا لهم : بل فى استطاعتكم ان تكونوا شعبا من الدرجة الاولى ، ومعنى ذلك ، ان الناس يجب ان ينتظروا طول الوقت ، لكى

يلقوا اليهم ، بفتات الطعام ، حتى لايموتوا جوعا ، وفى ذلك قتل للعامل ، واهدار للموهبة) .

(كما ان رجال الدين .. ينهبون كل شيء ، وان كانوا يخصون الذين يحاربون دفاعا عنهم ببعض المال ، والطعام ، والامتيازات . لكنهم فى ايران قد قتلوا الطبقة الاولى ، ثم اتجهوا الى الطبقة الثانية ، فقضوا عليها ، وهم الان قد استعدوا للقضاء على الطبقة الثالثة) .

(ومعنى ذلك ... ان تصبح ايران شعبا من الطبقة الرابعة ، او الخامسة .. من البؤساء واليائسين ، والمتضورين ، جوعا ... فوق أرض غنية) .

(مثلا : ان المفاعلات النووية اغلقوها .. والجسور أسقطوها ، ومحطات توليد الكهرباء عطلوها ، وكنت انتج يوميا خمسة ملايين برميل ، واليوم ينتجون مليونا واحدا ، ولا دخل ، ولا ضرائب ...) .

(كذلك اعتقد ان الشعب الايرانى يزحف الان على بطنه .. نحو النظام الشيوعى ، فسوف يجد فى الشيوعية نظاما وطعاما ، وسوف يعمل الناس .. ويكون لهم اجر .. وسوف تتقدم البلاد ماديا على الاقل ، والناس يصبحون عبيدا ، ولكنهم .. مثل نزلاء السجون ، سوف يجدون ما يأكلون) .

* ونجد كذلك .. الجواب التالى ، والرد عليه .

* وتساءلت : ولن يفعل الامريكان ودول الغرب شيئا ؟

اجـــــاب :

(الغرب ؟ وهل فعل الغرب شيئا ... امام تدخـل السوفييـت فى تشيكوسلوفاكيا وفى المجر) .

(ان القاعدة السوفييتية .. فى التدخل عادة هى : انهم يدخلون اولا ، ويتلقون الدعوة بعد ذلك) .

(فلا مفر من الشيوعية فى ايران ، لانه اما ان يقوم الوطنيون بثورة ، واما ان تلقى الدولة بنفسها ... عند اقدام الشيوعيين ، أو فى أحضانهم ، وان كان لايهم مطلقا ... ان تلقى ايران نفسها ... عند القدمين ، او بين الذراعين ، ان الذى يهم ، هو أن ايران ... ستضطر الى الالقاء بنفسها الى الهاويـة الشيوعية) .

(اما الدول الغربية ، فهى مشغولة بمصالحها فقط ، مشغولة .. بالاجازة الصيفية أين .. والاجازة الشتوية اين ، ومشاكل الاسكان والاستهلاك ، وتخفيض التسليح ، وبيع السلاح .. لدول اخرى ، ثم الوفاق بين امريكا وروسيا) .

(وفى استطاعتك ... ان تضع هذه المعانى على النحو الذى تريد ، هذا هو العالم الغربى) .

(انهم يسلمون بالامر الواقع ، وينتظرون . ماسوف يحدث بعد ذلك) .

هذا فى رأيى مايهم من حديث الشاه . ومايهمنا كمسلمين ، ألا يضيع بلد مسلم آخر ، فتلتهمه الشيوعية ، حين يستبد به اليأس ، والفقر ، والجوع .

اما ان يجد أفراد الشعب النظام ، ويعملون .. ويكون لهم اجر ، كما قال الشاه ، فأمر لاسبيل اليه ، فليس فى الشيوعية نظام ، ذلك ان الانسان مضمون عندهم ، لاشخصية له ، ولاحرية ، ولا قيمة ، واى اجر يكون له ؟ ، وماحجمه فى ظل الشيوعية ؟ ، انه يعيش كالسائمة ، التى تعمل ، وتأكل ، واذا لم تعمل ، فلاتجد الطعام ، وانما تنتظر الموت والاختفاء .

* قد يفسر حديث الشاه هذا .. من واقع حال نفسيته هو ، ولكننا نخشى على ايران ... ان تدوسها الشيوعية ، من واقع الحرمان والجوع والاضطراب وعدم الاستقرار . ثم ان الشيوعية لصيقتها فى افغانستان .

صحيح ، كما قال الشاه ، ان دول الغرب .. لن تفعل شيئا ، وكذلك امريكا ، فالاولى مشغولة بمصالحها ، والاخرى متفاهمة مع الروس ، فى اقتسام العالم ، ولم تفعل شيئا لافغانستان أعنى الدول الغربية وامريكا ، سوى الاحتجاجات . غير ان الشىء المهم ، كيف يمكن حماية ايران من الشيوعية وهى على ابوابها ، والبلد غير مستقر ، ووضعه مضطرب ؟ ، نحن نخشى على ايران ، ولكن ... ماهى الحلول ؟

فى ظنى ان الدول الاسلامية والعربية ، ينبغى ان تقف بجانب ايران حتى تتجاوز محنتها ، ويستقر وضعها ، وتقف قوية ، تذود عن حياضها وحياض الاسلام والمسلمين .

ينبغى ان تتحرك الدول الاسلامية ... والعربية ، تؤازر ايران وتحاورها ، وتخرج بها من الدوامة ... التى تعيشها ، ويستقر الحكم فيها ،

حكما اسلاميا ، يطبق الشريعة الغراء ، والمهم هو الاستقرار ، فى ظل حكومة شرعية ، لاتلعب بها الأهواء ، ولاتزلزل كيانها الأمزجة ، والمصارعات .. على السلطة .

اننا نريد لايران الخير والاستقرار ، نريدها .. درعا اسلاميا قويا ، يحمى ذلك الجانب الخطير .. فى وجه الشيوعية ، وتقوى علاقته مع الدول الاسلامية والعربية والمجاورة ، والمتاخمة باكستان والعراق وتركيا .

وكنا نريد من ايران .. لوكانت فى موضع القوة المؤملة ، ان تكون درعا .. لافغانستان تحارب معها ، بالجيش والعتاد والمال ، وتعين المشردين، وتسلحهم وتقويهم وتدربهم ، ثم تبعث بهم الى جبهة القتال ، ليذودوا عن ارضهم وامتهم ، ويجاهدوا فى سبيل الله .

ان ايران قوية ، ولانريدها ان تتمزق ولا ان تضعف ، وانما تكون الدولة المسلمة والدرع الواقى ، تقف كالطود الشامخ .. فى وجه الشيوعية وغزوها ، واطماعها .

لقد تغلغلت الشيوعية فى بلاد اسلامية كثيرة ، واحكمت سيطرتها ، واخذت تنطلق .. فى مختلف الاتجاهات ، كالسرطان ، لتستشرى وتنشر سمومها المدمرة للبشرية وللكيان الانسانى كله . وينبغى ان تدرك الدول الاسلامية والعربية انه لا الغرب ، ولا امريكا ستحميها ، وانما الاعتماد على الله ، والاعتصام بحبل الله ، وعدم التفرق ، ذلك هو السلاح الرهيب .

اما الغرب وامريكا ، فاصحاب مصالح ، يعملون .. من اجل الحصول عليها ، وامانها ... فى ظل علاقات مطاطة ومهادنة مع الروس . واذا انفرط العقد ، تخلت ، وبحثت عن مصالحها ، من اى مصدر آخر . وهى مسألة أخذ وعطاء ، وبيع وشراء .

* اننى ارجو ، ان يدرك الايرانيون الخطر المحيق بهم ، وان يستيقظوا وان يلموا شعثهم ، حتى لاتجد الشيوعية سبيلا ... يخافون على بلادهم اكثر من العهد السابق ، فالشيوعية مدمرة وماحقة . ولعلهم يبنون وضعهم الداخلى ، ثم يبنون سياستهم الخارجية ، بكثير من العقل والمرانة ، فبناء الداخل شىء أساسى وهام جدا ، لكى يصبح الشعب كله .. جبهة وطنية يهب ، اذا أحدق به الخطر ، مدافعا عن أرضه ونفسه وكيانه ... انه الاستقرار ،

وبناء الديمقراطية الاسلامية . فالاسلام دين صالح لكل زمان ومكان ، اذا احسن فهمه ، وتطبيقه . والاسلام قوة وسياسة وارادة وعدل وعلاقات . ان الدول فى ظل الاسلام قوية ، والاسلام حين يشيع فى النفوس ، يطرد كل شر ويملؤها عزيمة لايفلها الحديد ، ولاترهب الموت ، ولن تهزم اذا سلكت السبيل القويمة .. التى علمها لها الله (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم) . المسلمون ، اعلن القرآن الكريم ، كلام الله ، بانهم الأعلون ان كانوا مؤمنين .

الايمان المطلق بالله هو سلاحنا ، وارادتنا ، وحولنا ، وطولنا .

* نريد للشعب الايرانى الشقيق المسلم ، ألا تدركه الكارثة ، ونريد من قادته اليوم الحكمة وتحكيم العقل والحق والعمل ... على الاستقرار والبناء الداخلى ... على أسس اسلامية بحتة .. ومد القنوات والجسور بينهم وبين الشعوب الاسلامية والعربية ، والتعاون على البر والتقوى . لاتعاون على اثم وعدوان .

ان الخطر محدق ، وفرصه فى ظل الفوضى والنزاع ... متاحة ... واللبيب ... اللبيب من اتعظ بغيره ، اعنى مأساة افغانستان .. المسكينة ، فقدت امنها ، فكان الخوف والفزع والتمزق اللهم رحمتك وعونك ، اهدنا سواء السبيل .

أفغانستان تتمزق

أمتنا تتمزق فى أفغانستان

على ظهر البسيطة لا أقل من تسعمائة مليون مسلم ، فيهم الاغنياء ، وأكثرهم فقراء ، واخوتهم فى أفغانستان المسلمة .. يتمزقون ، ويقتلـون بمختلف أنواع الاسلحة الفتاكة لابادتهم ، ليصبح هذا البلد المسلم .. رقعة شيوعية جديدة ، تضاف .. الى الساحات الاسلامية العريضة ، التى ابتلعها السوفييت ، وانفصلت عن بقية الأقطار الاسلامية ، ويعيش المسلمون هناك ، فى اضطهاد وذل ، لا يلتقون باخوانهم المسلمين فى بقاع الأرض ، وليس لهم صوت ولا شرعية دينية ، وإنما هم مطحونون .. رغم كثرتهم ، وهم فى عزلة عن بقية الأقطار الاسلامية .

ثم أخذ السرطان الشيوعى يمتد ، وتتسع أطماعه ، يفترس .. ما حوله ، ويبنى الأحلاف فى كل مكان يتاح له ذلك ، ليصبح عاملا مهددا ، له نفوذ ، وله قواعد ، وله أنصار ، ليزداد خطره ، وينشر شره المستطير .

أفغانستان .. تحترق بنير الشيوعية ، وعالمنا العربى .. والاسلامى يتفرج على المسرحية الدامية ، والدمار الماحق بشعب مسلم ، كان آمنا . وفى عالمنا الكثيرون ، وفيهم الاغنياء ، كان واجب هؤلاء واولئك ان ينفروا خفافا وثقالا مجاهدين فى سبيل الله .. بأموالهم وأنفسهم كما يحثهم دينهم على ذلك ، واقل واجب على الاغنياء ، ان يمدوا افغانستان بالمال والعتاد ، لتقوى شوكة .. هذا الشعب الذى يقاتل ، من أجل بقائه ، ومن اجل كيانه ، وليدرأ .. كيد الشيوعية عن اقطار اخرى مستهدفة . ولكن اغنياءنا مازالوا بعيدين .. عن المشاركة الفعالة لانقاذ افغانستان ، كأن الامر .. لا يعنيهم فى كثير او قليل ، يجب ان تثور الامة الاسلامية كلها ، فى كل مكان ، فى وجه الروس .,. ثورة رجل واحد لتحطيم نفوذه وأطماعه ، وغزوه لافغانستان ليرتد مهزوما .

أين المسلمون اليوم ؟ واين الغيرة الاسلامية ؟ .. وأين جهادهم ، الذى يحرضهم دينهم عليه بالأموال والأنفس ؟

انهم قابعون ، سادرون ، لا يحركون ساكنا ولا يستجيبون . لدعوة ما يحييهم ، أنهم فى منأى عن دورهم القيادى ، بعيدون ، تتخطفهم القوى الغاشمة المفترسة لتمحقهم ، وهم غافلون . ركنوا الى الدنيا ، فهانوا ، وقد امروا الا يهنوا ، ووهنوا ، واستكانوا ، فأصبحوا اذلة نسوا صيحات النجدة فى تاريخهم العريق الطويل ، يوم كان اباؤهم مجيبين كل صيحة تدعو الى الجهاد .. لدفع الظلم فى معاركهم ضد التتار والصليبية ، وضد كل .. غاز ، ومغتصب .

لهفى .. على أمة تركت الجهاد فى سبيل الله وقد أمرت به ، ماذا سيؤول اليه مصيرها والمخاطر تحف بها .. من كل مكان ، من اعدائها ، اعداء الله ، فلماذا لاتبادر .. للذود عن دينها واخوتها ، الذين يمزقون ، بغيا وعدوانا ؟

ماذا فعلت ، وماذا ستفعل الامة الاسلامية لكبح الغزو الروسى .. للأرض المسلمة ، والشعب المسلم ؟

أيكفى فى ذلك الاحتجاج والاستنكار ، والخطب ، أم الصمت المطبق ، فى كثير من الأقطار ؟

هل نسى المسلمون .. أنهم أصحاب أدوار فى الجهاد ، ومسئولية لا حدود لها ؟

وهل نسوا .. انهم سيسألون غدا أمام أحكم الحاكمين ، لأنهم قصروا فى ذات دينهم وأنفسهم واخوانهم ، وهم قادرون .. على الانقاذ ، بالكثير ، وبالقليل ، فهم امة واحدة ، وجسد واحد اذا أشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » ؟ . مسئولية كبرى ، مسئولية المسلمين .. بالأمس واليوم ، وغد ، الى ان تقوم الساعة .

أين هم من قول رسولهم عليه السلام : « المؤمن للمؤمن كالبنيان .. يشد بعضه بعضا » ؟

ان البنيان يتداعى ، ولا حياة لهذه الأمة . ــ الا باقامته ، والحفاظ على كيانه ، شامخا ، قويا ، بالاعتصام بحبل الله جميعا ، وعدم التفرق . وأكرر هذا الدعاء : اللهم أعنا على أنفسنا حتى لا نضل ، وأعنا على أعدائنا حتى

لا نذل .

وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا

هكذا يعلن القرآن الكريم ، ويحذر فى أية أخرى ، بقول الله عز وجل « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات » .

لعل من حسن الحظ ، أو سوء الحظ ، انى لست ممن يخوض غمار السياسة ، لانها .. فى حقيقتها مسألة تحتاج الى مراس طويل ، والى دربه ، واحاطة واسعة بمفاهيمها ، وقد كثر كتاب السياسة .. فى العصر الحديث ، كل ... على قدر حظه منها ، وعلى قدر اجتهاداته ، واستعداده ، ولكن لابأس ، ان أجرب مرة فى السنة ، أو كل بضع سنين ، مجرد تجربة اجتهادية ، قد تصيب ، وقد تخطىء .

العرب واسرائيل

مكنت بريطانيا .. لاسرائيل فى ارض فلسطين وبادر الاتحاد السوفييتى الى الاعتراف بها ، وجاءت الولايات المتحدة .. مساندة ومعاضدة ، لقيام دولة اسرائيل . وخضنا معها حرب ١٩٤٨ م ، وكانت الدولة العربية مستضعفة ، واكثرها تحت الاحتلال الاجنبى . وانتهت تلك الحرب .. بالهدنة المعروفة وجاء بعد ذلك الاعتداء الثلاثى على مصر .. فى عام ١٩٥٦ م . وفشل هذا الاعتداء .. الذى استهدف مصر ، بعد تأميم قناة السويس .

وجاء الرئيس التونسى الحبيب بورقيبة .. الى الشرق زائرا فى الستينات ، فزار مصر والاردن .. بما فى ذلك الضفة الغربية ، وبيروت واعلن رأيه .. الذى قوبل بالرفض ، وهو التفاوض مع اسرائيل ، وقال كلمته المشهورة « خذ وطالب » ولكنه .. لم يسمع له . وكان الرد ، هو الرفض ، لا صلح ، لا اعتراف ، لا مفاوضات مع اسرائيل .

ثم كانت كارثة عام ١٩٦٧ م ، فتوسعت اسرائيل ، فى الأراضى .. المصرية والسورية والضفة الغربية بما فيها القدس .

وقبل « ٦٧ » ادرك العرب .. ان امريكا وراء اسرائيل ومعها ، وان قوة الولايات المتحدة ، لا تجابهها الا قوة مثلها ، كالاتحاد السوفييتى ، والشاهد

على ذلك قضية البحر « الكاريبى » بين الدولتين العظميين ، وكانت النتيجة ، تراجع امريكا ، قبل حدوث الاصطدام ، كانهما اصطلحتا .. على تقاسم العالم ، هذا لى ، وذاك لك ، وان اظهرتا .. بين الحين والاخر .. انهما مختلفتان .

صحيح .. ان اسرائيل ، دولة ذات اطماع توسعية ، تؤازرها الولايات المتحدة ، فى تقوية كيانها ووجودها ، وبقائها .

يدرك العرب هذا ، كما يدركون دور الولايات المتحـــدة فى حق .. « النقض » تلقاء اى قرار يتخذ ضد اسرائيل ، ليبطله ، حتى لو وقفت الدول الاربع الأخرى .. التى لها حق « الفيتو » مع هذا القرار .

واذا كنا .. لا نريد نبش التاريخ الماضى ، منذ قيام اسرائيل الى اليوم . فاننا كأمة عربية ، يبلغ تعدادها .. مائة وعشرين مليونا ، عيبنا ، أو مشكلتنا ، التى مهدت لاسرائيل التوسع والاستشراء ، بحماية امريكا ، لبقاء هذا الكيان وتقويته ، وسيطرته ، مع اخطائنا .. فى استراتيجيتنا ، فى معاركنا . علتنا حسب تصورى ، وهى علة مزمنة .. أننا كامة عربية مختلفون دائما ، ونحن اذا اتيح لنا .. ان نصطلح اليوم ، ونتقارب ، فاننا نختلف غدا ، والاختلاف .. تمزق ، لذلك نبدو امام اسرائيل .. اننا ضعفاء ولسنا انصارا لبعضنا بعضا ، وهذا الاختلاف ، فى وجهات النظر ، وفى المواقف .. هو الذى ادى ــ بأسرائيل ، الى ان تسوف ، وتفرض ارادتها ، بعد هزيمة عام ١٩٦٧ م .. وقبلها . وتعلن « لاءاتها » الثلاثة لاقيام لدولة فلسطينية ، لارجوع الى حدود ما قبل ١٩٦٧ ، لا تخلى .. عن القدس . خصم العرب اليوم الولايات المتحدة واسرائيل ، شئنا هذا .. أم أبينا ، مع مخلفات الماضى .

وجود اسرائيل ، اصبح واقعا ، لا نستطيع ان نعاند فيه .. وحربنا معها ، حرب مع امريكا نفسها ، لم تكن الجولات لنا ، والنصر والانتصار . لهما توقيت وعدة ، واعداد ، متى سيكون ذلك ، وقد مضى ثلث قرن ، لا احد يدرى ، بعد خمسين عاما ، بعد قرن من الزمن ، بعد اكثر او اقل من ذلك ، حين تتهيأ الاسباب ، التى هيئت .. لصلاح الدين الايوبى وغيره من قادتنا الابطال فى انتصاراتهم ، متى يكون ذلك ، فالعلم عند الله وحده ؟

وحدة الكلمة ووحدة الصف

فى ظل اوضاع ، وظروف الامة العربية الراهنة ، وأمام هذا الواقع ، ولا اقول واقعا استسلاميا ولا تخليا عن القضية ، فى ظل كل الظروف . اذا ارادت امتنا ، ان يكون لها شأن وان تكون مسموعة الكلمة ، وان يكون لها دور فعال ، وان تكون قوة ، وهى قوة بأذن الله ، لابد لها ، ان تتحد .. فى كلمتها ، وفى صفها ، ليس لها .. الا هذه الوسيلة ، لتقيم دولة فلسطينية على ارضها .

اذا لم تكن الامة العربية .. يدا واحدة ، على قلب رجل واحد ، مجتمعة الكلمة والهدف ، فى صف واحد ، فانها .. لا تستطيع ان تحقق ما تريد مهما طال بها الزمن .

لا تنتظر معجزة .. تأتيها من السماء ، وهى متفرقة .. لابد ان يجمعها ايمانها بالله .. أولا وقبل كل شىء ، والثقة فى نصره ، والعمل من اجل ذلك .

ان الشقاق والتمزق بين أمتنا ذات المجد والتاريخ الطويل هما البلاء المبين ، وما اجدرنا ان نستقرىء التاريخ فنجد أنهما اللذان اتاحا لاسرائيل التوسع والتسويف ، وفرض ارادتها على الارض ، لنعد اذن .. لما يحيينا ، أمة واحدة من اجل القضية المصيرية .

أما .. أن نكون امة متفرقة ، متناقضة الأهداف ، مختلفة الآراء . ممزقة الأطراف ، يقاتل بعضنا بعضا بوسائل الاعلام . فى انشقاق وتفرقة ، فذلك هى غبطة اسرائيل .. وعيدها الاكبر ، وهدفها الكبير ، تتوسع وتساوم بمنطق القوى ، والمنتصر . وامامنا شاهد كبير .. الدول الاوروبية . فى السوق المشتركة ، كيف اتحدت اهدافها ، من اجل مصالحها المشتركة ، وهى لا يجمعها .. ما يجمع الدول العربية ؟ ان تضامن الامة العربية اولا ، وتضامن العالم الاسلامى الأشمل ، هما الطريق .. الى وحدة الكلمة ، ووحدة الصف ، وهما القوة بــإيمان عميق بالواحد القهار ، نستمد منه العون وشد العضد .

تلك .. هى سبيلنا ، والمسلك .. الذى ينبغى ان نكون عليه ، لتكون الحلول بأيدينا ، اذا التزمنا بما أمرنا به ، وستكون بأيدى غيرنا مادمنا متفرقين ، والله اسأل ان يهدينا سواء السبيل ..

مِن صُور الحيـــاة

.. سؤال .. طرحه علينا رجل إيطالى ، حين كنت أتحدث مع أحد الاخوة العرب فى مطعم بميناء « ليفورنو » بايطاليا ، وهذا المطعم .. مشهور بأنواع الأسماك المختلفة .. الشهية ، الطازجة .

كان الايطالى .. معنا على المائدة ، وكنا نتحدث بلغته تارة ، وبالعربية .. التى لا يعرفها .. تارة أخرى .

فسأل : أهى لغتكم واحدة ، وكان صاحبى العربى .. من الشمال الأفريقى ؟

فقلنا : نعم ، إن لغة أمتنا العربية واحدة ، يتفاهم بها أصحابها .. من الخليج الى المحيط ، فعجب الايطالى من ذلك ، ولكن فى صمت ، ونحن نعرف .. أن الشعوب الأوروبية ، يتحدث كل شعب منها بلغة مستقلة ، مثل الانجليزية ، والفرنسية ، والجرمانية ، والايطالية ، والأسبانية ، والبرتغالية .. الخ .

وتتفاهم الدول .. الملتصقة ببعضها بلغة واحدة ، مثل الفرنسية ، أو الألمانية . أما نحن « المائة والعشرين مليونا » . فاللغة العربية ، يمكن أن يتحدث بها إنسان .. من أقصى المشرق العربى .. الى اقصى المغرب العربى . وحتى اخوتنا المسلمين ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولسانهم الأصلى .. غير العربى ، حينما يدرسون العربية الفصحى ، فانهم يتحدثون الينا بلساننا ، وهذا كثير .. فى آسيا وأفريقيا .

إنها لغة القرآن الكريم ، فهى رابط قوى ، بعد رابطة الدين ، الذى يربط بين مئات الملايين .. من المسلمين .

ما أجدر أمتنا العربية ، وما أجدر أمتنا الاسلامية كلها ، أن تتخذ من العربية سبيلا الى التفاهم والتعامل ، فهى جامع كبير .. بعد الدين الاسلامى ، الذى جعل منا .. أمة التوحيد والوحدة .

وقد كان الاهتمام قويا .. فى صدر الاسلام ، وعصوره الأولى ، باللغة العربية ، يتعلمها غير العرب ، بل ان منهم من برز فيها ، وأصبح من أعلامها الكبار ، يؤلف فى نحوها وصرفها ، وبلاغتها ، وآدابها ، ومجازاتها ، وعلومها الواسعة .

.. قدم الكثيرون من غير العرب خدمات لا تحصى للعربية ، ربما قصر عنهم بعض أبنائها الاقحاح ، فاصبح هؤلاء .. الذين عنوا بلغة القرآن .. أعلاما ، بما أسدوا اليها ، وما بذلوا فى سبيلها من جهود .. لا تجحد ، ولا تنسى .

ثم تتالت عصور الركود ، فأهملت العربية ، حتى كادت .. أن تصبح غريبة ، حتى بين أبنائها ، وانتشرت العجمة ، وشاعت الركاكة فى الألسنة ، وانتشرت اللهجات العامية ، حتى كاد .. لا يفهم العربى أخاه .. بين بلد وآخر .

.. ويحضرنى بهذه المناسبة ، الحديث الشائق ، الرائع ، الذى دار .. فى دارة عميد الأدب العربى .. الدكتور طه حسين ، قبل سنوات قليلة ، بينه ، وبين نخبة من رجال الفكر .. فى حوار لساعة كاملة .

كان الأدباء .. يطرحون الأسئلة .. على استاذهم العميد ، ثم يستمعون الى أجوبته .. الجامعة ، ويحاورونه ، ويداورونه ، حتى وصل الحديث الى اللغة العربية فانبرى طه حسين ، وهو فى شيخوخته ، وقد أخذته الحماسة ، رغم مرضه ، فأخذ يضرب الأمثلة .

وذكر بالمناسبة ، أنه سافر الى المغرب الشقيق ، واستقبل وصحبه .. هناك استقبالا حارا ، وقال لهم .. أحد كبار المغاربة ، ان المغرب مدين لمصر بعونها له .. على الاستقلال ، قالها بلهجته المغربية ، وجاء على هذه الجملة : الحكومة « ديالكم » أعانتنا الخ .

ويعقب الدكتور طه حسين ، وهو يتحدث الى النخبة من الأدباء .. الذين تجمعوا حوله ، بأنه لم يفهم كلمة « ديالكم » .

وحينما نزل فى المغرب ، أسرع .. الى الملحق الثقافى ، فى السفارة المصرية .. ليسأله عن معنى هذه الكلمة . فشرحها له ، بمعنى حكومتكم .

وقال العميد : وحينما غادرنا المغرب ، وجاء كبار القوم لوداعنا ، قلت لهم : اننا نشكر الحكومة « ديالكم » على حفاوتها واكرامها لنا ، ويستطرد العميد قائلا : فضحكوا ، أى المغاربة ، من استعمال طه لكلمة مغربية ، وضحكنا معهم .

.. ويمضى الدكتور طه حسين ، فى القول :

ان العراقى .. لا يفهم لهجة المغربى ، ولا السورى لهجة اليمنى ، ولكنهم .. لو تحدثوا بالفصحى .. لفهم بعضهم بعضا .

هذه بلاشك .. كلمة حق ، فالعربية تجمعنا ، ، مهما طرحت البلاد ، ورغم أن أمتنا قد طويت المسافات بينها ، واختلط المغربى بالمشرقى ، والشمالى بالجنوبى .. فى هذا العصر ، إلا أن العربية تظل الرابط الأساسى بيننا بعد ديننا .

وإنه من العسير حقا ، أن يتفاهم العراقى .. مع المغربى ، باللهجات ، لأن لكل منهما لهجته ، التى لا يفهمها الثانى .

كيف يفهم من فى المشرق .. كلمة « أيش حالها » فى المغرب ؟ ومعناها بكم ؟.. وكيف يفهم المغربى كلمة ماكو ، أو آكو ، واغاتى .. العراقية ، وما اليها من ألفاظ كثيرة فى المشرق والمغرب ؟ ولقن ، وماشى الحال ، وبدى . فى سورية ، ومعنى كلمة العافية فى المشرق الصحة ، وفى المغرب بمعنى النار ، وقناوية فى تونس ، بمعنى بامية ، وعظم ، أى بيض ، وقعمز ، بمعنى أقعد ، وإجا ، بمعنى تعال ، وهنز ، بمعنى أنقل ، و .. سفنارى ، بمعنى جزر . لهجات بعيد بعضها عن بعض ، أستطيع المجىء على كثير منها ، لولا خشية الاطالة . غير أن الفصحى .. هى سبيلنا الوحيد للتفاهم والتخاطب .

ما أجدر أمتنا ، أن تعنى بها ، وتعلمها لاخوتنا المسلمين فى كل مكان . أكرر بانها الرابط ، بعد العقيدة السمحة .. التى تجمعنا ، كأمة أعزها الله بالاسلام ، ولغة القرآن ، اللغة الشاعرة ، كما ينعتها كاتب العربية العقاد .

مَثل مِن الحيـاة

ما أكثر ما تدور من أحاديث .. عن عمل المرأة وخاصة فى صحافتنا ، وقد فرغ غيرنا من ذلك منذ وقت غير قصير . غير اننا ما زلنا نتلمس اثار خطانا على الرمال الناعمة ، بعد ان تهب علينا السافيات .

والحديث طال ، ويطول اكثر عند الذين يستهوبهم الجدل الذى لا ينتهى حتى وان ، ضاعت النتائج ذلك .. ان الجدل ، طبيعة ، او مرض ، او خاصة ، وعادة . نقرأ ونسمع ان الذين يتحدثون كثيرا ، يعملون اقل او لا يعملون لا أدرى هل الطاقة تذهب .. فى الحديث ام .. ان عملا وكلاما .. لا يتفقان او لا يكونان .

المهم فى الامر ، أننى أبصرت زوجين ، رجلا وامرأة لهما طفلان وكلاهما يعمل .. والمرأة .... حامل . هى تعمل مدرسة صباحا ، وهو يعمل بعد الظهر ، هى جامعية ولكنها ضعيفة جدا .. فى معلوماتها ، وقد تعجب وتتساءل .. كيف اجتازت المرحلة الجامعية ومعلوماتها العامة لا تتجاوز طالبة فى الاعدادية ، لذلك .. وضعوها .. فى الصف الثانى الابتدائى .

وهو .. تخرج فى السنة الثالثة الاعدادية ، ولم يجتزها ، وسن الزوجين متقارب ، ربما هو يكبرها بخمس او ست سنوات .

تذهب هى لعملها صباحا ، فيحملها بسيارته الى المدرسة ثم يعود الى المنزل ريثما يصحو الطفلان .. احدهما لم يبلغ الثالثة والاخر ، لم يبلغ الثانية حتى اذا استيقظا ، قام بشؤونهما .. فى دورة الميـاه ، وتغيـير ملابسهمـا ، وافطارهما . ويتفقد بعد ذلك . حاجة المنزل فى مطالبه اليومية ليحضرها من السوق ، مصطحبا معه طفليه ، حتى اذا جاءت الساعة الثانية عشرة انطلق الى المدرسة التى بها زوجه ، فأخذها وعادا الى البيت ليبدءا فى طهو غذائهما ، وربما قام هو بالطهو .. قبل عودة الزوجة من المدرسة .

حتى اذا كانت الساعة الثالثة بعد الظهر ، مضى هو الى عمله وبقيت هى فى المنزل .. ترعى الطفلين ، وتقوم بشئون المنزل ، الى ان يعود الزوج من عمله .. الساعة التاسعة ليلا ، فتناولا عشاءهما ، ويقضيان ساعة او اثنتين امام التلفاز ، ثم يأخذا طريقهما الى الفراش للنوم ،

هذه صورة .. شاهدتها ، وغبطت الرجل .. على سعة صدره ، وصبره .

ولم ارتح للصورة التى شاهدتها كل الارتياح ، ذلك ان امرأة تعمل ، وبطنها امامها .. من الحمل . والرجل يرعى طفلين .. دون وجود من يساعده .. عليهما ، كالاقرباء ، او المربيات غير ان للضرورات احكاما .. كما يقولون ، لعل ظروف الحياة .. لها تأثير .. على عمل هذه المرأة ، وان كانت وجهة نظرها .. من جهة اخرى هى انها قد تخرجت فى الجامعة ، بعد سنين طوال .. من الدراسة ، لذلك فانها ترى ان يكون لها دور فى مجال الاعمال ، ليكون لسنى دراستها مردود . رغم انها لا تدرس .. فى مواد تخصصها وليست قوية فيما تخرجت فيه .. ولكن المظاهر ، كثيرا .. ما تغلب على الناس فتدفعهم الى أشياء .. لا يحسنونها ، ولكنهم يمعنون .. فيها . حتى لا يكونوا فى نظر أنفسهم ، وفى نظر الاخرين .. متخلفين او مقصرين ، او غير قادرين ، رغم انهم قطعوا شوطا .. فى مجال التعليم .. وهذا يتطلب ان تنهض بالاعمال العامة ، او على الاقل .. التى تتفق والميول او تتناسب .. مع طبيعة الانسان .

قلت : ربما كانت ظروف الحياة .. دافعا لعمل هذه المرأة اما ما عدا ذلك فانى ارشحها مثلا لو كان لى من الامر شئ .. الى المشاركة المحدودة ، فى برامج محو الامية او الجمعيات النسائية وبعض الانشطة ، التى تشغل جزءا محدودا من وقتها خلال الاسبوع حتى لا تشعر بفراغ نفسى ، فتحس انها امرأة عندها ليسانس ، ولا تشارك فى عمل ما ، خارج ساحة بيتها ، حتى لو كانت أما لاطفال ، وتجدد الانجاب وعندها زوج .

أنا أرشح فتاة ، لم تتزوج بعد ، وأرشح سيدة ، لمثل هذه الاعمال العامة ، ولكنى .. لا ارشح سيدة ، خلفها اطفال ، ويتجدد انجابها ، حتى لو كان زوجها .. يشاركها مسئولية التربية او رعاية الاطفال وقت غيابها . وربما استثنى من ذلك ظروف الحياة ومطالبها .. فى نطاق ضيق ، ذلك ان دور الرجل

فى الانفاق هو الرئيسى .. وأعود . فأقول .. للضرورات أحكام . ولكن فى غير الضرورة ، واذا زال السبب فمن الصعب ، عمل المرأة .. على هذه الصورة .. التى أتت . انما تستطيع ان تتوسط فى العمل ، حسب ظروفها ، وحالها ، وطاقتها وامكاناتها .

ولست .. بتقديم هذه الصورة ، والتعليق عليها .. أريد الدخول فى متيهة مناقشات لا قرار لها ، ولكنها صورة رأيتها واحتككت بها من قرب ، فوددت ان أقدمها .. فى شىء من التجرد .. غير قليل .. حتى يتبين ، أو يدرس .. من يريد أن يتخذ قرارا .. فى مثل هذه المواقف ، عن قناعة ، وادراك عريض .. لحقائق الامور .. وملابساتها من تجارب الاخرين وظروفهم ..

من أحاديث الحياة

* « القرية » بضع .. من كيان الوطن الغالى العريض ، بحبات ترابها ، وفى موقعها الجغرافى ، سواء .. كانت ساحلية ، او فى شموخ الجبال ، او حتى فى بقعة .. من الصحراء القاحلة ، قيمتها .. فى نفسها ، لانها عضو ، من اعضاء الجسد ، الذى هو الوطن ، فى شمول .. موقعه .. من عالم الارض ، والوطن .. وحدة لا تتجزأ ، كله غال ، وكله مهم ، له كل الحب ، وله الايثار .. ونعترف .. ان المملكة اكثر ارضها قاحلة ، نادرة الامطار ، قاسية المناخ ، صعبة المسالك ، كبيرة المساحة ، قليلة السكان ، فنجد الكثافة .. تتمركز فى المدن الكبرى ، ليسر العيش فيها ، وتوافر اوجه الحياة الرغدة ، رغم كثرة مطالب الحياة فيها ، ولكنها هينة ، بعكس .. القرية ، ولا سيما البعيدة منها ، الذى يوصف .. بالمعاناة ، والانسان .. فى مختلف الظروف .. يألف ما يجد ، ذلك طبع النفس البشرية .

* وكثير من قرى المملكة ادركتها سبل الحياة العامة ، فتطورت ، وعاشت حياة ، اشبه بحياة المدن ، يحمل اليها ما تزخر به المدن الكبرى ، فخرجت من الشظف ، وقلت فيها .. تكاليف الحياة وعناؤها البدائية ، فنجد الكهرباء .. والغاز ، وتتغذى على المعلبات .. التى يتناولها .. سكان المدن ، وعم فيها التعليم ، وانفتحت .. على الحياة ، من مختلف ابوابها ، وحلت السيارة .. محل الدابة ، ذلك ان الطرق المعبدة ، ذللت الصعب .. من الارض ، وجعلت الاتصال .. بالمدن ميسورا ، وحفرت الابار الارتوازية ليسقى .. منها سكان القرى ، ويزرعون ، ويربون الماشية ، الى جانب المرافق الاخرى المختلفة ، التى يحتاجها .. الانسان فى حياته العامة ، حتى سبل الترفيه ، من راديو وتلفاز ، ليشاهد .. ساكن القرية ويسمع ، ما يشاهده .. ساكن المدينة ويسمعه ..

* والحكومة ، اهتمت بالقرية لتعمر باهلها ، ويستقروا فيها ، وهى سياسة مثلى ،لتبقى الجذور ، وحتى لا تغص المدن .. بالهجرة ،من القرى .. اليها .

والبناء .. مسئولية ، وتبعة صعبة ، وقد تكمن الصعوبة .. فى بعد القرى ، وقلة سكانها ، وتحقيق .. كل السبل ، يتطلب زمنا ، وتخطيطا ، ودراسات .

* وفى تقديرى ، ان الاسس .. لاحياء القرى ، تنحصر .. فى :

١ ــ شق الطرق اليها ، لتتصل بالمدن فى يسر وسرعة
٢ ــ توفير الماء .. للسقيا اولا ومازاد .. فلزراعة ما يمكن زرعه
٣ ــ ايجاد الكهرباء
٤ ــ العناية الصحية
٥ ــ بناء المدارس
٦ ــ ايجاد المرافق العامة ، كالبلدية .. وما اليها .

وقد توفر الكثير من ذلك للقرى والعمل يجرى .. لاستكمال الجوانب الاخرى .. فى الميزانيات المتتالية ، تبعا .. لاختصاص كل وزارة وجهاز فى الدولة ، وحسب سبل التنفيذ ، والانجاز .

* ولم تكتف الحكومة بذلك ، بل هى توفد امراء المناطق الكبرى التى تتبعها القرى ، فيتجولون ، ويتفقدون النقص ، ويستمعون .. الى مطالب سكان القرى .. وما يحتاجون ، ويقفون بانفسهم .. على تلك المطالب ، ثم يعودون .. بقناعاتهم ، ويسعون .. الى توفير المتطلبات ، الأهم .. فالمهم .

* وتشكل لجان ، من مختلف الوزارات تزور القرى ، وتنظر فى حاجاتها ، ثم تكتب التقارير ، بما يتراءى لها ، وتأخذ دورها ، الى الدرس ، ثم تحقيق المطالب ، ربما .. على مراحل ، وقد ينصرم الزمن ، ولا يتحقق الا .. الاقل مما يحتاج اليه .

* هناك قرى .. فيها غنى ، وقدرة .. وتساعد ظروفها المناخية .. على عمل الكثير ، بمشاركة ابنائها .. فى بنائها ، بعد ان تتواصل فيها .. الشرايين الاساسية ، واهمها الطرق .

* وهناك قرى ، مناخها صعب وليس لاهلها قدرة .. على المشاركة فى بنائها بالمال ، لذلك .. فهى تحتاج الى تكاليف اكثر ، ولكن اذا توافرت لها السبل الاساسية ، التى اشرت اليها آنفا ، فانها تستطيع ، ان تنهض ، كالطرق ، والماء ، وهما اساسيان ، يتبع ذلك .. العناية الصحية ، والطاقة الكهربائية .

* وحين نستعرض التاريخ .. غير البعيد ، نجد .. ان قرى كانت مزدهرة ، ولها شأن ، ثم قعدت بها الحياة ، وارتفع شأن قرى اخرى ، كانت .. من قبل فيما يشبه السبات .

واذا كان هذا .. من سنة الحياة فى هذا الكون .. فان تلك القرى ، التى كان لها ماض ، جديرة .. بان يصبح لها حاضر ، على نمط ما ، لتقف بجانب لداتها .. تنعم بالحياة الكريمة ، فهى على جزء عزيز .. من الكيان العريض وحتى تستمر .. فى حلمها الجميل حين تصل الماضى .. بحاضر مشرق ، وهى تنال حظها ، من الرعاية والاهتمام .. فى مختلف جوانب الحياة العامة .

تحركات مندوبى الصحف :

* فى السنوات الاخيرة ، ربما .. لا تزيد عن ثلاث ، تحركت صحافتنا ، بشىء من ادراك .. لدورها ، وتحملا لتبعاتها ، فاخذت .. تبعث بمندوبيها ، من محررين ومصورين .. الى المدن والقرى .. التى لا توجد فيها صحافة ، ولا مكاتب للصحف .. وفى ظنى .. ان دور مكاتب الصحف ، فى المدن والقرى ، ما زالت بعيدة .. عن القيام بدورها .. كما يجب ، اما ان القائمين عليها .. مشغولون باكثر من عمل ، او انهم يركزون .. على الاخبار المحدودة ، او وفق ظروف الاخبار نفسها ، او بمشاركة .. بما يكتبون .. من انطباعات ، وكل واحد .. يريد ان يكون كاتبا ، وتحول الى كاتب بحكم هوايته ، او مجاراة لغيره ، وانشغل كذلك .. بالاعمال الادارية ، التـى هى الاســاس ، فى الحصول .. على الاعلان ، وتوزيع الصحيفة ، وتوسيع انتشارها ، فى الاسواق ولا غبار .. على هذا المسلك ، لانه اساسى .

* واذا كان هذا دور مكاتب الصحف ، فى مدن .. تصدر فيها صحف اخرى ، فان المؤسسات الصحفية ، شرعت .. خلال العامين او الثلاثة الماضية ، تبعث برسلها .. الى القرى ، والمدن .. التى لا تصدر فيها صحف ، يتحدثون الى

المسئولين ، وينقلون صورا ، وانطباعات ، عن هذه القرى المختلفة ، والمدن الصغيرة ، وينشرون مطالبها ، ويلفتون النظر ، الى النقص ، ويتحدثون .. عن العادات ، والمناخ ، والطبيعة ، وما تلتقطه حواسهم الصحفية ، لانهم يرودون مناطق جديدة عليهم ، وقد يلاقون شيئا من عناء ، فى السكن والاقامة ، ولكنهم لا يعدمون الاحتفاء بهم ، والضيافة ، لان هذه الخصلة الكريمة ، ما تزال باقية ، ولا سيما فى القرى ، التى .. لم يدركها الطابع .. الذى لبسته المدن ، فغاب عنها .. كرم الضيافة ، وهى لم تعد .. الا للمعارف والاصدقاء فى اضيق نطاق ، فقد تأثرت ، بما يجرى .. خارج الوطن ، فانت .. لا .. يعزمك هناك .. الا ذو مصلحة معك ، او علاقة قوية ، وغالبا .. ما تكون الدعوة .. فى مطعم .. من المطاعم العامة ، فالسيدات .. فى المجتمع المتحضر اليوم ، لا تتحملن عناء الطهو .. للضيوف ، ولا يستطيع الكثير .. من الرجال ، ان يكون صاحب الكلمة النافذة .. فى هذه الامور .

* وحتى .. لا اسرح مع هذه الصور ، اقول : ان مندوبى الصحف ومصوريها ، اخذوا يغربون ، ويشرقون ، بتكليف من اجهزة التحرير ، يجرون المقابلات ويكتبون انطباعاتهم ، واكثرهم من الهواة ، لان هذه المهنة ، واعنى بها الصحافة ، ليست مغرية ، تدفع .. الى ركوب المصاعب ، وتحمل المشاق ، وانما هى هواية ، ووظيفة .. فى حدود الامكانات المتاحة .

* وفتح المندوبون الابواب لصحفهم ، كى تصل .. الى مناطق .. ما كانت لتصلها من قبل .. واقاموا علاقات ، اوسمة تعارف ، مع المكتبات المنتشرة .. فى المدن والقرى .. ذلك .. ان الوعى يزحف مسرعا ، فالعلم انتشر .. بما اتيح للانسان .. ان يتزود منه ، ويكون معارفه ، بالمدارس المنتشرة .. فى شتى القرى ، بان العلم سلاحه .. فى نجاحه ، وهو عدته .. الى تحسين حاله ، ووضعه ، ورقيه ، فهو طموح ، وعرف السبيل .. الى تحقيق طموحه ، وجاءته وسائل المدنية ، ومنها .. وسائل الاعلام ، يسمع ويشاهد ، ويقرأ ، وجاءته الطرق المعبدة ، التى توصل قريته بالمدن الكبرى ، فرأى .. مالم يعرف ، واغراه .. ما رأى ، وتطلع .. الى هذه الحياة .. التى تختلف عن حياته فى القرية ، فقرر ان يأخذ منها .. ما يستطيع ، وما يريد ، واخذ يحلم ، بمشروعات ، وحياة .. يعروها الترف ، فهو يركب الطائرة ، وهى من عدد

المدنية اليوم ، وهجر الدابة ، وسافر الى خارج بلاده ، فرأى ما ادهشه ، وما اغراه ، فوطد عزمه ، على ان يحيا ، بعيدا .. عن قسوة الطبيعة واليسر من الحياة ، فى خضم حياة جديدة ، ربما لم يتخيل مصاعبها لانه لم يجربها وعرف ان الطريق اليها .. هو العمل الجاد ، واول خطوات العمل .. التعلم ، ووجد الطريق الى العلم ، ممهدا ، ميسرا فخطا نحوه ، وعنده زاده ، من الذكاء ، والصبر ، وربما الاناة .

خطوات مندوبى الصحف :

* تفقدت خطوات الاخوة .. مندوبى الصحف ، عبر سنوات تحركاتهم ، وحمدت لمؤسساتنا الصحافية .. هذا الاهتمام .. باجزاء وطنهم الغالى ، ليوصلوا صحفهم .. الى اقصى بقعة .. فى بلادهم ، ويعرفوا بها ، ويحققوا مكاسب معنوية ، ومادية ، رغم الصعوبات .. التى تعترضهم ، وهى الوسائل .. التى تحمل هذه الصحف الى كل مكان . فالطائرات .. تنتقل الى اماكن معينة ، وبعد المسافات .. يجعل الصحيفة ، لا تصل .. الى المناطق .. الا بعد اسبوع ، والمؤسسات الصحفية .. بكل قدراتها المحدودة ، لا تستطيع ايصال الصحيفة .. الى كل مكان .. داخل ارجاء المملكة .. فى يوم صدورها ، او حتى فى اليوم الثانى .

* ويوم تصبح عندنا .. قطارات سكك حديدية حديثة ، تصل اقصى الشمال باقصى الجنوب ، وشركات نقل برية ، بجانب الاسطول الجوى ، وشركة توزيع قوية ، ستصل صحفنا .. الى كل قرية ، فى مساء يوم صدورها .. باذن الله .

* هذه الصفحات ، او موضوع اليوم .. بداية حديث ، لموضوع الاسبوع القادم .. ان شاء الله .. من حصيلة رحلة سريعة ، بدأتها .. من جدة .. مع ساحلنا .. نحو الجنوب ، والطريق الساحلى ، لم يرده .. مندوبو الصحف ، وهو .. ما رأيت ان اشير اليه .. فى هذه السطور ، فلعلهم يرتادونه ، ليلموا به ، وهم يتجولون ، ويسيحون فى الارض ، داخل بلادهم ، يكتبون ، وينشرون فيعينون .. على الاصلاح[1]

(١) بقية هذا الحديث ربما ظهر فى كتاب جديد بعنوان « معالم »

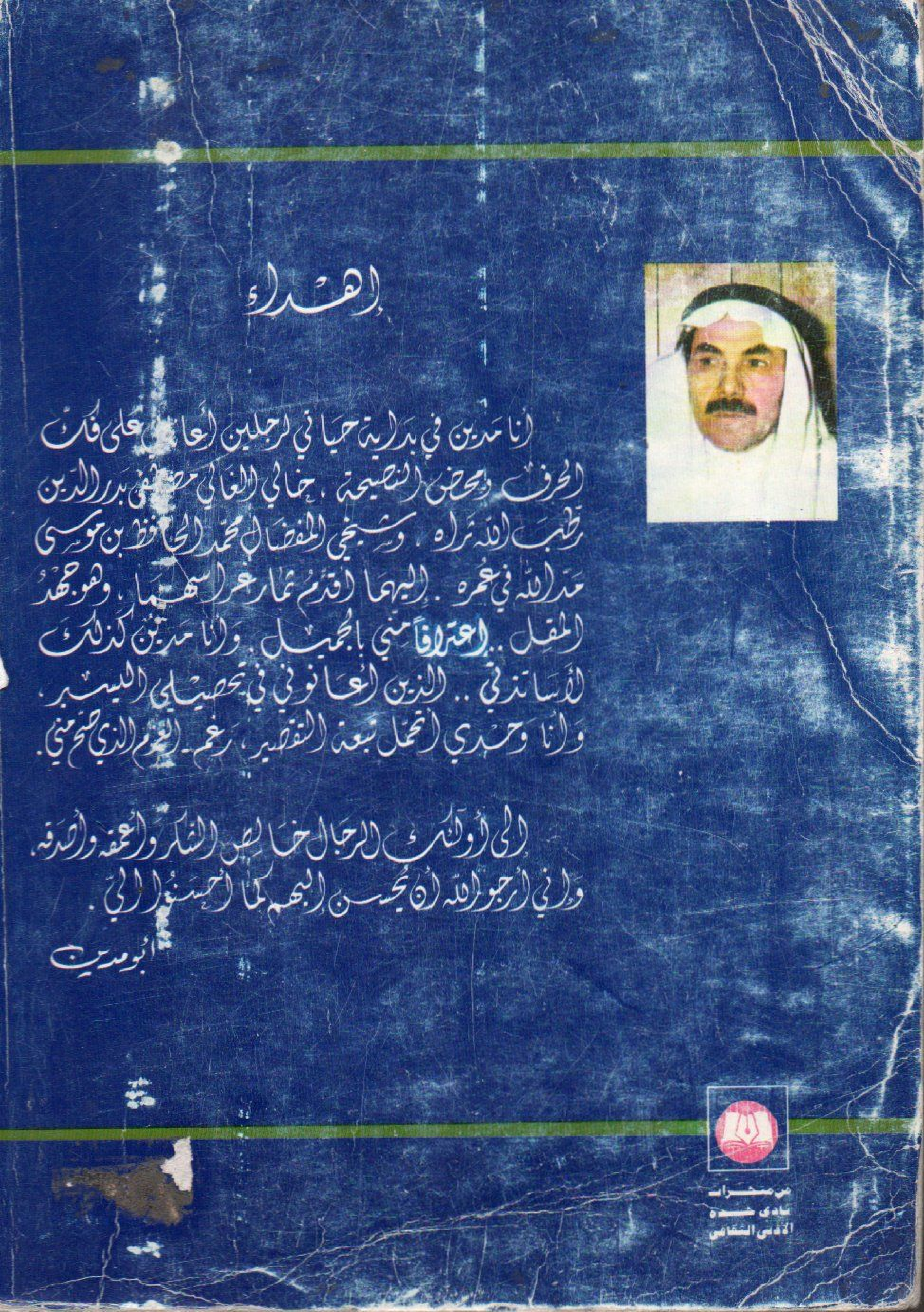


الفهرس

الموضوع	صفحة

إصدارات النادي

- شمعة على الدرب « نثر » للدكتور عارف قياسة ـ طبع
- اطياف العذارى « شعر » للشاعر مطلق الذيابى ـ طبع
- اوهام الكتاب « تصويبات لغوية » للشيخ ابى تراب الظاهرى ـ تحت الطبع
- كبوات اليراع « تصويبات لغوية » للشيخ ابى تراب الظاهرى ـ تحت الطبع
- عندما يورق الصخر « شعر » للاستاذ ياسر فتوى ـ تحت الطبع
- ورد وشوك « مطالعات » للاستاذ حسن عبدالله القرشى


إهداء
أنا مدين في بداية حياتي لرجلين أعا على فك
الحرف ومحض النصيحة، خالي الغالي مصطفى بدر الدين
طيب الله ثراه، وشيخي المفضال محمد الحافظ بن موسى
مد الله في عمره. إليهما أقدم ثمار غراسهما، وهو جهد
المقل.. إعترافاً مني بالجميل. وأنا مدين كذلك
لأساتذتي.. الذين أعانوني في تحصيلي اليسير.
وأنا وحدي أتحمل تبعة التقصير، رغم العزم الذي صح مني.
إلى أولئك الرجال خالص الشكر وأعمق الود.
وإني أرجو الله أن يحسن إليهم كما أحسنوا إلي.
أبو مدين
من مطبوعات
نادي جدة
الأدبي الثقافي